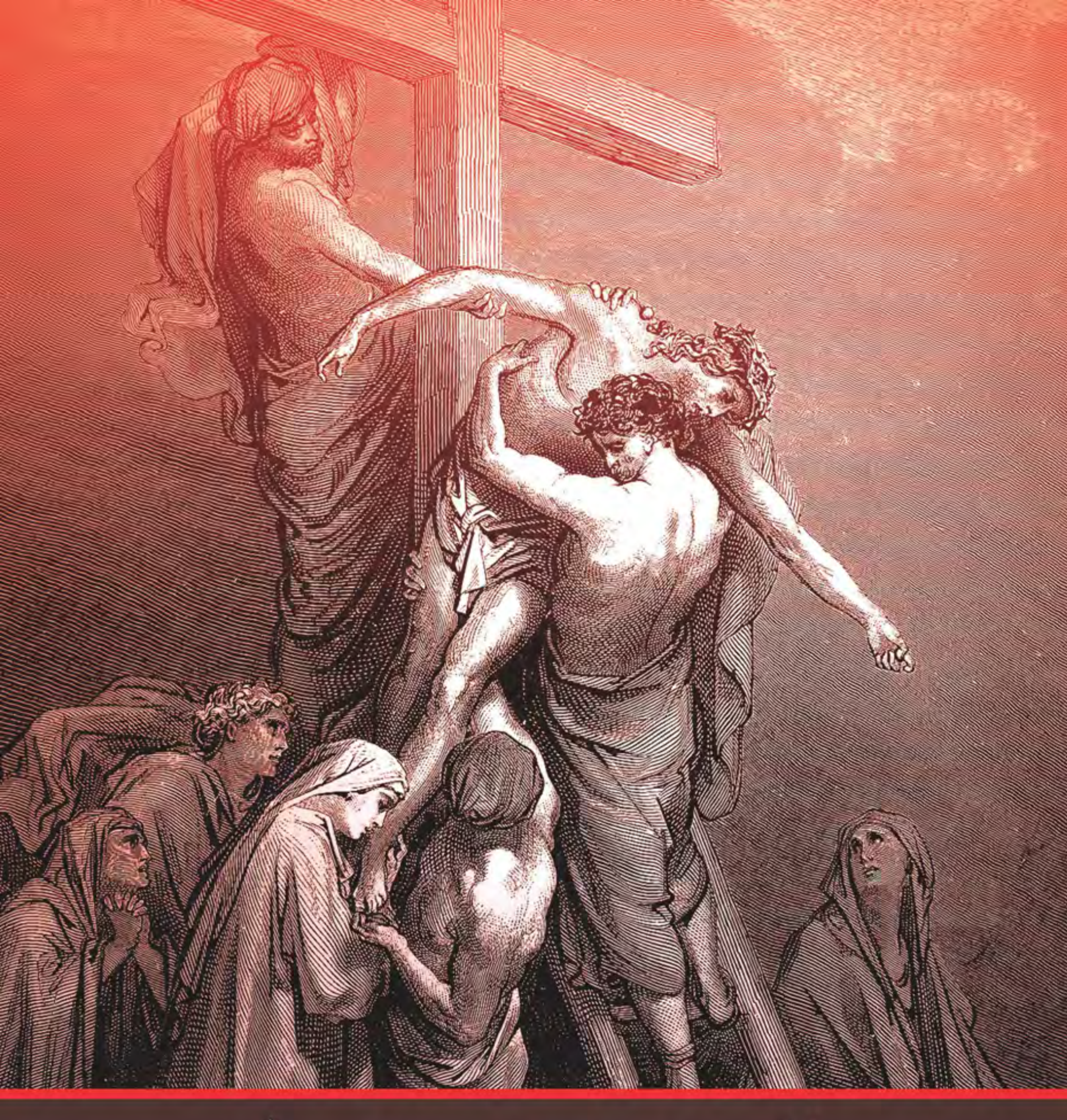


مَوتُ المَسِيحِ عَلَى الصَّلِيبِ

حسب تسليم الآباء

دكتور/ چورچ حبيب بباوي

موت المسيح على الصّليب

حسب تسليم الآباء

دراسة مقارنة لما ساد في بعض الكتابات القبطية في العصر الحديث عن الفداء والكفّارة

بحث تاريخي موثق من الوحي المقدس وكتابات الآباء
وصلوات الكنائس الأرثوذكسية ومؤلفات قادة حركة الإصلاح
البروتستانتية والفكر السائد في الكنيسة القبطية
الأرثوذكسية

٢٠٠٩

دكتور/ جورج حبيب بباوي
أستاذ اللاهوت بمعهد اللاهوت الأرثوذكسي
بجامعة كامبردج (سابقاً)

إسم الكتاب : موت المسيح على الصليب
المؤلف : الدكتور جورج حبيب بباوي
الناشر : الدكتور جورج حبيب بباوي
رقم الإيداع : ٨٧٤٥ / ٢٠٠٧
الطبعة الأولى : مارس ٢٠٠٩ ميلادية

المُحتَوَيات

الباب الأول

الفصل الأول

لوثر وكالفن والثمن الذي دفع على الصليب

المبحث الأول :

«دفع الثمن للآب» ووحدة جوهر الثالوث (ص ٦٨)

المبحث الثاني :

تطور الفكر الديني الأوروبي وتاريخ فكرة دفع الثمن (ص ٧٤)

المبحث الثالث :

النصوص الأساسية عند لوثر وكالفن عن دفع الثمن (ص ٨٥)

الباب الثاني

عــودة للأصــول

(ص ١١٩)

الفصل الأول

الغضب الإلهي وعقيدة الثالوث

المبحث الأول:

الغضب الإلهي وجوهر الثالوث الواحد (ص١٢٣)

المبحث الثاني:

الغضب بين الفكر السياسي واللاهوت الأرثوذكسي (ص ١٢٨)

المبحث الثالث:

الغضب الإلهي بين التعليم القبطي المعاصر وتعاليم كالفن (ص ١٤٩)

المبحث الرابع:

حمل الله الذي يرفع خطية العالم (ص ١٧٢)

الفصل الثاني
الكفارة والفدية ومدلولاتهما في الكتاب المقدس (ص ١٨٧)

تمهيد
الأصول الأولى لإستعمال كلمتى الفدية والكفارة

المبحث الأول:
الكــفـارة (ص ١٩٩)

المبحث الثاني:
الفــديــة (ص٢٠٩)

الفصل الثالث
الفدية حسب التسليم الآبائي للقدِّيس اثناسيوس الرسولي في كتاب تجسُّد الكلمة

المبحث الأول:
في الفصل ٢٥ من كتاب تجسد الكلمة (ص ٢٣٢)

المبحث الثاني:

الذبيحة والتقدمة والفدية في كتابات القديس أثناسيوس (ص ٢٤٠)

الفصل الرابع

الدَّين، والثمَنْ حسب أسفار الكتاب المُقدَّس وشرح الآباء

(ص٢٥١)

المبحث الأول:

الـدَّيـن (ص ٢٥٢)

المبحث الثاني:
الثـمن (ص ٢٧٩)

الفصل الخامس
الوسيط، والشَّفيع أو حاجتنا كبشرٍ للكلمة خالق الكل

المبحث الأول:
الكلمة الذي هو فوق الكل (ص٢٨٦)

المبحث الثاني:
الموت والعدل الإلهي بين تعليم الآباء، وتعليم بعض الإكليروس الأقباط المعاصرين (ص٣٠٧)

المبحث الثالث:
الخطية والموت بين التعليم القبطي المعاصر، وتسليم الآباء (ص ٣١٣)

المبحث الرابع:
التسليم الآبائي لعمل الرب يسوع كوسيط وشفيع (ص٣٢٥)

الفصل السادس

الإيمان المسيحي بين فقه اللغة والتسليم الآبائي

المبحث الأول:

«لأجلنا» و«عنا» وقضية الإعراب، وفقه اللغة (ص ٣٤٦)

المبحث الثاني:

كهنوت المسيح وذبيحة الصليب (ص٣٣٦)

المبحث الثالث:
«لأجلنا»، و «عنَّا» والتسليم الآبائي الخاص بموت المسيح (ص٣٧٢)

الباب الثالث
(ص٣٨٣)

الفصل الأول
الثالوث وآلام الرب

المبحث الأول:

الله الآب وموت ربنا يسوع المسيح على الصليب حسب شهادة الأسفار المقدسة (ص٣٩١)

المبحث الثاني:
اللّه ومطالب الناموس أو الشريعة (ص ٤٤٥)

المبحث الثالث:
«بدون سفك دم» و «كأس الخلاص» (ص٤٦٦)

الفصل الثاني

الصليبُ وعـــدل الله

المبحث الأول:

الكلمة اليونانية (البر) ηνυσοιακιΔ وتطبيقاتها في العهد القديم (ص ٤٧٩)

المبحث الثاني:

البر والعدل والتبرير في العهد الجديد (ص ٤٨٣)

الفصل الثالث

الصليب وذبائح العهد القديم في اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي

المبحث الأول:

تقدمات العهد القديم المُستخدَمة في الليتورجية للتعبير عن ذبيحة المسيح (ص ٦٢١)

المبحث الثاني:

ذبيحة الإفخارستيا التي تقدمها الكنيسة (ص ٦٢٥)

الفصل الخامس

موت الرب بالجسد في اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي

المبحث الأول:

الاتحاد الأُقنومي «طبيعة واحدة للكلمة المُتجسِّد» (ص ٦٩٢)

المبحث الثاني :

طبيعة ودور الموت وعلاقة موت الإنسان بموت المخلِّص (ص٦٩٦)

المبحث الثالث:

علاقة القيامة بالصليب (ص٧٠٤)

الفصل السادس
الإفخارستيا عطاء الحرية، وحرية المحبة

المبحث الأول:
الإفخارستيا والتأويل الرمزي (ص ٧١٦)

المبحث الثاني:
فصح الرب هو فصح الكنيسة (ص ٧٢٠)

المبحث الثالث:

عشاء الرب بين فكر حركة الإصلاح واللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي (ص٧٢٩)

كلمة لابد منها

لِمَنْ، ولماذا كُتِبَت هذه الدراسة؟

لِمَنْ كُتِبَت هذه الدراسة؟

كُتِبَت هذه الدراسة لكل من يفضلون الشهادة الحسنة على الصمت، وإلى كل أُسقف وقس وعلماني وراهب وراهبة في كنيستنا القبطية المجيدة، تلك البقعة الطاهرة في أرض وتاريخ مصر التي لم تخضع للاحتلال أو الاستعمار، بل ظلت كنيسة الشهداء والآباء الظافرة بالحق الذي هو المسيح نفسه، الناهضة دائماً من الأوجاع والقبر لكي تحيا وتشهد للأُرثوذكسية في الحاضر وفي المستقبل للأجيال الآتية، فالمستقبل هو وديعة **الآتين بعدنا إلى الأبد** حسب كلمات أُوشية الاجتماعات، ولأن حُكم الأجيال الآتية هو الحُكم الأخير على ما نقول، وما يقوله الغير.

لماذا كُتِبَت هذه الدراسة؟

وجوابنا هنا أطول بعض الشيء.

بدايةً، يجب أنْ نشير إلى أنَّ شرح العقيدة الأُرثوذكسية، هو شرحٌ متعدِّدٌ لحقيقةٍ واحدةٍ. وتعليمٍ واحدٍ، صاغه قانون الإيمان واجتهد الآباء مُعلِّمي الكنيسة عبر العصور في شرحه بطرقٍ متنوعةٍ. فعندما كلَّم الله الآباء (بالأنبياء قديماً)، فقد

تكلم (بأنواع وطرق كثيرة) (عب ١:١)، فالله هو الذي أسس (طُرق الخلاص) [(١)] المتنوعة مِن أجل الاحتفاظ بالفروق الفردية، وخصائص حياة كل شخص. فقد كتب الإنجيليون الأربعةُ، أربعةَ أناجيل مختلفة عن (المسيح الواحد)، ومنح الروح القدس (مواهب مختلفة)، و(متنوعة)، رغم أنَّه الرب الواحد الذي يُوزِّع هذه المواهب. إلاَّ أنَّ تعدُّد وتنوُّع مواهب الروح القدس، هي غنىَ الله ورحمته، ومحبته لكل عضو يختلف عن العضو الآخر في ذات الجسد الواحد (راجع فصل تعدد المواهب ١كو ١٢ إلى آخر الإصحاح)، بل يعود تعدُّد الشرح إلى حقيقة هامة قد تغيب عن البعض، وهي حقيقة تثليث الأقانيم، فالثالوث هو تعدُّد الأقانيم الإلهية في جوهرٍ واحدٍ، وتعدُّد الأقانيم يؤكد لنا أنَّ الآب غير الابن ... هذا هو ما نُدركه مِن اختلاًف الأسماء الإلهية، أي الآب والابن والروح القدس، ونُدركه مِن الإيمان نفسه؛ لأنَّ الهرطقات وحدها، مثل هرطقة سابليوس، هي التي أنكرت (تثليث الأقانيم)، أي تمايُز الأقانيم، فالآب غير الابن والابن غير الآب، ونفس ما نقوله ينطبق على الروح القدس. هذه الغيرية تؤكد لنا أنَّ تثليث الأقانيم هو مصدر تنوُّع المواهب، وتنوُّع الخليقة، وتنوُّع الوجود نفسه، مِن وجودٍ مادي، إلى وجودٍ حي، إلى وجودٍ روحي، إلى ما قد نكتشفه في مستقبل الأيام ... وكل هذا يقودنا إلى حقيقةٍ واحدةٍ، هي الثالوث الواحد المساوي غير المنقسم: **الواحد**؛ لأنَّ الجوهر الإلهي هو الغِنى المطلق الذي منه يأتي كل غِنى، **والمثلث** الأقانيم؛ لأنَّ التنوُّع يؤكد لنا ثلاثة أشياء هامة عن الله، وعن التعليم المسيحي كله:

أولاً: خلق الله كل كائنٍ بقدراتٍ مختلفةٍ، ومواهب مختلفةٍ، لكي يتحوَّل الاختلاف إلى غِنى ووحدة، واًختلاف المواهب وتنوُّع القدرات هو أساس إيماننا بحرية الاختيار عند الإنسان.

ثانياً: يقود الله الخليقةَ نحو أهم صفات جوهره الإلهي المعلنة في الأقانيم

(١) "طرق الخلاص" تعبير دقيق قديم يعود إلى العصر الرسولي، سجَّله العلاَمة أوريجينوس في شرح إنجيل يوحنا عند تعرضه لشرح ألقاب السيد المسيح المتعددة: كراعٍ وملك ومخلص (شرح إنجيل يوحنا ١ :٢٣). والبعض يخلص بمعمودية الماء والروح، والبعض يخلص بمعمودية الدم كالموعوظين الذين نالوا إكليل الشهادة، أو معمودية النار مثل الشهداء حيث يعتمد الشهيد بالنار التي يحترق فيها من أجل اسم المسيح.

الثلاثة، وهي صفة المحبة، والمحبة لها غاية تسعى إليها، هي الاتحاد، والاتحاد الحقيقي، هو بين من يختلفون في القدرات والمواهب.

ثالثاً: ينال كل كائنٍ مكانه الخاص به في الجسد الواحد، فالرسول بولس يؤكِّد أنَّ الجسد الواحد مُركَّبٌ مِن عدة أعضاء، هي مثل العين والأُذن واليد والقدم .... الخ. هذا التنوُّع هو مِن أجل الجسد الواحد. وهكذا يرسم الله نفسه، بل يطبع التنوُّع لكي ينمو الجسد بحريةٍ متجهاً إلى المحبة، وسائراً بالاتحاد نحو الله نفسه.

تنوُّع الشرح يحفظ وحدة الكنيسة

لدينا أكثر مِن شرحٍ للصلاة الربانية، فحسب الترتيب التاريخي، شرحُ العلاَّمة ترتليان، العلاَّمة أوريجينوس، ذهبي الفم، النيصي، القدِّيس كيرلس الإسكندري، ثم شرح عُلماء العصر الوسيط، مثل زكريا بن سبَّاع مُؤلِّف الجوهرة النفيسة، وقد اقترب كل واحد مِن هؤلاء مِن الكلمات المُقدَّسة بطرقٍ مختلفةٍ، وشرحٍ متنوُّعٍ، وزاد إدراك الكنيسة لمعاني كلمات الرب. ولدينا أكثر مِن شرحٍ لقانون الإيمان، وأكثر مِن شرح للعقيدة الأُرثوذكسية، وحسب الترتيب التاريخي نجد أولاً كتاب "المبادئ" للعلاَّمة أوريجينوس، ثم عظات القدِّيس كيرلس الأورشليمي، والسجود بالروح والحق للقدِّيس كيرلس الإسكندري، وغيرها مِن مؤلفاتٍ شرح فيها الآباء العقيدة المسيحية بطرق متنوعة وحسب الظروف الموضوعية التي كان الإيمان يحتاج فيها لأكثر مِن شرح. وتنوُّع الشرح يحفظ لكل واحدٍ مِن مُعلِّمي الكنيسة مكانه في التسليم، وفي جسد المسيح الواحد، الكنيسة، كذلك يعتبر التنوُّع مصدراً للوحدة؛ **لأنَّنا نتَّحد بما نختلف عليه، وما نختلف عليه هو ما يجعل تمايُز كل شخص سبباً للوحدة.** نحن نتَّحد بمَنْ هو مختلفٌ عنا في فهم وإدراك المعاني الكامنة في النصوص المقدَّسة، وفي مستويات الإدراك الإنساني لا يمكن أنْ يتفق الكل على ما يُدركه كل واحدٍ على حدةٍ، ولكن الكل يتفق على الهدف أو الغاية التي لأجلها وُضِعَت العقيدة، وهكذا تتَّحد الكنيسة في تنوُّع الشرح لأنَّها تسمح بالحرية، وبتعدُّد الرؤى لكي

ينمو كل إنسان حسب فهمه وحسب الهدف التي تحدده العقيدة. وما يلفت النظر هنا هو اتفاق هذه الشروح المتنوعة وانسجامها مع ليتورجية الكنيسة، وهذا هو ما حَفِظَ وحدتها، وأكّد أن الإيمان واحد.

الفرق بين الشرق والغرب

تطرح هذه الدراسة عدة موضوعات لا يمكن فصلها عن بعضها.

أولاً: تنوُّع واختلاف شرح موت الرب على الصليب مِن أجل الخلاص.

ثانياً: إنَّ الإيمان بالثالوث هو الركن الأول لعقيدة الخلاص، والتي لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً بدون الإيمان الصحيح بالثالوث القدُّوس.

ثالثاً: أهم الفروق بين الشرق والغرب.

وإذا أخذنا هذه الموضوعات الثلاثة –كمثال للفروق– لوجدنا أنَّه بينما شَرَحَ الغربُ العقيدةَ شرحاً عقلياً مُؤسساً على الفلسفة والفكر الاجتماعي السائد آنذاك، فإنَّ الشرق الأُرثوذكسي حَرِصَ على الاحتفاظ بحقيقة موت الرب على الصليب وقيامته كمحور للمُمارسة الليتورجية، والحياة النُسكية. نحن نموت مع المسيح ونُصلبُ معه ونقوم معه في المعمودية، وفي الإفخارستيا ننال الجسد الذي وُهِبَ لنا بموت الرب، والدم الذي سُفِكَ عنا ولأجلنا وقُدِّمَ لنا في كأس العهد الجديد، وهكذا لا يمكن فصل شرح موت الرب على الصليب عن سِّر الإفخارستيا.

رابعاً: تُبرز هذه الدراسة اهتمام الشرق بالمحبة الإلهية، وبالصلاح الإلهي الذي أُعلِن لنا مِن الآب بالابن في الروح القدس، فالإيمان بالثالوث يشرح لنا التجسُّد والصليب والقيامة، والخلاص هو عمل الروح القدس فينا الذي يأخذه من المسيح، وينقل إلينا حياة الرب نفسه.

الشرح العقلي الغربي، والشرح النابع مِن الليتورجية

لقد شَرَحَ آباء الكنيسة الغربية الذين نحترمهم – وإنْ كُنَّا نختلف معهم مِن أجل الاحتفاظ بخصائص الأُرثوذكسية – موت الرب على الصليب بطرقٍ فلسفيةٍ وقانونيةٍ عقليةٍ مِن أجل تأكيد الإيمان والدفاع عنه. هذا شرحٌ يُفيد الذين يُفكرون ويتأملون الإيمان ويدرسونه حسب قواعد المنطق والفلسفة. وشَرَحَ آباء الكنيسة الشرقية، موت الرب على الصليب للموعوظين مِن أجل شرح المُمارسة الكنسية، أي الليتورجية، وبينما أبرز الشرقُ الصلاحَ والمحبة الإلهية، أبرز الغربُ العدلَ الإلهي وإرضاء الله، وذلك استجابةً لأسبابٍ سياسيةٍ؛ لأنَّ الغرب لم يفصل الإيمان المسيحي عن الفكر السياسي. ولأنَّ الإمبراطورية المسيحية التي أسسها شارلمان لا تقبل مجانية النعمة، فهي تحصر المحبة في إطار العدل لأنَّ هذا يخدم النظام السياسي. أمَّا الشرق الذي فصل بين الفكر السياسي والإيمان، فقد حَفِظَ العدل كجزءٍ مِن المحبة الإلهية، وفَهِمَ العدل الإلهي بشكلٍ يختلف عن العدل الأرضي، عدل المحاكم والقانون .. وهذا هو الفرق الأساسي بين الشرق والغرب، الأمر الذي يتطلب مِنا يقظةً روحيةً خاصةً، حتى لا يهدم الشرح السياسي للإيمان ما نمارسه في الليتورجية.

ومِن هنا نستطيع أنْ نؤكد أنَّ العبرة في شرحٍ ما – في حالة تعدُّد الشروح – هي بمدى انسجام هذا الشرح، أو غيره مع عقيدة الثالوث ومع المُحتوى الليتورجي الذي تعيشه الكنيسة. ولذلك تُملي علينا اليقظة الروحية ألا نُفرِّط في تراثنا الروحي، وألا نهدم ما تُقدِّمه الليتورجية في سهولة ووضوح عن موت الرب؛ لأنَّ ما تُقدِّمه الليتورجية، هو ما تأصَّل في الحياة الروحية الأُرثوذكسية، وهو ما نمارسه في الأسرار، وهو ما يشهد له الآباء باعتباره الممارسة اليومية الحية للإيمان المسيحي.

خطة الدراسة:

لا شك أنَّ "موت المسيح على الصليب"، هو عقيدةٌ أساسيةٌ مِن العقائد المسيحية المُسجَّلة في قانون الإيمان، ويؤمن بها كافة المسيحيون في العالم على اختلاف طوائفهم ولُغاتهم وجنسياتهم. فإذا كانت العقيدةُ واحدةً، والشرح مُتعدد، فليست هذه إذن دراسةٌ للتكفير، بل لوضع النقاط على الحروف. وبما أنَّه يجب على كنيستنا القبطية أنْ تحمل عبق وروح الآباء إلى القرن الواحد والعشرين، لذا وجب علينا أنْ نحمل هذه الأمانة على عاتقنا، ونعيد اكتشاف شرح الآباء للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية، ومدى تطابق هذا الشرح وصلوات الكنيسة، وهو أعمق معنى للأُرثوذكسية. هذا من جانب، ومن جانب آخر نحاول إبراز تأثير كتب الإرساليات البروتستانتية على الفكر اللاهوتي القبطي المعاصر الذي يظهر وبوضوح في بعض الكتابات القبطية المعاصرة مثل كتابات البابا شنودة، والأنبا بيشوي.

وغني عن البيان أن الفكر الأوروبي كان في حقيقته استجابةً لظروف فكرية وسياسية ولاهوتية تتعلق بما تطور إليه الفكر الكاثوليكي في العصور الوسطى، والذي يعتبر المصدر التاريخي واللاهوتي للفكر البروتستانتي الذي جاء به عصر الإصلاح في القرن السادس عشر.

ولا شك أنَّ كنيستنا القبطية قد مرت بظروفٍ عصيبةٍ ليست خافيةٍ على أحد، كانت نتيجتها أنْ انقطعت الصلة بينها وبين فكر الآباء نتيجة لاستبدال اللغة اليونانية باللغة القبطية، وترك اللغتين معاً إلى اللغة العربية على مر العصور، وإذا كانت هذه العملية قد استغرقت عصوراً طويلةً [٢]، فتلك العصور نفسها هي أدق تعبير عن شُقة البُعد بين حال الكنيسة، وافتخارها بانتمائها إلى الآباء.

وإذا كانت الكنيسة القبطية قد ظلت محتميةً بصلواتها - والتي تعتبر في حد ذاتها أدق صيغ تُعبِّر عن الإيمان - في تلك الفترة التي تكاد تكون خلت – إلاَّ

(١) استغرق هذا الفترة من القرن العاشر حتى العصر الحديث، أي منذ بداية التأليف باللغة العربية.

قليلاً –مِن نتاج فكري يضمن التواصل مع تسليم الآباء، فإنَّ ذلك هو ما ظل ينفخ فيها نسمة الحياة. هذه الظروف نفسها هي التي سمحت للفكر الكاثوليكي والفكر البروتستانتي أن يتغلغل شيئاً فشيئاً حتى يبدو وكأن هذا الفكر – إلاَّ قليلاً ـ هو المعبِّر الوحيد عن الإيمان [٣]. فلولا صلوات الكنيسة التي بقيت كما هي دون مساس، لضاعت إلى الأبد هوية الكنيسة القبطية، ولفقدت الأُرثوذكسية أعمقَ مُعبِّرٍ عنها.

إنَّ ما نقوله هنا ليس افتراءً ولا تهويلاً للأمر، وإنما هو رصدٌ للواقع بكل تفاصيله. وإذا كانت دراستنا هذه هي عن موت المسيح على الصليب، فإننا نحتاج إلى دراساتٍ أُخر تتناول غيرها مِن العقائد مثل عقيدة الثالوث، العقيدة الأولى في الأرثوذكسية.

هذا الواقع ذاته، هو ما أملى علينا منهج الدراسة، حيث أثبتنا في فصل تمهيدي الشرح الغير الأُرثوذكسي لهذه العقيدة في كتابات بعض المعاصرين الذين يحتكرون التحدث بلسان الكنيسة القبطية، ومدى تعارض هذه الكتابات مع صلوات الكنيسة. ومِن ثمَّ، في ثلاثة أبواب ضمت فصول هذا الكتاب أثبتنا أنَّ فكر هذا البعض يتطابق وفكر مارتن لوثر ويوحنا كالفن، وغيرهما مِن زعماء حركة الإصلاح البروتستانتي، وقُلنا صراحةً لماذا نرفض هذا الفكر؟ وقد كان سلاحنا في ذلك هو الركون إلى صلوات الكنيسة وشرح الآباء للكتاب المقدس. فمِن خلال هذه الصلوات وذلك الشرح ناقشنا الكثير مِن المصطلحات التي يستخدمها كلا الفريقين، وأثبتنا أصالة تسليم الآباء لمفهوم الوسيط والشفيع والكفارة والفدية وغيرها من المصطلحات، ومدى ابتعاد هذا التسليم عن الإسقاطات السياسية والتجارية، تلك التي صبغت استخدام لاهوت العصر

---

(٢) بدأ ذلك بهجوم شرس تمثل في جهود حركة الإرساليات في نشر مؤلفات البروتستانت والكاثوليك مع مطلع القرن التاسع عشر ومحاولة فرض هذه المؤلفات على حياتنا الأرثوذكسية، ولكن كانت صلواتنا الأرثوذكسية والبدء في نشر كتب الآباء بداية اليقظة التي جعلتنا نرى الفرق الواضح الكبير بين الاثنين: التعليم الغربي بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي، والتعليم الأرثوذكسي الذي تعبِّر عنه صلوات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ومعها سائر الكنائس الأرثوذكسية.

الوسيط لهذه المصطلحات، فبينما عَمَّدَ الآباء الكثير مِن الكلمات والمصطلحات التي كانت سائدةً في عصرهم، وأعطوها معان جديدةٍ تُعبِّر أصدق تعبير عن بشارة الخلاص، نجد أنَّ منتجي لاهوت العًصر الوسيط قد سيَّسوا هذه المصطلحات وفسروها في إطار القانون التجاري، وفكر عصر الإقطاع السائد. فبدلاً مِن أنْ يحكم المسيح في كل شيء، أصبح المسيح خاضعاً لنظريات عقيمة وتحليل قانوني يحاول فرض القانون على الإنجيل، ولذلك لم نجد مناصاً مِن أنْ نُعيد اكتشاف شرح الآباء لصليب المسيح وعلاقته بذبائح وناموس العهد القديم من خلال العلاقة الثالوثية بين الآب والابن والرُّوح القدُّس، وكيف تعكس صلوات الليتورجية، عموماً هذا التسليم الآبائي والرسولي الذي تعبِّر عنه الإفخارستيا أكمل تعبير يعلن عطاء الرب الحُّر لنا، ذلك العطاء الذي يشتمل على كل حياة المسيح ومجده الذي أودعه سر تجسده وموته وقيامته والذي يُوهب لنا في هذا السر.

على أنَّنا يجب أنْ نعتذر للقارئ العزيز على ما قد يراه تكراراً لبعض الأفكار والشروح؛ لأنَّ دقة الموضوع ألزمتنا أنْ نعود إلى شرح بعض الأفكار مِن خلال منظور مختلف في كل مرة، ومِن خلال دائرةٍ – قد تضيق وقد تتسع – مما يوحي بأنَّ هناك تكراراً لم يحدث في الواقع، وإنما هو تناولٌ جديدٌ اقتضاه تشعُّب الأفكار وتشابكها.

إنَّ الحياة الروحية السليمة، والتي هي التعبير الحي عن عمل المسيح فينا، هي التي تنبني على الشرح السليم لمقولات الإيمان، ولذلك ظهر أنطونيوس في عصر أثناسيوس، بينما تلقَّن كيرلس الحكمة الإلهية على يد سيرابيون تلميذ مقاريوس الكبير.

إذن، لقد كانت حياة هؤلاء الآباء ليست إلاَّ توقيعات على المزمور "فهمني فأحيا"، ولذلك فإن عودتنا المستمرة على مدى هذه الدراسة إلى صلوات الكنيسة، ونصوص الآباء، إنما غايتها الأساسية الالتفات إلى الزخم الكامن فيهما، ومدى الانسجام والتوافق فيما بينهما، ذلك الذي ينعكس في الحياة الروحية، فيصنع الرسالة الحية المقروءة مِن جميع الناس.

لقد علَّمت الكنيسة القبطية العالَمَ الحياة الروحية على أعمق ما يكون العلم، ذلك لأنَّها استوعبت عمل المسيح بكل ما فيه من عمق وحياة تعلنها حياة الآباء الذين قادوا الحياة اللاهوتية مثل أثناسيوس الرسولي، والحياة النسكية مثل أنطونيوس الكبير، وكلاهما تربى وعاش التسليم الآبائي في الكنيسة كما يُعلن ويُقدَّم في الصلوات. وهكذا استقى كل الآباء اللاهوتيين والنساك من نبعٍ واحد، ولا يجب أنْ ننسى أنَّ مَنْ كتب حياة انطونيوس "الراهب"، هو اثناسيوس "اللاهوتي"، كما لا يجب أنْ ننسى أنَّ انطونيوس "الراهب" ترك صومعته ليشد مِن أزر اثناسيوس "اللاهوتي" إبان المحنة الأريوسية، وهو ما يعني أنَّ (أُمية) انطونيوس (كان لا يقرأ اليونانية) لم تمنعه مِن أنْ يكون "لاهوتياً"، كما لم تمنع "لاهوتية" اثناسيوس مِن أنْ يكون "ناسكاً" يصب الماء على أيدي القديسين.

هذا التكامُل، وهذا الانسجام هو أحد أهدافنا الأساسية مِن هذه الدراسة، وهو ما جعلنا نعود مراتٍ كثيرة لنرى إلى أي مدىً يؤثِّر شرح العقيدة في التربية الكنيسة والحياة الروحية.

إذا كان حال الكنيسة في عصر الآباء هو محل افتخارنا، فإنَّ ما نهدف إليه مِن هذه الدراسة وغيرها، أنْ يكون هذا الافتخار هو حالنا، الأمر الذي لن يتحقق إلاَّ إذا سرنا في درب الآباء وطريق الكنيسة.

أخيراً:

نطلب مِن الرب الذي صُلِب عنَّا، ولأجلنا، وقام، أنْ يجعل هذه الدراسة نوراً، وأن يفتح عيون أذهاننا لنفهم فنحيا حسب الإنجيل.

د. جورج حبيب بباوي

صوم الميلاد

ديسمبر ٢٠٠٨

فصلٌ تمهيدي

تعليم قادة حركة الإصلاح
والتعليم المعاصر
في الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية

مقدمة:

بدايةً، لا تعرف الأرثوذكسية التي تسلمناها من آباء الكنيسة موضوعاً اسمه "عقيدة الكفارة والفداء" وذلك لسبب واحد بسيط، وهو أن المصطلحات اللاهوتية الخاصة مثل: فداء – فدية – كفارة .... الخ إنما هي مكونات لموضوع أكبر هو موضوع "الخلاص". وقد سلَّم لنا الآباء التعليم الرسولي عن الخلاص تحت اسم "التدبير الإلهي" (٤).

أمَّا "عقيدة" الكفارة والفداء، فهي تسميةٌ ومحتوىً لموضوعٍ أُخذ من المصادر الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية. وهو موضوع معروف في اللاهوت الغربي في العصر الوسيط، بدأ بكتاب "لماذا تجسد الله؟" لرئيس أساقفة كانتربري، أنسلم في عام ١١٠٢م (٥)، وتبع أنسلم عددٌ من اللاهوتيين الغربيين سلكوا نفس المنهج مثل أبيلارد *Abilard* وغيره، وصارت عقيدة الكفارة والفداء هي محور الجدل اللاهوتي بين قادة حركة الإصلاح والكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر لسبب واضح ومعروف لكل من يدرس تاريخ العقائد المسيحية ألا وهو إبراز دور موت المسيح على الصليب كفدية وكفارة عن خطايا العالم كله

---

(٤) إن كلمة "تدبير" أو "οικονομια" إيكونوميا تعني خطة الخلاص، وهي خطة لها هدف، وهذا هو معناها في أفسس ١ : ١٠، حيث يشير الرسول إلى خطة الله التي اقتضت أن تتعاقب الأزمنة حتى تصل الخطة إلى غايتها بمجيء المسيح. راجع بتفصيل أوفى عن التدبير د. جورج حبيب بباوي: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي - ١٩٨٢م. ص: ١٣٩-١٥٨.

(٥) راجع تاريخ هذه العقيدة في البحث الذي نشره:
L. W. Grensted, A Short History of the Doctrine of the Atonement.

من أجل القضاء على انحرافات كنيسة العصر الوسيط والتي تمثلت في: المطهر – صكوك الغفران – ذبيحة القداس [٦] – سلطان الكهنوت [٧].

وعلى سبيل المثال، وحسب لاهوت العصر الوسيط الكاثوليكي، كان المطهر هو مكان دفع ثمن خطايا التائبين لكي يتطهروا وينالوا بعد ذلك السعادة الأبدية. وجاءت حركة الإصلاح وقادتها، وبشكل خاص مارتن لوثر، فهاجموا هذا التعليم باسم عقيدة الكفارة باعتبار أنَّ المسيح قد دفع الثمن. وبالتالي ليس هناك مجال للتكفير عن الخطايا في المطهر.

وقد لا يعرف القارئ القبطي إن بعضاً من الكُتَّاب الأقباط المعاصرين استخدموا برهان مارتن لوثر ذاته في دحض فكرة المطهر، حيث يقول أحد هؤلاء الكُتَّاب:

> *"إذا كان المطهر هو عبارة عن تكفير للخطايا، أو أن يوفي الإنسان ديونه للعدل الإلهي، فما لزوم الكفارة، لأن الكفارة هي عمل السيد المسيح وحده، وهو وحده الذي وفَّى كل مطالب العدل الإلهي".*

وهذا طبعاً برهان بروتستانتي ضد الكاثوليك جرياً على عادتنا القبطية في العصر الحديث في استخدام بعض أسلحة الكاثوليك ضد البروتستانت عندما نهاجم البروتستانت، واستخدام أسلحة البروتستانت ضد الكاثوليك عندما نهاجم الكاثوليك، وهو منهج يختلف شكلاً وموضوعاً عن منهج الأرثوذكسية.

لقد استطاعت عقيدة الكفارة أن تهدم: المطهر – صكوك الغفران – سلطان الكهنوت في كنيسة العصر الوسيط، وفتحت باب الجدال المرير حول علاقة الأسرار – وبشكل خاص – علاقة الإفخارستيا بموت الرب وقيامته.

---

(٦) أصدرت الكنيسة الرومانية في عام ١٠٥٩م منشوراً ينص على أن "الإفخارستيا بشكل منظور، وليس بطريقة سرية نرى دم المسيح في يد الكهنة ويُمضغ جسده بأسنان المؤمنين". إن هذا الشرح هو ما أوجد التعارض بين القيامة والإفخارستيا، لأن جسد المسيح القائم من الموت لا يمكن مضغه أو تقسيمه، فهو جسد غير قابل للفساد.

(٧) تقول صلاة التحليل اللاتينية القديمة: "بموجب السلطان المعطى لي من الكنيسة أنا أحلك من خطاياك باسم الآب والابن والروح القدس ..."، وهي تختلف عن الصيغة الأرثوذكسية: "اللهم حاللنا وحالل كل شعبك".

وإذا لم يتم تصحيح الأوضاع عندنا بالعودة إلى شرح الآباء للعقيدة، فإنه بمرور الزمان سوف يأتي جيل جديد يسأل نفس سؤال قادة حركة الإصلاح عن علاقة الإفخارستيا بموت الرب، وهو: إذا كان الرب قد أكمل وأتم الخلاص على الصليب يوم الجمعة العظيمة، فما هي فائدة ودور الأسرار الكنسية؟

أمَّا إذا أصر هذا البعض من الكُتَّاب الأقباط المعاصرين على أن يستمدوا شرحهم للعقيدة المسيحية في الكنيسة القبطية من شرح كنيسة العصر الوسيط، ومن كتب البروتستانت، فليعلموا إنهم بذلك يستخدمون ذات السلاح الذي اقتلع سر الإفخارستيا، وهو ما سوف يحدث عندنا لو استمر الحال على ما هو عليه، الأمر الذي من أجله كُتِبَت هذه الدراسة.

ولذلك ليس غريباً أن يُعد تعليم بعض هؤلاء محاولة لضرب الذين ينادون بالصليب كإعلان عن محبة الله، لا لاستيفاء العدل الإلهي حقه، ومحاولة أُخرى لضرب كل الذين ينادون بالعودة إلى الآباء.

وهذا هو ما يقوله أحدهم عن الذين يختلفون معه في تفسير موت الرب على الصليب مؤكداً نوع الاتهام:

- *"فانظروا يا ذوي الألباب وافهموا ما هو القصد من هذه الحبكة اللاهوتية الماكرة؟! تجاهُل العدل الإلهي والهروب من فكرة العقوبة، ثم الانحدار إلى هاوية إعلان قبول الله للخطاة بغير توبة.."* [8].
- *"إننا نحذر من هذا التعليم الغريب، والخطير الذي يهدم عقيدة الفداء.."*.

وهكذا تحول شرح موت المسيح إلى عقيدةٍ اسمها الفداء، أو الكفارة، أو الاثنين معاً.

---

(٨) لا يوجد لدينا حتى تاريخ كتابة هذه السطور دليل واحد على إن لدينا في مصر كلها من مسيحيين بكل مذاهبهم، ومسلمين بكل مذاهبهم شخص واحد يقول إن الله يقبل الخطاة بغير توبة، ولا يستطيع صاحب هذه العبارة أن يقدم حتى ولو عبارة واحدة تؤكد ما يقوله.

والسؤال الهام لهؤلاء الكُتَّاب: ماذا لو أن الأرثوذكسية لا تعرف موضوعاً في اللاهوت الأرثوذكسي اسمه عقيدة الكفارة والفداء؟ وماذا سيفعل هؤلاء إذا عجزوا عن أن يقدموا لنا وثيقة واحدة من وثائق الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية، أو غيرها من الكنائس الأرثوذكسية الأُخرى قبل القرن التاسع عشر تقول فيه إننا نؤمن بعقيدة اسمها الكفارة والفداء، أو ما إليها من مسميات وعبارات وفدت إلينا مع منشورات الإرساليات.

إنَّ عقيدة الكفارة والفداء تُعرف في كنائس حركة الإصلاح فقط، كما أن لها ظروفاً تاريخية ولاهوتية معروفة أدت إلى استخدام تعبير واسم *Doctrine of the Atonement* أمَّا في الشرق، فإن تعليم الخلاص يندرج تحت اسم **"التدبير الإلهي"**، وهو فرع المعرفة اللاهوتية الخاصة بالتجسد، والصلب، والقيامة، وعمل الروح القدس وأسرار الكنيسة.

ونود أن نلفت النظر إلى أن الخلاف هنا ليس خلاف في المسميات، فهذا هو أبسط الأُمور، وإنما الخلاف هو بين مدرستين في الشرح يتكامل في إحداهما التعليم مع الممارسة الليتورجية ويعبِّر فيها أحدهما عن الآخر، وهي مدرسة اللاهوت الشرقي. والثانية هي المدرسة الأوروبية التي تلجأ إلى الشرح العقلي والقانوني غير الملتزم بالممارسة والبعيد عن صلوات الكنيسة الغربية نفسها. ولو استمر عندنا استخدام الشرح والمصطلحات الأوروبية، لفقدنا ذلك التوافق والانسجام بين العقيدة والصلاة، الأمر الذي ينعكس على الحياة الروحية سلباً فيصيبها بالفصام. وهذا هو ما سوف نتحقق منه على مدى هذه الدراسة.

إن العقيدة الأرثوذكسية هي ما صاغته المجامع المسكونية، وما قرره الآباء في مؤلفاتهم، وما كُتب في الأمانة أو قانون الإيمان. وحسب كلمات قانون الإيمان، والأمانة الرسولية نقول عن موضوع الخلاص:

> **"هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب عنا .... وقام".**

هذا هو الإيمان الأرثوذكسي، وليس من حق أحد أن يزيد على هذه الكلمات إلاَّ ما هو حق لكل مسيحي، وهو اجتهاد الشرح، ذلك الذي نراه في شرح الآباء المتعدد لكلمات قانون الإيمان، مثل شرح العلامة أوريجينوس في كتاب المبادئ، الذي يختلف عن شرح القديس كيرلس الإسكندري لقانون الإيمان، وشرح روفينوس لقانون إيمان الرسل، وشرح أوغسطينوس الذي ورد في كتابه "التعليم المسيحي" الخ.

تقسيم:

نعرض في مبحث أول لتعليم حركة الإصلاح على وجه العموم، حيث نتناول الأفكار الرئيسية في هذا التعليم. وفي المبحث الثاني نستعرض معاً التعليم السائد في الكنيسة القبطية فيما بعد حركة الإرساليات. وفي المبحث الثالث نكشف عن الاعتراضات العقائدية الأرثوذكسية على هذا التعليم. ويجب أن نوجه عناية القارئ إلى أننا في هذا الفصل إنما تناولنا هذه الموضوعات في شيء من العمومية على اعتبار أن كل ما تعرضنا له هنا سوف يأتي الكلام عنه تفصيلاً كلٌ في موقعه.

تعليم قادة حركة الإصلاح

نشأ المذهب البروتستانتي في أوروبا في القرن السادس عشر كحركة إصلاح للفكر والممارسة والتعليم اللاهوتي السائد في الكنيسة الكاثوليكية، والتي لا يوجد مشتركاً بيننا نحن الأرثوذكس وبينها سوى القرون الخمسة الأولى عندما ساد لاهوت واحد وتعليم لاهوتي واحد، حتى جاء الانقسام الأول في سنة ٤٥١م، وتلاه بعد ذلك الانقسام الثاني بين الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية في سنة ١٠٥٤م، ومن ثم كان ما استقر في التعليم البروتستانتي في كتابات لوثر وكالفن، ثم ما دُوِّن بعد ذلك هو رد فعل واضح على تعليم الكنيسة الكاثوليكية عن: المطهر، وصكوك الغفران، وغيرها كما ذكرنا سابقاً.

وجاءت حركة الإصلاح لكي تضع نهاية حاسمة لهذا التعليم والقضاء على لاهوت العصر الوسيط، وذلك:

أولاً: بتأكيد موت المسيح النيابي أو البدل العقابي *Penal Substitution* وهو تعليم شائع في العصر الوسيط، وسبق حركة الإصلاح بما لا يقل عن ٢٠٠ سنة، وربما أكثر حسب دراسة كل أساتذة "تاريخ العقائد المسيحية" [٩].

ثانياً: أكدت حركة الإصلاح أن المسيح دفع ثمن خطايانا على الصليب، ودفعه لله الآب. لقد كانت بداية هذه الفكرة في كتاب "لماذا تجسد الله" لرئيس أساقفة كانتربري في إنجلترا أنسلم *Anselm*. وكان أنسلم يعارض بشدة الفكرة الشعبية المعروفة في بعض العظات الشعبية للعلامة أوريجينوس، والقديس أوغسطينوس

(٩) دراسة تاريخ العقائد المسيحية دراسة غائبة تماماً عن كلية اللاهوت الإنجيلية في مصر، والكلية الاكليريكية للأقباط الأرثوذكس الأمر الذي يجعل الحوار مع الذين يجهلون التاريخ صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

والتي تنادي بأن المسيح دفع فدية للشيطان لكي يطلق سراح الجنس البشري المقيَّد في الجحيم (أي فداء الراقدين) ويحرر الأحياء من سلطان الشيطان.

هذه هي خلفية التعليم اللاهوتي لفكرة الثمن. وجاء أنسلم ليقول إن الابن دفع "ترضيةً" للآب، وتطورت هذه الفكرة وكبرت حتى صارت من أشهر نظريات العصر الوسيط.

وبظهور حركة الإصلاح كانت المبادئ والأصول التي تحكم اللاهوت البروتستانتي قد صيغت على الوجه الآتي:

أ- دفع المسيح ثمن خطايا البشر.

ب- تحمَّل المسيح العقاب عوضاً، أو كبديل عن الخطاة.

ومن ثم ترتب على ذلك:

أ- أن تسقط فكرة المطهر تماماً؛ لأن المسيح دفع الثمن كاملاً، وهو ما يجعل العدل الإلهي أو بر الله لا يطلب ترضيةً أو ثمناً من الخطاة بعد أن أخذ الآب الثمن من الابن.

ب- احتمل المسيح العذاب، وهو ما يُبطل عذاب الخطاة في المطهر.

وفي هذا الخصوص نقدم هنا هذه المقالة التي تشرح الفداء انطلاقاً من فكرة دفع الثمن والخلاص بالبدل في اللاهوت البروتستانتي، والتي قام بترجمتها القس إبراهيم سعيد ونشرها بمجلة السلام في عددها التاسع وسنتها السادسة والتي يعود تاريخ نشرها إلى عام ١٩٢٧م في الصفحات ٢٧٧ : ٢٧٩. كنموذج للفكر البروتستانتي الذي تسرب إلى بعض الكتابات القبطية الأُرثوذكسية المعاصرة.

الخلاص بالبدل

أو البار يتحمل عقاب المذنب

- "كان في إمكان محبة الله أن تعفو عن الخاطئ. لكن بر الله حال دون ذلك. وكان في إمكان بر الله أن يدين الخاطئ، لكن محبة الله مانعت في ذلك، فكيف يوفق الله تعالى بين بره الملازم لذاته وبين محبته التي هي جوهر صفاته؟ - هذه هي المعضلة التي عجز عن حلها أقطاب الفلسفة على مر الأجيال. غير أن الحكمة الإلهية والرحمة السرمدية إلتقتا معاً وتلاثمتا في آلام ابن الله الكفارية وموته النيابي.

- لكن "الناقد" يقول: "أليست المسيحية منقوضة من أساسها، بتأسيسها كل بنائها على البدل - لأن نظرية البدل لن تقوم لها قائمة أمام الفحص المنطقي - فهذه نظرية تفرض على المسيح البار أن يتحمل العقاب عوضاً عن الأثمة الفجار، وتطلق سراح الفجار فيصبحون أحراراً، هذه نظرية تخالف اعتقادنا في العدالة على خط مستقيم. لأننا نعتقد أن من واجب العدالة أن تحمي البار وتستوفي عقابها كاملاً من المذنب!!".

- ولكني أدعوك أيها النقاد أن تنظر إلى عدالة الله التامة ومحبته الكاملة وقد تجلتا في الصليب، هناك، في الصليب، لا نرى الله يرغم البار على تحمل آلام المجرم قهراً، لكنه يعمل عمل القاضي المبين في المثل الآتي: حدثنا التاريخ عن شابين تخرجا معاً من كلية الحقوق - فارتقى أحدهما منصة القضاء، وهوى الثاني إلى حضيض السكر والرذيلة. وفي أحد الأيام، أوقف هذا الشقي أمام القاضي الذي كان بالأمس زميلاً له في الدراسة، وكان المحامون يتهامسون فيما بينهم قائلين: يا ترى

ماذا يكون حكم هذا القاضي في هذا الموقف الحرج؟ وما كان أشد دهشتهم حين سمعوا القاضي يحكم على الزميل المتهم، بأقصى غرامة يفرضها القانون، لكنه دفع الغرامة من جيبه الخاص، وأطلق سراح زميله القديم!

- فالله، الذي إليه أخطأنا، قد جلس على عرش القضاء تحف به العدالة، وأصدر على الخاطئ أقصى حكم - حكم الموت - لكنه في رحمته نزل عن عرشه، وحل محل الخاطئ، وتحمل هو نفسه العقاب بأكمله. وقد جاء في ٢ كورنثوس ٥ : ١٩ "إن الله كان في المسيح - لا بواسطة المسيح - مصالحاً العالم لنفسه".

- الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، إله واحد. فالله الذي إليه أخطأنا هو نفسه الذي أصدر الحكم، وهو نفسه الذي تحمل العقاب، وهو نفسه الذي يقدم إليك الآن غفراناً كاملاً مجاناً، مؤسساً على البر الكامل. من أجل هذا يقول بولس في رسالة رومية ١ : ١٦ و١٧ "لأني لست أستحي بإنجيل المسيح ... لأن فيه معلن بر الله". ويمكنني أنا أيضاً أن أقول إني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه ليس في مقدور أي إنسان على الأرض أن يجد أي نقص في هذا الغفران الكامل الذي قدمه الله للإنسان على أساس بره تعالى.

- **عملٌ قد أُكمل.** ولكن هل قبولي المسيح مخلصاً لي هو كل ما يلزم لخلاصي إلى أبد الآبدين؟ بالتأكيد أقول هذا مع تسليمي بأن بساطة طريقة الخلاص قد تجعله عسر الفهم، وبالتالي صعب المنال. ولكن أفرض إني مدين بمبلغ مائة جنيه. وليس عندي ما أوفي به ديني. ثم جاء صديق ووفى عني هذا الدين وسلمني إيصالاً بذلك، فلا يعود هذا الدين يقلقني فيما بعد. بل يكون في استطاعتي أن أواجه الدائن بنفس مطمئنة

لأني محتفظ بإيصال "المخالصة" ممهوراً بإمضائه. ولما بذل المسيح حياته عوضاً عن حياتي، قال: "قد أكمل" مبيناً بهذا أن عمله الفدائي قد أكمل، وبذلك تسلمت أنا من الله ختم رضاه. أو بعبارة أخرى قد تيقنت أن الله قد ارتضى مكتفياً بعمل المسيح الكفاري الكامل إذ أقامه من الأموات في اليوم الثالث. لكن أحد المؤمنين حاول أن يوضح هذه الحقيقة لأحد أصدقائه – وكان نجار أثاثات. فاعترض عليه النجار بالقول: "ولكنني لست افهم ما تقول". وأخيراً خطر لبال صديقه خاطر باهر كأنه إلهام. فأمسك "بفارة النجار" ورفعها بيده محاولاً أن "يمسح" بها وجه طاولة مصقولة صقلاً كاملاً. فأمسك النجار بيده وصاح به قائلاً قف يا هذا! ألست تعلم أن وجه الطاولة مصقول صقلاً كاملاً، فإذا مررت عليه "بالفارة" شوهت هذا الوجه اللامع الجميل؟! عندئذ أجابه الصديق "هذا بالضبط ما أردت أن أبينه لك يا صاح عن عمل المسيح الفدائي فقد أكمل هذا العمل حالما بذل المسيح حياته عوضاً عنك فكل شيء تريد أن تضيفه من عندك إلى هذا العمل المكمل، إنما يشوه جماله، وينتقص من كماله. فما عليك إلاَّ أن تقبل عمل المسيح كما هو – حياته بدل حياتك. وبذلك تصبح حراً طليقاً "فأخذ هذا الكلام بمجامع قلب النجار، وصادف هوى في فؤاده، وقبل المسيح في حياته مخلصاً له وفادياً، فهل تقبله أنت أيضاً؟".

التعليم البروتستانتي كما شرحه مقال جناب القس إبراهيم سعيد:

قدَّم القس إبراهيم سعيد التعليم البروتستانتي في وضوح لا يحتاج إلى تعليق، ولعل القارئ قد لاحظ وضوح الفكرة، فالقاضي هو الذي يحكم، وهو الذي يدفع الغرامة.

وقد لاحظ المؤلف الأصلي ـ لأن جناب القس إبراهيم سعيد ترجم المقال ـ

أن التعليم المسيحي عن الثالوث غائب من المثال أو الإيضاح الذي قدَّمه، فأقحم هذه العبارة:

- *"الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، إله واحد. فالله الذي إليه أخطأنا هو نفسه الذي أصدر الحكم، وهو نفسه الذي تحمل العقاب، وهو نفسه الذي يقدم إليك الآن غفراناً كاملاً مجاناً، مؤسساً على البر الكامل".*

فالله الثالوث يحكم، والله الثالوث هو الذي يدفع. ومع ذلك نلاحظ أن الإشارة إلى الثالوث هنا غير ذي معنى؛ لأن شرح دفع الغرامة أو حكم الموت في إطار عقيدة الثالوث لا زال ناقصاً؛ لأن المثال يشرح الفداء في إطار علاقة الآب بالابن ويهمل الكلام عن الروح القدس.

الفكرة الأساسية في التعليم البروتستانتي:

ولا تزال الفكرة الأساسية في هذا التعليم هي أن الله دفع الغرامة إلى الله، فالعمل يبدأ بالله وينتهي بالله، وليس على الإنسان إلاَّ أن يرى ما يحدث على المستوى الإلهي ويؤمن، فهو لا ينال ولا يأخذ شيئاً؛ لأن المطلوب والمفروض عليه هو أن يؤمن بما حدث على الصليب، وهو الموضوع الرئيسي في لاهوت حركة الإصلاح والذي يُعرف باسم "التبرير بالإيمان". ولأن الابن قدَّم الترضية، أو الكفارة، أو دفع الفدية، أو دفع الثمن للآب، أصبح الإنسان محتاجاً فقط إلى الإيمان بما حدث، ومن هنا بالذات جاء التعليم الإنجيلي بأن الأسرار رموزٌ وعلامات، وبشكل خاص، سر الإفخارستيا الذي - فقط - يُذكِّر المؤمنين بما فعله المسيح على الصليب .. هذا منطقي وينسجم مع الشرح القانوني السائد في العصر الوسيط والذي اقتلع الأسرار من جذورها.

ويتضح لنا من المقال السابق أن نظرية البدل هي الفكرة الوحيدة التي تشرح لنا موت المسيح على الصليب في لاهوت حركة الإصلاح. ولعل القارئ قد لاحظ العبارة التالية في المقال:

"يقول الناقد أليست المسيحية منقوضة من أساسها ***بتأسيسها كل بنائها على البدل*** *.."*.

وكلمة **"**نظرية**"** كلمة شائعة في كل كتب حركة الإصلاح، وهي اسم وُلِد في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وساد بعد ذلك. وكلمة "البدل" هي الاسم الثاني الذي وُلِد أيضاً عبر تطور طويل يبدأ بأنسلم وينتهي عند لوثر .. وكلا الاسمين لا وجود لهما في كتب الآباء أو كتب اللاهوت الأرثوذكسي التي تلتزم بالتسليم الآبائي.

ونحن لا نعيب القس إبراهيم سعيد أو غيره من البروتستانت الإنجيليين إذا اعتبروا أن هذا الشرح هو الشرح الوحيد لصلب المسيح، ولكن ما يثير العجب هو تبني بعض الإكليروس الأُرثوذكسي هذا التعليم الإنجيلي واعتباره جوهر الأُرثوذكسية وإصدار أحكام بالحرمان على كل من يختلف معهم في هذا التفسير، والذي أثبتنا على مدى صفحات هذا الكتاب أنه تعليم غير أرثوذكسي؛ لأن الأُرثوذكسية لم تعرف نظرية البدل العقابي التي لا وجود لها في كتب الآباء، لذا كان من الضروري أن نضع كل الحقائق أمام القارئ وذلك:

أولاً: من كتب حركة الإصلاح، وهي مؤلفات لوثر وكالفن.

ثانياً: من الدراسات المعاصرة التي اشترك فيها كاثوليك وأرثوذكس لأسفار الكتاب المقدس.

ثالثاً: من مصادر العقيدة الأرثوذكسية نفسها: الآباء – الليتورجية – الكتاب المقدس.

رابعاً: من الدراسات التاريخية لتاريخ العقيدة المسيحية، أو ما يعرف باسم:. *History of Doctrines*

وهو ما سوف نقوم به في فصول هذه الدراسة.

التعليم القبطي فيما بعد حركة الإرساليات

لعل القارئ المدقق قد اكتشف أن بعض الكتابات المعاصرة في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد أخذت بما جاء في كتب الإرساليات من مصطلحات عربية لها أصولها اللاتينية، إضافة إلى أدلة لاهوتية بروتستانتية كتبت أصلاً ضد الكاثوليك. وحاولت صياغة هذا المزيج على أنه شرحٌ واحدٌ ووحيد للعقيدة الأرثوذكسية، وبذلك أنكرت هذه الكتابات على نفسها وعلى غيرها:

١- ضرورة العودة للتسليم الرسولي المودع في كتب الآباء وصلوات الليتورجية الأرثوذكسية.

٢- إنكار تعدد الشرح الذي يخدم الأعماق والمستويات المختلفة للبشر عبر الأزمنة الروحية والثقافية.

وبالتالي كانت النتيجة هي تكفير كل من يحاول العودة إلى مصادر العقيدة الأرثوذكسية، وذلك بكل ما يملك هؤلاء الكُتاب من أدوات للتكفير، كالحرم من التناول، والتشهير في أشرطة الكاسيت والفيديو.

ولكن ما هو جدير بالذكر هنا هو أن مقارنة بعض الكتابات القبطية الأرثوذكسية بغيرها من الكتابات البروتستانتية، سوف يكشف لنا عن حقائق غريبة تؤكدها النصوص نفسها، وهي بقاء بعض الفكر البروتستانتي في دائرة التقليد الإنجيلي، بينما تجاوز الفكر القبطي المعاصر المستمد من المصادر البروتستانتية التقليد الإنجيلي إلى ما هو ضد المسيحية نفسها بكل مذاهبها.

وتأكيداً لذلك نضع بين يدي القارئ بعض النصوص المقتبسة من كتابات

بعض هؤلاء الكُتاب الأقباط والتي يتضح لنا منها ما هو منقول عن الفكر الغربي، وما قد تجاوز هذا الفكر بما يعتبر شرحاً خاصاً لم يقل به أحد في الشرق أو الغرب. وسوف نضع هذه الاقتباسات تحت رؤوس الأقلام الآتية:

أولاً: دفع ثمن الخطايا بدم المسيح:

يقول أحد هؤلاء المعلمين:

- *متى انتهى الحكم؟ لما انتهت العقوبة بدفع ثمنها على الصليب".*
- *"خرج خارج المحلة ليدفع الثمن ... إذ دفع الثمن الذي كنا مديونين به للعدل الإلهي".*
- *"حمل الرب كل الخطايا ليدفع ثمنها بنفسه".*
- *" بالصليب داس الموت ودفع ثمن الخطية".*
- *"وعلى الرغم من آلام الرب على الصليب، كانت أفكاره ليست مركزة في آلامه وفي ذاته، إنما في خلاص الناس وتقديم ثمن العدل الإلهي للآب".*

ويقول آخر أيضاً:

- *"فالغفران الإلهي هو غفران مدفوع الثمن، لأن الخطية والبر لا يتساويان عند الله".*
- *"إن الله إذا غفر بدون قصاص كامل للخطية، يكون كمن يتساوى عنده الخير والشر".*
- *"الغفران في المسيحية، ليس غفراناً بلا ثمن، بل هو غفران مدفوع الثمن، والذي دفع الثمن هو السيد المسيح".*

"الله يقول أنا أغفر لكم، لكني أغفر لمن يدرك قيمة الغفران، إن ثمنه غالي جداً".

ثانياً: احتمال الرب يسوع غضب الآب على الصليب:

يقول أحدهم:

- *"وخطيئة الإنسان كانت لها نتيجتان: أولاً إغضاب الله، وثانياً هلاك الإنسان. وجاء السيد المسيح ليعالج الأمرين معاً.*

١- *يصالح الآب ويتحمل غضبه، ويدفع له ثمن الخطية".*

٢- *يخلص الإنسان المحكوم عليه بالموت، بأن يموت بدلاً منه.*

- *"عبارة لماذا تركتني معناها: تركتني للعذاب، تركتني أتحمل الغضب الإلهي على الخطية .. ولكن الآب ترك الابن يتألم ... تركه يتألم ويبذل ويدفع".*

- *"واحتمل كل لعنة الناموس، واحتمل كل غضب الله على الخطاة".*

- *"وبهذا دفع ثمن الخطية وتحمل الغضب وخرج منتصراً".*

ويقول آخر:

"إن السيد المسيح احتمل الغضب .. الله لم يشفق على ابنه حينما حمل خطايانا في جسده، بل أعلن غضبه على الخطية لكي تنال الخطية دينونة عادلة".

ثالثاً: احتراق الابن، وتحوله إلى رماد على الجلجثة:

يقول أحدهم [١٠]:

- *"في يوم الجمعة، كان الله الآب قد أعد مذبح المحرقة على*

---

(١٠) على القارئ العزيز ملاحظة كم الخيال الجامح في هذا الشرح الذي لا نجده في الكتاب المقدس ولا في صلوات الليتورجية، وإنما هو نموذج للأخطاء القاتلة إذا ما استرسلنا بغير ضابط في استلهام العهد القديم وطبقناه على العهد الجديد.

جبل الجلجثة .. وتقدم السيد المسيح وهو يحمل حطب المحرقة .... تقدم السيد المسيح وصعد على مذبح المحرقة من ذاته واتقدت فيه النار. وأتت نيران كثيرة، أحاطت به.نيران من أقطار قريبة وبعيدة. ونيران من أجيال عديدة كلها كانت تخص خطايا الناس في كل مكان، وعلى مدى الأزمان. إنها نار العدل الإلهي الواقع على كل هذه الخطايا. وظلت النار تتقد، ثلاث ساعات كاملة. من الساعة السادسة حتى التاسعة. كانت النار تلتهم هذه المحرقة الإلهية وصعد دخانها إلى فوق. وتنسم الآب رائحة الرضا، ولم يرفع يده عن المحرقة، كما حدث مع اسحق. لذلك صرخت المحرقة "إلهي إلهي لماذا تركتني". إنه – تبارك اسمه – لم يترك محرقة ابنه الوحيد لحظة واحدة ولا طرفة عين. إنما ترك نار العدل الإلهي تتقد فيها حتى النهاية لإرضاء الآب ومصالحته عن كل خطية. وعن كل أثم وكل سهو لكل أحد، في كل مكان، في كل الأزمان. وقبل أن تتحول المحرقة إلى رماد، قالت للآب: قد أكمل .. وإذ استودعت روح السيد المسيح في يدي الآب، أخذ الآب رماد المحرقة – حسب الناموس – ووضعه في مكان طاهر في الفردوس أولاً ثم عن يمين الآب".

وفي نفس الوقت. وعلى نفس الجبل، جبل الجلجثة قدم السيد المسيح ذاته كذبيحة خطية. ليحمل خطايا العالم كله .... سواء الخطايا المعاصرة لوقت الصلب، أو خطايا الماضي منذ آدم، أو خطايا المستقبل حتى آخر الدهور لكل من يؤمن به ويتوب ... لهذا، فإن كل الراقدين على رجاء في الجحيم، مدوا ايديهم ووضعوها على رأس هذه الذبيحة، لتنوب عنهم، وقد

قبلوها ذبيحة عن خطاياهم. وكل الذين آمنوا بالسيد المسيح في جميع الأجيال، يضعون أيديهم أيضاً على هذه الذبيحة لتنوب عنهم وهم يقبلونه لفدائهم.

- ودم ذبيحة الخطية هذه، رُش مستديراً حول الكرة الأرضية. وعندئذ حدث أن الملاك الذي كان يحرس الطريق إلى شجرة الحياة بسيف من نار .. هذا الملاك رأى الدم نازفاً من ذبيحة الخطية، ليمحو كل خطية، فقال "عندما أرى الدم أعبر عنكم".
- "إن عبارة "تركتني" تعني أن آلام الصليب كانت آلاماً حقيقية، وآلام الغضب الإلهي كانت مبرحة .. في هذا الترك تركزت كل آلام الصليب. وكل آلام الفداء .. هنا يقف المسيح كذبيحة محرقة، وكذبيحة إثم تشتعل فيه النار الإلهية حتى تتحول الذبيحة إلى رماد، وتوفي عدل الله كاملاً".
- "وبهذا أعلن أن الطَرق أخذ سبيله إلى الحديد المحمى بالنار، أو أعلن أن النار بدأت تلتهم ذبيحة المحرقة .. أو أعلن أن العدل يتقاضى أجره .. فكان ألماً كاملاً، تنسم منه الآب رائحة الرضى".
- "وكما كمل عاره كملت آلامه بالجسد، وكمل الغضب الواقع عليه دفع الثمن كله، وقدم نفسه فدية، وظلت النار تشتعل في ذبيحة المحرقة حتى حولتها إلى رماد ولما رأى الرب أنه أكمل عمل الكفارة والفداء، وانه أعطى العدل الإلهي كل ما يطلب ولم يعد له شيء بعد، صاح في نصره قائلاً: "قد أُكمل".

رابعاً: احتمال عقوبة الموت عنا:

يقول أحدهم:

" نفس طاهرة لم تخطئ، تموت عن نفس بشرية أخطأت."

"كانت ذبيحة الخطية هي التي تحمل خطايا الإنسان وتموت بدلاً منه، لكي يخلص وكذلك ذبيحة الإثم ... الذبيحة لم تكن خاطئة، وإنما كانت حاملة خطية. كانت حاملة لخطية مقدمها، الذي يضع يده عليها إشارة إلى أنها تنوب عنه وأن خطاياه تنتقل منه إلى رأس هذه الذبيحة فتموت عنه".

"من فرط حبه لنا .. هو أخذ عقوبتنا، وأعطانا سلامه".

"ولعله بسبب هذه الخطايا، عَّبر عن أعظم ألم مر به بقوله للآب "لماذا تركتني" أي تركه للعدل الإلهي يحتمل كل قصاصه الواقع على البشرية منذ آدم".

ويقول آخر:

"عدل الله في محاسبته على الخطية معناه أن تظهر قداسة الله الكاملة بأن تنال الخطية قصاصاً عادلاً حتى لو دفع الثمن من يحمل خطية الإنسان عوضاً عن الإنسان الخاطئ" [١١].

خامساً: تسديد صك ديون الخطية:

يقول أحدهم:

"وحمل كل خطايانا، وصعد بها على الصليب في جبل الجلجثة، ومحاها بدمه، إذ دفع عنا الثمن الذي كنا مديونين به للعدل الإلهي".

"كل من آمن وتاب .. حمل المسيح كل ما في داخله من عظام نتنة، ودفع عنه دينه للعدل الإلهي من فوق الصليب".

---

(١١) وهل هذا عدل؟!!!

"إنه يقول: يا أبتاه اغفر لهم لأني دفعت ثمن خطيئتهم، من أجل ذلك لم يبق عليهم دين".

ويقول آخر:

"ماذا يعني تمزيق صك الدين الذي علينا الذي أعلنته فرائض الناموس؟ إلا إيفاء الدين تماماً بالصليب".

إن هذه الدراسة لا تبحث في صحة أو خطأ التعليم البروتستانتي عن الخلاص. هذا موضوع نتركه للبروتستانت، فهم أولى به. ولكن هذه الدراسة تبحث في الاقتباسات التي وردت عند من يدَّعون الأُرثوذكسية من المصادر العقائدية البروتستانتية، وتبحث في الإضافات غير الإنجيلية التي قدَّمها هؤلاء من فكرهم الخاص، وهو فكر لا يلتزم لا بما جاء في اللاهوت البروتستانتي، ولا بما هو مدون في الأسفار الإلهية، ولا بما هو مُسلم لنا من الآباء ومحفوظ في الليتورجية. ولذلك سوف لا نمل من أن نكرر عبر صفحات هذه الدراسة: إن المفردات والمصطلحات اللاهوتية المشتركة مثل: فداء – كفارة – بر ... الخ هي مصطلحات وكلمات وردت في الكتاب المقدس فعلاً، ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى استنتاج أننا نشترك مع الفكر البروتستانتي في شرح واحد وفهم واحد للأسفار الإلهية؛ لأن هذا غير صحيح، ليس فقط من الناحية التاريخية البحتة، ولكن أيضاً من ناحية التسليم الآبائي للإيمان الأُرثوذكسي.

وما يجب أن نقوله هنا هو إن الأرثوذكسية تؤكد لنا أن كل من يؤمن بالرب الواحد يسوع المسيح، وبالخلاص الذي أتمه عنا بتجسده وموته وقيامته وصعوده، فهو مسيحي أرثوذكسي، طالما كان لا يستخدم كلمات الكفارة، والفداء، والفدية – بنفس المعنى السائد في فكر هذا البعض من الكُتاب الذين قصروا – خطأً وعسفاً – الأرثوذكسية فيما يُعلِّمون. فكما قلنا إن هذا الشرح ينتمي تاريخياً إلى لاهوت العصر الوسيط وحركة الإصلاح، بينما هناك أيضاً التعبير اللاهوتي الشرقي الذي ينسجم مع الصلوات الليتورجية، وهو ما سُلِّم إلينا من الآباء العظام الذين حفظوا وديعة الإيمان، وهو أولى بالإتباع.

ماذا يعني غياب (المعنى البروتستانتي) لكلمات الكفارة والفداء والفدية من صلوات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية؟

لعل من المبادئ المأثورة عن قداسة البابا كيرلس السادس أن التعليم وشرح العقيدة الذي لا أساس له في الليتورجية، هو تعليم لا أساس له في الأرثوذكسية؛ لأن الإيمان الذي لا يعبِّر عن نفسه في صلاة إنما هو إيمان عقلي وفكر خاص. ولذلك كان الهاجس الأكبر الذي ألح علينا في هذه الدراسة هو غياب (المعنى البروتستانتي) لموضوع الكفارة والفداء والفدية ـ أي بمعنى ما دفعه المسيح من ثمن للآب، واحتماله الغضب عنا على الصليب ـ عن الصلوات الليتورجية القبطية. إن هذا المبدأ الذي يؤكد على أهمية الليتورجية، وترك ما لا وجود له فيها باعتبار أن الليتورجية هي مرآة الأرثوذكسية، قرأناه فيما بعد عند أشهر اللاهوتيين الأرثوذكس مثل الأب ألكسندر شميمان في كتابه "من أجل حياة العالم" [١٢]. ولعل القراء يذكرون اهتمام قداسة البابا كيرلس السادس بضرورة عودة الكنيسة إلى التسبحة السنوية وممارسة الصلوات والطقوس بورع وقداسة.

وانطلاقاً مما تقدم، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: بماذا سيجيب هؤلاء الكُتاب إذا ما سألهم أحد أبناء شعبنا الصامت جداً: لماذا لم تذكر صلواتنا المقدسة الأرثوذكسية هذا التعليم عن عقيدة الكفارة والفداء والفدية في القداسات؟

هل يجب عند اكتشاف هذه الحقيقة، إضافة صلوات جديدة تنقل إلينا تعليم الكاثوليك والبروتستانت، حتى تتوافق العقيدة مع الصلاة؟ وهو ما قد حدث فعلاً عندما وضع بعضهم صلاة قسمة كاثوليكية في الخولاجي المقدس المطبوع بمعرفة مكتبة المحبة بعد عام ١٩٧٠م [١٣] وعنه نقل آخرون، وهي صلاة غريبة تماماً

(١٢) صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب الهام عن منشورات النور بلبنان عام ١٩٩٤م.

(١٣) يلاحظ أن هذه القسمة غير موجودة بالخولاجي المقدس المحقق بيد القمص عبد المسيح المسعودي، والذي صدرت طبعته الأولى في سنة ١٩٠٢م، والمطبوع بعد ذلك على نفقة القمص عطا الله ارسانيوس المحرقي، ولا حتى في الطبعة الثانية لخولاجي القمص عبد المسيح والتي أصدرها دير السيدة العذراء (براموس) في سنة ٢٠٠٢م. راجع البحث التاريخي واللاهوتي عن هذه القسمة في نهاية الفصل الثاني عشر من هذه الدراسة تحت عنوان: "من الذي أضاف صلاة قسمة كاثوليكية إلى خولاجي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية؟".

عن كل ما نعرفه عن الليتورجية القبطية، أو غيرها من ليتورجيات سائر الكنائس الأرثوذكسية، مما يدعو إلى التساؤل: إذا ما كانت هذه الإضافة صحيحة، فكيف غابت فكرة دفع الثمن عن كل قداسات الكنيسة القبطية؟ وكذلك عن صلوات المعمودية، والميرون، ومسحة المرضى، ورسامات الكهنوت، وتسابيح الكنيسة اليومية في الإبصلمودية، والأجبية .. الخ.

وإذا كنا قد وضعنا هنا تراثنا الليتورجي كله، فماذا يمكن أن نقول سوى: إن هذه هي كتب الكنيسة القبطية أمامكم، فأين برهانكم؟ (١٤).

تناقض واضح بين صلوات الساعة السادسة، وهذا التعليم القبطي المعاصر

والسؤال أيهما يجب أن يبقى؟

إن إجالة النظر في صلوات الكنيسة تظهر لنا أن الادعاء بأن الابن دفع فديةً للآب أو للعدل الإلهي حسب تعليم بعض الإكليروس تؤكد لنا أن هؤلاء ليسوا – حتى – على صلة بنصوص هذه الصلوات نفسها، فقد شرح أحدهم كلمات الرسول بولس في (كولوسي ٢: ١٤) بقوله:

> *"ماذا يعني تمزيق صك الدين الذي علينا الذي أعلنته فرائض الناموس؟ إلاَّ إيفاء الدين تماماً بالصليب".*

وهو ما يتوافق مع الشرح اللاهوتي لحركة الإصلاح. وفي الوقت الذي كان يتوجب عليه أن يقدم شرح آباء الكنيسة، فأنه لم يتوقف حتى عند معاني كلمات صلاة الساعة السادسة:

> **"يا من في اليوم السادس .. سمرت على الصليب من أجل الخطية التي تجرأ عليها أبونا آدم في الفردوس، مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا ..".**

فالعبارات ليست خاصة بخطية آدم وحده، وإنما بخطايا كل الذين يرفعون هذه

---

(١٤) حاول أيها القارئ أن تقرأ هذه الكتب قبل أن تمتد إليها يد العبث، ويتم تحريف كلماتها، وإضافة صلوات تعبر عن مدرسة فكرية معينة، تتناقض مع اللاهوت الأرثوذكسي.

الصلاة .. وهنا، لا يتوقف الأمر عند فرائض الناموس، بل يمتد إلى الخطايا الشخصية التي ليس لها علاقة بفرائض الناموس، ولكنها بعيدة عن شريعة الحياة الجديدة .. فالخلاص ليس ما حدث يوم الجمعة الكبيرة فقط، بل هو ما يحدث كل يوم في حياتنا كمسيحيين. ولو إن الصلاة قالت إن المسيح دفع ثمن خطايانا، لكان من واجبنا أن ننحني أمام أرثوذكسية هذا الكاتب ومن يقتبس عنه، ولكن الصلاة تقول عكس ما أراده كلاهما؛ لأن المسيح مزَّق الصك ولم يدفعه.

تقول الصلاة الأرثوذكسية:

"قتلت الخطية بالخشبة، أحييت الميت بموتك،

أي الإنسان الذي خلقته بيديك (آدم) الذي مات بالخطية..

من قِبَل صليب ابنك أنهبط الجحيم، وبطل الموت،

أمواتاً كنا فنهضنا، واستحققنا الحياة الأبدية،

ونلنا نعيم الفردوس الأول،

من أجل هذا نمجد بشكرٍ المسيح إلهنا؛ لأنه قوي"

(القطعة الثانية – صلاة الساعة السادسة).

أدوات التمييز التعليم الصحيح:

وحتى لا يتوه القارئ غير المدرب على التمييز بين التعليم الأرثوذكسي، والأفكار الشائعة التي تعود إلى الحقبة المعاصرة من حياتنا الكنسية، والتي تنتمي بدورها لمخلفات عصر الإرساليات الأوروبية في الشرق، نُقدم له أدوات التمييز حتى لا يقع في ذات أخطاء هؤلاء الكُتاب [١٥].

١- إن تمزيق الصك على الصليب، وبعد الصليب يعني شمولية الغفران، وهو ليس مثل تمزيق الكمبيالة التي تكتب في العصر الحديث؛ لأن العبارة

(١٥) مع أن نص كولوسي ٢ : ١٤ يؤكد عدم دفع الدين في عبارة قاطعة "محا الصك الذي علينا" إلاَّ أن فكرة دفع الثمن تمنع من قراءة النص كما هو.

الرسولية والفعل اليوناني الذي استخدمه الرسول بولس هو **"محا الصك"**، فهل **"محا"** المسيح الرب الصكَ بعد أن دفع الديون؟ والجواب من عبارات صلوات الساعة السادسة الموجهة للآب:

"امحُ عنا صك خطايانا المكتوب علينا، كما مزقته في هذه الساعة المقدسة بصليب ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، ومخلص نفوسنا" (تحليل الساعة السادسة).

ولأن الذين وضعوا هذه الصلاة، هم أُرثوذكس حقيقيون، لذا فهي تُعلن أن **الآب** هو الذي محا الصك، وإن **الآب** هو الذي مزق الصك بصليب الابن، مع الأخذ في الاعتبار أن القطعة الأولى تؤكد أن **المسيح** هو الذي مزق صك خطايانا، فالصلاة ترد **موت الرب** على الصليب إلى أساس الأُرثوذكسية الثابت، **وهو عقيدة الثالوث** الذي له إرادة واحدة وجوهر واحد.

فالابن لم يدفع للآب ثمن خطايانا، كما هو شائع عندنا حسبما يروِّج البعض، وكما هو شائع في كتب الكنائس غير الأُرثوذكسية. وعندما تخاطب صلاة الصلح الآب في القداس الباسيلي تقول: **"والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"**، نستطيع أن نرى وحدة عمل الثالوث القدوس، لأن الآب هو من هدم الموت بموت ابنه، ولم يدفع الآب للموت ثمناً، ولم يصالحنا الآب أو الابن مع الموت، بل **هدمه تماماً** .. أو حسب عبارات صلاة الساعة السادسة:

قتلت الخطية ...

أحييت الميت بموتك.

فالصليب جاء بتجديد وإحياء للخليقة، ورد الحياة المستعبدة للموت، وليس العمل السلبي الذي لا يليق بصلاح الله، والذي هو مجرد رد دين أو دفع ثمن .. وعندما تؤكد صلاة الليتورجية في الساعة السادسة إن الآب هو الذي محا ومزَّق الصك، فإن الأسلوب المستخدم هنا هو الاستعارة *Metaphor*. والاستعارة أداة

لغوية جيدة لا ضير في استخدامها لشرح وتفسير الإيمان. وهذا الشرح هو محاولة لتقريب عمل المسيح إلى فكر الإنسان، واستخدام الاستعارة من الحياة دليل على تنوع الشرح وتعدد مستويات عمل المسيح الذي قام به على الصليب من أجل الإنسانية. وخلف كل استعارة نستطيع أن نرى العقيدة المحددة بكلمات قاطعة مثل تلك التي وردت في قانون الإيمان النيقاوي، وهي كلمات لا تقبل الاستعارة أو التورية أو الرمزية .. الخ، وإنما يصبح الهدف من استخدام الاستعارة في الشرح هو إبراز الخلاص، ولكن دون هدم لعقيدة الثالوث. وهكذا يمكنك أيها القارئ أن تمتلك **أداة التمييز الأولى، وهي عقيدة الثالوث نفسها،** .. وكل تفسير يقال، مهما كان قائله، وكان يتعارض مع التعليم الأرثوذكسي لعقيدة الثالوث يجب رفضه تماماً.

٢- وأداة التمييز الثانية، هي **إيماننا بالرب الواحد يسوع المسيح المساوي للآب حسب اللاهوت، والمساوي لنا حسب الناسوت.** وهو اعتراف الإيمان الأُرثوذكسي كما سلمه إلينا مجمع أفسس المسكوني ٤٣١م، وكما صاغه القديس كيرلس عمود الدين، وكما ورد في تسبحة الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية:

الله الكلمة الذي صار إنساناً بغير افتراق

واحد من اثنين

لاهوت قدوس بغير فساد، مساو للآب

وناسوت طاهر مساو لنا كالتدبير

هذا الذي أخذه منك أيتها الغير الدنسة

واتحد به كأُقنوم (القطعة الثانية، ثيؤطوكية الأحد).

فإذا كان الابن **واحداً من اثنين، مساو للآب،** فالسؤال الذي يجب أن نتوقف عنده، هو: هل يجوز لنا أن نتكلم عن اشتعال نار غضب الآب في أُقنوم الابن؟ سؤال نجيب عليه بكل ما تعلمنا إياه الأُرثوذكسية:

إذا كانت علاقة الآب بالابن المساوي له حسب اللاهوت، والمساوي لنا

حسب الناسوت قد وصلت إلى حد صب الغضب واستيفاء وإعلان النقمة والغضب ضد خطية الإنسان على الصليب .. إذا كان كل هذا قد حدث للمسيح، وطبعاً الذي فعل كل هذا هو الآب – بحسب الفكر السائد – .. إذن فقد صارت علاقتنا بالآب هي علاقة غضب وانتقام، وليست علاقة مغفرة بالمرة، بل إن الأخطر من كل هذا هو انقسام الثالوث إلى أُقنوم يعاقب أُقنوماً آخراً.

لقد غفر الرب خطايا الذين اخطئوا قبل أن يموت على الصليب. كما غفر للص اليمين، وأعطاه الدخول معه إلى الفردوس .. وغفر للذين صلبوه، وهو معلق على الصليب .. وكل هذا تقول عنه كل الكنائس الأرثوذكسية بأسرها **"قتلت الموت بموتك"** (القطعة الثانية من صلاة الساعة التاسعة)، فإذا كانت صلاة الساعة التاسعة تقول إن الرب قبل اللص، وهو معلق على عود الصليب، فكيف إذن، قَبِلَ اللص، بينما كان هو يدفع الثمن؟ .. وكيف غفر للصالبين في الوقت الذي كان فيه يموت موت الخطاة، ويقف أمام الآب كخاطئ، حسب كلمات واحد من كبار الإكليروس الأقباط الأرثوذكس؟[١٦] إن كل هذا يجب أن يوضع تحت نور التمييز العقيدي الذي تحدده الكلمات الحية المقدسة: **"مساوٍ لنا حسب الناسوت"**.

وإذا كانت كلمات ثيؤطوكية الأحد صحيحةً – وهي صحيحةٌ بلا شك – (**ناسوتٌ طاهر مساو لنا كالتدبير**)، فإن ذلك يعني أن ما حدث للابن على الصليب قد حدث لنا، وبالتالي فإن كان الابن قد تحمَّل عقوبة الموت على الصليب حسب شرح معلمين هذا الزمان، إذن فقد عاقبنا الآب على الصليب مع ابنه وفي ابنه، ولم يغفر لنا بالمرة، ولم يعد الصليب هو راية المغفرة التي ترفرف على كل الدهور، بل صار الصليب هو أداة تسديد الدين ودفع الثمن لتتميم العقوبة بكاملها، ولم يعد الصليب هو **"الصليب المكرم"**، بل "صليب العقاب والانتقام**"**، ولم يعد هو ينبوع الشفاء الذي نختم به أجسادنا وأرواحنا، وخبز

(١٦) يقول أحدهم: "وقف أمام الناس كخاطئ، وأمام الآب كخاطئ .. وأمام الآب وقف نائباً عن البشرية الخاطئة، يحمل خطاياها كلها ليقدم ثمنها للعدل الإلهي، وبهذا يرضي الآب".

الإفخارستيا، ومياه الحميم الجديد، وميرون المُلك الآتي، وعقد الزواج وإعلان الفرح في التقديس المثلث [١٧] وغيرها.

فإذا كان الأمر على ما يقولون، فكيف تجاسرت الكنيسة الجامعة بأسرها، والقبطية بشكل خاص، أن تحول الصليب أداة القتل والانتقام ودفع الديون إلى أداة خلاص وكرامة وشفاء وتجديد وبركة وقوة .. كيف صارت علامة الصليب مصدر خوف للشيطان، بينما هو (أي الشيطان) – حسب تفسير المعلمين الجدد – ليس العدو الذي هُزم، بل العدو الذي انتصر وغلب رب الحياة، وحوله إلى كائن يموت تحت الدينونة والحكم، ومعه كل الذين اشتركوا معه في ذات الطبيعة؛ لأن **"المساوي لنا حسب التدبير"** هو إعلان يعبر عن إن ما حدث للرب، حدث لنا جميعاً، وهو الأمر الذي يجب أن يحول القُداسات إلى "مناحات"، والأسرار إلى خزي وعار الهزيمة.

بل، وكيف تجاسر الرسول أن يقول عن موت الرب يسوع على الصليب: "لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذي خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية" (عب ٢ : ١٤-١٥)، وبينما يقول الرسول ذلك بكل وضوح، يقودنا الفكر القبطي المعاصر الواقع تحت التأثير البروتستانتي إلى النتيجة الآتية:

- لقد دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس (سفر الحكمة ٢ : ٢٣-٢٤).
- وصار له (أي إبليس) سلطان الموت (عب ٢ : ١٤-١٥).

- إذن فقد مات المسيح موت الخطاة غريباً عن محبة الآب وصلاحه. مات تحت وطأة الغضب الإلهي، أي أنه صار أحد ضحايا الشيطان، وساد عليه ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، **فهل يحتاج هذا الفكر إلى تعليق؟**

إن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً؛ لأن الرسول بطرس يقول بقوة الروح القدس

(١٧) يلاحظ أنه في كل مرة نقول فيها: "قدوس"، نرشم أنفسنا بعلامة الصليب؛ لأن الصليب هو ختم الثالوث، وهو الطقس المعبر عن وحدانية الجوهر.

في يوم الخمسين: "الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت، إذ لم يكن ممكناً أن يمسك منه (أي يُمسك به الموت)". ويختم عظته بقوله وشهادته عن قيامة المسيح بـ "لأنك لن تترك نفسي في الهاوية، ولا تدع قدوسك يرى فساداً" (أع ٢ : ٢٤–٣١).

وهكذا هدم الرب الموت، ونقض أوجاع الموت، أي الفساد، وقام بلا فساد، ولم يرَ جسده فساداً، وهو ما نأخذه في السر المجيد الجسد العديم الفساد **"ترياق عدم الموت"** حسب عبارة الشهيد أغناطيوس الأنطاكي؛ لأنه جسد ذاك **"المساوي لنا حسب التدبير"**، والذي فيه، أي في يسوع نرى البداية والنهاية والمصير ونرى فيه حقيقة علاقتنا مع الآب.

كيف يمكن أن نتصور إن الآب أدان الابن وحكم عليه بعقوبة الموت، وبالتالي سلَّم ابنه ليكون خاضعاً لسلطان الشيطان، فلم يَسبِ الابن الهاوية عندما نزل إلى الجحيم، بل وقع أسيراً في قبضة الشيطان الذي له سلطان الموت؟

وطبعاً ـ حسب التسليم الأُرثوذكسي، وحسب تعليم الآباء الرسل، وشيوخ ومعلمي الإيمان ـ حدث العكس، فلقد سبي الرب الجحيم سبياً وأطلق سراح الأسرى، وبشر الموتى بالحياة، وأنار الجحيم ببرق لاهوته.

وتبقى مسألة هامة لابد من دراستها بشكل مفصل كامل وهي؛ إذا كان الخلاص كله قد تم يوم الجمعة الكبيرة حسب عبارات بعض الإكليروس الذي يدَّعي الأرثوذكسية (١٨)، فما هو سبب وجود جسد الرب ودمه على المذبح؟

نحن نسأل؛ لأن الكنيسة القبطية سوف تدخل متاهات العصر الوسيط، عصر عقيدة الكفارة الذي أبدعته أقلام الكاثوليك، وتحول إلى سلاح في يد قادة حركة الإصلاح للقضاء على ذبيحة القداس والكهنوت نفسه في أوروبا، ومهَّد لتكوين كنائس أوروبية مستقلة عن روما.

---

(١٨) حيث يقول: "ذلك لأن دمه سفك يوم الجمعة، وجسده قد بذل يوم الجمعة، اليوم الذي تم فيه الخلاص، إن حديثه يوم الخميس، كان عن الخلاص الذي سيتم يوم الجمعة". راجع بالتفصيل الفصل الأخير من هذه الدراسة.

الاعتراضات العقائدية الأرثوذكسية
على تعليم حركة الإصلاح

لماذا يجب أن نختلف مع لاهوت حركة الإصلاح؟

الجواب الصريح هو: لأن موت المسيح وقيامته وليس موت المسيح فقط، بل وسكنى الروح القدس هو قلب وجوهر لاهوت الأسرار: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا.

نحن لا نتذكر حدثاً تم وانتهى، أي ذكرى عقلية تعتمد على الكلمات والأفكار، وإنما نحن نتذكر ما أخذناه وقبلناه، وهي ذكرى سرية *Mystical* تعتمد على الكلمة وشركتنا في موت المسيح وقيامته بالروح القدس، وهي شركة تُغرس فينا في المعمودية، وتأخذ قوتها واستمرارها بمسحة الروح القدس، وتتغذى بالخبز السمائي جسد الرب ودمه. وهكذا – حسب الأرثوذكسية – لا يمر موت الرب وقيامته في عقولنا فقط، بل يمر بقوة القيامة وبعمل الروح القدس فينا، قوة حياة تبيد الموت. قوة غفران تجدِّد. قوة تعيد تكوين الإنسان حسب صورة المسيح.

لقد مات الرب على الصليب لكي يبيد الموت، هذا ما يعلنه العهد الجديد حسب الإيمان الأُرثوذكسي ويعبِّر عنه بكلمات مثل: الفداء والكفارة والخلاص. فالإفخارستيا **"فدية"** أي قوة تحرر الإنسان. وسكنى الروح القدس فينا **"كفارة"**؛ لأن الروح يطهرنا، والكفارة تطهير وغسل من الخطايا بدم المسيح وبالروح القدس. فالأرثوذكسية لا تفصل عمل المسيح وخدمته عن عمل الروح القدس وخدمته. وبالرغم من أننا سوف نناقش هذه الاعتراضات على هذا التعليم تفصيلاً على مدى فصول هذه الدراسة إلاَّ أننا نضعها هنا إجمالاً في الآتي:

أولاً: حصر تقديم الفدية للآب وحده وإنكار تقديم دم المسيح للمؤمنين.

ثانياً: حصر الخلاص في علاقة الآب بالابن وإغفال دور الروح القدس.

ثالثاً: اعتبار أن الخلاص حدثٌ تم وانتهى يوم الجمعة العظيمة [١٩]، وبالتالي إنكار علاقة موت الرب وقيامته وسكنى الروح القدس بالأسرار.

أمَّا **الاعتراض الأساسي:** فهو إنكار وحدة الأقانيم، أي إنكار عقيدة الثالوث وهو إنكار سقط فيه معلمي هذا الزمان، ربما عن حسن نية وتحت وطأة الحماس والاندفاع نحو اتهام الذين يختلفون معهم في الرأي. فقد رأينا الثالوث ينقسم إلى:

* آبٍ غاضب، وابنٍ مغضوب عليه،

* آب يصب نار العدل ويحرق الابن، وابن يتحول إلى رماد. وكل ذلك لكي يرضى الآب، وليس ثمة إشارة بالمرة إلى رضى الابن أو رضى الروح القدس، ولا حتى أية إشارة، ولو ضمنية إلى أن العدل الإلهي هو عدل الآب والابن والروح القدس.

(١٩) غلب الرب الموت في الآخرين مثل لعازر، وابن الأرملة، أما وهو معلق على الصليب في يوم الجمعة، فقد غلب الرب الموت علانية في كيانه لكي ينقل إلينا الغلبة والانتصار. لقد سبقت غلبة الموت يوم الجمعة، ولكن الموت الذي غلب في آخرين كان ولابد أن يُغلب إلى الأبد في المسيح، وهو ما تعلنه القيامة المجيدة. وهكذا كل ما حدث سابقاً قبل يوم الجمعة صار معلناً للإنسانية كلها على الجلجثة، ومن القبر بالموت وبالقيامة. – أنظر بتفصيل أوفى الفصل الأخير من هذه الدراسة.

الباب الأول

في التمهيد السابق أشرنا باختصار إلى بعض مقولات الفكر السائد في الكنيسة القبطية بخصوص عقيدة موت المسيح على الصليب، وبيَّنا أن هذا الفكر يتعارض مع ما ورد في صلوات الكنيسة وتسليم الآباء.

وفي شيءٍ من التفصيل نبين في الفصل الأول تطابق هذا الفكر مع مقولات اللاهوت البروتستانتي، ونرده إلى أصوله في المراجع البروتستانتية، فنعرض لتعليم لوثر وكالفن عن الثمن الذي دُفع على الصليب. وفي الفصل الثاني للفداء والكفارة والعدل الإلهي في الدراسات الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة.

لوثر وكالفن
والثمن الذي دفع على الصليب

مقدمة:

تركت حركة الإصلاح آثاراً واضحةً على الفكر المسيحي كله. وتاريخياً، لم يكن للشرق أية علاقة بما حدث في أوروبا في القرن السادس عشر وما بعده. ولكن عندما جاءت الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية إلى الشرق العربي في ظل جيوش الاحتلال الفرنسي ثم البريطاني، دارت المطابع وأخرجت عدة كتب عربية طُبعت في القاهرة وبيروت، بل وفي لندن وروما .... وعنها نقل الأقباط الكثير.

على السطح، يبدو لنا أن موت المسيح على الصليب هو إيمان عام شامل لدى كل الكنائس، ولكن الفارق الكبير بين الحقيقة التاريخية وهي موت الرب، وبين تفسير هذه الحقيقة، هو ذاته الفرق الكبير بين الشرق والغرب، بين الأُرثوذكسية وتعاليم الشّيَع المسيحية. والقصد من كتابة هذا الفصل بالذات هو أن نحفظ مكانة الأسرار لا سيما سر الإفخارستيا، حتى لا تأتي في المستقبل أجيال من أبناء كنيستنا القبطية وتقع في ذات الفخ الذي وقع فيه لوثر وكالفن، وتنقضٌّ على الأسرار الكنسية باسم عقيدة الفداء نفسها، وعندئذ يصبح الصليب هو أداة اقتلاع الأسرار من جذورها وبالتالي القضاء عليها.

على أننا وقبل أن نغوص في تفاصيل هذا البحث علينا أولاً أن نطرح عدة أسئلة تثور في الذهن بمناسبة هذا الموضوع: ما هو ثمن الخطية؟ وهو سؤال يجب أن نسأله قبل أن نسأل عمَّن دفع الثمن؟ هل حدد الكتاب المقدس، والآباء القديسين ثمن أية خطية؟

الجواب بكل تأكيد لا، فالكتاب المقدس لا يقول لنا إن ثمن خطية القتل أكبر من ثمن خطية الزنى مثلاً .. ليس لدينا قائمة تحدد أثمان كل خطية.

هل ثمن الخطية هو دم المسيح.

هذا السؤال، رغم أنه لا يستحق التفكير، لكن يجب التوقف عنده لبرهة، وذلك حتى لا يُصبح إيماننا مجرد أفكار شعبية لا أساس لها في الواقع ولا في التاريخ ولا في الكتاب المقدس ولا عند الآباء، بل لا يجب حتى أن يقبلها العقل. وإذا كان الموضوع هو التساؤل عن « **ثمن الخطية** » ، وطالما أن الإنسان لم يدفع هذا الثمن، وكان من دفع هو المسيح ـ وذلك طبقاً للفكر السائد ـ فإن هذا يضعنا أمام أحد الاحتمالات التالية، وهي كلها احتمالات خاطئة لا يرضى بها أصحاب الضمائر السليمة.

الاحتمال الأول: إن الخطية تساوي ابن الله!

وهذه الفكرة شنيعة جداً؛ لأن ابن الله هو الأُقنوم الثاني الإله المتجسد، فكيف يمكن أن تتساوى أعمال البشر مهما كانت بالجالس على الشاروبيم وخالق كل الأشياء (عب ١: ٣).

الاحتمال الثاني: إن الخطية لا تساوي ابن الله فعلاً وحقاً، ولكن هذه الفكرة تُقال لكي تدفع الناس، والخطاة جميعاً إلى التوبة.

ورغم أن هذه الفكرة أقل شناعة من الفكرة الأولى، ولكن استخدامها يستند إلى السلوك الاجتماعي والفكر السياسي الذي يدفع الناس إلى تصرف معين بقوة ضغط هائلة هي قوة **"الشعور بالذنب"** .

إن التوبة "*Metanouia*" ـ من الأصل اليوناني" Μετανουια "ــ هي

"تغيير الفكر" ، وبالتالي هي اكتشافٌ لمحبة الله، وشوق إليه يفوق شوقنا إلى الخطية.

وتوبة **"الشعور بالذنب"** لا يمكن أن تُقارن بتوبة المحبة الكاملة التي يبشرنا بها الرسول يوحنا « المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج » (١يو ٤ : ١٨).

الاحتمال الثالث: إن الثمن هو تأكيد يقال دون أن يكون له مضمون في الواقع، وذلك لتأكيد غضب الله وقداسته.

وهذا يعني أنه لم يكن هناك حقاً ـ في الواقع ـ ثمناً دُفع، ولكن الفكرة تُقدّم من أجل تأكيد غضب الله وضرورة تقديم ترضية مناسبة تجعل هذا الغضب يهدأ أو يتوقف تماماً.

وهذه أيضاً فكرةٌ شنيعةٌ تماماً لأنها:

أولاً: ليست في الكتاب المقدس، ولا هي عند الآباء، وإنما علَّم بها لاهوتي غربي هو أنسلم *Anselm*[(١)]، لأنه كان أحد الذين أرادوا تأكيد حق وجود وشرعية حكومات عصر الإقطاع الأوروبي، حيث لا يقبل النبيل وسيد الإقطاعية أن يُعامل مثل الفلاح والأجير، ولذلك لا تُعتبر إهانة السيد والأمير مثل إهانة عامة الناس، وبالتالي تحتاج هذه الإهانة إلى ترضية تصرف غضب السيد والأمير.

ثانياً: هذه فكرة وثنية تماماً، ولعل القارئ قد لاحظ تسرب هذه **"الوثنية"** تحت اسم عقيدة الكفارة؛ لأن الله صار مثل الأمير، ذلك لأن الأمير صار مثل الله، فهو ظل الله على الأرض. وإذا صار الأمير ظل الله، استتب سلطان الحكومة. أمَّا إذا أصبح الله مثل الأمير، تحوَّل الإيمان من إيمان

---

(١) راجع أنسلم، رئيس أساقفة كانتربري – إنجلترا (لماذا تجسد الله؟ - Cur Deus Homo) حيث يقول [إنه لا يكفي بالمرة إعادة ما أُخذ، ولكن الإهانة التي حدثت تستدعي أن يعطى أكثر مما أخذ. وكما أن من يسيء إلى حياة شخص ما أو صحته لا يكتفي برد هذه الصحة فقط، بل يعطي لهذا الإنسان تعويضاً عن الآلام التي سببها، وبالتالي إذا أساء إنسان وأهان كرامة آخر، فلا يكفي رد هذه الكرامة، وإنما لابد أن يدفع لمن أُهين شيئاً يرضي من أُهين، ويتفق مع طبيعة ونوع الإهانة نفسها ... وهذه هي الترضية التي يجب أن يقدمها كل خاطئ لله] فصل ١ : ١١. ويقول أيضاً: [غفران الخطايا بكل وضوح هو عدم العقاب، وحيث أن الخطية لا يمكن استبعادها بدون ترضية مناسبة، تبقى العقوبة قائمة] فصل ١ : ١٢.

بإله حي إلى إيمان بوثن واختلطت القيم وامتزجت العلاقات، وصار الله يُدرك على أنه كائن مثل باقي البشر، وعادت الوثنية تحت عباءة وعمامة عقيدة مقدسة، هي عقيدة الكفارة.

الاحتمال الرابع: هو أن فكرة الثمن هي مجرد استعارةٌ *Metaphor* شائعةٌ وعامةٌ في كل الحضارات، وتقال من أجل تقريب الإيمان نفسه إلى العقل.

وهذه هي أقل الأفكار ضرراً، إنما يزداد ضررها إذا ما تحولت الاستعارة نفسها إلى حقيقة مطلقة وعقيدة يهدد بها بعض الإكليروس القبطي كل الذين لا يقبلون هذه الفكرة التي لا أساس لها في تراثنا اللاهوتي الأرثوذكسي.

تقسيم :

قد يظن البعض، خطأً، أن فكرة دفع ثمن الخطايا هي فكرة ضاربة بجذورها في القِدم، أو أن لها أصولها في الكتاب المقدس أو الليتورجية، ولكننا من خلال البحث في تاريخ هذه الفكرة وجدنا أنها لا تعدو أن تكون استعارة استخدمت لتوضيح الإيمان، ولكنها خرجت عن هذا السياق في لاهوت العصر الوسيط وفكر حركة الإصلاح فيما بعد. وهذا هو ما سيتضح لنا من خلال عرضنا في المبحث الأول للأثر السلبي لهذا التعليم على وحدة جوهر الثالوث القدوس، وهو ما يقطع بحداثة هذه الفكرة، فلم يستخدمها أيٌ من الآباء. ولذلك نعرض في المبحث الثاني لتاريخ فكرة دفع الثمن وتطور الفكر الديني الأوروبي. ومن ثم، تأكيداً لذلك، نعرض لبعض النصوص الأساسية لهذه الفكرة عند كل من لوثر وكالفن، وذلك في المبحث الثالث. عندئذٍ يتضح لنا بجلاء أثر هذا التعليم في لاهوت الأسرار، وهو ما نعرض له في المبحث الرابع. وفي المبحث الخامس نبسط لنقد مدرسة التاريخ الكنسي في القرن العشرين لفكر حركة الإصلاح.

" دفع الثمن للآب "
ووحدة جوهر الثالوث

التعليم بدفع الثمن للآب هو تعليم مضاد لوحدة جوهر الثالوث

إذا كانت كلمة الـ "نعمة" هي إحدى مكونات عقيدة الخلاص، وكانت هذه الكلمة تُعبِّر في شمولٍ عن هذه العقيدة، فإن ما يجب الالتفات إليه هو أن هناك نعمة واحدة للثالوث القدوس. وفي ذلك يقول القديس اثناسيوس:

> [حينما يُعطي الآب النعمة والسلام، فالابن أيضاً يُعطيهما، كما يكتب بولس في كل رسالة له قائلاً: « نعمةٌ لكم وسلامٌ من اللّه أبينا، والرب يسوع المسيح» (رو ١ : ٧ وغيرها من نصوص رسائل بولس) لأنه توجد نعمة واحدة هي نفس النعمة التي من الآب بالابن .... وحينما يدعو الرسول لكنيسة تسالونيكي فهو يقول لهم « واللّه نفسه أبونا، وربنا يسوع المسيح يهدي طريقنا إليكم » (١ تسالونيكي ٣ : ١١) فهو بهذا يحفظ وحدة الآب والابن معاً. فهو لم يقل يهديان، كما لو كانت هناك نعمة مزدوجة تُعطى من مصدرين هذا وذاك، بل قال يهدي لكي يبين أن الآب يهدي بواسطة الابن]
>
> (المقالة الثالثة ضد أريوس: ١١ ص ٢٩ من الترجمة العربية).

ويقول أيضاً:

> [حينما قال الرسول « نعمةٌ لكم وسلامٌ من اللّه أبينا، والرب يسوع المسيح » (رو ١ : ٧) فإنه بهذا صارت البركة مضمونة بسبب عدم انفصال الآب عن الابن، ولأجل ذلك فالنعمة التي تُعطى منهما هي واحدة، وهي هي نفسها، فرغم أن الآب يُعطي النعمة إلاَّ أنها تُوهَب

بالابن، ورغم أن الابن هو الذي يهب النعمة، فالآب هو الذي يُعطيها بالابن، وفي الابن..] (المرجع السابق: ١٣ ص ٣٢).

وحتى لا يظن أحدٌ أن الكلام عن النعمة هو كلام لا يمس عقيدة الخلاص، أو الفداء يقول اثناسيوس بشكل قاطع:

[الكلمة ليس منفصلاً عن الآب، ولا هو مغاير لجوهر الآب، ولا هو غريب عنه فالأعمال التي يعملها هي أعمال الآب، وصنعه لكل الأشياء هو واحد معه، فالعطايا التي يعطيها الابن هي عطايا الآب]

(المرجع السابق: ١٤ ص ٣٤).

ويقول رداً على فكر الأريوسيين مؤكداً:

[لا ندع هذا الفكر يأتي إلى أذهاننا إطلاقاً، لأنه يوجد جوهر واحد للاهوت (الكلمة اليونانية ειδος تعني جوهر، صفة، خاصة) وهو ذات الجوهر الخاص بالكلمة لأن الله واحد، الآب الكائن بذاته، الذي هو فوق الكل، ومُعلَن في الابن الذي يتخلل كل الأشياء، ومُعلَن في الروح، لأنه فيه يعمل في كل الأشياء بواسطة الكلمة. وهكذا نحن نعترف بالله الواحد في الثالوث. ونقول إن هذا الإيمان بالإله الواحد في الثالوث هو التقوى التي تفوق تقوى تعليم الهراطقة عن الله الذي يحتوي أنواع متعددة وأجزاء كثيرة..]

(المرجع السابق: ١٥ ص ٤٠٢ الترجمة الإنجليزية).

ولذلك، وكما مر بنا لا يمكن أن نتصور أن الروح القدس فارق الابن لأنه هو الذي كوَّن جسد الابن ومسحه في الأردن، واشترك معه في المعجزات، وهو ذاته الذي به دخل الابن المسيح، أي الممسوح بالروح القدس إلى قدس الأقداس حسب كلمات الرسول « فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب، يُطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عب ٩ : ١٤)، ولا يمكن أن نتصور أن الروح القدس لم يشترك مع الابن في الخلاص، بل كان أشبه بالمتفرج. وإذا كان الجدال اللاهوتي بين الشرق والغرب حول استدعاء الروح القدس في القداس لتقديس الخبز والخمر قد أفاد علم اللاهوت، فهذه الإفادة كانت في تأكيد الحقيقة التي تغيب عن أذهان اخوتنا في الغرب، وهي إنَّ ما يصلنا من الابن، إنما يُعطى بواسطة الروح القدس، ولأن الابن قدم ذاته كمسيح دُهن أو

مُسح بالروح القدس لكي يفتدي البشرية. ولـولا وحـدة النعمـة، ووحـدة العمـل الإلهي الذي مسح رئيس الكهنة يسوع المـسيح، لعجـزت الكنيـسة الـشرقية عـن استدعاء الروح القدس على القربان. ولأن الرب قدم دمه بالروح القـدس .. صـار تقديم الدم لنا في الإفخارستيا بالروح القدس .. بل صار التناول من الأسـرار هـو امتلاء من الروح القدس حسب تعليم صلوات القداسات الشرقية كلها :

[نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر لكـي إذ طهرتنـا كلنـا ، تؤلِّفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية لكـي نكـون مملوءين من روحك القدوس] (القداس الباسيلي).

وما أكثر النصوص عند الآباء التي تؤكـد أن التنـاول امـتلاءٌ مـن الـروح القـدس، وبشكل خاص شَرْح القديس كيرلس الكبير للإيمان الأرثوذكسي في تفسير إنجيل يوحنا الإصحاح السادس والإصحاح الخامس عشر، وفي مواضع أخرى. حيث يقول في شرحه لكلمات الرب في يوحنا ٦: ٥٧ :

[« وكما أن الآب حيٌ، وأنـا حـي بـالآب، هـكـذا كـل مـن يـأكلني يحيـا بـي » (يو ٦ : ٥٧) « أنـا حـي بـالآب »، أي أنـا أملـك في كيـاني الطبيعـة الفائقـة لمـن ولـدني، وهـكـذا كـل مـن يـشترك في جـسدي ينالني في كيانه « ويحيا بي » إذ يتحول تمامـاً *transelemented* إلـيَّ أنا القادر على أن أُعطي الحيـاة؛ لأنـني أنـا كمـا لـو كنـت مـن جـذر الحيـاة، أي الله الآب، وإذا قـال إن تجـسده مـن الآب، فـإن سـليمان يقـول « الحكمـة بنـت بيتهـا » (أمثال ٩ : ١)، والمـلاك الطـاهر غبريـال ينسب خلق الجسد الإلهي إلى عمل الـروح القـدس .. « الـروح القـدس يحـل عليـك » (لو ١ : ٣٥) وهـذا يجعلنـا نفهـم أن جـوهر اللاهـوت هـو طبيعـة واحـدة في الآب والابـن والـروح القـدس، ولا يعمـل أي أُقنـوم عملـه منفـصلاً، بـل كـل مـا يُقـال أنـه عُمـل بواسـطة واحـد مـن الأقانيم، فهو عمل الطبيعـة الإلهيـة كلهـا. فالثـالوث واحـد بـالجوهر ومتساوٍ، وقوته بكـل يقـين هـي قـوة واحـدة تعمـل في الكـل، وكـل الأشياء من الآب بالابن في الروح القدس].

(شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول – الكتاب الرابع فصل ٣ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ الترجمة الإنجليزية).

ولاتسمح وحدة الجوهر والطبيعة الإلهية الواحدة بتعدد الإرادة، لأن تعدد الإرادة يعني الانفصال وانقسام الثالوث إلى ثلاث طبائع منفصلة، مما يقضي على وحدة الجوهر. فإذا كان كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس، نعمة واحدة، وعمل واحد يقوم به الواحد في الثالوث، والثالوث في الواحد، أصبح من المستحيل تماماً أن نتصور أن الآب يطلب ثمناً مهما كان نوعه من الابن، أو من الروح القدس، لأن هذا يعني أن للآب إرادة غير إرادة الابن، وأن الابن يملك شيئاً لا يملكه الآب.

إن هذا يعني أنه يجب أن نكون متأكدين من أن ما يقال عن الفدية أو الثمن، إن كان بشكل أرثوذكسي، فهو لا يقضي في النهاية على وحدة الجوهر، لأن خلاص الإنسانية، بل بقاء الخليقة عائد إلى وحدة جوهر اللاهوت الذي يقود الخليقة المنقسمة إلى وحدة كاملة في الحياة الأبدية.

وقديماً عندما شاعت فكرة دفع الفدية للشيطان، كان القديس غريغوريوس الثيئولوغوس هو أول من كتب نقداً شديد اللهجة، قوي الحجة، وقال:

[إننا لم نكن ، حتى، أسرى لله الآب نفسه، فلم يأت الابن، لكي يحررنا بدفع فدية للآب، بل لكي يبيد الموت، ولم نكن في حاجة إلى من يفدينا من الله، بل من الموت]

(راجع المقالة ٥٥: ٢٢).

ولو تصورنا أن الفدية أو الثمن يمكن أن تُدفع من أُقنوم لآخر، لواجهتنا عدة صعوبات، فهي في النهاية إنكارٌ لعقيدة المسيحية الكبرى، أي عقيدة الثالوث. وهنا بعض الأمثلة نقدمها في حياءٍ؛ لأن الوحدة الفائقة لجوهر اللاهوت لا تسمح لنا بالكلام المتطرف الذي يلوث أذهاننا. كما نقدمها في خوفٍ؛ لأن بعض هذه الأفكار هو تجديف على الله الواحد المثلث الأقانيم.

المثال الأول: يقول ربنا يسوع المسيح إنه «حي بالآب» (يو ٦: ٥٧)، فهل كان حياً بالآب وهو على الصليب؟ وهل ظل وهو معلق على الصليب «واحداً مع الآب» (يو ١٠: ٣٠)؟ وهل كان الآب فيه كما كان هو في الآب (يو ٨: ٢٩) أم أن كل هذه

الخصائص الفائقة الخاصة بالعلاقة الأُقنومية في الجوهر الواحد قد تسرب إليها الانفصال؟ ... إمَّا أن الطبيعة الإلهية لا تقبل التغيير، وهذا يمس المحبة الإلهية نفسها قبل أي صفة أخرى، وإمَّا أنها مثل الطبائع المخلوقة تقبل التغيير، وهذا يعني أن محبة الله الآب تغيرت عند موت الابن الوحيد .. وإذا كان الرأي الأول هو التعليم القويم، بات من الضروري أن نرفض أن يكون الآب بعيداً أو منفصلاً عن الابن حتى يقبل منه فدية أو ثمناً يدفعه الابن للآب؛ لأن هذا يعني أن الآب يملك ما لا يملكه الابن، وأن الابن يُعطي ما لا يملكه الآب، وأن الآب احتاج إلى شيء لا يملكه، وطلبه من الابن مع أن الآب هو مصدر حياة الابن حسب قول المخلص نفسه (يوحنا ٧ : ٥٧).

المثال الثاني: يقول ربنا يسوع المسيح : «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك. لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله .. لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب .. » (يو ٥ : ١٩ـ٢٣) فإذا كانت إرادة الابن هي إرادة الآب، ولذلك لا يعمل الابن من نفسه، أي باستقلال عن الآب، فهل قرر الابن وحده أن يدفع الفدية والثمن للآب؟ وإذا كان الجواب بالنفي وصار القرار والإرادة، هو قرار وإرادة الآب والابن، بات من الضروري أن نقول إن الآب والابن، بل والروح القدس لهم قرار واحد وإرادة واحدة لدفع الفدية، وإذا كانت الإرادة واحدة .. فمن الذي دفع، ومن الذي استلم؟ ألا ترى معي عزيزي القارئ أن فكرة الدفع، مهما كان القصد منها، هي فكرة ضد وحدة الجوهر؟

المثال الثالث: يقول الابن المتجسد «لست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني الآب، والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني وحدي ..» (يوحنا ٨ : ٢٩) فهل كان الآب مع الابن وفي الابن .. أي هل دفع الآب نفسه فدية؟ إذا كان مع الابن ولم يترك الابن وحده؟ .. وإذا كان الابن يعمل أعمال الآب لأن الآب في الابن (يوحنا ١٠: ٣٨)، فهل كان الآب في الابن عندما دفع الفدية؟ فإذا كان الجواب بالنفي بسبب وحدة الجوهر، كان الرد بالإيجاب هو دعوة لتقسيم الجوهر الواحد. وإذا كان الآب في

الابن منذ الأزل، وعلى الصليب، فقد سقطت فكرة دفـع الـثمن، لأن الآب دفـع ولم يأخذ شيئاً من الابن، لأنه واحد مع الابن في الجوهر وفي الإرادة.

ولأن الله ثالوث، قدَّمنا هذه الأمثلة كرمز لتلك الحقيقة الكبرى، وهـي وحـدة جوهر اللاهوت، وقد اكتفينا بهذه الأمثلة الثلاثة حرصـاً علـى عـدم إثـارة قلـق القارئ، وخوفاً على البسطاء. بالطبع سوف نقوم بـشرح المجـاز الخـاص بالفديـة، ومعنى الشراء في فصل مستقل، ولكن قبل هذا يجب أن نُلقي نظرة شاملة علـى تعليم قادة حركة الإصلاح الأوروبي.

تطور الفكر الديني الأوروبي
وتاريخ فكرة دفع الثمن

مقدمة :

وقدَّم لنا أساتذة تاريخ الفكر المسيحي الأوروبي أكثر من موسوعة تتناول تطور الفكر الديني الأوروبي منذ العصر الوسيط [(١)]، نشير إلى بعضها هنا:

Gustav Aulen, Christus Victor. 1931.

Emil Brunner, The Mediator, 1934.

Vicent Taylor, The Cross of Christ, 1956.

وقد طبعت هذه الكتب عدة طبعات فيما بعد.

ووضع أستاذ تاريخ الفكر المسيحي في جامعة مانشستر بإنجلترا، كتاباً لكل جامعات إنجلترا، تربَّت عليه أجيالٌ كثيرة.

L.W. Grensted, A Short History of the Doctrine of the Atonement, 1920.

وقد أُعيد طبعه عدة مرات كان آخرها ١٩٨٢م.

---

(١) يجب أن نوجه نظر القارئ العربي إلى أن حركة الإصلاح البروتستانتية قد مرت بثلاث مراحل مختلفة:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة اكتشاف تراث الآباء وتعليم الآباء في بداية القرن السادس عشر عند لوثر وكالفن وكان اكتشاف لوثر لكتابات أوغسطينوس - بدون إضافات وشروحات العصر الوسيط - هي التي فصلت لوثر عن لاهوت العصر الوسيط. كما اكتشف كالفن كتابات يوحنا ذهبي الفم - بدون إضافات وشروحات العصر الوسيط أيضاً - ولذلك جاءت كتابات هؤلاء أقرب إلى لاهوت الآباء في عدة موضوعات؛ مثل الثالوث، التجسد، الكنيسة، ولكن وبكل أسف لم يتمكن لوثر وكالفن من استبعاد الجدل الخاص بالأسرار الكنسية الذي نشأ في القرن الحادي عشر وفصل بين الأسرار وبين الصليب والقيامة والروح القدس بشكل خاص.

المرحلة الثانية: بدأت هذه المرحلة في القرن السابع عشر، وفيها تم رفض كل ما جاء في التقليد الكنسي الذي دافع عنه كل من لوثر وكالفن، واكتفى بما جاء في الكتاب المقدس.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة النهضة الإنجيلية (البروتستانتية) التي رفضت كل ما جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد وصلت هذه النهضة إلى الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر مع حركة الإرساليات. وهكذا لم تُعرف كتابات لوثر وكالفن بالمرة في الشرق الأوسط، ولذلك يجب مراجعة كل ما يقال عن حركة الإصلاح، لأن ما يقال باسم البروتستانتية في الشرق الأوسط هو لاهوت القرن الثامن عشر وحده، الذي رفض التقليد الآبائي كله.

أولاً: تطور الفكر الديني الأوروبي

ينتصب الصليبُ علامةً تميز طريق المحبة الإلهية عن غيره من الطرق، ولـذلك لا نجد في الفلسفة والقانون والثقافة البشرية ما يشرح هذه المحبة. فلقد أحبنـا الله بشكل وإعلان يختلف تماماً عن كل ما نعـرف. قـد نجـد في تراثنـا الإنـساني مـا يساعدنا على فهم المحبة الإلهية، ولكن المحبة الإلهية التي أعلنها المـسيح هـي الـتي تساعدنا على فهم عجز وضعف مستوى وعلاقات المحبة على مستوى المخلوقات كلها، وبالتالي لا يمكن لنا أن نترك المحبة الإلهية لكي نغـرق في نظريـات متتابعـة ولِدت في مدارس الفلسفة، ثم انتقلت إلى القانون الوضعي ثـم دخلـت بعـض مدارس اللاهوت في الغرب ومن ثمَّ أتت إلينا مع كُتب الإرسـاليات الأوروبيـة التي عرفناها مع مطلع القرن التاسع عشر بعد أن تمكنت جيوش الاحـتلال مـن شل الثقافة والحركات الوطنية.

المحبة الإلهية أزلية، بينما يتطور القانون الوضعي ويناله التغيير دائمـاً مـع تطـور ونمو الحضارة، فكيف يشرح ذلك الطفل الـصغير ـ ابـن الفلـسفة ـ المحبـة الإلهيـة الأزلية؟ بل كيف يمكن للإعلان الإلهي الذي أعطاه روح المحبة، أي الروح القـدس، أن يقع تحت تأثير وفحص وتحليل النظريات الحديثة التي تنطوي على خوف وقلـق وذنب الذين وضعوها؟ لقد مات المسيح حراً ومن فيض محبته قَبِـلَ الـصليب؛ لأن «الله بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مـات المـسيح لأجلنـا» (رو ٥: ٨) وهـذه هـي شريعة المحبة التي يعجز القانون الوضعي عن أن يشرحها، فإذا عجزت حكمة العالم عن أن تشرح الصليب فلا يجب أن يصيبنا الضيق، لأن حكمة العالم هذه يقول عنها نفس رسول المسيح «كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة» (١ كور ١: ٢١).

صحيح أنَّ كل الشرائع والأنظمة والعلوم هي ثمرة الحكمة الإنسانية حـسب كلمات الحكمة في سفر الأمثال «بي تملك الملـوك وتقـضي العظمـاء عـدلاً. بـي تترأس الرؤساء والشرفاء. كل قضاة الأرض» (أم ٨: ١٥ـ١٦). ولكـن علـى الـرغم من ذلك لم يعرف العالمُ الله بالحكمة لأن الحكمة معرفة ولهذه المعرفة طرق وسبل طويلة، ولذلك يقول الرسـول «يـسأل اليهـود آيـة ويطلـب اليونـانيون حكمـة.

ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً لليهود عثرة (فضيحة) ولليونانيين جهالة (ضد كل مبادئ المعرفة الفلسفية وقواعد المنطق) » ولكن بالنسبة للمدعوين للإنجيل « المسيح قوة الله وحكمة الله » . والصليب جهالةٌ، ولكن جهالة الله أحكم من الناس. والصليب ضعفٌ، ولكن ضعف الله حيث يموت ابنه على الصليب أقوى من كل ما يمكن أن تحققه قوة البشر (راجع ١ كور ١: ٢١ـ٢٥).

فإذا جاءت النظريات لكي تحول حكمة الله وقوة الله إلى حكمة العقل وقوة العقل، فَقَدَ الصليبُ قوته الإلهية وصار حكمة العالم وقوة العالم، وبطُلت عثرة الصليب وصار الصليب موضوعاً صالحاً لقواعد المنطق وحكم الفلسفة، وبذلك لم يعُد الصليب رسالة المحبة التي تعلو على كل قواعد المنطق، بل صار جزءً من المنطق ونظريات المعرفة. وإذا استوعب العقل البشري صليب المسيح، فَقَد الصليب قوته وصار العقل المحتاج إلى الخلاص أقوى من الصليب ينبوع الخلاص.

الصليب وعدالة القانون الوضعي

لا يختلف اثنان من البشر على أهمية القانون الوضعي في ردع الشر والأشرار وتحديد عقوبة مناسبة لكل عمل شرير مهما كان نوعه. هذه حقيقة يقول عنها الرسول بولس « أفتريد أن لا تخاف السلطان، افعل الصلاح فيكون لك مدح منه. لأنه خادم الله للصلاح. ولكن إن فعلت الشر فخَف. **لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر**. لذلك يلزم أن يُخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً الضمير » (رو ١٣ : ٢ـ٥). هنا يقف الصليب عند مفترق الطرق، طريق عدالة القانون الوضعي، وطريق العدالة الإلهية، ذلك أن عدالة القانون الوضعي هل جزاء الشر لكي يستقيم المجتمع وتنمو العلاقات الاجتماعية ويجد كل فرد الأمان في قوة القانون. وما أكثر الديانات التي جمعت بين الشريعة الإلهية والقانون الوضعي في كتابٍ واحدٍ، وفي مقدمة هذه الديانات الديانة اليهودية نفسها الأم التي ولدت المسيحية. وما أسفار العهد القديم ـ وبشكل خاص ـ سفري اللاويين والتثنية إلاَّ ذلك المزيج من

شريعة أخلاقية وعبادة إلى شريعة تنظم كل شيء في حياة المجتمع العبراني القديم. هذا الوضع يُطلِق عليه علماء الاجتماع الديني "الثيئوقراطية" أي الحكومة الإلهية التي لا ينفصل فيها الدين عن الحاكم أو الملك. والقانون الوضعي هنا هو بمثابة قانون إلهي يطبق باسم الله ومن أجل حماية القيم والمبادئ الدينية نفسها بما فيها العبادة والصلاة والطقوس الدينية. وهذا الوضع بالذات هو ما جعل عقوبة الشر عقوبة توقع على المذنب سواء تاب أم لم يتب. فشريعة العهد القديم تعرف عقوبات لا تعفي منها التوبة، مثل عقوبة مَن يشجع على العبادة الوثنية أو يرتد عن الإيمان «كل إنسان من بني إسرائيل أعطى من زرعه (ثمار الأرض) لمولك (إله الخصب في الديانة الكنعانية) فانه يُقتل يرجمه شعب الأرض بالحجارة» (لا ٢٠ : ١ـ٢). ومثل عقوبة من يعتدي على والديه «من يشتم أباه وأمه يُقتل» (خر ٢١ : ١٧). ومثل عقوبة الزنى «وإذا زنى رجل مع امرأة فإذا زنى مع امرأة قريبه فانه يُقتل الزاني والزانية» (لا ٢٠ : ٩ حتى ١٩). هذه أمثلة لخطايا لا تجُدِ معها التوبة أو الرجوع عنها، بل لها عقوبة الموت مهما كانت توبة الشرير.

وهكذا تظهر حقيقة الثيئوقراطية في الجمع بين ما يُعرف الآن بالسلطة الدينية والسلطة المدنية. هذا الجمع بين السلطتين في شريعة واحدة جعل عقوبة خطايا الزنى والارتداد وغيرها بلا مغفرة. ولعل القارئ يذكر الحادثة المشهورة التي ذكرها إنجيل يوحنا عن المرأة التي رفض المسيح له المجد أن يشترك مع قضاتها في رجمها «يا معلم هذه المرأة أُمسكت وهي تزني ... وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت؟» ولكن الرب قال عبارته المشهورة «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجرٍ .... ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يوحنا ٨ : ١ـ١١).

وهكذا جاء المسيح يفصل بين الله والملك، أو الله وقيصر وفصل بين الحكم على الشر حسب الشريعة، وبين علاج الخطية وغفرانها حسب شريعة الإنجيل. وبذلك تحول القصاص إلى جهة الاختصاص وهي المحكمة والقانون الوضعي. ولعل أعمق ما يعبِّر عن تلك الشريعة الجديدة هي العظة على الجبل:

الناموس	الإنجيل
ـ من قتل يكون مستوجب الحكم (يُقتل)	ـ من يغضب على أخيه باطلاً مستوجب الحكم (عدم المغفرة من الله حسب كلام الرب نفسه في متى ١٨ : ٣٥)
ـ عين بعين وسن بسن	ـ لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر
ـ تحب قريبك وتبغض عدوك	ـ أحبوا أعدائكم. باركوا لاعنيكم

ولم ينكر المسيح حق التقاضي في المحاكم، ولكنه اعتبر هذا الحق هو آخر ما يلجأ إليه الإنسان، وهو أضعف الحقوق حسب شريعة الإنجيل إذ يقول الرب « كن مراضياً لخصمك **سريعاً** ما دمت معه في الطريق. لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ... » (متى ٥ : ٢٥ـ٢٦) وكانت محكمة القديسين ـ أي المحكمة الروحية التي يقول عنها الرسول « أيتجاسر أحد منكم له دعوة على الآخر **أن يحكم عند الظالمين** وليس عند القديسين» (١ كور ٦ : ١) ـ هي التي تحكم بين المؤمنين؛ لأن القانون الوضعي مهما كان ليس في استطاعته أن يُعلن المحبة ولا أن يقدم الغفران ولا يشفي من الانقسام، ولذلك يطلب الرسول أن يحكم الحكماء في الأمور التي يُختلف عليها « لكن الأخ يحاكم الأخ وذلك عند غير المؤمنين. فالآن فيكم عيبٌ مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض ... أنتم تظلمون وتسلبون الأخوة» (١ كور ٦ : ١ـ٩). هذا العيب هو سلوك غير مقبول ولا يليق بمن طلب غفران الإساءة وجعل الغفران نفسه أحد جوانب العبادة حسب كلمات الصلاة الوحيدة التي علمها الرب نفسه «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً ...».

وحسب حكم شريعة موسى كان من الضروري أن تُرجم الزانية، وأن يطلب الرب نفسه على الصليب عقوبة الموت لمن صلبوه لأنهم ارتكبوا جريمة قتل، ولكن الرب طلب المغفرة من الآب والتمس لهم عذر الجهل «لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون» ، وهو عذرٌ لا يقبله القانون الوضعي ولا أي شريعة؛ لأن الجهل لا يعفي القاتل أو الزاني من العقوبة.

وهكذا، عند الصليب انفصلت الشريعة الوضعية والقانون الوضعي والعدالة

الأرضية عن شريعة الإنجيل، شريعة محبة الأعداء والميل الثاني وغفران الخطايا. وإذا كانت شريعة موسى تقول عينٌ بعين، وسنٌ بسن، فإن الغفران في الإنجيل صار هو الشرط الوحيد لقبول الإنسان عند الله «إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم» (متى ٦ : ١٥).

عودة الثيئوقراطية بقيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة

تمخض الصراع السياسي بين روما وبيزنطة باستقلال سياسي شجعه وباركه أساقفة روما في محاولات دائمة لخلق كتلة سياسية عسكرية تنفصل عن الشرق وتعود العاصمة روما إلى مجدها القديم. وجاءت آخر محاولة غربية بالنجاح بمسح شارلمان إمبراطور على الإمبراطورية الرومانية في سنة ٧٦٨ وفي ١٦ يوليو تم إعلانه Patricius Romanerum وكرس هذا الانفصال السياسي عن الشرق البيزنطي ضرورة العودة إلى التشريع والقانون الوضعي الروماني القديم، وضم إليه المشرعون الجدد القانون القديم الوارد في سفري اللاويين والتثنية مع أجزاء من سفر العدد لكي ينال القانون الجديد الصفة الدينية ويحظى بموافقة الكنيسة الرومانية التي كانت في حقيقة الأمر ذات صفة دينية وسياسية معاً. وجاءت تلك النقلة الخطيرة بما يلي:

أولاً: حكم سياسي باسم المسيح والمسيحية.

ثانياً: وحدة النظام القانوني ـ السياسي ـ الاجتماعي ـ الديني تحت سيادة الأساقفة والأمراء وهو ما يُعرف سياسياً بعصر الإقطاع.

ثالثاً: بدأ التنظير بصياغة نظريات سياسية عن حق الملك الإلهي، وولِدت العبارة الشائعة بأن الملك هو "ظل الله" على الأرض، كما أن أُسقف روما هو "ظل المسيح" ، وطبعاً لأن عقيدة الكنيسة تقول بأن المسيح هو الإله المتجسد بات من الحتمي أن تنشأ الحروب الدامية بين الأمراء وملوك أوربا وأُسقف روما لأنه ما هو الفرق الدقيق بين "ظل الله" و "ظل المسيح".

رابعاً: في هذه البيئة السياسية والثقافية ولِد اللاهوت المدرسي، وأصبح أحد

واجبات هذا اللاهوت هو إعادة تفسير العقيدة المسيحية بشكل سياسي يتفق مع الفكر السياسي واستبعاد العناصر التي من شأنها أن تخلق أي شك في صلاحية وأُلوهية النظام القائم وتطويع الإنجيل نفسه لخدمة الإمبراطور طالما أنه يلبس تاجاً يعلوه صليباً ويحكم باسم المسيح.

في هذه الأجواء كان من الصعب على المفكرين أن يقبلوا شريعة الميل الثاني والخد الآخر والصفح عن الذنوب، وذلك لأن المطلوب هو تحقيق هدف واضح ظاهر وهو إقامة حكومة مسيحية ونظام قانوني مسيحي. ولما كان الإنجيل لا يقدم هذا النظام بالمرة، بل يعتبره أقل بكثير من شريعة المحبة، ولما كان من الضروري أن يقوم نظام قانوني يعاقب المسيء والشرير بعدل القانون الوضعي أصبحت عقيدة الفداء نفسها هي حجر عثرة في طريق هذا التطور الجديد. ولم يكن لدى الذين عاشوا هذه الفترة أي رغبة في إعادة النظر في صدق الهدف وانسجامه مع الإنجيل، بل كانت الرغبة القوية هي أن يصبح الإنجيل هو أحد أحجار هذا البناء نفسه بعد أن يُقطع بشكل خاص لكي يدخل في البناء ـ حسب هندسة البناء نفسه ـ التصور القانوني للمسيحية حسب حكم الأباطرة.

ثانياً: تاريخ فكرة دفع الثمن

إن فكرة دفع الثمن وترضية العدل الإلهي كما قلنا هي فكرة لا وجود لها في الكتاب المقدس نفسه، ولا في كتابات الآباء شرقاً وغرباً في القرون الخمسة الأولى. ولا يجب أن تختلط هذه الفكرة بما يذكره الكتاب المقدس عن الفداء والفدية والكفارة، فهذا موضوع آخر لا علاقة له بالمرة بما حدث من تطور في العصر الوسيط لتلك النظرية التي بدأت على يد القديس أنسلم، ووصلت إلى آخر أشكالها بواسطة مارتن لوثر.

ففي الفصل التاسع من كتاب المؤرخ الإنجليزي *Grensted* السابق الإشارة إليه [1] يذكر المؤلف ما يلي:

([1]) L.W. Grensted, A Short History of the Doctrine of the Atonement, 1920.

«كانت مؤلفات قادة حركة الإصلاح هي التي أبـرزت التعلـيم بالفداء بشكل ظاهر، وتركت أثراً واضحاً علـى تـاريخ الفكـر اللاهـوتي. فقبـل حركـة الإصـلاح كانـت الإشـارة إلى نظريـة البـديل المعاقـب أو العقـابي *Penal Theory* (عقوبـة نالهـا المسيح بدلاً عن البشر)، تظهر في شكل شـذرات متفرقـة، أمَّـا بعد حركة الإصـلاح، فقـد صـارت هـذه النظريـة هـي الأرض المشتركة لأغلب المؤلفين البروتستانت» (ص ١٩٢).

ويذكر المؤلف الأسباب التاريخية التالية، باعتبارهـا أدت إلى بـروز هـذه الفكـرة واحتلالها مركز الصدارة في الفكر البروتستانتي:

١- «كانت إساءة استعمال أوراق الغفـران، وظهـور سـوق أوراق الغفـران، هـو بمثابـة بعـث لـشعور قـوي بأهميـة تعلـيم «الاستحقاقات *Merits* » (ص ١٩٢).

واستحقاق دم المسيح[٢]، وما إليـه هـو تعـبير كـاثوليكي سـابق علـى حركـة الإصلاح ذاتها، وهو قائم على حـصول المـسيح نفـسه بموتـه علـى اسـتحقاقات *Merits* تُعطى للمؤمنين، بالإيمان والمعمودية والإفخارستيا، وبسلطان الحل الـذي تملكه الكنيسة الكاثوليكية.

٢ـ «كان لوثر يشعر بالرعـب مـن الخطيـة، مثـل أوغـسطينوس، وكان كلاهما يرى أن الخلاص من الخطيـة لا يمكـن أن يـتم بدون نعمة» (ص ١٩٢).

وهنا نرى أن مشكلة شخص معين، سوف تصبغ فكر جماعـة كـبيرة، ويـصبح

---

(٢) يلاحظ أن تعبير استحقاق دم المسيح هو أيضاً من التعبيرات غير الأرثوذكسية السائدة في الفكر القبطي المعاصر، حيث يقول أحد المعلمين الجدد: "إذن دم المسيح موجود، مستعد أن يخلص، وكاف للخلاص، ولكن للخلاص شروطاً يجب أن تستوفى حتى يكون الخاطئ مستحقاً لهذا الدم .. ولكن مع وجود دم المسيح هناك أشخاص هلكوا، وأشخاص يهلكون، ذلك لأن استحقاقات دم المسيح لها شروط معينة". ويقول: "علينا أن نشترك معه في موته، حتى لا نكون بعيدين عن استحقاقات موت المسيح". كما يقول: "والمعمودية قد صيرتك ابناً لله، وجعلتك مستحقاً لنوال استحقاقات الدم". ويقول: "لكننا نكرر هنا ما سبق أن قلناه إن دم المسيح شيء، واستحقاق دم المسيح شيء آخر. إن كل ما نفعله ليس هو أن نسدد مطالب العدل الإلهي، وإنما أن نوجد أهلاً لاستحقاقات دم المسيح". ويقول البعض أيضاً: "إن الروح القدس بعمل فائق للطبيعة وفوق الزمان والمكان يعمل في سر العماد ويأخذ من استحقاقات موت المسيح ويعطينا".

الاختبار الشخصي هو معيار فهم الإنجيل كله، وليس التاريخ أو التقليد.

> ٣ـ «وكان تعليم العصر الوسيط قائم على أن الإنسان ـ السقوط ـ فقد كل شيء فقداناً كاملاً، وفسد فساداً كاملاً يتعذر إصلاحه» (ص ١٩٢).

وهذه الفكرة بالذات مرفوضة في الشرق؛ لأن العهد القديم مملوء بقديسين كان دورهم كبير في رسالة الخلاص وعاشوا حياة القداسة مثل يوسف وأشعياء، وغيرهم.

> ٤- «كان لوثر نفسه يشك في فاعلية معموديته؛ لأنها لم تجعله يشعر بالطهارة، لأنه كان يقع تحت سطوة التجارب» (ص ١٩٢-١٩٣).

> ٥- «وكان الإيمان بعدل الله وجزاء الخطية والخطاة هو موضوع لا يمكن الشك فيه؛ لأن العدل الإلهي يطلب قصاص الخطاة جميعاً» (ص ١٩٣).

ويقدم المؤلف بعد ذلك فقرة من الاعتراف بالإيمان باسم اعتراف *Augsburg* وهو ملخص لتعليم حركة الإصلاح:

> « لكي تتبرر ـ حسب الاستعمال القانوني *Forensic* ــ يعني هنا أن تنال البراءة، وأن يُطلق سراح المذنب، وأن تجعله باراً بسبب حساب *account* بر شخص آخر، أي المسيح، هذا البر الخاص بشخص آخر، يُعطى لنا بالإيمان» (ص ١٩٣).

وهكذا، ولِد تعليم "التبرير بالإيمان" بسبب بر المسيح الشخصي من داخل لاهوت العصر الوسيط.

وحسب تعليق *Grensted*:

> «وُلِد هذا الاستعمال التقني *Technical* للتبرير من خلال رسائل بولس، وهو يعني الخلاص من الحكم على الخطية، وصار بذلك المصطلح *Term* الخاص بموضوع التبرير. كما استخدمه قادة حركة الإصلاح بصورة مباشرة، وبوعي تام استخدموه ضد فكر العصر الوسيط» (ص ١٩٣).

ويشرح هذا المؤرخ معنى هذا الاصطلاح المبني على بعض فقرات من رسالة

القديس بولس إلى رومية، ويحدد معناه كالآتي:

«التبرير هو عمل إلهي بحت لا علاقة له ببر البشر، وإنما يخص بر المسيح وحده، ويُعطى لنا كما لو كان حُكماً يُنقل إلينا بشكل قانوني» (ص ١٩٣).

وهكذا، بمجيء لوثر وقادة حركة الإصلاح تحولت الإشارات المتفرقة والشذرات عن موت المسيح كمُعاقَبٍ عنا، أو ما أصبح يُعرف بـ **"البديل العقابي"** إلى سلاح حاد ضد تعليم العصر الوسيط نفسه. وهذا موقف معروف في تاريخ البشرية، فعندما تعود فكرة معينة كانت مهملة ومنسية للظهور مرة أخرى على السطح، قد تصبح ذات فاعلية وأهمية وتأثير أقوى إذا ما استدعت الظروف الاجتماعية ذلك .. وهنا نرى كيف أفرز لاهوت العصر الوسيط السلاح الذي قتل به نفسه، وذلك لأنَّ منطق وتعليم العصر الوسيط برمته كان يقوم على الأركان التالية:

أولاً: إن الخطية اعتداءٌ على الله.

ثانياً: لا يمكن غفران هذا الاعتداء إلاَّ بترضية.

ثالثاً: لقد قدم المسيح هذه الترضية، وبذلك نال الاستحقاقات *Merits* التي تملك الكنيسة حق توزيعها في الأسرار وصكوك الغفران.

رابعاً: لقد نال المسيح هذه الاستحقاقات بسبب العذاب الذي تحمله على الصليب، وهنا بشكل خاص تحولت آلام المسيح، في هذا الإطار القانوني، إلى الترضية التي يدفعها المجرم عندما يُسجن ويُجلد ويعذب عن خطاياه وشروره، وهنا الذي يدفع هذه الترضية هو المسيح نفسه.

وتجيء حركة الإصلاح، لكي تختزل كل هذا في قضية واحدة، وهي:

لقد دفع المسيح كل شيء، وقدم الترضية الشاملة، والثمن الكامل، ودفع كل هذا بالعذاب والدم، ولا توجد وسيلة أخرى ترضي عدل الله، سوى ما فعله المسيح.

والنتيجة المنطقية لذلك: هي إلغاء المطهر، وسلطان الحل في الاعتراف،

وذبيحة سر الشكر. وبكلمة أو عبارة واحدة، تحول موت الرب على الصليب إلى قرار يلغي ـ ليس فقط ـ فاعلية، بل وجود الأسرار الكنسية. وهكذا احتفظت حركة الإصلاح ـ من ناحية ـ بما جاء به العصر الوسيط نفسه وهو:

أولاً: لقد دفع ثمن الخطايا بموت المسيح.

ثانياً: إن الثمن هو العذاب والألم والدم.

ومن ناحية أخرى، استطاعت حركة الإصلاح أن تزعزع سلطان الكهنوت، وتقضي عليه؛ لأن المسيح فعل كل شيء، وأصبح الإيمان بما فعله المسيح هو غاية الحياة المسيحية، أي عودة إلى الماضي، إلى الصليب، وفصل الماضي عن الحاضر، أي القيامة، وبذلك تم فصل الصليب عن القيامة التي هي الحاضر والمستقبل.

النصوص الأساسية
عند لوثر وكالفن عن دفع الثمن

اعتمدنا في ذلك على طبعتين: الطبعة الدولية الألمانية.

Martin Luthers werke; weimar 1884.

والطبعة الدولية الأمريكية.

J. Pelikan, Luther's work, 1963.

مع ملاحظة إن أغلب نصوص مارتن لوثر تظهر في تفسيره لرسالة غلاطية، ورومية حيث يقول:

«وعندما وضعت عليه الخطية، يجيء الناموس ويقول: يجب على كل خاطئ أن يموت وهكذا شئت أيها المسيح أن تصبح الضمان، وأن تُصبح أنت المذنب، وأن تحمل العقوبة، و ها أنت تحمل أيضاً الخطية واللعنة»

(الطبعة الألمانية مجلد ٢: ص ٥١٧).

ويقول أيضاً:

«عندما رأى الآب الرحيم أننا تحت وطأة حكم الناموس، وأننا مستعبدين للعنة، ولا يوجد شيء آخر قادر على أن يحررنا من اللعنة، أرسل إبنه إلى العالم، ووضع عليه كل خطايا البشر، وقال له:

سوف تصبح أنت

بطرس الجاحد ..

بولس المُضطهد والمُجدِّف ..

داود الدموي العنيف، والزاني ..

اللص الخاطئ ..

آدم الذي سقط في الفردوس ..

*وبكلمة واحدة، أنت هو الشخص الذي يحمل خطايا كل هؤلاء البشر، وعليك أن تدفع الترضية عن كل هؤلاء. وهنا يجيء الناموس، ويقول: **لقد وجدت ذلك الخاطئ** الذي سوف توضع عليه كل خطايا البشر، ولم أعد أرى خطايا أخرى سوى تلك التي يحملها، ولذلك عليك أن تموت على الصليب. وهكذا يأخذه الناموس، ويذبحه، وعندما تم ذلك، تم تطهير العالم كله من الخطية، وقُدِّمت الفدية، وتحرر الكل من الموت».*

(تفسير رسالة غلاطية المرجع السابق).

وتحت إيحاء كلمات لوثر تحولت كلمات بولس الرسول إلى سند يؤكد التعليم اللوثري، أي صار القراء من الإنجيليين يقرأون بولس من خلال لوثر، وبشكل خاص (٢كو ٥ : ٢١) حيث يذكر الرسول إن المسيح جُعل خطية، وتحولت هذه الكلمات مثلما تحولت كلماته عن التبرير إلى المفتاح الذي يفسر كل عقائد المسيحية.

وفي نفس التفسير السابق لرسالة غلاطية يقول مارتن لوثر:

*«وهكذا يصبح تعليم كل الأنبياء **إن المسيح سوف يُصبح أعظم لص** بين البشر، بل القاتل، الزاني، السارق المستبيح والمجدف .. الذي لا يوجد آخر يفوقه في الخطية في العالم كله، لأنه الآن يحمل، ليس خطاياه الشخصية، بل خطايا الآخرين؛ لأنه هو المولود من العذراء ابن الله، ولكنه الآن **صار الخاطئ** الذي يحمل خطايا بولس الرسول المجدف، والمضطهد* (ويذكر لوثر عدداً آخر من الخطاة)، *ليس لأن المسيح ارتكب هذه الخطايا، ولكن لأنه أخذ في جسده كل ما ارتكبناه نحن لكي يقدم الترضية عن كل هؤلاء بدمه».*

وحسب تعليم لوثر تم الفداء على هذا النحو، حيث يقول بعد ذلك مباشرة:

«إذا كانت خطايا العالم كله قد وضعت على إنسان واحد هو يسوع المسيح، فلم تعد خاصة بالعالم .. وإذا كان المسيح قد صار مذنباً بكل هذه الخطايا التي ارتكبناها نحن، فهذا يعني أننا قد تحررنا من كل هذه الخطايا، ليس بواسطتنا نحن ولا بأي استحقاق، وإنما بواسطة المسيح» (المرجع السابق).

المبادئ اللاهوتية لتعليم مارتن لوثر:

أولاً: حمل المسيح خطية العالم كله وصار بذلك القاتل واللص والزاني .. الخ.

ثانياً: تحمل المسيح عقوبة كل الخطايا.

ثالثاً: مات المسيح تحت وطأة حكم الناموس كخاطئ حكم عليه الآب بالموت.

رابعا: دفع المسيح الترضية والفدية (مع ملاحظة أنه لا يوجد فرق في معنى هاتين الكلمتين عند لوثر رغم وجود فروق كثيرة في الكتاب المقدس).

خامساً: كسب المسيح استحقاقات خاصة للإنسانية بموته، وأهم هذه الاستحقاقات هي نعمة التبرير، وعطية الغفران.

وعلى خُطى لوثر سار كالفن مؤسس الكنيسة المشيخية المعروفة في مصر باسم الكنيسة الإنجيلية، ولأسباب معروفة لم يترجم اخوتنا الإنجيليون في مصر أهم كتاب لشرح العقيدة المسيحية كتبه كالفن، وهو من مجلدين

[١]*The Institutes of Christian Religion*

والذي توجد له عدة طبعات باللغة الإنجليزية. وعبارات كالفن لا تختلف عن لوثر، ومع ذلك فسوف نقدم فقرة واحدة لا تختلف ـ مع الأسف ـ لفظاً وجوهراً عما يُقال عندنا باسم الأرثوذكسية في مصر، يقول كالفن:

---

[١] إن نشر كتابات كالفن بشكل خاص يكشف ابتعاد الكنيسة الإنجيلية المصرية عن تعليم كالفن، ويؤكد صلة الإرسالية الأمريكية مُؤسِسَة الكنيسة الإنجيلية المصرية بالنهضة الإنجيلية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وما رافق هذه النهضة من ابتعاد عن أهم مبادئ حركة الإصلاح في القرن السادس عشر.

«الله هو عدل مطلق، ولا يستطيع أن يحب الخطية التي يحفظها لنا عنده، ولذلك فكل واحد منا فيه ما يستحق كراهية الله .. أولاً ما فينا من طبع فاسد، وثانياً حياتنا الشريرة. كل هذا ضد الله، ويجعلنا مذنبين في نظره، بل نولد لدينونة جهنم .. وحيث يوجد تعارض دائم لا يمكن مصالحته بين عدل الله والخطايا، فإن الله لا يستطيع ـ ما دمنا خطاة ـ أن يقبلنا بشكل كامل عنده. وهكذا، لكي يزيل العداوة ويرفع كل الموانع ويصالحنا معه، دَبَّر فديةً في موت المسيح، الذي يزيل كل ما هو شرير فينا، حتى أننا نحن النجسين وغير الأنقياء، نظهر بارين وقديسين في نظره .. وإذا وجدنا أن الله صالح ورحيم معنا، فهذا هو ما يجب أن نؤمن به: إن المسيح وحده، هو الذي استطاع أن يحصل لنا، وبواسطته على مغفرة الخطايا، وأن يمنح لنا هذا الغفران الذي كسبه لنا بعد أن هدَّأ غضب الله»

(مجلد ٢ : فصل ١٦ : فقرة ٣).

وعند كالفن، التحليل الحقيقي، ليس حِل غفران الخطايا، بل كما يقول:

«هذا هو التحليل Absolution الذي أخذناه منه (المسيح) عن الذنب الذي كان يجعلنا أهلاً للدينونة والعقاب، والذي نُقل كله، ووضع على رأس ابن الله .. كل ما هو علينا من ذنوب وغضب وانتقام الله، قد حوله ابن الله إلى نفسه»

(المرجع السابق مجلد ٢ : ١٦ فقرة ٥).

ويسأل كالفن السؤال الهام:

«كيف يصبح المسيح موضوع غضب الآب، وهو الذي يشفع في الذين يغضب عليهم الآب؟ ونحن نجيب ونقول بأن المسيح حمل ثقل العدل الإلهي عندما ضُرب، وعُذب بيد الله، فاختبر كل علامات غضب الله، ومعاقبته»

(المرجع السابق ١٦ : فقرة ١١).

حاشية

يتضح لنا من كل ما سبق أن المبادئ اللاهوتية واحدة عند كل من لوثر وكالفن مع فارق كبير، وهو أن لوثر ينسب القتل والسرقة والزنى كخطايا حملها المسيح، بينما يترفّع كالفن عن ذلك ويقبل فقط بالإشارة إلى الخطايا بشكل عام، ولكن كلاهما يؤمن ويعلّم بما نقرأه في مؤلفات قبطية أُرثوذكسية يظن الذين كتبوها أنها تعليم الأُرثوذكسية، أو أنها التعليم الذي دوِّن في الكتاب المقدس.

والحقيقة التاريخية الظاهرة والتي أشرنا إليها والتي سوف نكرر الإشارة إليها هي أن المبدأ اللاهوتي الواحد الذي يحكم تعليم كل من لوثر وكالفن هو ضرورة انتقام العدل الإلهي من الخطاة وتوقيع أقصى عقوبة، وحيث أن ذلك لا يجدي إذ لا يملك الإنسان، مهما كانت قدراته، أن يرضي العدل الإلهي، فقد تصور هؤلاء أن الله قَبِلَ أن يعذب ابنه، أي يعذب نفسه من أجل الإنسان، واعتبر هؤلاء أن هذا هو منتهى الرحمة والمحبة، بينما الحقيقة الظاهرة بكل وضوح، في هذا التعليم، هي أن الله لم يعرف الغفران بالمرة، وإنه لا يعفو بدون مقابل، ولا يعرف الصلاح والجود الذي يعرفه الإنسان نفسه عندما يغفر الشهداء، مثل اسطفانوس، بدون مقابل وبدون ترضية وبدون اعتذارات، بل يصل الأمر إلى أن يدفع كبريانوس الأُسقف والشهيد قطعةً ذهبيةً للجندي المكلف بقطع رأسه تعبيراً عن الغفران والامتنان لأنه منحه فرصة الاستشهاد.

وهكذا تبقى القضية الأكبر وهي انعكاس هذا التعليم، الذي يقدس الانتقام، على سلوك القادة والشعب معاً، فلا يوجد مجال للعفو أو الغفران إلاَّ بعد السحق والتشهير...... ونترك هذه التصرفات الانتقامية التي هي ضد المسيح لحكم القارئ.

التعليم القانوني الغربي الخاص
بموت المسيح
وأثره في لاهوت الأسرار الكنسية

من السهل على القارئ أن يدرك تطور منطق لاهوت حركة الإصلاح، بل أن يستخلص نتائج التعليم السابق دون العودة إلى مصدر لاهوتي أو تاريخي. فإذا انحصر الخلاص كله في ما تم يوم الجمعة الكبيرة، وهو: ترضية العدل الإلهي، إرضاء غضب الآب، تقديم الثمن والفدية، الحصول على الغفران .. كل هذا تم على الصليب، وتم بين الآب والابن، دون شركة الروح القدس الذي أبعده لاهوت العصر الوسيط، ولاهوت عصر الإصلاح، إلاَّ فيما يُكتب عن شرح العقيدة في الكتب المدرسية في العصر الوسيط، فإن السؤال الملح هو: ماذا بقى من خلاص يقدَّم بعد ذلك للبشر؟

إذا كان الخلاص قد تم على مستوى العلاقة بين الأقنوم الأول الآب، والأقنوم الثاني الابن، لكي ينال الآب الترضية والفدية، فإن معنى ذلك أن الخلاص هو موضوع لا يؤثر في كيان الإنسان نفسه، وفضلاً عن ذلك فإن هذا الاتجاه له تأثيره الضار على الأسرار، حيث تتحول إلى:

أولاً: مجرد ذكرى عقلية تحدث في عقل المؤمن، فكل شيء قد تم، وما علينا إلاَّ التذكر، وإحياء ما حدث من خلال العبادة.

ثانياً: لقد تحولت الأسرار عند القادة الراديكاليين، مثل زوينجلي، إلى رموز لما حدث تؤكد للإنسان أن ما قَبِلَه في قلبه، وهو ما حدث في الماضي، هو ما يراه الآن في الرموز، الماء في المعمودية، والخبز والخمر في الإفخارستيا .. ومع

أن لوثر اختلف مع زوينجلي، واختلف كالفن مع الباقين في خصوص هذا الموضوع، إلاَّ أن الأسرار لديهم ـ بشكل عام ـ ودون أن نقع بالمرة في خطأ التعميم، هي الذكرى والرمز لما حدث، وليس لها أي علاقة بموت المسيح وقيامته سوى التذكر العقلي. هذه هي النتيجة الحتمية للتعليم بدفع الثمن، حيث يصبح وجود دم المسيح في كأس سر الشكر وجود غير قانوني، بل ضد منطق فكرة دفع الثمن للآب يوم الجمعة الكبيرة على الصليب، وهكذا يفقد دم المسيح فاعليته في سر الشكر.

عندما يتحول كل ذلك إلى مجرد رمز يُذَكِّر الإنسان بما حدث وانتهى، يصبح الفداء عودة إلى الماضي فقط وليس جمعاً للماضي والحاضر والمستقبل في إعلان المحبة الإلهية في يسوع المسيح ربنا كشخص إلهي متأنس، وليس كفكرة في عقل الإنسان، كإله يعطي حياته بالروح القدس في الليتورجية ومن خلال الالتصاق به والشركة في جسده ودمه الأقدسين.

نقد مدرسة التاريخ الكنسي
في القرن العشرين لتعليم حركة الإصلاح

جاء النقد ساخناً لحركة الإصلاح بمجيء مدرسة التاريخ الكنسي في الغرب التي ولدت أصلاً في جامعات ألمانيا، ثم تطورت في بريطانيا. وكان أول نقد علمي في بريطانيا هو كتاب أستاذ التاريخ الكنسي السابق بجامعة كامبردج والذي طُبع عدة طبعات:

J.F. Bethune-Baker, Early History of Christian Doctrine, 1903.

وعن موضوع الفداء والكفارة يقول المؤلف: «لا يوجد تعليم محدد أو نظرية عن الفداء في العصور الأولى (الخمسة قرون الأولى) فقد استغرق هذا وقتاً طويلاً» (ص٣٢٧).

هذا الوقت الطويل، هو الزمان الذي سبق ربط اللاهوت بنظريات الحكم والسياسة في أوروبا مع ميلاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ولقد لاحظ كل الذين درسوا الليتورجيات القديمة وصلوات سائر كنائس المسكونة شرقاً وغرباً حتى القرن الثالث عشر وما بعده أنه لا توجد في هذه الصلوات أية عبارات أو إشارات لدفع فدية للآب على الصليب، أو ترضية للعدل الإلهي، أو احتمال العقوبة عنا، وذلك في كل القداسات الشرقية والغربية معاً[1]. فكيف غاب هذا الموضوع برمته عن صلوات القداسات التي وضعت مع بداية الحياة المسيحية في مصر وسوريا واليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى .. الخ؟ وهي صلوات نشأت في داخل ثقافات مختلفة لكنائس مختلفة. (راجع هذه الملاحظة في صفحة ٧٧ من كتاب : *Gregory Dix, The Shape of The Liturgy, 1947.*)

---

(١) أقدم الليتورجيات الغربية وصلنا في مدونة التسليم الرسولي للقديس هيبوليتس الروماني حوالي ٢٢٦م.

أولاً: ملاحظات أستاذ لاهوت حركة الإصلاح في جامعة أدنبرة:

John Mc Intyre, The Shape Of Soteriology, 1992, pp8ff.

يقول أستاذ اللاهوت المعاصر في جامعة أدنبرة، وهو أحد اللاهوتيين الإنجيليين البارزين:

> «إذا وجدنا كلمة فدية، أو كفارة عند الآباء، فلا يجب أن تؤخذ بذات المعنى الذي ساد مدارس اللاهوت في العصر الوسيط ومدارس لاهوت الإصلاح البروتستانتي، وربما كمثال صارخ لما نقول هو هذه الفقرة لأب اللاهوت المسيحي القديس ايريناؤس:
>
> [فدانا الرب بدمه، وقدم نفسه عن نفوسنا، وجسده عن أجسادنا، وسكب روح الآب علينا لكي يؤسس (يبني) الاتحاد والشركة بين اللّه والإنسان. وقد استطاع الرب أن يصنع هذا عندما دفع ثمن خلاصنا، إنه جاء لكي يجمع في ذاته كل بشرية آدم (الجنس البشري)] (ضد الهرطقات ٥ : ١، فقرة ٢) ».

ولكن لا يجب أن نقفز بسرعة إلى استنتاجات غير صحيحة لمجرد أن القديس ايريناؤس يأخذ عبارات من العهد الجديد، لأن فكرة دفع الثمن كما نعرفها من بيئة الآباء الرسل، أي العهد القديم، ثم بيئة الكنيسة الأولى لا يوجد بينها وبين ما شاع في العصر الوسيط أية علاقة. ولذلك لا يجب إطلاقاً التسرع والاستشهاد بعبارات من كتابات الآباء مثل عبارة القديس ايريناؤس [استطاع الرب أن يصنع هذا عندما دفع ثمن خلاصنا] لأن المعنى واضح وهو الكلام عن الخلاص، وليس عن إرضاء الآب أو احتمال الدينونة. هذه معانٍ غائبة تماماً عن كتابات الآباء الشرقيين كلهم دون استثناء والدليل على ذلك هو غياب الفكرتين اللتين تعتبران الأُطروحة الكاملة لتعليم العصر الوسيط، وهما:

١ـ احتمال غضب الآب

٢ـ دفع الثمن للآب

وكلتا الفكرتين هما أساس تعليم الفداء والكفارة في العصر الوسيط.

ثانياً: التبرير بالإيمان، وجوهر الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت

١ـ التبرير بالإيمان عند الآباء[1]:

نحتاج إلى دراسة مطولة عن موضوع التبرير عند الآباء، فقد قدم الآباء عدة نقاط هامة لم تناقش في عصر حركة الإصلاح، وهو ما نقدمه هنا في اختصار مرجئين التفاصيل إلى حين التعرض لهذا الموضوع[2]:

١ـ نحن ننال التبرير بالإيمان في المعمودية المقدسة، التي فيها ينزع المسيح الطبيعة القديمة، ويعطي لنا الطبيعة البارة المقدسة (كيرلس الأورشليمي ـ كيرلس الكبير ـ آباء كبادوكية ـ تفسير رسالة رومية ليوحنا ذهبي الفم).

٢ـ لا يتوقف تبرير الإنسان، أي تطهيره من خطاياه، عند حد معين، أو عند وقت معين؛ لأنه عمل الروح القدس في الصلاة وفي التناول من جسد الرب ودمه (مرقس المتوحد ـ غريغوريوس اللاهوتي ـ كيرلس الكبير ـ اثناسيوس الرسولي).

من حكم الموت (تجسد الكلمة لأثناسيوس)، ومن وراثة الطبيعة الفاسدة (كل الآباء)، وتدوم لأنها عطية أبدية بلا ندامة أو تراجع (كيرلس الكبير، وذهبي الفم)، وتدوم هذه العطية؛ لأنها توهب بالروح القدس، أي أنها ليست ثمرة موت الرب وقيامته فقط، بل هي عطية الثالوث القدوس (كيرلس الكبير شرح رسالة رومية ـ السجود بالروح والحق ـ تفسير إنجيل يوحنا).

٢ـ جوهر الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت:

لم يختلف الكاثوليك مع البروتستانت حول نتائج موت المسيح على الصليب، لأن نظرية ترضية العدل الإلهي مقبولة من الطرفين، ولكن الخلاف هو حول نقطة واحدة هامة جداً:

---

[1] نشر أحد أساتذة اللاهوت في جامعة أكسفورد دراسته عن تاريخ التبرير بالإيمان، وكتب بشكل موجز عن الآباء دون تفصيل. راجع:

A. Mc Grath, A History of the Christian Doctrine of Justification, Cambridge University Press, 1986.

[2] راجع الفصل العاشر من هذه الدراسة.

١ـ قال الكاثوليك في مجمع ترنت *Terent* إن التبرير **"يُعطى"**، واستخدموا الكلمة اللاتينية التي دخلت إلى اللغة الإنجليزية *Imputed* بينما أصر البروتستانت على استخدام كلمة **"يُحسب"** *accounted*، أي أنه يظل للإنسان رصيد من بر المسيح يحسب له حتى إن لم ينله في الزمان الحاضر.

٢ـ وبالتالي، تظل نقطة الخلاف حول "إعطاء البر" ؛ لأن بر المسيح يُوهب في الأسرار: المعمودية والميرون والإفخارستيا، فهو عطية، وهو ما يجعل للكنيسة دور هام في موضوع الخلاص، حسب التعليم القديم الذي تتمسك به روما. أمَّا إذا كان التبرير "يحسب" ، فلا يوجد أي دور للكنيسة طبقاً للمفهوم البروتستانتي.

٣ـ وبسبب نظرية ترضية العدل الإلهي واحتمال العقوبة عوضاً عن الإنسان أنكر قادة حركة الإصلاح دور الأسرار في خلاص الإنسان، وبشكل عام ـ لا مجال فيه للخطأ بالمرة ـ لا تعطي حركة الإصلاح بفروعها الثلاثة أي مجال للأسرار؛ لأن كل شيء تم وانتهي يوم الجمعة الكبيرة. وبكل أسف ساد هذا التعليم في الأوساط الإنجيلية في القرن الثامن عشر، وتسرب إلى بعض المقالات القبطية الأرثوذكسية.

٤ـ كان رأي زوينجلي هو الأكثر قبولاً من بين آراء زعماء حركة الإصلاح، حيث كان يرى أن حساب بر المسيح للخاطئ تم تماماً بكامله يوم الصلبوت، وبالتالي فإن كل ما يحدث بعد ذلك لا قيمة له ولا فاعلية له إلاَّ كونه احتفالاً وذكرى عقلية، وهذا هو الرأي السائد عند أكثر إخوتنا الإنجيليين في مصر.

ثالثاً: نتائج العودة إلى فكر العصر الوسيط وحركة الإصلاح:

إذا ساد هذا الفكر الغربي الواحد من خلال لاهوت وكتب حركة الإصلاح التي يروج لها بعض الإكليروس القبطي الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر، فإننا نكون بذلك قد دخلنا من ذات بوابة العصر الوسيط، ووقعنا في ذات بئر الجدل اللاهوتي العقيم الذي تفرع من نظرية الترضية والعدل والجزاء القانوني التي وِلدت ونمت على أرض العصر الوسيط ابتداءً من أنسلم، وبالتالي نكون قد تنازلنا عن كل زخم لاهوت وفكر الآباء الذي ولد في

الإسكندرية، وفي الشرق، والذي يعبر أصدق تعبير عن العقيدة المسيحية.

وهكذا كان من الضروري أن نكتب الفصل الخاص بالإفخارستيا كما سجله آباء الكنيسة، وكما سلمته لنا الليتورجيات الأرثوذكسية لكي نؤكد أن الخلاص ليس "حدثاً" تم على الجلجثة وانتهى، بل هو شخص يسوع المسيح الذي به نحيا ونوجد ونتحرك. وما هبة وعطية الله لنا إلاَّ المسيح نفسه، فهو نفسه النعمة، وهو نفسه الذي فيه وبه نتقدس بالروح القدس، لأننا ننال حياة إلهية، تُعطى لنا بواسطة أُقنوم الابن في أُقنوم الروح القدس، أو بواسطة أُقنوم الروح القدس في أُقنوم الابن المتجسد[1].

العلاقة بين الخلاص الذي تم يوم الجمعة، والشركة في الطبيعة الإلهية

سوف يُدرك القارئ أن الحرب الشعواء المستعرة الآن ضد "الشركة في الطبيعة الإلهية" ما هي إلاَّ التطور المنطقي والطبيعي لصياغة العصر الوسيط لنظرية الفداء، لأن الفداء في لاهوت العصر الوسيط هو "حدث" " *Event* "، يخضع لمقاييس المنطق والبحث التاريخي، بينما الفداء في الشرق هو الشركة في أُقنوم الابن المتجسد بأُقنوم الروح القدس، وكلاهما عطية الآب، وبالتالي يخضع الفداء لمقاييس "السر الإلهي" ، ومقياس الملكوت وقانون أو شريعة روح الحياة في المسيح يسوع، وهو ما يجعل الخلاف بين الشرق والغرب هو خلاف بين اللاهوت على أساس ما أُعلِن في أُقنوم الابن المتجسد بالروح القدس وما يوهَب في الأسرار، وبين التعليم الغربي الذي يضع أساساً قانونياً للخلاص. بل إن ما هو أخطر من ذلك هو أنه إذا كان الفداء قد تم وكَمُل يوم الجمعة ـ كما يقول بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس ـ وهو حدث تم وانتهى في الماضي، فليس في موت المسيح على الصليب أية إشارة إلى شركة في الطبيعة الإلهية؛ لأن المسيح كان يدفع ثمن الخطايا ويرضي عدل الآب، وفي ذلك اختُزِل كل

---

[1] راجع الفصل الأخير من هذه الدراسة: الإفخارستيا عطاء الحرية وحرية المحبة.

الخلاص .. ألا يبدو عزيزي القارئ أن الحرب الشعواء ضد موضـوع الـشركة في الطبيعة الإلهية هي النتيجة الطبيعية المنطقية للتعليم البروتستانتي الذي ينادي به من يعتلون منابر التعليم في كنيستنا القبطية الأرثوذكسية؟

" الصك الذي كان علينا " في الدراسات البروتستانتية المعاصرة

تقترب الكنائس البروتستانتية (في الغرب) حالياً من لاهوت الشرق وتعليم الآباء بشكل ملفت جداً للنظر، وفي محاولة جادة للقـضاء علـى مخلفـات العـصر الوسيط وعصر الإصلاح نفسه، وعن دراسة أحد البروتستانت المعاصرين ننقـل هذه الكلمات التي يشرح بها نص الرسول بولس: « إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض » (كولوسي ٢: ٢٤). يقول الأستاذ أنتوني بيات *Anthony Byatt*[1] :

> «بعد يـوم العنـصرة مباشـرة يقـول القـديس بطـرس للـذين يسمعونه مطالباً إياهم بأن يؤمنوا بالمـسيح يـسوع القـائم مـن بين الأموات « توبوا وارجعوا إلى الله لكي تُمحـى خطايـاكم » (أع ٣ : ١٩) والفعل اليوناني" εξαλειφο" أي يزيـل أو يمحـو تماماً ما هو مكتوب حتى يتعذر علينا أن نقرأ مـا كـان مكتوبـاً. وفي العصر الحديث نحـن نـتخلص مـن الوثـائق بـشطبها، أو وضع صليب كبير على الوثيقة، كانت هذه الممارسة معروفة في عصر المسيح حيث نجد في بعض البرديات التي تم العثور عليها في عدة أماكن، أن الوثائق التجارية والصكوك الخاصة بالـديون والعقارات المرهونة كانـت توضـع عليهـا حـرف X اليونـاني، وأحياناً كانت تُعلق في مكان عـام، وتُـدق فيهـا المـسامير لكـي يعرف الكل إن الدين قد مُحي. وأحياناً كانت الأوراق تغـسل من الكتابة لكي يُعاد استخدامها لغرض آخر.
>
> وعندما كتب الرسـول بـولس إلى كولوسـي كـان يـتكلم عـن

(1) A. Byatt, New Testament Metaphors, 1995, p 188.

الناموس الموسوي وعن أثر موت المسيح، على الناموس، ولذلك يقول الرسول بولس لقد محا أو غسل الصك أو الوثيقة المكتوبة بكل ما تحتويه من شروط ومطالب قانونية والتي كانت القوى المعادية لنا (كولوسي ٢ : ١٤)، وإذا قلنا إن النص يمكن أن يترجم إلى «محو الوثيقة أو الصك المكتوب»، فإننا نقترب من المعنى المقصود، لأن الرسول كان يكتب للأُمم الذين آمنوا بالمسيح، وهو ما يقصده من عبارة «علينا أو ضدنا» وهو يعني هنا الناموس الموسوي وكل ما فيه من فرائض وقواعد قانونية. وقد يجادل مسيحي ويقول: ولكن الناموس لا زال في الكتاب المقدس، فكيف يمكن أن يُقال أنه «مُحي»؟ ولكن الجواب: إنه لم يعُد هو القوة التي تنظم العلاقة بين الله والإنسان، لأننا نلنا الغفران في المسيح، وهذا ما يعلمنا إياه المسيح في الصلاة التي أعطاها لتلاميذه، « اغفر لنا ما علينا.. » (متى ٦ : ١٢)».

وهذا هو صوت الكنيسة الجامعة:

« مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا، ونجنا »

الفصل الثاني

الفداء والكفارة والعدل الإلهي حسب الدراسات البروتستانتية والكاثوليكية المعاصرة

مقدمة:

كانت بداية إدراك أهمية العودة إلى الأصل العبراني واليوناني للكتاب المقدس قد سبقت عصر الإصلاح بحوالي نصف قرن من الزمان، انكب فيه علماء أُوروبا على دراسات شاقة لأُصول الكلمات اللاتينية المستخدمة في اللاهوت الغربي. وكان أول قاموس لمفردات الكلمات اليونانية قد وضعه *Cremer* عام ١٨٨٣م، أي بعد حركة الإصلاح بقرنين. وتوالت الدراسات حتى استقرت الآن على المجلدات العشرة التي أشرف على إصدارها بالألمانية العالم الإنجيلي واللوثري *Gerhard Kittle* عام ١٩٣٢م وصدرت تباعاً باللغة الإنجليزية ابتداءً من عام ١٩٦٣م بعنوان:

The Theological Dictionary of the New Testament

لم يتوقف البحث عند هذه المجموعة، بل استمر بعد ذلك، وصدرت الطبعة الأولى من الترجمة الإنجليزية لثلاثة مجلدات في عام ١٩٧٨م بعنوان:

The New International Dictionary of the New Testament Theology

وهي ترجمة للأصل الألماني الذي صدر بنفس العنوان عام ١٩٧١م. وغني عن

البيان أنه مع إصدار كل قاموس تُولد مناقشات علمية لغوية وتاريخية، أحياناً حامية، وأحياناً هادئة وذلك بغرض استخلاص المعنى الدقيق للكلمات.

١ـ المساهمة الكاثوليكية

قدم الأب الفرنسي الكاثوليكي *Ceslas Spicq* دراسة بالفرنسية تحت عنوان:

Notes de Lexicographie Neo Testamentaire.

ونُشرت عام ١٩٧٨م، وهو أحد علماء العهد الجديد الذين نشروا أهم دراسة لغوية وتاريخية عن المحبة في العهد الجديد، وقدم العديد من النصوص اليونانية من العصر الكلاسيكي على أمل أن تُسهم في إيضاح العلاقة بين العهد الجديد، واللغة اليونانية السائدة في البيئة التي انتشرت فيها المسيحية، وكيف تطورت المصطلحات والكلمات بسبب خصوصية رسالة الإنجيل.

٢ـ الدراسات اللغوية اليونانية في مصر

كان أُستاذنا الدكتور موريس تاوضروس، بجهوده الذاتية، هو أول من نشر عدة دراسات عن النصوص والكلمات اليونانية باللغة العربية. وجاء الزخم مع دخول مركز دراسات الآباء بالقاهرة حلبة ترجمة نصوص الآباء الأمر الذي أتاح للقارئ العربي المجال واسعاً للتعرف على فكرهم من خلال نشر الكثير من النصوص عن أصول يونانية، أو عن ترجمات أخرى. ولكن تبقى المساهمة القبطية الأرثوذكسية ضئيلة جداً بعد تراجع برامج الدراسة في الكلية الاكليريكية ومعهد الدراسات القبطية، وإهمال نصوص الآباء بشكل ملفت للنظر، والهجوم المتواصل على المؤلفات اللاهوتية الأرثوذكسية المعاصرة للروس واليونان الأرثوذكس، والعودة إلى الملف القديم: الخلاف الخريستولوجي الذي كنا قد أكدنا في السنوات الماضية على إنهائه باعتباره مجرد سوء تفاهم نتج عن تنوع معاني الكلمات اليونانية واختلاف النظام اللاهوتي السكندري عن مثيله الانطاكي.

٣ـ عودة الكنيسة الإنجيلية خارج مصر لآباء الكنيسة الجامعة

بدأت الكنيسة الإنجيلية خارج مصر بالاهتمام بدراسة الآباء منذ نصف قرن تقريباً. وساهم الإنجيليون بدراسات جيدة التقت مع مساهمة الأنجليكان في ضرورة العودة إلى قراءة الأصل اليوناني للعهد الجديد من خلال عظات وشرح الآباء الذين كتبوا باللغة اليونانية، وهم كل آباء الشرق في مصر وغيرها، وكرست أكبر دار نشر إنجيلية في الولايات المتحدة جهودها لنشر تفسير العهد الجديد كله من خلال كتابات آباء الكنيسة الجامعة وصدرت سبعة أجزاء حتى كتابة هذه السطور وهي تباعاً : إنجيل مرقس ـ رسالة رومية ـ رسالتي غلاطية وأفسس، والرسائل الجامعة. ومن العهد القديم سفر التكوين واللاويين والتثنية، وذلك تحت عنوان:

Ancient Christian Commentary on Scripture by Gerald Bray.

تقسيم :

إذن هذا هو الحال خارج مصر، إلاَّ أن الوضع داخلها لم يتغير بعد، فمازال تعليم الكنيسة الإنجيلية المصرية ومن يأخذون عنه متجمداً عند التعليم المدون بكتاب علم اللاهوت النظامي المطبوع عام ١٨٩٥م. ولا شك أن هذا التعليم يختلف جذرياً عن تعليم الآباء مما خلق شُقة بُعدٍ بين ما نتفق عليه من عقيدة، وما نختلف فيه من شروح تمس الممارسات السرائرية، الأمر الذي نعرض له في مبحث أول، ومن ثم في مبحث ثان نعرض للجدل السائد في الدراسات المعاصرة ـ بين علماء العهد الجديد ـ للأصول اليونانية لكلمات الفداء والفدية والكفارة، وذلك بهدف العودة إلى تعليم الآباء.

الإيمان المسيحي
بين العقيدة، والشرح

الإيمان المسيحي الذي لا نختلف عليه

أولاً : الله واحد وثالوث.

ثانياً : المسيح له المجد هو ابن الله، والإله المتجسد.

ثالثاً: المسيح هو المخلص والفادي الذي مات لأجلنا لكي يبيد الخطية والموت، والذي قام حياً.

رابعاً : الروح القدس هو الرب المحيي.

وفي جملة واحدة، فإن خُلاصة الإيمان المسيحي العالمي شرقاً وغرباً تنحصر في قانون الإيمان النيقاوي الذي تقبله كل الكنائس.

العقائد التي نختلف عليها لأسباب لاهوتية وروحية وطقسية

لا شك أن للشرق لاهوتٌ خاص به يختلف عن لاهوت الغرب، ورؤية أخرى مختلفة مكونة، ليس فقط من العودة إلى نصوص الكتاب المقدس، بل ومن التعليم اللاهوتي والخبرة النسكية والاختبار الليتورجي وحياة الصلاة بشكل خاص، وبالتالي فهي لا تغفل التاريخ والشهادة الحية في صلوات الكنيسة، وهو ما يجعل الخلاف ظاهراً بشكل واضح في العقائد الآتية:

أولا : علاقة موت الرب وقيامته بالأسرار الكنسية، لا سيما المعمودية والميرون والإفخارستيا.

ثانياً: علاقة موت الرب وقيامته بعمل الروح القدس في المؤمنين والكنيسة؛ لأن

الشركة الحقيقية في المسيح ليست من خلال كلمة الله وحدها، ولا بواسطة الصلوات وحدها، بل بشركة سرية *Mystical* وسرائريةٍ *Sacramental* يعطيها الآب بالابن في الروح القدس مما يعطي لخدمة الكهنوت وضعاً روحياً خاصاً يكمل مواهب وعطايا الروح القدس.

ثالثاً: الخلاصُ نابعٌ من الثالوث، ويعطى بالثالوث، وهو لذلك يُعطى من الآب بالابن في الروح القدس، تلك رؤية الشرق، بينما أهمل العصر الوسيط وعصر الإصلاح الأوروبي موضوع وعقيدة الثالوث بسبب ما ساد فيه من نظريات الفداء التي أنتجها النظام اللاهوتي في مدارس اللاهوت الغربي.

الرؤية اللاهوتية الإنجيلية للخلاص

كان لحركة الإصلاح أكبر صدى في المجالات الدينية في أوروبا، وقد عبَّرت حركة الإصلاح عن إيمانها بواسطة قادتها في وثائق رسمية أهمها:

١ـ *Augsburg Confession* عام ١٥٣٠م، وهو أول اعتراف لوثري بالإيمان بعد اجتماع ضم قادة حركة الإصلاح في ألمانيا، وعُقد في برلمان مدينة *Augsburg*.

٢ـ *Terapoliton Confession* عام ١٥٣٠م، وقد رد فيه الفرع الإصلاحي الذي تزعمه مارتن بوسر *Bucer* على اعتراف *Augsburg* الذي تزعمه مارتن لوثر، وكان بداية انقسام حركة الإصلاح.

٣ـ *Genevan Confession* عام ١٥٣٦م، وهو اعتراف حركة الإصلاح في جنيف وبعض مدن سويسرا، وتزعمه قائد المذهب الإنجيلي يوحنا كالفن *Calvin*.

٤ـ أعادت الكنيسة الإنجيلية في بريطانيا، وبشكل خاص إصدار اعترافها بالإيمان بشكل مفصل في اعتراف الإيمان المشهور باسم *Westminster Confession* عام ١٦٤٦م وتبنت هذه الوثيقة الإنجيلية الكنائس الإنجيلية بأسرها بما فيها المعمدانيون وغيرهم.

"عقيدة" الكفارة والفداء في المصادر العربية المصرية الإنجيلية

كان أول كتاب لاهوت عربي يُنشر في مصر هو كتاب علم اللاهوت النظامي طبع عام ١٨٩٥م، وأعادت دار الثقافة نشره عام ١٩٧١م دون أية إضافات أو حذف، واعتمد الكتاب على الوثائق الرسمية الإنجيلية، ومن أهمها كتاب الإقرار بالإيمان الوستمنستري *The Westminister Confession* الذي أشرنا إليه سابقاً، حيث أن المؤسس الحقيقي للكنيسة الإنجيلية المصرية هو القس الأُسكتلندي يوحنا هوج، والذي حمل معه إلى مصر مبادئ وتعاليم المذهب المشيخي *Presbyterian* الذي أسسه يوحنا كالفن.

ويعتبر هذا الكتاب هو المصدر العربي القديم الذي اعتمد عليه الإنجيليون وبعض الأرثوذكس في كل ما كُتب عن موضوع الفداء والكفارة.

١ـ كيف تحدد الكنيسة الإنجيلية موضوع الكفارة والفداء؟

في الباب السابع وتحت عنوان "في كفارة المسيح" يحدد كتاب علم اللاهوت الكفارة على الوجه الآتي:

> *« إن الرب يسوع بطاعته الكاملة وتقديمه نفسه ذبيحة قدمها بروح أزلي مرة واحدة **أوفى عدل أبيه إيفاءً كاملاً، واشترى المصالحة**، بل الميراث الأبدي في ملكوت السموات لأجل كل الذين أعطاهم أبوه إياهم»، وقيل في ترجمة أخرى « **أرضى إلى التمام عدل أبي** »* (ص ٨١٨).

وهكذا صار إرضاء العدل هو أساس فكرة الكفارة. كما حدد الكتاب وظيفة المسيح الكهنوتية على أنها:

> *« يُمارس المسيح وظيفة كاهن بتقديمه ذاته مرة واحدة، **ليوفي العدل الإلهي حقه**، ويصالحنا مع الله، وبشفاعته فينا على الدوام»*

(نفس المرجع ونفس الصفحة ٨١٨).

وبالتالي صار إيفاء العدل الإلهي حقه هو غاية موت المسيح على الصليب. كما حدد الكتاب الكفارة بعبارة واضحة:

« والكفارة التي قدمها المسيح هـي نيابيـة بمعنـى أن المـسيح نـاب عـن ***الخاطئ في تقديمها****، وينتج مـن ذلـك أن الله يرتـضي بـالمؤمن ويـصالحه لنفسه بواسطة كفارة المسيح التي تكفر خطاياه، وكذلك تبرره من جرمه أي ترفع حكم الشريعة؛ لأن المسيح قد أخذه على نفسه عنـه، وتنـسب إليه بر المسيح الكامل النقي، وبذلك تتم المصالحة ويكمل الفداء»*

(ص ٨١٨–ص٨١٩ المرجع السابق).

ويذكر الكتاب تحت تعريف "الخطية والجرم والقصاص":

« الله، وإن كان مشترعاً وقاضياً، فهو أيضاً أب حنون محب لأولاده الخطاة، وقد غلبت محبة الآب ورحمته الصعوبات المتعلقة بمسألة الخطية وتنازل الله لتدبير الخلاص للخطاة، ليس بإجراء قصاص الشريعة عليهم، ***بل بإرسال ابنه لينوب عنهم بكفارته ويشتري لهم الفداء التام»*** (ص ٨١٩– ٨٢٠).

وهكذا حصر المذهب الإنجيلي الكفارة والفداء في :

١ـ حكم العدل الإلهي بالموت.

٢ـ نيابة المسيح عن الإنسان.

٣ـ إيفاء العدل الإلهي حقه.

٤ـ شراء الابن الفداء التام.

وأبرز الكتاب في سطر واحد موضوع محبة الآب للخطاة الذي أجرى قصاص الشريعة على الابن نيابة عن البشر. وقد أشرنا من قبل إلى مقال جنـاب القـس إبراهيم سعيد عن الخلاص بالبدل عن مجلـة رسـالة الـسلام العـدد ٩ – الـسنة السادسة ١٩٢٧م، وقد نـشرناه هنـا كمـا هـو دون تعليـق لأنـه يـشرح في بـساطة ووضوح فكرة موت المسيح النيابي حسب قواعد ومبادئ اللاهوت الإنجيلي[1].

---

[1] أنظر الفصل التمهيدي من هذه الدراسة حيث أوردنا نص هذا المقال.

٢ـ الكفارة والتكفير والإرضاء والإيفاء والنيابة

وينقل كتاب علم اللاهوت القارئ إلى أدق نقطة في اللاهوت الإنجيلي، وهي تحديد المصطلحات اللاهوتية. حيث يحدد الكتاب مرة ثانية:

الكفارة : *هي عمل المسيح الذي تم بواسطة طاعته الكاملة، اختيارياً لمشيئة الله ولأجل خلاص البشر من لعنة الشريعة* (ص ٨٢٢).

أوجه الكفارة:

١ـ نسبتها إلى الله، أي إلى محبته وقداسته وعدله.

٢ـنسبتها إلى الإنسان، أي فعلها فيه ولأجله، وقد اصطلح اللاهوتيون على ألفاظ تُعبر عن هذه النسب المختلفة، فقيل مثلاً:

* *كفارة المسيح تكفير عن الخطية.*
* *ترضية الله.*
* *إيفاء العدل حقه.*
* *المسيح تمم عمله الكفاري بالنيابة عنا* (ص٨٢٢).

وأضاف الكتاب في نفس الصفحة:

الكفارة : *ترضية الله، أي واسطة لإرضائه أو استعطافه، وهذا تعبير عن مفعول الكفارة في إزالة غضب الله.*

* *رضاه بقبول الخاطئ للمصالحة.*
* *الكفارة إيفاء العدل حقه، وذلك للتعبير عن كون الكفارة إيفاء كل مطالب العدل حتى لم يبق شيء يُطالب به الخاطئ المؤمن أمام العدل الإلهي* (ص ٨٢٢-٨٢٣).

٣ـ إيفاء العدل الإلهي حقه

وحدد الكتاب إيفاء العدل الإلهي بنوعين، وذكر ما يلي:

« الإيفاء نوعان متميزان .. النوع الواحد مالي أو تجاري، والنوع الآخر عقابي أو قضائي».

وقدم مثلاً على الإيفاء المالي أو التجاري، فذكر *« متى أوفى المديون بموجب المعنى المالي كل مطلوب دائنه عتق من ذلك بالكلية؛ لأن الإيفاء هو تأدية كل ما يطالب به، ولا يمكن أن يكون بعد ذلك منة ولا رحمة ولا نعمة من قبل الداين الذي استوفى دينه»* (ص ٨٢٤).

أمَّا عن النوع العقابي، فقد حدد الكتاب وجهة النظر الإنجيلية بعبارات واضحة، وأكد في هذه العبارات أنه يوجد فرق بين الدين المالي والجريمة، وقال المؤلفون:

«النيابة في المحاكم البشرية لا محل لها في هذه المسألة؛ لأن الأمر الجوهري ليس العقاب، بل إجراءه على المذنب الذي يكابده (الألم). قال الله له المجد "النفس التي تخطئ تموت" وأما الجارم (المجرم) المجبر على الإيفاء العقابي فلا يحق له أن يقيم آخر في مكانه؛ لأن هذا ليس له مثيل في المحكمة البشرية، ولذلك لا يستفيد من البدل» (ص ٨٢٤).

وأدرك المؤلفون أن القانون الوضعي لا يسمح بأن يعاقَب إنسان نيابةً عن إنسان مهما كان نوع الجريمة، ولذلك حاول الكتاب ـ دون جدوى ـ إبراز موت المسيح النيابي. وهو وإن كان قد نجح في تأكيد جانب واحد من التعليم المسيحي الشرقي في عبارة هامة *"إيفاء المسيح ليس ماليًا"*، إلاَّ أنه استدرك بعد ذلك، وعاد إلى الفكر الغربي الإنجيلي، فقال: *"بل هو عقابي، أو قصاص، أي إيفاء عن الخطاة لا عن مديونين"* (ص ٨٢٥).

٤ـ هل تألم المسيح كخاطئ؟

يؤكد المذهب الإنجيلي إن المسيح تألم عن الخطاة، وتألم نيابةً عنهم. ولكن هذا المذهب حرص وهو يُقدم التعليم الإنجيلي أن يؤكد على أن المسيح لم يتـألم الآلام المفروضة على الخطاة، وقال في عبارة ذات دلالة:

« إن المسيح أوفى العدل الإلهي حقه، وجعل تبرير الخاطئ موافقاً له (للعدل الإلهي)، ولكنه لم يتألم بنوع الآلام المفروضة على الخطاة أن يكابدوه، ولا كابد هو بقدرها، غير أن آلامه تفوق ما استوجبوه قيمة إلى

غير نهاية؛ لأن موت إنسان صالح مشهور جداً يفوق إلى الغاية ملاشاة جميع الهوام، وكذلك اتضاع ابن الله الأزلي وآلامه وموته يفوق بما لا يقاس قيمة وقوة ما يكابده جميع الخطاة من العقاب» (٨٢٥-٨٢٦).

واستدرك كتاب علم اللاهوت وأكد أحد جوانب الحقيقة المسيحية الأصلية القديمة الثابتة في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي وذكر مباشرةً:

« إن إيفاء المسيح هو من النعمة؛ لأن الآب لم يكن مضطراً أن يقدم بدلاً من البشر الساقطين، ولا الابن كان مضطراً أن يتخذ تلك الوظيفة، وإنما الله سبحانه ـ من مجرد النعمة ـ وقف إجراء عقاب الشريعة، وقبل الآلام النيابية، وموت الابن الوحيد. والابن الوحيد من محبة لا نظير لها ارتضى أن يتخذ طبيعتنا، ويحمل خطايانا ويموت البار عن الأثمة، ليقربنا إلى الله» (ص ٨٢٦).

"عقيدة" الكفارة والفداء في الكتابات القبطية الأرثوذكسية المعاصرة

أشرنا في الفصل التمهيدي لهذه الدراسة إلى أن تعليم حركة الإصلاح البروتستانتية هو التعليم السائد حالياً بخصوص الفداء والفدية والكفارة، أو فيما يخص شرح موت السيد المسيح له المجد على الصليب في كتابات بعض الأقباط الأرثوذكس، وهو ليس تعليم الكنيسة الأرثوذكسية قبطية كانت أو سريانية أو يونانية، وقد أثبتنا ذلك بما نقلناه من عبارات كاملة غير مبتورة من كتابات هؤلاء البعض، وأشرنا إليها في أماكنها.

وكما انفرد أحد هؤلاء الكُتاب بالتعليم بأن الابن احترق على الصليب، وتحول إلى رماد، كذلك أيضاً زاد أحدهم على ذلك بما أصبح رأياً خاصاً به لم يقُل به أحدٌ من قبل، فيقول:

« إن السيد المسيح احتمل الغضب. الألم الذي احتمله هو نتيجة الغضب المعلن ضد الخطية. الغفران في المسيحية، ليس غفراناً بلا ثمن بل هو غفران مدفوع الثمن. والذي دفع الثمن هو السيد المسيح».

« الله لم يشفق على ابنه حينما حمل خطايانا في جسده بل أعلن

غضبه على الخطية لكي تنال الخطية دينونة عادلة وهنا يتبرر الله كقدوس وكرافض للشر».

وبخصوص التساؤل: لماذا لا يغفر الله لنا بدون الصليب، يقول:

« فالموت الذي أستحقه أنا، المسيح مخلصي دفع ثمنه بالكامل .. كل لذة محرمة يقبلها الإنسان قد دفع ثمنها السيد المسيح بالجلدات الحارقة».

ولنا هذه الملاحظات:

١ـ المسيح والعدل في "مكان الخاطئ":

يقول هذا الكاتب إنه

« توجد موجة معاصرة وسط بعض أفراد الكنيسة نقلاً عن لاهوتيين غربيين محدثين تدعي أن الله لا يغضب بسبب الخطية ولا يعاقب الخطاة على خطاياهم .. وبهذا تبدأ تمييع فكرة الفداء وعقيلة الكفارة..».

ومن ثم يتهم هذه الجماعة المجهولة بأنهم:

« يرفضون أن يقدم الفادي نفسه في موضع الخاطئ. أي يضع نفسه في مكان الخاطئ بينما الكتاب واضح إذ يقول "والرب وضع عليه إثم جميعنا" (أش٥٣ : ٦) .. ماذا يعني تمزيق صك الدين الذي علينا؟ إلا إيفاء الدين تماماً بالصليب».

ومن ثم قدم فكرة إنجيلية عن الموت النيابي على الصليب، ورأى أن يسند رأيه بدليل لغوي، وهو دلالة كلمة **"عنا"**، مؤكداً أنه يوجد فرق بين **"عنا"** و**"لأجلنا"**[1].

والتعليم الإنجيلي عن موت المسيح واحتماله الغضب ظاهرٌ في عبارات هذا الكاتب مع فارق كبير جداً وجوهري، وهو أن الكنيسة الإنجيلية التي تعتبر أن التبرير بالإيمان هو جوهر إيمانها بالكفارة، تنادي بأن الذي نال التبرير هو الإنسان

---

[1] أنظر الفصل الخاص بالإيمان المسيحي بين فقه اللغة والتسليم الآبائي.

الخاطئ، أمَّا هو ـ وهذا هو ما ينفرد به ـ فيُعلم بأن الذي تبرر هو الله، وليس الإنسان، وذلك حسب عبارته السابقة *"أعلن غضبه على الخطية لكي تنال الخطية دينونة عادلة، وهنا يتبرر الله كقدوس وكرافض للشر"*. أمَّا لماذا احتاج الله القدوس البار أن يتبرر بموت الابن؟ فهو سؤالٌ نتمنى أن يجيب عليه هذا الكاتب.

٢ـ الفرق الأساسي بين التعليم الإنجيلي، والتعليم القبطي كما حدده بعض الكتاب من الأقباط الأرثوذكس

أولاً: يؤكد كتاب علم اللاهوت إن المسيح لم يتألم كخاطئ، ولم يُعاقب على خطايا البشر، بل أوفى الدين، بينما العكس هو الصحيح عند هؤلاء الإكليروس القبطي الذي يتصدرون مهمة التعليم.

ثانياً: ظل المسيح ـ حسب كتاب علم اللاهوت ـ الابن الأزلي وهو معلق على الصليب، أمَّا حسب عبارات صاحب كتاب تأملات في أسبوع الآلام، فقد احترق الابن وتحول إلى رماد، وهو ما يعني أنه لم يعُد له وجود حتى كبديل أو نائب أو شفيع.

ثالثاً: يؤكد تعليم حركة الإصلاح إن الذي يتبرر هو الخاطئ وحده، بينما عند بعض هؤلاء المعلمين الجدد، الله هو الذي يتبرر، كأن الله نفسه كان يحَاكم أمام محكمة خاصة. وحتى لا نقع في متاهات الألفاظ يلزمنا أن نلاحظ أن عبارة المزمور (٥١) حسب الترجمة القبطية العربية القديمة: "لكي تتبرر في أقوالك وتغلب متى حوكمت" هي عبارة خاصة بالبر الإلهي أو العدل الإلهي؛ لأن الإنسان إذا وقف أمام الله يظهر عدل الله بدون محاكمة، ويغلب عدل الله عندما يعيد الإنسان إلى المصالحة بعد أن يعلن فساد وجهل وخطية الإنسان ويغفر له، وهذا هو مضمون هذا المزمور كله؛ لأن داود يطلب أن يغسله الله من آثامه "انضح عليَّ بزوفاك فأطهر اغسلني فأبيض أكثر من الثلج أسمِعني سروراً وفرحاً".

الكلمات اليونانية الخاصة بالفداء والفدية والكفارة كما شرحها علماء العهد الجديد [1]

مقدمة:

كان الأستاذ الدكتور *Leon Morris* من أكبر المدافعين عن فكرة الثمن والبديل، ولخص وجهة نظره في كتاب يُعتبر حجة الإنجيليين الناطقين باللغة الإنجليزية: *The Apostolic Preaching of the Cross of Christ* وتبعه في ذلك القس الأنجيليكاني *John Stott*. وتبنى الدكتور موريس ذات خطة البحث التي اتبعت منذ عصر النهضة، وهي العودة إلى الأصل العبراني للكلمة، ثم الترجمة السبعينية، ثم الكلمة في العهد الجديد.

الكلمة اليونانية "Λυτρον" "فدية"

وردت هذه الكلمة مرة واحدة على لسان الرب في مرقس ١٠ : ٤٥ ومتى ٢٠ : ٢٨ "كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدم، بل ليَخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين".

والصراع الفكري حول معنى هذه الكلمة سجَّله أكثر من عالم من علماء العهد الجديد. وكان *Hastings Rashdall* [2] هو أول من تصدى لإثبات خطأ فكرة الثمن الذي دفعه المسيح للآب، واعتمد على الحقائق التالية:

١ـ لا يوجد نص واحد في العهد الجديد كله يقول إن المسيح دفع ثمن خطايا البشر للآب، ولا حتى كلمات قريبة الشبه من هذه الكلمات.

---

[1] تم التعرض لهذا الموضوع من زوايا أخرى في الفصول الرابع والخامس من هذه الدراسة

(2) Hastings Rashdall, The Idea of the Atonement in Christian Theology, 1919, pp 29-37, 49-56..

٢ـ لا توجد عبارة واحدة في العهد الجديد تؤكد أن الفدية هي ثمن يدفع، بل يؤكد العهد القديم، وبشكل خاص، أشعياء أن الفداء هو عمل إلهي خاص بالله يقوم به من أجل "حل" أو "تحرير" شعبه.

٣ـ إن كلمات النص "إن ابن الإنسان .. يبذل نفسه فدية عن كثيرين" لا تذكر شيئاً عن إرضاء العدل الإلهي، وإزالة الغضب، أو إرضاء الله، أو إيفاء دين الإنسان، فهذه كلها أفكار متأخرة ولدت في العصر الوسيط ولا وجود لها في العهد الجديد كله.

فكيف تصدى الأستاذ الدكتور ليون موريس لهذه الاعتراضات؟

أولاً: بالعودة إلى أصل الكلمة في اللغة اليونانية الكلاسيكية. وهو هنا على صواب؛ لأن الكلمة اليونانية "Λυτρον" من أصل الفعل اليوناني "Λυω" يفك ـ يحرر ـ يدفع فدية، بل يُستخدم الفعل في المصادر الكلاسيكية بمعنى خلع الملابس، وحل الحيوانات المربوطة. وعندما يُضاف المقطع الأخير τρον إلى أصل الفعل يمكن استخراج عدة كلمات جديدة. وطالما أن الكلمة والفعل يعني يُحرر ـ يدفع ـ وكان الفعل قد استخدم في المصادر الكلاسيكية، فبالتالي يجب شرح معنى الكلمة اليونانية بالشكل الذي استقر في التراث الإنجيلي.

ثانياً: يحتج موريس بأن الكلمة استُخدمت بمعنى "ثمن" في السبعينية، ويقدم عدة أمثلة مثل خروج ٣٠ : ١٢ وغيرها.

الخطأ الأساسي في تفسير الأستاذ ليون موريس:

أولاً: يتضح من كلمات المسيح "إن ابن الإنسان لم يأت ليُخدم، بل ليَخدم، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين"، أن الكلام هنا عن خدمة البذل، وهي الفكرة الظاهرة في النص نفسه. هذه الخدمة الباذلة هي بلا شك موت المسيح، وهي ـ كخدمة ـ تقدم للإنسان وليس لله.

ثانياً: لا يوجد نص في السبعينية استخدم كلمة "فدية" لعمل الله نفسه، وبالتالي، إما أن المسيح هو رب العهد القديم الذي يحرر ويفدي ولا يدفع فدية لأحد، وإما أنه مثل البشر الذين يدفعون فدية لغيرهم، أي الفدية التي تقبلها شريعة موسى.

ثالثاً: إن فكرة دفع فدية لتحرير العبد لم ترد في عبارة الرب نفسه، وإن فرضنا ـ جـدلاً ـ ورودها، فالرب الابن الوحيد هو خـالق الـسموات والأرض ويملـك البـشر جميعاً ولا يحتاج إلى أن يحررهم من إلـه آخـر، وهكـذا نـصل إلى قلـب الحـوار اللغوي نفسه، وهو مـا سـوف ندرسـه بعـد ذلـك؛ لأن المـسيحية لا تـشرحها كلمات يونانية أو عبرانية رغم أهمية الكلمات، وإنما الذي يشرح هـو العمـل الإلهي نفسه، وهو الذي يغير معاني الكلمات، وهذا التغيير مدون بوضـوح في كتابات الآباء والليتورجية.

الكلمة اليونانية "Λυτρωσις" الفداء

وردت الكلمة ثلاث مرات في العهد الجديد كله، فقد وردت في (لوقـا ١ : ٦٨) «مبارك الرب إله إسرائيل؛ لأنه افتقد وصنع فداءً لشعبه»، والرب هنا هو الفـادي، وتعبير إله إسرائيل يضع العبارة كلها في إطار المواعيد النبوية الخاصة بفـداء الله في سفر أشعياء.

وهي نفس الكلمة في (لوقا ٢ : ٣٨) عن النبيـة حنـة بنـت فنوئيـل « وقفـت تسبح الرب وتكلمت عنه (المسيح) مع جميع المنتظرين فداء في أورشـليم » وهـو نفس المعنى السابق.

والمرة الثالثة في (عب ٩ : ١٢) ويقول الرسول « وأمَّا المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة (الآتية)، فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيـد، أي الذي ليس من هذه الخليقة. وليس بدم تيوس وعجول، بل بـدم نفـسه دخـل مـرة واحدة إلى قدس الأقداس (الـسماء، ولـيس قـدس الأقـداس في هيكـل سـليمان) **فوجد فداءً أبدياً** »، وهنا كما هو واضح من النص نفـسه، يخطـئ الأسـتاذ مـوريس عندما يربط بين هذه الكلمات، وعبارة الرسول بطرس «عالمين أنكم افتُديتم .. بـل بدم كريم كما من حمل بلا عيب، ولا دنس دم المسيح» (١ بطرس ١ :١٨)؛ لأن رسـالة العبرانيين تتكلم عن يوم الكفارة العظيم، بينما رسالة بطرس الأولى تـتكلم عـن

دم الحمل أي دم خروف الفصح، والفرق بين الاثنين كبير[1] والفصح لم يكن فدية تُدفع، بل فداء من الموت أو الملاك المهلك.

وحسب عبارة الرسول في عب ٩ : ١٢ يجب أن يتغير المعنى لأن:

* المسيح هو رئيس الكهنة الحي الذي دخل قدس الأقداس حياً بلاهوته.

* المسيح هو نفسه الذبيحة، وبالتالي لا مجال لطقوس أو عبارات العهد القديم واعتبارها المبدأ الذي يجب أن يهيمن على تفسير العهد الجديد، بل العكس هو الصحيح، وهكذا يصبح معنى كلمات الرسول لا سيما عبارات "الأكمل والأعظم غير المصنوع بيد" هو ما يرفع تقدمة المسيح والكاهن إلى مستوى أعظم من مستوى ذبائح العهد القديم بأسرها؛ لأنه هنا وبشكل خاص كما هو واضح من سياق الكلام في الفقرة التالية: «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب، يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عب ٩ : ١٤)، وتقديم الرب يسوع دمه بالروح الأزلي أي الروح القدس يضع موت المسيح فوق كل ما يذكره العهد القديم برمته من طقوس وعبارات وشريعة:

أولاً: لأن الرب قدم نفسه بلا عيب، أي لم يحمل خطايا الإنسانية في ناسوته ودخل بها إلى قدس الأقداس؛ وهذا غير وارد في طقس يوم الكفارة (راجع لاويين: ١٦).

ثانياً: يؤكد الرسول إن الفداء الأبدي يُطهر ضمائر المؤمنين من الأعمال الميتة، وهذا ينفي تماماً أن يكون دم المسيح ـ على الجلجثة ـ تقدمة خاصة بحدث قديم وقع في الماضي، بل هو مرة واحدة، ولكنه أبدياً مما يؤكد دوام فعل التطهير، وهو المعنى الذي تؤكده الليتورجيات، وهوأيضاً المعنى الحقيقي؛ لأنه الاختبار الحي المُعاش الذي به نعرف كيف يطهرنا دم الرب من كل خطية.

ثالثاً: ومن التسليم الخاص بالكنيسة، أي المعنى الكنسي نفسه نرى في صلاة قسمة سبت الفرح التعليم الرسولي يُقال أثناء الاحتفال بدفن الرب وموته وسبيه الجحيم:

---

[1] راجع خروف الفصح ص ٤٠.

"يا يسوع المسيح ذا الاسم المُخلص الذي بكثرة رحمته نزل إلى الجحيم، وأبطل عز الموت. أنت هو ملك الدهور الغير المائت الأبدي كلمة الله الذي على الكل راعي الخراف .. رئيس كهنة الخيرات الآتية الذي صعد إلى السموات، وصار فوق السموات ودخل داخل الحجاب موضع قُدس الأقداس".

وهنا يؤكد المعنى الكنسي إن كلمات الرسول خاصة بالحقيقة التي تُعاش في سر الإفخارستيا، وهي حقيقة ملك المسيح ودوام عمله الإلهي، وعدم موته كإله وموته كإنسان[1] .. كما يؤكد أيضاً كيف يجمع الرب الحياة الإلهية وحياته الإنسانية في أقنومه الواحد لكي يبطل سلطان الموت وسيادته على الطبيعة الإنسانية، وهو قلب الفداء والخلاص.

مثال للتفسير الخاطئ لكلمة الفداء "απολυτρωσις"

يؤكد موريس[2] إن كلمة فداء التي وردت في أفسس ١ : ٧ ـــ رو ٣ : ٢٤، ٢٥ ـــ عب ٩ : ١٥ تشير إلى الثمن الذي دفعه المسيح، أو إلى الفدية التي دُفعت. وخطأ هذا التفسير ظاهرٌ من النص نفسه، لا سيما في (رو ٣ : ٢٤، ٢٥)؛ لأن الرسول يقول: «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدَّمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره»، وهكذا لا يقول الرسول إن الابن دفع أو اشترى أو قدم فدية للآب، بل العكس هو الصحيح؛ لأن الذي قدم هذه النعمة المجانية هو **الله**، أي **الثالوث**، وليس الآب وحده. خطأ التفسير الإنجيلي هو أن الاحتفاظ بكلمة **"الله"** للدلالة على الآب، هو عودةٌ إلى قاعدة التفسير الأريوسية القديمة؛ أمَّا عندنا في الأرثوذكسية، فكلمة **"الله"**، هي كلمة خاصة بالثالوث، إلاَّ إذا جاء في النص نفسه **"الله الآب"**. وحسب شرح القديس يوحنا ذهبي الفم لكلمة

[1] حسب صلواتنا "ذاق الرب الموت بالجسد في وقت الساعة التاسعة"، وهو تعبير دقيق يؤكد وحدة الأقنوم وعدم انفصال اللاهوت عن الناسوت على الصليب؛ لأن قبول الموت في الناسوت يعني أيضاً قدرة اللاهوت على قبوله واستيعابه وإبادته تماماً.

[2] المرجع السابق ص ٤٢.

"απολυτρωσις"، وذهبي الفم يعرف اليونانية أكثر من علماء أوروبا، يجب ترجمة الكلمة إلى "عتق وتحرير" وليس فقط "فدية"، فيقول:

"لأنه بسبب ما جاء في العهد الجديد، وبسبب الذبائح قال الرسول "في دمه"[٢] لكي يذكِّرهم بدم الغنم والعجول؛ لأنه لو كانت هذه الذبائح غير العاقلة قد طهَّرت الخطية، فكم بالحري دمه. ولم يستخدم الرسول "λυτρωσεως" (الفدية) بل "απολυτρωσεως" (العتق) لكي يؤكد لنا إنه ليس مجرد فداء عبيد، بل عدم عودة العبودية. ولذلك يقول إنه فداء لأنه إذا كان الرمز له قوة، فكم بالحري تكون قوة الحقيقة. ولكي يعلن أنه لم يكن أمراً طارئاً ولا جديداً يقول الذي عيَّنه الله Fore-ordained. وبقوله عيَّنه، بيَّن أنه العمل الصالح للآب والابن معاً، لأن الآب عيَّن، ولكن المسيح بدمه حقق لنا هذا الصلاح"

(عن الأصل اليوناني وراجع الترجمة الإنجليزية ص ٣٧٧-٣٧٨).

أمَّا في أفسس ١: ٧ فإن الرسول يذكر التدبير الأزلي قبل خلق العالم، ويقول «إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته (الآب) لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب (الابن) الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته».

ويخجل كاتب هذه السطور من قصور فهم الدكتور موريس؛ لأن النص كله يؤكد:

١ـ إن التبني هو عطية الله.

٢ـ إن المسيح هو الابن المحبوب من الآب، وليس الواقع تحت غضب الآب.

٣ـ إن الآب هو الذي أنعم علينا بالفداء حسب غنى نعمته.

٤ـ ونحن الآن لنا فيه، أي في يسوع المسيح في كل وقت وزمان غفران الخطايا بدمه، وهو ما يجعل كل مسيحي يتجاسر ويتناول كأس الشكر؛ لأنه كأس غنى نعمة الله الآب علينا في ابنه يسوع المسيح.

---

(٢) في دمه مثل الترجمة القبطية ϧⲉⲛ ⲡⲉϥⲥⲛⲟϥ

أمَّا عب ٩ : ١٥ فلا يمكن فصل محتوياته عن عب ٩ : ١٣ـ١٤ وقد سبق الإشارة إليه، ويؤكد الرسول إن وساطة المسيح حسب كلمات النص "لأجل هذا ـ أي تقديم دمه بالروح القدس ـ هو وسيط عهد جديد لكي يكون المدعوون (إلى هذا العهد) ـ إذ صار موت لفداء التعديات (التي ذكرها الناموس) ـ في العهد الأول (العهد القديم) ينالون وعد الميراث الأبدي.

أمَّا عن ١ تيموثاوس ٢ : ٦ « الذي بذل نفسه فديةً لأجل الجميع »، فإن ما ذكرناه سابقاً يكفي، وفكرة دفع الثمن غائبة تماماً عن النص.

وحسب أقدم ترجمة عربية للعهد الجديد[1] سبقت الترجمة البيروتية نجد أن نص ١ تيمو ٢: ٦ « الذي بذل نفسه خلاصاً .... »، بل ويؤكد النص القبطي نفس المعنى:

« الذي بذل نفسه خلاصاً عن الكل »

(Ⲫⲁⲓ Ⲉⲧⲁϥ Ⲧⲏ̄ⲓϥ Ⲛⲥⲱⲣⲧ Ⲉϫⲉⲛ Ⲟⲩⲟⲛ Ⲛⲓⲃⲉⲛ)

وعدم استخدام كلمة فدية في الترجمة العربية القديمة، وفي الترجمة القبطية الـتي سبقت عصر الإصلاح بما يزيد عن ١٤٠٠ سنة يؤكد ما سبق وأن شرحناه.

---

(1) Harvey Staal, UT.Sinai Arabic Codex 151,p 185.

الباب الثاني

عودة إلى الأصول

صادفتنا في الفصول السابقة بعض الكلمات الأساسية، والتي من خلالها يتم شرح موت المسيح على الصليب، مثل الوسيط، والشفيع، والكفَّارة، والفدية وما إليها. ولعلنا لاحظنا أنَّ هذه الكلمات تُعتبر قاسماً مشتركاً بين التسليم الأُرثوذكسي، وغيره. إلاَّ أنَّ ذلك لا يعني واحدية المحتوى العقيدي لها عند كلٍ.

ولذلك يطالبنا الحق نفسه، أي الحق الذي نعلنه في إيماننا الأُرثوذكسي أنْ نعود إلى الأصول. أي أنْ نقدم للقارئ أصول هذه الكلمات وأصلها السامي العبراني، وتطور معناها في اللغة اليونانية، ثم معاني هذه الكلمات كما وردت في كتابات الآباء والليتورجية، حتى يتضح المعنى الدقيق لكل كلمة وحتى نعبِّر عن إيماننا بكل دقة ممكنة للبشر.

ولذلك، وعلى مدى الفصول التي يحتويها هذا الباب، سوف نبسط لمعاني هذه الكلمات والعلاقة بينها، وبين الابن الكلمة خالق الكل، كما نعرض لمحتواها الأُرثوذكسي في إيجابية تبعد عن الجدل، وإنْ كان ذلك لا يعني أنَّنا لم نتعرض لبعض الظروف التي أسهمت في تشكيل معاني هذه الكلمات، مما اقتضانا أنْ نلجأ إلى التاريخ، وفقه اللغة، والبيئة الاجتماعية.

وهنا بشكل خاص نعيب على جيل النهضة كله دون استثناء تقاعسه عن نشر النص القبطي للعهد الجديد؛ لأن الليتورجية المصرية أخذت مفردات العهد الجديد القبطي، وصارت هذه المفردات إحدى مكونات الصلاة.

فباستخدام الترجمة العربية الإنجيلية ابتعدنا عن المصدر الأصلي للعبارات

والكلمات الخاصة بحياتنا كلها، وهو النص القبطي الذي يعبِّر تعبيراً دقيقاً عن لاهوت آباء الإسكندرية وتسليم الكنيسة الجامعة. وقد وصفنا بعض أمثلة في هذه الدراسة[1].

وهكذا نغفر للذين يتكلمون ـ بحماس وغيرة ـ عدم فهمهم للتطور الذي حدث عندنا عندما فَرضَت علينا ترجمة الكتاب المقدس الإنجيلية ألفاظاً ومصطلحات عربية لها دلالة خاصة في لاهوت الكنيسة الإنجيلية، وصارت هذه المصطلحات عامة ومعروفة لنا من خلال المطبوعات والدراسات الإنجيلية، بل لم يكلف أحد نفسه من الذين يتكلمون بحماس وغيرة أن يقرأ نصوص العهد الجديد في الترجمة القبطية لكي يدرك الفرق اللاهوتي بين الشرق والغرب. فالمشكلة هي مشكلة لغوية أولاً، ومشكلة كنسية أيضاً تظهر في تراجعنا عن التمسك بما ساد في تراثنا الأرثوذكسي الذي تنقله صلواتنا بكل أمانة وتعبِّر عنه بنفس الكلمات والمعاني الواردة عند الآباء.

وهكذا كان الطريق طويلاً من العهد القديم، إلى العهد الجديد، وفكر الآباء، والليتورجية مع إبراز الفرق الكبير بين الشرق والغرب لا سيما في موضوع التبرير والعدل الإلهي.

وفي ضوء ما تقدم نعرض في الفصلين الثالث والرابع لمدلول كلمتي الفدية والكفارة في الكتاب المقدس وعند الآباء، وعلاقة هذه الكلمات بالذبيحة والتقدمة. وفي الفصل الخامس نشرح بمزيد من التفصيل الاستعارة الخاصة بمفهوم الدين والثمن. وفي الفصل السادس نبسط للمعنى الأرثوذكسي لموضوع حاجتنا ـ كبشر ـ لوساطة الكلمة خالق الكل في قضية الخلاص. وإذا كانت فصول هذا الباب تنحو نحو تأكيد المعاني والمفاهيم الأرثوذكسية لتلك المصطلحات، لذا فإننا نختم هذا الباب بالفصل السابع حيث نعرض لموضوع على قدر كبير من الخطورة، ألا وهو قضية الإيمان المسيحي بين فقه اللغة والتسليم الآبائي. لكننا نفتتح هذا الباب بمناقشة تأثير فكرة الغضب الإلهي على حقيقة الإيمان الصحيح بالثالوث القدوس.

---

[1] راجع كلمة كفارة وهي كرسي الرحمة أو غطاء تابوت العهد في الفصل المعنون "الصليب وعدل الله".

الغضب الإلهي وعقيـدة الثـالوث

مقدمة

رأينـا أنـه مِـن الأفكـار الـشائعة في التعلـيم الـسائد الآن في الكنيـسة القبطيـة الأُرثوذكسية أنَّ الآب صب غضبه على الابن، وعاقبه عند موتـه علـى الـصليب. أو حسب تعبير أحد الإكليروس الأقباط: أشعل فيـه نـار العـدل الإلهـي حتـى احـترق وتحول إلى رماد، فرضي الله عن البشر.

وهذا التعليم غريبٌ تماماً على أسفار الكتاب المقدس. ولا وجود له بالمرة فيه. وإذا كان العهد القديم يعلن غضب الله على سدوم وعـامورة مـثلاً، فـإن الابـن ربنا يسوع المسيح ليس هو سدوم، ولا هو عامورة، وليس هو حنانيا أو سـفيرة أو هيرودس أو غيره .. بل هو ابن الآب المساوي له في الجوهر، وليس أحـد الخطـاة الذين نقرأ عنهم في الكتاب المقدس.

وبالتالي فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يتحدث هـؤلاء عـن مخلـوق مثلنا، أم عن الإله الكائن في ذات جوهر الآب الذي هو «رسم جـوهره وحامـل كل الأشياء بكلمة قدرته»؟ (عب ١: ٣). هل نسى الذين يدافعون عن هذا التعليم أن الرب يسوع هو ربٌ لمجد الله الآب (في ٢: ٧)؟

إنَّ تجسد الابن لا يعني بالمرة أنَّ الابن قد تخلى عن صفاته للآب، أو أنه تـرك صفاته الإلهية، أو فَقَدَ مساواته للآب، فليس هذا إلاَّ خرافات الهرطقـة الأريوسـية

التي لا مكان لها في الأُرثوذكسية.

لقد انتشر هذا التعليم من خلال التراتيل والنبذات وتفاسير العهد الجديد التي صدرت عن كنائس غير أُرثوذكسية، ولذلك كان ضرورياً أنْ نضع أمام القارئ والباحث الأصل الإنجيلي الذي تفرع منه هذا التعليم الشعبي لكي نعود معاً إلى الأُرثوذكسية، ونتكلم بذات تقوى وقداسة آباء الكنيسة الأُرثوذكسية.

تقسيم:

إنَّ هذا الفكر يتحدَّى ـ بجسارة غريبة ـ أقدس عقائدنا الأُرثوذكسية، **وهي وحدة جوهر الثالوث**. وهو ما يجعلنا نُقدِم في المبحث الأول على دراسة علاقة الثالوث بموت المسيح على الصليب في شئ من التفصيل، حيث يتضح لنا من خلال هذه الدراسة مدى خطورة هذا الشرح الذي يؤدي في النهاية إلى تقسيم وحدة جوهر الثالوث القدوس، وهو الأمر الذي يقوض العقيدة المسيحية من أساسها. وفي المبحث الثاني نتعرض للسؤال الذي لابد مِن الإجابة عليه بشكل قاطع، ألا وهو هل يُعتبر الغضب صفة مِن صفات الله؟ فإذا أوضحنا أن الإجابة هي بالنفي على الإطلاق لفتنا النظر إلى علاقة الغضب الإلهي بالخطية ومدي ارتباطه بها موضحين كيف يعبِّر الكتاب المقدس عن موضوع الغضب، وبالتالي كيف يُعلن عنه، وذلك من خلال بعض الأمثلة وتقديم شرح الآباء لها. وفي المبحث الثالث نطرح على بساط البحث التعليم القبطي الشعبي المعاصر ومدى توافقه وفكر كالفن مؤسس الذهب الإنجيلي. ومن ثم في المبحث الرابع نعرض للفهم الخاطئ لـ **"حمل الله الذي يرفع خطية العالم"** وكيف أنَّ هذا الفهم كان لا بد وأنْ يؤدي إلى نتائج لم تكن تدور بذهن كُتَّاب العهد الجديد على الإطلاق، ببساطة لأنها لا يمكن أنْ تكون هي التعليم الموحى به بالروح القدس، فإذا ما صححنا هذا الفهم من خلال شروح آباء الأرثوذكسية المتعددين، وضح لنا لماذا ترفض الأُرثوذكسية التعليم بأنَّ الآب صب جام غضبه على الابن على الصليب.

الغضب الإلهي
وجوهر الثالوث الواحد

يفترض هذا التعليم عنوةً أنَّ الابن احتمل الغضب الإلهي الذي يستحقه كل الخطاة عبر كل عصور التاريخ، بل وحتى الخطاة الذين سوف يأتون إلى الحياة بعد يوم الصلبوت. ومن الواضح أنَّ هذا الغضب هو غضب الآب، فقد غاب الروح القدس[1] عن كل تعليم وشرح يقال باسم الكفارة بعد وفاة القديس توما الأكويني، وبعد سيادة الفكر القانوني على اللاهوت المسيحي في العصر الوسيط.

لقد مُسح الرب بالروح القدس في معموديته في الأردن، ولذلك سُمي بـ"المسيح"، كما اشترك الروح في كل أعمال الرب: الميلاد ـ المعمودية ـ المعجزات ـ الصليب والقيامة، ولذلك يُسمى الروح القدس "بروح المسيح" أو "روح الابن". وهكذا يجب على هؤلاء الإدعاء بأن الروح القدس إمَّا أنه انفصل عن الابن المتجسد وبالتالي لم يبقَ يسوع هو "المسيح"، أي أنه صار مثل الملك شاول بعد أنْ فارقه الروح القدس، وهو ما لم يحدث. وإمَّا أنه عُوقِبَ مع الابن، فهل احتمل الروح القدس ذات الغضب وثقل الدينونة مع الابن؟ الجواب بكل تأكيد لا، وذلك:

أولاً: لأن الأسفار المقدسة لم تذكر هذا.

ثانياً: لأن أُقنوم الابن وحده هو الذي تجسد، وهو الذي ذاق الموت بالجسد، وظل في موته وقيامته الابن المساوي للآب والروح القدس .... فأين هو دور الروح القدس وكيف أُقصي عن تدبير الخلاص بهذا الشكل؟

---

[1] راجع المبحث الأول من الفصل التمهيدي.

إن فكرة دفع الثمن ـ طبقاً للمفهوم الغربي ـ تعني انقسام الثـالوث إلى ثلاثـة أقانيم مختلفة أحدهم غاضبٌ والثاني يُعاقَب والثالـث لا دخـل لـه بما يحـدث لأن الموضوع لا يخصه. وفي حالة الإدعاء بأن الروح القدس قد عُوقِب مع الابن ـ وهـو ما لا تذكره الأسفار المقدسة بالمرة، بل تـذكر أن الابـن قـدم ذاتـه كذبيحـة لـلآب بالروح القدس أي الروح الأزلي (عب ٩ : ١٣) ـ يكـون الثـالوث قـد انقـسم إلى قسمين: الآب الغاضب، والابن والروح القدس معاً تحـت حكـم الدينونـة. وهـو تقسيم لا يسمح لمن يشأ أنْ يبقى في الأُرثوذكسية أنْ يقبل هـذا التعلـيم؛ لأن هـذا التقسيم يعني أنَّ الخلاص من الانفصال ومـن كـل نتـائج الخطايـا جـاء بانفـصال الثالوث، مع أنَّ غاية الخلاص هو العـودة إلى الوحـدة والاتحـاد بالثـالوث الواحـد الذي كان منذ الأزل، وسيبقى الواحد بالجوهر والمثلث بالأقانيم.

لماذا نرفض تقسيم جوهر الثالوث إلى إلهٍ غاضبٍ منتقم، وإلهٍ يدفع ثمـن خطايـا البشر؟

يوقعنا شرح موت المسيح على الصليب طبقاً لما يسمى بـ "عقيدة الكفـارة" في عدد من المشاكل ليست الأولى فيها هي الأريوسية، ولأن هـذه الهرطقـة القديمـة مـا تزال حية في عقول كثيرين، ولأن هذا الشرح يقوم على تقسيم جوهر الثـالوث إلى إلهٍ غاضبٍ ومنتقم (الآب)، وإلهٍ آخـر هـو ضـحية هـذا الانتقـام (الابـن) عنـدما يسترضي العدل الأبوي، ذلك العدل الذي لا وجود له في أُقنوم الابن، وبالتـالي لا وجود له في أُقنوم الروح القدس، عندئذٍ تصبح الأريوسـية هـي المدرسـة الفكريـة التي تشرح الفداء بهذه الطريقة الشعبية المسماة بـ "عقيدة الكفارة". وليست هـذه هي المشكلة الأولى، لكـن المـشكلة الحقيقيـة في هـذا الـشرح ـ إضـافةً إلى رفـضنا للفكر الأريوسي ـ هي أنَّ الخطية استطاعت أنْ تفـصل الأقـانيم، وأنْ تُباعِـد بـين الآب والابن إلى الحد الذي ينسى فيه الآب أنَّ المصلوب هو ابنه الوحيـد، فيعاقبـه **عوضاً** أو **بدلاً** أو **لأجل** الخطاة، وبذلك يحل الآب مشكلته مع العدل ومـع البـشر. ولا شك أنَّ هذه سخريةٌ تتستر تحت ثوب نصوص الكتـاب المقـدس لكـي تخـدع

السذج وضعاف العقول وتعطي حصانةً للبطش، واستعمال العنف باسم العدل، وتقدس استخدام الضحايا في إرضاء عدل إلهي لا علاقة له بموت الرب.

إنَّ ترك المحبة كقاعدة أساسية، وتفسير موت المسيح بشكل أُحادي يخفي الجوانب المتعددة للعلاقة بين الله والإنسان، وذلك يؤدي إلى خلق أجيال لا تفكر ولا ترى التعدد، فتبقى القوة والعقوبة في مكانها وتأخذ شكل التقديس والأُرثوذكسية.

إنَّ هذا الشرح يثير عديداً من الأسئلة:

السؤال الأول: لماذا انقسم الثالوث على ذاته بهذا الشكل بينما هو يعالج موضوع الانقسام الذي جلبته الخطية؟ إمَّا أنَّ الله أقوى من الخطية، فأباد كل نتائجها وأباد الموت، وإمَّا أنَّ الخطية أقوى من الله، فاستطاع الموت أنْ يدخل إلى أعماق جوهر اللاهوت ويفصل الآب عن الابن، وهو ما يجب أنْ نرفضه مهما كانت الحجج التي تقدَّم لنا.

السؤال الثاني: ما هو موقف العدل الإلهي من خطية الإنسان؟ .. هل سمحت صفة العدل للموت والغضب أنْ تدخل إلى جوهر اللاهوت لكي تفصل الآب عن الابن؟ .. هل فقد الابن عدله الإلهي المساوي لعدل الآب على الصليب؟ وكيف تحرك العدل في الآب لينتقل غضب الآب إلى ابنه الوحيد، بينما لا يتحرك غضب الإبن؟ أليست هذه مأساة أنَّ الله بينما يعالج الانقسام، وهو أحد نتائج الخطية، أُصيب هو نفسه بالانقسام؟

كيف حدث وتم الخلاص إذا كان الثالوث نفسه قد فقد وحدة جوهره، وهي الوحدة التي منها ينبع كل شئ، وهي أساس التجسد والصلب والقيامة وانسكاب الروح القدس وعطية الأسرار الكنسية؟

السؤال الثالث: وهو فوق طاقة هؤلاء لا يملكون له حلاً، ولذلك تركناه كآخر ما يُقال هنا في هذا المجال. يقول الرسول " الله محبة " وقد حفظت لنا الأناجيل ـ وبشكل خاص إنجيل يوحنا ـ الكثير عن محبة الله. محبة الله واحدة لا يمكن أنْ تكون

بدرجة أكبر في أُقنوم دون الأُقنومين الآخرين .. أليست هذه حقيقة أزلية وأبدية في الثالوث؟ ولكن حسب منطق هؤلاء فقد انقسمت المحبة الإلهية، وبالتالي ليس أمامنا إلاَّ الأخذ بأحد الاحتمالات الآتية:

* الابن يحب البشر أكثر من الآب؛ لأنه قَبِلَ أنْ يموت وأنْ يُعاقَب بدلاً عنهم.

* الابن أكثر رحمة من الآب؛ لأنه قَبِلَ أنْ يقبل غضب الآب، وأنْ يتنازل هو عن غضبه.

* الابن أكثر جُوداً وصلاحاً لأنه ترك حقه في "قصاص الخطية" (حسب تعبير أحد الأقباط المعاصرين) بينما لم يترك الآب حقه وأصر على أنْ يأخذه، وبعد أنْ أخذه وعاقب البشر عليه عاد وعاقب الابن .. أيُ عدلٍ هذا الذي يُعاقِب مرتين على نفس الجريمة .. المرة الأولى المجرمين الحقيقيين، وفي المرة الثانية البريء الذي بلا عيب. هكذا شوه هؤلاء المحبة الإلهية وجعلوها مثل محبة الملوك والأمراء والقادة السياسيين.

وإذا عدنا إلى نصوص الكتاب المقدس، وجدنا أشعياء النبي يقول: «أمَّا الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن» (أش ٥٣ : ١٠). وهنا لو أنَّ النبي قال "سُرَّ بأن يسحقه بالغضب"، لقدَّمنا أوفر اعتذار للذين نكتب لهم موضِّحين التعليم الأُرثوذكسي، ولكن النبي يقول: إنَّ الرب سُرَّ بأنْ يسحقه بالحزن، وهكذا جمع بين المسرة والحزن معاً في آنٍ واحدٍ: مسرة الخلاص، وهي ذات مسرة الثالوث الأقدس، وحزن الثالوث الأقدسٍ، لأنَّ الخلاص لا يمكن أنْ يتم إلاَّ بموت الابن الوحيد على الصليب، مع ملاحظة أنَّ الله لا يرى في الموت أي مسرةٍ، لأنَّه حقاً يقول الوحي المُقدَّس «عزيزٌ في عيني الرب موت أتقيائه» (مزمور ١١٦ : ١٥). وذلك تعبيراً عن الحزن، وليس الغضب، لأنَّ الوحي يقول إنَّ الآب قال عن الابن «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت ١٣ : ١٧)، وأيضاً يقول الآب عن الابن بعد أنْ صار في صورة العبد (فيلبي ٢ : ٧) «هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي به سُرَّت نفسي، وضعت روحي عليه فيُخرج الحق (وليس الغضب) للأُمم» (أش ٤٢ : ١)، وبعد ذلك يقول النبي «لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض» (أش ٤٢ : ٤).

وعن الموت يقول المزمور «سحق إلى الأرض حياتي» (مز ١٤٣ : ٣) ولكن الوحي يقول أيضاً «سحقت وإني أشفي» (تث ٣٢ : ٣٩)، فقد جاءت القيامة شفاءً للإنسانية مِن الموت. وعندما قال النبي **"مسحوقٌ لأجل آثامنا"**، فقد أكَّد موت الرب بالجسد (أش ٥٣ : ٥)، والحُزن هنا هو حُزن على الإنسانية الساقطة تحت وطأة الشر والخطية، وحزن الإنسانية نفسها، وهو أيضاً مجموع أحزان الرب في البستان التي يقول عنها النبي «لكن أحزاننا حملها» (أش ٥٣ : ٤) وعبارة الرب كافية تماماً «نفسي حزينة جداً حتى الموت» (مت ٢٦ : ٣٨). وهنا أيضاً لا يمكن أنْ نفصل بين أقانيم الثالوث إلى أُقنومٍ "مسحوق" وأُقنوم "يسحق"، إنما هنا ثالوثٌ واحدٌ يختبر أحزان البشرية، ويحزنُ على موت الإنسانية، لأنه لا يجد مسرةً بالمرة حتى في موت الخطاة حسب كلمات الله نفسه للنبي: «هل أُسرُّ بموت الشرير يقول السيد الرب إلاَّ برجوعه عن طرقه فيحيا» (حز ١٨ : ٢٣). «قل لهم. حيٌّ أنا يقول السيد الرب إني لا أُسرُّ بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حز ٣٣ : ١١). هل يكتفي هؤلاء بكلام الله نفسه؟

فكيف يجوز لنا أنْ نقول إنَّ الآب وجد مسرةً في موت ابنه، أو إنَّه صبَّ عليه غضب العدل، وانتقم منه وهو على الصليب، لكي يتشفى ويجد راحته في عقوبة الموت، بينما هو لا يجد لذةً أو مسرةً في موت الأشرار حسب قول النبي، ولذلك كانت "مسرةُ حُزن"، يقول عنها الرسول «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمِّله يسوع الذي مِن أَجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله، فتفكروا في الذي احتمل مِن الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه لئلا تكلوا وتخوروا في نفوسكم» (عب ١٢ : ٢ـ٣). أمَّا خِزي الصليب وعاره، فهو خِزي الإنسانية وعار موت البريء بين لصين، لا الخزي والعار الذي صبه الآب على الابن. وهكذا كانت مسرة الابن، مثل مسرة الآب، مثل مسرة الروح القدُّس، مسرةً وحزناً معاً للثالوث القدُّوس، لأنَّ الخلاص قد تحقق "وحل الرب قضية الموت"، وأباد الموت بموته، وتحول هذا الحزن إلى مسرة كاملة للثالوث القدُّوس.

الغضب
بين الفكر السياسي
واللاهوت الأُرثوذكسي

هل الغضب صفةٌ من صفات الله؟

إذا كان الكتاب المُقدَّس لا يصف الله بأنَّه "غضوبٌ"، صار مِن الضروري أنْ نسأل هذا السؤال الهام: هل الغضب صفة مِن صفات الله؟ هل الغضب مثل المحبة، أو الحكمة؟ والجواب يصلنا مِن أعماق ما نعرفه عن عقيدة الثالوث. فقد وُصِفَ الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح بأنَّه " **ابن محبة الآب** " (كولوسي ١ : ١٣)، كما وُصِفَ بأنَّه " **الحبيب** " (متى ٣ : ١٧) هذه صفات ذات دلالة خاصة، لأنَّها ليست علاقة خارجية بين الآب وأحد المخلوقات، بل هي علاقة أزلية سابقة على خلق الكون وسقوط الإنسان، لأنَّها علاقة المحبة، أي علاقة أُقنوم الآب بالابن. ولنفس السبب يُوصف الروح القدس بأنَّه روح القوة والمحبة (٢ تيمو ١ : ٧) وأيضاً يقول الرسول يوحنا عن الابن " إبن الآب بالحق والمحبة " (٢ يو ٣)، فالابن هو ابن الآب بالحق والمحبة. والحق والمحبة صفات جوهر الثالوث. والابن هو ابن الآب الأزلي ، ابن المحبة، ابن الحق الذي لا يُوصَف بأنه "ابن الغضب"؛ لأن الغضب هو عمل إلهي للثالوث لا يمس الأقانيم، وإنما يمس المخلوقات. هو علاقة خارجية وقوة إلهية موجهة ضد الخليقة وليست موجهة من أُقنوم ضد أُقنوم آخر. هكذا لا يدخل الغضب في علاقة أقانيم الثالوث لأسباب لا تحتاج إلي شرح، ولكننا نكتفي بسبب واحد، وهو أنَّ الغضب هو مقاومة الله للشر، وليس في طبيعة الابن أو الآب أو الروح القدس شرٌ حتى يمكن أنْ نتصور أنَّ الغضب يمكن أنْ يدخل في علاقة الآب بالابن بالروح القدس.

وهكذا عندما شاء الله أنْ يُخلِّص الإنسانية، كان التجسُّد والصلب والقيامة الوسيلة. أي كان الخلاص يتم بوسيلةٍ أو "أداةٍ" هي "جسد المسيح" المُتَّحِد بلاهوته، أي بوسيلة مِن طبيعة غير طبيعة جوهر اللاهوت، بل أُخذت مِن القديسة مريم، وفيها عمل اللاهوت "لحل قضية الموت والخطية"، وعن ذلك يقول القُدَّاس الغريغوري:

[يا سيدنا ومخلصنا محب البشر الصالح محُيي أنفسنا،
يا اللّه الذي أسلم ذاته عنا خلاصاً مِن أجل خطايانا،
الذي بكثرة رحمته حل عداوة البشر،
أيها الإله الوحيد الذي في حضن أبيه....]

(مقدمة قبل القسمة)[1].

لقد كان الابن في حضن الآب وهو على الصليب حسب عبارة الإنجيل "الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب" (يو ١: ١٨). ولقد أدركت الكنيسة قوة وجمال التعليم الرسولي، وأخذت هذه العبارة الإنجيلية لكي تُعطي لها المعنى الرسولي الكامل في صلاة قسمة صوم الميلاد:

[أيها السيد الرب إلهنا الخالق .. الذي أرسل نوره الحقيقي ابنه الوحيد، يسوع المسيح الكلمة الذاتي الكائن في حضنه **الأبوي كل حين**، أتى وحل في الحشا البتولي الغير الدنس].

لقد كان الابن في حضن الآب حين كان في أحشاء القديسة مريم، وهو كذلك أيضاً فيما هو معلقٌ على الصليب؛ لأنَّه صعد على الصليب بإرادته وقوته وسلطانه، وهي ذات إرادة وقوة الآب وسلطانه (يو ١٠: ١٧-١٨) وإذا قال الرب: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٠: ٣٠)، فهذا لا يعني أنَّ الوحدة انتهت عند الصليب، وتوزَّعت إرادة الثالوث إلى أكثر مِن إرادة، فتحوَّل الآب إلى أُقنومٍ غاضبٍ، والابن إلى أُقنومٍ "مغضوب عليه"، **لأنَّ هذا يجعل الابن أعظم مِن الآب، فهو يحتمل**

[1] راجع المبحث الأول من الفصل التمهيدي.

ويصبر على ما لا يستطيع الآب أنْ يحتمله أو يصبر عليه، ويصبح الابن أقوى مِن الآب، لأنَّ الابن استطاع بقوته أنْ يحل مشكلة الخطية والموت والعقوبة، وهو ما عجز عنه الآب (وهذا تجديف لا يجب أنْ نفكر فيه، أو فيما يشبهه).

كيف يشرح الكتاب المقدس الغضب؟

وإذا كان الغضب الإلهي هو غضب الثالوث القدوس، لا غضب أُقنوم واحد، فإنه مع ذلك لا يجوز لنا أنْ نتصوَّر أنَّ الثالوث يغضب بشكل دائمٍ. ذلك لأنَّ الغضب ليس صفة من صفات الله، كالمحبة والقداسة والحكمة والقوة؛ لأن هذه صفات جوهر الثالوث التي تعمل دائما، والتي إنْ سكنت سقطت الخليقة في العدم. وعلى ذلك فإذا ما ذكر الكتاب المقدس إنَّ الله استخدم المياه والنار وغيرها من عناصر الطبيعة، فإنَّ هذا الاستخدام المؤقت يؤكد لنا أنَّ الغضب هو عمل الإرادة الإلهية عندما تتعامل مع المخلوقات، وهو عمل الإرادة الإلهية الذي يشبه الخلق من العدم، أي أنه فعل يتجه إلى ما هو خارج الجوهر الإلهي. وهكذا إرادته المؤَدِّبة، فلا يصبح التأديب هو الله، وإنما هو أحد أعمال الله. وما أعظم الفرق بين مدرِّسٍ يستخدم العصا، دون أنْ يصبح هو ذاته العصا. إنَّ هذا التمييز ضروري لبقاء وحدة جوهر الثالوث.

وغني عن البيان أنَّ الغضب هو أحد القوى الأساسية التي أُعطيت للإنسان ـ كما يقول يوحنا الدرجي في كتاب سلم الفضائل ـ **"للدفاع عن الحياة"** (الدرجة ٣٥)، فهو قوة تحفظ الحياة، ولكن الله لا يحتاج إلى قوة تحفظ حياته، ولا إلى سلاح يدافع به عن نفسه، فهو كاملٌ وكلي الصلاح. ولذلك يضع الرسول بولس الغضب ضمن أعمال الجسد الصادرة عن الطبيعة الإنسانية الساقطة «وأعمال الجسد ظاهرة، التي هي زنى، عهارة، نجاسة، دعارة، عبادة الأوثان، سحر، عداوة، خصام، غيرة، سخط (غضب) ..» (غلا ٥ : ١٩).

ولذلك يطلب الرسول نفسه أنْ «لا تغرب الشمس على غيظكم» (أف ٤ : ٢٦) وأنْ لا يبقى في قلوبنا "السخط والغضب" (أف ٤ : ٣١) وما أعظم الفرق بين

الغضب الإلهي، والغضب الإنساني. فإذا كان غضب الله يأتي على أبناء المعصية (كو٣: ٦) الذين يعبدون الأوثان، فإن الرسول يذكر بعد ذلك مباشرةً «أمَّا الآن فاطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل الغضب السخط الخبث التجديف...» (كو٣: ٨)، وباقي أعمال "الجسد العتيق"، فكيف يجوز للرسول أنْ يضع الغضب الإلهي في عبارة واحدة مع أعمال الجسد العتيق أو الطبيعة الإنسانية القديمة، ثم ينسب ذات العمل والفعل لله؟ والجواب سهلٌ إذا ميزنا بين الغضب الإلهي الذي يرفض الشركة ويمنع البركة ويترك الإنسان تحت رحمة قوى الطبيعة، وبين الغضب النابع مِن الخوف والكراهية والقسوة وشهوة الانتقام. فالأوَّل خاص بكمال الله وصلاحه، والثاني خاص بالخطية والشر، وهو ما يجعل الرسول يضع مقارنة هامة بين الطبيعة الساقطة والطبيعة الجديدة في المسيح:

الطبيعة الساقطة	الطبيعة الجديدة
الغضب، السخط، الخبث، التجديف، الكلام القبيح، الكذب	رأفات، لطف، تواضع، وداعة، طول أناة، محتملين بعضكم البعض
(كو٣: ٨ ـ ٩)	(كو٣: ١٢ـ١٣)

والطبيعة الجديدة في المسيح هي تلك التي تحتمل كل شيء، وتغفر كما غفر المسيح (كو٣: ١٣) وبعد كل هذا يقول الرسول: وفوق جميع هذه (الفضائل)، البسوا المحبة التي هي رباط الكمال بين هذه الفضائل (كو٣: ١٤)، فلو كان الغضب الإلهي مثل الغضب الإنساني لما استطاع الرسول بولس أنْ يقول: «أريد أنْ يُصلِّي الرجال في كل مكان رافعين أيادٍ طاهرةٍ بدون غضب، ولا جدال» (١ تيمو ٢: ١).

وهكذا نرى كيف يقول المزمور والرسول بولس بعد ذلك بصوت الروح القُدس عن الجيل الذي خرج مِن أرض مصر «حتى أقسمت في غضبي لن يدخلوا راحتي» (عب ٣: ١١)، فهذا رفضٌ للشركة، وتركُ الإنسان لمشورته ورأيه الشرير، وهو ما يصفه الرسول نفسه بعد ذلك «بعدم الإيمان والارتداد عن الله الحي» (عب٣: ١٢). ونظراً للفارق الكبير بين غضب الإنسان الشرير، وغضب إله

الرأفة والرحمة يقول الرسول يعقوب: «ليكن كل إنسان مسرعاً في الاستماع، مبطئاً في التكلُّم، مبطئاً في الغضب، لأنَّ غضب الإنسان لا يصنع بر الله (أي لا يحقق عدالة الله وصدقه)» (يعقوب ١ : ٢٠). وما أكثر المواقف التي كان غضب الإنسان واعتداده بقوته يقابله غضب الله «وغضبت الأُمم فأتى غضبك» (رؤ ١١ : ١٨).

الغضب الإلهي والخطية:

لا نحتاج إلى اقتباس كلمات الكتاب المُقدس عن كراهية الله للشر، وعن رغبة وإرادة الله في القضاء على الشر. هذه أُمور يعرفها أصغر قارئ ولا تحتاج إلى إيضاح، وإنما ما يحتاج إلى إيضاح هو المناسبات التي تحرَّك فيها الغضب الإلهي ضد تعاظم شرور الإنسان.

١ـ خطية آدم وحواء:

لم يمت آدم بعد السقوط مباشرةً، بل عاش **٩٣٠** سنة حسب نص سفر التكوين، وكانت معاناة آدم مع الخليقة هي بداية دخول الإنسان في صراعٍ، يشرحه الكتاب المُقدَّس بكلمتين: **"البركة"**، وتعني الحياة، و**"اللعنة"**، وتعني الموت. وهنا نرى كيف عاش أبو البشرية دون أنْ يُدمِّره ويقتله الغضب الإلهي، ولكننا نجد آدم وحواء أمام موضوع يستغرق قسماً كبيراً مِن العهد القديم، هو البركة أو اللعنة.

لقد قال الله «ملعونة الأرض بسببك» (تك ٣ : ١٧) .. هذه لعنة صريحة، ولكن هذه اللعنة لم تستمر؛ لأنَّ الكتاب المُقدَّس يؤكد فيما بعد علي بركة الأرض ضمِن بركة إبراهيم الذي لم يكن شريكاً في لعنة آدم «وتكون بركة .. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك ١٢ : ٢ـ٣)، ولذلك يكرر سفر التكوين «وبارك الله إبراهيم في كل شئ» (تك ٢٤ : ١)، ويبارك اسحق بكلمات حلوة «فليُعطك الله مِن ندى السماء، ومِن دسم الأرض، وكثرة الحنطة» (تك ٢٧ : ٢٨)، وبعد ذلك يقول المزمور «لطعامها أُبارك بركة، مساكينها أُشبع خبزاً» (مز ١٣٢ : ١٥) وبسبب جمال حياة الشركة يقول المزمور «هناك أمر الرب بالبركة» (مز ١٣٣ : ٣). وعندما يقول الله عن

بركة تقديم العشور «هاتوا جميع العشور .. إنْ كنت لا أفتح لكـم كـوى الـسماء وأفيض عليكم بركة ..» (ملاخي ٣ : ١٠)، بل يَعِـد الـرب بحفـظ الغـلات الزراعيـة (ملاخي ٣ : ١١) وهذا يؤكد بركة الأرض. ويذكر الـرب نـوح بعـد لعنـة الطوفـان، ويقول سفر التكوين «وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيـضاً مِـن أجـل الإنسان ..» (تكـوين ٨ : ٢١). وبعد ذلك مباشرة يقول سفر التكوين «وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم اثمروا ..» (تك ٩ : ١ـ١٧). وهكذا يجب أنْ يكون واضحاً أمام عيوننـا، إنَّ ما يقال عن البركة واللعنة لا يجب أنْ يؤخذ كقرار يشمل الإنسانية كلها عبر العصور والأزمِنة، بل هو خاص بمناسبة معينـة، وهـو الأمـر الـذي تؤكـده بـاقي أسفار الكتاب المُقدَّس.

٢ـ لعنة الطوفان:

لم يحدث الطوفان بسبب خطية واحدة، وإنما حسب عبارة سفر التكـوين «رأى الرب أنَّ شر الإنسان قد كَثُرَ في الأرض» (تـك٦ : ٥) ولم يتحـرك الغـضب الإلهـي فوراً، بل كما يقول سفر التكوين إنَّ الرب «تأسَّف في قلبه .. لأنَّـي حزنـت أنَّـي عملتهم» (تك ٦ : ٦ـ٧) وترك الرب فرصةً للتوبة، وهي فرصة بناء الفلك. ولأنَّ الله هو خالق كل الأشياء، فقد سحب بركة توازن قوى الطبيعة بـين الميـاه واليابـسة حسب قول المزمور «وضعت لها تخماً لا تتعـداه لا ترجـع إلى الأرض» (مـز ١٠٤ : ٩). ويقول نفس المزمور «ما أعظم أعمالك يارب. كلها بحكمةٍ صُنِعَت، ملآنةٌ الأرضُ مِن غناك» (١٠٤ : ٢٤) لأنَّ الرب «يفرح بالخليقة»، فهو لـيس في حالـة غـضب دائـم مستعر مثل التنور، بل «يفرح الرب بأعماله» (مز ١٠٤ : ٣١) ولكن في نفس الوقـت لا يقبل الخطاة إلاَّ بالتوبة. ويترك الرب الوقت يمر حتى تكمل خطية جماعة معينة، مثل ذنب الأموريين «لأنَّ ذنب الأموريين ليس إلى الآن كـاملاً» (تكـوين ١٥ : ١٦) أو كمال المعصية والإثم (دانيال ٩ : ٢٤) ولذلك يقول أرميا «ويكون عند تمـام الـسبعين إنِّي أُعاقب ملك بابل ..» (٢٥ : ١٢ـ ١٤) فعندما يكمل ذنب شعبٌ مـا، يـسحب الله رعايته، ويترك هذا الشعب لخطاياه.

٣ـ سدوم وعمورة:

لم يحل غضب الله فجأةً أو بسبب خطيةٍ واحدةٍ لشخصٍ واحدٍ، وإنما بسبب خطية شعب، ولذلك يقول عنها سفر التكوين «وخطيتهم قد عظُمت جداً» (تك ١٨ : ٢٠) وكان الرب مستعداً لأنْ يصفح عن هؤلاء لو وجد عشرة أبرار في سدوم وعمورة (تك ١٨ : ٣٢) وحتى لوط الذي أعلن الدينونة الآتية قِيل عنه «كان كمازحٍ في أعيُن أصهاره» (تك ١٩ : ١٤). وترك الرب قوى الطبيعة تدمر سدوم وعمورة، وصارت بذلك عِبرةً لكل الخطاة، ولم تتكرر هذه العقوبة في الكتاب المُقدَّس بعهديه، كما لم يتكرر الطوفان؛ لأن الله لا يُسر بموت الأشرار، وهو ما تتغنى به أسفار الكتاب المقدس.

الفرق بين الغضب الإلهي، وغضب الإنسان

قد يبدو للقارئ أن الكلام عن الإله الغاضب وانتقام الآب هو أصعب ما في الحوار اللاهوتي، والحقيقة أنَّ هذا هو أسهل نقطة، وذلك لأن الكتاب المقدس لم يُصرِّح على الإطلاق بأن الآب غضب على الابن، لأننا وبنظرة واحدة إلى فهرس الكتاب المقدس العربي، وتحت حرف "الغين" صـ ٤٣٦ ــ ٤٣٧ نجد أنَّ الغضب الإلهي ورد بالحصر حسب تقسيم الفهرس كالآتي:

* غضب الله على موسى بسبب بني إسرائيل (تث ٣ : ٢٦ ـ ٤ : ٢١).
* غضب الله الذي أنقذ داود من يد شاول عندما صرخ إليه داود (مزمور ١٨ : ٧).
* غضب الله على بني إسرائيل، ويقول المزمور "اشتعلت نارٌ في يعقوب" (٧٨ : ٢١) وبعدها مباشرةً يقول المزمور «أمَّا هو فرءوف يغفر الإثم ولا يهلك، وكثيراً ما رد غضبه **ولم يشعل كل سخطه**. ذكر أنهم بشر، ريحٌ تذهب ولا تعود» (مز ٧٨ : ٣٨). هذا ليس فقط غضب مُعلن، بل غضبٌ محدودٌ؛ لأنه لو اشتعل غضب الله لضاعت كل الخليقة.
* ويقول نفس المزمور «أرسل عليهم حمو غضبه (أي على مصر) وخلَّص إسرائيل» (مز ٧٨ : ٤٩). ولم يدُم غضبه على مصر، بل كما يذكر نفس المزمور:

«غضب الرب ورذل إسرائيل» (مز ٧٨: ٥٩) واختار سبط يهوذا وداود، ولم يكن هؤلاء بلا خطية.

أمَّا باقي استعمالات الفعل فهي لا تخص الرب يسوع.

* غضبت على مسيحك. نقضت عهد عبدك. نجست تاجه في التراب (مز ٨٩: ٣٨ـ٤٤) ومع ذلك يقول إيثان الأزراحي صاحب هذه الكلمات: «حتى متى يارب تختبئ .. حتى متى يتقد كالنار غضبك» (مز ٨٩: ٤٦). لو أنَّ غضب الله هو غضب يتحرك مثل غضب البعض لتحولت الدنيا إلى رماد، ولكن الإنسان يعاتب الله ويقول له: «أنا زائل .. أين مراحمك .. أُذكر عار عبيدك»، ثم ينتهي إلى: «مبارك الرب إلى الدهر».
* ويسأل أرميا في المراثي قبل أنْ يقول: «هل غضبت علينا جداً»؟ (٥: ٢٢) «أرددنا يارب إليك فنرتد» (٥: ٢١). إذن فهو غضبٌ يتوقف أمام توسل الإنسان.

وفي كل ما ذكره الكتاب حتى هذه الكلمات لا نجد غضب السيد المريض بالسادية، وإنما غضب المحبة بسبب نقض العهد وعبادة الآلهة الوثنية. هذا يؤكده زكريا النبي عندما سمع شفاعة أحد الملائكة في أورشليم: «يارب الجنود إلى متى لا ترحم أورشليم ومدن يهوذا التي غضبت عليها هذه السبعين سنة. فأجاب الرب الملاك الذي كلمني بكلام طيب وتعزية .. هكذا قال رب الجنود. غِرت على أورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة» (زك ١: ١٢ـ١٧). فقد جاء السلام من عند الله لأنه لا ينسى المواعيد ولا يفيض غضبه مثل طوفان السادة من البشر الذين لا يعرفون الرحمة. لقد حمل إسرائيل اسم الله بين الأُمم، ولذلك السبب نفسه يقول آساف وهو يسأل الله: «إلى متى يارب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك .. لتتقدمنا مراحمك سريعاً لأننا قد تذللنا جداً .. نجنا واغفر لنا خطايانا من أجل اسمك القدوس» (مز ٧٩: ٥ـ٩).

وتجيء نبوة اشعياء لكي تضع الإنسان أمام حقيقة الغضب الإلهي.

* فيضان الغضب = حجبت **وجهي عنك لحظة** (٥٤: ٨).
* يقابل فيضان الغضب ـ مراحم عظيمة (٥٤: ٨).

* بل يقول الرب "كما حلفت أنْ لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض. هكـذا حلفت أنْ لا أغضب عليك، ولا أزجرك فإنَّ الجبال تزول والآكام تتزعـزع أمَّا إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمـك الـرب" (اش ٥٤ : ٨ ـ١٠).

وينظر الرب إلى أورشليم ويعقوب ويقول: «أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية هاأنذا أبني بالأثمد حجارتك .. كل آلةٍ صُورت ضدك لا تنجح» (أش ٥٤ : ١١ـ١٧).

ويعرف أيوب في محنته قوة حمو غضب الله، ولكنه يعـرف الله، ولـذلك يقـول «أسترحِم دياني» (أيوب ٩ : ١٥) ولكن كما يقول اشعياء أن غضب الله هـو لحظـة .. هكذا يقول المزمور «لأن للحظةٍ غضبه .. حياةً في رضاه» (مز ٣٠ : ٥).

وما أكثر الذين وقفوا أمام غضب الله :

ـ إبراهيم ، تكوين ١٨.

ـ موسى .. «فقال بإهلاكهم لولا موسى مختاره وقف في الثغر قدامـه ليـصرف غضبه عن إتلافهم » (مزمور ١٠٦ : ٢٣).

وهنا يطرح السؤال الواضح نفسه: من أين جاء هؤلاء بالتعليم الـذي يقـول إن الآب أعلن غضبه على الابن وهو على الـصليب؟ أيـن هـذا التعلـيم مـن نصوص الكتاب المقدس التي أوردناها؟

هل قال الرب يسوع لذلك يغضب عليَّ الآب لأنني أضع ذاتي عن الخراف؟ أم قال العكس: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفـسي لآخـذها» (يوحنـا ١٠ : ١٧). وهـو إبن محبة الآب (كولوسي ١ : ١٣) وهو الابن الحبيـب (متـى ٣ : ١٧) .....وتجـيء كلمـات الرب القاطعة «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم» (يوحنا ١٥ : ٩) ..

وإذا كان كل ما هو للآب هو أيضاً للابـن حـسب كلمـات المخلـص نفـسه (يوحنا ١٧ : ١٠)، فإنَّ ذلك يعـني أن غـضب الآب علـى الابـن إنمـا يعـني أيـضاً غضب الابن علينا. في حين أن الابن لم يأتِ بغضب الآب أو بغضبه هـو، وإنمـا بالمحبة والغفران.

يقول الرب: «كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب فمَن يأكلني يحيا بي» (يوحنا ٦ : ٥٧). فإذا كان الآب هو مصدر حياة الإبن، فبماذا نسمي هذا التجديف الذي يجعل الابن المتجسد في قبضة الموت؟ وإذا كان الموت هو عقوبة الخطية، فإنَّ ذلك يعنى أنْ يسيطر الموت ويسود على الابن ليصبح تحت وطأة عقوبة الخطية، وهو الذي لم يعرف خطية ولا وجد في فمه غش.

كيف يعلن الكتاب المقدس عن الغضب الإلهي؟

نستطيع أن نرى كيف يتم الإعلان الإلهي عن الغضب من كلمات الكتاب المقدس نفسه:

* لا يحفظ إلى الأبد غضبه (ميخا ٧ : ١٨).

ويقول الله نفسه «الرب إلهٌ رحيم ورؤوف، بطيء الغضب، وكثير الإحسان والوفاء ..

حافظ الإحسان إلى أُلوف. غافر الإثم والمعصية والخطية» (خروج ٣٤ : ٦).

* بطيء الغضب (يونان ٤ : ٢).
* بطيء الغضب (يؤ ٢٠ : ٣).
* بطيء الغضب (ناحوم ١ : ٣).
* ويقول حبقوق النبي «في الغضب أذكر الرحمة» (٣ : ٢).

لم يوصف الله إطلاقاً بأنه غضوبٌ. ولكن وردت الصفة والاسم ٤ مرات فقط في العهدين وهي عن البشر (أم ١٥ : ١٨ ــ ٢٩ : ٢٢ ــ ٢٢ : ٢٤ ثم تيطس ١ : ٧) وهي صفة مذمة لا مدح للإنسان الغضوب.

ولعلنا نلاحظ أنَّ الغضب الإلهي لا يتم في صمتٍ، بل يُعلَن. ولا يذكر الكتاب المقدس أنَّ غضب الله هو غضب صامت .. بل يؤكد في كل المرات التي حدثت فيها مصائب كبيرة للبشر أن غضب الله أُعلِن أولاً، وترك الله فرصةً للتوبة، ثم ثانياً حدثت التأديبات والعبَر التي نراها في تاريخ العهد القديم بالذات كسدوم وعامورة مثلاً.

شرح الآباء:

نحن نتبع الآباء. هذه حقيقة لا يجب أنْ تغيب عنا بالمرة. فماذا يقول أول لاهوتي مسيحي إسكندري عن غضب الله؟

في العظة الأولى على سفر ارميا النبي[1] يشرح العلاَّمة أوريجينوس موضوع غضب الله. ويتطرق في الشرح إلى أهل نينوى وسادوم وعامورة، فماذا يقول العلاَّمة؟

[يُسر الله بالصلاح ويتأخر في معاقبة الذين يستحقون العقوبة. وفي الحقيقة رغم أنه يستطيع أنْ يُعاقِب الذين حَكَمَ عليهم بعقوبةٍ دون أي إنذار، إلاَّ أنه لم يفعل ذلك بالمرة. فعندما يُحاكِم أو يُصدِر حكمه، يعلن هذا الحكم بشكل يجعل المذنب والمحكوم عليه يبتعد عن شره، فيمتنع الله عن عقابه. لدينا أمثلة كثيرة من أحكام وعقوبات وردت في الأسفار، أمَّا الآن يكفي أنْ نشير إلى بعضها لكي نؤكد رؤيتنا من الفقرة التي قرأناها الآن (أرميا ١ : ١-١٠).

أخطأ أهل نينوى وحكم الله عليهم: بعد ثلاثة أيام أعلن يونان نهاية المدينة (يونان ٣ : ٣-٤). وهكذا لم يصدر حكم الله في صمت، بل أعلن الحكم لكي يعطي لهم فرصةً للتوبة والعودة إلى الله، ولذلك أرسل لهم النبي العبراني لكي ينال الذين صدر عليهم هذا الحكم رحمةً من الله بالتوبة].

ويقول عن أهل سدوم وعامورة:

[صدر الحكم أيضاً على أهل سدوم وعامورة، وهذا ظاهر من كلمات الله مع إبراهيم (راجع تك ص ١٨). وقام الملائكة بعملهم لإنقاذ الذين لا يريدون الخلاص، ولذلك قالوا للوط: "مَن لك أيضاً هاهنا. أصهارك وبنيك وبناتك وكل مَن لك

---

[1] النص اللاتيني ترجمة روفينوس مع الأصل اليوناني نشره العالم الألماني E. Klostermann عام١٩٨٣. الطبعة الأولى لمجموعة الآباء اليونانيين مجلد ١٣ ابتداء من عامود ٥٤٣.

في المدينة اخرج من المكان" (تك ١٩ : ١٢) كان الملاكان يعلمان أنَّ هناك مَن لم يأتِ مع لوط، وكان يعملان من أجل «لطف الله وإحسانه» (راجع تيطس ٣ : ٤) واتخذا هذا القرار من أجل الذي أرسلهم أي الله، ومن أنفسهم أيضاً][٢].

فالغضب الإلهي لا يصيب الخطاة بغتةً ولا بدون إنذار. ومع أنَّ العلاَّمة أوريجينوس قدَّم مثالين معروفين لنا وهما نينوى وسدوم وعامورة، إلاَّ أنه أكد هذه الحقيقة من تاريخ نبوة أرميا. وحسب نصوص العهد القديم نفسه، فقد دامت نبوة أرميا لفترة حكم ثلاثة من ملوك يهوذا هم: يوشيا بن آمون، ثم يهوياقيم بن يوشيا ثم صدقيا بن يوشيا، وذلك إبتداءً من السنة الثالثة عشرة من حكم يوشيا بن آمون، وحتى الشهر الخامس من السنة الحادية عشر من ملك صدقيا بن يوشيا. ومن واقع نص أرميا ١ : ١ـ٣ نجد أنَّ هذه الفترة امتدت لمدة أربعين سنةً، من ٦٢٧ ق م : ٥٨٧ ق م. ويعلِّق العلاَّمة على هذه الحقيقة قائلاً:

[ماذا نتعلم من هذه الحقيقة التاريخية؟ لقد صدر حكم الله على أورشليم بسبب خطاياها، وأنْ يُسلَّم سكانها للسبي. ومع ذلك فإن الله صانع الخيرات في الوقت المعين يرسل نبيه في عهد الملك الثالث لكي يتوب سكان أورشليم بكرازة النبي. وكان الله قد كلف النبي بأن يتنبأ في عهد الملك الأول والثاني، وفي عهد الملك الثالث جاء زمان تنفيذ الحكم بالسبي، فقد كان صبر الله ينتظر توبة سكان أورشليم حتى زمان السبي، وكان النبي يحث الشعب على التوبة لكي لا تحدث كارثة السبي، ولذلك كُتِبَ أنه تنبأ إلى زمان سبي أورشليم في الشهر الخامس] (المرجع السابق ص ٥٠٤).

---

[٢] كان من حُسن حظنا أن نشرت ترجمة عظات العلامة اوريجينوس على نبوة ارميا في سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٩٧ التي تصدرها الجامعة الكاثوليكية في واشنطن - ١٩٩٨ - راجع صفحات ٣ وما بعدها.

العلاَّمة أوريجينوس يطبق الأحداث التاريخية على الحياة الروحية المسيحية

يقول أوريجينوس:

[وهكذا نحن أيضاً، إذا أخطأنا، فإننا نتعرض لأنْ نقع في أسر الشيطان حسب قول الرسول "أنْ يُسلَّم هذا الشخص إلى الشيطان" (١ كو ٥ : ٥) وهذا لا يختلف بالمرة عن سبي أورشليم بواسطة نبوخذنصر. وكما أنَّ هؤلاء قد سُلِّموا لملك بابل بسبب خطاياهم، هكذا نحن أيضاً نُسلَّم بسبب خطايانا للشيطان الذي يرمز له نبوخذنصر، كما هو مكتوب أيضاً "اللذان أسلمتهما للشيطان لكي يؤدَّبا حتى لا يجدفا" (١ تيمو ١ : ٢٠) ويا ليتنا نتعظ ونتعلم عن شر الخطية الذي يجعلنا أسرى للشيطان، وهو يسبي نفوس الذين تركهم اللّه، مع أنَّ اللّه لا يترك ولا يتخلى دون سبب ودون حكم على الذين تخلى عنهم. فهو يرسل المطر على الكَرْم، ولكن إذا لم يثمر الكَرْم ويعطِ عنباً، فماذا يفعل اللّه سوى أنه يأمر السحاب لكي لا يمطر على الكَرْم(راجع اش ٥ : ٦،٤)].

كيف يجب أنْ نفهم الغضب الإلهي؟

أولاً: شرح العلاَّمة أوريجينوس

يعود العلامة أوريجينوس لنفس الموضوع في العظة العشرين، وينبهنا إلى أننا يجب أنْ نأخذ ما جاء في الأسفار المقدسة على أنه خاصٌ ولائقٌ جداً بصلاح الله؛ لأن الله لا يعاقِب بقسوة وتشفِّي مثل البشر (لا سيما مرضى السادية الذين يجدون لذةً وسعادةً في تأمل عذاب ضحاياهم والتلذذ به). فيقول العلامة أوريجينوس:

[كل ما كُتِبَ عن اللّه في الأسفار المقدسة حتى لو كان ظاهرياً يبدو غير لائق، يجب أنْ نفهمه على أنه خاصٌ بصلاح اللّه. ومَن ينكر أنَّ الأسفار أشارت إلى غضب اللّه؟ بل سجلت الأسفار ليس غضبه فقط، بل غضبه الشديد،

بل وندمه. كل هذه الصفات تنسب إليه بكلماتٍ غامضةٍ تحتاج إلى تدقيق (راجع أمثال ١ : ٦) ولكننا سنرى أنَّ كل هذه الصفات تليق بالله. وغضب الله ليس بلا ثمر، بل كما إنَّ كلمته توبِّخ وتُعلِّم هكذا أيضاً غضبه يربِّي. يُعلِّم الله ويُربِّي خليقته بالغضب عندما لا تتعلم وتتربى بالكلمة. ونحن نعلم أنَّ كلمة الله ليست مثل كلمات البشر؛ لأنه لا يوجد إنسان واحد هو كلمة الله الحي، أو هو في حد ذاته كلمة الله؛ لأنه يوجد واحدٌ فقط ولا يوجد آخر غيره هو الكلمة الذي كان في البدء عند الله هو وحده الكلمة. وعلى نفس القياس، كما أنَّ الكلمة هو كلمة الله، هكذا أيضاً غضب الله هو أيضاً غضبه هو وحده. ولكن كما أنَّ الكلمة يختلف في طبيعته عن كلمات البشر، فهو وحده هو الله، وهو وحده الكلمة الحي الذي له أُقنوم خاصٌ به في الآب وله طبيعته الخاصة؛ لأنه هو وحده الكلمة الذي وحده له كيان (أُقنوم) من الله. وعلى نفس القياس الغضب الإلهي له طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة غضب الناس، وغيظ الله هو أيضاً غيظٌ خاصٌ؛ لأنه غيظ له مَن يؤدِّب بغيظ لكي يغيِّر من يُؤَدب. وتؤدِّب الكلمة وتُعلِّم، ولكن ليس كما يؤدِّب الغيظ، والذين يسرعون بالتوبة بتأديب الكلمة لا يحتاجون إلى تأديب الغيظ (السخط)] (المرجع السابق ص ٢٢١-٢٢٢).

ثانياً: شرح يوحنا كاسيان بعد ما سمع تعليم آباء البرية.

قدم يوحنا كاسيان في كتابه المعروف بـ "*Institutes* أي النظام أو المبادئ" - وفي الفصل الثامن منه وعلى مدى أربعة فصول خلاصة التعليم المسيحي تحت عنوان روح الغضب، وسوف يلاحظ القارئ أن كاسيان وصف انفعالات الغضب والسخط بأنها تجديف شنيع. وها نحن نضع هذه الفصول الأربعة تحت يد القارئ لكي يدرك وحدة المفاهيم التي تحكم الحياة الروحية المسيحية، سواء قُدِمت من اللاهوتي، أو من الناسك، وهو ما يُظهر ذلك الانسجام الموجود بين

المعرفة اللاهوتية والحياة الروحية المُعاشة. وهذا هو أحد أهدف هذه الدراسة التي أشرنا إليها في المقدمة.

يقول كاسيان في الكتاب الثامن:

أولاً:ـ الفصل الأول:

[١ـ يجب في الجهاد الرابع قلع سم الغضب القاتل من جذوره في أعماق النفس؛ لأنه إذا بقي روح الغضب واستقر في قلوبنا أظلمت عقولنا، وفقدت عين العقل قدرتها على الرؤية؛ لأن الغضب يصيب بالعمى وبظلمة ضارة تجعل الرؤية الروحية مستحيلة، فلا نقدر على الحكم الصائب في أي أمر من الأُمور، بل يتعذر علينا التأمُّل الصالح الذي ينمي الحكمة فينا، بل لا نقدر على أنْ نثبت في الصلاح أو نقبل النور الحقيقي الروحي؛ لأنه مكتوب «عيني تعكرت من الغضب» (مز ٣١ : ٩)].

٢ـ وقد يمدحنا الناس كحكماء، ولكننا لن نكون حكماء إذا لازمنا الغضب؛ لأنه مكتوبٌ «الغضب يسكن مستريحاً في صدر الأحمق» (جامعة ٧ : ١٠ س) وهو ما يعرضنا لأن نفقد ميراث الحياة الأبدية. وقد يظهر لنا أننا نفهم الطبيعة الإنسانية وندرك أسرارها لكن إذا ظل الغضب فينا تم فينا ما هو مكتوب «الغضب يدمر الحكماء» (أمثال ١٥ : ١ س) ويحرمنا الغضب من إدراك "بر الله" لأننا بسبب الغضب نفقد التمييز "الإفراز" ومع أنَّ الناس قد يقولون عنا أننا قديسين وكاملين إلاَّ أنه مكتوب «غضب الإنسان لا يصنع بر الله» (يعقوب ١ : ٢٠)].

ثانياً: ـ الفصل الثاني:

[يحاول البعض تبرير الغضب، هذا المرض القاتل للنفس بأدلةٍ من الأسفار الإلهية التي يفسرونها تفسيراً غير سائغ. يقول هؤلاء إنَّ الغضب ليس ضاراً حتى إذا غضبنا على

الأخوة الذين يخطئون؛ لأن اللّه نفسه يسخط ويغضب على الذين لا يريدون أنْ يعرفوه، أو يعرفونه ومع ذلك يرفضونه. ومن الأمثلة التي يقدمونها كلمات الأسفار «غضب الرب واشتعل سخطه على شعبه» (مزمور ١٠٦ : ٤٠) أو عندما يصلي النبي ويقول:« يارب لا توبخني بغضبك ولا تؤدبني بسخطك » (مزمور ٦ : ١) ولا يفهم هؤلاء أنهم عندما يحاولون بهذا الإصرار على تأكيد وتبرير الغضب، إنما يقودون غيرهم إلى التمسك برذيلة ضارة، وفي نفس الوقت يمزجون ضلال شهوة جسدانية بنقاء اللّه غير المحدود والذي هو مصدر كل نقاء].

ثالثاً: ـ الفصل الثالث:

[نحن نقع في خطأ كبير إذا حاولنا أنْ نفسر ما يقال عن اللّه في الأسفار المقدسة تفسيراً حرفياً نابعاً من الفكر الجسداني الغبي Crass الذي يتصور أنَّ اللّه ينام لأنه قيل: [لا ينعس ولا ينام] (مز ١٢١ : ٤)، فاللّه لا ينام رغم أنه قيل: «قم يارب لماذا تنام؟» (مز ٤٤ : ٢٣) أو إنَّ اللّه يقوم ويجلس «السموات هي كرسي والأرض موطئ قدمي» (مز ٦٦ : ١ س) أو إنَّ اللّه يسكر ويشرب الخمر لأنه قيل: «قام الرب مثل الثمل ومثل جبار سكر بخمر» (مز ٧٨ : ٦٥ س)؛ لأننا نعرف أنَّ اللّه له «وحده عدم الموت ساكناً في نور لا يدنى منه» (١ تيمو ٦ : ١٦) ولست أريد أنْ أتحدث عن صفات بشرية أُخرى مثل الجهل والنسيان الذي يُنسب للّه في الأسفار المقدسة، وأيضاً ما يُنسب له من أعضاء جسدية .. مثل الشعر والرأس والأنف والعينين والوجه واليدين والذراعين والأصابع والبطن والقدمين؛ لأننا لو فهمنا هذه الأعضاء حسب المعنى الحرفي الحسي، فإننا سوف ننتهي إلى أنَّ اللّه مكون من أعضاء جسدية وله شكل مادي محسوس وحاشا لنا أنْ نصل إلى هذه النتيجة الشريرة].

رابعاً: ـ الفصل الرابع:

(بعد أنْ يشرح كاسيان المعنى الرمزي للأعضاء الجسدية الإنسانية المنسوبة لله في الفقرات ١ و٢ يواصل شرحه للغضب والسخط).

٣ـ كل هذه الأوصاف البشرية إذا أخذناها بمعناها الحرفي تحولت إلى تجديف شنيع Horrible Sacrilege؛ لأن سلطان الأسفار لا يسمح لنا إلاّ بأنْ نصف الله بأنه: غير منظور، غير موصوف، بسيط، غير مركب. أمَّا انفعالات الغضب دون أنْ نشير إلى السخط لا يمكن أنْ تُنسب للطبيعة التي لا تتغير دون السقوط في تجديف فظيع monstrous blasphemy.

٤ـ وعندما نقرأ إنَّ الله غَضِبَ وسخط، فإننا لا يجب أنْ نفكر في أنَّ هذه انفعالات بشرية (هنا وضع كاسيان الكلمة اليونانية المتعارف عليها عند كل الآباء وهي تعني الانفعالات الإنسانية الشريرة "ανθρωποπαθως" بل يجب أنْ نفكر فيما يليق بالله الحُر من كل هذه الانفعالات، أو بكلمات أُخرى يجب أنْ نراها مثل القاضي الذي يحاكم وينتقم من الأعمال الشريرة ويرد الشر على فاعليه. هذا يوصف بمفردات خاصة تولد فينا الخوف من الله الذي سوف يحاكم على كل عمل ضد إرادته.

٥. ولكن يجب أنْ نتذكر أنَّ الطبيعة الإنسانية تعوّدت على الخوف من الذي يغضبون، ولذلك السبب تتراجع عن الشر خوفاً من غضب هؤلاء. وفي حالات القضاة المشهورين بالعدل الصارم يخاف منهم الأشرار؛ لأنهم يعرفون أنهم سوف يوقِعون بهم عقوبة صارمة، وهذا وحده يزرع الخوف والشعور بالندم في قلوب الأشرار. ولكن القضاة العادلون لا يحكمون، ولا يصدرون أحكاماً تحت تأثير انفعالات الغضب، بل هذه الانفعالات ـ إذا وجدت فيهم ـ جعلتهم يعجزون عن إصدار الأحكام العادلة، ومع أنَّ القضاة لا يعرفون الغضب إلاَّ أنَّ الأشرار بسبب ذنوبهم وخوفهم من الحكم، يتوقعون الغضب عندما يحاكمون، وبسبب شعورهم بالذنب يخافون حتى من

القضاة الودعاء المعتدلين؛ لأن صدور أي حكم على إنسان شرير يجعل المذنب يشعر بسخط وغضب الحكم، ولا يصف قرار القاضي الذي يعاقبه إلاَّ بأنه قرار غضب وسخط.

كيف نفهم عباراتٍ مثل: "وندم الله على الشر"؟

يجب أنْ نلاحظ ما يلي:

أولاً: وردت هذه العبارة على الأقل حسب صورتها اللفظية، وهي إمَّا "ندمٌ" على ما فعل الله، وإمَّا "تراجُع" عن قرار، مثل تراجعه عن تدمير مدينة نينوى «فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أنْ يصنعه بهم فلم يصنعه» (يونان ٣ : ١٠).

هكذا يرى الله إنَّ معاقبة الأشرار رغم شرهم هي شر، والله يكره الشر، ولذلك عندما يعلن للنبي عاموس العقوبات التي سوف يصنعها بإسرائيل، ويتوسل عاموس ويقول للرب: «اصفح»، يقول الوحي: « فندم الرب » (عا ٧ : ١ـ٣)[1]. ويعلق العلامة أوريجينوس على هذا ويقول:

[إنَّ ما يليق بنا هو أنْ نرى في الجناس Homonym المستخدم في التعبير عن الندم أنَّ الكلمة والفعل "ندم" هو ما هو مشترك بين الإنسان والله، ولكن جوهر الندم ليس مثل جوهر ندم البشر]

(المرجع السابق عظة ٢٠ : ٢ ـ ص ٢٢٢ـ٢٢٣).

ويسأل العلاَّمة أوريجينوس السؤال الهام:

[ما هو الفرق بين ندم الله وندم البشر؟ والجواب هو في عاقبة أو نهاية أو غاية الندم. فقد ندم الرب على اختيار شاول ملكاً وجاء الندم باختيار داود]

(المرجع السابق ص ٢٢٣).

---

[1] لاحظ كيف يقول عاموس النبي لله: "كُف، أو توقف" (عا ٧ : ٥) بينما هو خاطئ ويعلم أنه خاطئ، ولكنه يعلم أن الله نفسه كثيراً ما "يغض النظر عن الاعوجاج" (عا ٧ : ٧).

وحَزِنَ الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه (تك ٦ : ٦ـ٧) ولكن هذا لا يصدر عن سادي يجد لذةً في العقوبة وسعادةً في التشفي والانتقام.

ثانياً: إنَّ الفعل العبراني لا يعني مجرد الندم كما نعرفه في اللغة العربية، بل هو الفعل الثلاثي **"خ و ص"** وهو أصلاً نظرة العين الحانية المتألمة لما حدث [٢].

وعلى سبيل المثال النص العبراني "لا تندم عيونكم" والترجمة العربية "لا تحزن عيونكم" (تك ٤٥ : ٢٠). وكذلك "لا تشفق عيناك" (تث ٧ : ١٦). ونفس الفعل بالنسبة لله "يشفق على المسكين" (مز ٧٢ : ١٣). ويضاف إلى هذا الفعل، الفعل العبراني الثلاثي **"ع ج م"** حيث يحزن أيوب على الفقراء (أيوب ٣٠ : ٥). والفعل الثلاثي **"خ م ل"** ويعني يرحم، أو يُبقي على، وهو مثل الفعل العربي الثلاثي **"ح ل م"** *to have compassion* ومن الحِلم جاء في العربية "الحليم" أي طويل الأناة الرحيم. واستُخدِم الفعل بمعنى الشفقة، وهي شفقة الله على لوط (تك ١٩ : ١٦).

وهكذا، فإنَّ الندم هو جانب من المشاعر النبيلة المرتبطة بالشفقة والرحمة والحلم وليس العنف السادي المدمر.

ثالثاً: «وتأسف الرب على الطوفان، ووعد بأن لا يكون طوفان آخر» (تك ٨ : ٢١ ـ تك ٩ : ١١). ولم يتأسف على سدوم وعمورة حسب سفر التكوين، ولكنه أظهر ذلك الأسف على لسان الابن المتجسد عندما قال إنه سيكون لأهل سدوم وعامورة حالة أكثر احتمالاً في يوم الدينونة (متى ١٠ : ١٥).

أخيراً: إذا كان غضب الله لا يتم في الظلام ولا يحدث في صمت، بل يُعلَن، **فهل أعلن الآب غضبه على الابن الوحيد؟**

لم نجد في الكتاب المُقدَّس بعهديه نصاً واحداً، أو حتى عبارةً شاردةً تؤيد هذا التعليم الذي طُرِحَ في اللاهوت الغربي وتحوَّل إلى تعليم رسمي عند لوثر وكالفن وغيرهما مِن قادة حركة الإصلاح البروتستانتية. لكننا نستطيع أنْ نؤكد

---

[٢] Willem A. VanGemeren New International Dictionary of Old Testament Theology and Exegesis vol2 pp 50ff.

أنَّ وراء هذه الفكرة تكمن الحقائق التاريخية التالية:

١ـ كانت كنيسة العصر الوسيط قد سقطت في بئر التعليم بالمطهر، وكان المطهر هو مكان تعذيب الخطاة الذين لم يتمكنوا من إيفاء العدل الإلهي.

٢ـ كانت كنيسة العصر الوسيط قد تاهت تماماً عن تعليم المغفرة المجانية بلا مقابل.

وجاء قادة حركة الإصلاح بالأفكار التالية:

١ـ إذا كان للخطية ثمن، فإن الذي دفع الـثمن هـو الإبـن. ووجـد هـؤلاء في تعليم العصر

الوسيط عن الفداء ما يؤيد تفسيرهم لكل ما جاء عن الثمن والفدية.

٢ـ إذا كان الثمن قد دُفِعَ على الصليب، فإن فكرة المطهر تسقط من أساسها ولا يبقى لدى الكنيسة حجة تطالب فيها بثمن صكوك الغفران.

والمشكلة هنا ليست مشكلة الفرق الأساسي بين لاهوت الشرق المغروس في الإيمان الرسولي، واللاهوت الغربي الذي يشرح العقيدة المسيحية بواسطة العلوم الإنسانية والسياسية، وكأنَّنا أمام مشكلة تاريخية وقعت فيها مدارس اللاهوت في الغرب، ولكننا نجد أنفسنا أمام مشكلة أُخرى خاصة بنا في الشرق، وهي التربية الروحية الأُرثوذكسية، تلك التي تؤكد لنا أنَّ الغضب المدمر العنيف، والحصول على الحق بواسطة القوة والعنف ليس صفةٌ مِن صفات الله، ولا يجب أنْ تكون مِن صفات المسيحي أيضاً. وحجة المسيحية الشرقية، بل والغربية المعاصرة أيضاً هي أنَّ الغضب الإنساني لا يتفق مع كل ما نعرفه من اتجاهات تربوية جاءت مع اكتشافات علم النفس بكافة فروعه. وإذا كان الصليب هو راية الغفران، ومثال للتضحية غير المقيدة بالظروف، بل هو رمز المحبة التي تعلو فوق كل الظروف المناسبة، وغير المناسبة، فكيف يجوز لنا أن نحوِّل الصليب مِن رمزٍ ومنهجٍ للبذل إلى مثالٍ للتشفِّي **وإرضاء الذات** مهما كان الثمن؟ (وماذا لوٍ كان الثمن هو دم المسيحً نفسه). وإرضاء الذات الذي يُنسَب للآب، أو الابن بهذا الشكل، يحوِّل نظر الإنسان مِن الله المثال الكامل للمحبة

المجانية إلى الله كمثال يسعى لإرضاء ذاته **والحصول على حقه** مِن الابن، وهكذا نفقد صلتنا بالمحبة الإلهية التي تعبِّر عن جوهرها بالعطاء الحُر، حتى لغير المستحقين لأنَّ **"المحبة لا تطلب ما لنفسها"** كما يقول الرسول بولس.

ولعل أهم ما يجب أنْ نبتعد عنه، هو أننا عندما نتصور أنَّ الغضب الإلهي، أي عمل الإرادة الإلهية المتجه خارج جوهر الثالوث لتأديب ورد الخليقة إلى حياة الشركة، أصبح ـ حسب الفكر الشائع ـ موجَّهٌ إلى الابن الوحيد، فبذلك يتساوى الابن مع المخلوقات. الأمر الذي يعني عودة الهرطقة الأريوسية من جديد تحت اسم **"عقيدة الكفارة"** حيث يتم الفصل بين الآب والابن، ويتحول الآب إلى إله انتقام، والابن إلى ضحيةٍ بلا حول ولا قوة، إضافةً إلى تجاهُل الروح القدس. هنا تكون الأريوسية قد عادت إليناً من جديد بعد أنْ ارتدت ثوب الفكر السياسي والقانون الوضعي ـ وفي إصرار ـ لكي تفصل وحدة جوهر الثالوث باسم عقيدة الكفارة.

الغضب الإلهي حسب التعليم القبطي المعاصر وتعليم كالفن مؤسس المذهب الإنجيلي

مقدمة:

شرح كالفن فكرة الغضب الإلهي في الكتاب الثاني ابتداءً من الفصل ١٦ من الموسوعة اللاهوتية *The Institutes of the Christian Religion* ونظراً لأهمية ما جاء في هذه الموسوعة، ننقل عنها فقرات كاملة غير مبتورة نقدم للقارئ من خلالها خلاصة الفكر الإنجيلي الذي سيرى فيه القارئ القبطي الأُرثوذكسي أولاً: مدى تفوّق كالفن على ما جاء في بعض كتابات قبطية أُرثوذكسية معاصرة، وثانياً: إنَّ كالفن لديه بعض انتماء إلى لاهوت الآباء الشرقيين، إلاَّ أنه مزج هذا اللاهوت بما ساد في العصر الوسيط. وهكذا نستطيع أنْ نتعرَّف على ما أثمرته حركة الإصلاح نفسها من خلال ثلاث نقاط تظهر واضحةً لكل قارئ:

أولاً : موت المسيح على الصليب وعلاقة هذا بذبائح العهد القديم.

ثانيا : كهنوت المسيح وشفاعته وذبيحة الصليب، وعلاقة هذه الذبيحة بسر الشكر.

ثالثاً : العناصر الشرقية الأُرثوذكسية التي أضاف لها كالفن ما ورثه من لاهوت العصر الوسيط، وما جاءت به حركة الإصلاح.

وهنا يجب أنْ نشير إلى أنَّ كالفن نفسه هو صاحب هذا التعبير غير المعروف ـ حتى ـ عند اخوتنا الإنجيليين في مصر "المحبوب الملعون"، والذي يعني أنَّ لعنة الموت والصليب أصابت "المحبوب"، الذي ظل وهو على الصليب "يحمل محبة الآب"، و"لعنة الموت" معاً. والأولى شرقية، والثانية إصلاحية تنتمي إلى العصر الوسيط[1].

---

[1] ورد التعبير في كتاب كالفن المشار إليه، راجع بحث أستاذة اللاهوت في جامعة نوتنجهام.

ونستعرض هذه النقاط كالآتي:

أولاً: إنَّ العهد القديم هو الذي يشرح العهد الجديد

يقع كالفن في خطأ العصر الوسيط الذي اعتبر أنَّ العهد القديم هو الذي يشرح العهد الجديد، وذلك بعكس التعليم الشرقي الرسولي الذي يقرر أنَّ العهد الجديد هو الذي يشرح العهد القديم. يقول كالفن عن موت المسيح:

> *«لكي يكمل المسيح وظيفته ككاهن، كان من الضروري أنْ يظهر بذبيحة؛ لأنه ـ تحت حكم الشريعة الخاصة بالكهنوت ـ كان ممنوعاً على أي كاهن أنْ يدخل القدس بدون الدم.....لأنه لا يمكن لله أنْ يرضىَ بدون تكفير الخطية. وقد شرح الرسول هذا الموضوع في رسالته إلى العبرانيين من الإصحاح السابع إلى نهاية الإصحاح العاشر. وخلاصة ما ذكره الرسول هو أنَّ كرامة الكهنوت لم تكن ممكنة لأحدٍ آخر يتفوق على المسيح، ولذلك نالها المسيح بسبب ذبيحة موته؛ ولأنه محى ذنوبنا وقدم الترضية Satisfaction عن الخطية. وأعظم ما في شرح الرسول هو أنَّ الرسول يذكرنا بالقَسَم المجيد الذي نطق به الله الذي أعلن أنه لم يندم عنه "أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق* (مزمور ١١٠ : ٤).....».

هكذا يعكس كالفن لغة العصر الوسيط، وبشكل خاص في موضوع سيادة مبدأ الترضية ورضاء الآب على الجنس البشري، فيقول:

> «وكما قلنا سابقاً لم يكن لنا بالمرة حق الدخول إلى الله، ولا قبول صلواتنا حتى جاء الكاهن وطهَّر كل أدناسنا وقدَّسنا، ونال لأجلنا الحظوة *favor* التي كانت أدناس حياتنا وقلوبنا تمنعها عنا».

وهنا يحق لنا أنْ نتساءل: **ماذا عن صلوات قديسي العهد القديم؟**

لم يذكر كالفن كيف قَبِلَ الله صلوات قديسي العهد القديم، لا سيما أُولئك الذين عاشوا قبل عصر الذبائح مثل إبراهيم وغيره، وتلك التي دُونت في سفر المزامير.

ثانياً: النظرة الخاصة لشفاعة المسيح:

يقول كالفن:

«وهكذا نرى أنَّ فائلة وفاعلية كهنوت المسيح تصلنا نحن، وإنَّ بدايتها كانت في موته. وتبعاً لذلك نحن بواسطته ننال معونةً وحظوةً؛ لأنه الشفيع الدائم الذي يشفع فينا، ومن هذه الفائدة ننال نحن ليس فقط الثقة في الصلوات، ولكن أيضاً هدوء عقولنا المقدسة لأننا نستند على السلام الدائم الذي مُنح لنا بعفو الله ونشعر بالثقة لأن ما قدَّسه الوسيط هو وحده المقبول عند الله.

وحيث أنَّ الله ـ حسب الشريعة ـ كان يأمر بتقديم الذبائح الحيوانية له، إلَّا أنَّ ذبيحة المسيح كان لها طقسٌ خاص وترتيبٌ مختلف؛ لأنه كان الذبيحة والكاهن في نفس الوقت؛ لأنه لم يوجد آخر مستحق لأنْ يكون ترضيةً عن الخطية، ولم يوجد آخر له كرامة تؤهله لأنْ يقدِّم ابن الله الوحيد لله[1].

والآن صار المسيح في رتبة الكاهن ـ ليس فقط حسب الشريعة الأبدية الخاصة بالمصالحة ـ لكي يقدم للآب الكفارة المقبولة لأجلنا، ولكن أيضاً لكي يقربنا إلى هذه المصالحة الكريمة. ونحن في ذواتنا نجسين، ولكن فيه صرنا كهنةً (رو ١ : ٦) نقدم ذواتنا وكل ما نملك لله وندخل القدس السماوي بحريةٍ ومجاناً حتى نقدم ذبائح صلواتنا وتسبيحنا والشكر الذي يصعد رائحةً ذكيةً

---

(١) يذكر الرسول بولس أن الآب هو الذي قدم ابنه كفارةً (رو ٣ : ٢١ ـ ٢٥)، ولكن هكذا ينسى كالفن أن مبادئ وطقوس ذبائح العهد القديم لا تشرح العهد الجديد بالمرة، ولذلك قدم الآب ابنه لنا كفارةً، لأن له كرامة التقديم التي لا وجود لما يقابلها في العهد القديم.

قدامه. وعن هذا بالذات نفهم كلمات المسيح "لأجلهم أُقدِّس ذاتي" (يوحنا ١٧: ٩) لأننا نلبس قداستة؛ لأنه هو الذي قدسنا في ذاته للآب، وإلَّا نبقى ـ إذا رفضنا هذا ـ رجساً عنده. نحن نرضيه كما لو كنا أنقياء، بل أيضاً مقدسين. وهكذا كانت مسحة الهيكل التي ذكرها دانيال (دانيال ٩ : ٢٤) تؤكد لنا الفرق الكبير بين الظل والحقيقة التي ظهرت واضحةً بكهنوت المسيح.

أمَّا ما هو غير سائغٍ، فهو وظيفة الكهنوت التي ترفض كهنوت المسيح، بل لقد تجاسر هؤلاء على أنْ ينسبوا لأنفسهم القدرة على أنْ يقدموا المسيحَ ذبيحةً، وأنْ يذبحوه كل يوم حسب المعتقد البابوي Papacy حيث يُذبَح ويقرَّب المسيح كذبيحةٍ تُذبَح».

ثالثاً: العناصر التي يشتمل عليها تعليم كالفن

من النصوص السابقة نستطيع أنْ نقول إنَّ العناصر الأساسية التي اشتمل عليها فكر كالفن هي كالآتي:

أولاً: إنَّ ذبيحة الصليب تلغي ذبيحة سر الشكر

لعل القارئ قد لاحظ أنَّ كالفن يضع الأساس اللاهوتي لرفض الكهنوت كالآتي:

١ـ رفض الكهنوت في الكنيسة في ظل كهنوت المسيح. الثاني يلغي الأول تماماً، وهذا ما هو سائد في المذاهب الإنجيلية.

٢ـ اعتبار شفاعة المسيح الدائمة هي وظيفته الكهنوتية بعد القيامة والصعود.

٣ـ ولأن المسيح قدَّم ترضيةً للآب وكفارةً، لذا فقد فقدت الإفخارستيا معناها ومكانها في اللاهوت البروتستانتي، وتحولت إلى رمزٍ بلا قيمة.

وهذا هو ما تمهد له كتابات بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس، الذين

وإن كانوا عن حُسن نية كتبوا، إلاَّ أنَّ النتيجة الحتمية لهذا الفكر هي ذات النتيجة التي وصل إليها فكر حركة الإصلاح، وهي رفض الأسرار.

ثانياً: إنَّ الله يكره الخطاة وليس الخطية وحدها، بل ويعادي الخطاة

يقول كالفن:

> *« الله عادل تماماً، لا يقدر أنْ يحب الخطية التي يراها فينا كلنا. ونحن كلنا خطاة ونستحق كراهية الله Deserves the hatred of God. أولاً: بسبب فساد طبيعتنا.وثانياً: بسبب الفساد الذي يصدر عن هذه الطبيعة نحن جميعاً نعادي الله ومذنبين في حضرته وبالطبيعة أبناء جهنم. ولكن لأنَّ إرادة الرب ليست لهلاك ما يخصه فينا، فإنه يظل يجد فينا شيئاً يحبه ويستدعي تحننه. ورغم أننا بإرادتنا صرنا خطاة، إلاَّ أننا لا نزال مخلوقاته. ورغم أننا جلبنا الموت على أنفسنا إلاَّ أنه خلقنا للحياة»*

لو أنَّ كالفن قال إنَّ الله يكره "**الخطية**" وحدها، لوجب علينا أنْ نصفق له بحرارة. ولكن عندما أضاف "**الخطاة**" سقط سقطةً كبيرةً؛ لأن كراهية الله للخطاة لا تسمح له بالمصالحة، ولذلك السبب **جاء التعليم بدفع الثمن وإرضاء الغضب الإلهي واحتمال الدينونة** على الصليب كثمرة للفكرة الأولى، وهي كراهية الله للخطاة.

ويلاحظ أن كالفن يشرح في نفس الفصل موضوع الكفارة والفادي حسب معطيات لاهوت العصر الوسيط.

ثالثاً: الصلاح والعدل عند كالفن

حسب التعليم الشرقي الأُرثوذكسي لا يوجد تعارض بين صلاح الله وعدله وشفقته على الجنس البشري، ولكن حسب الفكر السائد في العصر الوسيط ابتداءً من أنسلم حتى كالفن، يوجد تعارض تام يعبِّر عنه كالفن بهذه الكلمات:

«ولكن يوجد تعارض ونفور دائم لا يمكن مصالحته بين العدل والخطية، وطالما أننا نظل خطاة، فإننا لا يمكن أنْ ننال القبول. ولذلك السبب عينه، ولكي تُزال هذه العقبة، ولكي نتصالح تماماً مع الله، فإن الله بواسطة الكفارة التي أعدها لنا بموت المسيح أزال كل الشر الذي فينا، ونحن الذين كنا سابقاً نجسين وغير أنقياء، أصبحنا الآن في حضرته أبراراً وقديسين.

وحسب محبة الله الآب، فهو لم يمنع شركتنا في مصالحة المسيح، بل بالعكس لقد أحبنا أولاً ثم بعد ذلك صالحنا لنفسه، ولكن الذنوب التي فينا والتي تستحق غضب الله إلى أنْ مات المسيح وجاء لمعونتنا؛ لأن الذنوب في نظر الله هي ملعونة وتحت الدينونة، ولذلك لم يسمح لنا بالشركة الكاملة في الله حتى جاء المسيح لكي يُتحِدنا به .. لنثبت أنظارنا على المسيح وحده؛ لأن خطايانا التي تستحق غضب الله، المسيح وحده هو القادر على أنْ يمحوها».

وهكذا لم ينكر كالفن المحبة الإلهية، ولم يغفل محبة الآب الذي أحبنا وصالحنا لنفسه في المسيح. ولكن مَن يقرأ الكتابات القبطية التي أشرنا إليها لا يجد إشارةً واحدةً للمحبة الإلهية .. ولعل السبب واضح للقارئ؟!!

رابعاً: تمسك كالفن بالمحبة الإلهية، رغم تعارضها مع العدل الإلهي

عندما يقتبس كالفن عن القديس أوغسطينوس، فهو يريد أن يؤكد أزلية محبة الله، وإن الآب لم يكن يكره الخطاة ثم بدأ يحبهم بسبب موت المسيح. وهكذا يتفوق كالفن على الفكر الشعبي السائد الآن في الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية. فيقول كالفن:

«يقول بولس: «إنَّ الله باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح» (أف ١ :٣-٤) .. هذا يتفق مع العبارة التي تقول «هكذا

أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يوحنا ٣ : ١٦). وأيضاً «عندما كنا أعداء صالحنا بموت ابنه» (رو ٥ : ١٠) ولكي أُعطي زيادة ثقة للذين يسألون عن شهادة وسلطان التعليم للكنيسة الأولى سوف أقتبس فقرة من أوغسطينوس تؤكد ما أقول "محبة الله فوق الإدراك ولا تتغير، لأن الله لم يبدأ بأن يحبنا بعد أنْ صالحنا بدم ابنه الوحيد، وإنما أحبنا قبل تأسيس العالم، لكي بابنه نصبح نحن أبناء الله قبل أنْ نوجد أو نكون شيئاً ذا قيمة. وعندما صولحنا بموت المسيح، فإنَّ هذا لا يجب أنْ يُفهم على أنَّ الا بن صالحنا لكن الآب كان يكرهنا ثم بدأ يحبنا، بل كنا مصالحين ومحبوبين رغم عداوته لنا بسبب خطايانا. والتعليم الصحيح الذي نذكره الآن يؤكده الرسول «لكن الله بين محبته لنا، لأنه بينما كنا خطاة، مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨) هذا يعني أنه كان يحبنا رغم عداوتنا له بسبب أعمالنا الشريرة. وهكذا بأسلوب فائق عجيب وإلهي كان الله يحبنا عندما كان يكرهنا He loved even when he hated us. لقد كان يكرهنا عندما كنا خطاة لدرجة أننا كما لو كنا غير موجودين»

(أوغسطينوس مقالة ١١٠ على إنجيل يوحنا كما تظهر في كتاب كالفن السابق ذكره).

ولا شك أنَّ كل طلاب اللاهوت في الغرب يعرفون إنَّ بداية الفكر الديني السياسي جاءت مع كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطينوس[1]. وهكذا فإن تعارض العدل والصلاح، والرحمة والشريعة، والمحبة والعداوة وكراهية الخطية والخطاة، جاء من واقع الفكر السياسي المسيحي وهو المبدأ اللاهوتي الأوغسطيني، وهو مبدأ غير معروف عندنا في الشرق. ومع ذلك فقد أكد أوغسطينوس ومعه كالفن بقاء محبة الآب للخطاة

([1]) John Neville Figgis, The Political Aspects of St. Augustine's "City of God" 1921.

حتى قبل خلق الله للعالم؛ لأن إنكار هذه المحبة يقود إلى مشاكل صعبة الحل، نتركها لفكر وخيال القارئ حسب استطاعته، ونكتفي بمشكلة واحدة وهي أن صياغة عقيدة الكفارة الشائعة عندنا تنكر في جسارة غريبة أزلية محبة الآب، وتجعل من المحبة طارئ جديد على جوهر الله جاء بموت المسيح، ونترك للقارئ تخيُل عاقبة هذا التصور.

خامساً: كيف أباد المسيح الخطية؟

هكذا شرح كالفن موت المسيح على الصليب:

*«عندما يسألنا البعض كيف أباد المسيح الخطية وأزال العداوة بيننا وبين الله **واشترى البر** الذي جعل له مكانة خاصة عندنا؛ لأنه أظهر شفقته علينا؟. نجيب: بشكلٍ عام لقد أباد هذا بطاعته. هذا يؤكده الرسول "لأنه بمعصيةٍ إنسان واحد جُعل الكثيرون خطاة، هكذا أيضاً بطاعة الواحد سُيجعل الكثيرون أبراراً"* (رو ٥: ١٩) (لاحظ أن الترجمة البيروتية تذكر "بإطاعة" أي طاعة المؤمنين لله، لكن النص اللاتيني لكل من اوغسطينوس وكالفن هو "طاعة" أي طاعة المسيح، كما هو واضح من سياق الكلام)[1].

ويشمل العفو والمغفرة رفع لعنة الناموس من حياة المسيح نفسه «عندما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس لكي يفتدي الذين تحت الناموس» (غلا ٤

---

(١) يلاحظ أن نص المخطوطة ١٥١ يقول:"كذلكم أيضاً من أجل طاعة واحد يكون أبرار كثيرون" صـ ١٣ والنص القبطي كالآتي:

" ⲙⲫⲣ̅ϣ ⲅⲁⲣ ⲉⲧⲉ ⲉⲃⲟⲗϩⲓⲧⲉⲛ ⲑⲙⲉⲧⲁⲧⲥⲱⲧⲉⲙ ⲉⲧⲉ ⲡⲓⲣⲱⲙⲓ ⲛⲟⲩⲱⲧ ⲁⲩϣⲱⲡⲓ ⲛⲣⲉϥⲉⲣⲛⲟⲃⲓ ⲛϫⲉ ⲛⲓⲙ̅ⲏϣ ⲡⲁⲓⲣ̅ⲏⲧ ⲟⲛ ⲉⲃⲟⲗϩⲓⲧⲉⲛ ⲑⲙⲉⲧⲣⲉϥⲥⲱⲧⲉⲙ ⲛⲧⲉ ⲡⲓⲟⲩⲁⲓ ⲥⲉⲛⲁϣⲱⲡⲓ ⲛⲑⲙ̅ⲏⲓ ⲛϫⲉ ⲛⲓⲙ̅ⲏϣ."

ولذلك فقد تم تصحيح الترجمة البيروتية بالترجمة العربية الجديدة الصادرة عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عام ١٩٩٣م، وأصبح النص: "وكما أنه بمعصية إنسان واحد صار البشر خاطئين، فكذلك بطاعة إنسانٍ واحدٍ يصير البشر أبراراً".

: ٤، ٥). وحتى في معموديته في الأردن أعلن أنه جاء لكي "يكمل كل بر" بطاعته لوصية الآب. إجمالاً من اللحظة التي أخذ فيها صورة العبد بدأ فدائنا، لكي يدفع ثمن خلاصنا. وهكذا الأسفار المقدسة بشكل مؤكد تحدد أسلوب الخلاص وتنسبه بشكل خاص إلى موت المسيح؛ لأنه هو نفسه أعلن أنه جاء لكي يعطي حياته فديةً عن كثيرين (مت ٢٠ : ٢٨) ويعلم الرسول أنه مات لأجل خطايانا (رو ٤ : ٢٥) ويشرح يوحنا المعمدان «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١ : ٢٩) ويعلن بولس في فقرة أُخرى «لقد تبررنا مجاناً بنعمته بواسطة الفداء الذي في المسيح يسوع الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه» (رو٣ : ٢٥) وأيضاً لأننا تبررنا بدمه نخلص به من الغضب (رو ٥ : ٩). وحتى قانون إيمان[١] الرسل الذي نعترف به ينقل الاعتراف بالإيمان من ميلاد المسيح إلى موته وقيامته؛ لأن هذا هو كمال الخلاص».

وهنا يؤكد كالفن أنَّ عمل المسيح كفادٍ ومخلص بدأ بالتجسد، وهو بهذا يعبِّر عن أحد جوانب الخلاص كما فهمته واستوعبته الكنيسة الشرقية .. بينما ضاع تجسد الابن من الكتابات القبطية المعاصرة التي حصرت الخلاص في موت المسيح على الصليب.

سادساً: الطاعة والذبيحة وحرية اختيار وإرادة الابن في قبول الموت

لم ينكر كالفن حرية إرادة الابن في قبول الموت على الصليب. ورغم أنه مزج اللاهوت بالقانون، إلاَّ أنه تمسك بهذا المبدأ اللاهوتي السائد في الشرق. يكمل كالفن شرحه ويقول:

«كانت الخطوة الأولى حقاً الخاصة بالطاعة هي خضوعه

---

[١] أحد قوانين الإيمان معروف في الغرب وشاع في القرن الرابع واكتسب شهرة كبيرة.

الإرادي التطوعي حينما أطاع حتى الموت موت الصليب (فيلبي ٢ : ٧)؛ لأن الذبيحة تفقد فاعليتها للتبرير إذا لم تقدم طواعيةً، ولذلك قال ربنا كشهادة عن موته: «أنا أبذل نفسي عن الخراف» وأضاف بشكل خاص «لا يقدر أحد أنْ يأخذها مني» (يو ١٠ : ١٥ـ١٨) ونفس المعنى يعبر عنه اشعياء «مثل حمل صامت سيق للذبح. لم يفتح فاه» (أش ٥٣ : ٧) وتاريخ الإنجيل يذكر كيف قابل الرب الجنود، وأمام بيلاطس لم يدافع عن نفسه، بل قبل حكم الموت. لقد فعل كل هذا بدون أن يعاند؛ لأنه أخذ وحمل ضعفاتنا لكي يظهر طاعته لأبيه».

ولعل القارئ قد وجد في عبارة كالفن عن الموت الطوعي وحرية اختيار الابن للصليب ـ وهو مبدأ لاهوتي أُرثوذكسي ـ ما ينفي تماماً ما يُقال عن ضرورة موت المسيح لكي يسكِّن غضب الآب. ولذلك يكون حرياً بنا أن نتساءل : لماذا لم نسمع في هذا الجيل أحداً يقول لنا إنَّ المسيح مات حراً. ولاشك أنَّ إنكار حرية الرب في قبول موت الصليب له علاقة خاصة بمنهج التعليم السائد في الكنيسة القبطية في الربع الأخير من القرن العشرين عن الطاعة والخضوع الأعمى.

ويكمل كالفن:

*«علينا أنْ نتذكر أنَّ المسيح لا يستطيع أنْ يرضي الآب دون أنْ يجحد مشاعره وأنْ يُخضع نفسه بالكامل لإرادة الآب. وعن هذا بالذات يقتبس الرسول نصاً من المزمور «ها أنا مكتوب عني في درج الكتاب أجيء لكي أصنع إرادتك» (مز ٤٠ : ٧، ٨ عب ١٠ : ٥) وهكذا يجب على الضمير المرتاع أنْ يجد راحةً؛ لأنه بدون الذبيحة التي غسلت خطايانا لا توجد راحة لضمائرنا، لأننا نتوجه مباشرة إلى مصدر حياتنا أي رأسنا وهو إبن الله (أش ٥٣ : ١٢) وهذا يجعلنا نتذكر أنه **البديل** لكي لا تطوح بنا*

العواصف والقلق والمخاوف كما لو كان الغضب والانتقام العادل الذي قبله الابن لا زال مسلطاً على حياتنا».

وهنا طبعاً نستطيع أنْ نلاحظ أنَّ العبارات الأخيرة لا وجود لها بالمرة في التراث الشرقي فقد مزج يوحنا كالفن بين موت المسيح على الصليب كما هو في العهد الجديد، وما هو سائد في العصر الوسيط.

سابعاً: لعنة الموت وبركة وقوة الصليب

عند التفسير القانوني السائد في العصر الوسيط وحركة الإصلاح تفترق الطرق؛ لأن الصليب حسب الفكر الغربي لعنةً، أمَّا عندنا فإننا نضعه "ختم الابن الوحيد على ملابس الخدمة الكهنوتية، وخبز الإفخارستيا، ورشومات الميرون، وبه نختم أنفسنا قبل كل صلاة، هو للبركة والتقديس والشكر والتمجيد وطلب الرحمة" هذا ما تؤكده تسبحة البصخة **"لك القوة والمجد والبركة والعزة"**، فهذه التسبحة هي قلب وخُلاصة لاهوت الآباء، والويل لنا إنْ جمعنا بين فكر العصر الوسيط وتسابيح الكنائس الأُرثوذكسية لأننا عندئذ نصبح مثل الذي يمزج الملح بالعسل.

لقد وقع كالفن في نفس الخطأ الذي تقع فيه كتابات قبطية معاصرة، وهو إخضاع العهد الجديد وتدبير الخلاص لمبادئ وطقوس العهد القديم. وهذا هو ما يجعل كالفن نفسه يقول إنه حسب الناموس الصليب لعنةً، إلاَّ أن كالفن كان أكثر وعياً ممن يكتبون عن عقيدة الكفارة في الكنيسة القبطية الآن؛ لأنه ذكر أن الصليب أباد الخطية. وهكذا شرح كالفن موت الرب. ولعلك تلاحظ أيها القارئ إن الذين تأثروا بالفكر البروتستانتي السائد في مصر من أقباط أُرثوذكس لم يحاولوا اكتشاف كل جوانب الصليب المتعددة، فجاء شرحهم أقل بكثير من شرح زعيم وقائد الكنائس البروتستانتية، هكذا يقول كالفن عن

الصليب وموت الرب ما يلي:

«إنَّ شكل وأُسلوب الموت يؤكد ويجسد الحق. كان الصليبُ لعنةً، ليس فقط حسب فكر البشر، بل حسب إرادة الناموس الإلهي، وهذا رُفِع المسيح على الصليب وأخضع نفسه للعنة. كان هذا مطلوباً لكي تُرفع اللعنة التي جاءت مع خطايانا والتي حملها هو وحوَّلها إلى نفسه. وكان الناموس القديم يقدِّم رمزاً عن هذا؛ لأن ashamot *في العبرانية أي "التطهير"، وهي كلمة خاصة بالخطية كانت تلصق بالذبائح التكفيرية التي كانت تقدم للتطهير، ولذلك أراد الروح القدس أنْ يستخدم هذه الكلمة "* καθαρματων *" "التطهيرات" شارحاً بذلك بدائل لعنة الخطية (الذبائح). وما كان يقدم رمزياً في ذبائح موسى كان المسيح هو كمال هذا الرمز، ولذلك لكي يقدِّم كفارةً كاملةً سكب نفسه كفارةً وذبيحة خطية كما تنبأ أشعياء (٥٣ : ٥، ١٠)، وبذلك وحده رفع العقوبة والذنب الذي كان يخصنا. ويعلن الرسول هذا علناً عندما يقول « جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لكي نصير نحن بر الله فيه» (٢ كو ٥ : ٢١). ومع أنَّ ابن الله بلا عيب وبلا خطية ونقيٌ تماماً، إلَّا أنه أخذ عار وخزي ذنوبنا لكي يلبسنا نقاوته، ويشير الرسول إلى نفس الحقيقة عندما يقول عن الرب « أدان الخطية في الجسد» (رو ٨ : ٣) فقد أباد الآب قوة الخطية عندما حوَّلها إلى جسد المسيح. وتصبح لعبارة الرسول دلالة على أنَّ المسيح في موته قد قُدِّم للآب كذبيحة كفَّارية، وإنْه كفَّر بذبيحة لكي لا نعود نرتعد أمام الغضب الإلهي. هذا يوضح ما يقصده النبي عندما يقول «والرب وضع عليه إثم جميعنا» (أش ٥٣ : ٦)، أي أنه غسل دنس خطايانا عندما نُقِلت إليه هذه الخطايا وحملها هو. وعلى هذا الصليب الذي سُمِّر عليه،* ***صار الصليب رمزاً إلى اللعنة،*** *أي لعنة*

الناموس؛ لأنه صار لعنةً لأجلنا كما يقول الرسول، وكما يقول الناموس «ملعون كل مَن عُلِّق على شجرة لكي تصل إلينا نحن الأُمم بركة إبراهيم بالمسيح يسوع» (راجع غل ٣ : ١٣ـ١٤). ويقول القديس بطرس عن هذا الموضوع نفسه «حمل خطايانا في جسله على الخشبة (الشجرة)» (١ بط ٢ : ٢٤). ومن هذا الرمز ـ الصليب ـ ندرك مقدار الحمل الثقيل، أي اللعنة التي احتملها الرب. ولكن لا يجب أنْ نفهم أنَّ اللعنة التي احتملها الرب قد كسرته، بل عندما احتملها كسر شوكتها وأباد annihilated قوتها. وحسب الإيمان نحن نلنا حكم البراءة بإدانة المسيح In the Condemnation of Christ ***والبركة عوضاً عن اللعنة. ولم يكن عبثاً أنَّ الرسول مجَّد الصليب وافتخر بانتصار المسيح على الصليب، ومع أنَّ الصليب هو رمزٌ للعار إلَّا أنه تحوَّل إلى موكب نصرة.*** *لذلك يقول الرسول: إنه محا الصك الذي علينا في الفرائض التي كانت ضدنا ورفعها مسمراً إياها في الصليب (راجع كو ٢ : ١٤ـ١٥)،* ***وهكذا تحول الصليب من رمز للعار مما يفرض علينا أنْ لا نفقد رؤيتنا للذبيحة والتقدمة. ولأنَّ المسيح قد صار ذبيحةً، لذلك نتجاسر أنْ ندعوه فديةً والذبيح والبديل،*** *وكلما أشارت الأسفار إلى الدم، فهي تشير إلى الفداء؛ لأن دم المسيح لم يُسفك من أجل التكفير فقط، بل هو "حميم التطهير من نجاساتنا"».*

المزيج اللاهوتي لفكر حركة الإصلاح حسب شرح كالفن

بتحليل هذا النص السابق نستطيع أنْ نتحقق من المزج الذي قلنا أن كالفن صنعه بين اللاهوت الشرقي، وفكر العصر الوسيط، ويتضح لنا ذلك من رصد المبادئ الأُرثوذكسية، ومبادئ لاهوت حركة الإصلاح التي اشتمل عليها كالآتي:

أولاً: المبادئ الأرثوذكسية في شرح كالفن:

١ـ يؤكد كالفن مثل الآباء القديسين تحوُّل الصليب إلى رمزٍ للنصرة.

٢ـ يؤكد كالفن إبادة اللعنة وقوتها، وهو ما تقبله الأُرثوذكسية، بينما يرفضه بعض الأقباط الأُرثوذكس المعاصرون.

٣ـ يعود كالفن إلى التعليم الشرقي عن التطهير بالدم، وهو التعليم الذي يتمسك به الشرق، وتؤكده صلوات الليتورجيات الشرقية. وإنْ كان كالفن مثل غيره من قادة حركة الإصلاح ينكر أنَّ هذا الدم هو في كأس الشكر، وبالتالي ينكر فاعلية دم المسيح في الإفخارستيا.

٤ـ أكد كالفن قداسة المسيح ونقاوته على الصليب، فهو لم يسقط تحت وطأة العدل الإلهي كما يدعي بعض المعلمين الجدد من الأقباط.

ثانياً: المبادئ اللاهوتية للعصر الوسيط التي احتفظ بها كالفن:

١ـ حفظ كالفن الغضب الإلهي للآب حسب فكر العصر الوسيط، وبالتالي عاد إلى دفع الثمن في معظم الفقرات:

> *« من الضروري أنْ نشرح كيف صار البديل لكي يدفع الثمن، أي ثمن فدائنا. كان الموت متسلطاً علينا وكنا تحت نيره، ولكن المسيح صار في مكاننا وأسلم نفسه إلى قوة الموت لكي يضع نهايةً لها ويطلق سراحنا. هذا ما يقصده الرسول عندما يقول: « ذاق الموت لأجل كل إنسان» (عب ٢ : ٩) وبموته منعنا من الموت، أو بعبارة أُخرى بموته اشترى الحياة لنا. وفي هذا اختلف عنا؛ لأنه عندما سمح للموت بأن يسود عليه لم يتمكن الموت من أنْ يبقيه في الهوة،* ***بل حدث العكس أباد الموت الذي كان يستطيع إبادتنا نحن، ولم يسمح للموت بأن يسود عليه أو يسحقه بقوته، بل أخضع ذلك الذي ساد علينا وافتخر بسيادته علينا.*** *وبالتحديد كانت غاية موته أنْ «يبيد الموت ذاك*

الذي له سلطان الموت أي الشيطان ويحرر (يعتق) الذين بسبب الخوف من الموت كانوا كل أيام حياتهم مستعبدين" (عب ٢ : ١٤، ١٥) هذه أول ثمار موته (المسيح) التي نلناها. والثمرة الأُخرى إننا بالشركة في حياته نميت أعضاءنا الجسدانية لكي لا نُستعبد لها، بل نصلب الإنسان العتيق لكي لا يقوى ويتسلط علينا ونجني ثمار تسلطه. وثمار دفنه (المسيح) هي أننا نُدفن معه حتى تدفن خطايانا؛ لأنه بالصليب قد صُلِب العالم لنا ونحن صُلِبنا للعالم، ولذلك نحن متنا معه؛ لأننا دُفنا معه بشبه موته كما قال الرسول».

٢ـ اعتبر كالفن أنَّ البديل، أو حسب تعبيره *Substitute* و *Ransom* هو أحد الأساسات للتعليم بالكفارة، ولكن البديل[1] هنا يحمل بعض سمات الفكر الآبائي ويخلط بها تعليم عصر الإصلاح، ومن هذه السمات:

أ ـ يقول كالفن: "غسل دنس خطايا البشرية"، ولكن الخلط واضح إذ يعود كالفن إلى فكرة إعطاء نقاوة وقداسة وبر المسيح للمؤمنين بالإيمان وحده، ويتوقف عند الإيمان ويترك المعمودية ويهمل الإفخارستيا؛ لأن كالفن مثل بعض المعلمين الجدد من الأقباط يؤمن بأن الخلاص تم وكمل يوم الصلبوت، وهو ما يخلع لاهوت الأسرار من جذوره.

ب ـ يقول كالفن: "كسر الرب قوة اللعنة وأباد قوتها". هذه عبارة آبائية سليمة، ولكن الإضافة الأخيرة: "نلنا نحن حكم البراءة بإدانة المسيح"، هي من عصر الإصلاح، وهي من ثمرات العصر الوسيط. أمَّا تعليم الأُرثوذكسية، فهو أننا نلنا البراءة بسبب صلاح الله وجوده في المعمودية، وفي سر المسحة، وسر الشكر.

جـ ـ يقول كالفن: "من الضروري أنْ نشرح كيف جاء البديل لكي يدفع

---

[1] يلاحظ أنَّ اللاهوت الشرقي لا يعرف هذه الكلمة، بل يستخدم كلمة الوسيط أو الشفيع، ولكن ما يجب أن نؤكد عليه هنا أن كلمة الوسيط أو الشفيع ليست مرادفة لكلمة البديل بالمعنى السائد في لاهوت حركة الإصلاح، وهو ما سوف نتعرض له تفصيلاً في الفصل الثامن من هذه الدراسة.

الثمن، أي ثمن فدائنا". يلزمنا هنا أنْ نؤكد للقارئ أنَّ فكرة دفع الثمن للآب غير معروفة في الأسفار المقدسة، وأنها سادت كتابات العصر الوسيط التي حوَّلت الآب إلى إلهٍ غاضبٍ وعادل منتقم، والابن إلى إلهٍ رحيمٍ ومحب للبشر. ولم يدرك هؤلاء إنَّ هذًا يهدد عقيدة وحدة جوهر الثالوث.

يا ليت الذين يكتبون عن حسن نية من الأقباط الأُرثوذكس يدركون التمييز الدقيق بين لاهوت الشرق، ولاهوت الغرب.

ما بين كالفن وذهبي الفم

لعل القارئ قد لمس بنفسه ذلك المزيج بين ما أخذه يوحنا كالفن من لاهوت العصر الوسيط الذي يعتبر المرجع الأساسي لكل ما كتبه كالفن، وما أخذه عن القديس يوحنا ذهبي الفم. وهنا بشكل خاص يستطيع القارئ أنْ يرى بنفسه:

١ـ إبادة الموت بسلطان المسيح.

٢ـ عدم خضوع الرب للموت، بل العكس هو الذي حدث، حيث خضع الموت للرب.

هاتين النقطتين هما من أهم ما جاء في تراثنا الشرقي، ومع أنَّ التكرار ممل ومُتعب للقارئ، إلاَّ أننا لا يمكن أنْ نترك هاتين النقطتين تمران دون حصرهما وإبرازهما بالمقارنة مع ذهبي الفم الذي اقتبس منه كالفن ما يقرب من ٥,٠٠٠ نص في الكتاب الذي ترجمنا منه هذه الفقرات.

١ـ الصليب راية الانتصار عند ذهبي الفم

يقول ذهبي الفم:

> [هنا نرى راية الصليب الظافرة والسبايا التي ظفر بها الرب يسوع، ومنها باكورة طبيعتنا التي سباها ملكنا. وأقول لِمَن يريد أنْ يعرف..... وسنرى إنَّ الموت صُلِبَ، وإنَّ الخطية عُلِّقَت على الصليب] (العظة الأولى على إنجيل متى ص ٤٨).

وفي نفس العظة:

[مـدهشٌ حقـاً ذلـك الـذي حـدث، لقـد أُبيـد المـوت واللعنـة أبادتهـا اللعنـة، وسـيادة الـشيطان قـد انتهـت بـنفس الأدوات التي أعطته السيادة].

كما يقول في العظة السابعة على إنجيل متى:

[لا يتعب المسيح أبداً من أنْ يدعونا إلى أنْ نشرب ليس مـن المـاء، بـل القداسـة نفسها، "لأن القدسـات للقديسـين"، وهـو لا يعطـي الماء من ينبوع، بل الدم المحيـي الـذي عنـدما يُسفَك يصبح رمـزاً للموت، ولكنه هنا صار سبب الحياة] (عظة ٧ : ٧).

وهكذا تؤكد الأُرثوذكسية أن دم الرب الذي سال على الجلجثة هو ذاته على المذبح في كأس سر الشكر.

ويقول في العظة الحادية عشرة على إنجيل متى أيضاً:

[لقـد ذُبِـح الحمـل والخطيـة مُحيت والعـداوة أُبيـدت وتم دفـن المسيح، ولكن القيامة ظهرت وبعد ذلك حل الروح القدس.. هوذا حمل اللّه الذي "يرفع" أو "يحمل" خطية العالم. ولم يقـل الـذي "يغفـر"، وإنمـا اسـتخدم "يرفـع أو يحمـل" لكـي يؤكـد الرعايـة والاهتمـام، فهـو لم يتجـسد لكـي يغفـر فقـط، بـل ليجعـل الخطيـة اهتمامـه؛ لأن الغفـران لا يحتـاج إلى مـشقة بينما القضاء على الخطية تَطلَّب الموت] (١١ : ٦).

(راجع نفس العظة ١١ : ٧).

إذا كان الأمر هكذا بحسب ما يقول ذهبي الفم، ألا يحق لنا التساؤل وبعجبٍ عن الأسباب التي تجعل المعلمين الجدد يصرون على حذف انتصار المسيح؟ وعلى أن يقف أمام الآب السماوي كخاطئ واقع تحت الدينونة ينال عقوبةً يتحول فيها إلى رماد أو يحترق بنار الروح القدس حتى ترتفع رائحة الشواء؟.....أليس في ذلك دعوةٌ لتقديس التعذيب، وحجةٌ تُساق ـ بالباطل ـ لإنزال ما يشاءون من عقوبات على أفراد الشعب، ظانين أنهم ينالون شرعيةً فيما يفعلون إذ يوهمون الناس أَّن هذا هو التعليم المسيحي؟

٢ـ نزول المسيح إلى الجحيم عند كالفن، تأكيدٌ لغضب الله

تمسك كالفن بنزول المسيح إلى الجحيم. وأكد أنَّ كلمه "الهاوية" في العهد القديم هي مرادف لكلمة "القبر"، وهذا صحيح من الناحية اللغوية البحتة، ولكنه لم يهتم بشرح الآباء لنزول المسيح إلى الجحيم، فقد تخلى عن فكرة انتصار المسيح وعاد إلى لاهوت العصر الوسيط، ولذلك من الضروري أنْ نقدم كلماته كما هي:

> *«لا يكون المسيح قد حقق شيئاً إذا مات فقط بالجسد واحتمل الموت الجسداني، ولكن لكي يقف بيننا وبين الله كوسيط كان من الضروري أنْ يحتمل الغضب الإلهي، ويرضى الدينونة العادلة، ويشعر بثقل الانتقام الإلهي، ولذلك كان من الضروري أنْ يذهب إلى حيث قوات الجحيم ورعب الموت الأبدي. وقد سبق أنْ اقتبسنا كلمات النبي « تأديب سلامنا عليه »، وأيضاً « جرح لأجل معاصينا » .. وهكذا احتمل الدينونة ودفع كل الديون مع فرق واحدٍ، وهو أنَّ مخاض الموت كان عاجزاً عن يمسكه. وهكذا لا يوجد ما هو غريب عندما نعلم بأنه نزل إلى الجحيم؛ لأنه احتمل الموت الذي هو عقوبة الخطاة التي يُعاقِب بها الإله الغاضب الخطاة».*

أمَّا حسب تراثنا الروحي الأُرثوذكسي، فقد نزل الرب "إلى الجحيم من قبل الصليب"، ولكنه بهذا النزول "أبطل عز الموت"، وسبى الجحيم، وكسَّر المتاريس النحاس كما نرتل في ألحان عيد القيامة وطوال فترة الخمسين المقدسة.

النتائج اللاهوتية المترتبة على فكرة البديل

إذا فصلنا بين مزيج العصر الوسيط وتعليم الآباء، لاستطعنا أنْ نتوقف أمام ثلاث حقائق هامة خاصة بالبديل الذي يتحمل غضب الإله الغاضب ـ الذي يتكلم عنه كالفن وبعض الأقباط ـ هي في حد ذاتها تعتبر نتائج خطيرة لهذا الفكر:

أولاً: طبقاً للاهوت العصر الوسيط، فإنَّ البديل الذي يحمل العقوبة لابد وأنْ يحملها كلها. فإذا كانت العقوبة هي الموت الأبدي، فلا بُد أنْ يبقى المسيح

كبديل عنا في الجحيم إلى الأبد، وذلك طبقاً لمنطق العدل الأرضي ـ الذي اعتمد عليه اللاهوت الغربي في تفسير الفداء ـ فلا يسمح بثلاثة أيام وثلاث ليال في مقابل خطايا كل البشر، لا سيما تلك التي سوف تحدث في المستقبل. وبالطبع يقع هؤلاء، أي كالفن ومَن لف لفه مِن الأقباط الذين يدافعون عن موت المسيح كبديلٍ يعاقَب عن الخطاة في عدة مآزق لا يمكن الخروج منها بالاعتماد على منطق العدل والقانون الأرضي.

المأزق الأول : هو أنْ تصبح قضية البديل المعاقَب مسرحيةً هزليةً ساخرةً من كل القيم الأخلاقية التي ترتبط بالعدل. فعندما تحكم أي محكمة على الأرض بسجن متهم بعقوبة السجن المؤبد، فإن تطوع شخصٌ ما بأنْ يُسجن بدلاً من المهتم ـ وهو ما لا يحدث ولا يسمح به القانون في أي بلد من بلاد الدنيا منذ أن صدرت أقدم القوانين (تشريعات حمورابي ملك بابل ـ والتشريعات الفرعونية وغيرها ..) ـ فإن تقليص العقوبة بسجن هذا المتطوع لمدة عام واحد فقط ـ نظراً لمركزه وشخصيته ـ يتحول معه العدل من مبدأ قانوني عام يطبَّق على كل الأشخاص ـ بغض النظر عن مركز وأهمية شخص معين ـ إلى الأخذ بالاعتبارات الشخصية التي لا محل لها في القانون.

المأزق الثاني : وبغض النظر عن أنَّ القانون الأرضي في كل بلاد الدنيا لا يقبل أنْ يموت شخصٌ نيابةً عن آخر، فإذا كان البديل لابد أنْ يموت ـ حسب منطق هؤلاء ـ إلاَّ أنه في الواقع لم يُمسَك من الموت، بل قام (البديل) حياً في اليوم الثالث، وبالتالي تسقط هذه الفكرة تماماً.

فالقيامة إذن ـ كما يقول ذهبي الفم ـ هي التي تُسقِط حجة هؤلاء:

> [لماذا صُلب؟ لم يصلب بسبب خطاياه، وبرهان ذلك هو القيامة، لأنه لو كان خاطئاً لتعذر عليه أنْ يقوم من الأموات. ولكن لأنه قام، صار من الواضح تماماً أنه ليس خاطئاً.

ولكن أيضاً إذ لم يكن خاطئاً، فلماذا صُلب، لقد صُلب من
أجل الآخرين، ولذلك قام] (عظة ٩ : على رو ٤ : ٢٥).

فعندما أسقط لاهوت العصر الوسيط مركزية القيامة، وقع في تلك الأخطاء التي تصوَّرها ونُسبت إلى أساتذة اللاهوت المدرسي بالرغم من أنهم من أكبر العقول الأوربية في القانون والفلسفة وسائر العلوم الإنسانية الأُخرى، وكالفن نفسه كان محامياً فذاً أتقن اللغات القديمة ودرس ذهبي الفم وأوغسطينوس. ولكن حِرص كالفن وقادة حركة الإصلاح على "تدجين" الصليب حمايةً لقوة وسطوة الحكومات الأوربية والقانون الأوربي أدَّى إلى حدوث هذا المزيج الغريب من القانون واللاهوت، وهو مزيج مملوء بالمآخذ يخلط بين العدل الأرضي والعدل الإلهي، بين صلاح الله ورحمته ومحبته.....وقد وجد كالفن في عبارة القديس أوغسطينوس: **"إنَّ الله قادرٌ على أنْ يجمع بين الغضب والمحبة في نفس الوقت"** الحل الفكري، أو الفلسفي الذي دفعه إلى هذا التصور.
ولا شك أنَّ المحبة من الإنجيل، أمَّا الغضب والانتقام فهو من الثقافة السائدة التي تقبل غضب وانتقام الحاكم السياسي، وتعطي له شرعية قانونية من أجل استقرار النظام السياسي نفسه، وهذا ليس هو إنجيل **"محب البشر"**، و**"محب الخطاة"**.

ثانياً: لقد أدرك المدافعون عن القانون والعدل أنَّ موت المسيح كبديل عن المؤمنين ـ أي ما يُعرف الآن في اللاهوت البروتستانتي الذي جاء بعد حركة الإصلاح في القرن الثامن عشر باسم *Limited Atonement* أي الكفارة المحدودة[1] ـ يعني أنَّ دم المسيح لا يفيد إلاَّ المؤمنين فقط الذين

---

[1] وهو ذات الخطأ العقيدي الذي يقع فيه بعض الإكليروس الأقباط دون دراية عندما يلصقون بموت المسيح عبارة العصر الوسيط: "استحقاقات دم المسيح". وهو طبعاً ما يظهر متناقضاً مع ما يعلّمون به من كفارة غير محدودة، لأن الفادي غير محدود، لأن الخطية غير محدودة، لأنها موجهة ضد الله غير المحدود، هكذا يضارب هذا الفكر بعضه البعض حتى يوقع نفسه في متناقضات لا سبيل إلى الفكاك منها، إذ ينتهي إلى الفداء المحدود بعد أن اعتمد على غير المحدود كمنطقٍ يشرح به الفداء.

يؤمنون، ولكن التعليم بالكفارة المحدودة أو الفداء المحدود لا وجود له في الأسفار المقدسة؛ لأن المسيح لم يمُت عن المؤمنين فقط، بل عن العالم كله حسب نص (يوحنا ٣ : ٦) وغيرها من النصوص. ولم يدرِ الذين يعودون إلى العهد القديم وإلى طقس يوم الكفارة في إسرائيل القديم محاولين به تفسير موت المسيح على الصليب، أي تفسير النور بالرمز أنَّ هذا طقسٌ خاصٌ بالشعب كله، وبالتالي كان موت المسيح على الصليب عن كل الجنس البشري .. فلم يضع أحدٌ يده على رأس المسيح لكي يعترف بخطاياه يوم الجمعة الكبيرة .. ولم يكن حتى التلاميذ معه إلاَّ يوحنا الإنجيلي والباقين هربوا، وحتى بطرس أنكره.

ولكي نثبت صحة ذلك، فإننا نعود إلى طقس يوم الكفارة العظيم حسب رسالة العبرانيين (الإصحاح التاسع كله) حتى نرى كيف يشرح النور الظل وليس العكس:

* كان رئيس الكهنة يقدم ذبيحة يوم الكفارة **عن نفسه** وعن جهالات الشعب (عب ٩ : ٧). ويعلق الرسول نفسه على هذا الطقس بقوله: "معلناً الروح القدس بهذا (أي بتقديم ذبيحة عن رئيس الكهنة وعن خطاياه) أنَّ طريق الأقداس لم يظهر بعد ما دام المسكن الأول (أي خيمة الاجتماع، ثم بعد ذلك هيكل سليمان) له إقامة (لا زال موجوداً)" .. ويؤكد الرسول هذا بقوله: "الذي هو رمز للوقت الحاضر (الزمان الذي كتب فيه الرسول بولس رسالته إلى العبرانيين (عب ٩ : ٩) وهي الفرائض الجسدية الموضوعة إلى) "وقت الإصلاح (أو التجديد)" (عب ٩ : ١٠).

* ومن ثم جاء رئيس كهنة الخيرات الآتية، وقدَّم جسده، أي المسكن الأعظم؛ لأنه جسد ابن الله غير المصنوع بيد ـ لأنه لم يُولد كثمرة زواج ولا هو من زرع رجل ـ أي الذي ليس من هذه الخليقة ـ « ليس من دم ولا بمشيئة رجل، بل من الله ». دخل رئيس الكهنة **حياً** بدم نفسه، وقدَّم ذاته بالروح القدس «الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من

أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عب ٩ : ١٣)، ولاحظ أيها القارئ أنَّ الرسول يتحدث عن موت المسيح لتطهير ضمائرنا من الأعمال الميتة، إنه عمل دائم، وليس مرةٌ واحدةٌ في السنة، بل قدَّم الربُ ذاته مرةً واحدةً لكي يفتح لنا باب الحياة.

هكذا تسقط تصورات هؤلاء في مآزق صعبة هي:

١ـ مأزق خطايا المستقبل بما فيها خطايا المؤمنين، إذا كانت الكفارة محدودة حسب تعليم الشيع البروتستانتية.

٢ـ يقول الرسول بولس نفسه مخاطباً هؤلاء إنَّ المسيح لا يقدم نفسه مراراً كثيرة مثل رؤساء كهنة العهد القديم كل سنة مرة بدم ذبيحة جديدة. ويعترض الرسول نفسه قائلاً لو كان موت المسيح وذبيحة محبته مثل ذبائح العهد القديم، فإنه يجب على المسيح أنْ **يتألم مراراً كثيرة منذ تأسيس العالم** (عب ٩ : ٢٦).

لماذا لم يحدث هذا؟ لماذا لا يُصلَب الرب عدة مرات؟ ولماذا يقول الرسول "الآن قد أُظهر عند انقضاء الدهور **ليُبطِل الخطية** بذبيحة نفسه" (عب ٩ : ٢٦).

نلاحظ أنَّ الرسول يقول: "يبطل الخطية" بكل صورها وأشكالها، فقد قضى الرب على الخطية عندما قضى على الموت، وهو ما سوف ندرسه بشكل أكثر تفصيلاً[1]. لكن يكفي الآن أنْ نسأل لماذا مات الرب مرةً واحدةً؟ والجواب من عند الرسول بولس، ومن نفس الإصحاح حيث يقارن الرسول بين موت الناس جميعاً مرةً واحدةً: فالموتُ واحدٌ وبعد ذلك الدينونة. هكذا مات المسيح مرةً واحدةً لكي يقوم حياً ويأتي للدينونة؛ لأن الذي أبطله الرب هو الموت. ولاحِظ أنَّ الرسول بعد ذلك يقول إنَّ ذبائح العهد القديم "لا تستطيع البتة أن تنـزع (الموت، أي تنـزع ثمرة) الخطية" (عب ١٠ : ١١) لقد نزع المسيح بقيامته شوكة الموت وهي كما يقول الرسول «أما شوكة الموت فهي الخطية. وقوة الخطية هي الناموس» (١كو ١٥ : ٥٦).

---

[1] راجع على الأخص الفصلين الثامن، والرابع عشر من هذه الدراسة، مع ملاحظة أننا تعرضنا لهذه النقطة في مواضع تفوق الحصر على مدى هذه الدراسة.

واضحٌ إذن إنَّ موت المسيح كبديل عن المؤمنين إنْ هو إلاَّ تفكيرٌ مملوء بتصورات بشرية ناقصة لا يمكن أنْ يشرح موت الرب على الصليب مرةً واحدةً. وبالتالي أيضا تسقط فكرة الكفارة المحدودة.

حمل الله
الذي "يرفع" خطية العالم

خطأٌ تحول إلى تعليم عقيدي!!

ما هو المقصود بالفعل "يرفع" في عبارة الرسول يوحنا: «هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا ١ : ٢٩)، والفعل "يحمل" في عبارة الرسول بطرس «الذي حمل خطايانا في جسده على الخشبة» (١بطرس ٢ : ٢٤) ؟

تصور السذج أنَّ كلاً من الفعل "يحمل" و "يرفع" يعني أنَّ المسيح وجد شيئاً أمامه اسمه الخطية مثل حِمل كبير وحَمله ووضَعَه على نفسه. ولو كان للخطية كياناً مادياً يُحمل أو يُرفع، أو كان لها "مخزناً" يحفظ فيه الله خطايا البشر منتظراً لحظة الصلبوت لكي يحمل الابن "الخطية" في كيانه الإلهي المتجسد، لوجب علينا أنْ نهلل ونصفق لهذا التفسير الذي قد يريح الضمائر المثقلة بالخطايا .. ولكن هذا التفسير هو تفسيرٌ أعوج وأعرج معاً لا يملك أنْ يسير أو يتحرك، وذلك للأسباب الآتية:

١ـ لا يوجد في النظام الكوني الذي خلقه الله كائناً اسمه "الخطية"، بل إنَّ الخطايا هي عملٌ وفعلٌ إنسانيٌ وشيطانيٌ يحدث على المستوى الروحي والعقلي مصدرها الإرادة والفكر والمشاعر .. هي فكرٌ وإرادةٌ نابعةٌ من التكوين الروحي للإنسان. ولأن الخطية شئ داخلي، كان التطهير بالماء والاغتسالات القديمة بلا فائدة أو جدوى؛ لأن الماء لا يقدر أنْ يطهِر ضمير الإنسان.

٢ـ والسؤال الجدير بأن يسمعه أي إنسان عاقل هو ما هي الفائدة التي يحصل عليها الله أو الإنسان إذا نقل المسيح الخطية وحملها في كيانه مثلما يحمل الإنسان

متاعاً أو كتاباً؟ .. بل وكيف استطاعت الخطية أنْ تدخل إلى أعماق ابن الله الذي هو بلا خطية؟ والأهم من كل هذا كيف تمكنت الخطية من أنْ تميت ابن الله؟ وهنا تظهر تجاديف السذج والتي ليس لدينا شك في أنها تصدر عن مخيلةٍ غير مدربةٍ على تصوّر الأُمور الإلهية إذ يتصور البعض أنَّ الآب هو الذي نقل خطية العالم إلى ابنه، وهو الذي حمل ذنوب البشرية ووضعها عليه .. طبقاً لهذا التصور يصبح الآب هو المذنب الحقيقي؛ لأنه "اختزن" خطايا البشر ونقلها بعملٍ إلهي إلى ابنه المصلوب .. تصورٌ نابعٌ من عقول لا تدرك أنَّ الله الذي يكره الخطايا كلها لا يحفظها، وإنه عندما يحول الخطية إلىً ابنه ثم يصدر عليه حكم الموت أو يجعل الخطية تميت الإبن، يظهر أنه ليس الله ولا هو بالآب، ويكفي أنْ نذكر لهؤلاء السذج حقيقةً واحدةً، وهي أنَّ الله لا يحل مشكلةً عندما ينقلها إلى آخر .. هذا عمل الموظفين الكسالى .. وعندما ينقل الآب الخطية إلى الابن فهو يعلن عجزه التام عن أنْ يشترك ـ حتى ـ في حلٍ لهذه المشكلة. ولا أريد أنْ أكتب أكثر من هذا لأن سفاهة هذه الفكرة ظاهرة بوضوح لأن الإله الذي يسمح لنفسه بأنْ يسلك ويتصرف بهذا الشكل هو مجرد مخلوق عاجز لا يملك من صفات الأُلوهة أي شئ، وليس هو الخالق محب العالم والخليقة.

٣ـ وحتى عبارة النبي: «والرب وضع عليه إثم جميعنا» (أش ٥٣ : ٦) تؤكد أنَّ **الإثم** هنا هو **الموت**، وأنَّ القضية الحقيقية كما أشرنا إليها من قبل هو قطع الجذر كي تموت الشجرة، والجذر هنا هو الموت، والشجرة هي الخطية، وإنَّ حقيقة العلاقة بين الاثنين تسمح بقتل الموت وإبادته، وبذلك تفقد الخطية سلطانها وقدرتها على أنْ تميت الإنسان حسب عبارة الرسول «وكما ملكت الخطية بالموت» (رو ٥ : ٢١). فإذا أُبيد الموت فقدت الخطية عرشها الوحيد.

الفعل "يحمل"، "يرفع" في شرح لاهوت العصر الوسيط، وحركة الإصلاح:

يقول كالفن:

«إنه غسل دنس خطايانا عندما نُقِلَت إليه هذه الخطايا وحملها هو على الصليب......ويقول القديس بطرس عن هذا الموضوع نفسه:

«حمل خطايانا في جسده على الخشبة (الشجرة)» (١بط ٢ : ٢٤) ومن هذا الرمز ـ الصليب ـ ندرك مقدار الحمل الثقيل أي اللعنة التي احتملها الرب»

ويقول مارتن لوثر في شرحه لعبارة يوحنا المعمدان «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم » :

«نقرأ في اشعياء٥٣ : ٦ (الرب وضع عليه إثم جميعنا) وأيضاً (الرب قد ضربه من أجل ذنب شعبي)[١] وكل شئ متمركز في المسيح، ولذلك على كل مسيحي أنْ يقبل كلمات هذا النص "هوذا حمل الله" ببساطة قلب وأنْ لا يسمح لأي إنسان بأن يسرق منه هذه الكلمات .. لأن الأسفار المقدسة تعلن أنَّ خطية العالم لا تُحسب على العالم ولا تحسب خطية القديس يوحنا على يوحنا، أو خطية القديس بطرس على بطرس؛ لأن الجميع عاجزين عن حمل الخطية؛ لأن خطية العالم وضِعت على المسيح حمل الله الذي تقدم لكي يصبح الخاطئ الدنس Vile Sinner بل الخطية نفسها (٢ كو ٥ : ٢١) كما لو كان هو نفسه قد ارتكب كل خطايا العالم من بداية العالم حتى نهايته"[٢].

فكيف ينسجم هذا الشرح مع عبارة الرسول يوحنا "ليس فيه خطية" مع ملاحظة أنَّ خطأ لوثر هو ذات الخطأ الذي وقع فيه بعض رجال كنيستنا الأفاضل عندما قرءوا نص (٢ كو ٥ : ٢١) كما يقرأه البروتستانت[٣].

وحمل الله الذي يرفع خطية العالم هو حمل الله الذي يصفه يوحنا الإنجيلي بأنه «يطهرنا من كل خطية» (١ يوحنا ١ : ٧) فقد طهَّر العالم ولم يصبح هو نفسه نجاسة أو دنس أو خطية؛ لأن هذا التطهير هو الذي ينسكب في كأس سر الشكر عندما يصبح الخمر دم الرب الحقيقي الذي يطهرنا من نجاسات الخطية ويبطل قوة الموت

---

(١) حسب الترجمة اللاتينية والألمانية لمارتن لوثر.

(2) Luther’s Works, vol. 22.Sermons on the Gospel of St. John.Chapter 1-4, ed by Jaroslav Pelikan, Concordia Publishing House, 1957, p 168.

(٣) راجع شرح ٢ كو ٥ : ٢١ المبحث الثاني من الفصل الثالث عشر في هذه الدراسة.

ويجعلنا أنقياء مثل إبن الله نفسه، ولذلك نصرخ:

"طهِّر إنساننا الداخلي كطُهر ابنك الوحيد الذي نريد أنْ نتناوله"

(صلاة خضوع للآب ـ القداس الكيرلسي).

وقد أشرنا سابقاً إلى نص كالفن، والحقيقة أن هذا قليل من كثير، ولكنه كاف لتوضيح ما أردنا أن نشير إليه. واضحٌ إذا أن فهم الفعل "يرفع"، أو "يحمل" بالكيفية التي عرضنا لها تنتمي إلى لاهوت العصر الوسيط وحركة الإصلاح، وقد نلتمس العذر لمن يخطئ عن جهل وعن حسن نية، ولكن ما هو عذر الذين حولوا أخطاء جهلهم إلى عقائد يحاربون من أجلها كل الذين يحاولون العودة إلى التعليم الأُرثوذكسي الصحيح كما دوَّنه آباء الكنيسة؟

كيف إذن يجب أنْ نفهم **"رفع"** أو **"حمل"**؟

والجواب هو من واقع كلمات الرسول يوحنا الإنجيلي «وتعلمون أنَّ ذاك أُظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية» (١ يوحنا ٣ : ٥) لم يصبح المسيح خطية عندما رَفَعَ أو حَمَلَ الخطايا .. فهذا هو تعليم مارتن لوثر كما مر بنا، وهو تعليم يعبر عن الفكر المسيحي السياسي السائد في أوربا الغربية، وهو ما يختلف تماماً عن الفكر اللاهوتي الشرقي.

شرح الآباء معلمي الأُرثوذكسية

أولاً: شرح القديس كيرلس الأورشليمي

يقول القديس كيرلس الأورشليمي في العظة ١٣ للموعوظين فقرة ٣:

لا يجب علينا أنْ نخجل من صليب مخلصنا، بل نفتخر به؛ «لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة" (١ كو ١ : ١٨)؛ لأن الذي مات لأجلنا ليس مجرد إنسان ـ كما ذكرت من قبل ـ بل ابن اللّه الذي تجسد. وبالإضافة إلى ذلك إذا كان الحمل حسب شريعة موسى قد طرد **المهلك** *drove away the destroyer*

فكم بالحري "حمل اللّه الذي يحمل خطية العالم" يخلصنا من خطايانا.. وإذا كان دم الحيوانات التي بلا عقل أعطت الخلاص، ألا يخلِّص دم ابن اللّه الوحيد؟ ومَن لا يؤمن بقوة المصلوب عليه أنْ يسأل الشيطان، ومَن لا يؤمن بكلام البشارة فليؤمن بما يرى .. لأن الشيطان يخاف المصلوب ويرتعد عندما يرى علامة الصليب].

وخلاصة شرح القديس كيرلس الأورشليمي ظاهرة للعيان. فالصليب قوة نقلت الدينونة والموت. قوةٌ رفعت حكم الموت، حملت قوة الموت، أو حسب تعبير الرسول «رفعه من الوسط» (كولوسي ٢ : ١٤) أي أبعد عنا الموت عندما أباده.

ثانياً: شرح ذهبي الفم

ويؤكد ذلك أيضاً القديس يوحنا ذهبي الفم في العظة الثامنة على إنجيل يوحنا عندما يشرح «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم»، فيقول:

[من الواضح أنه هو النقي الذي وحده قادر على أنْ يغسل تماماً خطايا الآخرين .. وعندما يقول "حمَل" فهو يريد أنْ يذكِّر اليهود بنبوة اشعياء وبظلال ناموس موسى لكي يقودهم من الظلال إلى الحقيقة؛ لأن الحمَل حسب شريعة موسى لم يرفع ولا مرة واحدة خطية إنسان واحد. أمَّا هذا الحمَل فهو يرفع خطايا العالم كله؛ لأن العالم كان في خطر الهلاك ولكنه خلَّص العالم من غضب اللّه].

ويعود القديس يوحنا ذهبي الفم إلى نفس النص ليقول:

[إنَّ عبارة "حمل اللّه الذي يرفع" تُعلِن عن العطية التي جاء لكي يعطيها، وأسلوب التطهير؛ لأن الحمل حسب شهادة المعمدان "يرفع"، ولم يقل أبداً "سوف يرفع" أو "رَفَعَ" بل "يرفع" خطايا العالم لأنه يعمل هذا دائماً، فقد رفع الخطايا ليس فقط عندما تألم، بل منذ ذلك الزمان لا زال يرفع الخطايا، ليس لأنه يُصلَب ويعاد صلبه - لأنه قُرِّبَ ذبيحةً واحدةً عن الخطايا - بل بهذه الذبيحة عينها يطهر باستمرار الخطايا].

ثالثاً: شرح القديس كيرلس عمود الدين

التسليم الآبائي واضح عند كيرلس الأورشليمي وذهبي الفم، وهو ذاته عند القديس كيرلس الإسكندري. فالحمَل هو ذات الحمَل الذي سيق للذبح حسب نبؤة (اشعياء ٥٣ : ٧) وهكذا يشرح القديس كيرلس النص:

> [قيل عنه قديماً وأشار إليه ناموس موسى رمزياً، ولكنه حسب الرمز خلَّص قليلين ولم تشمل الرحمة كل العالم لأن ذبح الحمَل كان ظِلاً للحقيقة، وأمَّا الآن فهو الحمَل الحقيقي والذبيحة التي بلا عيب قد سيق للذبح من أجل الكل لكي يُبيد خطية العالم (أو حسب الترجمة الإنجليزية *"He might drive away the sin of the world."*) ولكي يدوس ويبيد المهلك أي الشيطان الذي يدمر الأرض؛ لأنه عندما يموت من أجل الجميع يبيد الموت ويحل اللعنة التي أصابتنا ويضع نهاية تامة لما قيل قديماً «تراب أنت والى التراب تعود» (تك ٣ : ١٩) ولكي يصبح آدم الثاني الذي ليس من الأرض، بل من السماء ولكي يكون بداية (رأس) الصالحات (الخيرات) للطبيعة الإنسانية، ويحررنا من الفساد الدخيل، مانحاً الحياة الأبدية، أساس مصالحتنا مع الله بداية التقوى والبر، طريق إلى ملكوت السموات]
> (شرح إنجيل يوحنا الكتاب الثاني ١ : ٣٠ المجلد الأول النص الإنجليزي ص ١٣١-١٣٢).

فهل ذكر القديس كيرلس الإسكندري العقوبة والتشفي وصب النار .. الخ أم أنَّ التسليم الآبائي هو المصالحة ـ إبادة الخطية ـ تطهير خطايا العالم.

ألا تكفي شهادة ثلاثة من كبار الآباء القديسين ـ الأورشليمي وذهبي الفم وعمود الدين؟ أم يجب محاكمة هؤلاء أيضاً؟

ويكمل القديس كيرلس شرحه وفي نفس الصفحة السابقة يقول مؤكداً إنَّ إبادة الموت هي إبادةٌ للخطية، وعبارات القديس كيرلس الإسكندري قاطعة صريحة تؤكدها

كلمات العهد الجديد:

[لقد مات الحمل الواحد من أجل الكل، وخلّص القطيع كله الذي على الأرض للّه الآب، الواحد من أجل الجميع لكي يُخضع الكل للّه، الواحد من أجل الجميع لكي يكسب الكل حتى لا يعيش الباقين لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام (٢ كو ٥ : ١٤). لقد كنا تحت ثقل خطايا كثيرة، وبسبب سيادة الموت والفساد، أعطانا الآبُ الابن فداءً لأجلنا

[The Father has given the Son a redemption for us.] مات الواحد من أجل الكل ولأن الكل كان فيه، وهو فوق الجميع، مات الواحد من أجل الكل لكي يحيا الكل فيه. لقد ابتلع الموتُ الحمَلَ الذي مات من أجل الكل، ولذلك تقيّأ الموتُ الكلَ فيه ومعه، لأننا نحن جميعاً في المسيح الذي لأجلنا وبسببنا مات وقام. لقد أُبيدت الخطية، فكيف لا يُباد الموت الذي بسبب الخطية جاء مع الخطية؟ لقد مات الجذر، فكيف يمكن للفرع أنْ يحيا؟ فهل نموت بعد أنْ أُبيدت الخطية؟ إنَّ ذبيحة الحمل هي عيد عظيم لنا لأننا نقول «يا موت أين شوكتك؟ يا هاوية أين انتصارك» (١ كو ١٥ : ٢٥) لأن الآثام - كما يقول صاحب المزمور وهو يسبح اللّه - قد سد فمها (١٠٨ : ٤٢) ولا تقدر الآثام أنْ تشتكي الذين يخطئون بسبب الضعف لأنه إذا كان اللّه هو الذي يبرر، فمَن الذي يشتكي (رو ٨ : ٣٣-٣٤). «المسيح قد افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا لكي نتحرر نحن من لعنة التعدي»] (المرجع السابق ص ١٣٢).

فهل يمكن أنْ نقول أكثر مما قاله معلمنا كيرلس الكبير؟

معاني الفعل اليوناني "يرفع" كما ورد في الأسفار المقدسة

لكي لا نترك باباً مفتوحاً للجهل يتسلل منه لكي يخدع السذج، علينا أنْ نلقِ نظرةً شاملةً على استعمالات الفعل اليوناني حتى لا يتصور أحد بأن المسيح قدَ حمل شيئاً له وجود وكيان اسمه الخطية :

١ـ الفعل "يرفع" كحركة خاصة بالجسد أو الإنسان دون وجود شيء يُرفع

أولاً: رفع اليدين للقسم. رفع الملاك يده إلى السماء وأقسم بالحي (راجع رؤ ١٠ : ٦).

ثانياً: رفع الرب يسوع عينيه إلى فوق عندما صلى عند قبر لعازر (يوحنا ١١ : ٤١).

ثالثاً: رفع الآباء الرسل "بنفس واحدة صوتاً إلى الله" (أع ٤ : ٤).

٢ـ الفعل "يرفع" بمعنى يحمل شيئاً له دلالة معنوية دون أنْ يكون له وجود مادي

أولاً: يقول الرب «احملوا نيري عليكم لأن نيري هين وحملي خفيف» (متى ١١ : ٢٩) وطبعاً نير الرب الهيِّن والخفيف ليس شيئاً مادياً.

ثانياً: وعكس نير الرب الهيِّن يصف الرسول التوراة وشريعة موسى ويقول لنا ولهذا الجيل العائد إلى شريعة موسى «لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطعِ آباؤنا ولا نحن أنْ نحمله» (أع ١٥ : ١٠) ونير التوراة ليس شيئاً مادياً، بل هو حمل الضمير المثقل ولذلك يصفه الرسول بولس «نير العبودية» (غلا ٥ : ١).

ثالثاً: وحتى عندما يذكر الإنجيل كلام الشيطان للرب في التجربة في البرية أنَّ الملائكة سوف تحمله على أياديهم، فطبعاً ليس للملائكة أيادٍ مادية لأنهم أرواح مرسلة للخدمة (عب ١ : ١٤).

رابعاً: والترجمة البيروتية العرجاء تقول عن موت الرب «في تواضعه انتُزِع قضائه» (أع ٨ : ٣٣) والصحيح "في تواضعه رفع حكمه أو قضاء الموت" حسب الأصل اليوناني وحسب استعمال صلاة قسمة سبت الفرح وحسب قراءة القديس اثناسيوس في تجسد الكلمة (رُفِعَ حكمه

في تـواضعه. وجيـله من يقدر أن يقصَّه)[1]. ويؤيـد هذه القراءة نص (يو ١٠ : ١٨) حيث يقول الرب عن حياته «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لأخذها أيضاً ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أنْ أضعها وسلطان أنْ آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي» ونفس الاستعمال المعنوي إذ يقول الرب عن التلاميذ وكل المؤمنين «لست أسأل أنْ تأخذهم (أي تحملهم أو ترفعهم) من العالم» (يوحنا ١٠ : ١٥).

ورفع أو نزع الرب الملكوت من اليهود «ملكوت الله ينزع منكم» والمعنى ظاهر (متى ٢١ : ٤٣).

رفع حكم الموت

وكما مر بنا رفع حكم الموت بموت الرب على الصليب حسب نص أعمال (٨ : ٣٣) «في تواضعه رُفِعَ حكمه»، ونفس الفعل يظهر في عبارة الرسول بولس «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا .. أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع خطاياكم. إذ محا الصك الذي علينا .. وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه في الصليب» (كولوسي ٢ : ١٤).

والمدهش حقاً هو أنْ أحد الإكليروس الأقباط اعتبر هذا النص برهاناً على أنَّ المسيح دفع الثمن، وذلك بالرغم من أنَّ الفعل **"محا"** يعني أزال صك الدين .. أمَّا عبارة الرسول **"**رفعه من الوسط**"** فهي لا تعني أنْ هناك صك يُرفع، بل كان حكم الموت هو الذي يقف بين الله والإنسانية فرفعه الرب بقوته وجبروت صليبه وقيامته.

وحتى لا نتوه في خضم التفسير نكتفي بالعظة السادسة للقديس يوحنا ذهبي الفم على (كولوسي ٢ : ١٤) لعل كلمات يوحنا ذهبي الفم تكفي لأن تقنع القارئ بأننا نسير على درب الآباء:

---

[1] راجع تجسد الكلمة فصل ٣٤.

[وإذا كنتم أمواتاً في الخطايا.....مسامحاً إيانا - كما يقول - بجميع الخطايا، أي الخطايا التي أدت إلى الموت. وماذا فعل؟ هل ترك هذه الخطايا؟ كلا ولم يمحوها ولم يكشطها حتى يمكن أنْ نرى آثارها، بل محا الفرائض نفسها. أي فرائضٍ مُحيت؟ الإيمان يكفي لأن الرب لم يأت لكي يضع أعمالاً بدل أعمالٍ، بل وضع الفرائض ضد الإيمان. وماذا يقول الرسول بعد ذلك لقد "محا" وجعل هذا عربوناً للغفران نفسه ورفعها *He has taken it out of the way* فهو لم يُبقِ عليها بل مزقها إرباً عندما « سمرها في الصليب ».]

هل يوجد كلام أوضح من هذا؟ ويكمل ذهبي الفم شرحه:

[لقد كنا جميعاً تحت الخطية والعقوبة، ولكن الرب نفسه تألم بالموت وأباد معاً الخطية والعقوبة عندما حمل كلاهما على الصليب. وعلى الصليب ثبَّت الربُ الخطيةَ وحُكمَ الموت لأن له القوة على أنْ يفعل ذلك ومزق الاثنين معاً .. لقد مزق حكم الموت والخطية. وحتى الموتى قاموا عندما عُلِّق الجسد على الصليب. وجُرِحَ الموتُ عندما واجه الموتُ موته[1] بضربةٍ من جسدٍ ميّتٍ. وكما أنَّ المصارع عندما يضرب خصمه ويصبح خصمه تحت سيطرته، حقاً أعلن المسيح هذا، فقد مات على الصليب كمقاتل قوي لكي يخزي الشيطان .. وهناك على الجلجثة تمت هذه المعركة الواحدة. جَرَحَ الموتُ المسيحَ ولكن المسيحَ الجريحَ قتل الموت الذي كان يظُن أنه باقٍ إلى الأبد، ولكن المسيح أباده بجسد قابل للموت].

هكذا شئنا أنْ ننقذ الأُرثوذكسية من براثن الفكر السياسي الأوربي الذي يبحث دائماً عن البديل وعن كبش الفداء لكي يقدمه للدهماء والغوغاء من أجل حل مشكلة وحتى يبقى الحاكم المستبد في مكانه .. يحكم بالقوة وليس بالحكمة.

---

[1] أي موت الموت.

الحمل ابن الله المساوي للآب في الجوهر

قبل أنْ نشير إلى موضوع الحمل في الليتورجية الأُرثوذكسية[٢] يلزمنا أنْ نؤكد على حقيقة إيمانية خلف الأُسلوب الذي تُشرح به الأسفار المقدسة وتشهد لشخص وعمل المسيح.ففي رسالة يوحنا الأولى يشهد الرسول لشخص وعمل المسيح على هذا النحو:

* "ذاك أُظهِرَ (أُعلِن) لكي يرفع خطايانا" (١ يوحنا ٣ : ٥) وبعدها يقول
* "مَن يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطئ لأجل هذا أُظهِر إبن الله لكي ينقض أعمال إبليس" (١ يوحنا ٣ : ٨).

غريب على آذاننا أنْ نسمع أنَّه بالرغم من أنَّ الخطية من إبليس حسب ما جاء بالإصحاح الثالث من سفر التكوين، ومع ذلك استطاع إبليس أنْ يضع الرب نفسه خالقه وسيده وجابله تحت سلطانه أي تحت سلطان الخطية وأنْ يموت الرب كخاطئ أو كخطية حسب الشرح الذي يريد بعض الإكليروس الأقباط أن يفرضه الآن في الكنيسة القبطية.

لقد نسى هؤلاء ـ كما نسى لوثر نفسه ـ إنَّ الحمَل هو ابن الآب المساوي له في الجوهر والذي أُعلِن أو أُظهِر لكي ينقض أعمال إبليس.

وفي إشارة إلى ضعف الترجمة البيروتية نجدها أصرت على ترجمة الكلمة اليونانية " αμνος "(amnos) التي وردت في يوحنا ١ : ٢٩ إلى "حمل" بينما ترجمت الكلمة اليونانية الأخرى "αρνιον" (arnion) التي وردت في سفر الرؤيا إلى "خروف" إذ لا يوجد ما يبرر بالمرة هذا الاختلاف في الترجمة لأن "αμνος" هو حمل حولي أي ابن سنة وأقل و"αρνιον" هو حَمَل بالغ لا يرضع بالمرة ولا يسمى خروفاً.

ومن سفر الرؤيا نرى كيف يسجد السمائيون "للحمَل" لأنه حسب شرحنا السابق «ذُبحت واشتريتنا لله بدمك» (رؤ ٥ : ٢٨) فقد اشترانا الحمل بدمه للآب وللروح القدس ولنفسه. ويرتفع التسبيح للحمل (رؤ ٧ : ١٠ـ١١) لأنه يجلس

---

[٢] راجع بتفصيل أوفى العلاقة بين الفصح المسيحي والحمل الفصل الثاني عشر من هذه الدراسة.

على ذات عرش اللاهوت (رؤ ٧ : ١١) لأنه واحد مع الآب في الجوهر.

والحمل الذي ذُبح له «سفر الحياة» حيث أسماء المؤمنين قد كتبت قبل تأسيس العالم (رؤ ١٣ : ٨) ومع السمائيين نمجد الحمل الجالس على العرش (رؤ ٢٢ : ١) لأنه غَلَبَ ولم يُغلب وهَزَمَ ولم يُهزم.

دورة الحمل في القداس الإلهي

عندما نقدم الحمَل فإن الصلوات كلها تؤكد **"ظفر"** وغلبة الحمَل وتطهير خطايانا لأن الذبيحة **"طاهرة كموهبة روحك القدوس"** ولا تميز الصلاة بين ذبيحة الإفخارستيا ومواهب الروح القدس لأن كلاهما من أصل واحد هو الحياة الإلهية. لكن الحمل أو الذبيحة هو:

غفران خطايانا

ضياء نفوسنا

حياتنا – قوتنا ـ دالتنا

ونختم «**وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسجود أيها الآب والابن والروح القدس**».

كما يظهر ذلك أيضاً من قسمة الحمَل للقديس كيرلس:

[**يا حمل الله الذي بأوجـاعـك حملت خطايا العالم بتحننك امح آثامنا يا وحيد الله الذي بآلامك طهَّرت أدناس المسكونة. بمراحمك طهر أدناس نفوسنا. يا مسيح الله الذي بموتك قتلت الموت الذي قتل الجميع بقوتك أقم موت نفوسنا**].

وماذا يمكن أنْ نقول للحمل نفسه سوى تسبحة البصخة المقدسة وهي تسبحة الغلبة والانتصار وليس تسبحة الذي سُحِق ومات تحت الغضب الإلهي:

«**لك القوة والمجد والبركة والعزة يا عمانوئيل إلهنا وملكنا**».

تحذير من المفاهيم غير المسيحية للخطية

أولاً: يجب أنْ نستبعد المفهوم الغنوصي والمانوي الذي يتصور أنَّ الخطية هي كيان له وجود مادي يمكن نقله من مكان إلى آخر ومن شخص إلى آخر.

ثانياً: ويجب أنْ نستبعد المفهوم الغربي السائد في عصر حركة الإصلاح بأن الخطية نُقِلَت إلى المسيح وصار هو نفسه خطيةً، لسبب واحد ظاهر وهو **أنَّ نقل الخطية للمسيح هو بقاءٌ للخطية وإكساب الخطية قوة ومكانة لم تكن لها من قبل**. وهذا يهدم الإدعاء بأن المسيح أباد الخطية، بل العكس كما سنرى بعد ذلك أنَّ الخطية هي التي أبادت الابن وجعلته يسقط تحت نار العدل الإلهي ويحترق فيه ويصبح رماداً وهو أصعب تجديف على ابن الله يمكن أنْ يقال باسم المسيحية.

ثالثاً: وحتى إذا تصورنا أنَّ للخطية كياناً روحياً، فالأمر الظاهر بوضوح أنَّ الفعل، أي الخطية قد انفصل عن الفاعل وهو هنا كل البشر، وهكذا صارت الخطايا بلا خطاة، لأن الغالب في لغة الأسفار المقدسة هو "الخطية" أي صيغة المفرد وليس صيغة الجمع، وهكذا نرى من لغة الأسفار المقدسة نفسها أنَّ الخطية هي ليست أعمال البشر، لأنه من المتعذر حتى على الذين يدافعون عن هذا التعليم الأجوف أنْ نتصور أنَّ الله جمَّع كل خطايا البشر في خطيةٍ واحدةٍ فصلها عن الخطاة، ثم جعل الابن الوحيد يحملها، ذلك لو أدركنا أنَّ لغة الأسفار تتحدث عن الموت، وإنَّ الموت هو الخطية؛ وهو ما يتضح من النصوص الآتية:

*«تموتون في خطيتكم» (يوحنا ٨ : ٢١).

*«والبشر جميعاً يهوداً ويونانيين (الأُمم) تحت الخطيئة» (راجع رو ٣ : ٩).

*«بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت» (رو ٥ : ١٢).

*«ملكت الخطية في الموت» (رو ٥ : ٢١).

*«عالمين هذا أن إنسانكم القديم أو العتيق قد صلب ليبطل جسد الخطية»

أي الجسد المستعبد للموت (رو ٦ : ٦).

*«لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة» (رو ٦ : ١٠). وهكذا أبطل الرب جسد الخطية والموت بموته على الصليب.

*«أرسل ابنه في شبه جسد الخطية» أي الجسد القابل للموت (رو ٨ : ٣).

*«الجسد ميت بسبب الخطية» (رو ٨ : ١٠).

*«أما شوكة الموت فهي الخطية» (١كو ١٥ : ٥٦).

*"«ليبطل الخطية بذبيحة نفسه" أي يبطل الموت"» (عب ٩ : ٢٦).

*ويسأل الرسول اليهود في رسالته إلى اليهود أي العبرانيين لماذا عجزت الذبائح وحسب عبارته «لا تستطيع البتة أي بالمرة أن تنزع الخطية» (عب ١٠ : ١) لأن الذي قدم الذبيحة داس الموت «وأما (يسوع) فبعد أن قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله» (عب ١٠ : ١٢).

*وحقاً يجب علينا أنْ نختم هذه الفقرة بعبارة الرسول «لقد أبطل الرب الخطية» لأنه أبطل وداس قوة الموت (راجع عب ٩ : ٢٦).

الكفارة والفدية
ومدلولاتهما في الكتاب المقدس

مقدمة

يستخدم الكتاب المقدس كلا اللفظتين "الكفَّارة والفدية" للتعبير عن عمل الله في خلاص وفداء شعبه. فالله يكفر عن شعبه، أي يغفر ويستر الخطايا، وهو أيضاً يفتديه، أي يخلصه من يد الأعداء ومن السقوط في وهدة الهلاك. وعلى الرغم من هذا الترادف الظاهر إلاَّ أن كل لفظة لها استخدامها الخاص، فقد استُخدمت كلمة كفارة للتعبير عن التطهير والغفران. كما استخدمت كلمة فدية للتعبير عن الاقتناء والعتق والتحرير. وبالطبع فكل هذه المعاني إنما تعبر عن الخلاص في معناه الشامل، الأمر الذي لم يمنع من استخدام كلا الكلمتين بنفس المعاني في بعض النصوص. إلاَّ أن ما يجب الالتفات إليه بكل قوة هو أن كلا اللفظتين لم تستخدم مرةً واحدةً للدلالة على دفع ثمن، أو اتقاء غضب، وإنما كانت تعبيراً عن محبة الله سواء قدَّم الإنسان ذبيحةً تكفيراً عن خطاياه، أو قدم الله للإنسان هذه الكفارة أو الفدية. ونظراً لأهمية النتائج المترتبة على تحديد هذه المعاني، فقد غُصنا في أعماق نصوص العهد القديم وقدمنا عرضاً مفصلاً لاستخدام هذه الكلمات بداية من الجذور الأولى لهذا الاستخدام وما تطور إليه، كما قمنا بتقديم بحثٍ لُغوي لكلا الكلمتين في الآداب السامية واللغتين العبرية واليونانية والترجمات المختلفة في اللغتين اللاتينية والإنجليزية، وصدى ذلك في

اللغة العربية، وأوضحنا الفرق بين الفعل المستخدم للفداء في نصوص الشريعة الموسوية، وبين الفعل المستخدم في النصوص التي تشرح عمل الله مع الشعب في تدبير الخلاص. كما أبرزنا بشكل خاص الفرق الكبير بين الاستخدام الحضاري لفكرة الثمن في البيع والشراء في العالم القديم، وتبني الكتاب المقدس لفكرةٍ مختلفةٍ تماماً حتى وأن تشابهت المصطلحات، وهو بحث قد يكون شاقاً على القارئ العادي إلاَّ أن ضرورة الوضوح ألجأتنا إلى ذلك.

وإمعانا في تسهيل مهمتنا لدى القارئ قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى تمهيد ومبحثين، تناولنا في التمهيد الأصول الأولى لاستخدام كلمتي الفدية والكفارة والعلاقة بينهما وبين كلمات أُخرى مثل التطهير والقربان وعلاقة ذلك بالذبائح والتقدمات، وخصصنا المبحث الأول لموضوع الكفارة، وعرضنا فيه للكثير من التطبيقات التي أشرنا إليها، والمبحث الثاني أفردناه لموضوع الفدية وما تثيره هذه الكلمة من تداعيات، وناقشنا ـ كلما كان ذلك لازماً ـ التعارض الذي يثيره تحديد معاني هذه الكلمات مع فكر العصر الوسيط ولاهوت حركة الإصلاح، وكان حرصنا على ذلك شديداً حتى لا تفوتنا شاردةً ولا واردةً لم نؤصل لها أو نقطع فيها برأي.

تمهيد

الأصول الأولى لاستعمال كلمتي الفدية والكفارة

مقدمة

"الشر" في الأساس مفهوم ديني، ولذلك لا يعرف القانون الوضعي "الشر"، بل يعرف "الجريمة" وأهم أركانها الركن المادي الذي يتمثل في الاعتداء أو الاستيلاء على ما هو ليس من حق المجرم، أو تجاوز قواعد ثابتة في القانون أو العرف. والركن المعنوي *Moral* الذي يتمثل في نية الاعتداء وكسر القانون وما يترتب على ذلك من آثار.

ولكل جريمة عقوبة مناسبة، ولا توجد عقوبة واحدة لكل الجرائم. ولذلك يقوم القانون بتحديد الجريمة حسب المبادئ السائدة في الحضارات والعادات وحسب القيم الأخلاقية التي يأخذ بها مجتمع معين في فترة حضارية معينة[١]. كما يقوم بتحديد العقوبة، أو التعويض المناسب للضحية في بعض الجرائم التي تمس الممتلكات أو التي تحدث إصابات أو عاهات دائمة في الضحية ... كل هذا خاضع لأحكام القانون والظروف والقيم السائدة في المجتمع، وهو في النهاية ما يؤكد لنا أن ما يقوله القانون الوضعي لا يمكن تطبيقه على علاقة الإنسان بالله.

---

(١) على سبيل المثال كان القسم العسكري الذي يؤدى في الجيش الروماني باسم الإمبراطور أو القيصر هو علامة الولاء الوحيدة والثابتة على إخلاص الجندي وكان الامتناع عن القسم باسم القيصر يعني "الخيانة العظمى"، وكان تقديم الذبائح للإله الذي يعبده القيصر أو لأحد آلهة روما هو دليل "الوطنية" و "الولاء"، وبسبب هذه العادة دفع عدد كبير من الشرفاء حياتهم ثمناً؛ لأن إيمانهم بالمسيح كان يمنعهم من القسم باسم الآلهة لأن الآلهة كائنات وهمية لا وجود حقيقياً لها. هؤلاء عُرِفوا باسم شهداء المسيحية. ولكن هذا الوضع تغيَّر بمجيء القيصر قسطنطين الكبير. وتغيرت العادة وتغيرت المبادئ، فسقطت جريمة الخيانة العظمى.

القانون أو الشريعة والخطية في العهد القديم

عرف العهد القديم مبدأ الثيئوقراطية أو الحكومة الإلهية حيث كان الملك يُمسح بالزيت ويُعلن ملكاً وخادماً للرب، لذا كان من المستحيل فصل الجريمة عن الخطية، ولا القانون أو الشريعة عن علاقة الإنسان بالله على النحو الذي نراه في المسيحية، ولذلك احتوى العهد القديم على الوصايا العشر إلى جوار الأحكام التي تشرح هذه الوصايا، فبينما يورد الإصحاح العشرون من سفر الخروج الوصايا العشر، يجيء الإصحاح الحادي والعشرون بـ"الأحكام التي تضع أمامهم"، فإذا قالت الوصية "لا تقتل"، تجيء الأحكام بتفاصيل هذا النهي، حيث تنص على قتل القاتل القاصد القتل، وعلى أن ضرب الأب والأم عقوبته القتل (٢١ : ١٢ وما بعده). ولأن القانون هو ابن الحضارة، لذا لا تحدد هذه الأحكام عقوبة السيد الذي يقتل عبده «إذا ضرب إنسان عبده فمات تحت يديه يُنتقم منه» (خر٢١ : ٢٠) ولكن إذا عاش العبد يقول القانون "لا يُنتقم منه لأنه ماله" كما نص التشريع على أن «نفساً بنفس، وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ... الخ» (٢١ : ٢١- ٢٣ وما بعده) كما أن السيد الذي يتلف عين عبده يُعاقب بإطلاق سراح العبد وتحرير رقبته (٢١ : ٢٦). طبعاً هذه القواعد غير مقبولة في العصر الحديث، ليس فقط بسبب انتهاء العبودية والعبيد، ولكن لأن إحداث الضرر الجسماني يُعاقب جنائياً.

وتأمَّل كيف يقول القانون «إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يُرجم الثور ولا يؤكل لحمه. وأمَّا صاحب الثور فيكون بريئاً. ولكن إن كان ثوراً نطاحاً من قبل وقد أُشهِد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يقتل. إنْ وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه كل ما يوضع عليه» (خر ٢١ : ٢٨- ٣٠). وهنا تبرز مسألة في غاية الأهمية، ولعلها أول مرة تظهر فيها كلمة "فدية"، هذه الكلمة التي دار حولها جدل طويل.

الفدية حسب شريعة العهد القديم

كانت الفدية هي التعويض المناسب الذي يدفعه صاحب الثور النطاح الذي تم

تحذيره ولم يضبط ثوره وكانت العقوبة الواجبة هي قتل الثور وصاحبه حسب نص خروج ٢١ : ٢٩ «الثور يُرجم وصاحبه أيضاً يُقتل» ولكن القانون لم يقف عند هذه القاعدة، بل قدم قاعدةً بديلة إذ يقول بعد ذلك مباشرةً "إن وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه كل ما يوضع عليه". وهنا يتم تقدير العوض، أو حسبما نقول في اللغة العربية "الدِّية" والذي يقدر الفدية هو الطرف الذي وقع عليه الضرر. وقد توسع سفر الخروج في شرح أركان الفدية وقيمة التعويض، وهو موضوع شيِّق لأنه يكشف عن أهمية رد العوض أو الفدية في حالات معينة تتوفر فيها شروط الإهمال وعدم سماع التحذير من الخطر .. وكلها كما نرى خاصة بالآبار والغنم والثيران والعبيد ... الخ وهي أحكام خاصة بالحضارة الزراعية.

وتشمل الفدية أيضاً "فضة الكفارة" (خروج ٣٠ : ١١ – ١٦)، وهي نصف شاقل من الفضة يدفعها كل إنسان حسب نص سفر الخروج «ابن عشرين سنة فصاعداً يعطي تقدمة للرب» (خرو ٣٠ : ١٤) وهنا تدخل مع كلمة فدية كلمة أخرى "تقدِمة". وهذه الإضافة ذات دلالة سوف نراها بعد ذلك، لأن التقدِمة هي **تبرع**، ومع ذلك فهو تبرع وتقدِمة يحددها القانون ويؤكد القيمة المالية لها "نصف شاقل من الفضة" وكانت هذه الفضة تنفق لحفظ وصيانة خيمة الاجتماع (خروج ٣٠ : ١٦). ويذكر السفر أيضاً أنها «تذكاراً أمام الرب للتكفير عن نفوسكم» (خر ٣٠ : ١٦). وسوف نعود إلى هذه النقطة بالذات بعد ذلك.

ولكن يجب علينا الانتباه والحذر من خلط معنى الفدية والتكفير حسب القانون مع ما جاء في باقي أسفار العهد القديم التي لا تشرح القانون الموسوي وحتى الأسفار التي تعتبر بمثابة تشريع قانوني وهو سفر العدد، حيث يقول السفر عن جريمة القتل العمد «لا تأخذوا فديةً عن نفس القاتل المذنب للموت بل انه يُقتل .... لا تدنسوا الأرض التي أنتم فيها لأن الدم يدنس الأرض، وعن الأرض لا يكفر لأجل الدم الذي سفك فيها إلاَّ بدم سافكه. ولا تنجسوا الأرض التي أنتم مقيمون فيها التي أنا ساكن في وسطها. إني أنا الرب ساكن في وسط بني إسرائيل» (عد ٣٥ : ٢٩ – ٣٤).

فإذا كانت الفدية هي للتكفير، صار من الواضح أن التكفير أو فـداء الأرض هنا يتم بسفك دم القاتل نفسه. ومع أن سفك الدم يدنس الأرض إلاَّ أن سـفك دم القاتل يكفر عن الأرض وإلاَّ صارت الأرض نجسة. وهنـا يظهـر أن الـتكفير هو التطهير الذي يزيل نجاسة الأرض لأن ذلك إقرار لمبدأ العدل السابق الإشارة إليه وهو نفس بنفس، وعين بعين.

ويؤكد سفر صموئيل الأول معنى الفدية القـانوني، فبعـد أن شـاخ صـموئيل النبي وجاء إلى شعب إسرائيل وقال لهم: «اشهدوا عليَّ قدام الرب وقـدام مـسيحه (الملك) ثور مَن أخذت، حمار من أخذت، ومَن ظلمت ومَن سحقت، ومِن يد مَـن أخذت فديةً لأُغضي عينيَّ عنه فأرُد لكم» (١ صم ١٢ : ٣) وهكـذا لم يأخـذ الـنبي فديـة لكي يعوج الشريعة، بل سار بكل استقامة.

استحالة تقديم فدية للخلاص من الموت

يقول مزمور ٤٩ : ٧ـ٨ : «الأخ لن يفدي أخـاه (الإنـسان) فـداءً ولا يعطـي الله كفارة عنه. وكريمة (أو عزيزة) هي فدية نفوسهم فغَلِقَت إلى الـدهر» (أي اسـتحال تقديم الفدية) وذلك لأن فداء الإنسان بواسطة إنسان هو مستحيل بالمرة، ويـذكر ذات المزمور سبب ذلك إذ يقول بعد هذه الكلمات مباشرة عن الفادي «حتى يحيا إلى الأبد فلا يرى القـبر» (مزمـور ٤٩ : ٩). وهكـذا يـرى أليهـو في سـفر أيـوب إن الوسيط أو الشفيع قد يجد ما يقوم به من وساطة وشفاعة أمَّـا عنـد المـوت، فـإن شفاعة الوسيط عاجزة (أيوب ٣٣ : ٢٣) ذلك أن فدية الإنـسان مـن المـوت تعـني أن «يصير لحمه أغض من لحم الصبي ويعـود إلى أيـام شـبابه» (أيـوب ٣٣ : ٢٥). وهـذا مستحيل لأن الذي يستطيع أن يفدي من الموت هو الله وحده، ولذلك يختم أليهو كلامه عن الله في ذات الفصل ويقول: «أخطأت وعوجت المستقيم ولم أُجاز عليه. فدى نفسي من العبور إلى الحفرة فترى حياتي النور» (أيوب ٣٣ : ٢٧ – ٢٨).

لم يحاسب الله هذا الإنسان عن خطاياه، وهو الذي "عوج المستقيم" ومع ذلـك فداه من الحفرة ورأت حياته النور. ويؤكد أليهو بعد ذلك أن غضب الله لا يُرضـى

لأن الله لا يقبل عقد صفقات «عند غضبه لعله يقودك بصفقة، فكثرة الفدية لا تفكك» (أيوب ٣٦: ١٨) وهكذا يَظهر ليس فقط استحالة الفدية مهما كثرت، بل يَظهر بشكل واضح أن تقديم الفدية ليس فقط للتطهير كما ذكرنا، بل أيضاً للتحرير أو الفك. وهذا النص بالذات يملي علينا واجب دراسة ذلك التعبير العبراني: فك ـ يفك ـ فكاك. لأنه مرادف لأحد معاني كلمة فدية وكفارة وفداء حسب نصوص العهد القديم نفسه.

ولعلنا نلاحظ أن أشعياء يقول عن الله **"هو فكهم ورفعهم وحملهم"** ولكن كيف تم ذلك، يقول النبي «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم، بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم كل الأيام» (أش ٦٣: ٩) ويؤكد ذات المعنى أرميا النبي بقوله «اسمعوا كلمة الرب أيها الأُمم ... لأن الرب فدى يعقوب وفكه من يد الذي هو أقوى منه» (أر ٣١: ١٠-١١) وهكذا أطلق الرب سراح يعقوب الأسير وخلصه وفكه وفداه. هذه كلها معان مترادفة يعرفها كل الذين درسوا اللغات السامية. ويجئ ذات المعنى في قول المزمور «أنت الإله الصانع العجائب عرفت بين الشعوب قوتك **فككت بذراعك شعبك** بني يعقوب» (مز ٧٧: ١٤ - ١٥) والفك = الخلاص، ولذلك السبب عينه يقول ميخا النبي عن لسان الرب نفسه: «يا شعبي ماذا صنعت بك وبماذا أضجرتك اشهد عليَّ أنى أصعدتك من أرض مصر وفككتك من بيت العبودية وأرسلت أمامك موسى وهارون» (٦: ٣-٤)، ويقول النبي في المراثي ـ وهو النص الطويل الذي نقرأه بخشوع في الساعة الثانية عشر يوم الجمعة الكبيرة ونحن نستعد لدفن الرب والاحتفال بموته ودفنه ـ «قرضوا في الجب حياتي وألقوا عليَّ حجارة، طفت المياه فوق رأسي قلت قد انتهيت (قرضت) دعوت باسمك يارب من الجب الأسفل، لصوتي سمعت .. فككت حياتي» (مراثي ٣: ٥١-٥٨) وفك الحياة كما يقول أشعياء عن الصوم المقبول «فك عُقد النير إطلاق المسحوقين أحراراً» (أش ٥٨: ٦). ومرة أخرى يؤكد ذات المعنى قول المزمور (مزمور ٦٩: ١) عندما يصرخ الذي يغرق في مياه الموت، ويقول إلى الله «اقترب إلى نفسي. فكها. بسبب أعدائي افدني» (مزمور ٦٩: ١٨). ولدينا في العهد القديم سفر

كامل هو سفر راعوث يشرح ذلك المعنى وهو حق الفداء أو حق الفكاك حينما يتخلى "الولي" أو الفادي عن حق الفداء والفكاك إلى رجل نبيل هو بوعز «فقال الولي لا اقدر أن أفك لنفسي لئلا أفسد ميراثي. ففك أنت لنفسك فكاكي لأني لا أقدر أن أفك» ثم يقول السفر «وهذه هي العادة سابقة في إسرائيل في أمر الفكاك والمبادلة» (راعوث ٤ : ١-٧) ولذلك دفع بوعز ثمن الحقل، ودفع بوعز الثمن لنعمى ولراعوث. وصار حق الفكاك هو دفع فدية لإطلاق السراح والتحرير، وهو ما يقابل كلمة "الحِل" في اللغة الكنسية.

هل يدفع الله فدية عندما يفتدي شعبه؟

إذا كان القانون يحدد العوض وحتمية الفداء حسب نوع الضرر وحسب ظروف الضرر نفسه كما مر بنا في سفري الخروج والعدد، فما هو موقف القانون من الله نفسه الذي وضع القانون وحدد ـ حسب الضرر ـ قيمة الفدية مثل "فضة الكفارة" التي كانت تنفق على احتياجات وصيانة خيمة الاجتماع ؟

والإجابة على هذا السؤال يجب أن تأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

أولاً: أن الله لا يتسبب في أذية الإنسان أي أنه ليس هو المعتدي المحتاج لأنْ يدفع فدية للإنسان. هذا غير معروف في الكتاب المقدس كله ولا في تاريخ اليهودية أو المسيحية.

ثانياً: إنَّ الإنسان هو الذي يعتدي، وهنا تظهر مسألتين كل منهما في غاية الدقة:

المسألة الأولى هي أن الإنسان يعتدي على أخيه الإنسان ويصبح الله هو الفادي أو الولي الذي يفك ويفدي الأسرى والمنبوذين والمسبيين ويطلق سراحهم، ولذلك يقول المزمور «أرسل فداءً لشعبه. أقام عهده إلى الأبد» (مز ١١١ : ١٠) ويقول المزمور أيضاً «ليَرجُ إسرائيل الرب لأن عند الرب الرحمة وعنده فدى كثير. وهو يفدي إسرائيل من كل آثامه» (مزمور ١٣٠ : ٧-٨) ونظراً لذلك **لم يستخدم العهد القديم الاسم "فدية" في الكلام عن خلاص وفداء الله، بل استخدم الفعل دائماً، وأطلق اسم الفاعل أي الفادي على**

الله نفسه « إنما الله يفدي نفسي» (مزمور ٤٩ : ١٥). وعن الملك ـ الرمز للمسيح الآتي ـ يقول المزمور «من الظلم والخطف يفدي نفسي ويكرم دمهم في عينيه» (٧٢ : ١٤) ويتغنى داود الملك ويقول عن الله «باركي يا نفسي الرب. الذي يغفر ... الذي يفدي من الحفرة حياتك» (١٠٣ : ١-٥) ويقول الله إنه رغم خطايا إسرائيل «ويل لهم لأنهم هربوا عني تباً لهم لأنهم أذنبوا إليَّ»، ومع ذلك يقول الله «أنا أفديهم» (هوشع ٧ : ١٣).

وعن عمل الفادي ربنا يسوع يقول هوشع كلمات سوف يرددها الرسول بولس بعد ذلك «من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلصهم. أين أوباؤُك يا موت أين شوكتك يا هاوية» (هو ١٣ : ١٤).

ولأن الله هو القادر على أن يخلص الأسرى يقول المزمور «افدني من ظلم الإنسان» (مز ١١٩ : ١٣٤). ولذلك السبب صار لقب الله في نبوة أشعياء "الفادي" حيث وردت على الأقل ٧ مرات حيث يفدي الرب إسرائيل (٤١ : ١٤ - ٤٨ : ١٧ - ٤٣ : ١٤) ولأن المزمور يقول «الرب فادي نفوس عبيده» (مز ٤٤ : ١٣) تعذَّر علينا أن نقول إن الله يدفع فدية لكي يخلص المأسورين.

وتبقى **المسألة الثانية** هل يدفع الإنسان فدية إلى الله نفسه؟

لقد رأينا كيف يدفع الإنسان فدية إلى إنسان آخر، ولكن هل يدفع الإنسانُ فديةً إلى الله؟ لعل أول ما يخطر على فكر القارئ هو أَن ذبائح العهد القديم هي الفدية، وهو موضوع سوف يدرس بكل عناية [1]، ولكن على الرغم من الصلة اللغوية الوثيقة الارتباط بين الفدية والكفارة كما رأينا في النصوص القانونية السابقة، فإن معنى "الكفارة" يسود على معنى "الفدية" ويصبح المعنى هو "التطهير"، وهو المعنى السائد في الأسفار التي تذكر الذبائح، ويحل التطهير محل "الفدية" و "الدفع" و "الثمن" نظراً لأن الذي يسند معنى الكفارة ليس التطهير وحده، وإنما "التقدِمة" وهي الاسم الذي يطلق على الذبائح الحيوانية، والبخور وتقدمة خبز

[1] انظر فصل: الصليب وذبائح العهد القديم في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي.

الوجوه، والمعادن مثل الـذهب والفـضة كمـا في (خـروج ٢٥ : ١-٢)، وتـصبح الفديـة أو "فضة الكفارة" وهي تقدمة للرب للتكفير (خروج ٣٠ : ١٥).

يقول سفر اللاويين «وإذا قرب أحدٌ قربان تقدمة للرب يكون قربانه من دقيق ويسكب عليها زيتاً ويجعل عليها لباناً ويأتي بها إلى بني هارون .. ويوقد الكـاهن تـذكارها علـى المـذبح وقـود رائحـة سـرور للـرب» (لا ٢ : ١-٣) ويـشرح الـسفر التقدمات والقرابين غير الدموية مثل تقدمة الفريك. أمَّا القربان ـ وهو من ذات الفعل "يُقرِّب" ـ فهو اسمٌ يطلق على ذبيحة السلامة "وإن كان قربانـه ذبيحـة سلامةٍ فإن قرَّب من البقر .... يضع يده على رأس قربانه ويذبحه لدى باب خيمـة الاجتماع (لا ٣ : ١-٥). ومن هنا جـاء الاسـم "قربـان" أي تقدمـة، وقـد حرصـت الترجمة العربية على استعمال الفعل "يُقرب" (لا ٤ : ٣)، وصـار المـرادف لكلمـة "تقدمة" هو "قربان" و"ذبيحة" وهـي المرادفـات الـتي سـنراها بعـد ذلـك في طقوس وليتورجيات الكنائس الشرقية الأرثوذكسية. وكان الكاهن هـو المقـصود بـ"يكفر عنهم الكاهن" (لا ٤ : ٢٠). على أنه إذا تعذَّر تقديم ذبيحـة دمويـة، فـإن سفر اللاويين نفسه يقول "يأتي بقربانه عما أخطـأ بـه عُـشر الأيفـة مـن دقيـق "قربان خطية". «لا يضع عليه زيتاً ولا يجعل عليه لباناً لأنه قربان خطية .. فيكفر عنه الكاهن من خطيته» (لا ٥ : ١١-١٣) ونظراً لاشتراك كـل هـذه في اسـم واحـد، وهو التقدمة أو القربان سواء أكان **من الدقيق أو الحيوانات،** فليس سفك الـدم وحده هو سبيل المغفرة، ولذلك يقول الرسول بولس «وكل شـيء **تقريبـاً** يتطهـر بالدم لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب ٩ : ٢٢)، فهو يدرك كيهـودي آمـن بالإنجيل أن تقدمات الدقيق لها ذات عمل الذبائح الحيوانية. ولكي يتأكد القـارئ أن المترادفات تجعل اسم معين يحل محل اسم آخـر مـرادف دون أن يـتغير المعنـى، نقدم له هذه النصوص: «يستجيب لك الرب .. ليذكر كل تقدماتك ويستـسمن محرقاتك» (مز ٢٠ : ١-٣) ويقول هوشع «أمَّا ذبائح تقدماتي فيذبحون لحمـاً ويـأكلون» (هوشع ٨ : ١٣). وعندما يحل "التقـديم" و "التقريـب" محـل "الـذبح"، ويـصبح مرادفاً له يظهر المعنى الواضح أن هـذه كلـها قـرابين تقـدم بحريـة اختيـار. وقـد

أدركت الدسقولية هذه الحقيقة فقالت أن الله لم يأمر بتقديم الـذبائح والقـرابين، ولكن إسرائيل هو الذي طلب هذا. ويسند هذا التفسير القـديس يوحنـا ذهـبي الفم، بل العهد القديم نفسه إذ يقول المزمور «كثيراً ما جعلت أنت أيهـا الـرب عجائبك وأفكارك من جهتنا لا تقوم لديك .. بذبيحـة وتقدمـة لم تُـسَّر .. محرقـة وذبيحة خطية لم تطلب ..» (مز ٤٠ : ٥-٦). ويقول مزمـور ٥١ الـذي نفتـتح بـه كـل صلاة من صلوات السواعي «لأنك لا تسر بذبيحة وإلاَّ فكنت أقدمها، بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله هي روح منكسرة» (٥١ : ١٦-١٧). ولاحظ أنه قال **"ذبائح"** مؤكداً بذلك كل أنواع الذبائح. ويقول الله نفسه على لسان أشعياء النبي وهـو يـصف إسرائيل بأنه شعب سدوم وعمورة «لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الـرب. أتخمـت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر. حينمـا تأتون لتظهروا أمامي، مَن طلب هذا من أيديكم .. البخـور هـو مكرهـة لـي ..» (أش ١ : ١٠-١٤)، ولذلك يطلب النبي التوبة وطهارة القلب «تعلَّمـوا فعـل الخـير، اطلبوا الحق ..» (أش ١ : ١٦-٢٠) وسـوف يطهـر الـرب مـن الخطايـا بـدون ذبـائح ويصفح بالتوبة. وبالتوبة بدون ذبائح، لأن القلب التائب هـو أعظـم ذبـائح الله حسب عبارة المزمور السابقة. ويعاتب الرب إسرائيل على لسان النبي مؤكـداً أن كل الخليقة هي ملك لله. «كل هذه صنعتها يدي فكانت كـل هـذه يقـول الـرب، وإلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامـي». وبعـد ذلـك يعلن الله رفضه للذبائح ويقول «مَن يذبح ثوراً فهو قاتل إنسان. مَن يـذبح شـاةً فهو ناحر كلب. مَن يصعد تقدمة يصعد دم خنزير ..» (أش ١٦ : ١-٤) وطبعاً تقديم الحيوانات المذكورة الكلب والخنزير هو أمر غير جائز، أمَّا كلمـات الله «مَـن يـذبح ثوراً فهو قاتل إنسان»، فهو كلامٌ عنيف يؤكد أن الذبيحة تحولـت إلى جريمـة وخطيـة وشر لأن «ذبـائح القلـوب المنكـسرة» (مـز ٥١ : ١٦) «وذبـائح الحمـد» (مـز ١١٦ : ٧) ورفـع اليدين للصلاة هي الـذبائح المطلوبـة (مـز ١٤١ : ٢). ونكتفـي بكلمـات سـفر الأمثـال «فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة» (أم ٢١ : ٣).

وخلاصة هذا الكلام كله أن الذبائح هي تقدمة اختيارية، هي قربان وتقدمـة لـيس

من الضروري أن تكون دموية، بل الدقيق يحل محل الذبائح الدموية. والله يفضل القلب التائب والروح المنكسرة، فلو كانت الذبائح بهذه الأهمية لما تجاسر الأنبياء على لفظ كلمة واحدة ضدها. ولو كانت الذبائح هي وسيلة الغفران الوحيدة التي طلبها الرب لما قال الرب نفسه أنه يُسَّر بالقلب المنكسر ... هذا يجب أن يعيد إلينا الحذر الشديد من أن نفرض على الله نفسه ما سبق ورفضه حسب كلمات المزمور «ذبيحة خطية لم تطلب» (مز ٤٠ : ٦)، لأن «ذابح الحمد يمجدني» (مز ٥٠ : ٢٣) ولاحظ أيها القارئ إن « ذبح الحمد »أي التسبيح يمجد الله، بينما لم يذكر العهد القديم أن الذبائح الحيوانية هي تمجيد لله، لأن ذبائح القلب أعظم بكثير.

الكفَّــارة

الأصل اللغوي لكلمة "كفَّارة" في اللغات السامية، وفي الكتاب المقدس

الفعل "كَفَّرَ" Kpr في العبرانية يعني يُغطِّي، يدهِن، يفدي، يرضي، يجدِّد. وأصل الفعل العبراني مأخوذٌ مِن اللغة الأكادية التي كان يتكلم بها إبراهيم أب الآباء، وفي الأكادية Kaparu أي يمسح، أو يدهِن [1]. ويؤكِّد عُلماء اللغات الساميِّة دخول الفعل الأكادي اللغة العربية. ويعني في العربية: يُغطِّي، ومنه جاء الفعل كَفَرَ، أي ينكر أو يجحد أو يرفض الإيمان، ومنه جاء الإسم كافِر [2]. وذلك حسب دراسة أساتذة اللغات الساميِّة مثل *Levine* وأيضاً *Janowski*. الفعل في كافة اللغات السامية.

وحسب الترجمة اليونانية للعهد القديم المعروفة بـ "السبعينية" كلمة كفَّارة هي باليونانية: *Ηιλασμος Hilasmos* ومِن الترجمة اللاتينية تحوَّلت كلمة كفَّارة في اللغة الإنجليزية إلى:

Atonement, Atoning, Sacrifice, Expiation, Propitiation.

ويرجع عجز اللُغات الأُوروبية ـ مثل الإنجليزية ـ عن التعبير عن معنى الكفَّارة في كلمة واحدة إلى تنوع معنى الكلمة اليونانية الواحدة إلى عدة معانٍ في اللغة اللاتينية، لُغة القانون في الإمبراطورية الرومانية، حيث يسود المعنى القانوني، فقد تُرجمت الكلمة اليونانية إلى:

Deprecatio, Exoratio, Placatio, Propitiatio.

---

(1) Dictionary of OT Theology and Exegesis Vol. 2: p689.

(2) E.W. Lane, Arabic - English Lexicon vol z, p2620.

وهذه كلها كلماتٌ تُعبِّر عن الترضية، ودفع الثمن، والغرامة، والفدية. ويسود معنى الترضية على كل المعاني الأُخرى التي لا تعرفها العبرانية إلاَّ في الغرامات والتعويضات الخاصة بجرائم البشر ضد البشر.

١ـ استخدام الفعل"Ιλασκεστηαι" "Hilaskesthai" أي "يُكَفِّر"

حسب النص العبراني ورد الفعل **"يُكفِّر"**، ومشتقاته حوالي ١٠٢ مرة، وهذه بعض نماذج استخدام الفعل:

- يدهِن، أو يُطلي (تكوين ٦ : ١٤) عندما دهن نوح الفلك بالقار.
- كما ورد حوالي ٩٢ مرة بالمعنى الشائع الخاص بتقديم الذبائح حسب الشريعة للتكفِّير.

والفعل يُكفِّر يعني أحياناً طلب الرحمة حسب نص صلاة العشار في لوقا ١٨ : ١٣ «اللهم ارحمني أنا الخاطئ»، ونفس الفعل استُخدِّم في العبرانيين (٢١ : ١٧)، «لكي يكون رحيماً أميناً، ويُكفِّر خطايا الشعب»، والجدير بالذكر إنَّ غطاء كرسي تابوت العهد كان يُسمَّى «كُرسِّي الرحمة»، وهو في الترجمة السبعينية كُرسِّي الكفَّارة "ιλαστεριον" "Hilasterion " وهو ذاته الذي وُصِفَ بالغطاء في (عب ٩ : ٥). هذا مثالٌ ينفي عن هذا الفعل فكرة دفع الثمن؛ لأن الرحمة تنفي فكرة الدفع.

٢ـ كلمة "كفَّارة" أو"فدية" كاسم

يعني الاسم أحد المعاني الآتية:

١ـ أحياناً الرِّشوة، إذ يقول النبي صموئيل «هاأنذا فاشهدوا عليَّ .. ومِن يد مَنْ أخذتُ فديةً (رِشوةً) لأُغضي عينيَّ عنه» (١ صم ١٢ : ٣ – أمثل ٦ : ٣٥ – عاموس ٥ : ١٢)

٢ـ واستُعمِل في دفع المال للفداء وللتعويض كما في (خر٢١ : ٣٠ – خر٣٠ : ٢٢ – عد٣٥ : ٣١)

٣ـ ومِن الفعل والاسم جاءت تسمية غطاء تابوت العهد "Kapporet" حوالي ٢٦ مرة في الكلام على غطاء التابوت مثل (خروج ٢٥ : ١٧).

ووردت كلمة الكفَّارة كاسم أربعُ مراتٍ في العهد الجديد:

١ـ (رو ٣ : ٢٤-٢٥) والذي قَدَّمَ الكفَّارة هنا هو الآب، وليس الابن «متبررين مجاناً بالفداء بنعمته، الذي بيسوع المسيح الذي قَدَّمه الله الآب كفَّارة بالإيمان بدمه»، وهذا ينزع عن هذه الكلمة كل المعاني التي يحاول غير المتعلمين وغير الدارسين أنْ يلصقوها بموت الرب كترضيةٍ لغضب الآب؛ لأنَّ الذي قَدَّمَ الكفَّارة هنا هو الآب، والتقدِمة هي لنا ولأجلنا.

٢ـ والمرة الثانية في (عب ٩ : ٥) "وفوقه كروبا المجد مُظللين الغطاء.أشياءٌ ليس لنا الآن أنْ نتكلم عنها بالتفصيل"، وهي اسم كُرسِّي أو غطاء تابوت العهد كما سبق وأشرنا.

٣ـ والمرة الثالثة في (رسالة يوحنا الأولى ٢ : ٢) «وهو كفَّارةٌ لخطايانا [1]،ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً»، الرب يسوع هو ذاته الكفَّارة، واستخدام الإسم هنا يمنع تماماً أي تصور بأنَّ المسيح قَدَّمَ كفَّارةً؛ لأنَّه هو ذاته بشخصهِ الكفَّارة، ولا يوجد أي مجالٍ للكلام عن تقدِمة كفَّارة للآب طالما أنَّ الشخص ذاته هو الكفَّارة.

٤ـ ومرة رابعة في نفس الرسالة (٤ : ١٠) يقول الرسول صراحةً ـ وهي صراحةٌ نرجو أنْ يتوقف عندها كل الذين يحاولون إعادتنا للعصر الوسيط ـ "بهذا أُظهرت محبة الله فينا، إنَّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم **لكي نحيا به**، وفي هذا هي المحبة، ليس أننا نحن **أحببنا الله، بل إنَّه هو أحبنا وأرسل ابنه "كفَّارةً لخطايانا"**. هنا أرسل الآب ابنه كفَّارةً، ويشرح الرسول ذلك مِن خلال النقاط التالية:

أـ لكي نحيا به.

ب ـ هذه هي المحبة عندما نحيا به.

ج ـ إرسالية الآب للابن الوحيد ليكون كفَّارة.

---

[1] النص هنا مثل النص السابق: "يبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مر ١٠ : ٤٥)، واعتبار الرب نفسه هو الفدية قريب جداً من معنى ١يوحنا ٢ : ٢.

فأين ترى سيدي القارئ الغضب والانتقام وما إليه مِن تعبيراتٍ سياسيةٍ وقانونيةٍ تُقال عن ضرورة تقدِّيس العقوبة والغضب لكي ينال صاحب السلطة ما يرضيه.

المناسبات التي كفَّر الله فيها عن الشعب

المناسبة الأُولى: وهي خاصةٌ بجريمةِ قتلٍ، ولم يُعرَف القاتل، يقدِّم شيوخ المدينة القريبة مِن جثة القتيل **"عجلةً مِن البقر"** (تث ٢١: ٣)، ثم يكسرون عنق العجلة في مكان القتيل، ثم يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبة مِن القتيل أيديهم، ويقولون «أغفر يا رب لشعبك». وحسب النص العبراني «افدي، أو كفِّر يا رب عن شعبك الذي فديت»، فالله هو الذي يقدِّم الفداء أو الكفَّارة عن الشعب (تث ٨: ٨).

المناسبة الثانية: وهي خاصةٌ بأكل الفصح في زمن مُلك حزقيا، حيث يُصلي الملك حزقيا ـ ودون تقديم فدية أو كفَّارة ـ يقول: «الرب الصالح يُكفِّر عن كل مَنْ هيأ قلبه لطلب الله .. فسمع الرب لحزقيا» (٢ أخبار ٣٠: ١٩). ولم يُكفِّر الرب بتقديم فديةٍ أو كفَّارةٍ، بل كانت صلاة حزقيا تكفي لطلب كفَّارة مِن الله، فلم يقدِّم ذبيحة.

وفي المناسبة الثالثة، ورغم أنَّ الترجمة العربية الحديثة ترجمت الفعل إلى **"يغفر"** إلاَّ أنْ النص واضحٌ، إذ يقول الله على لسان حزقيال النبي بعد تأديب إسرائيل «**أُذكر** عهدي معك في أيام صباك حيث أُكفِّر (أغفر) لك كل ما فعلت» (حزقيال ١٦: ٦٣)، ويقول المزمور «معاصينا، أنت تُكفِّر عنها» (٦٥: ٣)، وراجع أيضاً التكفِّير عن الخطايا كما ورد في (مزمور ٨٧: ٣٨ - ٧٩: ٩). ولاحِظ أنَّ الترجمة العربية تستخدم الفعل يغفر بدلاً مِن يُكفِّر، وكذلك ورد الفعل في العربية **"يمحو"**، أو **"يمسح"** حسب الأصل الأكادي، أو يُكفِّر في العبرانية في (أرميا ١٨: ٢٣).

فِضَة الكفَّارة، أو الفدية

فضة الكفَّارة "Kippurum" (خروج ٣٠: ١١-١٦) وحسب الترجمة العربية الحديثة **"فديةُ نفسٍ"**، هي ليست غرامة أو عِوَض، بل حسب نفس النص هي **"تقدِمةٌ للرب"**، وهي **"تذكارٌ أمام الرب"** (خروج ٣٠: ١٦)، ولذلك فهي ليست **"عِوَضاً"**،

بل تقدِمةً تفدي البِكر مِن مسئولية خدمة الهيكل، وهي لذلك لا علاقـة لهـا بـالمرة بالخطية. فدية لا تمس موضوع الخطية بالمرة.

الفدية في الشريعة، وجريمة القتل أو سفك الدم

أشرنا سابقاً إلى أنه بحسب سفر العدد (٣٥ : ٢٩-٣٤)، فإن القاتل عمـداً يجب أنْ يُقتَل ولا يجوز تقدِّيم **"فديةً عن نفس القاتل"**، بل يجب أنْ يُقتَل. وهنا نؤكـد علـى أنه يجب علينا الاحتراس التـام مِـن العـودة إلى نـصوص العهـد القـديم، لـشرح الكفَّارة أو الفدية؛ لأنَّ الفديةَ تُقدَّم عن **الخطايا غير المُتَعَمَّدة**، أي خطايـا **"الـسهو"**، أمَّا خطايا الإرادة والإصرار فهي بلا فداء. وهكذا تقول الشريعة **"لا تأخـذوا فديـة عن نفس القاتل"**، والسبب هو أنَّ «الدم يـدنِّس الأرض، وعـن الأرض لا يكفَّـر لأجل الدم الذي سُفِكَ فيها إلاَّ بدم سافكه» (٣٥ : ٣٣)، وكمـا سـنرى، فـإنَّ الـتكفِّير عن الأرض بقتل القاتل يعني **"تطهير الأرض"**، وهو ذات المعنى الذي نـراه في (لا ١٥ : ٣١) وهذا التطهير بواسطة الذبائح سوف يُصبِح المعنى الغالـب بعـد ذلـك في العهد الجديد مع مراعاة أنَّ العهد الجديد لا يميِّز بين خطايا الـسهو وخطايـا الإرادة، بل يتكلم عن الخطية بشكل عام.

سفك الدم كفديةٍ، أو كفَّارةٍ

حسب تكوين (١ : ٢٠-٢١، ٢٤) وغيره مِن نصوص العهد القديم، الحيوانـات لها نفس nephesh وحسب (لاويين ١٧ : ١١) نفس الحيوانـات في الـدم، ولـذلك يقول النص العبراني «الدم يُكفِّر عن النَّفس» (١٧ : ١١)، فما هو دور الدم بـشكل خاص في الذبائح الحيوانية، مع ملاحظة أنَّ الذبائح الحيوانية ليست وحدها هـي وسيلة التكفير، بل تقدِمة الدقيق لَمن لا يملك تقدِّيم ذبيحة حيوانية؟

يقول سفر التكوين (٩ : ٣) إنَّ لحم الحيوانات أُعطـي للأكـل، وبـالرغم مِـن غرابة التركيب اللغوي للجملة، إلاَّ أنَّ الترجمة العربية الحديثـة، هـي أقـرب إلى النص العبراني مِن الترجمات الأُوروبية، حيث تقول: «غير أنَّ لحماً بحياتـه دمـه لا تأكلوه» (تـك ٩ : ٤). واضح هنا أنَّ الدم = الحيـاة، ولـذلك لا يجـب أنْ نخلـط بـين

سفك الدم للقتل، وسفك الدم الذي يُعبِّر عنه العهد القديم دائماً بالفعل الخاص بالذبائح، وهو مثل الفعل العربي **"يذبح"** لأنَّ **"القتل"** ليس مثل **"الذبح"**، فهو تقدِمة حياةٍ عن حياة، لا تقدِمة موتٍ عن موت، وهذا نراه بكل وضوحٍ مِن معاني كلمة دم.

معاني كلمة "الدَّم"

كلمة **"الدِّم"** هي كلمة عامة في كل اللغات الساميِّة، وردت في العهد القديم حوالي ٣٦٠ مرة، إلاَّ أنَّ أغلب استعمالاتها هي للقتل، أو سفك الدم كما في هوشع (٤ : ٢). ويصف شمعي بن جيرا الملكَ بأنَّه «رجل أو إنسان دم Ish damim» (٢صم ١٦ : ٧ - مز ٥ : ٦). وقتل شمعي وُصِفَ بأنَّه سوف ينزل إلى القبر أو الهاوية بشعره الأشيَب بالدم (١ ملوك ٢ : ٩ راجع ١ ملوك ٢ : ٤٦)، بمعني أنه سيُقتَل. ولا يعرف العهد القديم، التعبير الأُوروبي **"صِلةُ الدَّم"**، أي صِلة القُربَى؛ لأنَّ الشائع في العهد القديم، هو صِلة اللحم والعظم، وأفضل مثال هو تكوين (٢ : ٢٣ - ٩ : ٢).

١ـ الدَّم هبةُ حياةٍ تُقدِّس الكاهن والمذبح

حسب الشريعة الموسوية كان تطهِّير الأبرص يتم بالدهن بالزيت والدَّم (لاويين ١٤ : ٦-٢٠)، وكان المذبح والكاهن يُقدَّس بالدم. ويقول سفر اللاويين إنَّ موسى «أخذ الدم .. وطهَّر المذبح، ثم صب الدم إلى أسفل المذبح **وقدَّسه تكفيراً عنه**»، وبعد ذلك مسح هارون وأولاده بالدم على إبهام اليد اليُمنى وإبهام الرِجل اليُمنى [1]، كما نضح على ثياب هارون. والتقديس بالدم هو ذاته المقصود بالتكفير، أي التخصيص لخدمة الله. فالدم يُقدِّس، والكفَّارةُ هنا تقدِّيسٌ كما هو واضح.

٢ـ الدم هو هبة وعلامة العهد

مِن التعبيرات الهامة في العهد القديم تعبير **"دمُ العهد"**، وهو الدم الذي جعل

(١) ومِن هذه الممارسة يدخل الكاهن القبطي الهيكل بالرجل اليمنى مؤكداً أنَّه نال **طقس التكفير عنه**. كما ورد في بعض المخطوطات، التي لم تُحقَق بعد، ضرورة رشم الصليب بإصبع الإبهام، ولكن لزم نشرها مِن أجل الباحثين في تاريخ الطقس القبطي.

الشعب مُقدَّساً لله (خر ٢٤ : ٦-٨ زك ٩ : ١١). والعهد هنا هو علامة عهد حياة، لأنَّ العهد لا يقوم بعلامة موت.

٣ـ دم العبور أو دم البصخة

عَبَرَ ملاك الموت أمام أبواب البيوت التي مُسِحَت بالدم «ويكون لكم الدم علامةٌ على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبُر عنكم [1]، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب الأرض» (خروج ١٢ : ٧، ١٣)، وهكذا جاء الدم فديةً، أي وقايةً مِن الموت، وحمايةً مِن الهلاك. وجاء الفداء بمعنى الخلاص من الموت.

٤ـ الدم يُطهِّر خيمة الاجتماع، وكل ما فيها

وحسب نص سفر اللاويين (ص ١٦) كان الدم الذي يُسفَك في يوم الكفَّارة يُكفِّر عن القدس، وخيمة الاجتماع، ويُقدِّس المذبح ويُكفِّر عنه، ويُكفِّر عن بني إسرائيل. ويقول السِّفر نفسه «لأنَّه في هذا اليوم يُكفَّر عنكم لتطهيركم مِن جميع خطاياكم أمام الرب، تطهرون» (١٦ : ٣٠).

الموت نجاسةٌ حسب شريعة العهد القديم:

حسب شريعة العهد القديم، كان الموتُ نجاسةً. وكان مَنْ يلمَس جثة إنسان ميت، أو حيوان ميت، يُعتَبَرُ نجِساً (راجع شريعة التطهير الخاصة بالنجاسة في الإصحاح الخامس مِن سِّفر اللاويين)، وبالتالي كان مِن المستحيل أنْ تطلب الشريعة تقديم الموت لله؛ لأنَّ الموت نجاسةٌ، وذلك لأنَّ الموت هو عدم حياة. ولنفس السبب يتعذر علينا أنْ نتصور أنَّ تعبير **"دم العهد"**، هو تعبيرٌ يطابق **"موت العهد"**. وأوضح مثال على أنَّ **الدم** = **حياة** هو النَّص المشهور «إله السلام الذي أقام مِن الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع **بدم العهد الأبدي** عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه، يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الآبدين» (عب ١٣ : ٢٠-٢١). ودم العهد الأبدي **اكتسب** هذه الصفة، أي صفة الحياة الأبدية

---

[1] راجع قراءة الساعة الحادية عشر من يوم الجمعة العظيمة من سفر الخروج صـ١٢: **"فأرى الدم وأستر عليكم"**.

بقيامة الرب مِن بين الأموات، ولأنَّ الدم من حياة الابن المتجسد.

وإذا كان الموت نجِساً، وسفك دم البشر يدنِّس الأرض (مز ١٠٦ : ٣٨ مع عـد ٣٥ : ٣٣)، حتى أنَّ الله نفسه يوصف بأنَّه هو **"وليُّ الـدم"** goel el hadam (لاحـظ إنَّ الترجمـة العربية الحديثة لم تُدرِك معنى الكلمة العبرانية goel فترجمتها إلى كلمة **"منـتقِم"**، راجـع تث ٣٢ : ٤٣، ٢ ملوك ٩ : ٧، مزمـور ٩ : ١٢). فـالله لا يقبَـل ولا يرضـى بـسفك الـدم، وبالتالي لا يمكن اعتبار سفك الدم الذي يؤدي إلى الموت عملاً مقبولاً فيه خلاص الإنسان، بل إنَّ سفك الدم وتقديم هبةُ حياةٍ للخطـاة هـو العمـل الرمـزي الـذي لأجله أُسِّست ذبائح العهد القديم إلى أنْ تجئ الذبيحة الأعظـم الـتي، كمـا يقـول القدَّاس الإلهي **"لـيس حولهـا بِـرُّ النـاموس"**، وتُعطـي الحيـاة الأبديـة. ولعلـه مِـن المناسب أنْ نشير إلى أنَّ الدمَ هبةُ حياةٍ خاصةٍ بخالق الحياة، لذلك فهو لا يؤكـل مـع اللحم (تك ٩ : ٤ – لا ٣ : ١٧ – تث ١٢ : ١٦ – حزقيال ٣٣ : ٢٥).

الكفَّارة "تطهيرٌ" للخطايا، وليست ثمناً يُقَدَّم لله الآب

التكفيرُ هو تطهيرٌ حسب نصوص العهد القديم في العبرانية، وفي اليونانية. فقـد حَفِظَـت الترجمـة اليونانيـة للعهـد القـديم الفعـل"Καθεριζειν" "Katherizein" لترجمة الفعل العبراني "Kipper". وحتى لا يتـوه القـارئ بـين هذه اللغات، نؤكِّد له أنَّ الترجمة العربية قـد حَفِظَـت لنـا المعنـى العبرانـي، أي التطهير، مع الأخذ في الاعتبار إنَّ التكفير هنا يشمل أشياءً ليـست مِـن طبعهـا، ولا في قدرتها الخطأ؛ لأنَّها غير عاقلةٍ وذلك:

كالتكفير عن (أو تطهـير) المـذبح: «وتُطهِّـر المـذبح بـتكفيرك عليـه، وتمـسحه لتقدِّيسه، سبعةُ أيامٍ تُكفِّر عن المذبح وتُقدِّسه، فيكون المذبحُ قُدسُ أقـداسٍ، كـل ما مس المذبح يكونُ مُقدَّساً» (خروج ٢٩ : ٣٦–٣٧)

والتكفير عن القُدس:«ثم يأخـذ مِـن دم الثـور وينـضح بإصـبعه علـى وجـه الغطاء إلى الشرق،.وقُدَّام الغطَّاء ينضح سبع مرات مِن الدم بإصـبعه، ثـم يـذبح تيس الخطية الذي للشعب، ويدخل بدمه إلى داخل الحجـاب ويفعـل بدمـه كمـا

فعل بدم الثور ينضحه على الغطاء وقدام الغطاء» (لاويين ١٦ : ١٤ ، ١٥).

والتكفير عن خيمة الاجتماع: «فيُكفِّر عن القدس مِن نجاسات بني إسرائيل ومِن سيّآتهم مع كل خطاياهم،.وهكذا يفعل لخيمة الاجتماع القائمة بينهم في وسط نجاساتهم» (لاويين ١٦ : ١٦).

والتكفير عن المذبح:«ثم يخرج إلى المذبح الذي أمام الرب، ويُكفِّر عنه،.يأخذ مِن دم الثور، ومِن دم التيس، ويجعل على قرون المذبح مستديراً، وينضح عليه مِن الدم بإصبعه سبع مراتٍ، ويطهِّره ويقدِّسه مِن نجاسات بني إسرائيل، ومتي فرغ مِن التكفير عن القُدس، وعن خيمة الاجتماع، وعن المذبح، يُقَدِّم التيس الحي» (لا ١٦ : ١٨ – ٢٠).

وكما أنَّه لا يجوز أنْ نجتهد بالرأي، طالما إنَّ النصَ قاطعٌ، فقد حَفِظَ لنا سفر اللاويين المعنى العبراني القديم إذ يقول عن يوم الكفَّارة:«في هذا اليوم يُكفَّر عنكم لتطهيركم مِن جميع خطاياكم، أمام الرب تطهرون» (لا ١٦ : ٣٠).إذن الكفَّارة تطهيرٌ.

وفي نصوص العهد الجديد يقول الرسول عن المسيح: «الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته بعدما صنع بنفسه تطهيرا لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب١ :٣) وأيضاً: «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروحٍ أزليٍ قدَّم نفسه لله بلا عيبٍ، يُطهِّر ضمائركم» (عب٩ : ١٤). وهو ذات المعنى الذي نراه في (١ يوحنا ١ :٧) «دم يسوع المسيح يُطهِّرنا مِن كل خطية» هكذا جاء الإبن كفَّارة لكي يُطهِّرنا بالدم.

وبالطبع، فهذه الحقيقة لا تغيب عن أي قارئ يقارن النصوص المقدسة مع بعضها. وما يُزاد على كلمات الأسفار المُقدَّسة إنما هو فقط اجتهادٌ شخصيٌ لا يحاسب عليه أي إنسان إلاَّ إذا أدَّى هذا الاجتهاد إلى إنكار الإيمان، أو دحض العقيدة، ولكننا نعتقد أنَّ الذين تجاوزوا أصول التعليم الأُرثوذكسي، إنما عن جهلٍ، وحُسن نيةٍ فعلوا.

الكفَّارة "تطهيرٌ" حسب صلوات الليتورجية القبطية الأُرثوذكسية

وردت الكلمة **"طهارة"**، والفعل **"يُطهِّر"** في القُدَّاس الباسيلي حوالي ١٥ مرة. ولم تذكُّر القُدَّاسات كلمة **"كفَّارة"**، ليس لأنَّها كلمة عبرانية الأصل، بل لأنَّ هذه القُدَّاسات وصلتنا مِن الإسكندرية باللغة اليونانية، وباللغة القبطية التي اعتمدت على الترجمة اليونانية للعهد القديم، وكتابات الآباء، حيث الطهارة والتطهير هي الكفارة والفداء. وهكذا نرى في القداس الغريغوري: **"أنت هو طُهر العالم كله .."**

وأيضاً في القُدَّاس الباسيلي، وهذه أمثلةٌ يعرفها كل قارئ

"طهِّرنا، حاللنا"

"طهِّر قلوبنا" ـ "طهِّر شفاهنا"

"نتناول مِن قُدْساتك طهارةً لأنفسنا".

ونحن نتطهَّر فعلاً بدمِ المسيح في الإفخارستيا الذي يُعطى لنا لكي يُطهِّر قلوبنا، ولم يُعطَ للآب ثمناً؛ لأنَّ الثمن إذا دُفِعَ لله لا يمكن أنْ يُعطى في كأس سِّر الشكر بعد ذلك للبشَّر، ولا يمكن أنْ يُعطى للإنسان، وهذا ما يجعلنا نشعر بالخطر الذي يُهدِّد القُدَّاسات إذا انتشر فكر العصر الوسيط بيننا، واعتبره البعض ـ من ناحيةٍ ـ أُخرى، الأُرثوذكسية، وحاول بتعسفٍ أن ينسبه إلى الآباء.

الفــدية

الأصل السامي لفعل فدى Pdh:

الفعل فدى، فعلٌ معروف في كل اللغات الساميَّة، ولا يختلف معناه مِن لغةٍ إلى أُخرى، بل هو ذات الفعل في اللغة العربية القديمة. والفعل العبراني يُستخدم في النصوص الخاصة بأحكام الشريعة شاملٌ لأكثر مِن معنى، ولذلك السبب، أي نظراً لشمولية الفعل، يُسمي داود، الرب الإله "**فادِي نفسي**" (٢ صم ٤ : ٩ – ١ ملوك ١ : ٢٩ وراجع صلاة نحميا ١ : ١٠).

الله هو فادي الشعب مِن العبودية:

فدى الله شعبه مِن بيت العبودية، والفداء هنا يعني التحرير والخلاص، فلم يكن لدينا في الخروج "**فدية**"، ولذلك يقول سفر التثنية «بل مِن محبة الرب إياكم .. أخرجكم الرب بيد شديدةٍ، وفداكم مِن بيت العبودية مِن يد فرعون ملك مصر» (٧ : ٨)، فالفداء بقوة وعظمة الله لا يحتاج إلى فدية يدفعها الله لفرعون، لذلك يقول موسى «يا سيد الرب لا تهلك شعبك وميراثك الذي فديته بعظمتك الذي أخرجته مِن مصر بيدٍ شديدةٍ» (تث ٩ : ٢٦)، فإذ لم يُقدِّم الله فديةً لفرعون، ولا لآخر، وجب أذن أنْ يستقر معنى الفداء كعملٍ إلهيٍ يعتمد على قوة الله.

فداء بلا فدية (أي ثمن يدفع) في صلوات المزامير وكلام الله للأنبياء

استعمل سفر المزامير الفعل يفدي ٥٣ مرة مِنها ١٤ مرة يصرخ فيها المُصلي قائلاً للرب "أفد نفسي"، أو "أفدني"، وهناك أكثر من مثال يؤكِّد هذا المعنى

«أفدني وارحمني» (٢٦ : ١١)، وأيضاً «بسبب أعدائي أفدني» (٦٩ : ١٨) «أفدني مِن ظلم الإنسان» (مز ١١٩ : ١٣٤). وحتى في الكلام عن الموت أو الهاوية، يقول المزمور «إنما الله يفدي نفسي مِن يد الهاوية» (مز ٤٩ : ١٥) ولا يتأخر الله عن أنْ يُعاتِب، ربما بحزن شديدٍ، وهو يقول «ويل لهم لأنهم هربوا عني، تباً لهم، لأنهم أذنبوا ليَّ. أنا أفديهم، وهم تكلموا على بكذبٍ» (هوشع ٧ : ١٣) ويقول السيد الرب «مِن يد الهاوية أفديهم، من الموت أُخلِّصهم» (هوشع ١٣ : ١٤). والفداء هنا هو الخلاص مِن يد وسلطان الموت. وحسب النص العبراني يعاتب الله بني إسرائيل، ويقول «يا شعبي ماذا صنعت بك، وبماذا أضجرتك، اشهد عليَّ. إني أصعدتك مِن أرض مصر، وفديتك مِن بيت العبودية» (ميخا ٦ : ٤) وحسب الترجمة العربية الحديثة **"فديتك"** هي **"فككتك"** مِن بيت العبودية. فالفداء هو **"فكاكٌ"**، و**"حَلُ"** رباطات الخطية (راجع فداء إبراهيم في إشعياء ٢٩ : ٢٢). ونكتفي بعبارة أليفاز في سفر أيوب حيث تضع العبارةُ الفداءَ بشكلٍ واضحٍ لا يحتاج إلى شرح «لأنه هو يجرح ويعصب، يسحق ويداه تشفيان، في ست شدائد ينجيك، وفي سبعٍ لا يَمَسَّك سوءٌ، في الجوع يفديك مِن الموت وفي الحرب مِن حد السيف» (أي ٥ : ١٨-٢٠).

فداء البِكر

إذا درسنا جيداً نصوص العهد القديم كله، وجدنا أنَّ الفدية تُعطى، وهي لا تنسب إلى الله مطلقاً، إنما تحُدِّد نصوصُ الشريعةِ الفديةَ أو البدل لكي تُنظِّم العلاقة بين الله وبين الشعب بكل أفراده. وهكذا أخذ موسى Keseph ha ppidgom فديةٌ عن الأبكار الـ ٢٧٣ وعن الحيوانات وقدَّم موسى هذه الفضة لهارون (عد ٣ : ٤٠-٥١).

ويجب على القارئ مراجعة النصوص الخاصة بعمل الله الفادي الذي يفدي نفوس عبيده (مز ٣٤ : ٢٢ - مز ٤٩ : ١٥ - مز ٥٥ : ١٨ - مز ٧١ : ٢٣). وهكذا يجب أنْ نفهم معاني التطهير، والتقدِّيس، والتحرير، لكي تعلو على معاني العِوض، التي لا تظهر إلاَّ في العلاقات الإنسانية التي يقع فيها ضررٌ، أو أذى، وتتدخل الشريعة لكي تُعطي العِوض لَمنْ وقع عليه هذا الأذى.

هل حقاً دفع الابنُ الثمنَ بدمه على الصليب؟

لا نجد في الكتاب المُقدَّس بعهديه عبارةً واحدةً تقول إنَّ الابن دفع الثمن للآب، أو إنَّه دفع ثمن خطايانا دمه أو موته على الصليب. وغياب هذه العبارات يؤكِّد أنَّ ما يُقدِّمه البعض من شرحٍ، إنما هو تفسيرهم الخاص، وليس تعليماً رسولياً مُقَدَّماً لنا مِن الآباء الرُّسل في العهد الجديد، ولا آباء الكنيسة بعد ذلك.

نحن نعلم أنَّ كل عقائد الأُرثوذكسية والمسيحية ـ بشكلٍ عام ـ مدونة في مصادر معروفة لنا، وهي:

الكتاب المُقدَّس ـ نصوص الآباء ـ صلوات الليتورجية ـ القوانين الكنسية.

وعدم وجود نصٍ واحدٍ في هذه المصادر، يؤكِّد لنا أنَّ ما يُكتب ويُقال عندنا الآن وبالتحديد عن:

ـ إنَّ الابنَ دفع ثمن خطايانا.

ـ إنَّ الابنَ دفع الثمن للآب.

ـ إنَّ الابنَ نال عقوبة الموت، ومات كخاطئٍ.

وغير ذلك مِن عبارات وردت في شروح بعض الإكليروس الأقباط، إنما هي عبارات تُعبِّر عن تفسيرٍ ورأيٍ خاص لا يستند بالمرة إلي مصادر العقيدة الأُرثوذكسية.

وإذا عُدنا إلى تاريخ التراتيل المصرية الشائعة في الاجتماعات المسيحية في مصر، وجدنا إنَّ التعليم اللاهوتي الأُرثوذكسي القبطي المعاصر قد أخذ فكرة الفداء من التراتيل البروتستانتية، لا من الكتاب المقدس واعتبر أنَّ ترتيلة "قد قضى ديني كله الحَمَل"، وغيرها هي الحق الأُرثوذكسي الذي على أساسه يجب إعادة تفسير كل ما ورد في الكتاب المُقدَّس مِن عباراتٍ خاصةٍ بالكفَّارة أو الفدية، وغيرها .. هذا الاتجاه سوف يقُودنا حتماً إلي أنْ نواجه ذات المشكلة التي واجهت أُوروبا في القرن السادس عشَّر، عصر الإصلاح، أي عصر تعارض موت الرب وقيامته مع عطية الحياة والغفران والتجديد في الأسرار.

الخلفية القانونية والحضارية لفكرة البيع والشراء في العالم القديم

كان الناس يُباعون مثل أي سلعة أُخرى مثل الخُبز والسمك .. الخ، وكانت أسواق النِخاسة تملأ كل أرجاء العالم القديم دون استثناء. وكان بيع العبيد معروفاً في العهد القديم، وكان يُمارَس في داخل الجماعة اليهودية. وكان يُمارَس في فلسطين في زمن المسيح .. و"ملخُس عبد رئيس الكهنة" نال شهرةً خاصةً عندما قطع بطرس أُذنه ليلة اعتقال والقبض على سيدنا في بستان جثيماني.

وكان أول مَنْ أثار هذه النقطة، هو عالِم العهد الجديد أدولف ديسمان *Deissmann*. وجمع هذا الأُستاذ عدة نصوص يونانيةٍ قديمةٍ بعضها سابقٌ على عصر المسيح وانتشار المسيحية، وبعضها مُعاصِرٌ للمسيحية. ويقول ديسمان إنَّ العبد:

١ـ كان يُباع لأحد الآلهة في المعابد القديمة.

٢ـ كان الثمن يُسمَّى فديةً، وله اسم قانوني *Lutroo* في اللغة اليونانية [١] واللاتينية، وهو الإسم الذي دخل في المصطلحات الأُوروبية القديمة، وبشكلٍ خاص، اللغة الإنجليزية، ويُعرَف باسم العِتق أو الفَّك أو *Manumission* أو "الفدية".

٣ـ كان الثمن يُدفَعُ للمعبد، وبعد دفع الثمن كان العبد يُعتبَّر حراً أو عتيقاً، وكان الثمن يُعرف باسم الفدية، أو ثمن العتق. هذا هو البُّعد الحضاري واللغوي القديم.

ونشر ديسمان [٢] أحد النصوص اليونانية القديمة، يقول هذا النص "اشتري الإله أبولو *Apollo* مِن السيد سوسيبوس *Sosibus* امرأةً عبدةً مولودةً في روما اسمها نيقية *Nicaea* مِن أجل رد حريتها إليها بثمنٍ مقداره ثلاث وزنات مِن الفضة. ومالك هذه المرأةُ العبدة هو السيد فمناستوس *Eumnastes* مِن مدينة

(1) W. Skeat, Etymological Dictionary,1953 p187.

(2) A. Deissmann, Light from the Ancient East, 1927, p535 and N. Turner "Christian Words, 1980, p513 and A Grammatical Insight into the NT, 1965 p198.

أمفيسا *Amphissa* وقد استلم المالك هذا الثمن. أمَّا العبدة نيقية فقد قدَّمت النقود للإله أبولو *Apollo* حتى تنال حريتها. والشهود على ذلك هم: أسماء الشهود ..". فهل أخذ العهد الجديد مُفردات البيع والشراء مِن الحضارة القديمة، أم تجاوزها إلى ما هو أعظم؟

الفرق بين الكتاب المُقدَّس، وحضارة العالم القديم

طبعاً قد يدفع النص السابق البعض إلى تصور أنَّ ما يذكره الرسول بولس «لأنَّكم اُشتريتم بثمن» (١ كو ٦ : ٢٠) أو (١ كو ٧ : ٢٢)، هو بدوره يتفق مع فكر وحضارة العالم القديم والإمبراطورية الرومانية مِن بيع وشراء وعتق العبيد .. ولكن هذا الرأي بالذات لا يظهر في العهد الجديد للأسباب التالية.

١ـ يؤكِّد الرسول بولس إنَّ العبد إذا آمن بالمسيح صار حُرَّاً في المسيح، وصار عتيق المسيح «لأنَّ مَنْ دُعِيَ في الرب وهو عبدٌ، فهو عتيق الرب، كذلك أيضاً **الحُرُ** المدعو هو عبدٌ للمسيح» (١ كو ٧ : ٢٢). وهذا عكس المُمارسة القديمة.

٢ـ إنَّ الفعل اليوناني الذي استخدمه الرسول بولس، وفي العهد الجديد كله، هو فعلٌ مُركَّبٌ جديدٌ لا يظهر في النقوش اليونانية، ولا في الأدب اليوناني الكلاسيكي، وهو فعل **"يحُرِّر"**، أو **"يخُلِّص"**، أو **"يعتِق"** **"*Exagorazein* ـ Εξαγοραζειν"** وقد ورد هذا الفعل مرةً واحدةً في أشعياء في الترجمة اليونانية للعهد القديم (٥٢ : ٣) إذ يقول «هكذا قال الرب مجاناً بعتم، وبلا فضةٍ تفكون أو تعتقون»، وهذا يجعل استخدام المُمارسة السابقة بعيدةً عن ذهن الرسول؛ لأنَّه لم يستخدم الفعل اليوناني الشائع في أيامه.

٣ـ حقاً، كان العبد الذي يُعتَق أو يحُرَّر بواسطة القيصر يُسمَّى **"عتيق القيصر"**، وهو ما أغرى بعض علماء العهد الجديد في الجيل السابق على اعتبار أنَّ التشابه الظاهر بين تعبيري **"عتيق القيصر"**، و **"عتيق المسيح"**، هو اقتباسٌ ظاهرٌ، إلاَّ أنَّ هذا غير صحيح، ذلك لأنَّ المُمارسة القديمة كانت

تقوم على مبدأين:

أولاً: أنْ يملك القيصرُ العبدَ، ثم بعد ذلك يعتِقه.

ثانياً: كان القيصر يُطلِق سراح العبد بعد عتقه، فلا يخدِمه بالمرة.

ولكن العهد الجديد يؤكِّد العكس، فالمسيح لا يملك العبد ثم يُطلِق سراحه، بل يعتِقه مِن الخطية لكي يخدِّم المسيحَ كعبدٍ، ويبقى عبداً حراً في المسيح (راجع رومية ١ : ١)، ويخدمه إلى الأبد. كل هذا يدفعنا إلى اكتشاف الاختلاف الروحي، رغم ما يمكن أنْ نراه مِن تشابُهٍ لُغوي.

الفداء والاقتناء حسب الترجمة العربية المعاصرة (البيروتية)

مِن حق القارئ أنْ يطلب منَّا أنْ نعفيه مِن علوم فقه اللغات، ومن الخوض في بحار الدراسات اللُغوية التي لا تفيد إلاَّ المتخصصين، والتي نعتقد أنَّ مكانها إنما هو الكلية الإكليريكية التي يجب أنْ لا يُسمح لغير المتخصصين بالتدريس فيها، وهي القاعدة التي جاهد أُستاذنا الكبير د. وهيب عطا الله / أبونا الأنبا غريغوريوس في تطبيقها، والتي انهارت بعد أنْ ترك التدريس، فأصبح الذين لا يعرفون اليونانية هم من يدرِّسون العهد الجديد، والذين لا يعرفون العبرية يدرِّسون العهد القديم. ومن لم يدرس التاريخ الكنسي، يدرس الآباء. ومن لم يدرس تاريخ العقيدة المسيحية، يتكلم عن البروتستانت بطلاقة!!!

الفداءُ اقتناءٌ

أولاً: في العهد القديم:

إذا درسنا بعنايةٍ الكلمات والمناسبات التي استخدم فيها الكتاب المُقدَّس كلمات وأفعال **"يفدي"**، و**"يشتري"**، وجدنا إنَّ المعنى الغالب عندما يتكلم الله نفسه عن البشَّر هو **"الاقتناء"** *Possession*. والترجمة العربية المعاصرة لم تُقدِّم لنا كلمةً عربيةً جديدةً، بل استخدمت الكلمة العربية القديمة **"خاصة"**، وهي أيضاً تعني **"اقتناء"**، وذلك حسب النص اليوناني للعهدين، وكذلك حسب الأصل

العبراني لفعل يقتني Segullah والذي يترجم عادة في الإنجليزية إلى *The most precious possessions* وذلك كما ورد في سفر الخروج حسب الترجمة العربية الشائعة: فالآن إنْ سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي **تكونون لي "خاصة"** مِن بين جميع الشعوب (خروج ١٩ : ٥)، راجع أيضاً تثنية ٢٦ : ١٨ - ٧ : ٨ - ١٤ : ٢) حيث ورد **"الاقتناء"** تحت اسم **"خاصة"** أيضاً. وإذا درسنا أسفار العهد القديم جيداً وجدنا أنَّ الأفعال التالية هي مرادفات تتكرر، وتعطي ذات المعنى الواحد المتشعب مثل: **خلق = يقتني = يملك = يفتدي.**

ولعل خير مثال هو فعل **"قَنى"** qanah وهو مثل الفعل العربي، ويعني **"يملك"**. ولكنه جاء في الترجمة اليونانية للعهد القديم النسخة المعروفة باسم السينائية في نص (خر ١٥ : ١٦) **"الشعب الذي فديته"**، بينما ورد نفس النص في المخطوطة الفاتيكانية **"الشعب الذي اقتنيته"**[1]، والاختلاف هنا مصدره تعدُّد معنى كلمة وفعل **"قنى"**. هذا الغِنى والزخَم اللُغوي يسمح للشارح أو المُترجِم بحركةٍ حرةٍ لأنَّ البشر يختلفون في فهم وإدراك معاني ودلالات الألفاظ.

وأحياناً نجد فعلي **"قَنى"** و**"فَدى"** في نصٍ واحدٍ يُكرِّر المعنى لتأكيد عمل الله مثل «أذكر يا رب جماعتك التي اقتنيتها منذ القدم وفديتها، أي سبط ميراثك» (مز ٧٤ : ٢).

والفداء = الميراث = الاقتناء؛ لأنَّ غاية عمل الله واحدة رغم تعدُّد الكلمات. **وتعدُّد دلالات الألفاظ لا يعني في النهاية تعدُّد غاية وهدف عمل الله.**

ويقول المزمور:«سبحوا الرب؛ لأنَّ الرب صالحٌ؛ لأنَّ الرب اختار يعقوب لذاته، وإسرائيل ميراثه (خاصته)» (مزمور ١٣٥ : ٤).

---

[1] الترجمات اليونانية للعهد القديم تُعرَف باسم واحد، وهو الترجمة السبعينية، ولكنها عدة ترجمات أشهرها ترجمة اكويلا وسيماخوس من يهود الإسكندرية، وقد حقق العلاّمة أوريجينوس هذه النصوص في أربعة أعمدة متقابلة، وأضاف إليها ترجمته الخاصة. وهكذا ليس من الصواب بالمرة اعتبار الترجمة السبعينية ترجمة موحدة، بل يجب مراعاة ثقافة المترجِّم ودقته بالعودة دائماً إلى العبرانية. وهذا النقد للترجمة السبعينية الذي بدأه العلامة أوريجينوس، ثابر عليه القديس كيرلس الإسكندري الذي صحح ما يقرب من ١٣٦ نصاً في الترجمات اليونانية للعهد القديم.

ويمكن أنْ نلاحظ نفس الظاهرة عند دراستنا للتعدُّد في التعبير عن الغاية الواحدة، في تأمل الفرق بين النص العبراني لأشعياء (٤٣ : ٢١)، والترجمة السبعينية.لنفس النص:

العبراني: **"هذا الشعب الذي فديته لنفسي"**.

اليوناني: **"هذا الشعب الذي اقتنيته"**.

أمَّا الترجمة الآرامية العامية **"هذا الشعب الذي جبلته (خلقته)** (الفعل الآرامي yasartili)، ولعل القارئ قد لاحظ أنَّ الترجمة العربية الحديثة البيروتية تقول **"الشعب الذي جبلته"**، بينما ورد النص في الترجمة العربية القديمة في القرن الثالث عشر **"هذا الشعب الذي اقتنيته"** (قطمارس رقم ٢١١ المتحف البريطاني)، فقد سارت الترجمة القبطية في خط موازٍ للسبعينية.

يقودنا كل هذا إلى نقطةٍ واحدةٍ هامةٍ، وهي أنَّ الفداءَ هو اقتناءٌ، وتحريرٌ وعتقٌ، أو بلغة كنيستنا القبطية الأُرثوذكسية **"قَطعُ رباطات الخطية والشَّر"** التي تستعبد **الإنسان** (هذه عبارات صلاة التحليل الكبرى، وغيرها مِن الصلوات الخاصة بغفران الخطايا).

ويجب أنْ نُراعي عندما ندرس العهد القديم، أنَّ أحداث الخلاص تدور حول حدثٍ عظيم، وهو **"الخروج"** مِن أرض مصر، وأنَّ لغة هذا الحدث هي التي تشرح لنا مفردات الخلاص في الأحداث الخلاصية الأُخرى. هكذا يقول السيد الرب: «أنا الرب، وأنا أُخرِجَكم مِن تحت أثقال المصريين، وأنقذكم (أفديكم) مِن عبوديتهم، وأخلصكم بذراعٍ قويةٍ (ممدودة).... وأتخذكم (أقتني) لي **شعباً**»(خروج ٦ : ٦-٩).

وعندما فدى الرب بني إسرائيل لم يدفع الربُ ثمناً، ولم يقدِّم فديةً؛ لأنَّ أشعياء يقول عن الشعب «شعباً مقدساً **مفدّيي** الرب» (٦٢ : ١٢)، وكان الخروج هو حدث تحريرٍ وإطلاق سراحٍ.

ثانياً: في العهد الجديد:

خلف كلمات الرسول بطرس (١ بطرس ٢ : ٩) «وأمَّا أنتم فجنسٌ مختار، وكهنوتٌ

ملوكي، أُمةٌ مقدسة، شعب **اقتنك**» تكمن كلمات سفر الخروج (٦:٦-٩) «وأتخذكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً.فتعلمون إني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم مِن تحت أثقال المصريين»،.وهذا ظاهرٌ مِن ذلك النص الفريد في أرميا ٣١ : ٣١ـ٣٢ حيث يعلن الله في زمان أرميا أنَّه هو يقطع عهداً جديداً ليس مثل العهد القديم «ها أيامٌ تأتي، يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأُخرجهم مِن أرض مصر»، وتؤكد الكلمات بعد ذلك نفس الكلام الذي قيل في العهد السابق، عهد الخروج «بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب:.أجعل شريعتي في داخلهم، وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً»، والتصاق الله بالشعب هو الذي يجعل الشعب شعب الله. أي أننا أمام الدعوة والاختيار والخروج والفداء والاقتناء، وكل هذا يشير إلى العهد الجديد. وفي حقيقة الأمر إننا كلما وسَّعنا دائرة الرؤية أمكننا أنْ نرى الأُمور بشكل أوضح، وكلما ضيقنا دائرة الرؤية صارت الرؤية غامضة. ألا يذكر القارئ أنْ الرب نفسه هو أوَّل مَن استخدم نبوة ارميا ٣١ : ٣١، وفي مناسبةٍ هامة هي تأسيس سر الإفخارستيا **"هذا هو العهد الجديد بدمي"**، أليست هذه دعوة إلى أنْ ندخل العهد الجديد، وأنْ نصبح شعب الاقتناء. وهذه هي كلمات اليهودي المتنصر الرسول بولس في سفر الأعمال «احترزوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفةً لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أع٢٠ :٢٨). ومع أننا نجد قراءةً أُخرى في مخطوطة قديمة تقول "التي اقتناها بدمه الخاص" أو "بذات دمه". أو حسب الترجمة الأورشليمية الحديثة "كنيسة الله التي اقتناها بدم المسيح" لكن كل هذه القراءات تشير إلى حقيقة واحدة، وهي أنَّ الآب اقتنى الكنيسة بدم ابنه، وهذا عكس ما يُشاع عندنا في مصر مِن أنَّ الابن هو الذي دفع الثمن للآب. ويكفي هنا أنْ نتذكر كلمات القداس الباسيلي **"هذه التي اقتنيتها لك بالدم الكريم الذي لمسيحك"**. فهل يوجد بعد كل هذا مجال للكلام عن أنَّ الابن دفع الثمن. ألا يجدر بنا أنْ نقول مع الكتاب المقدس بعهديه، ومع الليتورجية نفسها "اقتنى"، وليس "دَفَعَ الثمن".

والفعل **"يقتني"** في اليونانية، هو فعل يشتبك دائماً في العهدين مع فعل **"يخُلِّص"**، ويكفي أنْ نرى كيف تسهم القراءة الدقيقة في فهم النصوص:

* نلاحظ كيف يَرد فعل "يقتني" بمعنى "يحفظ، أو يخُلِّص" "مَن طلب أنْ يخُلِّص نفسه يهلكها، ومَن أهلكها يحييها" (لوقا ١٧ : ٣٣) ونفس القول (مرقس ٨ : ٣٥ - لوقا ٩ : ٢٤) وطبعاً اشتباك فعل يحفظ أو يقتني مع فعل "يخلِّص" ظاهر لأنَّ الاحتفاظ أو الاقتناء هو ذات الحقيقة الواحدة.

وبالطبع لا توجد أي إشارة بالمرة إلى أنَّ دم المسيح قد دُفع؛ لأنَّ ذلك يتطلب أنْ نلوي جميع النصوص السابقة لكي نجد شخصين، البائع والمشتري، والثمن. وفي كل النصوص السابقة لا نجد البائع ولا نجد المشتري، ولا حتى ثمناً بالمعنى المعروف، بل نجد الله الذي "يقتني" مِن خلال ابنه. وفي ضوء (أع ٢٠ : ٢٨) يمكننا أنْ نرى أنَّ العهد القديم هو الذي صاغ هذه النصوص؛ لأنَّ العهد قام على دم حمل الفصح، وهو دم لم يُدفَع لأحدٍ، بل حرر الشعب مِن الموت. ونفس الكلام يُقال في العهد الجديد عن دم الحمل الذي ذُبِح، والذي اقتنى أو اشترى للآب، وجعل الشعب أُمةً مقدسةً ومملكةً وكهنوتاً (رؤ ٥ : ٩-١٠ - ١ بطرس ٢ : ٩ - تيطس ٢ : ١٤).

وفي هذا الإطار أيضاً يجب أنْ نقرأ ذلك النص الجميل والفريد حيث يقول الرسول بولس إنَّ الرُّوح القدُّس هو "عربون"[1] ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده" (أفسس ١ : ١٤). فالرُّوح القدُس لا يُدفَع كثمنٍ، وإذا جاز لنا أنْ ننحرف في تفسير النصوص الخاصة بدم المسيح بسبب القصور في فهم الخلفية اللغوية، فإننا لا نملك أنْ نخطئ في فهم الكلام عن الرُّوح القدُّس؛ لأنَّ العربون في لغة التجارة هو جزء مِن الثمن، يُدفع مقدماً تأكيداً وضماناً للبيع. ولا يوجد في العهدين ما يمكن أنْ يؤخذ على أنَّ الرُّوح القدُّس قد دُفع ثمناً؛ لأنَّ عربون الرُّوح إنما قد أُعطي للمؤمنين أنفسهم، وليس لآخر. أي لا يوجد هنا مَن يشتري، وإنما كما قال العلامة أوريجينوس في شرحه لرسالة أفسس:

---

[1] سوف نعود لهذه النقطة بالتفصيل في نهاية هذا الفصل.

[الـرُّوح القـدُّس هـو روح الموعـد ، وهـو نفسـه العربـون لميراثنـا الـذي أُعطي للقديسين لكي يتم فدائهم ويتم اقتنائهم للّه]

(شذرات تفسير رسالة أفسس نشرها *Gregg* مجلة الدراسات اللاهوتية مجلد ٣ سنة ١٩٠٢ ص ٢٤٣).

وعلى نفس درب العلامة أوريجينوس، سـار الآبـاء ذهـبي الفـم وكيرلـس عمـود الدين.

يقول ذهبي الفم:

"إننا خليقة اللّه ولكن بسبب الخطية أصبحنا عبيداً الشيطان. ولأننا كنا تحت سلطان الشيطان، افتدانا المُخلِّص بدمه. هذا هـو معنى الكلمات «لأنكم افتُديتم (اُشتريتم) بثمن» (١ كو ٦ : ٢٠ - ٧ : ٢٣). لقد اُشترينا بالدم الثمين (١ بطرس ١ : ١٨) وكما أنَّ أي أبٌ صالحٌ وقورٌ إذا ترك عبده العاق لمُعلِّم يدرِّبه ويؤدِّبه، ثم رأى الأب أنَّ عبده صار يؤدَّب ويُضرَّب بواسطة معلمه الشرير، وسمع الأب عبده يقول "الآن أقومِ وأرجع إلى أبي" لأنني كنت أحيا هناك حياة أفضل. يقوم الأب فوراً ويدفع الثمن ويخلِّص عبده لكي ما يصبح شعب اقتناء خاص به" (الآباء اليونانيين ٦٤ : ١٠٥٣).

ومثل ذهبي الفم، يؤكد القديس كيرلس عمود الـدين أنَّ الآب هـو الـذي افتـدى واقتنى العبيد غير الطائعين .. وطبعاً لا يوجد عند ذهبي الفـم وكيرلـس أي إشـارة إلى أنَّ الآب دفع دم ابنه للشيطان، وهو رأيٌ سخيف ذكره العلامة أوريجينوس مـرةً واحدةً ولصق به، وصار مِن أشهر مـا يُقـال عـن العلامـة أوريجينـوس، بينمـا قـال أوريجينوس ما هو أفضل مِن ذلك في عظاته الأُخرى على أسفار المزامير والنشيد.

يقول القديس كيرلس الإسكندري في كتابه "المسيح واحد":

"**الرب وحده خلصنا وأعطانا دمه كفَّارةً عن حياة الكل لأننا اُشترينا بثمنٍ، ليس بأشياءٍ تفنى مثل الفضة أو الذهب، وإنما بدمٍ ثمين كما مِن حملٍ بلا عيبٍ، ولا دنس دم المسيح**" (١ بطرس ١ :١٨- ١٩) **وهكذا أعطانا الرب دمه لنا نحن، وليس للآب**"، وهـو مـا يؤكـده القـديس كيرلس نفسه في صلاة القسمة المشهورة في الخولاجي "**اقبل مِني**

هـذه الذبيحـة فديـةً، وكفَّـارةً"، وهـو تعـبير يُـسقِط كـل التـصورات القانونية السابقة الواردة من بيئة أُوروبا التجارية.

(راجع المسيح واحد الترجمة العربية ص ٨٣ - القاهرة ١٩٨٧).

الخلاصة:

* مجانية المغفرة، فلم يدفع الابـن أو الآب شـيئاً، بـل كمـا رأينـا أخـذ كُتَّـاب الوحي المُقدَّس عبارات معروفة شائعة في الحياة اليومية لتأكيـد سـيادة الله واقتناء الله لنا.

* تختلف معاني الفداء والكفَّارة والفدية .. الخ عن معاني الكلمـات الخاصـة بالشريعة والقانون الوضعي؛ لأنَّ الذي يفـدي ويكفِّـر هـو الله، وهـو مـا يجعل ما يخص الله مختلفاً بالمرة عما يخص البشر.

الفداء بمعنى التحرير والعتق

مِن القـديس اثناسـيوس الرسـولي اسـتلمنا قاعـدةً هامـةً لتفـسير الكتـاب المُقدَّس، وهي مراعاة المناسبة التي يقـال فيهـا كـلام الـوحي؛ لأنَّ المناسـبة تحـصر معاني الكلمـات وتحـدد غايتهـا (راجع الـرد علـى الأريوسـيين ١: ٣١ – ١: ٥٥)،.وتطبيقـاً لذلك: يقول السيد الرب على لسان موسى النبي:"بـل مِـن محبـة الـرب إيـاكم، وحفظه القَسَم الذي أقسم لآبائكم، أخرجكم الرب بيـد شـديدة، وفـداكم مِـن بيت العبودية، مِن يد فرعون"(تث٧ : ٨). وهكذا تُملـي المناسـبة علينـا أنْ لا نخـرج عن معنى كلام الوحي: إنَّ الفداء تحريرٌ وعتقٌ مِن العبودية.

ويستخدِّم المزمور نفس الفعـل، بـنفس المعنـى في الكـلام والتـسبيح لحادثـة الخروج "فداهم مِن يد العدو، حيث جعل في مصر آياته وعجائبـه" (مـز ٨٧ : ٤٢-٤٣)،. ويُكرِّر المزمور نفس المعنى ويـضيف إلى فعـل "فـدَّى" فعـل "خلَّـص" إذ يقول: "خلَّصهم مِن المُبغِض وفداهم مِن يد العدو" (مز ١٠٦ : ١٠).

الفداءُ عملٌ إلهيٌ لا يدفع الله فيه فديةً لأحدٍ حسب شهادة الأسفار

إنَّ أعظم ما يمكن أنْ يقرأه المؤمن هو ما ورد في سفر المزامير، وسـفر أشـعياء

النبي. يقول المزمور "أخرجني مِن الشبكة .. أنت حصني .. في يدك أستودع روحي. فديتني يارب إله الحق" (٣١ : ٤-٥)، وصراخ داود هو صراخ كل مَنْ يعاني مِن مخاوفٍ وأزمات تكاد تؤدِّي بحياته.

وانتظار داود هو انتظارٌ لقوة الله الذي يفدي بعظمة قدرته (تث ٩ : ٢٦)، والذي يفدي دون أنْ يدفع. ولعل القارئ تذكَّر إنَّ العبارة "في يدك أستودع روحي"، هي أيضاً صراخ المسيح على الصليب «**يا أبتاه في يديك أستودع روحي**»[1] فهل فدى الله داود بثمنٍ؟ الجواب، لا بكل يقين، وهذا ما نراه في "**فداء النفس**" في (مزمور ٧١ : ٢٣)، بل يضع المزمور "**الاقتناء**" و"**الفداء**" في نصٍ واحدٍ يُعبِّر عن عمل الله الواحد (مز ٧٤ : ٢).

١ـ تأكيدٌ على عدم قدرة الإنسان على أنْ يفدي وعلى عدم دفع ثمن

يقول المزمور «الأخ لن يفدي الإنسان، ولا يعطي الله كفَّارة عنه"، ويُكمِّل "غاليةٌ أو فائقةٌ هي فدية نفوسهم» (٤٩ : ٧)، وذلك لأنَّ الإنسان لا يقدر أنْ يفدي آخراً مِن الموت، ويؤكِّد المزمور ذلك بقوله «إنما الله يفدي نفسي مِن يد الهاوية، لأنَّه يأخذني» (مز ٤٩ : ١٥).

وقد حصرت الشريعة الفدية أو الغرامة في التعويض الذي يُدفَعُ عن الأضرار التي تُلحَق بإنسان أو بالحيوانات التي لا يجوز أنْ تقدَّم على المذبح. وما أسعد حظ الحِمار؛ لأنَّ الشريعة تقول «كل بِكر حمار تفدِّيه بشاةٍ» (خر ١٣ : ١٣)، وما أتعس حظ الحِمار الذي لا توجد شاةٌ تفديه؛ لأنَّ الشَّريعة تقول «وإنْ لم تفده، فتكسر عنقه» (خر ١٣ : ١٣). ونفس الفدية تُدفع إذا نطح ثورٌ إنساناً .. الخ. يدفع فداء نفسه (أي صاحب الثور) كل ما يوضع عليه «إنْ مات الذي نطحه الثور» (خر ٢١ : ٣٠)، فالثمن جائز في الأضرار التي تلحق بالإنسان. وهذا عدل الشريعة، لكن لا يوجد نصٌ واحدٌ في العهد القديم كله يقول لنا صراحةً إنَّ **الذبائح فديةٌ**، وإنَّ الله يأخذ فديةً مِن يد

---

[1] لاحظ أنَّ المزمور استخدم صيغة المفرد "يدك" والإنجيل استخدم صيغة الجمع (لوقا ٢٣ : ٤٦) **وهذه عادة الأسفار** العبرانية والمسيحية فقط التي تحرص على المضمون والغاية وتجمع حوله عدة كلمات مختلفة لإبرازه.

الإنسان بالمعنى الذي نراه في الـشريعة، أي **"العِوَض"**، أو **"البـديل"**، هـذا غائـب بالمرة وتحشره كتبٌ مسيحيةٌ يكتبها أبناء الـشيع البروتـستانتية لكـي يؤكـدوا تعلـيم العصر الوسيط في أوروبا، وهـو تعلـيم لا وجـود لـه في الكتـاب المُقـدَّس بعهديـه، ولكي يؤكدوا التفسير السياسي للمسيحية الذي يقدم بقـوة وإغـراء للقـضاء علـى الليتورجية والأسرار الكنسية طالما أن الفدية دفعت للآب.

٢ــ "الـثمن" تعـبير خـاص بالمعـاملات القانونيـة، ولـيس خاصـاً بعلاقـة الله بالإنسان

ذكر العهد الجديد كله فعل الشراء في إطار الحديث عن الخلاص.

أولاً: في سفر الرؤيا (٥ : ٩) لأنَّك ذبحت واشتريتنا.

ثانياً: في كورنثوس الأولى مرتين (٦ : ٢٠ و ٧ : ٢٣).

ثالثاً: في بطرس الثانية (٢ : ١).

وهكذا بكل تحديدٍ لم يذكر العهد الجديد هذا الفعل بالمرة غـير هـذه المـرات التي وضعناها أمام القارئ.

وإذا أخذنا مـا ورد في كورنثـوس الأُولى، فهـو أبـسط بكـثير مِـن غـيره، لأنَّ المناسبة التي يشرح فيهـا الرسـول التعلـيم المـسيحي هـي الكـلام عـن العبيـد والأحرار، ويؤكد أنَّ الجماعة المسيحية كلها تتكون مِن عبيدٍ لله وحده لأنَّ عبودية المؤمنين للمسيح عبوديةٌ مِن نوعٍ خاص، ويقول «لأنَّكم اُشتريتم بثمنٍ، فمجِّـدوا الله في أجسادكم، وفي أرواحكم التي هي لله»، ولم يذكر الرسـول إنَّ المُـشتري هـو الابن، وإنما هو الله، وبالتالي يتعذر علينا أنْ ننسب إليه (أي للرسـول) ما جـاء في فكر العصر الوسيط. ونفس الكلام يظهر في (١ كـور ٧ : ٢٢) حينمـا يقـول «لأنَّ مَنْ دُعِيَ في الرب وهو عبدٌ، فهو عتيقٌ للرب، كذلك أيضاً الحُّر المدعو هـو عبـدٌ للمسيح. قد اُشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس»، وخلف هذه العبارات، ما نعرفه عن شريعة العبيد في العهد القديم (لا ٢٥ : ٤٨-٥٣) وفي القـانون الرومـاني. ولقد كان العبد ـ حسب نص سفر اللاويين ـ ينال حريته في سنة اليوبيل، ومـع

ذلك تقول الشريعة في دقةٍ تحتاج إلى أنْ تتحوَّل إلى صرخةٍ أمام أصحاب الضمائر المتحجرة «لأنَّهم عبيدي الذين أخرجتهم مِن أرض مصر لا يباعون بيع العبيد.لا تتسلط عليه بعُنفٍ، بل اخش الرب إلهك» (لا ٢٥ : ٤٢ – ٤٣)، وإذا كان الرسول قد قلب الوضع السائد في القانون الروماني، فلا يجوز العودة إلى القانون لتفسير النص بمبادئ القانون!!

يقول الرسول بطرس «كان أيضاً أنبياء في الشعب، أنبياء كذبة، الذين يدسِّون بدع هلاك إذ هم يُنكرون الرب الذي اشتراهم، يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً» (١ بطرس ٢ : ١) ولا تختلف كلمات الرسول بطرس عن كلمات الرسول بولس، لأنَّ المعنى السائد هو تأكيد الملكية الإلهية.

الشراء بالدم في تسبحة السمائيين

لا يمكن أنْ نتصور أنَّ السمائيين يقعون في البدعة الأريوسية، فقد تعلموا اللاهوت بالمشاهدة والمعاينة، وليس مِن قراءة الكتب. حيث يقول هؤلاء في تسبيح للثالوث[1] إذ يقولون للابن حمل الله "مُستحقٌ أنت أنْ تأخُذ السِّفر، وتفتح ختومه لأنَّك ذُبِحتَ واشتريتنا بدمك لله مِن كل قبيلة" (رؤ ٥ : ٩).

وهكذا، فالابن هنا هو مَنْ اشترى، وقد اشترى لله، فهو لم يدفع ثمن خطايا، بل اقتنى، وهذا عكس ما ينقله بعض الإكليروس الأقباط عن الشيع البروتستانتية. فلا تذكر التسبحة هنا شيئاً عن الخطية، فلا مجال للكلام عنها في حضرة الثالوث، بل وعلى المستوى الإلهي لسفر الرؤيا، تقول باقي كلمات التسبحة شيئاً آخراً يختلف عن الفكر السائد "وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك على الأرض" (رؤ ٥ : ١٠)، وهنا يُسبِّح هؤلاء الحمل؛ لأنَّه اشترى ميراثاً للآب بدمه، أي اقتنى بحياته شعباً، فلم يَعُد هؤلاء إذن عبيداً بالمعني السائد في حضارة العالم القديم، بل "ملوكاً وكهنةً".

---

[1] عندما لا تذكر الأسفار، الروح القدُّس، وتكتفي بالإشارة إلى الآب والابن، فإن ذلك لا يعني اقتصار العمل عليهما؛ لأنَّ المبدأ اللاهوتي المستقّر عند الآباء، هو أنَّ الآب يعمل كل شيء بالابن في الروح القدس. هنا، الذي يحُرِّك السمائيين للتسبيح هو الروح القدُّس، وهو الذي يضع كلمات التسبحة في أفواه وعلى ألسنة الطغمات السمائية حسب شرح القديس باسيليوس (الروح القدس الفصل ١٦ - ٣٨): **"وكيف يمكن أن يقول الملائكة: المجد لله في الأعالي، إلاَّ بقوة الروح القدس"**،ص١١٣ - أنظر أيضاً ثاؤطوكية الاثنين: (**الروح القدس أيقظ داود قائلاً: قم ورتل للثالوث الأقدس .. فقام داود المرتل القديس، وأخذ قيثارته الروحية ..**).

نحن لسنا خطاةً، دُفِعَ فينا ثمناً، بل نحن خطاةٌ وُهِبنا حياةً جديدةً، وصرنا في المسيح يسوع «جنساً مختاراً، وكهنوتاً ملوكياً، أمةً مقدسةً وشعب اقتناء، لكي تخُبِروا بفضائل الذي دعاكم مِن الظلمة إلى نوره العجيب» (١ بط ٢ : ٩)، وحقاً قال الرسول بولس مخاطِباً كنيسة أفسس «**كنيسة الله التي اقتناها بدمه**» (أع ٢٠ : ٢٨)، وهكذا اقتنى الله الكنيسة بدمه، ولم يدفع ثمن خطايانا؛ لأنَّ هذه الفكرة غائبةٌ تماماً عن أسفار الكتاب المُقدَّس. لأننا نُقتنى بدم المسيح، أي حياته، وحياة الرب ليست ثمناً يُدفَع، بل هبةُ الحياة الأبدية نفسها فيه والتي تعطى لنا.

ولعل خير ما نختم به هذه الفقرة بالذات، هو كلمات أبينا القديس كيرلس الإسكندري رداً على الأريوسيين في شرحه لمعنى طاعة الابن للآب:

[عبثاً تحاولون إثبات تعليمكم مِن طاعة الابن للآب، وهو الرأي الذي تحاولون به إقناع الآخرين. نحن لا نؤمن بانقسام الثالوث القدُّوس الواحد بالجوهر؛ لأن مَن هو واحدٌ بالجوهر لا ينقسم، ولا تصدر له قراراتٌ متعارضةٌ، ولا ينقسم الآب والابن والروح القدُّس، لكي يختار كل واحدٍ مِن الأقانيم لنفسه ما هو صالحٌ وحسنٌ منفرداً، بل الأقانيم متفقون في كل شيء؛ لأنَّ جوهر اللاهوت هو واحد كما كان وسيكون ـ وكما هو واضح لنا ـ لأن الثالوث كائن بجوهرٍ واحد].

(شرح إنجيل يوحنا المجلد الأول الكتاب الرابع ص ٣٨٦ الترجمة الإنجليزية).

فالدفع غير معروفٍ، والشراء هو استعارةٌ تؤكد الامتلاك، ولا تشير إلى غفران الخطايا، بل الاقتناء، وأي تفسير آخر إنما يؤدِّي إلى تقسيم جوهر الثالوث، كما يعني العودة إلى هرطقة أريوس. وهكذا يشتري الابن الخليقة للآب لكي تصبح ملكاً له بالفداء، ولا يدفع الابن غرامةً للآب، بل يجعل المفديين ملوكاً وكهنةً. والمجد لهذه المحبة الغالبة.

إذا كان الروح القدُّس هو عربون الميراث، فهل دفع الأب لنا الثمن؟

يقول الرسول بولس عن الروح القدُّس إنَّه «عربون ميراثنا لفداء المُقتنىَ لمدح مجده» (أف ١ : ١٤)، وكلمة عربون معروفةٌ في عالم التجارة وعقود البيع والشراء في العالم القديم. وهي كلمةٌ فينيقية الأصل [1] دخلت اللغة اليونانية عن طريق الآرامية والعبرانية، وكانت تعني في لغة التجارة في العالم القديم، **"الضمان"**، ولكن المعنى الذي يقصده الرسول بولس هنا هو **"مُقدَّم الثمن"**، وليس الضمان، وبذلك يؤكِّد الرسول أن يسوع المسيح ليس فيه **"نعمٌ"**، و**"لا"** حسب قواعد البيع والشراء، بل إنَّ كل مواعيد الله في يسوع المسيح هي كلها **"نعمٌ"**، **"لأنَّه مهما كانت مواعيد الله، فهو فيه "النعم"، وفيه "الآمين" لمجد الله بواسطتنا"**.

وينتقل الرسول بعد ذلك إلى مجال عمل نعمة الله، ويقول «ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح، وقد مسحنا هو الله، الذي ختمنا أيضاً، وأعطى عربون الروح في قلوبنا» (٢ كو ١ : ١٩–٢١)، وأيضاً (٢ كو ٥ : ٥)، (أفسس ١ : ١٤).

فالروح يُعطى لنا ـ حسب كلمات الرسول ـ دون بيعٍ ودون شراءٍ ودون مقايضةٍ، ونحن نأخُذ هنا في هذه الحياة الروح القدس نفسه "عربون الميراث"، فالله هنا يدفع للإنسان مقدم الثمن، أي ثمن ميراث الملكوت على رجاء أنْ نأخُذ الملء في يوم مُلك المسيح الآتي، أي يوم الدينونة. ولعل مأساة الذين حاولوا فرض الفكر القانوني، ثم الفكر التجاري على إنجيل النعمة واستباحوا تفسير دم المسيح بشكلٍ تجاري لم يسألوا أنفسهم عن الروح القدُّس الذي يُعطى للمؤمنين بالمسيح باسم "عطية الروح القدُّس"، في حين أنَّ هذه العطية ليس لها علاقة بالتجارة والقانون والموت النيابي وما إليها مِن هذه الألفاظ التي دخلت اللاهوت المسيحي تحت تأثير ثقافة العصر الوسيط والتي أعادت صياغة شرح العقيدة المسيحية وفقاً لهذه الثقافة، الأمر الذي يريد جيل من الإكليروس الذي لا يعرف الأرثوذكسية، فرضه متغاضين عن قوة التسليم الرسولي، وشهادة الكتِاب المقدس والآباء.

---

(1) F. Lyall, Slaves, Citizens, Sons, Legal Metaphors in the Epistles, 1984, p145-146.

ولو كان الأمر كما يريدون، فكيف استطاع الرسول أنْ يقول إنَّ الروح أُعطي لنا «عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده» (أف ١ : ١٤). كان جديراً به أنْ يقـول إنَّ الروح القدُّس قد أُعطي حسب قواعـد الـشراء والبيـع وتجـارة المغفـرة بـشروط القانون التجاري وما إليها مِن ألفاظٍ تخدِش وتجرح نعمة الله في الصميم، ولكننـا قَبِلنا الروحَ **"في المسيح"** عطيةً وهبةً بلا مقابل. لقد أعطانا الآبُ الروح القـدُّس في ابنه يسوع المسيح عُربوناً؛ لأنَّ الروحَ **نفسه هو ميراث** الذين ينالون الفداء في يسوع المسيح ويـصبحون هـم مـيراث المـسيح؛ لأنَّ المـسيحَ يـصبح هـو مـيراث المؤمنين .. هذه هي خُلاصة كلمات الرسول لأنَّنـا نحـن «**ورثـة الله**، ووارثـون مـع المسيح» (رو ٨ : ١٧ - غلا ٣ : ٢٩)، وكأنَّ الرسول بولس قـد سمـع هـؤلاء الإكلـيروس وتأكَّد مِن أنَّ الغفران المجاني سوف يُهَاجَم، فكتـب محُـذِّراً الأجيـال الـتي سـتأتي «لأنَّه إن كانت الوراثة مِن الشريعة، فلم تكُن أيضاً مِن موعدٍ، ولكِّن الله وهبهـا لإبراهيم بموعدٍ» (غلا ٣ : ١٧-١٨). إنَّ الوعد بالبركة والوعد بمجيء المسيح كان قـد أُعطي لإبراهيم، إلاَّ أنَّ ذلك كان قبل نزول الشريعة على جبل سيناء، والذي تم ـ حسب إحصاء الرسول بولس ـ بعد ٤٣٠ سنة مِن الوعـد لإبـراهيم، ولـذلك لا دخل للناموس فيما أُعطي مِـن مواعيـد، وهكـذا وُهِـبَ الـروح القـدُّس لنـا في المسيح عُربوناً لم يدفع فيه أحدٌ شيئاً، لم يدفع فيه المـسيح، ولا الآب، ولكـن هـذه هي لغة البشر القاصرة والعاجزة عن أنْ تُعلِن محبة الله المجانية التي لا تأخُـذ مِـن الناس شيئاً، ولا تطلب مِن الناس شيئاً، بل حتـى إنَّ التوبـة المطلوبـة جـداً مِـن الإنسان، هي لمصلحة الإنسان، وليست لمصلحة الله، ولا يريـدها الله لنفـسه، بـل يريدها للإنسان لكي يستطيع الإنسان أنْ ينعم بحياة منسجمة مع الله.

ولعل القارئ يعرف أنَّ السنوات الأخيرة شهدت حرباً شعواء يقـوم بهـا بعـض الإكليروس ضد الروح القـدُّس نفـسه. ولم تعـرف الكنيـسة القبطيـة هـذه الحـرب الشريرة ضد روح الله كما عرفناها في السنوات الماضية حيث صار ما يقال عن الروح القدُّس ـ إذا احتوى على إشارةٍ إلى نعمة وعطية وسُكنى روح الله فينا ـ يقـاوَم بقـوة. ولكننا أخذنا العربون، وسوف نأخُذ باقي ميراثنا لمدح مجد الله في يسوع المـسيح. هـذه

الحرب تكشف عن مدى تأثير قواعد القانون التجاري في الفكر الـديني، ولنـا عـودة إلى هذا الموضوع.في دراسة مستقلة، سوف ننشرها في الوقت المناسب.

جاء النور، وماذا بطل؟

لعلك أيها القارئ سمعـت هـذه العبـارة الأرثوذكـسية مـن فـم العديـد مـن المعلمين في الكنيسة: "إذا جاء النور، بطُل الرمز". إنها عبارة اسـكندرانية تعـود إلى أكليمنضس الإسكندري والعلامة أوريجينوس، وكـل آبـاء الكنيـسة الجامعـة. كان العهد القديم مملوءً بالرموز المعقدة .. وجاء النور .. كانت خدمة الظلال، بـل وحسب عبـارات الرسـول بـولس "خدمـة المـوت" (٢ كـو٣ : ٧)، وهـي "خدمـة الدينونة" لأن الناموس جاء بموت الخطاة (٢ كو٣ : ٩) .. وهو العهد الزائل (٢ كـو٣ : ١١) الذي حل محله العهد الجديد، خدمة الروح (٢ كو٣ : ٨) خدمة البر (٢ كـو٣ : ٩) الخدمة الدائمة الأبدية المجيدة يسوع المسيح (٢ كـو٣ : ١١) ويقول الرسول بـولس ـ ربما عني وعنك وعن كثيرين من أبناء وبنات الكنيسة ـ: «لأنه حتـى اليـوم ذلـك البرقع (الذي وضعه موسى على وجهه) نفسه عن قراءة العهـد القـديم بـاق غـير منكشف (غير معلن) الـذي يُبطـل في المـسيح» (٢ كـو٣ : ١٤) .. نعـم لا زال ذلـك "البرقع" يغطي عيون كل الذين يفسرون حقـائق ونـور العهـد الجديـد بمبـادئ وطقوس وشريعة موسى، أي الذين يفسرون الحقيقـة بواسـطة الرمـوز، فتـصبح الحقيقة سجينة رموز وطقوس العهد القديم .. لقد جاء النور وبطـل الرمـز، ولا يجب أن نفسر شريعة الحيـاة علـى أسـاس شـريعة الظـلال .. وإذا قـال الرسـول صراحة «يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ النـاموس لم يكمل شيئاً» (عـب٧ : ١٨-١٩)، فلا يجب أن يبقـى الرمـز والنـاموس هـو المفـسر والشارح للإيمان الجديد، لأن تعليم الأنبياء عـن الـذبائح الروحيـة يمـس جـوهر الحياة في العهد القديم كله حيث يصبح لنا حسب كلمات الرسول «رجاء أفضل به نقترب إلى الله» (عـب٧ : ١٩) وبعـد أن يـشرح الرسـول خدمـة العهـد القـديم بملخـص وافٍ في الإصـحاح التاسـع مـن الرسـالة إلى العـبرانيين ويخـتم هـذا الملخص بقوله "معلناً الروح القـدس بهـذا (طقـوس خدمـة العهـد القـديم) أن

طريق الأقداس لم يظهر بعد ما دام المسكن الأول له إقامة الذي هو رمز للوقت الحاضر الذي فيه تقدم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمِّل الذي يخدم" (عب ٩ : ٨-٩) والعهد القديم كله وطقوسه وخدمة الموت يقول عنها نفس الرسول مباشرة «**هي قائمة بأطعمة وأشربة وغسلات مختلفة وفرائض جسدية، فقط موضوعة إلى وقت الاصلاح أو التجديد**» (عب ٩ : ١٠).

ونهاية الطقوس اليهودية يعني أن نتحرر نحن حسب "حرية المسيح" ولا نخضع لمبادئ طقوس مؤقتة لا تعلن نعمة الحياة الأبدية التي هي عطية الله لنا في المسيح، ولا تعلن بشارة الخلاص التي ولدت بموت المسيح وقيامته، وهي بشارة الحياة التي لا تسمح بالتضحية بالإنسان من أجل الناموس، أي أن نحفظ السبت ولو أدى هذا إلى موت الإنسان؛ لأن الإنسان خُلق للسبت حسب منطق علماء الشريعة اليهودية، بينما منطق شريعة الإنجيل أن السبت خُلق أي وضع من اجل الإنسان حسب عبارة رب المجد نفسه "السبت جُعل للإنسان". هذا لا يسمح بالمرة بالتضحية بالإنسان من أجل المبادئ مهما كانت .. لقد مات المسيح على الصليب حراً مختاراً، ومات لكي يبيد عقوبة الموت ولكي ينزع وساطة الناموس أو الشريعة اليهودية ويصبح هو "الوسيط الواحد" الذي حل محل توراة موسى، ولكي تصبح بشارة الأنبياء بالخلاص أقوى من بشارة الشريعة بالموت وهذا جعل العهد الموسوي "قديم وشاخ" (عب ٨ : ١٣) وحكم المسيح على الدينونة كأداة عاجزة عن مصالحة "عداوة" الإنسان مع "محبة الله"، وأبطل المسيح وساطة الناموس الذي يحكم بموت الخاطئ؛ لأنه هو أي المسيح حكم عليه الناموس بالموت كمجدفٍ وفاعل شر وكانسان جاء لكي ينقض الهيكل، أي مات لكي بموته يموت الناموس، لأن القيامة جعلت ذلك الذي مات هو آدم الجديد أو الأخير أو الثاني الذي أبطل شريعة موت الخطاة بقوة الحياة التي فيه، "أبطلت الخطية بالخشبة" أي بالصليب..

ولا شك إن خطر سيادة فكر وشريعة العهد القديم على الإنجيل هو خطر حقيقي؛ لأنه يقلب كل القيم والمبادئ التربوية والعلاقات الإلهية البشرية التي

تتجمع عند المسيح وفي المسيح. وإذا قال الرسول بولس صراحة لكل الذين يحبون الناموس «لسنا بعد تحت مؤدب» (غلاطية ٣: ٢٤-٢٥)، فهذا يعني أننا لا نؤدَّب بشريعة موسى، بل بشريعة الحياة لأن تأديب الشريعة الموسوية هو تأديب مؤقت وعاقبته الموت. أمَّا تأديب المسيح فهو أبدي ويؤدي للحياة. وسوف يرى القارئ هنا حقيقتين:

الأولى: هي كيف تشكل نظريات القانون والسلوك الاجتماعي فهم العقيدة الأرثوذكسية.

الثانية: كيف يعلن الكتاب المقدس والآباء ما هو عكس نظريات القانون والسلوك الاجتماعي.

خاتمة

لقد قطعنا هذا الشوط الطويل مع الأسفار العبرية لكي نشير إلى الأخطار الواردة في الكتب القبطية الأرثوذكسية المعاصرة، ولكي نصحح الأفكار والتعاليم غير الصحيحة التي تقال باسم العهد القديم، ولكي نمهد لتعليم الآباء وبشكل خاص القديس اثناسيوس.

الكفارةُ
تطهيرٌ وتقديسٌ
ننالهُ في سر الإفخارستيا المجيد
و الفديةُ
هي عتقٌ وتحرير من سلطان الخطية والموت
يُعطى لنا في الأسرار الكنسية

الفدية
حسب التسليم الآبائي
للقدّيس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسُّد الكلمة

مقدمة:

درسنا في الفصل السابق معاني الفدية والكفارة في العهدين القديم والجديد، وأثبتنا أن هذه المعاني تختلف تماماً عن تلك التي سادت في لاهوت العصر الوسيط وفكر حركة الإصلاح، حيث سادت المعاني التي حددتها الثقافة السائدة في المجتمع الإقطاعي طبقاً لتطور الفكر السياسي الأوروبي. وفي هذا الفصل نقدم التسليم الآبائي للإيمان من خلال دراستنا للتعليم الأرثوذكسي كما يقدمه القديس أثناسيوس، وسوف نرى بما لا يدع مجالاً للشك أن الآباء لا يعرفون على الإطلاق مفاهيم العصر الوسيط الخاصة بهذه الكلمات، وإنما نرى انسجاماً ظاهراً بين معاني هذه الكلمات في اللاهوت الشرقي ومعانيها في الكتاب المقدس. لذا سوف نقدم للقارئ كلمات معلمنا القديس أثناسيوس نفسه حتى ـ بالمقارنة فيما بعد ـ يتضح لنا الفَرق الكبير بين الشرق والغرب.

في المبحث الأول من هذا الفصل أثبتنا نص الفصل ٢٥ من كتاب تجسد الكلمة وهو الموضع الذي يتعرض فيه القديس أثناسيوس لهذا الموضوع بالتفصيل، واستخلصنا منه المبادئ اللاهوتية التي تحكم اللاهوت الشرقي لـ "الفدية". ومن ثم في المبحث الثاني تعرضنا لطبيعة الذبيحة التي قدمها الابن بجسده وماهيتها، وبالتالي تتوفر لنا القاعدة المتينة لفهم موت الرب بالجسد والتعليم الشرقي عن الخلاص.

"الفدية"
في الفصل ٢٥ مِن كتاب تجسُّد الكلمة

[لأنَّه جاء لكي يحمِّل اللعنة التي حلَّت علينا نحن، وكيف صار لعنةً إلاَّ بوسيلة قبول الموت الذي يتبع اللعنة؟ أي موت الصليب، لأنَّه مكتوبٌ ملعونٌ كل مَن عُلِّقَ على خشبةٍ (تث ٢١ : ٢٣)، وأيضاً إذا كان موت الرب فديةً لأجل الجميع، وبموته، نقض الحاجز المتوسط (أف ٢ : ١٤)، وبذلك وصلت الدعوة (دعوة الإنجيل) للأُمم، فكيف دعانا إذا لم يكن قد صُلِبَ؟ لأنَّه على الصليب وحده يموت المصلوب، ويديه ممدودةٌ، لذلك احتمل الرب موت الصليب؛ لكي يمُدَّ يديه، يدٌ واحدةٌ إلى الشعب القديم (اليهود)، ويدٌ أُخرى إلى الأُمم، لكي يجمع الاثنين معاً في ذاته. وقد قال هو نفسه هذا مُعلِناً الوسيلة التي سوف يموت بها؛ لكي يفدي البشر«وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع» (يو١٢ : ٣٢)، وبالإضافة إلى ذلك، حيث أنَّ عدو جنسنا، الشيطان، قد سقط مِن السماء، ويجول في الأماكن التي هي أسفل السماء، وبالعصيان يمُارِس سيادته على رفاقه مِن الشياطين (أف٢ : ٢)، ولكن الرب جاء لكي يهزم الشيطان، ويطهِّر الهواء، ويفتح طريقاً صاعداً إلى السماء كما قال الرسول مِن خِلال الحجاب، أي جسده (عب ١٠ : ٢٠)، وقد تم هذا بالموت، وبأي موتٍ يمكن أنْ يحدث كل هذا، إلاَّ بالموت الذي يحدث في الهواء؟، وأنا أعني "الصليب"، لأنَّ مَن يموت على الصليب، يموت مُعلقاً في الهواء. وكان لائقاً أنْ يحتمل الرب هذا، لأنَّه عندما رُفِعَ

على الصليب (عُلِّقَ فِي الهواء) طهَّر الهواء مِن حيَّل الشيطان، وكل الأرواح الشريرة قائلاً «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق» (لو١٠ : ١٨)، وفتح طريقاً صاعداً إلى السماء قائلاً، أيضاً «افتحوا أيها الرؤساء أبوابكم، وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية» (مز ٢٣ : ٧)، ولم يكن الكلمة نفسه هو الذي احتاج لأنْ تُفتَح له الأبواب، لأنَّه رب الكل الذي لا يوجد جزءٌ مِن الخليقة يُغلَق أمام خالقه، وإنما نحن كنا المحتاجين إلى ذلك، نحن الذين حَمَلَنَا الربُ فِي جسده through his own body «لأنَّه عندما قَدَّمَ جسده للموت عن الجميع به (جسده)، أيضاً يفتح الطريق الصاعد إلى السماء» (ص ١٩٥- ١٩٧).

ملاحظات على نص القديس أثناسيوس

وهنا نُلاحظ على الفور أنَّ معلمنا اثناسيوس في كلامه عن الفدية يضع الجوانب الإيجابية التي تميز بها لاهوت الشرق، وهي حسب كلمات اثناسيوس نفسه:

١ـ إنَّ موت الرب **فديةٌ** تم فيه نقض الحاجز المتوسط، وفيه أيضاً تمت مصالحة الأُمم مع اليهود؛ لأنَّ الرب مدَّ يديه، يدٌ للأُمم ويدٌ لليهود. فهو شخصٌ يجود ويعطي لمن يحتاجون إلى العطاء.

٢ـ عندما عُلِّقَ الربُ على الصليب هزم الشيطان في الأماكن التي سقط فيها، أي في الهواء، والعبارة الهامة هي: **طهَّر** الهواء مِن حيل الشيطان، فهو رب السماء والأرض.

٣ـ مات الرب وفتح طريقاً صاعداً إلى السماء.

٤ـ بموته أعطى لنا نعمة الصعود إلى السماء. وهنا المسيح هو شخص يعمل ويعطي، وليس ثمناً يُدفع للآب، بل هو الوسيط والشفيع الذي لا يوجد جزء من الخليقة يُغلق أمام خالقه. لقد غابت هذه الحقيقة عن فكر العصر الوسيط، وهي أن المصلوب على الصليب هو "خالق الكل ومخلص

الجميع"، وعندما عُلِّقَ الخالق على الصليب فقد أزال اللعنة، واللعنة هي هنا موت الصليب حسب نص الكتاب المقدس نفسه في (تثنية ٢١ : ٢٣).

هذه هي المعاني الأربعة التي لا يذكر النص غيرها، والتي لا يجب أنْ يضاف إليها كلمةً، أو حرفاً آخر لم يذكره القديس اثناسيوس.

إنَّ ما ذكره القديس أثناسيوس هو ذاته الذي نقوله في صلواتنا الأُرثوذكسية:

"أيها الكائن الذي كان الدائم إلى الأبد ... وصرت لنا وسيطاً لدى الآب، والحاجز المتوسط نقضته، والعداوة القديمة هدمتها .." (القداس الغريغوري).

و"**المُصالحة**" التي تمت على الصليب، وبمد يدي الرب هي ذات التعبير الطقسي القبطي القديم الذي يتم بمد **اليدين**، وليس بمد اليد الواحدة في "**السلام**"، أو "**قُبلة السلام الرسولية**"، والتي يعرفها أصغر مُصَلِّي في الكنيسة. وهَدمُ العداوةِ هو الفدية التي حرر بها الرب اليهود والأُمم.

٢ـ أمَّا عن الطريق الصاعد إلى السماء والأبواب الدهرية التي سوف تُفتَح لنا، فإن الصلوات القبطية تحرص على ذكرهما في مناسبتين.

أـ صلاة الجنَّاز عندما تُصلِّي الكنيسة "**افتح لها أبواب الفردوس ..**"، وهو رجاءٌ لا يخيب في موت الفادي الذي أزال كل العقبات مِن أمام الإنسان.

ب ـ أمَّا المُناسبة الأُخرى الهامة، فهي صلاة القِسمَّة التي تقال في عيد القيامة، والتي تسطع كل حروفها بلاهوت آباء الإسكندرية: "**هذا الذي نزل إلى الجحيم، وأبطل عِزَّ الموت .. رفع قديسيه إلى العُلا معه، أعطاهم قرباناً لأبيه**"، فقد قدَّمنا الرب بموته عنا، وقيامته، وصعوده إلى الآب قرباناً، وهي ذات التقدِمة التي تبدأ في المعمودية عندما تتحوَّل أوشية القرابين إلى صلاةٍ أو أوشيةٍ تُقال عن الذين سوف يعتمدون "**اقبلهم على مذبحك المقدَّس السمائي، رائحة بخور ...**" لقد صرنا بموت الرب ذبائح روحية يشير إليها الرسول بولس (أف ٥ : ٢).

هذه هي قوة الفصح الذي أكمله الرب بموته وقيامته؛ لأنَّه بـدون هـذه القـوة يتعذر علينا أنْ نصبح ذبائح حية تبدأ بالمعمودية وتصل إلى قوتها في الأسرار وفي الحياة الروحية الأُرثوذكسية. ولذلك يقول القـديس اثناسـيوس في خطـاب عيـد الفصح عام ٣٣٥م (الرسالة رقم ٧ في الترجمة الإنجليزية):.

> [كتب المُبارك بولس يقول إلى الكورنثيين: انه يعمل دائماً في جسده موت يسوع (٢ كور ٤ : ١٠)، وليس هذا هو فخره هو وحده، وإنما هو ونحن. وهكذا نحن أيضاً يا اخوتي علينا أنْ نتبع الرسول، وليكن هذا هو سلوكنا اليومي، وفخرنا الدائم. لقد قال داود - الذي اشترك في هذا أيضاً - في المزمور «مِن أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح» (مز ٤٤ : ٢٢)، والآن يجب أنْ يتحقق هذا فينا لا سيما في أيام العيد (الفصح) عندما نتذكر موت مخلِّصنا؛ لأنَّ كل مَن تشبَّه به في موته، يصير حاراً يقظاً في ممارسة الفضائل، وقد أمات أعضائه التي على الأرض، وصَلَبَ الجسد وكل شهواته، ويحيا في الروح (غلا ٥ : ٢٥) .. ويضيف الرسول متكلماً عن النعمة التي ننالها مِن المعرفة؛ لأنَّ مَن أقام يسوع، سوف يقيمنا مع يسوع، ويقدِّمنا له معكم (٢ كو ٤ : ١٣)].

هكذا لا تصبح "الفديةُ" مثل "الدين" مناسبةٌ يتسلل منها الفكر الأريوسي القديم لكي يجعل الرب في وضعٍ أقل مِن وضع الآب، أو يحِطُّ مِن كرامته كمخلِّصٍ يملك هو ذات حياة الآبِ وإرادته، أو يحوله من أُقنومٍ إلى ثمن يدفع للآب؛ لأنه هو والآب حياة واحدة، إرادة واحدة، وجوهر واحد.

المبادئ اللاهوتية التي يجب أنْ نفسِّر بها "الفدية":

أولاً: الخلق من العدم

خلق الله كل شيءٍ مِن العـدم، **بكلمته** *through his own Word* (فصل ٣ : ١٤١)، وبالكلمة أيضاً أعطى البشر نصيباً في **صورته**، أي ابنه يسوع المسيح ربنا وبالتالي،

فعلاقة الخليقة بالله والإنسان ـ بشكل خاص ـ هي مِن خلال الكلمة، وهي كما ذكرنا سابقاً علاقة نعمة. هذا يضعنا أمام أهم المبادئ الخاصة بعلاقة الإنسان بالله، فهو أي الإنسان، يحصل على نعمةٍ مِن الآب ليكون على صورة الآب أي الإبن الكلمة، وكل هذا يتم بواسطة الابن. فالإنسان منذ البدء يتصل بالآب مِن خلال:

أ ـ الصورة الإلهية، كنعمةٍ.

ب ـ الابنُ كوسيطٍ بين الآب والخليقة، والبشر الذين صاروا عاقلين بفضل اشتراكهم في قوة الابن، أو الكلمة.

وعندما يتصور الإنسان يتصوَّر ويدرك كيانه كصورة الله، يستطيع مِن خلال معرفته لذاته أن يدرك الابن الكلمة خالقه، ويُشبِّه القديس اثناسيوس كيان الإنسان العقلي، بأنَّه يُشبه المرآة *mirror* (الرسالة إلى الوثنيين فصل ٨ : ٢١) التي تنعكس عليها الحقيقة أو الحقائق الخاصة بالله والخليقة، وعندما يراها الإنسان داخلياً، يدرك مِن هذه الرؤية حقيقة علاقته بالله، وهذا ما يؤكده القديس اثناسيوس في فصل ٣٤ مِن الرسالة إلى الوثنيين حينما يقول:

> "خُلِقَ (الإنسان) على صورة الله وحسب شبهه، وهكذا عندما تخلع، أو تطرد النفس كل دنس الخطية التي تدنست به، وتظل نقيةً، وتحفظ ما في الصورة فقط، عند ذلك تستنير بالحق فتستطيع أنْ تتأمل الكلمة كما في مرآةٍ، فترى فيه صورة الآب، وترى فيه الآب نفسه الذي المُخَلِّص صورته" (٣٤ : ٩٥).

هذا هو ما يجعل القديس اثناسيوس يصف الابن بالشفيع أو الوسيط، وهي ذات الأوصاف التي استعملها الكتاب المقدَّس. هنا يجب ألاَّ ننسى بالمرة أنَّ الابن هو الوسيط كخالق، وهو الذي يخلق مع الآب، وبه تقوم الخليقة، أي تبقى في الوجود. ولأنَّ وساطة الأبن (أي علاقته بالخليقة وبالآب) سابقةً على تجسُّده، صار مِن الضروري لنا أنْ نفهم الفداء على هذا الأساس المتين؛ لأنَّ مجيء الابن وتجسُّده وموته وقيامته، إنما هو استمرارٌ في عمله كوسيطٍ.

ثانياً: العلاقة الخاصة بين الله والإنسان

لم تكن علاقة الابن بالإنسانية علاقة خارجية، بل هي علاقةٌ كيانية بين مَن هو صورة الله ومَن خُلِقَ على صورة الله، أي بين الأصل وهو الكلمة، والشبه أو الظِّل، أي الإنسان. هذه علاقة نعمة، لا تسمح للإنسان أو الخليقة أنْ تبقى في حالة عُزلة أو انفصال عن الله؛ لأنَّ الانفصال يعني عودة كل المخلوقات إلى العدم.

وقد أفاض القديس اثناسيوس في هذا الموضوع في الفصول الأُولى مِن تجسُّد الكلمة. وعندما سقط الإنسان كانت بشاعة السقوط تتمثل في أنَّه اختيارٌ مُتعَمَّدٌ لأنْ يكون الإنسان أي شيء آخر غير صورة الله. هذا الاختيار جعل الإنسان يُفَضِّل ذاته على الله، وبالتالي تحوَّل مِن "صورة الله" إلى "صورة لذاته"، فسقط في قبضة الموت والفساد؛ لأنَّ الإنسان الذي أتى مِن العدم لا يمكنه أنْ يبقى كصورة لله إلاَّ بالنعمة، فإذا رذل النعمة وفَضَّل ذاته على نعمة الله، فهو يفقد قوة الحياة، ولذلك فعندما كان الكلمة في البشر، فإن التحلُّل الطبيعي الخاص بالطبيعة الإنسانية، كان لا يمكن أنْ يمس البشر (فصل ٥ : ١٤٥)، أما وقد اختار الإنسان أنْ يكون صورةً لنفسه، فإنَّ العودة إلى العدم أو الموت كانت هي الأمر الطبيعي، بل النتيجة الحتمية للخطية.

ثالثا: بقاء نعمة الله رغم سقوط الإنسان

حفِظَ الله الإنسانَ رغم سقوطه. ورغم سيادة الموت على الإنسان ظل الإنسان في الوجود بسبب رحمة الله. وهنا يحفظ الشرق تعليم الكتاب المقدس الذي لا يذكُر بالمرة أنَّ الإنسان فَقَدَ علاقته بالله تماماً، وإنما ظل على علاقةٍ بالله يسود فيها الموت على الإنسان، وينتظر الله أنْ يُخَلِّصه مِن الموت. كان الإنسان، بل الإنسانية كلها محفوظةٌ مِن العدم في الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح «الذي فيه يقوم (يبقى في الوجود) الكل» (كو ١: ١٥-١٧) وإذا كانت كل الأشياء محفوظةً بما فيها الإنسانية الساقطة، تحتم علينا أنْ نقول إنَّ الإبقاء على الإنسان كان أوَّل مظاهر الرحمة الإلهية، وإنَّ العلاقة التي شوهها الإنسان كانت تمس علاقته بالابن والآب والروح القدس؛ لأنَّ الإنسان مخلوقٌ على صورة الآب، أي الكلمة، ولأنَّ الابن هو الوسيط.

رابعاً: تحديد الخطية والشر

استعمل القديس اثناسيوس تحديداً دقيقاً للخطية والشر معروفٌ عند كل الآباء بما فيهم أوغسطينوس، وهو أنَّ الخطية مِن اختراع عقل الإنسان، وهذا يجعل وجود الخطية وجوداً إنسانياً بحتاً لا ينال أي بقاء أو استمرارية من الله. هنا يجب أنْ نترجِّم نص الرسالة إلى الوثنيين، الفصل الرابع، لأنَّ كلمات معلمنا اثناسيوس تفتح لنا الآفاق الشرقية الأُرثوذكسية الروحية لفهم الخلاص بشكلٍ سليم:

> [الخير له وجود (كيان)، أمَّا الشَّر فهو عدم. والخير كائن (موجود) لأنَّ له ما يماثله في اللّه الكائن، أمَّا الشَّر، فهو عدم؛ لأنَّه مِن اختراع الإنسان] (٤ : ١١).

فالخير ينال عناية وحفظ الله؛ لأن الإنسان المخلوق على صورة الله عندما ينمو في الخير والصلاح، إنما يتشبَّه بخالقه ويحيا مثل الله (تجسد الكلمة فصل: ٤)، وبالتالي يحمل معه إلى الله الكون كله مِن خلال نمو علاقته بالله صاعداً نحو الله، ومعه كل الخليقة متجدِّداً **"بالانعطاف نحو الله"** (الرسالة إلى الوثنيين فصل ٤)، لكن دخول الشر بحيلة الشيطان جعل الموت والشيطان والفساد يسود على الإنسان، وهو ما يحصر مشكلة الشر في الإنسان وفي كيانه. هنا - بشكل خاص - نرى أنَّ الشر غريبٌ على الطبيعة الإنسانية.

التسليم الآبائي الشرقي والفدية في لاهوت الغرب

إذا تذكرنا أنَّ الابن هو الوسيط، وأنَّ علاقة الخليقة مع الله هي مِن خلال الكلمة، وأنَّ تشوه هذه العلاقة هو تشوهٌ لعلاقة الإنسان بالكلمة وبالآب، أدركنا أنَّ اللاهوت الشرقي لا يمكنه أنْ يقع في ذات الخطأ الذي وقع فيه الغرب في العصر الوسيط حيث خلق صورةً عن الله لا أساس لها في الكتاب المقدَّس، ولا في كتابات الآباء وتقوم على الاعتقاد بأنَّ الابن دفع فدية للآب، أو أرضى مطالب العدل، وقدَّم للآب فديةً هدَّأت غضبه وجعلته يرضى عن الإنسان. هذا التصور هو شرحٌ ساذجٌ قدَّمه أساتذة اللاهوت منذ العصر الوسيط ابتداءً مِن أنسلم ١١٠٢م، ثم تطور بعد ذلك حتى ساد على الفكر الغربي البروتستانتي

أكثر مِن الكاثوليكي. ويمكن لِمَن يدقق في هذه الفكرة أنْ يلمح على الفور.الكثير من الأخطاء.

الأخطاء اللاهوتية في تعليم العصر الوسيط

١ـ تجاهُل علاقة الخليقة بالآب مِن خِلال الابن، وهو أمر ذو دلالة هامة؛ لأنَّ مطالب العدل الإلهي خاصةٌ بالآب والابن، وليست قاصرةٌ على الآب وحده.

٢ـ إنكار أو تجاهل أنَّ مطالب العدل الإلهي هي خاصة بالروح القدُس أيضاً، الذي لم يعُد له دورٌ واضحٌ في لاهوت الغرب، ولا في موضوع الخلاص بعد عصر القديس أوغسطينوس. الأمر الذي يتناقض مع عمل الروح القدُس، أو روح الرب في الأنبياء في العهد القديم، والذي كان يمسح الملوك، ويقود شعب الله، ويعطي المواعيد، ويحفظ حياة الخليقة حسب كلمات قانون الإيمان النيقاوي التي تُلَخِّص عمل الروح القدُس في عبارةٍ واحدةٍ **"نعم نؤمن بالروح القدُس الرب المحيي"**، فهو حيٌّ، ومحيي لأنَّه روح الحياة وقوتها (مزمور ١٠٤ : ٣٠).

٣ـ ثم هناك تجاهُلٌ آخر أخطر مما سبق يمس عقيدة التوحيد، أو وحدانية جوهر اللاهوت؛ لأنَّ الآب والابن والروح القدُس هم جوهرٌ واحدٌ، لا يجوز فيه الانقسام أو التجزُّؤ، لا ثلاثة جواهر كل منها له إرادة خاصة مستقلة. وقد عبَّر القديس اثناسيوس عن هذه الحقيقة في دقةٍ متناهيةٍ في المقالات التي رد فيها على لاهوت الهرطقة الأريوسية، وبالتالي يتعذر علينا ـ إذا كنا نعتقد بالواحد في الثالوث ـ أنْ نتصور أنَّ الآب قَبِلَ فديةً مِن الابن، أو أنَّ الابن قدَّم فديةً للآب .. كل هذه التصورات الساذجة تجعل الابن يقدِّم الدواء، والعلاج للخالق ـ الذي لم يُصَب بمرضٍ ـ وينسى الإنسان المريض الذي احتاج إلى الدواء والحياة وعدم الفساد، وهو ماجاء به الرب بتجسده وموته.

الذبيحة والتقدِمة والفدية في كتابات القديس أثناسيوس

يؤكِّد القديس اثناسيوس إن الرب قدَّم ذاته ذبيحةً. وهو يحرص على استعمال ذات مفردات العهد الجديد، أي أنَّه مثل الآباء الرسل لا يذكر مطلقاً أنَّه قُدِّم ذبيحةً للآب نيابةً عن البشرية، وهي الفكرة الشائعة في العصر الوسيط. فكيف فهم أثناسيوس موت الرب على الصليب من خلال كلمة ذبيحة، أو تقدمة، أو فدية:

١- ذبيحةٌ بلا عيب

[قُدِّم ذبيحةً بلا عيب، وقدَّم جسده للموت، وفوراً أباد الموت (رفع الموت) مِن كل الذين يشبهونه، لأنَّه قدَّم ما يماثلهم]

(تجسد الكلمة ٩ : ١٥٥).

والنص يؤكد أنَّ الرب قَدَّم ذبيحةً لا يذكر اثناسيوس أنَّها للآب، وإنما يذكر أنَّ التقديم للموت لكي يرفع أو يبيد الموت عن أقران الرب، أو مَن يماثلهم إذ قدَّم الرب جسداً مماثلاً لأجسادهم. وتقديم الرب جسده للموت، لا يعني أنَّ هناك شخصٌ كائنٌ اسمه الموت، ولكن ذلك يعني احتواءُ الموت في جسد الرب حتى يمكن إبادته.

والقديس اثناسيوس لا يذكر نوع الذبيحة، أي أنَّه لا يأخذ مِن مفردات وأسماء الذبائح في العهد القديم الاسم الطقسي، أو ما إذا كانت هذه ذبيحة خطية أو ... الخ. بل ذبيحة فقط، وهو كما سنرى أحد المعاني الجديدة الخاصة بالذبيحة التي لم تَرِّد في العهد القديم، إنها ذبيحةٌ حرةٌ، وتقدِمةٌ أو صعيدةٌ يقدِّمها الرب لكي يحوِّل الإنسانية بهذا التقدِّيم إلى حياةٍ جديدةٍ.

٢-ذبيحة جسده

يعود القديس اثناسيوس إلى ذات الفكرة في الفصل العاشر في تجسُّد الكلمة، ويؤكِّد مِن جديد أنَّ الرب نزع الموت وأباده بواسطة جسده، أو حسب كلماته الدقيقة **"بتقديم جسده الخاص"**، والفعل اليوناني" προσφορας" هو تقديمٌ حُر. ثم يقتبس نص (عب ٢ : ١٠) ويعلِّق عليه قائلاً:

[إن هذه الكلمات تعني أنَّ اللّٰه الكلمة الذي خلق البشر منذ البدء هو وحده وليس آخر قادر على أن يجئ بالبشر مِن حالة الفساد الذي أصابهم، سوى اللّٰه الكلمة الذي خلقهم مِن البدء. وأنَّه مِن أجل ذبيحةٍ تُقَدَّم لأجل الكل، أو عن الكل، قَدَّم الكلمة ذاته جسده الذي اتخذه]

ثم يدَّعم اثناسيوس شرحه بالعبارة المشهورة في (عب ٢ : ١٤-١٥).

[إذ قد تشارك الأولاد في الدم واللحم، اشترك هو فيهما أيضاً، حتى بالموت يبيد الذي له سلطان الموت، أي الشيطان، ويحرر الجميع الذين بسبب الخوف مِن الموت كانت كل حياتهم تحت العبودية].

وهكذا يشرح اثناسيوس ماذا يعني بكلمة ذبيحة:

[بذبيحة جسده وضع نهاية لناموس الموت الذي ساد علينا، وجدَّد لنا بداية، أو أصل" αρχην ξωης " الحياة بالرجاء في القيامة] (فصل ١٠ : ١٥٧- ١٥٨).

وذبيحة جسده هي ذبيحة تبيد الموت حسب نص العبرانيين ٢ : ١٤-١٥ وحسب كلمات القديس اثناسيوس. وهنا لا يجب أنْ نخوض حرباً كلاميةً أو لغويةً عن المعنى الدقيق للمفردات التي استخدمها القديس اثناسيوس، وهل هي **"عنا"**، أو **"لأجلنا"**، أو **"نيابة عنا"**؟[1]، فالجدل

[1] لا تعرف اللغة اليونانية الخاصة بالعهد الجديد، ولا الترجمة العربية للعهدين كلمة "نيابة عن"، أو "بدلاً عن". ووجود هذه التعبيرات في الكتب العربية، هو نقلٌ عن اللغة الإنجليزية تحديداً.

اللغوي حول الفروق اللفظية بين لأجلنا وعنا لم يظهـر في اللاهوت المسيحي إلاَّ أثناء وبعد عـصر حركـة الإصـلاح، وبالتالي يجب البحث عن الأسـباب اللاهوتيـة والتاريخيـة التي أدت إلي هذا الاسـتخدام، وذلـك قبـل البحـث عـن الأسباب اللغوية، وسوف نرى ما هي الأسـباب اللاهوتيـة التي قدمها اثناسيوس.

٣- ذبيحة لأجل الجميع

يقدِّم اثناسيوس هذا الشرح مؤكِّـداً حـضور الكلمـة في كـل الخليقـة: فـوق وأسفل وعرض كل شيء. فوق في الخليقة. أسفل في التجسُّد. عمـق في الجحـيم. عرض في العالم كله.

[كل شـيء قـد امـتلأ مِن معرفـة اللّه. لـذلك الـسبب، لم يُكمِّل الذبيحة عن الكل بمجرد مجيئه مباشـرةً، ويقـدِّم جسده للمـوت مُقيماً إياه .. ولكـن بواسـطة جسده جعل نفسه منظـوراً وأعطـى العلامات (الآيات) التي تجعله معروفاً، لـيس كإنسانٍ فقـط، بـل اللّه الكلمـة أيـضاً. وبطـريقتين أشـفق المُخلِّـص علينـا بتجـسده: **أولاً أباد الموت، وثانياً جدَّدنا**] (فصل ١٦ : ١٧٣).

ماذا يعني القديس اثناسيوس بتعبير "ذبيحة عن الكل"؟

إن تعبير **"ذبيحةً عن الكل"**، هو تعبيرٌ دقيق له أكثر من دلالةً؛ لأنَّه:

أولاً: يؤكِّد أنَّ موت الرب هو مِن أجل الجنس البشري كله، أي شمولية الخلاص.

ثانياً: أياً كانت ترجمة الكلمات اليونانية، فإن **"عن"**، أو **"لأجل"**، إنما تعني بكل دِقةٍ المعنى اللاهوتي المتكرر والظاهر على كل صفحة مِن صفحات كتاب تجسد الكلمة، وهذا المعنى اللاهوتي يجب حصره فيما يلي:

١- عجز الإنسان عن تحرير نفسه مِن الفساد الذي نشب أظفاره في الجنس البشري.

٢- عجز الإنسان عن الإفلات من، أو مقاومة الموت، فهو ضعيف يموت دون أنْ يقوى على العودة إلى الحياة، ويموت دون إرادته.

٣- قدرة الكلمة كخالقٍ ـ خلق كل الأشياء مِن العدم ـ علي أنْ يموت، ويقـوم من الموت.

ويضع اثناسيوس التعليم المسيحي في شكل سليم وواضح هكذا:

الفساد لا يمكن إبطاله إلاَّ بالموت.

الكلمة غير قابلٍ للموت.

أخذ جسداً قابلاً للموت.

يموت عن الجميع.

يظل فوق الموت[1] **؛ لأنَّه الكلمة الذي هو فوق الجميع.**

وبالتالي يبطل الموت / يبيد الموت / يوقِف أو يضع نهاية لناموس الموت (فصل ٩).

٤- ولأنَّ الكلمة هو خالق الإنسان مِن العدم، استطاع أنْ يحتوي الموت، أو كما يقول اثناسيوس يقابله في جسده. ولا داعي لأنْ نعيد تكرار التشبيهات التي قدمها القديس اثناسيوس عن صراع الرب ضد الموت، ولكن يكفي أنْ يتذكر القارئ إنَّ إبادة الموت هي المعنى السائد في المقاطع الثلاثة التي قدمناها حتى الآن.

إذن **"لأجل"**، أو **"عن"** ... الخ. تعني قوة الكلمة في مواجهة ضعف الإنسان، وسلطان الكلمة على كل شئ في مواجهة عجز الإنسان. فالكلمة يقدر على أن يقابل الموت بالحياة؛ لأنه هو الحياة.

---

[1] يظل فوق الموت لأنه قدوس وبلا شر، أمَّا إذا وقف أمام الآب كخاطئ، فإنه يصبح تحت سلطان الموت!!!...حاشا.

٥- وتبقى نقطةٌ هامةٌ وهي الخاصة بوساطة الابن، سوف نعالجها عندما ندرس المقالات ضد الأريوسيين؛ لأنَّها خاصةٌ بأُلوهية المخلِّص، قبل أنْ تكون خاصة بتجسُّده، ولذلك سوف نؤجِّل شرحها.

٤- الذبيحة وهيكل جسده

قدَّم المخلِّص ـ ليس فقط الذبيحة ـ بل أيضاً **"هيكله"**، أي جسده للموت لكي يحرر البشر مِن التعدِّي الأول، ولكي يُظهر نفسه أعظم مِن الموت (فصل ٢٠ : ١٨٣). ومرةً ثانيةً نرى الذبيحة عن الكل؛ لأَنَّ الموتَ عامٌ وشمِل الكل، ولكن الجديد هو تقديم الهيكل. والهيكل عادةً لا يُقدَّم في ذبائح العهد القديم، وإنما الذبيحةُ فقط، ولكن اثناسيوس الذي يعرف أسفار الكتاب المقدَّس جيداً، يدرِك أنَّ تقديم جسد الرب للموت هو إبادة للهيكل القديم، أي هيكل سليمان وسائر الفرائض الموسوية التي نص عليها العهد القديم. وهكذا يحرص اثناسيوس في رسائل الفصح أنْ يظهِر هذا المعنى الهام الذي لا يعالجه في تجسد الكلمة؛ لأنَّه في كل رسالة تقريباً يؤكد زوال الرمز وانحسار الظِّلال ابتداءً مِن الأبواق (رسالة رقم ١) إلى حَمل الفصح الذي يظهر في معظم الرسائل. ولكنه بشكلٍ خاص، يؤكِّد في الرسالة الأولى (عام ٣٢٩م) إن عبارة «**قد أُكمِل**»[1] تعني نهاية عبادةٍ موسى كلها «**قد انكسر المذبح، وانشق حجاب الهيكل**» (فقرة رقم ٨ ص ٥٠٩) وهكذا مضت الظِّلال عندما سلَّم الرب هيكله للموت لكي يؤسِّس الحياة الجديدة، ويعيد الإنسان إلى ما كان عليه قبل السقوط، بل وبنعمةٍ أعظم، وهي نعمة الشركة في الطبيعة الإلهية. ومن الشذرات الباقية مِن رسالة الفصح عام ٣٥٧ (رسالة رقم ٢٩) يتحدث اثناسيوس عن زوال هيكل سليمان، ولكن مِن الضروري في الوقت الحاضر أنْ نرى أنَّ تعبير تقديم هيكله، وهو تعبيرٌ يعتمد على عبارة الرب نفسه في إنجيل يوحنا (٥ : ٢٠) يُظهِر لنا أن اثناسيوس يستخدم هذا التعبير للإعلان عن المحبة

[1] طبعاً هذا يختلف جذرياً عن المعنى الشائع عند طوائف البروتستانت بأن الرب قال: "قد أكمل" لأنه دفع الثمن وقدم الفدية للآب، وهو بكل أسف ما نقرأه في كتابات بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس المعاصرين.

الإلهية؛ لأنَّ الله كان يُظهِر مجده في هيكل العهد القديم، بينما صار الصليب عرش المحبة الإلهية والنور الذي يُعلِن الله بشكلٍ بارز:

[لأنَّه الآن قد أقام الصليب، وبذلكً انهارت الوثنية، وبهذه العلامة تهرب منهزمةً كل القوات الشيطانية. والمسيح وحده .. تُقدَّم له العبادة، وبه يُعرَف الآب .. وأنْ لا يخجل الإنسان مِن الاعتراف بأنَّ مِن صعد على الصليب هو كلمة اللّه، ومخلِّص العالم] (الرسالة إلى الوثنيين ١ : ٥).

وقبل ذلك يخصص اثناسيوس الكلام عن الصليب، ويقول:

[إنَّ الوثنيين يستهزئون بالصليب، ولكنهم لا يرون إنَّ قوته تملأ العالم، وإننا به صرنا نعرف اللّه؛ لأنَّ هذه المعرفة قد أُعلِنت في الصليب] (المرجع السابق ١ : ٣).

وهو ذات المعنى الذي تؤكده صلاة قسمة سبت الفرح:

"أنقذتنا بمعرفة صليبك..".

٥- ذبيحةُ حياة

يؤكد القديس أثناسيوس هذا المعنى الهام، فيقول:

[ولأنَّه الحياة وكلمة اللّه، ولأنَّ الموت يجب أنْ يتم عن الجميع، لذلك - ولأنَّه الحياة والقوة - أعطى جسده القوة. وعندما حدث الموت، اتخذ الفرصة (المناسبة) التي قدَّمها الآخرون، ولم يسعَ هو إليها لكي يكمِّل الذبيحة. لأنَّه لم يكن مِن اللائق أنْ يموت الرب بالمرض، وهو الذي شفى أمراض الآخرين .. (ولا بالضعف أو الشيخوخة)، ولكن لماذا لم يوقِف أو يمنع الموت كما فعل مع المرض؟ لأنَّه لهذا السبب أخذ جسداً، ولم يكن مِن اللائق أنْ يتفادى الموت حتى لا يمنع القيامة (ولم يمُت الرب بالمرض، أو الجوع لأنَّه الكلمة) وذلك لأنَّه مات فديةً عن الجميع. إلاَّ أنَّه "لم يرَ فساداً" (أعمال ٢ : ٣١) لأنَّه قام (بجسده) كاملاً، لأنَّ الجسد لم يكن جسد (شخص)

آخر، بل جسد مَن هو نفسه الحياة]

(فصل ٢١ : ١٨٧- ١٨٩).

ويلاحَظ إن اختيار عبارة، أو عنوان **"ذبيحة حياة"**، هو اختيار ناتج عن المضمون الواضح لِمَن هو نفسه الحياة، وقد مات. ويجب أنْ نتوقف عند ثلاث كلمات هامة خاصة بالذبيحة.

١- **"يكمِّل الذبيحة"**، وهنا الموت هو الذي يكمِّل تقديم الرب؛ لأنَّ اثناسيوس يؤكد أكثر مِن مرة أنَّ الرب قدَّم جسده للموت.

٢- **"مات فديةً عن الجميع"**، ويحصُّر اثناسيوس معنى الفدية في تقديم الذبيحة لإبادة الموت.

٣- **"الجسد الذي مات هو جسد الكلمة الذي هو نفسه الحياة"**، وهو مصدر حياة كل الكائنات، وهو بذلك فوق الموت وأقوى من الموت.

هذه العناصر الثلاثة لا تظهر بالمرة في لاهوت العصر الوسيط، ولا يعرفها أنسلم، ولا مارتن لوثر، ومِن قبل كل هؤلاء القديس أوغسطينوس الذي وضع أساس اللاهوت المدرسي، دون أنْ يعلم أنَّه كان يمثل نقطة تحوُّل بين الشرق والغرب.

٦- أكمَّل الذبيحة

١- صحيحٌ أنَّ القديس اثناسيوس يذكر أنَّ الابن قدَّم جسده للآب، ولكنه يؤكد إيضاً أنَّه قدَّم جسده للموت. وسوف نناقش علاقة الابن بالآب في المقالات التي يرد فيها اثناسيوس على الأريوسية. يكفي الآن أنْ نلاحظ أنَّ تقديم الابن جسده في كل كتاب تجسد الكلمة لا يشير مِن قريبٍ، أو بعيد إلى تهدئة غضب الآب، أو إلى دفع الثمن، أو إرضاء العدل. كل هذه المعاني غير واردة بالمرة في نصوص القديس اثناسيوس، ولا يجب أنْ تُفرض عليه.

٢- وإكمال الذبيحة بالموت كما نرى هو في الواقع إبطال الموت وإبادته لكي تصبح ذبيحة الحياة هي الانتصار على الموت وإزالته.

٧ـ الذبيحة والفدية

١ـ لا يجب أنْ نُخطئ في فهم كلمة **"فدية"**، لأنَّها تعني هنا تحرير الإنسان، وليس رد اعتبار للآب، ولا تعني ـ مِن خلال ما عرضناه مِن نصوص ـ شيئاً سوى الذبيحة؛ لأنَّ المعنى كما رأيناه في فصل ٢١ : ١٨٩ لا يعني سوى تحرير الجسد مِن الفساد، وإلاَّ فلماذا اقتبس اثناسيوس نص أعمال ٢ : ٣١ – ومزمور ١٥ : ١٠ إلاَّ لكي يؤكد أنَّ الفدية هي عتق، وتحرير جسد أو طبيعة الإنسان مِن الموت.

٢ـ ولكي نتأكد مِن أننا على صوابٍ مِن تفسير الفدية كجانب أساسي هام يشرح فاعلية الذبيحة، علينا أنْ نتذكر ما يذكره اثناسيوس عن الفدية في (فصل ٢٥ : ١٩٥) حيث يضع اثناسيوس نصاً آخر غير نص مزمور (١٥ : ١٠ وأعمال ٢ : ٣١) وهو **"**نقض الحائط أو الحاجز المتوسط**"** كما يستخدم بعده مباشرة نص «وأنا متى ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع» (يوحنا ١٢ : ٣٢) وهنا يتداخل معنى الفدية والذبيحة، كلٍ في الآخر حتى أننا إذا أردنا أنْ نقدم تفسيراً شاملاً لأثناسيوس وجب علينا الاهتمام بالمعاني المتداخلة وعدم فصلها بطريقة وأسلوب اللاهوت المدرسي الذي شوَّه عمل الابن المصلوب لأجلنا مِن أجل إثبات نظرية أو فكرة معينة. وهنا قلما نجد في لاهوت العصر المدرسي عبارة مثل عبارة اثناسيوس «**تألم بالموت، ليس لأجل نفسه، وإنما مِن أجل خلود وخلاص الكل**» (فصل ٣٤ : ٢١٧). هكذا رد إلينا موت الرب على الصليب الخلود الذي فقدناه بالخطية. هل يجب هنا أن نحاكم القديس أثناسيوس نفسه أمام المجمع المقدس لأنه علَّم بهذه الحقائق الرسولية؟!!

٨- موت الرب بالجسد، هو موت جسد مَن هو الحياة الذي لا يموت

يبدو أن التعليم عن موت الرب بالجسد صار غامضاً عند الذين يرتدون ثوب الأرثوذكسية وهم عنها مُعرِضون؛ لأنه إذا كانت الذبيحة قد أُكمِّلت بموت الرب، صار مِن الواضح أنَّ الربَ ـ وهو الحياة ـ قَبِـلَ ما لا يخصه، ولا ما لا ينتمي إليه.

لقد شرحنا بما فيه الكفاية أنَّ الرب لم يمت على الصليب موت الخطاة، ولم يكن للموت سلطان عليه، بل العكس هو الصحيح، لقد مات لأنَّه هو الحياة، وهو بذلك الوحيد الذي يقدر على إبادة الموت، وقد شرح القديس اثناسيوس هذا في تجسد الكلمة بشكل وافر، وهو ما لا نعيد شرحه إشفاقاً على القارئ.

كيف يجب أن نفهم موت الرب بالجسد؟

إنَّ موت مَن هو الحياة لا يؤكد ـ فقط ـ سلطان وقدرة الرب، بل يؤكد أنَّ التحول العظيم في طبيعة ناسوت المسيح قد حدث في الصليب، وصار أحد ثمار الصليب التي توهب لنا:

*** صار الجسدُ بلا فسادٍ.**

*** صار الجسدُ غير قابلٍ للألم.**

*** صار الجسدُ خالداً وقاهراً للموت.**

هذه هي طبيعة عمل مَن هو الحياة، وهو ما لا يجب أنْ يتحول مِن نقلةٍ خطيرة، وتطور في تاريخ ومصير الإنسانية إلى مكاسب حصل عليها الآب بموت ابنه، لأنَّ الخلاًص ليس خلاص الله مِن مُشكلةٍ ما، بل خلاص الإنسان مِن الفساد والموت. والإنسان هو المحتاج، وليس الله الذي لا يحتاج لأحد. ويجب أنْ يبقى الخلاص هو عطية الله الآب في ابنه، وليس عطية الابن للآب لكي ينزع عنه غضبه.

التعليم الأرثوذكسي عن الخلاص

الخلاص شركة في المسيح وبالمسيح؛ لأن المسيح جاء لكي ينقل تاريخ الإنسانية مِن القبر إلى تاريخ لا ينتهي، وهو مواطنة السماء، ولكي يحول الإنسانية مِن الفساد إلي عدم الفساد، ولذلك أصبح مِن الضروري أنْ ندرِك أنَّ الأسرار الكنسية، وبشكلٍ خاص المعمودية والإفخارستيا، هي عطايا وشركة في المسيح وبالمسيح. ويصبح الخلاص ليس ذكرى عقلية لما حدث، بل ممارسة فعلية يمارِس فيها المسيح قوته وسلطانه الإلهي، ويعطي حياته كنعمةٍ لنا، وبدون هذا الإيمان تتبدد كل عطية ونعمة، بل نقول: بدون الشركة في لاهوت وفي ناسوت المسيح وصلبه وقيامته ولاهوته يتعذر علينا أنْ "نُعمَّد"، أو "نتناول" أو حتى نصلي .. وهنا يصبح المسيح قوة الحياة التي تعبر عنها الليتورجية بشكل واضح وبكلمات قاطعة في أُوشية الإنجيل، نكتفي بها لأنها تحتوي كل شئ:

"أنت هو حياتنا كلنا، وخلاصنا كلنا

ورجاؤنا كلنا وشفائنا كلنا وقيامتنا كلنا".

الخلاص هو شركة في موت الرب وقيامته

وتجديد للطبيعة البشر

الدَّين، والثمَنْ
حسب أسفار الكتاب المُقدَّس
وشرح الآباء

الـدَّين والـثمَن، كلمتـان تُـستخدمان بـوفرة في الـشروح المختلفـة لتـدبير الخلاص، وكلا الكلمتين وردتا في الكتاب المُقدَّس، وكلاهما أيـضا اسـتخدمهما كلٌ مِن آباء الكنيسة، وشُرَّاح حركة الإصلاح، فما هو معني هـاتين الكلمـتين في الكتاب المقدس، وعند آباء الكنيسة، وغيرهـم؟ سـوف نعـالج ذلـك في مبحـثين، يُخصَّص الأول منهما لكلمة "الدَين"، والثاني لكلمـة "الـثمَن"، وذلـك علـى النحو التالي:

الـدَّيــن Οφειλω

تقسيم

نعرض في فرع أول للمقصود بالكلمة "ديـن" في الكتـاب المقـدس، حيـث نستعرض كيف عبَّر العهد القديم عن معنى هذه الكلمة، كما نعرض للمعنـى في العهد الجديد وذلك من خلال كثير من التطبيقات والنـصوص. ومـن ثـم في فرع ثان نعرض لمعنى الكلمة عند الآبـاء وذلـك مـن خـلال التعـرض لـبعض نصوص الآباء، وهو ما يكشف لنا في النهاية أن الهوة لا تُعبَر بين مفهوم الكلمة في الكتاب المقدس وعند الآباء، وبين مفهومها في لاهوت العصر الوسيط وفكـر حركة الإصلاح، الأمر الذي يعنى أن استخدام نفس المصطلحات لا يعنى وحـدة الإيمان.

الكلمة اليونانية دَين "Οφειλω" في الكتاب المُقدَّس

أولاً: كلمة "دَين" في العهد القديم

لا تعرف أسفار العهد القديم حسب اللغة العبرانية كلمة "دَين"، ولذلك لا نجد هذه الكلمة تُطلَق على الخطية في أسفار العهد القديم العبرانية. أمَّا الكلمة اليونانية "دَين"، فهي شائعة في الأدب اليوناني الكلاسيكي، وهي تعني ما هو شائعٌ الآن في المعاملات التجارية والسوق .. الخ. وكانت صكوك الديون معروفة. ولقد عثرت البعثات التي كانت تُنقِّب عن الآثار المصرية على برديات يونانية في الفيوم والصعيد تشير إلى عدم دفع إيجار الأراضي الزراعية، ومِن ثم تحوَّل الإيجار غير المدفوع إلى دَين، وأشهر هذه البرديات بردية برلين والمعروفة باسم (p. oxy 910).

ورغم شيوع استخدام اللغة اليونانية لهذه الكلمة، إلاَّ أنَّ الترجمة اليونانية لأسفار العهد القديم العبرانية المعروفة باسم "السبعينية" استخدمت كلمة دَين خمس مرات فقط في معناها التجاري، وعشرة مرات فقط في الأسفار القانونية الثانية التي يُطلِق عليها البروتستانت اسم "الأبوكريفا". وحسب النص اليوناني تظهر كلمة **دَين** في (تث ١٥ : ٢) بينما الكلمة العبرانية هي **"قرضٌ"** لا يُدفَع إذا مرت عليه سبع سنوات حسب نص السفر نفسه «في آخر سبع سنين تعمل إبراء، وهذا هو حكم الإبراء يبرئ كل صاحب دَين يده مما أقرض صاحبه .. لأنَّه قد نودي بإبراء للرب» (تث ١٥ : ١و٢). والفرق بين الدين والقرض ظاهر لأن الحضارة اليونانية لم تكن تعرف سنة اليوبيل، سنة إبراء القروض، لأنَّ القانون كان يحمي صاحب المال حسب التشريع اليوناني الذي لم

يكن يعطي أي حق لَمن اقترض، بعكس الشريعة الموسوية.

وحسب السبعينية أيضاً تظهر كلمة "دَين" كترجمة للكلمة العبرانية **"قرض"**، فقد استعمل المترجمون مِن يهود الإسكندرية الكلمة اليونانية في (أشعياء ٢٤ : ٢) كمقابل لكلمة "قرض". "كما المقرض، هكذا المقترض، وكما الدائن هكذا المديون" كما استخدم سفر المكابيين الأول كلمة "دَين" كاسم للضريبة الخاصة بالمملكة (١ مكابيين ١٠ : ٤٣) والتي لها أسمٌ آخر حسب النص اليوناني "ضريبة التاج" أي ضريبة الملك (١ مكابيين ١٣ : ٣٩).

ولعل أغرب ترجمة في السبعينية، هي ترجمة عبارة **"ذبيحة التطهير"** في النص اليوناني لسفر الأمثال (١٤ : ٩) والتي تسمى "ضريبة الفجَّار"، أي الغرامة أو الدَّين الذي يدفعه الفجَّار.

وبينما يقول النص العبراني «أوف للرب **نذورك**» (مز ٥٠ : ١٤)، نجد أنَّ النص اليوناني يقول «أوف للرب **ديونك**» (مز ٥٠ : ١٤). فقد تحوَّل الاسم "نَذر" إلي "دَين"، وذلك بسبب تأثير الحضارة اليونانية على البيئة العبرانية، فنرى هذا التأثير في اللغة العامية التي كان يتكلم بها الشعب، أي اللغة الآرامية، إذ يظهر في اللغة الآرامية وحدها ـ بسبب اتصال الحضارات ـ الاسم "ض رب" أي "دَين" لأول مرة.

والجدل الذي دار منذ عدة سنوات بين علماء فقه اللغة، لا سيما *Dalman* و*Lohmeyer* حول سبب هذا التحوُّل جديرٌ بالملاحظة، لأنَّ *Lohmeyer* بالذات يؤكد أنَّ الواجب الديني، والفرض صار بمثابة "دَين" إذا قصَّر الإنسان في تأديته، وبالتالي أصبح مذنباً أو خاطئاً، وهكذا صارت الخطية بمثابة دين في اللغة الآرامية العاميِّة، ويعزز *Dalman* هذا الرأي السابق بنص صلاة الرابي Rabbi أخيبا Akiba :

"أبانا وملكنا، حسب رحمتك العظيمة،

أغفر لنا، أو أمحو ديوننا، أو أمحو صك ديوننا التي علينا".

وهكذا صار للخطية اسمٌ تجاريٌ بسبب سيادة حضارة اليونان على الحضارة السامية[1]

([1]) W. Eichrodt, theology the OT, vol 2: 81-89.

ثانياً: كلمة "دَين" في العهد الجديد

لعل أوَّل ما يجب أنْ نلاحظه في هذا الصدد، هو النص الآرامي للصلاة الربانية حسب إنجيل القدِّيس متى «واترك لنا ما علينا كما نترك نحن لِمَن لنا عليه» (متى ٦ : ١٢) المقابل للنص المتداول «وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» والفرق اللغوي بين الآرامية والنص اليوناني لنفس الصلاة في إنجيل لوقا (١١ : ٤) «أُترك لنا خطايانا، فإنَّا نترك نحن لكل مَن لنا عليه».

فحسب الأصل الآرامي استخدم القدِّيس متى كلمة "دَين" حسب معناها التجاري الشائع. يؤكد هذا ما جاء في مثل العبد الشرير في (متى ١٨ : ٢٣ـ٣٤)، كذلك استخدم القدِّيس لوقا نفسه ذات الكلمة في (لوقا ٧ : ٣٦ـ٥٠) في حديث الرب عن غفران ديون المرأة الزانية.

ولعل القارئ لاحظ أنَّ الترجمة العربية لإنجيل (متى ٢٣ : ١٦ـ١٨) تقول «مَنْ حلف بذهب الهيكل يلتزم» (متى ٢٣ : ١٦) بينما مِن الأفضل أنْ نترجم النص حسب الأصل اليوناني وحسب الخلفية الحضارية نفسها، أي قواعد البيع والشراء، إلى "مَنْ حلف بذهب الهيكل يصبح مدَيناً إذا لم يوفِ قَسَمَهُ" أمَّا في مثل (متى ١٨ : ٢٣ ـ ٣٤) نرى أنَّ "دَين" العبد الشرير كان عشرة آلاف وزنة. ولقد بدد هذا العبد، ذلك "القرض"، أو "الحيازة"، ولما عجز عن الدفع، سامحه سيده، أو أبرأه مِن الدَّين، حسب استعمال سفر التثنية (١٥ : ١ـ٢) السابق ذكره. وهنا ـ بشكل **خاص ـ يصبح الغفران بلا مُقابل** ـ لا يدفع فيه المدين شيئاً، بل تترك له كل الديون أو الخطايا، وهو ذات المعنى الذي يقصده الرب في النص الآرامي للصلاة الربانية «أُترك لنا ما علينا (مِن ديون) كما نترك نحن لِمَنْ لنا عليه مِن ديون»، أو «أغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً ..».

١ـ ما هو المقصود بالكلمة "أغفر"

لم يعلِّمنا المسيح مَثَل العبد الشرير في متى (١٨ :٢٣ـ٣٤) لمجرد التسلية، أو لمجرد تقديم فكرة عامة عن الغفران بلا مقابل، لأنَّ التعليم السائد في فلسطين، وبالذات في مدرسة الفريسيين كان يُلزِم الخاطئ بتقديم صلاة وصوم وفدية لكل متضرر مِن الخطية، أي تقديم مقابل للبشر. ولكن المسيح جاء لكي يقول العكس، أي عدم تقديم مقابل بالمرة، بل الصفح بلا مقابل إلي حد ٧ × ٧٠ مرة، وهو السبب الذي كتب فيه متى المَثَل. ويجب ترجمة الفعل اليوناني"αφιεναι" إلي "أُترك"، وليس أغفر، فهو فعلٌ خاصٌ بالتخلِّي عن الإساءة، وهو أحد الجوانب الأساسية للتعليم عن النعمة في العهد الجديد، أي التعليم بترك الإساءة، لكي تتأصل وتقوى المحبة.

٢ـ الدَّين بمعناه التجاري

إنَّ أوضح مثال للدَّين بمعناه التجاري، هو نص (فليمون ١ :١٨) «ثم إنْ كان قد ظلمك بشيءٍ، أو لك عليه دَينٌ، فاحسب ذلك عليَّ» لأن العبد أنسيموس كان قد هرب من خدمة سيده الذي يملكه قانوناً.

٣ـ الواجب، والدَّين

يقول اليهود لبيلاطس البنطي في (يوحنا ١٩ :٧) "حسب ناموسنا يجب أنْ يموت"، والنص اليوناني يستعمل الكلمة "οφειλει" أي **الواجب القضائي حسب حكم الشريعة**. هذا بالضبط المقصود بكلمات عبرانيين (٥ :٣) «ولهذا الضعف يلتزم أنه كما يُقدِّم عن الخطايا لأجل الشعب هكذا أيضا لأجل نفسه» وهو ذات المعنى الخاص بواجب الرجل والمرأة في (١ كور ١١ :٧، ١٠) «فإن الرجل لا ينبغي أن يغطِّي رأسه لكونه صورة الله ومجده،وأمَّا المرأة فهي مجد الرجل...... لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها مِن أجل الملائكة»، وهو نفس المعنى الخاص برئيس الكهنة حيث يظهر أنَّه يجب رئيس الكهنة أنْ يُقدِّم ذبيحةً عن نفسه.. فإذا كان الواجب هنا بمثابة دَين، وإذا كان عنصر الإلزام هو الظاهر، لأنَّ الإلزام تحدده الشريعة، وحكم القانون، فإن التساؤل هنا هو عن حجم الإلزام والواجب الذي تحدده المحبة؟

٤ـ المعنى المسيحي لكلمة "دَين"

يقول الرَّسول: «لا تكونوا مديونين لأحدٍ بشيء، إلاَّ بأنْ يحب بعضكم بعضاً» (رو ١٣: ٨). فما هو دَين المحبة سوى الواجب الذي تفرضه المحبة، لا بقوة القانون، بل بقوةٍ أعظم مِن القانون، وهي قوة المحبة التي «لا تطلب ما لنفسها» (١ كور ١٣: ٧). إنَّ إلزام المحبة وواجب المحبة تقرره الإرادة الحرة، لأنَّ الإرادة الحرة في المحبة هي القوة الحقيقية التي تُحرِّك المحبة. وهذا هو المعنى الذي يقصده الرَّسول «يجب علينا نحن الأقوياء أنْ نحتمل ضعف الضعفاء ولا نُرضي أنْفسنا» (رو ١٥: ١).

وهناك جانبٌ آخر نراه في سمو معنى كلمة الدَّين ومشتقاتها، وهو عطاء الأُمم والمال الذي جُمع مِن كنائس الأُمم لفقراء فلسطين. يقول الرسول عن هذه المساعدة «أهل مكدونية وأخائية استحسنوا أنْ يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم، استحسنوا ذلك، وأنَّهم لهم مديونون. لأنَّه إن كان الأُمم قد اشتركوا في روحياتهم يجب عليهم أنْ يخدموهم في الجسديات أيضاً» (رو ١٥: ٢٦، ٢٧) هذا هو واجب المحبة، وهو واجبٌ قائمٌ على الاستحسان، وهو ما يصفه الرسول بأنَّه **"تعب المحبة"** (١ تس ١: ٣). وعندما يتذكر الرسول واجب الصلاة يقول: «ينبغي أنْ نشكر الله» (٢ تس ١: ٣ راجع أيضاً ٢: ١٣) هذا الواجب ليس عبئاً لأنَّه **واجب المحبة**، وهو ما يتردد صداه في وصية المحبة للرجال المتزوجين «كذلك يجب على الرجال أنْ يحبوا نساءهم كأجسادهم،مَن يحب امرأته يحب نفسه» (أفسس ٥: ٢٨).

٥ـ ما هو حجم دَين الإنسان؟

الجواب يحدده القانون، والقانون يحدد ذلك حسب الصك وحسب قواعد البيع والشراء وأسعار السوق .. الخ. لذلك السبب بالذات لم ترد كلمة الدَّين إلاَّ مرتين في كل العهد الجديد، في (متى ١٨: ٣٢) «فدعاه حينئذ سيده وقال له.أيها العبد الشرير كل ذلك الدَّين تركته لك لأنك طلبت إليَّ»، وهنا بالذات نرى كيف استدان العبد مبلغاً مِن المال حدده المَثَل بعشرة آلاف وزنة. كما استخدم الرسول ذات الكلمة، واستحسن المترجم العربي أنْ يترجمها إلي **"جزية"** أو **"ضريبة"** وهو الاستخدام القديم.

ولدَينا نـصٌ واحـدٌ لا يمكـن أنْ يترجـم إلـي دَيـن رغـم اسـتخدام الكلمـة اليونانية "οφειλη" لأنَّ المحتوى كله هو عن العلاقة الزوجية، ولذلك استخدام كلمة "حق" مع فعل "يوفي" هو أفضل وأقرب إلي الواقع الإنـساني نفـسه إذ يقول الرَّسول: «ليوفِ الرجلُ المرأةَ حقها الواجب، وكذلك المـرأةُ أيـضاً الرجـل، ليس للمرأة **تسلط** على جسدها، بل الرجل، وكذلك الرجل» (١ كو ٧ : ٣ـ٤).

٦ـ هل يمكن تطبيق المعنى التجاري على الحياة المسيحية الأُرثوذكسية؟

جاء المعنى المجازي في كلام الرسول بولس عن كرازته "إني مـديون لليونـانيين" (رو ١ : ١٤) وهو ذات المعنى المجازي الذي ورد في (رو ١٥ :٢٧) وسبق الإشارة إليه.

كما جاء المعنى المجازي في عبارة هامة أُخرى إذ يقول الرسول «أيها الإخوة نحـن مديونون ليس للجسد» (رو ٨ : ١٢) وبالطبع لا نـستطيع أنْ نتـصور أنَّ أي إنـسان عليه "دَين لجسده" فهذا مستحيل، لأنَّ الإنسان لا ينقسم إلي قسمين كل مِنهما له واجبٌ، أو دَينٌ على الآخر. يقول الرَّسول بولس إننـا لـسنا ملتـزمين بإرضـاء الجسد بسبب قيامة الرب مِن الأموات.

٧ـ الدَّين في نص إنجيل متى ٦ : ١٢:

"وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا".

إذا كان القانون وعقود البيع والشراء والصكوك تحدد قيمـة "الـدَّين"، فـإن الكتاب المقدس لم يحدد قيمة الخطية كدَين، وقد لاحظ القديس لوقـا أنَّ الكلمـة الآرامية السائدة في فلسطين لا تعني شيئاً بالنسبة للمسيحيين مِن الأُمـم، فـصاغ الأصل الآرامي "أُترك لنا ما علينـا" إلـي "أغفـر لنـا خطايانـا" أو "أغفـر لنـا ذنوبنا" (لو:١١ : ٤)، وهكذا تظهر الترجمة اليونانية للصلاة الربانيـة كمـا يفهمهـا الغربـاء عـن البيئـة الآراميـة، وهـو مـا جعـل القـديس لوقـا يـستخدم "αμαρτιας"بدلاً مِن الكلمة "οφειληματα". هنا اسـتخدم القـديس لوقـا كلمة شائعة ليس لها علاقة بالبيئة الآرامية. ومِن الشيق أنْ نلاحـظ أنَّ القـدِيس متى استخدم بعد ذلك في (٦ : ١٤) ـ «فإنَّه إنْ غفرتم للنـاس زلاتهـم، يغفـر لكـم

أيضا أبوكم السماوي» ـ الكلمة اليونانية "παραπτωματα" وهي لا تعني "دَين"، بل "ذنب"، أو "سيئ" ، "سيئات"، بل إذا درسنا الأصل اليوناني لإنجيل لوقا وجدنا أنَّه استخدم كلمة "المديونين" في (لوقا ١٦ : ٥) «فدعا كل واحد مِن **مديوني** سيده، وقال للأوَّل كم عليك لسيدي»، والكلمة "مديوني" لا يمكن ترجمتها إلي خطاة "οφειλεται"وهكذا نستطيع أنْ نقول إنَّ الموضوع برمته لا يجب أنْ يؤخذ مِن الناحية اللغوية أو القانونية، بل يجب رده إلى المصطلحات اللاهوتية ومعناها الدقيق حسب الإيمان نفسه، وليس العكس.

وإذا عدنا إلي معنى كلمة وفعل "يغفر" فإنَّ النص حسب إنجيل متى هو "أُترك"، وحسب إنجيل لوقا هو "أغفر"، وكلاهما يؤكد على ألاَّ يحفظ الناسُ الإساءات مثل حفظ الديون، لأنَّ الإنسان مهما كان، لا يمكن أنْ يقف أمام الله بلا ديون، أي بلا خطايا. وكان العلاَّمة أوريجينوس هو أول مَنْ لاحظ الفرق بين متى ولوقا في أقدم مقالة كُتِبَت عن الصلاة في العالم المسيحي قاطبةً كما سيجيء.

الكلمة اليونانية دَين "Οφειλω" عند الآباء

أولاً: الدَّين

١ـ الدَّين، أو الواجب حسب شرح العلاَّمة أوريجينوس

يقول العلاَّمة العظيم في شرح الصلاة الربانية:

> ١ـ [علينا ديونٌ، أو بالحري واجباتٌ، وهي ليست فقط في أنْ نعطي، بل أيضاً أنْ نقول ما هو حق، وأنْ نعمل ما هو مطلوب مِنا كواجبٍ علينا تجاه الآخرين. وهكذا نحن أمام اختيارين؛ إمَّا أنْ نهمل هذه الواجبات، وبذلك نتعدَّى شريعة الله، ونصبح مديونين، أو نقوم بواجباتنا] (راجع الفصل ٢٨ مِن شرح الصلاة الربانية وهو الجزء الأخير مِن مقالة الصلاة للعلاَّمة أوريجينوس ومَنْ يتعذر عليه العودة إلى الأصل يمكنه مراجعة الترجمة الإنجليزية مجلد ١٩ سلسلة *Ancient Christian Writers* ترجمة *O. O'Meara* عام ١٩٥٤).

٢ـ الدَّين كواجبٍ بمعناه الرُّوحي، وليس حسب المعنى التجاري

يشرح العلاَّمة أوريجينوس بعد ذلك كلمة دَين ويقول:

[ما هو الذي علينا لإخوتنا؟ هو ما علينا مِن واجباتٍ حددها لنا المسيح بالإيمان].

فالذي يحدد الواجب ويخلقه ليس القانون، بل المسيح والإيمان، وهذا يجعل دَين الواجب أكبر وأعظم مِن دَين التجارة والبيع والمعاملات المالية .. الخ.

ويقول أوريجينوس بعد ذلك مباشرة:

[إخوتنا هم الذين ولِدوا مِن نفس الآباء، ومِن نفس الأمهات. كما أنَّه علينا واجبات أو دَين للمواطنين الذي يعيشون معنا في نفس المدَينة. هذه واجبات عامة تشمل الكل، وهي واجبات أو ديون تشمل الإنسانية كلها، مثل الواجبات والديون التي علينا تجاه الشيوخ والغرباء وكبار السن، أي أولئك الذين نعتبرهم بمثابة آباء لنا. أمَّا الذين هم في مثل أعمارنا، فهؤلاء نحترمهم كإخوةٍ لنا، أمَّا الصغار فهم يُعَامَلون مثل الأبناء. ومَنْ لا يقوم بواجباته تجاه هؤلاء يعتبر مديوناً لكل هؤلاء، وعليه أنْ يدفع الدَّين. أمَّا إذا فشلنا في القيام بواجباتنا وخدمة البشر، وهي واجبات يمليها علينا روح الحكمة النابع مِن المحبة، صارت ديوننا أعظم].

٣ـ الواجبات تجاه الجسد والنفس

[علينا واجبات أُخرى مثل واجباتنا تجاه أجسادنا، فلا يجب أنْ نبدد طاقات الجسد في حياة اللذة. وعلينا واجبات تجاه النفس بأنْ نرعاها بعناية لكي يظل العقل يقظاً حتى لا نتكلم بما هو عاطل، بل بما يُلهِّم الآخرين بالرجاء. وإذا لم نقوم بهذه الواجبات، صارت ديوننا أثقل].

٤ـ الواجب أو الدَين الذي تحدده صورة الله في الإنسان

[وبالإضافة إلي ما ذكرت، أقول إننا خلقنا على صورة اللّه. وهذا يعني أنَّ علينا واجب المحبة كصورةٍ للّه، بأنْ نحب الرب مِن كل قلوبنا، لأنَّ هذا هو التدَيُّن الصحيح. وإذا لم نقم بهذه الواجبات التي تفرضها علينا صورة اللّه فينا، أصبحت ديوننا للّه أثقل؛ لأنَّنا نخطئ ضد الرب، ومَنْ يستطيع في هذه الحالة أنْ يدفع ديوننا؟ فقد كُتِبَ: إذا أخطأ إنسانٌ ضد إنسانٍ، فإن الجماعة تُصلِّي لأجله، ولكن إن أخطأ إنسان إلى الرب، فمَنْ يُصلِّي لأجله؟

(١ صموئيل ٢ : ٢٥)].

٥ـ الواجب، أو الدَّين الذي علينا للمسيح

[ونحن مديونون للمسيح الذي اشترانا بدمه (أع ٢٠ : ٢٨)، لأنَّنا مثل العبد الذي اشتراه سيده فصار العبد سيداً، والسيد عبداً، ويصبح العبد مدَيناً لسيده بالثَمَنْ الذي دفعه فيه. ونحن مديونون للروح القدُّس عندما "نحـُزِن الرُّوح" (أف ٤ : ٣٠)[1] الذي به خُتِمنا ليوم الفداء. وإذا لم نحـُزِن الرُّوح فإننا نقدِّم ثمار الرُّوح المطلوبة مِنا لأنَّه حاضرٌ فينا، ويحيي أنفسنا] (المرجع السابق صفحات ١٠٦ـ١٠٨).

وبعد ذلك يذكُّر العلاَّمة أوريجينوس، الديون التي علينا للأرملة والشماس والقس والأُسقف، ولأنَّ العلاَّمة أوريجينوس يعرف اللغة اليونانية جيداً، فهو يقرأ كلمات الرسول بولس في (١ كور ٧ : ٣ـ٥) الخاصة بالتآلف الزوجي والتي أشرنا إليها مِن قبل على أنها واجبات، أو ديون الزوجة والزوج.

إنَّ ما سبق، يؤكد لنا أنَّ الكلمة اليونانية عندما تُستَخدم في التعبير عن علاقة الله بالإنسان، فهي لا تحتوي على أي مضمونٍ أو مفهومٍ للجانب التجاري، وعلاقات التجارة التي ينظمها القانون التجاري.

ثانياً: "أُترك لنا ما علينا" كما شرحها القدِّيس غريغوريوس النيصي

حسب النص اليوناني للعظة الخامسة للقديس غريغوريوس النيصي، جاءت كلمة "الدَّين" بنفس المعنى الذي نراه في إنجيل متى:

[لنتقدم إلي الأمام نحو قمة شرح معاني كلمات الصلاة الربانية، فكلمات الصلاة تحدد لنا نوعٍ الحياة الإنسانية الذي يؤهلنا إذا شئنا أنْ نقترب مِن اللّه. فالإنسان الذي يُصلِّي هذه الكلمات يخلع كل ضعفات الطبيعة الإنسانية، ويصل إلى قمة حياة الفضيلة بالتشبه باللّه نفسه حتى أنَّه

---

[1] هنا نلاحظ المفارقة الظاهرة، فقد قيل في العهد الجديد إن المسيح اشترانا بدمه (أع ٢٠ : ٢٨)، وقيل أيضاً أن الآب دفع عربون الخلاص لنا، أي الروح القدس (أف ١ : ١٤ وراجع ٢كو ١ : ٢٢ ، ٢كو ٥ : ٥) وهو ما يسقط الجانب التجاري تماماً في فهمنا للخلاص.

يصبح إلهاً آخراً عندما يعمل ما يستطيع اللّه وحده أنْ يعمله، لأنَّ غفران الديون (الخطايا) هو ما يخص اللّه كما هو مكتوب "لا يقدر أحد أنْ يغفر الخطايا إلاَّ اللّه وحده" (مر ٢ : ٧، لو ٥ : ٢١)، فإذا تشبَّه إنسانٌ واقتنى في قلبه صفات الطبيعة الإلهية تحوَّل إلي ما يتشبَّه به].

ماذا تُعلِّمَنْا هذه الطلبة في الصلاة الربانية؟

أولاً: أنْ يكون لدَينا الوعي بأننا مثل اللّه بواسطة الحرية التي لنا في حياتنا حتى يكون لدَينا الجسارة[1] أنْ ندعو اللّه كآبٍ لنا، وأنْ نسأله أنْ لا يتذكر خطايانا بالمرة، ..... لأنَّ حياتنا تعطي لنا الجسارة لطلب هذه الطلبة نفسها، وهذا ما تعلمَنْا إياه هذه الكلمات عينها.

فإذا اقتربنا مِن صانع الخيرات، علينا أنْ نكون نحن مثل صانع الخيرات، وإذا جئنا إليه، وهو الصالح والعادل، علينا أنْ نكون نحن أنْفسنا مثله. فاللّه طويل الأناة ورحيم، وهكذا نحن أيضاً يجب أنْ نكون طويلي الأناة ورحماء في كل شئ. واللّه شفوقٌ وصالحٌ ويعطي خيراته ورحمته للكل، هذه بعض صفات اللّه، وهي مثل غيرها يجب أنْ تكون فينا لكي نتشبه بها بحريةٍ[2]. وهكذا ينال كل مَنْ يصلِّي هذه الكلمات، الثقة التي تؤكد وجودها هذه الطلبة. وإذا كان مِن المستحيل على إنسانٍ شريرٍ يتمرغ في أفكاره النجسة، أنْ يكون في صحبة إنسانٍ صالحٍ ونقي، هكذا أيضاً الإنسان العديم الحس الذي يحاول الاقتراب مِن اللّه وهو بعيد تماماً عن ممارسة المحبة الإلهية، لأنَّ مَنْ يقيد إنساناً آخراً بقساوةٍ

---

[1] كلمة جسارة هي كلمة طقسية هامة وردت في كل الليتورجيات الأرثوذكسية، وهي الكلمة اليونانية παρρησια وتعني حسب شرح كلمات العهد الجديد "حرية الحديث، الجسارة، الدالة" راجع قاموس العهد الجديد اليوناني للأب الكاثوليكي Ceslas Spicq المجلد الثالث ص ٥٣.

[2] الحرية هي أحد صفات صورة الله في الإنسان، لأنَّ الله حر الإرادة. وناموس أو شريعة الحرية حسب تعبير رسالة القدِّيس يعقوب الرَّسول "هكذا تكلموا وهكذا افعلوا كعتيدين أنْ تحُاكَموا بناموس الحرية" (٢ : ١٢) هو اعتبار الخطية القيد والرباطات، وهو ما جعل صلاة غفران الخطايا في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي تعرف باسم "التحليل"، أي "فك الرباطات". وشريعة الحرية متأصلة في المحبة حسب شرح الرَّسول بولس (١ كو ١٣ : ١-٧).

بسبب ديونٍ، يفصل نفسه تماماً مِن الرحمة الإلهية بحياته الشخصية التي يحياها. إذن، ليس هناك شركة للرحمة مع القساوة، أو الشفقة المتأنية مع الانتقام.

وهكذا كل الأُمور المتعارضة تماماً ـ مثل تعارض الخير والشر ـ لا يمكن أنْ تمتزج معاً بالمرة؛ لأنَّها مختلفةٌ عن بعضها تماماً، لأنَّ الذي يخضع لجانب واحد لا يمكنه أنْ يمزج الجانب الآخر به. مَنْ مات، ليس حياً، ومَنْ هو حيٌّ، هو غريبٌ ومنفصلٌ عن الموت. وهكذا مِن الضروري جداً لمَنْ يشاء أنْ يقترب مِن المحبة الإلهية أنْ يفصل نفسه تماماً عن القساوة. وإذا تحرر إنسان مِن كل ما يندرج تحت اسم الشر، أصبح بنوعٍ ما إلهاً بواسطة حياته الخاصة، لأنَّه بسلوكه الشخصي يؤكد ما يعرفه، وما يجده في الطبيعة الإلهية [1]

هل نستطيع أنْ نرى المستوى الذي رَفَعَ إليه الربُ سامعيه بواسطة كلمات هذه الطلبة؟ لقد حوَّل الطبيعة الإنسانية إلى طبيعةٍ إلهيةٍ. لقد وضع لنا هذا الشرط، وهو أنَّنا إذا شئنا أنْ يكون لنا شركة مع اللّٰه، أنْ نصبح نحن أنْفسنا آلهة.

لماذا ـ يقول الرب ـ تقترب مِن اللّٰه غارقاً في الخوف مثل العبد، أليس لأنَّ ضميرك يوخزك؟ لماذا تفرض الصمت على الشجاعة المُقدَّسة التي لا يمكن فصلها عن حرية النفس، وهي عطيةٌ وُهِبَت للإنسان، ولا يمكن فصلها عن جوهر الحرية"[2].

---

[1] مِن الكلمات المأثورة للقدِّيس غريغوريوس النيصي "الإنسان هو ما يعبُد" فاذا عبد المحبة والرحمة صار محباً ورحيماً وإذا عبد القسوة والانتقام وأسقط هذا على الله صار قاسياً ومنتقماً. وهنا نرى أنَّ شركة الإنسان في الطبيعة الإلهية هي التشبه بصفات الله والسلوك الشخصي الذي يظهر ما نعبده ونؤمِن به في الباطن.

[2] يريد غريغوريوس أنْ يقول لنا أنْ الشجاعة لا يمكن فصلها عن الحرية كما لا يمكن فصل الحرية عن المحبة.

ثالثاً: "الدَّين" في كتاب تجسُّد الكلمة[3]

حسب الأصل اليوناني وردت كلمة "الدَّين" ثلاث مرات، وهي بالتحديد في فصل ٩ : ٢ ، فصل ٢٠ : ٢ ، ٢٠ : ٥.

وكما لاحظ *Robertson* أُستاذ اللاهوت السابق بجامعة أُوكسفورد، فإن أثناسيوس لا يُقدِّم ذات الفكر التعسفي الذي ساد العصر الوسيط، والعصر الحديث، وبالرغم من أنه قال أنَّ أثناسيوس لم يغفل فكرة وفاء الدَين (مقدمة كتاب تجسُّد الكلمة ص ١٥ الطبعة الخامسة)، إلاَّ أنَّه ولأسباب غير معروفة لنا لم يشرح هذا الأُستاذ مضمون الدَين.

١ـ ما هو الدَّين؟

حصر القدِّيس أثناسيوس كلمة "الدَّين" بين موضوعين في الفصل التاسع:

الموضوع الأول: شخص الوسيط، أو الشفيع.

أولاً: الكلمة غير مائتٍ، لأنَّه ابن الآب.

ثانياً : ولأنَّه (الكلمة الخالق) **"فوق الكل"**، أخذ **"جسداً قابلاً للموت"**، وبموت الجسد، ينال الجسد عدم الفساد مِن الكلمة.

ثالثاً: مات الجسد، وتحرر الجنس البشري مِن سلطان الفساد.

رابعاً: أعطى الرب بموته نعمة القيامة.

فهل دفع الوسيط الدين؟

يسجل أثناسيوس بهذه الكلمات، الإيمان الشرقي الأُرثوذكسي الذي سوف يسود كل العصور:

> [قدَّم للموت ذلك الجسد، الذي أخذه لنفسه، كمحرقةٍ وذبيحةٍ خاليةٍ مِن كل شائبةٍ] (٩ : ١).

---

[3] أثناء إعداد هذه الدراسة للنشر، صدرت الترجمة العربية لكتاب تجسد الكلمة عن المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة. وسعادتنا فائقة بهذا العمل الجاد، ولكن يجب أن نشير إلى أن الأصل اليوناني نفسه لا يحتوي على كلمة "نيابة"، "عن الجميع". أمَّا عبارة "نيابة عن الجميع" فتعود إلى الترجمة الإنجليزية.

وهذا يختلف تماماً عن لاهوت العصر الوسيط الذي يدَّعي أنَّ المسيح حمل الخطية في جسده، وصار خاطئاً، أو أنَّ الخطية قتلت المسيح. فقد كانت ذبيحة المسيح خاليةً مِن كل شائبةٍ، ولذلك يقول أثناسيوس بعدها مباشرة عن قداسة الرب **"رفع حكم الموت فوراً عن الجميع"** (٩ : ١)، وهنا الوسيط والشفيع لم يمت موت الخطاة، ولم يقف أمام الآب كخاطئ، بل رفع حكم الموت فوراً **"إذ قدم جسداً مماثلاً لأجسادهم"**(٩ : ١). وفي الفقرة السابقة يقول أثناسيوس عن الوسيط **"مات الكل فيه"**، ولما مات الرب على الصليب **"انتهى سلطان الموت"**، أو حسب تعريب الأب مرقس داود «**سلطانه قد أُكمِّل في جسد الرب**» (٨ : ٤).

الموضوع الثاني: إيفاء الدَّين:

إذا كانت هذه هي قدرات **"الكلمة"**، فإنَّ وفاء الدَّين بحسب الكلمة اليونانية "επληρου"، يعني "يُكمِّل"، أو "يحقق"، والترجمة الإنجليزية الحديثة *He fulfilled the debt by his death* وبذلك يكون غياب فكرة دفع الدَّين ظاهراً في النص، كما أنَّ فكرة وفاء الدَّين تظهر لنا بشكل أفضل إذا أخذنا مضمون التعليم ككل، ومِن خلال المعاني الواضحة التي يُقدِّمها أثناسيوس نفسه.

فلقد قدَّم الابنُ هيكل جسده لأجل **حياة الجميع**، مع ملاحظة أنَّه قد سقطت مِن الترجمة العربية، ترجمة كلمة يونانية هامة، وهي "αντιψυχον"، ولا يمكن ترجمتها إلي "بدلاً عن الجميع" بل "فدية عن الجميع" (تجسُّد الكلمة فصل ٣٧ : ٧)، وهذه الكلمة معروفة عند الآباء، ولقد جمع النصوص الخاصة بها الأُستاذ *Lampe* أُستاذ الآباء السابق في جامعة كمبريدج [١].

وهنا، التقدمة والذبيحة هي تقدمة حياة، وهو أمر لا يمت بصلة إلى لاهوت العصر الوسيط مطلقاً [٢]، والدليل على ذلك هو في كلمات أثناسيوس نفسه إذ يقول ـ بعد أنْ يذكر تقديم البديل أو الفدية ـ: **"وإذ اتحد ابن الله عديم الفساد**

([1]) G. Lampe, Greek Patristic Lexicon p162.

([٢]) البديل في لاهوت العصر الوسيط هو من يتحمل العقوبة، ولكن البديل هنا هو مَن يغيِّر الموت إلى حياة والفساد إلى عدم فساد.

بالجميع بطبيعة (بشرية) مثل طبيعة كل البشر" (٩ : ٢)، وهذا يعني أنَّ اتحاد اللاهوت بالناسوت، هو الذي يُغيِّر معنى الموت على الصليب عن معناه الشائع في لاهوت العصر الوسيط، لأنَّ ابن الله باتحاده بالطبيعة القابلة للفساد نزع الفساد، وأبطل سلطان الموت على الصليب، ولذلك يكمِّل فيقول **"فقد ألبس الجميع عدم الفساد، بوعد القيامة مِن الأموات"** (٩ : ٢).

٢ـ التشبيهات التي يُقدِّمها أثناسيوس وتشرح الخلاص:

يُقدِّم أثناسيوس بنفسه عدة تشبيهات، أو أمثلة يشرح بها لاهوت الخلاص، ونلاحظ أن هذه التشبيهات لا علاقة لها بالمعنى التجاري للدين، وهو المعنى السائد في فكر العصر الوسيط ولاهوت حركة الإصلاح. هذه التشبيهات جديرةٌ بالحصر والدراسة، ونقدمها هنا كما وردت في ترجمة الأب مرقس داود لكتاب تجسد الكلمة:

المثل الأول: الملك العظيم الذي يدخل مدينةً، ويسكن فيها (٩ : ٣).

المثل الثاني: إذا أسس ملكٌ مدينةً، أو مَنزلاً وأحدق بها اللصوص (١٠ : ١).

المثل الثالث: الملك الذي لا يترك بلاده إذا أخذها اللصوص أو الأعداء (١٣ : ٥).

المثل الرابع: المُصارع النبيل الذي لا يختار خصومه (٢٤ : ٣).

المثل الخامس: قدرة المُصارع على قهر خصمه، ثم فاعلية مادة الإسبستوس الغير القابلة للاحتراق (٢٨ : ٤ـ٥).

وهكذا في هذه الأمثلة الخمسة، وغيرها في كتاب "تجسُّد الكلمة" لا نرى فكرة المحكمة والقاضي والمتبرع بدفع الدَّين، فلا يظهر الآب كقاضٍ، كما لا يظهر الابن كشفيعٍ أمام القاضي، إلى آخر كل هذه التشبيهات التي صارت عقائد عند الذين يحبون التشفِّي، ويقدسون الانتقام.

فإذا عدنا إلي التشبيه الأول والثاني اللذان يُقدِّمهما أثناسيوس نفسه لكي يشرح به موت الرب على الصليب، فإننا نرى في كلمات المُعلِّم العظيم ما يأتي:

١ـ الملك العظيم الذي يقيم في أحد بيوت المدينة، أي تجسُّد الابن بين البشر.

٢ـ الشرف الذي نالته الإنسانية بسبب التجسُّد، ويشرح أثناسيوس نفسه المثل أو التشبيه الذي يُقدِّمه:

[إذا أتى إلى عالمنا، واتخذ إقامته في جسد واحد بين أترابه، فقد بَطُلَت كل مؤامرة العدو ضد الجنس البشري منذ ذلك الحين، وزال عنهم فساد الموت الذي كان سائداً عليهم] (٩ : ٤)[1].

وفي المثل الثاني يقول أثناسيوس عن الخلاص وموت المسيح على الصليب:

[حقاً لقد كان هذا العمل العظيم متفقاً مع صلاح الله[2] بشكل فائق لأنَّه إذا أسس ملكٌ مَنْزلاً أو مدينةً وأحدق بها اللصوص بسبب إهمال سكانها، فإنه لا يهملها أو يتغاضى عنها بأي حال، بل يقوم ويهتم وينتقم مِن العابثين بها، لأنَّها صنعة يديه، غير مبال بإهمال سكانها، بل بما يليق بطبيعته (الجود والصلاح) هكذا الله كلمة الآب الكلي الصلاح، لم يهمل الجنس البشري صنعة يديه، ولم يتركه للفساد، بل أبطل الموت بتقديم جسده .. ورد بسلطانه كل ما كان للإنسان] (١٠ : ١).

فما الذي رده الكلمة بسلطانه؟

أولاً: نعمة الصورة التي تشوهت بالخطية.

ثانياً: عدم الفساد.

ثالثاً: القيامة مِن الأموات.

رابعاً: إبادة الموت.

هذا هو سلطان الكلمة الفائق الذي لم يدفع للآب شيئاً؛ لأنَّ الآب لا يحتاج

---

(١) وهذه العبارات ضد تعليم "الكفارة المحدودة" الذي ولد في أحضان المذهب الكلفيني، وينادي بموت الرب عن الأبرار الذين عيَّنهم الله للخلاص، وهي بدعة وقع فيها واحدٌ من كبار الإكليروس الأقباط الأرثوذكس ودافع عنها بحرارة في مجلة الكرازة ابتداءً من أعداد ٧ مارس ٢٠٠٣.

(٢) يوجد خطأ مطبعي في الترجمة العربية لتجسد الكلمة، ص ٤١ الطبعة الخامسة حيث تظهر كلمة وجود، والأصح "جود".

إلى مَنْ يدفع له، ولأنَّ الآب والابن والروح القدس هم جوهر واحد وطبيعة واحدة وإرادة واحدة مثلثة.

٣ـ "الدَّين" حسب نص الفصل العشرون مِن كتاب تجسُّد الكلمة

قدَّم القدِّيس أثناسيوس هذا الجزء مِن كتاب تجسُّد الكلمة بشرح قدرة الكلمة على أنْ يحوِّل **"الفاسد إلي عدم فساد"**، ثم **"إعادة"** صورة الله ومثاله، وأنه لا يحوِّل المائت **"إلي عدم الموت إلاَّ ربنا يسوع الذي هو الحياة"** (٢٠ : ١).

بعد هذا يؤكد أثناسيوس أنَّه:

[كان مِن الضروري وفاء الدَّين الواجب على الجميع]

وحسب ترجمة الأب مرقس داود:

"كان الجميع مستحقين الموت"، وكلمة **"مستحق"** لها رنين خاص في لغة الكنيسة، ولكنها لم تستخدم بالمرة في الأصل اليوناني، بل حسب الأصل اليوناني "ωφειλετο γαρ παντας" وهو ما ترجمته: **"كان مِن الضروري، أو واجباً موت الجميع"**. وبعدها مباشرة يقول أثناسيوس **"الأمر الذي لأجله ـ كسبب جوهري حقيقي ـ أتى المسيح بيننا"**. ورغم عدم دقة ترجمة الأب مرقس داود، إلاَّ أنَّنا سوف نترك النص كما هو لأنَّ خلاصة فكر أثناسيوس تظهر في الفقرة التي تلي هذه الكلمات:

[قدَّم (المسيح) ذبيحة بدلاً عن الجميع إذ سلَّم هيكله للموت لأجل الجميع،
أولاً: لكي يحُرِّر البشر مِن معصيتهم القديمة.
ثانياً: لكي يُظهِر أنَّه أقوى مِن الموت بإظهاره أنْ جسده عديم الفساد كباكورة لقيامة الجميع](٢٠ : ٢).

وهكذا ـ حسب كلمات أثناسيوس ـ جاء الابن لكي يحرر البشر، لا لكي يدفع ثمن خطايا البشر. وبذلك حدد أثناسيوس نفسه الجانب الصحيح للدَين،

وهو ضرورة الموت، أو حتمية موت الجميع. **فلماذا اعتبر أثناسيوس الموت دَيناً؟** والجواب هو مِن خلال شرح أثناسيوس نفسه.

١ـ كان الموتُ نتيجةً طبيعيةً لخلق الإنسان مِن العدم، ولكنه تحوَّل إلى قانون له سيادة بسبب خطية الإنسان، فأصبح الموت لا يؤدي إلى حياةٍ سمائيةٍ، بل إلى سيادة الفساد والاغتراب عن مصدر الحياة، أي الله.

٢ـ عندما بدد الإنسان الصورة الإلهية، وحُرِمَ مِن نعمة شركته في الكلمة ابن الآب، صار مديناً بضياع وزنة الصورة، وهو كما قلنا مِن قبل تبديد حيازةٍ. وتبديد النعمة والهبة، جلب على الإنسان الموت، ويلاحَظ هنا أنَّ أثناسيوس لا يتكلم عن دفع دَين للآب، بل يستخدم عبارات ذات دلالة هامة:

* يحُرِّر البشر مِن الخطية، أو التعدي.
* يُظهِر جسده عديم الفساد، ويُعلِن أنَّه باكورة القيامة.

٤ـ موت المسيح، إيفاءٌ للدَّين المطلوب مِن الجميع

يعود أثناسيوس لموضوع الدَّين في نفس الفصل ٢٠ فقرة ٤، ٥، ويؤكد كما يفعل دائماً:

١ـ الجسد قابل للموت، ومات، ولكن لم يخضع لفساد الموت بسبب اتحاده بالكلمة (٢٠ : ٤).

٢ـ مات الرب بالجسد على الصليب، ويقول أثناسيوس:

[وهكذا تم عملان عجيبان في **الحال**:

أولهما: إتمام موت الجميع[1].

والثاني: القضاء على الموت، والفساد كليةً بفضل اتحاد الكلمة بالجسد].

وهكذا تم إيفاء الدَّين حسب عبارات المُعلِّم العظيم نفسه. ولعلنا إذا توقفنا

---

[1] إتمام موت الجميع تعني - حسب سياق النص، وحسب شرح القديس أثناسيوس - استيعاب حكم الموت في الصليب، أي في موت الرب، وهي لذلك - حسب سياق النص - رفعُ حكم الموت.

قليلاً أمام عبارات **"القضاء على الفساد والموت"** نجد أنَّ صورة أو أيقونة الخلاص بحسب اللاهوت الشرقي غير تلك الصورة الأُوروبية السياسية والقانونية؛ لأنَّ إيفاء الدَّين هو إيفاء الواجب كما شرحنا مِن قبل، وكما تأكدنا مِن أنَّ الكلمة اليونانية مرتبطة بالواجب أكثر مِن ارتباطها بالقانون التجاري وشراء وبيع السلع. وهكذا **كانت إبادة الموت** حسب الفقرة ٦ مِن نفس الفصل هي **إيفاء الدَّين**. وهنا، الواجب الذي قام به المسيح تجاه الجنس البشري هو قلب وجوهر الخلاص.

ويكرر أثناسيوس ذات الألفاظ والأفكار التي سبق أنْ عرضها في الفصل التاسع:

[الكلمة غير قابل للموت، وأخذ لنفسه جسداً قابلاً
للموت،
وقدَّم الجسد عن الجميع، وحتى إذا ما تألم عن الجميع ..
يُبيد بالموت ...] (٢٠ : ٦).

٥ـ كيف يجب أنْ نفهم موت الرب حسب التقوى الأُرثوذكسية؟

لا يستطيع الضمير أو العقل المسيحي المستنير بنور الروح القدُس أنْ يقبل أنْ يكون المسيح "بديلاً عنا" حسب عبارات التجارة والبيع وخطايا الفساد البشري ـ لا سيما ـ التشفِّي والسادية؛ لأنَّ ابن الله الإله المتجسِّد ـ حسب التقوى الأُرثوذكسية، وحسب كلمات القدِّيس أثناسيوس ـ هو **"فوق الكل"**. وعبارة **"فوق الكل"** كما وردت في كتاب **"تجسُّد الكلمة"** (راجع على سبيل المثال ٧ : ٥، ٩ : ١، ٩ : ٢) تؤكد لنا أنَّ المسألة ليست **"مقايضة"** ابن الله بالخطاة، فهذا هو فكر القانون التجاري السائد في العالم القديم.

إذن ما هو المعنى الصحيح والدقيق للكلمة اليونانية "Αντιψυχον"؟

قبل أن نقدم التحليل الدقيق لشرح القديس أثناسيوس يجب أن ننتبه إلى عدم دقة القواميس الأوربية التي نُشِرت في القرن التاسع عشر وما قبله؛ لأن الكلمات اليونانية نقلت إلى اللغة اللاتينية القانونية ومن اللاتينية إلى

الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها، وبالطبع فما يحدد معنى كلمة ليس فقط القاموس حسب الأصل والاشتقاق اللغوي، بل إلى جوار ذلك استعمال الكلمة في الآداب مثل الشعر والمسرح والقانون وعلوم الاجتماع والسياسة ...إلخ. هذا يحتم علينا أن نعثر على معنى الكلمة اليونانية "Αντιψυχον"من خلال محتويات كتاب تجسد الكلمة نفسه ومن شرح أثناسيوس للتجسد وموت الرب وقيامته حتى لا نسقط في فخ لاهوت العصر الوسيط، أو النظريات التعسفية التي رفضها الناشر الإنجليزي والتي أشارت إليها مقدمة الترجمة العربية لتجسُّد الكلمة، للأب مرقس داود والتي سبق الإشارة إليها.

أولاً: يؤكد أثناسيوس أنَّ الخلاص هو إعادة النعمة، ورد الإنسان إلي ما كان عليه قبل السقوط (٧ : ٤).

ثانياً: اتخذ الكلمة جسداً مماثلاً لطبيعة كل البشر.

هذه العبارة بالذات تظهر في الفصول الأُولى مِن تجسُّد الكلمة، وهي أدق تعبير لاهوتي يشرح لنا معنى وساطة المسيح، فقد صار "المثيل"، وهذه المماثلة تجعله رأس الإنسانية الجديدة، ولذلك لابد مِن وضع كل الكلمات الخاصة بهذا التعبير:

[أخذ جسداً مِن أجسادنا مماثلاً لطبيعتها] (٨ : ٤).

[أخذ لنفسه جسداً لا يختلف عن أجسادنا] (٨ : ٢).

ويقول أثناسيوس نفسه ما يلي:

[هو نفسه أخذ جسداً، وقدَّم للموت ذلك الجسد، وفوراً أباد الموت مِن كل الذين هم مثله (نظرائه) إذ قدَّم (جسداً) مماثلاً لأجسادهم] (أو تقدمة مماثلة للكل)

(٩ : ١. راجع النص اليوناني طبعة جامعة أُكسفورد ص ١٥٤).

فقد صار الرب مماثلاً لنا لكي يبيد ما فينا من فسادٍ وموت، فقد دخل حياتنا لكي ينقذ ويخلص "النظراء". ويقول أيضاً القديس أثناسيوس:

[وإذ اتحد ابن الله - عديم الفساد - بالجميع بطبيعة مماثلة، فقد ألبس الجميع عدم الفساد ... لأنَّه لم يعد ممكناً أنْ

ينشب فساد الموت الفعلي أظفاره في البشر، وذلك بسبب الكلمة الذي جاء وحل بينهم بجسده الواحد] (٩ : ٢).

كما يقول أيضاً:

[أخذ الكلمة جسداً مشابهاً لكي يُقدِّم ذبيحة عن الأجساد] (٩ : ٤).

هذه العبارات تؤكد على ما يلي:

١ـ إن ناسوت المسيح مساوٍ لنا نحن البشر.

٢ـ عندما قدم الرب جسده أباد الموت بموته بسبب مساواة ناسوته لنا.

٣ـ يؤكد أثناسيوس أن اتحاد اللاهوت والناسوت أعطى عدم الفساد للبشر. هذه العطية هي ـ بحسب كلمات أثناسيوس نفسه ـ **"ألبس الجميع عدم الفساد"**، وهذا وحده يبطل فكرة البديل العقابي.

وعلى ذلك ينحصر معنى الكلمة اليونانية"Aντιψυχον" في مجالين:

أولاً: المساواة بين طبيعة المسيح وطبيعة باقي البشر.

ثانياً: نقل البشر من الفساد إلى عدم الفساد.

هذا لا يشير من قريب أو بعيد إلى فكرة البديل كما عرفها العصر الوسيط، بل بالحري إلى آدم الثاني الذي يشترك معنا بنفس الطبيعة، أو المسيح كوسيط، إذ قدم الكلمة نفسه الطبيعة التي لا تختلف بالمرة عن طبيعة كل البشر، حقاً قدَّمها للموت، وللآب، وبذلك رفع حكم الموت، ورد للإنسان عدم الفساد، وأعلن القيامة، وجدد نعمة الصورة.

٦ـ تعارض شرح القدِّيس أثناسيوس مع تعليم العصر الوسيط

أولاً: لا يذكر أثناسيوس كلمة **"الخطية"** بذات الوفرة التي نراها في مؤلفات العصر الوسيط، وفي الكتب المعاصرة التي صدرت في العصر الحديث في مصر، لا سيما الحقبة الأخيرة مِن القرن العشرين. وسوف يُدرِك القارئ على الفور أنَّ محور وجوهر التعليم الشرقي هو تجديد الطبيعة الإنسانية،

وليس علاج مشكلة اسمها "الخطية"، بل علاج المشكلة الأكبر، وهي فساد الطبيعة التي تثمر للموت، ولذلك السبب عينه لا يذكر القدِّيس أثناسيوس أنَّ المسيح أباد الخطية، بل أباد الموت، وحرر الطبيعة الإنسانية مِن الفساد..

ولذلك غاب موضوع الخطية، وحل محله موضوع الموت والفساد، لأنَّ ما يحدث ليس مرتبطاً بسقوط آدم ـ فقط ـ، بل بسقوط البشرية:

[لأنَّ البشر، (وليس آدم وحده) لم يقفوا عند حدٍ معين،
حتى في سوء أفعالهم، بل تدرَّجوا في الشر حتى تخطُّوا كلَّ حدودٍ،
وأصبحوا يخترعون الشر، ويتفننون فيه إلى أنْ جلبوا على أنْفسهم الموت والفساد ..
أصبحت طبيعتهم مشبعةً بالخطية] (٥ : ٣).

وكذلك أيضاً غاب موضوع **الخطية الأصلية**، ليس عن كتابات أثناسيوس فقط[1]، ولكن عن كل مؤلفات الآباء الشرقيين، ففي عبارةٍ واضحةٍ يؤكد أثناسيوس أنَّ البشر ورثوا الفساد والموت مِن آدم، ولم يرثوا الخطية:

[ومرةً أُخرى نقول: أي طريق كان ممكناً أنْ يسلكه اللّه؟
أيطلب مِن البشر التوبة عن تعدياتهم؟ ـ وهذا قد يُرى لائقاً باللّه ـ لعلهم **كما ورثوا الفساد** بسبب التعدي، ينالون عدم الفساد بسبب التوبة] (٧ : ٢).

وفي عبارة أُخرى وردت في الرد على الأريوسيين، يقول أثناسيوس:

[كثيرين ـ على سبيل المثال ـ تقدَّسوا، وتطهَّروا مِن كل خطيةٍ
مثل أرميا الذي تقدَّس وهو في بطن أُمِّه، ويوحنا الذي رغم أنَّه
كان لا يزال في الرحم، ركض بفرح عندما سمع صوت والدة

---

[1] بل إنَّ الاسم نفسه غير معروف في اللغة اليونانية والقبطية والسريانية والعربية حتى عصر مجيء الإرساليات وسيادة المَنْهج اللاهوتي الغربي على فكر ومؤلفات الأُرثوذكس حتى في بلاد اليونان نفسها، وهو ما يؤكده علماء الكنيسة اليونانية الأُرثوذكسية، بل ويُطلقون على هذه الفترة اسم "السبي البابلي" وهي فترةٌ تخلى فيها علماء اللاهوت عن مَنْهج الآباء، ومصطلحاتهم واستعاروا ما هو معروف في اللاهوت الغربي. راجع مقدمة الوجود شركة للمطران يوحنا زيزيولاس في الأصل اليوناني والإنجليزي.

الإلـه، إلاَّ أنَّه رغم كل هـذا، "ملَكَ الموت مِن آدم إلـي موسـى حتـى علـى الـذين لم يخطئـوا مثـل خطيـة آدم (رو ٥ : ١٤) وهكذا ظل الإنسان مائتاً وفاسداً] (المقالة ٣ : ٣٣ ـ ٤١١).

ومـن الجـدير بالـذكر أن القـديس كيرلـس الكـبير اقتـبس نـص القـديس أثناسيوس هذا في رسالته الأولى إلى رهبان مصر. لأن نص رو ٥ : ١٤ هو حجة كل الآباء. فقد ساد الموت حتى على الذين لم يخطئوا مثل آدم. وسيادة الموت هي بـسبب وراثة الطبيعة القابلة للموت، وهي ذات الطبيعة الإنـسانية الـتي أخـذها الكلمـة عندما تجسَّد، وهو ما يجعل أثناسيوس يكتب هذا التعبير: **"جسداً قابلاً للموت"**.

ثانياً: لم يـذكر أثناسـيوس إنَّ الـصَّلب كـان لـدفع ثمَـنْ الخطايـا، أو احتمـال العقوبة، أو أنَّه كان لمغفرة الخطايا حـسب مـا هـو سـائد الآن، بـل كـان تجديداً ورداً لنعمة الصورة، وهو المعنى الدقيق لكلمة **"مغفـرة"**، والـذي نراه في مَثَل الابن الضال الذي أُعيد إلى مـا كـان عليـه، ورُدَّ إلى مكانتـه الأُولى، بينما لم يُقدِّم سوى التوبة والانسحاق. ولذلك تُردِّد كل الكنائس الأُرثوذكسية هذه العبارة في أناشيد عيد القيامة **"ورَدَّ آدم وبنيه إلى رتبـتهم الأُولى"**. وطبعاً جاءت نعمة العهد الجديد بمـا هـو أعظـم مِـن عطيـة الله لآدم، وهذه نقطة هامة سجلها د. وهيب قزمـان في رسـالته عـن لاهـوت النعمة عند أثناسيوس[1]، ونكتفـي بـأنْ نـسجل هنـا إنَّ آدم الجديـد، أو الأخير هو أعظم مِن آدم الأوَّل بكثير حسب المقارنـة الهامـة الـتي تظهـر عند الرَّسول بولس نفسه في رو ٥ ، و١كو ١٥.

رابعاً: الأهمية الرُّوحية لتعليم الآباء عن الوسيط، أو الشفيع

لا يوجد خلاف على أُلوهية المسيح، وأزلية ابن الله، وتجسُّده، وموته على الصليب، وقيامته، وصعوده. فهذا تراث رسولي مشترك تؤمِن به كل الكنائس المسيحية شرقاً وغرباً. لكنَّ حقيقة الخلاف بين الشرق والغرب، هي حول مركز

[1] راجع الترجمة العربية لهذه الرسالة، نشر مركز دراسات الآباء بالقاهرة

المسيح نفسه، وشخصه، وعمله.فما هو جوهر الخلاف إذن؟

أولاً: لا يُعطي الغرب منذ العصر الوسيط أي اهتمام لاتحاد اللاهوت بالناسوت. لقد أهمل الغرب هذا الموضوع لسببٍ تاريخيٍ معروف، وهو أنَّ أُستاذ ومُعلِّم اللاهوت الغربي، القدِّيس أوغسطينوس لم يكتب كتاباً عن هذا الموضوع، ولكنه تعرض له في عباراتٍ عابرةٍ لم تنل الاهتمام بالمرة في عصر اللاهوت المدرسي *Scholastic* الذي تربَّى على مؤلفات أوغسطينوس.

واتحاد اللاهوت بالناسوت هو الذي جعل جسد الرب بعيداً، بل غالباً للفساد والموت. وهذا بدوره ينعكس على تعليم الشرق عن الإفخارستيا. ولعل الجيل الذي أنتمي إليه قد سمع الكثير مِن الأُرثوذكس والبروتستانت عن مصير الجسد المُقدَّس والدم الكريم بعد التناول ... وهو ما يعُف القلم عن الكتابة فيه، ولكن نكتفي بالتنبيه إلى أنَّ ما هو جديدٌ في عهد المسيح لا يفسد ولا يناله البَلى، بل يحوِّل الإنسان المُتناوِل إلى مجد المسيح. وهنا نرى كيف جاء إهمال اتحاد اللاهوت بالناسوت في أُقنوم الابن المتجسِّد بعدد مِن الأسئلة والمشاكل التي وُلِدَت مِن فراغ وجهل الذين لا يدركون أنَّ هذا الاتحاد هو أساس كل ما هو إلهيٌ في كنيسة المسيح، وإنْ كان يُعطى بوسيلةٍ ماديةٍ، مثل الخبز والخمر، لكن لا يقع تحت سلطان الفساد بسبب اتحاد الحياة بالناسوت، أي حياة ابن الله بالطبيعة الإنسانية.

ونتيجةً لهذا الجهل والإهمال وُلِدَ لاهوتٌ غير أُرثوذكسي عن الأسرار الكنسية يمس الإفخارستيا بشكل خاص، ويمس مصير الإنسان الأبدي، حيث تظهر في كتابات كثيرة منتشرة عندنا الآن، مُقاومةٌ لكل ما يمكن أنْ يقال عن شركتنا في المسيح، أي لاهوته وناسوته، وبشكل خاص ما يقال ضد "الكنيسة جسد المسيح" وهو ما سوف يعالج في دراستنا القادمة إذا سمحت نعمة الرب، لكننا ندرك مِن خلال المؤلَّفات النسكية

الأُرثوذكسية، وكل ما يندرج تحت ما يعرف بالكتابات الرُّوحية، أنَّنا نتحوَّل إلي ذات مجد المسيح، وهو المجد نفسه الذي تحوَّل إليه ناسوت المسيح أو جسده الإنساني، وإن كانت صلوات المعمودية في الكنائس الأُرثوذكسية، والقُدَّاسات الأُرثوذكسية تؤكد ذلك، إلاَّ أنَّ عبارة واحدة مِن صلاة قبطية تعلن في إيجاز دقيق مجد الإنسان في يسوع المسيح:

"فليضئ علينا نور معرفتك الحقيقية، لنُضئ بشكلك المحيي" (صلاة قسمة للابن تقال في عيد القيامة).

ثانياً: حصر الغرب منذ العصر الوسيط موضوع الفداء (وإنْ كان الأفضل أنْ نقول موضوع الخلاص) في غفران خطية آدم، وهو ما لا يظهر في الكتاب المُقدَّس، حيث لا توجد عبارة واحدة تقول إنَّ المسيح مات لكي يغفر خطية آدم. وعلى الذين يجهلون هذه الحقيقة أنْ يراجعوا **"فهرس الكتاب المُقدَّس"** تحت موضوع آدم، أو موضوع الخطية، فقد مات الرب من أجل كل الخطايا لكي يحررنا منها.

وعندما تم حصر موت المسيح في هذه الدائرة الضيقة ظهرت مشاكل كثيرة في حقل لاهوت الأسرار ولاهوت التوبة. ولعل القارئ لا يدرك أنَّ الجدل حول موضوع المَطهر سببه الأصلي حصر الخلاص في غفران خطية آدم بموت الصليب، وفي ضرورة تقديم ثمَنْ أو ترضية للتعدي على كرامة الله نفسه بالنسبة للذين ماتوا قبل إتمام العقوبة الكنسية التي وضِعَت عليهم. لكن في الشرق تحوَّل الصليب إلى مَنْهج وسلوك، وصار فكر المصلوب هو أحد قواعد الحياة الرهبانية، وصار الصليب، وبشكل خاص رشم الصليب هو بركة وتقدِّيس يُوضع على الخبز، ويُرشم أثناء التقدِّيس، ويُختم به جسد المعمد بالميرون، وفي مسحة المرضى، وفي القداسات والرسامات وغيرها.

الدين الذي علينا

هو تبديد صورة الله ونعمته

والمسيح هو مَن أعاد إلينا هذه الصورة

وأعطانا نعمته

"لأنه أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"

الثمَـنْ Τιμη

الكلمة اليونانية "Τιμη" لا تعني الثمَنْ فقـط، بـل تعـني أيـضاً القيمـة، وفي اللغة الإنجليزية "*Worth*". وهذه الكلمة نادرة الاستعمال في اللغة العبرانية، وإنما الشائع في العبرانية هو "الكرامة"، ولذلك السبب عنـدما تقـول الوصـية «أكـرم أباك وأُمك» (خر٢٠ : ١٢)، فإنَّ الإكرام ليس ثمَناً، ولا قيمةً، بل هو نـوعٌ مِـن الاحـترام الذي لا يمكن تقديره، أو حسابه بالأرقام.

وحسب دراسة أُستاذ اللغات السامية *W. Schleusner* استخدمت الترجمة اليونانيـة للعهد القديم"Τιμη" لترجمة ١٢ كلمة عبرانية، وبشكل خاص كلمة **"كرامة"**.

وعجز اللغة اليونانية يرجع إلى أنَّ العلاقات الإنسانية في المجتمعات الـسامية تختلف عن العلاقات الإنسانية في المجتمع اليوناني القديم الـسابق علـى تعميـد الحضارة اليونانية، وعلى سبيل المثال يقول المزمور «قدِّموا الكرامـة لله» (مزمـور ٢٩ : ١، ٩٦ : ٧) ولكـــن كرامـــة الله في الترجمـــة الـــسبعينية هـــي"Τιμη"، وجـــاء النص"δοξη και τιμη" **المجد والكرامة"**. ونحن لا نستطيع أنْ نقدِّم الثمَنْ، بل الكرامة لله. ونحن لا نملك أنْ نحدد قيمة وثمَنْ أي شيء يُقدِّمه الله لنا. والأثمـان في الحضارات هي تقدير إنساني يقوم فيه الاقتصاد والمعاملات التجارية بدور كـبير. يقول أشعياء النبي «هذا الشعب قد اقترب إلي بفمه وأكرمني بشفتيه، وأمَّـا قلبـه فأبعَده عني» (٢٩ : ١٣). وعندما يقول سفر الأمثال «أكـرم الـرب مِـن مالـك، ومِـن باكورات غلتك»(أم ٣ : ٩)، فهو يؤكد أهمية العطاء، وكيـف يـرد الله هـذا العطـاء مضاعفاً، ويقول بعدها مباشرةً «فتمتلئ خزائنك شبعاً» (أمثال ٣ : ١٠).

وفي السبعينية نجد أي ذات الكلمة التي تعني **"إكرام"**، تعني أيضاً **"الـثمَنْ"**، وهي ذات الكلمة التي تُرجِّمت في الـنص العربـي **"فـضة"** (راجـع أيـوب ٣١ : ٣٩)

وراجع أيضاً النص اليوناني (سيراخ ٣٨ : ١) وحتى في الترجمة العربية لنص تكوين (٤٤ : ٢) وردت الكلمة حسب السبعينية والعبرانية **"ثَمنْ"** وهو ثَمنْ القمح الذي أمر يوسف بأنْ يوضع في أكياس اخوته. ولعل القارئ قد لاحظ غموض التعبير العربي **"غطاء عين"** في قصة استيلاء أبيمالك على سارة زوجة أب الآباء إبراهيم. وحسب السبعينية: "Τιμη της λυτρωστως"، أي ثَمنْ، أو تعويض، أو حرفياً **"ثَمَنٌ وفدية"** (راجع تكوين ٢٠ : ١٦) وهذا التعبير نفسه يظهر في مزمور (٣٩ : ٧ السبعينية) واستخدم نفس التعبير في فدية الابن البكر (خروج ٣٤ : ٢٠).

١ـ الثمن يعنى أصلاً "المجد والكرامة"[1]

يؤكد الكتاب المُقدَّس نفسه الصلة بين الاثنين؛ حيث يقول الرسول بطرس عن ربنا يسوع «أخذ.....كرامةً ومجداً» (٢ بط ١ : ١٧)، وهي إشارةٌ إلي تجلِّي ربنا على جبل طابور (راجع لوقا ٩ : ٢٨ ـ ٣٦)، والمجد والكرامة هما أيضاً مجد وكرامة آدم الثاني ابن الإنسان (عب ٢ : ٩) ولذلك حُسِبَ ربنا يسوع «أهلاً لمجد أكثر .. بمقدار ما لِباني البيت مِن كرامة أكثر مِن البيت» (عب ٣ : ٣) وتتويج ابن الإنسان بالمجد والكرامة حسب نص رسالة العبرانيين هو المجد والكرامة التي أخذها المسيح مِن الآب بسبب آلامه وموته. وهكذا مجد المسيح وكرامته أعظم مِن مجد وكرامة موسى. وحتى إذا استخدم الرَّسول كرامة وظيفة المسيح كرئيس كهنة (عب ٥ : ٤)، فهي إشارة إلي الكرامة التي أعطاها الله الآب لابنه بسبب موته على الصليب، وهو جوهر كهنوت المسيح.

ونحن كمسيحيين نشترك في كرامة المسيح (١ بط ٢ : ٧) وبشكل خاص عندما نُمتَحَّن بنار التجارُب، ولكنها في النهاية مجدٌ وكرامة (١ بط ١ : ٧) ويؤكد الرَّسول بولس أنَّ المسيحيين الذين لم ينالوا المواهب الرُّوحية الفائقة يجب أنْ يُحسَّبوا أهلاً لكرامةٍ أكبر (١ كور ١٢ : ٢٣، ٢٤).

---

[1] ومن الكلمة نفسها نجد Τιμιος أي المستحقين الكرامة،راجع G.Lampe, p 1393

٢ـ كلمة "كرامة" هي ذات الكلمة المُستخدمة في اليونانية للثمَنْ

يقول الرَّسول بولس "لأنَّكم قد اشتريتم بثمَنٍ" (١ كور ٦ : ٢٠) ويكرر نفس الكلام في (١ كور ٧ : ٢٣) وتركيب الجملتين معاً يؤكد أن استخدام كلمة ثمَنْ في صيغة المضاف إليه"ηγορασθητε τιμη "يعني الامتلاك، والاقتناء وليس دفع الثمَنْ، حسبما رأينا سابقاً. وما يؤكد ذلك أنه لا يوجد بائع ومشترٍ وثمن دفعه شخص لآخر.

٣ـ المعنى التجاري للثمن في الحضارة القديمة

السوق في اللغة اليونانية هي" αγορα" والفعل يشتري ورد في نص ١ كو ٦ : ٢ و١ كو ٧ : ٢٣ "ηγορασθητε" ، أي "اُشترُيتم" وهي في اللغة العربية مبني للمجهول نظراً لغياب:

١ـ الثمَنْ

٢ـ المالك الأصلي

٣ـ السوق نفسه، أي المكان الذي تم فيه الشراء.

وكما ذكرنا مِن قبل، الله هو مالك الخليقة كلها. حتى الخليقة الساقطة المُستعبَّدة للشر والفساد لا يمكن أنْ تكون ملكاً للشيطان، لأنَّه مهما كانت سيادة الشر والشيطان على بعضٍ مِن خليقة الله، فالله يبقى هو السيد والمالك والخالق وعائل الخليقة الذي يدبر احتياجات كل مخلوق، حسبما نقرأ في كل أسفار الوحي المُقدَّس، لا سيما سفر المزامير (راجع مزمور ١٤٧).

وما يريد الرَّسول أنْ يقرره هنا هو أنَّ المسيح اشترى الحرية والكيان المسيحي نفسه، وأصبح كل إنسانٍ عبداً للمسيح.

٤ـ المعنى المسيحي الأُرثوذكسي للثمَنْ والفداء

استخدم الرَّسول الفعل اليوناني الكلاسيكي "εξαγοραζω" والذي تُرجِّم إلى العربية "يفدي". هذا الفعل بالذات غير معروف لنا في الترجمة

السبعينية، رغم استخدامه في الكتابات اليونانية الكلاسيكية مثل مؤلفات ديودوروس الصقلي وغيره. والفعل خاص بالفروسية وشجاعة النبلاء في الحروب. وهنا تظهر فصاحة الرَّسول بولس بشكل خاص، لأنَّ «المسيح افتدانا مِن لعنة الناموس» (غلا ٣ : ١٣) وهنا المسيحُ محاربٌ شجاعٌ ينزل إلي حفرة الموت واللعنة لكي يخلِّص الإنسان. ونفس الفعل يظهر أيضاً في (غلا ٤ : ٤، ٥) فقد جاء ابن الله مِن عند الآب، أو حسب كلمات الرسول نفسه «أرسل الله ابنه مولوداً مِن امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس»، وهذه هي ذات شجاعة المُحارِب والفارس الذي حسب كلمات الرسول جاء لكي "يفتدي الذين تحت الناموس"، وهو الوضع الشرعي والقانوني لكل الذين سقطوا في الخطية، وصاروا تحت حكم الناموس.

ولكن ـ حسب تعليم الرسول ـ هذا التدخل لا يمكن أنْ نعتبره عملاً مطابقاً لأحكام الناموس، بل عملاً يقول عنه الرسول بولس نفسه، أنه خاصٌ بالعهد والمواعيد الإلهية التي سبقت شريعة موسى بـ ٤٣٠ سنة، ولا تملك الشريعة أنْ "تنسخه أو تلغيه".

ومِن الشيِّق أنْ نلاحظ أنَّ ذات الفعل اليوناني استخدمه الرسول في (كو ٤ : ٥) حيث يقول «اسلكوا بحكمة.....مفتدَين الوقت»، وهذه أيضاً حاجتنا إلي الشجاعة لكي لا نهدر الوقت في الأشياء التافهة (راجع نفس الفعل في أفسس ٥ : ١٦). وفداء الوقت لا يعني أنْ ندفع ثمَناً، بل أنْ يكون لنا تدبير ضبط النفس والالتزام "بشريعة المحبة".

وهكذا نرى أن الثمن هو موضوع روحي ومعنوي، لا علاقة له بالمال والتجارة ودفع "الفواتير"، لا سيما "فواتير الخطية".

الثمن

هو كرامتنا ومجدنا

عند محب البشر

الوسيط، والشَّفيع[1]
أو
حاجتنا ـ كبشرٍ ـ للكلمة خالق الكل

مُقدِّمة:

ثبَّت الآباء في المجمع النيقاوي العظيم مبدأ وحدة جوهر الثالوث، ومساواة الابن للآب، ولكن مساواة الابن للآب لم تدخل في حساب الذين وضعوا نظريات الفداء في العصر الوسيط[2]، فهي لم تختفِ في الشرق الأُرثوذكسي بالمرة،

---

[1] أشرنا فيما سبق إلى النصوص الخاصة بهذه الكلمات عند القديس أثناسيوس، ومعانيها بالتفصيل عندما ناقشنا فكرة الدين، أمَّا هذا الفصل فقد خصصناه لمناقشة أنَّ الوسيط، أو الشفيع، هو ذاته الكلمة المتجسد، خالق الكل، فلو لم يتجسد الابن لما سُمي بالوسيط، لأنه لا وسيط بين الآب والابن والروح القدس، وإنما الوسيط هو بين الله والناس، وهو ما قام به المسيح، لذا لزم التنويه.

[2] لقد أبطل الرب حكم الموت بالموت، وهو ذات الحكم الذي نطق به الكلمة نفسه "موتاً تموت". لم يصدر هذا الحكم من الآب وحده، بل هو **حكم الثالوث؛** لأن الشرق يؤكد دائماً أن كل شئ هو من الآب بالابن في الروح القدس، أمَّا في العصر الوسيط حيث انعدمت تماماً عقيدة شركة الجوهر الواحد للثالوث، وأبرز الغرب ألوهية الآب، وترك مساواة الآب للابن في الجوهر، ولم يُطبِّق مبدأ وحدة الجوهر على التعليم الخاص بموت المسيح الذي عُرف في العصر الوسيط تحت باب مستقل عن باب الثالوث باسم "عقيدة الفداء"، وهو ترتيب يعود أساساً إلى القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتربري ، ثم استقر بعد ذلك في اللاهوت النظامي الخاص بالعصر الوسيط حسب التقسيم الذي أسسه ألبرت الكبير، ومِن بعده أبيلارد. وحسب هذا التقسيم يبدأ اللاهوت النظامي بإثبات وجود الله ، ثم الكلام عن صفات الله ووحدانيته، وأقانيم الثالوث. وينتقل بعد ذلك، حسب التقسيم نفسه، إلى المسيح والإنسان حيث يعالج قضية الخلق والسقوط والفداء، وبعد ذلك ينتقل إلى الكنيسة والأسرار الكنسية. وجاء القديس توما الاكويني في الخُلاصة اللاهوتية (١٢ مجلد) وتوسع في شرح العقائد كلها على أساس نفس التقسيم. فالتقسيم نفسه هو المسئول الأوَّل عن فصل عقيدة الثالوث عن موضوع الفداء، وحصر موضوع الفداء في عمل المسيح وشخصه وفصل عمل المسيح عن عمل الروح القدس. ثم جاء التقسيم بانفصال تام لموضوع الأسرار الكنسية عن موضوع الفداء. وهكذا عندما جاءت حركة الإصلاح في القرن السادس عشر ، كانت الأسرار الكنسية تُدرس بشكل مستقل تماماً عن الفداء والصليب، ووجد لوثر بعض عبارات في مؤلفات القديس أوغسطينوس عن التبرير بالإيمان، فنقل موضوع المغفرة وحصره في الباب الخاص بالفداء، وأهمل الأسرار الكنسية لأنها موضوع مستقل تماماً عن الفداء، ولكنه عاد إليه بعد ذلك عندما هاجم زوينجلي الأسرار بشكل عام والإفخارستيا بشكل خاص. وهكذا حصر لاهوت الغرب عمل الوسيط وشفاعته في الصليب فقط. وحتى كهنوت الرب لم يدرس بعناية كافية تجعله القاعدة الأساسية ومصدر ممارسة الأسرار في الكنيسة، وحل محله كهنوت المؤمنين ، لأن كهنوت المسيح انتهى

بل ظلَّت حاضرةً بقوةٍ في الكلام عن لاهوت الابن.

هذه الفكرة بدأت في التراجع ـ في خجل شديد ـ تحت وطأة الضغط الإعلامي الذي تمارسه الشيع البروتستانتية التي انفصلت عن الكنائس الإنجيلية. وهكذا بدأ مسيح الأريوسية ـ المخلوق حسب الفلسفة اليونانية، وحسب هرطقة أريوس ـ في التسلل إلي كُتب اللاهوت في مصر لكي يظهر بصورة الفادي الأقل مِن الآب، والذي يتحمَّل غضب الآب، ولا يُشارِك الآب في صفاته الإلهية، ومن ثم يتحول إلى رماد، أو إلى لحم مشوي، بحسب ما يذكره البعض في مصر.

صحيحٌ أنَّ الابن أخلى ذاته، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنَّه كان قد ترك صفاته الإلهية ليصبح أقل مِن الآب، لا يُشارِك الآب في الرحمة والعدل والغضب (هذا إذا كان الغضب أحد صفات الله)؛ لأنَّه وهو في الجسد، هو أيضاً صورة الآب الذي ـ بحسب أثناسيوس ـ جاء لكي يُعلِّم العالم عن الآب، ويُعطي الإنسانية معرفة الآب (تجسد الكلمة ١٢ : ١)، فهو قد جاء مِن أجلنا نحن البشر

[لكي نُدرِك الحق بما يعلِنه الرب في جسده، ونُدرِك الآبَ فيه] (تجسد الكلمة ١٥ : ١٢).

[هو ابن اللّه الحقيقي المولود مِن الآب .. الذي في الأزمِنة الأخيرة اتخذ جسداً لخلاص الجميع، وعلَّم العالم عن الآب]

(تجسد الكلمة ٣٢ : ٦).

بموته وقيامته وجلوسه عن يمين الآب شفيعاً فقدَّم الثمن والترضية لله الآب، ولم يعد له صلة بما يحدث بعد ذلك سوى التوسل بالطلبة لله الآب مما فصل كهنوت المؤمنين عن كهنوت المسيح، وعندما إنتهى عمل المسيح ككاهن بذبيحة وقربان الصليب، تعذر على لاهوت الغرب في القرن السادس عشر أن يشرح سبب وجود كهنوت في الكنيسة الجامعة. أمَّا الشرق فقد سار عكس ذلك على خط مستقيم. لم يقسم الآباء اللاهوت إلى أبواب منفصلة، بل حفظ الآباء التقسيم القديم: اللاهوت / الثيؤلوجيا - التدبير / أي خطة الله للخلاص، أو الإيكونوميا. وأصبحت القاعدة اللاهوتية التي نراها في كل كتب الآباء هي:كل شيء مِن الآب بالابن في الروح القدس،.فمَن صح إدراكه للثيئولوجيا، صح إدراكه وممارسته للإيمان والتدبير (الإيكونوميا) .. وأي خطأ، أو انحراف، أو هرطقة في الثيئولوجيا، يظهر صداها على الفور في الإيكونوميا، كما أن أي خطأ في فهم الإيكونوميا يؤثر بشكل مباشر على الثيؤلوجيا.- راجع بتفصيل أوفى د. جورج حبيب بباوي: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي – الطبعة الأولى ١٩٨٢م ص ١٣٩ وما بعدها.

تقسيم

عندما يتحوَّل التعليم عن صورة الآب، أي ربنا يسوع المسيح إلى تعليمٍ عن إله مُتجسِّد ينال عقوبة البشر مِن الآب، فإنَّ المنطق يحتم علينا أنْ نرى في الابن صورة العنف والقسوة والانتقام؛ لأنَّه ـ كصورةٍ للآب ـ لا يمكن أنْ يكون مختلفاً عن الآب بالمرة، بل مثله .. إلاَّ أنَّ هذا هو تصوُّر الإنسان الخاطئ الذي لا يرى القوة إلاَّ في البطش، ولا يرى السيادة إلاَّ في العقوبة، ولا يري القدرة إلاَّ في طلب الحق وانتزاعه حتى مِن البريء، وهو هنا الابن البريء الذي لم يخُطِئ ولا وُجِدَ في فمه غش. فعندما تصبح هذه هي صورة الآب، أي صورة البطش والعنف ومعاقبة البريء، فإننا نكون قد فقدنا تماماً كل إعلان عن صلاح الله كثالوث، ومحبته للبشر التي لا ينتابها أي تغيُّر بسبب شر الإنسان، بمعني أنَّه إذا كان الإنسان أو البشر جميعاً صالحين أو أشرار، فإن هذا لا يزيد ولا ينقص مِن محبة الله.

لذا فنحن في أمس الحاجة إلى إيضاح ضرورة وأهمية أُلوهية الابن الكلمة في تدبير الخلاص في الفكر الأرثوذكسي، وكيف أن الخلق على صورة الله ومثاله، هو الذي يُظهِر المعنى الصحيح للسقوط، وبالتالي يبين لنا الفرق بين الموت الطبيعي وموت الخطية، وما هي طبيعة الخير وماهية الشر وأثر ذلك في المصير الإنساني، وهو ما نعرض له تفصيلاً في المبحث الأول. ومن ثم في المبحث الثاني نعرض للعلاقة بين الموت والعدل الإلهي في لاهوت الآباء من خلال القديس أثناسيوس الرسولي، ولاهوت العصر الوسيط. أمَّا في المبحث الثالث فنعرض لمفهوم العصر الوسيط للخطية، وأثر ذلك المفهوم على شرح تدبير الخلاص، ومراجعة كل ذلك على لاهوت الآباء. عندئذٍ تتوفر لنا القاعدة السليمة لفهم عمل الابن الكلمة "الوسيط / الشفيع" في عمل الخلاص انطلاقاً من شرح الآباء أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير للتسليم الرسولي.

الكلمة
الذي هو فوق الكل

أولاً: التجسد وعلاقة الكلمة بالخليقة

لم يحظَ هذا التعبير المتكرر: «كلمة الآب الذي يفوق الكل» (تجسد الكلمة ٧ : ٥ ـ ٩ : ١ ـ ٩ : ٢) بعناية الذين درسوا مؤلفات اثناسيوس، فما هو المقصود بهذا التعبير؟

١ـ يؤكِّد اثناسيوس أنَّ الابن كلمة الله كائنٌ مع الآب وفي الآب:

[يملأ كل شئ في كل مكان، وفي نفس الوقت هو كائن مع أبيه] (تجسد الكلمة ٨ : ١).

[هو ابن ا.. لآب كلمة اللّه متعال فوق الكل] (تجسد الكلمة ٩ : ١، ٢).

٢ـ يؤكِّد اثناسيوس أنَّ تجسُّد الابن الكلمة لم يجعله محصوراً في الجسد، بل هو حاضرٌ في كل شيء:

[وبينما كان حاضراً في كل الخليقة، فقد كان يتميز عن سائر الكون حسب جوهره (الإلهي). وحاضراً في كل الأشياء بقدرته. ضابطاً كل الأشياء، ومظهِراً عنايته فوق كل شئ، وفي كل شئ، وواهباً الحياة لكل شئ، ولكل المخلوقات مالئاً الكل دون أنْ يُحَد، بل كائناً في أبيه (١) وحده بالكمال] (تجسد الكلمة ١٧ : ١).

[وبينما كان خارج الكون، فقد كان في أبيه (١) وحده مستقراً] (تجسد الكلمة ١٧ : ٤).

وكان الكون يستمد حياته ووجوده وحركته مِن الكلمة:

«كان كلمة الله يحيي كل الأشياء، وكابن، كان قائماً مع أبيه[1] » (١٧ : ٥). "وعندما كان في العالم، لم يستمد (مِن العالم) شيئاً، بل بالعكس استمدت مِنه كل الأشياء الحياة والقُوت" (**تجسد الكلمة: ١٧ : ٦**).

٣ـ فكيف انعكس إذن وجود الكلمة في الآب وضبطه للعالم وتقديم الحياة والقوت للكل، على تجسُّد الكلمة؟

كان جسد الكلمة مماثلاً لأجسادنا، وقابلاً للموت. هذا التعبير يتكرر في الفصول التالية:

[أخذ مِن أجسادنا جسداً مماثلاً لطبيعتها] (٨ : ٤ ـ ٣٧)

[أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت] (٩ : ١، ١٣ : ٩، ٢٠ : ٦، ٣١ : ٤).

بل لاحِظ قوة التعبير:

[طهَّر الجسد الذي كان في حد ذاته قابلاً للفناء] (١٧ : ٧).

[جسداً قابلاً للموت، والفساد حسب طبيعة الأجساد] (٤٤ : ٨).

وهنا بالذات يؤكِّد القديس اثناسيوس عدة أمور هامة. فقد كان الجسد القابل للموت والفساد، بل والفناء هو جسد الكلمة **الَّذي هو فوق الكل**. هذا يجعل اثناسيوس يؤكد أنَّ الكلمة عندما تجسد ظل الابن الذي هو فوق كل المخلوقات ويعلو عليها كما رأينا في النصوص السابقة، وبالذات نص فصل ١٧ : ١. وهكذا تغيَّر وضع الجسد القابل للفساد والموت والفناء بسبب اتحاده بطبيعة الكلمة، وفي عبارات قاطعة يؤكد القديس اثناسيوس:

[الموت الذي تم على الصليب مِن أجلنا كان لائقاً .... لم يترك هيكل جسده يبقى طويلاً، بل حالما أظهر أنَّه مات .... أقامه فوراً في اليوم الثالث، حاملاً معه ـ كعلامةٍ للظفر والغلبة على الموت ـ عدم الفساد، وعدم إمكانية التألُّم اللذين حصل عليهما جسده] (٢٦ : ١).

---

[1] إذا كان الكلمة في الآب وفيه وحده مستقراً، فإن تصور البعض بأن الآب عاقب الابن على الصليب، إنما يعني في نهاية المطاف أن الآب عاقب نفسه؛ لأن الكلمة حسب تعبير اثناسيوس "كائناً في أبيه" و "قائماً في أبيه"، وبالتالي يكون هذا التصور خاطئاً لأنه ينفي تماماً قدرة الله على المغفرة، وكأن أصحاب هذا الرأي يقولون عاقب الله الإنسان، ولما وجد أن هذا لا يحل المشكلة عاقب نفسه. ومن يعاقب نفسه هو واقع تحت سلطان العقوبة لا يعلو عليها بصلاحه ولا رحمته، وهو بالتالي يكون مخلوقاً، وليس الله.

وعدم الفساد تعبير متكرر عند القديس اثناسيوس:

[حتى باتحاده (الجسد) بالكلمة الذي هو فوق الكل .. يبقى في عدم فساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه، وحتى يتحرر الجميع مِن الفساد فيما بعد (اليوم الأخير) بنعمة القيامة مِن الأموات] (٩ : ١).

وعدم الفساد عند القديس اثناسيوس هو إبادة الموت **تماماً**، أو حسب ترجمة الأب مرقس داود **نهائياً**:

[لذلك كان لائقاً بطبيعة الحال أنْ يأخذ جسداً قابلاً للموت، حتى إذا أباد الموت فيه (تماماً) نهائياً أمكن تجديد البشر] (١٣ : ٩).

وهكذا انتقل عدم فساد الكلمة إلى الجسد، واشترك الجسد هنا في صفةٍ إلهيةٍ، وهي صفة الكلمة الذي يعلو على الكل:

[لأنَّه (الكلمة) عديم الفساد، فقد أحيا الجسد وطهَّره، رغم أنَّه كان في حد ذاته (بطبيعته) قابلاً للفناء] (١٧ : ٧).

هذا التحوُّل تم بإرادة الكلمة نفسه، وبمواجهة الكلمة **للموت في جسده**:

[لماذا لم يتجنب (الرب) الموت؟ لم يكن لائقاً أنْ يمنع الموت لئلا تمتنع القيامة أيضاً .. مات (الرب) لفداء الجميع، لكنه لم يرَ فساداً؛ لأنَّ جسده قام ثانيةً سليماً جداً إذ لم يكن سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها] (٢١ : ٧)

[قَبِلَ الموت الذي أتاه مِن البشر، لكي يبيده نهائياً عندما يلتقي به في جسده] (٢٢ : ٣).

وعدم فساد الجسد، هو برهان عدم فساد المؤمنين بالمسيح، وإعلانٌ عن حالة **قيامتنا في اليوم الأخير** (٢٣ : ٤):

[أظهر ابن اللّه جسده ـ الذي كان قد مات ـ بعد فترة ثلاثة أيام غير مائت، وعديم الفساد، فتبين للجميع أنَّ الموت لم يُصِّب الجسد بسبب أي ضعف طبيعي للكلمة الذي حل فيه، بل لكي يُباد فساد الموت فيه بقوة المُخلِّص] (٢٦ : ٦).

وعدم الفساد يعني أيضاً تلك الكلمة الشائعة عندنا، وهي التجديد الشامل لكيان الإنسان، وبشكلٍ خاصٍ، جسده:

[كان لائقاً بطبيعة الحال أنْ يأخذ جسداً قابلاً للموت، حتى إذا أباد الموت فيه نهائياً، أمكن تجديد البشر] (١٣ : ٩).

وتجديد البشر، هو رد الصورة الإلهية التي فقدها الإنسان بالسقوط، ويظل هذا هو أهم موضوع يشغل فكر وقلب القديس اثناسيوس، **ماذا فَقَدَ الإنسان؟**

فَقَدَ نعمة الوجود؛ لأن:

[اللّه صالحٌ، أو بالحري هو بالضرورة مصدر الصلاح .. لذلك، فإنه إذ لا يضن (يبخل) بنعمة الوجود، أشفق بصفة خاصة على الجنس البشري .... ومنحه نعمةً أُخرى، خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً في قوة كلمته، لكي يستطيع أنْ يحيا كظِل للكلمة[1] إذا بقي في الحياة العاقلة] (٣ : ٣).

والصورة الإلهية هي حسب كلمات الكتاب المُقدَّس نفسه، وشرح اثناسيوس:

[الإنسان خُلِقَ مِن العدم .. بفضل خلقته على صورة اللّه الكائن .. كان ممكناً أنْ يعيش كاللّه .. وإلى هذا يشير الكتاب المُقدَّس على الأرجح عندما يقول «أنا قلت أنكم آلهة» (مزمور ٨٢ : ٧٦)] (٤ : ٦).

ثانياً: مكونات الصورة الإلهية حسب كلمات اثناسيوس

١ـ نصيباً في القوة العاقلة، وشركة في الكلمة: **"أعطَّاه نصيباً في قوة كلمته"** (٣ : ٣).

٢ـ حضور، أو حسب دقة الكلمة اليونانية هي، **إعلان** الكلمة عن نفسه للإنسان، وهو إعلان حسب كلمات القديس اثناسيوس **"عطف، ومحبة البشر"** (٤ : ٥) التي دعت الكلمة إلى أنْ يخلق الإنسان على صورته.

---

[1] هكذا يجب ترجمة النص، لأن الإنسان هو ظِل الكلمة حسب الأصل اليوناني، لذا لزم إصلاح ترجمة الأب مرقس داود.

٣ـ هذا الحضور، أو الإعلان هو عطية الكلمة للإنسانية: **"وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياةً منسجمةً مع الله"** (٥ : ١). هذه الحياة، هي **"نعمة اشتراك البشر في الكلمة"** (٤ : ١). وهي أيضاً حلول الكلمة مع، أو في الإنسان **"لأنَّ الكلمة حل معهم .."** (٥ : ٢).

وتبقى مكونات الصورة هي:

١ـ الشركة في القوة العاقلة للكلمة.

٢ـ نعمة الحلول.

٣ـ حياة مماثلة، أو **منسجمة مع الله.**

٤ـ ومِن سفر الحكمة يأخذ القديس اثناسيوس ذلك النص الجميل الذي يؤكد محبة الله الخاصة للإنسان «خلق الله الإنسان على عدم فساد، وصوره على صورة أزليته[1] » (حكمة ٢ : ٢٤). وصورة الأزلية لا تجعل الإنسان أزلياً بالطبيعة، بل أزلياً حسب نعمة الشركة. فالنعمة هي التي تحفظ الإنسان في مكانته الفريدة العزيزة، وبدون النعمة يعود الإنسان إلى حالته الطبيعية وهي العدم، وهي حسب كلمات اثناسيوس **"الفساد الطبيعي"** (٤ : ٦).

فالصورة كلمة دقيقة تؤكد بشكل خاص انعدام الوجود المستقل؛ لأن لكل صورة أصل، ويبقى الأصل هو مصدر الصورة. هذا يجعل شركتنا في الطبيعة الإلهية هو سبب البقاء الأبدي للإنسان؛ لأن الإنسان كصورة الله خُلق حسب صورة الآب ربنا يسوع المسيح. ويبقى الفرق الجوهري بين الابن صورة الآب والإنسان صورة الكلمة أو الابن هو أن الإنسان مخلوق حسب الصورة بينما الابن مساوٍ للآب، وما يميز الإنسان عن الابن هو كلمة **"مخلوق"** التي يؤكدها سفر التكوين بشكل خاص والتي حظيت باهتمام القديس اثناسيوس في الفصول الخمسة الأولى من تجسد الكلمة.

ولقد أثرنا هذه النقطة بالذات، أو بالحري هذا الموضوع الدقيق والهام؛ لأنَّ

---

[1] الأزل آرامية سريانية والأبد عربية وكلاهما بمعنى واحد.

الوجود، أو الكيان الإنساني هو الذي يحدد، بدقةٍ تامةٍ، معنى كلمات خطية وسقوط وذنب، وما إليها مِن مفرداتٍ لا يمكن تحديد معناها بدقةٍ بدون بحثٍ دقيق عن تكوين الإنسان وطبيعته، وثمة موضوع هام خلف كل هذه المفردات، وهوٍ موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية، وهو ما ناله الإنسان الأول وفقده بالسقوط، وهو ما يُسترد بواسطة أُلوهية المُخلِّص.

تجديد الصورة الإلهية في الإنسان ـ بالكلمة ـ هو جوهر الخلاص في الأُرثوذكسية

يؤكد القديس اثناسيوس أنَّ أُلوهية المُخلِّص، هي وحدها التي تجعل عمل الخلاص خاصاً بالله وحده. وقد شَرَحَ عدم كفاية التوبة، وذلك في الفصل السابع، وسوف نعود إلى هذا الموضوع بالذات نظراً لعلاقة هذا الفصل بالتوبة في الفكر المسيحي عبر كل العصور والاتجاهات اللاهوتية الأُرثوذكسية والمذهبية (الشيع)، والإسلام واليهودية. ولكننا نكتفي في هذه الفقرة بنقطتين أساسيتين عند اثناسيوس:

١ـ عجز التوبة عن أنْ ترفع سيادة الموت على الإنسان بسبب **التحوُّل الكياني** الذي حدث للإنسان عندما سقط.

٢ـ فقدان الإنسان لنعمة **"مماثلة صورة الله"** أي الكلمة (٧ : ٤).

وهنا، اثناسيوس دقيق جداً في تعبيره **"مطلب الله العادل"**، والذي نقل إلى اللغة العربية **"**مطلب الله العادل**"**. ورغم عدم دقة الترجمة العربية للآب مرقس داود إلاَّ أننا سوف نتركها كما هي دون تغيير لأنه رغم هذا فإنها تختلف عن لاهوت العصر الوسيط إذ يقول:

> [لكن التوبة لا تستطيع أنْ توفي مطلب اللّه العادل، لأنَّه إذا لم يظل الإنسان في قبضة الموت، يكون اللّه غير صادقٍ] (٧ : ٣).

وهذه العبارة تظهر قبل ذلك في افتتاحية الفصل السابع؛ لأنَّ اثناسيوس مثل غيره مِن الآباء لا يستطيع أنْ يتصور أنَّ الله **"أبو الحق يظهر كاذباً مِن أجلنا، ومِن أجل خلاصنا"** (٧ : ١)، ويصبح العدل هنا ليس الانتقام والغضب ـ وهو ما ساد

لاهوت العصر الوسيط، وما غيَّر تماماً مكونات موضوع الفداء ـ بل هو صِدق الله، وصِدق كلمته، وأمانة الله، وهو ما يؤكده اثناسيوس في الفصل السادس:

[كان أمراً مرعباً لو أنَّ اللّه بعدما تكلم يصير كاذباً ، إنْ كان بعد أنْ أصدر حكمه على الإنسان، بأنْ يموت موتاً إنْ تعدَّى الوصية لا يموت، بل تبطُل كلمة اللّه. ولو لم يمت الإنسان بعد أنْ قال اللّه أننا نموت، لأصبح اللّه غير صادق] (٦ : ٣).

والفصل السادس كله يدور حول صلاح الله وأمانته وحقه، ولا يستخدم اثناسيوس بالمرة الكلمات التي شاعت في العصر الوسيط، الغضب ـ العدل ـ الانتقام مِن الخطية والخاطئ .. الخ. ورغم اصطدام الإنسان بعدل الله وأمانته، إلاَّ أنَّ النقطة الهامة الجديرة بالبحث هي أنَّ قديس الإسكندرية، ومُعلِّم الكنيسة الجامعة يركِّز الاهتمام كله في عطف محبة الله وصلاحه، ولذلك يضع هذا السؤال بنفسه:

[ما الذي يفعله اللّه في صلاحه إذن؟] (٦ : ٧).

وهنا بالذات يجب أنْ نحصر في دقةٍ تامةٍ، ومِن خلال كلمات اثناسيوس نفسه أسباب حاجتنا إلى أُلوهية الكلمة.حيث أثار بعض **الأسئلة الهامة** التي تعكس المنهج القديم لمدرسة الإسكندرية "الكاتشزم" *Catechism*[1]:.

ففي الفصل السابع، وبعد أنْ شرح عدم كفاية التوبة، يسأل اثناسيوس:

١. مَن الذي كان يستطيع أنْ يعيد إليه تلك النعمة ويرده إلى حالته الأولى؟ (٧ : ٤).

٢. ما الذي يفعله اللّه في صلاحه إذن؟ (٦ : ٧).

٣ـ أيُ طريق كان ممكناً أنْ يسلكه اللّه؟ أيطلب مِن البشر التوبة عن تعدياتهم؟ (٧ : ٢).

٤. مَن الذي كان يستطيع أنْ يعيد إليه تلك النعمة ، ويرده إلى حالته الأولى؟ (٧ : ٤).

---

(١) مِن الكلمة اليونانية تعليم ودخلت اللغات الأوروبية القديمة والحديثة ويسمى الموعوظ Catechumen.

٥ـ ما هي الفائدة مِن خلقة الإنسان أصلاً على صورة اللّه؟ كان خيراً له لو أنَّه خُلِقَ على صورة البهائم العديمة النطق، مِن أنْ يخلَق عاقلاً ناطقاً، ثم يعيش بعد ذلك مثل البهائم (١٣ : ٢).

٦ـ وهل كانت هنالك ضرورةً مطلقاً أنْ يُعطى الإنسان فكرة عن اللّه في بداية الأمر (خلقه)؟ لأنَّه إن كان حتى الآن (زمن كتابة تجسد الكلمة) غير مستعد أنْ ينالها فكان بالأولى أنْ لا تُعطى له مِن البداية (عند خلقه) (١٣ : ٣).

٧ـ ما الذي كان ممكناً أنْ يفعله اللّه؟ وماذا كان ممكناً أنْ يتم سوى تجديد تلك الخليقة التي كانت في صورة اللّه، وبذلك يستطيع البشر مرةً أُخرى أنْ يعرفوه؟ (١٣ : ٧).

الموضوع الأساسي الذي تحدده الأسئلة

لا تُعطي هذه الأسئلة أي مكان أو مجال لما ساد لاهوت العصر الوسيط. فالسؤال الأول عن النعمة وردها، وهو مثل السؤال الرابع. وهكذا تدور هذه الأسئلة حول نعمة الصورة وردها إلى الإنسان. والسؤال الثاني خاص بصلاح الله. والسؤال الخامس والسادس خاصين بمعرفة الإنسان، أي شركة الإنسان في قوة الكلمة. والسؤال السابع عن تجديد صورة الله. وهكذا تحصر هذه الأسئلة موضوع الخلاص كله في:

١ـ صلاح الله.

٢ـ رد النعمة.

٣ـ تجديد الصورة الإلهية.

وهو الأمر الذي غاب تماماً عن لاهوت العصر الوسيط، المُعلِّم الأول لحركة الإصلاح البروتستانتية. ولم يذكر أثناسيوس أن الله احتاج إلى كفارة لكي يرضي العدل، ولم يذكر إن العدل والرحمة دخلا في حوار حول مشكلة الإنسان كما هو وارد في ميمر العبد المملوك.

ثالثاً: حاجتنا إلى أُلوهية الابن الكلمة كأساس للخلاص في الأرثوذكسية

غاب عن لاهوت العصر الوسيط ـ رغم تمسكه الشديد بلاهوت الابن ودفاعه عنه بكل قوة ـ أهمية لاهوت الابن في خلاص الإنسان. وكان السبب في ذلك هو سيادة الفكر القانوني الوافد مِن حضارة عصر الإقطاع الأوروبي. ولكن لاهوت مدرسة الإسكندرية الذي تربَّى على الإنجيل وتعليم الشهداء ـ كما قدمه اثناسيوس ـ يؤكد أنَّ الخلاص هو عمل الخالق نفسه.

وقد وضع الأب مرقس داود ملخص محاضرات *Robertson* أُستاذ اللاهوت السابق في جامعة أُوكسفورد *Oxford*، في مقدمة ترجمة "تجسُّد الكلمة"، حيث يقول الأُستاذ الإنجليزي *Robertson* في الملاحظات التي نقلها الأب مرقس داود:

١ـ ومما يلذ لنا معرفته إنَّ البراهين التي قدمها اثناسيوس ليست تعسفية، أو استبدادية كتعاليم العصور الحديثة والمتوسطة (لاهوت العصر الوسيط) عن الفداء.

٢ـ فإن تعاليم الكنيسة الأولى فسرت سر التقوى بعبارات، إنْ جاز لنا القول أنها دون قوة وبلاغة تعاليم بولس الرسول، فإنها على أي حال خالية مِن روح التعسف والتحكُّم (راجع الطبعة الخامسة ص ١١).

٣ـ وأخيراً: إنَّ العلاقة المباشرة بين عقيدة الخليقة وعقيدة الفداء تبين لنا الفرق بين عقيدة الخلاص في هذه الرسالة (تجسد الكلمة)، وبينها في العصور الوسطى.(ص١٥).

وهناك **ملاحظة هامة للأستاذ *Robertson*** حيث يقول: وأثناسيوس لم يغفل فكرة وفاء الدين. كذلك هو يعتقد أنَّ الصليب كان غرضه الأسمى مِن مجيئه (٢٠ : ٢ ـ ٩ : ١، ٢) أمَّا فكرة تجديد الطبيعة البشرية، فكانت في اعتقاده أهم ضرورات التجسد .. (المرجع السابق ص ١٥). ولذلك، وبسبب ملاحظة أُستاذ جامعة أُوكسفورد عن وفاء الدين، سوف نشرح هذه النقطة بالذات. وقد خصصنا فصلاً كاملاً عن موضوع الدين.

الكلمة الخالق هو رب الخليقة

١ـ الخلق مِن العدم

لعل أهم ما يجب أنْ يقال إنَّ الخلق مِن العدم هو أساس كل تعليم عما يُعرف اليوم بعلم الإنسان أو الأنثروبولوجي في اللاهوت المسيحي. والخلق مِن العدم هو تعليم المسيحية في مواجهة الفلسفات والديانات القديمة التي تؤمِن بأزلية الكون والمادة. ولعل القارئ قد لاحظ أنَّ القديس اثناسيوس قد بدأ شرحه لتعليم المسيحية عن أسباب تجسد الكلمة بتأكيد خلق الإنسان مِن العدم، وعدم أزلية الكون (٢ : ١).

وما يؤكد الخلق مِن العدم، حسب شرح كل الآباء، والقديس اثناسيوس بالذات:

أ ـ ضَعف تكوين الإنسان، فهو مخلوقٌ مِن العدم، والعدم هو اللاوجود، وهكذا رأى الله ضعف تكوين الإنسان وعجزه عن أنْ يبقى في حالٍ واحدة (٣ : ٣).

وتغيُّر الإنسان ـ كما يراه القديس غريغوريوس النيسي ـ سببه الأصلي هو الانتقال مِن عدم الوجود إلى الوجود، وبالتالي جاء هذا بالتغيير وصار التغيير هو أصل الإنسان ويلتصق بطبعه.

ب ـ ويؤكِّد القديس اثناسيوس إنَّ عدم ثبات الإنسان، جعل حرية الاختيار عند الإنسان قادرةً ـ حسب كلمات اثناسيوس ـ أنْ تميل إلى الخير أو الشر (٣ : ٤)، ولذلك جاءت الوصية لكي **"تُدعِّم النعمة"**، لا لكي تخلق النعمة (٣ : ٤)، فالنعمة سبقت الوصية ـ أي أنَّ النعمة سبقت الناموس. ومِن هنا يتضح لنا أنَّ أساس الحياة الأخلاقية هو **"صورة الله في الإنسان"**. وهذا هو الوضع الأصلي والحقيقي للعلاقة مع الله الكلمة خالق كل الأشياء، أي أن أساس العلاقة عند خلق الإنسان كانت ولا تزال هي النعمة؛ لأن الإنسان حتى بعد سقوطه، حفظته نعمة الله من العودة إلى العدم، رغم أن الإنسان لم يحفظ النعمة.

٢ـ الموت الطبيعي

وخَلقُ الإنسانِ مِن العدم، وعدم قدرة ثبات الإنسان يعني، حسب شرح اثناسيوس نفسه، إنَّ عدم ثبات الإنسان في الخير يجلب عليه الموت. وهنا بشكل خاص علينا أنْ نميِّز بين مسألتين، ما يسميه أثناسيوس بالموت الطبيعي، وبين موت الخطية:

الأولى هامةٌ جداً بالنسبة للتعليم الشرقي الأُرثوذكسي ألا وهي أنَّ الموتَ هو مآل ومصير الخليقة التي خُلِقَت مِن العدم،.وهو ما يُطلِق عليه القديس اثناسيوس: الحالة الطبيعية الأولى ـ أي العدم ـ أو الفساد:

[لأنَّهم إنْ كانوا بحضور الكلمة، وتعطفه قد دُعُوا إلى الوجود مِن الحالة الأولى الطبيعية، وهي عدم الوجود، فإنهم بطبيعة الحال متى تجردوا مِن معرفة الله عادوا إلى العدم] (٤ : ٥).

ويؤكد اثناسيوس هذه الحقيقة في الفقرة التالية مباشرةً:

[الإنسان خُلِقَ مِن العدم، فإنه فانٍ بطبيعته] (٤ : ٦).

ولذلك يُسمِّى الفساد باسمه الحقيقي:

[الفساد الطبيعي] (٤ : ٦).

[البشر بالطبيعة فاسدون] (٥ : ١).

[تعيَّنوا للخلاص مِن حالتهم الطبيعية بنعمة اشتراكهم في الكلمة] (٥ : ١).

ولقد دار جدل هام حول بعض عبارات القديس اثناسيوس في الفصل الثالث عن **الموت حتى في حالة عدم سقوط آدم**، حيث يقول عن الإنسان الأول:

[إنَّه إذا حفظ النعمةَ، واستمر صالحاً، استطاع الاحتفاظ بحياته في الفردوس بلا حزنٍ، ولا ألمٍ، ولا همٍ، فضلاً عن موعد عدم الفساد في السماء] (٣ : ٤).

وبعد ذلك مباشرةً يقول:

[أمَّا إذا تعدَّى الوصيةَ، وارتد، وأصبح شريراً، فيعلم بأنَّـه يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقه بالطبيعة] (٣ : ٤).

فإذا كان الإنسان قد دُعيَ للحياة في السماء، فإنَّ الموتَ إذن هو انتقالٌ مِن الفردوس إلى السماء. وهكذا استقر عند الآباء أنَّ الفردوس لم يكن هو الوطن الأبدي للإنسان، بل ولا حتى النظام الكوني كله أيضاً هو الوطن لأنَّه كان ولا يزال ـ حتى بعد النظريات الحديثة الخاصة بالنظام الفلكي ـ وطنٌ هشٌ، قابلٌ للدمار الطبيعي؛ لأنَّ ما خُلِق مِن العدم لا يقدر على الوجود والبقاء بقدراته الذاتية.

٣ـ الفرق بين الموت الطبيعي، وموت الخطية

رد القديس اثناسيوس واضح:

أ ـ جاء موت الخطية بمثابة حكم إلهي (٤ : ٤).

ب ـ صار للموت سيادة شرعية بسبب تعدِّي الناموس (٤ : ٤)، أو صار للموت **"سلطانٌ على كل الجنس البشري"** (٥ : ٢)، وهنا يميز اثناسيوس بين:

* سلطان الموت الطبيعي، وهو انحلال الوجود الإنساني الذي يسبق انتقال الإنسان إذا استمر صالحاً.

* سلطان الموت الذي زاد، وهو ما يؤكده:

[صار له سلطانٌ على كل الجنس البشري أكثر مِن سلطانه الطبيعي، لأنَّه أتى نتيجة تهديد اللّه في حال عصيان الوصية] (٥ : ٢).

ج ـ ساد الموت، وساد الفساد بقوة الناموس (٦ : ٢)، لأنَّ الإنسان لا ينتقل مِن صلاح الوجود في الفردوس إلى صلاح الوجود في السماء، بل مِن شر الحياة الأرضية إلى الحالة الطبيعية الأولى وهي سيادة الموت والفساد على الإنسان.

٤ـ لماذا لم يَعُد الإنسان إلى العدم؟

والجواب الواضح يقدِّمه القديس اثناسيوس في الفصل السادس:

[كان أمرٌ غيرَ لائقٍ أنَّ الخليقة التي خُلِقَت عاقلة، والتي شاركت الكلمة يصبح مصيرها الهلاك وترجع إلى عدم الوجود، والفساد] (٦ : ٤).

وهكذا يرى اثناسيوس إنَّ عدم فناء الجنس البشري مصدره نعمة الشركة في الكلمة، وهو الموضوع الذي أشرنا إليه مِن قبل، وهو ما نعني به مكونات الصورة الإلهية، ولذلك السبب لم يفنَ الإنسان، فقد اشترك في قوة الكلمة، وصار ظِل الكلمة، وبالتالي صار صلاح الله هو سبب بقاء الإنسان وعدم فناء الجنس البشري:

[وبصفةٍ خاصةٍ كان غير لائقٍ على الإطلاق أنْ تتلاشى صنعة (خلقة) الله بين البشر] (٦ : ٦).

وهنا يثير القديس اثناسيوس السؤال الذي سبق وأشرنا إليه: **ما الذي يفعله الله في صلاحه؟** ولم يكتب أثناسيوس سؤال العصر الوسيط: ما الذي يفعله الله إزاء عدله؟

ويجيب على هذا السؤال، ويضع الاحتمال الأوَّل:

[أيحتمل بأنْ يرى الفساد يسود البشر، والموت ينشب أظفاره فيهم؟].

ويجيب على هذا الاحتمال:

[ما الفائدة مِن خلقتهم منذ البدء؟ كان خيراً لهم لو لم يخلقهم، مِن أنْ يخْلَقوا، ثم يُهمَلُون، ويفنَون].

ويعود إلى صلاح الله، ويقول:

[الإهمال (إهمال الله للخليقة الساقطة) لا يُعلِن صلاح الله، بل ضعفه إنْ كان يسمح لخلقة يديه بالفناء بعد أنْ خلقها]

[كان أمراً مُشيناً جداً أنْ يفنَ المخلوق على مرأى مِن الخالق]

[لهذا أصبح أمراً محتماً ألاَّ يترك الإنسان لتيار الفساد ، لأنَّ ذلك يُعتَبر عملاً غير لائقٍ، ولا يتفق مع صلاح اللّه] (العبارات كلها مأخوذة مِن الفصل السادس فقرات ٦ ـ ١٠).

هذا يحتم علينا أنْ نعود إلى أحد مبادئ الأُرثوذكسية، وهو أنَّ الكون لا يحيا ويتحرك حسب قوة القانون الطبيعي وحده، بل حسب نعمة الله التي تضبط كل الكائنات، ولذلك السبب وحده ظل الإنسان حياً. وهنا نلاحظ أنَّ اثناسيوس يري إنَّ بقاء الإنسان حياً حتى بعد الخطية ـ رغم تهديد الله بالموت في حالة التعدِّي ـ هو بقاءٌ في الموت إلى الأبد؛ لأنَّ هذا متعلقٌ بأمانة الله لذا تحوَّلت الطبيعة الإنسانية مِن الوجود حسب الصورة الإلهية إلى الوجود حسب العدم [١]، وهو ما يسميه اثناسيوس **"صار الفسادُ طبيعةً للإنسان"** (٧ : ٤)، وفي هذا تكمن مأساة الإنسان. لكن مِن ناحيةٍ أُخرى، كان لابد أنْ يُعلِن اللهُ صلاحه، لأنَّه سبق وأعطى نعمة الشركة في الكلمة، وكان لابد مِن تجديد الإنسان؛ لأنَّ خلق الإنسان، وتركه عُرضةً للفساد والموت وسيادة الموت لا يحقق غاية خلق الإنسان.

رابعاً: الخيرُ وجودٌ، والشرُ عدم

هذه عبارةٌ اعتراضيةٌ وردت في الفصل الرابع فقرة ٥ في كتاب تجسد الكلمة، وهي عبارة ذات دلالة أنطولوجية[٢] بالغة الأهمية ذات ارتباط وثيق بالخلق مِن العدم. وهي تشرح قصد اثناسيوس مِن أنَّ التجرد مِن معرفة الله كافٍ لأنْ يُعيد الإنسان إلى العدم (٤: ٥). إنَّ هذه العبارة بالذات تسبقها عبارةٌ أُخرى تتحدث عن إعلان الكلمة عن نفسه، وهو الإعلان الذي فيه دعىَ الكلمةُ الإنسانَ مِن العدم إلى الوجود بسبب محبته للبشر، أي انتقال الإنسان مِن حالة **الوجود الطبيعي، أي العدم إلى الوجود والحياة حسب صورة الله** (٤ : ٥). الأمر الذي يُلقي الضوء علي ما يحدث عندما يفارق الإنسان الله ويتأمل كيانه وحياته بدون الله؟ وهو ما سبق وشرحه القديس اثناسيوس في رسالته إلى الوثنيين (الفصول

---

[١] أي الطبيعة التي أُخذ منها الإنسان، وهي العدم. فالإنسان كائنٌ، ولكنه مهدد بالفناء، وما يحفظه من الفناء ليس قدرات الإنسان وإرادته، بل نعمة الله

[٢] أنطولوجي، أي العلم الخاص بالوجود، وبكيان المخلوقات.

مِن ٢ إلى ٤). فعندما تأمَّل الإنسان صورته بدون الله لم يجد فيها الله الكلمة، وإنما وجد فيها حالته الطبيعية الأولى، أي العدم. في هذا الشرح يقدم القديس اثناسيوس لنا التسليم الرسولي الإسكندري مختصراً؛ لأنَّه يفترض أنَّ قارئه يعرف هذا التسليم، ولذلك يكتفي بتذكير القارئ بأنَّ الوجود حسب صورة الله يُكوِّن معرفة **الحق والحياة**، وهو ما شرحه مؤلِّف "الرسالة إلى ديوجنيتوس"، وما أكده بعد ذلك القديس غريغوريوس اللاهوتي عن أهمية المعرفة ومدي ارتباطها بالحياة، وأنَّ خطة الله كانت أنْ يأكل الإنسان مِن شجرة الحياة، لكي يحيا حياةً حقيقيةً تُعطي له المعرفة الاختبارية النابعة مِن الحياة، ولكن الإنسان أكل مِن شجرة معرفة الخير والشر قبل أنْ يأكل مِن شجرة الحياة لأنَّه أراد أنْ يحيا بالمعرفة أولاً، ولذلك تعرَّى مِن الحياة حسب الصورة، لأنَّه لم يشأ أنْ يحيا ليعرف، بل يعرف لكي يحيا. ولما طلب الإنسانُ المعرفةَ بعيداً عن الشركة توغل في إدراك العدم، وملأ فراغ حياته بالشر. وفي عبارة هامة في الرسالة إلى الوثنيين يؤكد اثناسيوس إن الإنسان **"خلقَ الشرَ حسب صورته"**، فجاء الشرُ مساوياً لخالقهِ، أي جاء الشر وليد الفكر البشري يحمل سِمات خالقه، وكانت أول سِمات الخالق: العدم (الرسالة إلى الوثنيين ـ الفصول مِن ٨: ١٠).

وهذه العبارة الإعتراضية الواردة في الفصل الرابع مِن تجسد الكلمة (الخير وجود والشر عدم) هي بذاتها نفس العبارة الإعتراضية في الفصل الرابع مِن الرسالة إلى الوثنيين، بالإضافة إلي إيضاحٍ موجزٍ مِن القديس اثناسيوس يؤكد فيه إنَّ الخير كائنٌ؛ لأنَّه يستمد كيانه مِن أصلِ الوجود، وهو الله، ولذلك يجب علينا مراجعة هذه الفقرة الهامة التي يقول فيها اثناسيوس: إنَّ الإنسان أغلق على نفسه دائرة العدم، أي فقدان الشركة في مصدر الحياة.

[لأنَّه فَقَدَ معرفته بالله، وعندما كان يتأمل كيانه كصورة الله كان يُدرِك مِن تأمُل كيانه حقيقة وجود الكلمة، وإعلان الكلمة عن ذاته، وعن الآب] (الرسالة إلى الوثنيين: ف ٣).

[أمَّا بعد أنْ ترك حياة الشركة، فقد بدأ يزرع الأوهام

والأفكار الخاطئة عن نفسه، وعن اللّه، ولذلك سقط في عبادة الأوثان] (الرسالة إلى الوثنيين: ف ٣).

١ـ معرفة الحياة، ومعرفة الموت

مِن الصواب أنْ نقول أننا بعد الطرد مِن الفردوس نعيش مأساة اختلاط معرفة الحياة ومعرفة الموت، وهذا ما يؤكده قول الرب نفسه بأنَّ «مَن وجد حياته يضيعها.ومَن أضاع حياته مِن أجلي يجدها.»(مت ١٠: ٣٩). فقد جلب الموت معرفةً ذات طبع خاص، وهي معرفةٌ لا يمكن فصلها عن مصدرها وهو الموت. وأهم سمات هذه الخوف من فقدان الجسد، والخوف مِن فقدان الحياة، وهو ما يجعل الإنسان **يلتصق** أكثر **بما يراه ويحسه ويسمعه،** وهذا ما يؤكده القديس اثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين فصل ٣ حيث يقول:

[بغواية الحية ترك الإنسان تأمله اللّه، وبدأ يحدد غاية وجوده، وسقط كلاهما (أي آدم وحواء) في الشهوات الجسدانية. وهنا أدرك كلاهما أنهما عريانين، وعندما عرفا ذلك خجلا. وقد أدرك كلاهما انهما ليسا عريانين من الملابس، بل من تأمُّل الأمور الإلهية، وانهما حولا عقليهما إلى ما هو ضد الأمور الإلهية، وعندما تركا معاً الرغبة في اللّه وفي الوجود الحقيقي، أي اللّه تحولا منذ تلك اللحظة إلى طلب رغبات متفرقة ومتنوعة خاصة بالجسد].

ويبقى السؤال: هل كانت معرفة الإنسان الزائفة هي السبب الظاهر لموت الإنسان؟ وهل تكفي المعرفة الكاذبة لأنْ تجعل الإنسان يفقد الحياة؟ والجواب ليس سهلاً؛ لأنَّنا نعيش في زمان المعرفة المكتسبة خارج الفردوس، وبدون الشركة، ولذلك يتعذر علينا أنْ نرى الله كمصدر للحياة، ومِن الصعب علينا أنْ نرى كيف يكون الله هو مصدر الحياة في نفس الوقت الذي نظن فيه أنَّنا نحيا ونستمر في البقاء بواسطة المعرفة المكتسبة، وهي المعرفة التي تنبع من خبرة الإنسان حيث يسيطر الموت على جوانب وسمات المعرفة الإنسانية.

وبكل وضوح يظهر لنا أنَّ غاية الحياة النُسكية في الأُرثوذكسية، هي التحرر مِن

المعرفة المكتسبة لكي لا يكون فينا مصدرين للمعرفة: الله، والمعرفة المكتسبة من خبرة الموت، بل مزجهما معاً لكي يصبح للإنسان معرفةً واحدةً صالحةً تُطهِّر المعرفة المكتسبة، وهو الموضوع الأصلي لعظات كل مِن أوريجينوس، وغريغوريوس النيسي على سفر نشيد الأناشيد، ورسائل أنطونيوس، وغيرها مِن الكتابات النُسكية، وبشكلٍ خاص، كُتب مرقس المتوحد أو الناسك[1].

ومع أنَّه لم تظهر عندنا دراسة عربية حتى تاريخ كتابة هذه الدراسة عن علاقة المعرفة بالموت والحياة رغم الأهمية القصوى لهذا الموضوع، إلاَّ أنَّنا سنكتفي بعرضٍ موجزٍ جداً لأهم ما جاء في الكتابات النُسكية، التي تقدم أوفر وأدق موجز كُتِبَ عن تعليم الآباء.

٢ـ المعرفة التي تُولد مِن خوف الموت

- هي معرفةٌ تفصل بين الأشياء (أي تري أنَّ كل شئٍ مستقلاً)، فهي تفصل بين الله والخليقة، الجسد والروح، الله والإنسان.
- وهي قادرةٌ على عزل الأفكار، ولا تملك القدرة على جمع وائتلاف كل المخلوقات، لأنَّها لا تُولد مِن التاؤريا الأولي[2] أي الهذيذ في أعمال الله الظاهرة.
- كما أنها ترى نهاية الأشياء قبل بدايتها، ولا تربط بين البداية والنهاية، لأنَّ الموت كنهايةٍ هو العلامة الُميِّزة لهذا النوع مِن المعرفة، ولا ترى هذه المعرفة كيف يمكن للأشياء أنْ تتحرك بدون شهوة.
- وهي لا تفهم المحبة، بل وتحتقر التواضع، وتشتم كل الفضائل، وتظن أنَّها ضعفٌ وعجزٌ، ولذلك ترفض الصبر ولا تقبل الانتظار، ولنفس السبب تحتقر الصليب.

---

[1] راجع فصول في الصلاة والحياة الروحية - إفاغريوس البنطي / مرقس الناسك، سلسلة آباء الكنيسة رقم ٥ منشورات النور ١٩٩٠م.

[2] راجع البند رقم ٥ من هذا الفصل.

٣ـ المعرفة التي تولد مِن نور الروح القدُّس، ومِن الحياة حسب المسيح

- هي تبحث دائماً عن كل ما يخص الله، وترجو الالتصاق بالمسيح في كل شيء.
- وهي تفهم أنَّ المحبة هي طريق الحياة، وإنَّ بقاء الأشياء ليس بقدراتها، بل ترى يد الخالق تضبط كل الأشياء، لأنَّها تربَّت في مدرسة التاؤريا الأولى أي الهذيذ الأوَّل، وهو تأمُّل المصنوعات الخاضعة لتدبير الله.
- وهي تجد في الفضائل نفسها قواعد المنطق والفلسفة الحقيقية للحياة الجديدة التي توجه كل أُمور الحياة.
- كما تخضع للوصية المُقدَّسة، وتعتبر الوصية أداة حياة؛ لأن الخالق حدد غاية الصلاح ووسيلته بالوصية المقدسة.
- وهي تُفضِّل الرب على كل الأشياء مهما كانت قيمتها؛ لأن الرب هو مصدر الحياة.

٤ـ الخير والشر حسب نعمة صورة الله

وإذا كان البحث قد قادنا إلى هذه النقطة بالذات، أصبح مِن الضروري أنْ نفهم الخير والشر حسب نعمة الصورة الإلهية. وأول ما يجب أنْ نلاحظه أنَّ القديس اثناسيوس مثل كل آباء الكنيسة الجامعة يرى أنَّ **الخطية، هي الخطية ضد نعمة الله**، أي الاستهانة بعطية **الصورة**، وهي تبدأ بالمعرفة الكاذبة التي وُلِدت مِن الذات الإنسانية وبسبب غواية الشيطان.

ولكي يشرح القديس اثناسيوس هذا الموضوع، نجده يعود إلى غاية خلق الإنسان في الفصل الحادي عشر مِن كتاب تجسد الكلمة:

> [تحنن الله على الجنس البشري على قدر صلاحه، ولم يتركهم خالين مِن معرفته، لئلا يروا أنْ لا منفعة (غاية) على الإطلاق مِن وجودهم في الحياة] (١١ : ١).
>
> [أية منفعة للمخلوقات إنْ لم تعرف خالقها؟ أو كيف يمكن أنْ تكون عاقلة بدون معرفة كلمة الآب الذي

أوجدهم في الحياة؟ لأنَّه إنْ كانت كل أفكارهم محصورةً في معرفة الأُمور الأرضية، لم يعُد لهم ما يميزهم عن البهائم العديمة النطق. نعم، ولماذا خلقهم اللّه لو كان لا يريد للمخلوقات أنْ تعرفه؟] (١١ : ٢).

وهكذا سلك القديس اثناسيوس في ذات طريق مدرسة الإنجيل، فقد خلق الله الإنسان لكي يعرفه. وإذا تعذر على الإنسان أنْ يعرف خالقه صار **"مثل البهائم العديمة النطق"**، وكما رأينا سابقاً، أنَّ الإنسان قد نال صورة الله، أي نصيباً في الكلمة، القدرة العاقلة للآب. ويعود اثناسيوس إلى ذات النقطة لكي يزيدها شرحاً :

[وحتى لا تجهل الخليقة اللّه، وتفادياً لهذا، أعطاهم اللّه بصلاحه نصيباً مِن صورته - ربنا يسوع المسيح - وخلقهم على صورته ومثاله، حتى إذا ما رأوا هذه الصورة، أي كلمة الآب، استطاعوا أنْ يكوِّنوا لهم رؤيةً للأب، وإذا ما عرفوا خالقهم عاشوا الحياة الحقيقية السعيدة المباركة] (١١ : ٣).

ولكن الخطية بدأت بالمعرفة، وصارت بذلك خطيةً عن معرفةٍ، وضد النعمة، وهذا ما يؤكده القديس اثناسيوس:

[ولكن البشر في ضلالهم وتمردهم إذ تهاونوا - رغم كل هذا (بالصلاح والنعمة الإلهية) - بالنعمة التي أُعطيت لهم تركوا اللّه كُليةً، واظلمَّت أنفسهم لا بمجرد ترك فكرتهم عن اللّه، بل أيضاً باختراعاتهم الكثيرة التي اخترعوها لأنفسهم الواحد تلو الآخر] (١١ : ٤).

وهكذا إذاً عندما انعدم إشراق نور الكلمة في الإنسان بتحوُّل الإنسان عقلياً عن مصدر الحياة ومصدر المعرفة الحق **"إظلمَّت أنفسهم"** واخترع الإنسان الوثنية، وعَبَدَ الشيطان (١١ : ٤) **"وصار الله وحده، وكلمته غير معروفٍ"** (١١ : ٧).

٥- التاؤريا الأولى والثانية، وخطية الإنسان

حسب كتابات الآباء، كان الهذيذ في المخلوقات، وتأمُّل الخليقة، وهو درجة

المعرفة الروحية الأولى، هو مدخل الحياة النُسكية الذي يقود إلى التاؤريا الثانية، وهي معرفة الإنسان لنفسه. وهنا يضع القديس اثناسيوس الدرجتين معاً مؤكداً ما سبق وأنْ قاله في كل مؤلفاته:

[كانت نعمة مماثلة الصورة الإلهية (التشبُّه بالكلمة؛ لأنَّ الكلمة هو صورة الله غير المنظور) كافيةٌ في حد ذاتها لمعرفة الله الكلمة، ومعرفة الآب به، إلاَّ أنَّ الله العارف ضعف البشر أعد علاجاً شافياً لإهمالهم حتى إذا كانوا لا يُعنون بمعرفة الله مِن تلقاء أنفسهم استطاعوا بواسطة المخلوقات أنْ يتجنبوا الجهل، ويعرفوا الخالق] (١٢ : ١).

وهكذا أيضاً نرى الأساس اللاهوتي السليم للحياة النُسكية الأُرثوذكسية حيث يتعلم الإنسان مِن الكلمة ومِن كتاب الله الأول، أي الخليقة أو الكون. وبات مِن الضروري أنْ نرى أنَّ الخطيةَ عن معرفةٍ كان لها آثارٌ مدمِّرةٌ على كيان الإنسان، وأنَّها كانت تمس أدق نقطة، وهي العلاقة الكيانية بين الإنسان والكلمة، وهي علاقة المماثلة والتشبُّه بصورة الآب ربنا يسوع المسيح. وبعبارةٍ أُخرى، لم تكن الخطية اعتداءٌ على الناموس الإلهي، لأنَّ الناموس لم يكن قد أُعطِّي لموسى بعد، ولكن كان الناموس هو شريعة الحياة الروحية الداخلية لصورة الله، وهو ما تؤكِّده كل كتابات الآباء في الشرق على وجه الإطلاق حتى رسائل أنطونيوس الكبير التي تشرح في بساطةٍ ووضوح أنَّ الشريعة كانت في قلب الإنسان، ثم أُعيد كتابتها على لوحي الحجر، وهو موضوعٌ أفاضت في شرحه الدسقولية[1]. وقد سبق أنْ أشرنا إلى هذه النقطة الهامة، إذ يقول معلمنا العظيم عن نعمة الصورة والوصية:

[ولكن (الله) لعلمه أنَّ إرادة الإنسان يمكن أنْ تميل إلى إحدى الجهتين، سبق فدعَّم النعمة المعطاة له بالوصية التي قدمها إليه] (٣ : ٤).

وبعد ذلك يؤكد اثناسيوس: **"وأعطاه وصيةً حتى إذا حفظ النعمة، واستمر**

---

[1] راجع الدسقولية-الطبعة الأولي ١٩٧٩م، إعداد د.وليم سليمان قلادة، ص٥١٦ وما بعدها.

صالحاً..." (المرجع السابق). فالخطيةُ إذن، هي تفريطٌ في النعمةِ، والتعدِّي هو خروجٌ على غاية الخلق.

يُعتبر هذا الشرح، ضرورياً جداً؛ لأنَّه أحد السمات الأساسية لفكر الشرق، حيث يظهر أنَّ التفريط في نعمة الله كان يقابله **ردُّ للنعمة، ومِن ثم تجديد الإنسان بصورةٍ تحفظ له النعمة الإلهية،** وهو ما يؤكده اثناسيوس في أكثر مِن موضع، ولعل أفضل موجز يقدِّمه اثناسيوس نفسه في عبارةٍ رصينةٍ:

[أفلا يشفق الله بالأولَّى على خليقته كي لا تضل عنه، وتعبُد الأشياء الباطلة التي لا وجود لها ما دام قد تبين أنَّ ضلالهم سبَّب تلفهم وخرابهم، **ولم يكن لائقاً أنْ يهلك أولئك الذين كانوا وقتاً ما شركاء في صورة الله**] (١٣ : ٦).

وعندما تمرد الإنسان ورفض النعمة، حفظ الله للإنسان مكانته لسبب ظاهر، وهو أنه كان شريكاً لابنه الوحيد، ولم يرفض اللهُ الإنسان؛ لأنَّه لو رفض اللهُ الإنسانَ لَعَاد الإنسانُ إلى العدم، وتُعبِّر الليتورجيات الأُرثوذكسية عن هذا في عباراتٍ موجزةٍ:

[لم تتركنا عنك أيضاً إلى الانقضاء، بل تعهَّدتنا دائماً بأنبيائك القديسين] (القداس الباسيلي).

[ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلي الحياة] (القداس الغريغوري).

وهذا هو ما نراه عبر فصول تجسد الكلمة، إذ كان مجيء الأنبياء يؤكد أنَّ الله لم يترك الإنسانية، وهو ما يشرحه اثناسيوس في تشبيه، أو مَثَل في الفصل الثالث عشر مؤكداً فيه أنَّ الله أرسل الأصدقاء (الأنبياء)، ثم جاء إلينا بشخصه (١٣ : ٥).

الموت والعدل الإلهي
بين تعليم الآباء،
وتعليم بعض الإكليروس الأقباط المعاصرين

أولاً: الموت والعدل الإلهي في كتاب "تجسُّد الكلمة"

لا يذكر المُعلِّم العظيم أثناسيوس أنَّ الموتَ **"عقوبةٌ"** إلهيةٌ، بل **"حُكمٌ"**. والفرق بين الكلمتين ليس مجرد فرقاً لغوياً يخص الدراسات اللغوية، بل هو فرقٌ لاهوتيٌ هام. ولعل أحد أسباب عدم استخدام كلمة "عقوبة"، هو التصوُّر الدقيق الذي حدده اثناسيوس نفسه بأنَّ الإنسان صورة الله، وإنَّ التعدي هو خروجٌ على هذه النعمة، وبالتالي يجلب الإنسان على نفسه الموت، حيث يقول:

> [أمَّا إذا ارتد وتعدَّى الوصية وأصبح شريراً، فيعلم **بأنَّه يجلب على نفسه الفساد بالموت** الذي كان يستحقه بالطبيعة] (٣ : ٤).

> [فقد استحق (البشر) حكم الموت، الذي سبق إنذارهم به (ترجمة الأب مرقس داود "تهديدهم به"، وهي غير دقيقة)، بل فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم، وساد عليهم الموت كملك] (٤ : ٤).

وسيادة الموت على البشر تنفي تماماً فكرة الموت كعقوبة. وتؤكد التعليم الشرقي **بأن الحكم الإلهي قد صدر قبل سقوط الإنسان**، وإن البشر قد **"فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم"**، وهو ما يجعل أثناسيوس يعيد صياغة عبارات الرسول في رومية ٥ "كما ملكت الخطية بالموت".

> [رفض البشر الأُمور الأبدية، وتحولوا إلى الأُمور الفاسدة بمشورة الشيطان، وصاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت] (٦ : ١).

وعندما يجلب الإنسان على نفسه الموت، فإنه يضع نفسه تحت الحكم الإلهي، وليس تحت العقوبة؛ لأنَّ العقوبة هي جزاء يتناسب مع الجريمة محدد سلفاً في القانون، أمَّا حكم الموت، فهو ليس جزاءً ولا عقوبةً، بل حكماً صدر كإنذارٍ مِن الله قبل سقوط الإنسان مؤكِّداً للإنسان أنَّ عدم البقاء في النعمة يعني العودة إلى الحالة الأولى، وهي حالة الفساد الطبيعي كما ذكرنا. هنا يسود الموت على الإنسان حسب تعبير اثناسيوس **"سيادةً شرعيةً"**، أو **"سيادةً قانونيةً"**؛ لأنَّ الموت، وإن كان مصيراً قبل السقوط، إلاَّ أنَّه كان تحوُّلاً يتم به ـ حسب خطة الله ـ نقل الإنسان مِن الأرض والفردوس الأرضي إلى السماء، أمَّا الآن فقد طرح الإنسان نفسه في حفرة الموت، وهو كما يؤكد اثناسيوس قد تخلَّى عن صورة الله. فالفرق كبير بين مَن يموت كصورة الله (أي يموت وهو في الشركة) ويتحول إلى حياة سماوية، ومَن يموت بدون نعمة الصورة وبلا شركة مع الله، ويصبح للموت سيادةً شرعيةً عليه.

وتستدعي هذه الحقيقة إثارة الفرق الجوهري بين المسيحية الشرقية الأُرثوذكسية، وغيرها من المذاهب الفلسفية والديانات الأُخرى أياً كانت. فالإنسان لا يحيا تحت سيادة ملكٍ هو الله، مثل ملوك الأرض، بل تحت سيادة وسلطان الخالق. وهذا يعني أن الشريعة أو الناموس هو ناموس الخالق الذي جعل العلاقة بينه وبين الإنسان علاقة **نعمةٍ** تحفظها الوصية، لا علاقة **سيادةٍ** يحكمها القانون كما في الأنظمة السياسية الأرضية. لأن وساطة الشريعة بين الله والإنسان ليس هو تعليم المسيحية بالمرة مهما اختلفت مذاهبها؛ بل الوسيط هو الابن الخالق. هذا يفرض علينا أن نراجع كل ما يقال عن إن الموت الذي جلبته الخطية هو عقوبة؛ لأن هذا الموت ـ حسب التعليم الشرقي ـ جاء مع تخلِّي الإنسان عن غاية خلقه، أي تخليه عن أن يحيا حسب الصورة الإلهية، ورفضه الشركة مع الله، فبقى أسير صورة كيانه الميت الذي كونته الخطية. هنا يصبح الحكم إعلاناً عما سيحدثِ. أمَّا العقوبة في القانون الأرضي فهي لا تؤثر في حياة الإنسان الداخلية ولا تمس العلاقة الكيانية بين الله والإنسان، أي العلاقة بين الأصل والصورة، فبينما العقوبة هي الأثر الذي يُحدثه القانون عند تخلِّي الإنسان عن واجباته وتركه لهذه الواجبات، نجد أن الحكم

الذي هو الموت الذي جلبته الخطية بحسب التعليم الشرقي هو النتيجة التي وصل إليها الإنسان عندما تخلَّى عن حقيقة كيانه باعتباره مخلوقاً على صورة الله ومثاله. ومع أن التعدي حسب المعنى الاجتماعي والسياسي يجب رده إلى تحول الطبيعة الإنسانية، إلاَّ أنَّ القانون الأرضي لا يبحث حالة أو طبيعة الإنسان إلاَّ في حالات الجنون والمرض، حيث يبحث القانون في انعدام المسئولية، وتحلل الإرادة والقوى العقلية وعجزها عن ممارسة دورها في اتخاذ القرار الصحيح. ويمكن أن نوجز هذا كله في عبارةٍ واحدة، وهي أن اللاهوت يحدد الخطية على أساس ما يعلنه عن طبيعة الإنسان، بينما يحدد القانون الأرضي الشر أو الخطية على أساس الإدراك والمسئولية والإرادة والواجبات.

وفي حقيقة الأمر لا يمكن المقارنة بين موت الانتقال، وموت الخطية[1]، لأنَّ الأوَّل أشار إليه اثناسيوس باعتباره "غاية الخليقة"، ويُلاحَظ أنَّ هذه العبارة، وإنْ كانت غير واضحة في الترجمة العربية، إلاَّ أنَّها واضحةٌ تماماً في الأصل اليوناني، فيقول:

> [ولكنه تنازل وأتى إلينا لكي يُعلِن شفقته علينا ويفتقدنا، وإذ رأى جنس البشر في طريق الهلاك، وأنَّ الموت يسودهم بالفساد، وإذ رأى أيضاً أنَّ الإنذار بالموت في حالة التعدي قد مكَّن الفساد مِن طبيعتنا، وإنه لأمرٌ شنيع أنْ تنحل الخليقةُ قبل أنْ تصل إلى غايتها....] (٨ : ٢).

ونؤكد صحة هذه الترجمة بعبارةٍ أُخرى:

> [لهذا أشفق على جنسنا، وترَفَّقَ بضعفنا، ورثى لفسادنا، وإذ لم يحتمل أنْ يرى الموت تصير له السيادة لئلا تفنى به الخليقة وتذهب صنعة أبيه في البشر هباء .. فقد أخذ لنفسه جسدا] (٨ : ٢).

وهكذا لم يكن حكم الموت[2] إلاَّ نهايةً لخليقةٍ لم تصل بعد إلى غاية خلقها، وهو

---

[1] تُراجع كلمات أوشية الراقدين "لأنه ليس يكون موتٌ لعبيدك، بل هو انتقال".

[2] راجع كلمة "قصاص فساد الموت"، والكلمة "قصاص" عربية قرآنية غير معروفة لنا في المصادر اليونانية والقبطية (تجسد الكلمة - ترجمة القمص مرقس داود - الطبعة الخامسة ص ٣٧).

ما يجعل موت الخطية **"موتُ بُطلٍ"** حسب عبارة الرسول بولس في (رو ٨ : ٢٠) بينما الانتقال بالموت مِن الحياة الأرضية إلى الحياة السماوية هو موت الكمال والوصول إلى الغاية.

وإذا كانت العقوبة تنم عن التشفِّي والرضى بنتائج الخطية، فالحُكم ـ كما يذكر اثناسيوس في أكثر مِن مرة ـ كان سبب مجيء الكلمة وتجسده وموته ... وهذه هي بعض عبارات المُعلِّم الكبير:

[إنَّ نزوله إلينا كان بسببنا، وإنَّ عصياننا استدعى محبة الكلمة للبشر، لكي يُسرِع الرب في إغاثتنا، والظهور بيننا] (٤ : ٢).

[لأنَّه مما لا يتفق مع صلاح اللّه أنْ تفنى خليقته] (٦ : ٥).

[لهذا أصبح أمراً محتماً ألاَّ يترك الإنسان لتيار الفساد، لأنَّ ذلك يُعتَبر عملاً غير لائقٍ ولا يتفق مع صلاح اللّه] (٦ : ١٠).

[تنازل، وأتى إلينا؛ لكي يُعلِن شفقته علينا، ويفتقدنا] (٨ : ١).

[أشفق على جنسنا، وترفَّق بضعفنا، ورثى لفسادنا، وإذ لم يحتمل أنْ يرى الموتَ، تصير له السيادة، لئلا تفنى به الخليقة] (٨ : ٢).

[كان هذا العمل العظيم متفقاً مع جود اللّه بشكل عجيب .. وهكذا كلمة اللّه الآب الكلي الصلاح، لم يهمِل الجنس البشري صنعة يديه، ولم يتركه للفساد، بل أبطل الموت بتقدِّيم جسده] (١٠ : ١).

ثانياً: العدل الإلهي، وتعليم بعض الإكليروس الأقباط المعاصرين

لا يمكن لِمَن يقرأ كتاب تجسد الكلمة بعناية أنْ يتصور ما دار في لاهوت العصر الوسيط عن ضرورة عقوبة الإنسان، أو اشتباك العدل مع صلاح الله ورحمته في حوار مثل حوار العبد المملوك، أو ما هو سائد الآن في كتابات بعض الإكليروس الأقباط[1] عن خطية الإنسان غير المحدودة التي تطلب كفَّارةً غير محدودةٍ؛

(١) جمع أحد الكتاب الأقباط الأرثوذكس هذه العناصر كلها في عبارةٍ جامعة، حيث يقول: "الخطية هي عصيان =

لأنَّ العقوبة غير محدودة، حيث نرى في هذا التعليم صورة مصرية لتعليم أنسلم عن ضرورة تقديم فدية ترضي كرامة وعدل الله الذي أهانه الإنسان. والإضافة القبطية المعاصرة هي عبارة "غير المحدود" التي لم يذكرها أنسلم، ولكن جاءت كمحاولة فاشلة لتأكيد أُلوهية الفادي غير المحدود فوقعت في مشاكل لا يمكن حلها:

* فقد نقلت مشكلة تحلل كيان الإنسان إلى طبيعة الله. أي صراع الله مع إهانة الإنسان.

* كما حوَّلت الخطية، والعقاب، والكفَّارة معاً، فألصقت لكل منهم صفة غير المحدود، فأضافت صفةً إلهيةً إلي الخطية، فصارت الخطية عملاً إلهياً يُشارِك الله في طبيعته غير المحدودة، وبذلك نقلت الخطية مِن دائرة الحياة الإنسانية إلى الحياة الإلهية، وحوَّلت الإنسان إلى كائنٍ قادرٍ على أنْ يقتحم الحياة الإلهية بعمل إلهي، وهو الخطية غير المحدودة، وبواسطة التصور القانوني صارت الخطية "تعدِّي" على الله نفسه، وهكذا جعل القانون الإنسانَ كائناً قادراً ـ بعمل غير محدود ـ أن يتعدى على الله غير المحدود.

وهنا يجب علينا أنْ نُلاحِظ أنَّنا لا نستطيع ـ مهما كانت دقة الكلمات ـ أنْ نهرب مِن الحقيقة اللاهوتية الواضحة، وهي أنَّ تعبير "غير المحدود"، يُطلَق على الله وحده، ولا يجوز أنْ يُنسب بالمرة إلى أي كائن مهما كان، ولا لأي فعل، أو عمل يقوم به الإنسان، أو أي مخلوق آخر.

فعندما يقتحم الإنسان مجال الحياة الإلهية، ويعتدي على الله غير المحدود، ويترتب علي ذلك ألا توجد وسيلة للغفران بالمرة، إلاَّ الكفَّارة، فيجد الله نفسه مضطراً أنْ يُقدِّم هذه الكفَّارة غير المحدودة، إرضاءً لكرامته وغسلاً لإهانة الإنسان له والاعتداء عليه، عندئذٍ تسقط كل مبادئ وعقيدة الكنيسة الأُرثوذكسية، لأنَّنا نستطيع أنْ نرى

= لله، وتعدٍ على حقوقه، وعدم محبة له...والله غير محدود، إذن **فالخطية غير محدودة** لأنها موجهة ضد الله غير المحدود. ومهما عمل الإنسان فإن أعماله محدودة. لذلك لا تغفر الخطية إلاَّ كفارة غير محدودة..ولا **يوجد غير محدود إلاَّ الله**،لذلك لم يكن هناك حل لمغفرة الخطية سوي أن يتجسد الله ذاته ويموت. ويكون موته كفارة غير محدودة، توفي عدل الله غير المحدود، في الاقتصاص من الخطية غير المحدودة، الموجهة ضد الله غير المحدود".

فوراً ودون أي تأجيل أنَّ الكفَّارة هي إرضاء الله لنفسه، وهي غسل للإهانة أو الاعتداء، وليست الإعلان عن المحبة الإلهية، ولا تعود الكفَّارة إلى طبيعة الجود والصلاح الإلهي، بل تعود إلي الكرامة الإلهية المجروحة المُعتَدَى عليها. ونستطيع أنْ نرى في هذا أنَّ التجسد ضرورةٌ أملتها ظروف الكرامة الإلهية أكثر مِن حاجة الإنسان نفسه، وإنَّ حجر الزاوية ليس تجديد الإنسان ورده إلى الصورة الإلهية، بل رد الكرامة إلى الله نفسه، وتصبح الخطية مثل الله، شركة في الصفات والجوهر الإلهي، ولها ذات الطبيعة الإلهية، بينما هي فعل سلبي محدود .. ويطرح هذا علينا بعض أسئلة خطيرة تخص التربية المسيحية، والصلاة والأسرار الكنسية، ومسائل أُخرى سوف يحين الكلام عنها في بحث آخر نعود فيه إلى جذور الأُرثوذكسية لكي ننقل الفكر المعاصر إلى التعليم الأُرثوذكسي السليم.

فإمَّا أنْ تكون الخطية **محدودةٌ، والله وحده غير محدودٍ**، وبالتالي تختلف طبيعة الخطية عن طبيعة الله، وفي هذه الحالة يصبح الدواء على قدر قوة وطبيعة المرض. وإمَّا أنْ تكون الخطية غير محدودة، وبالتالي لا يوجد فرق بالمرة بين الخطية والله، وتصبح الخطية إلهاً ثانياً خلقه الإنسان الخاطئ، وفي هذا عودة إلى ثنائية الخير والشر في المانوية والغنوسية، فإنْ صارت التربية المسيحية، تُعلِّم بأنَّ الخطية اعتداءٌ على الله، فإنه يحق لنا التساؤل عن حجم، ونوع الشعور بالذنب عند هؤلاء الذين يعتدون على الله؟ وعن غاية غرس هذا الشعور في نفوس المؤمنين.

وماذا نقول عن الله الذي يحدد لنفسه الكفَّارة، ويُرضي مطالبه حسب المقاييس الإلهية، ويترك الإنسان بلا علاج؟ بل ماذا نقول عن المسيح ابن الله الذي هو ـ كما نعرف ـ الكفَّارة نفسها؟.هل صار المسيح مساوياً لخطية آدم، وباقي الخطاة، وتحوَّل الصلاح والمحبة والخلاص إلى عمل يساوي سقوط الإنسان وشرَّه؟.وبالتالي لا يوجد مجال لتفوق النعمة والعطية، وعندئذٍ يبقى الغفران والتجديد في إطار مساواة عمل الله بسقوط الإنسان...

هذه بعض النتائج التي يستطيع أي قارئ أنْ يصل إليها إذا تأمل خطورة هذا التعبير "خطية غير محدودة".

الخطية والموت
بين التعليم القبطي المعاصر، وتسليم الآباء

أولاً: الآباء والتعليم بأُلوهية الشر

حسب التسليم الرسولي ـ كما نراه في الكتاب المُقدَّس وكتابات القديس اثناسيوس ـ يأتي التعليم عن الخلق كأول موضوع من موضوعات التعليم المسيحي الرسولي، ومِن ثمَّ مكانة الإنسان عند الله ... ولذلك فإن العودة إلى كلمة الله هنا هامةٌ جداً لكيما نستجلي ما جاء في الكتاب المُقدَّس.

أولاً: لا يذكر الكتاب المُقدَّس إنَّ خطايا البشر، أو خطية آدم، هي خطايا غير محدودة، بل يقول أشعياء النبي «قد محوتُ كغيمٍ ذنوبك، وكسحابةٍ خطاياك، إرجع إليَّ لأنَّي فديتك» (٤٤ : ٢٢). فهل كانت هذه سحابة غير محدودةٍ، أو غيمة غير محدودة؟ إنَّ هذا يعني أنَّ الخطايا ملأت، ليس الأرض المحدودة، بل أيضاً السماء نفسها، فأصبحت تزاحم الله غير المحدود، وأصبحت تشاركه الوجود في كل مكان طالما أنَّها خطايا غير محدودة.

ثانياً: لقد بحثنا عن وصف الخطية بأنَّها "غير محدودة" في كتابات الآباء التي نُشِرت في مصر باللغة العربية مثل كتاب تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس، وفي غيره مِن كتب الآباء، فلم نجد ذلك التحديد الغريب الذي يجعل الخطية مُعادِلة لله نفسه .. وطبعاً لا يمكن أنْ يسقط المُعلِّم الكنسي الأُرثوذكسي اثناسيوس في هذه البدعة، أي بدعة الغنوسيين والمانويين التي تُعلِّم بأنَّ الشَّرَ عنصرٌ إلهيٌ مثل الخير، كلاهما إلهٌ. لقد بات مِن الواجب علينا أنْ نفهم معني الشر حسب التعليم الأُرثوذكسي الذي شرحه بكل كفاية ووضوح معلمنا اثناسيوس في "الرسالة إلي الوثنيين". لقد أصبح مِن الضروري أنْ نعيد نشر تعليم القديس

اثناسيوس الذي يُنكِر فيه الطبع الإلهي للشر، مؤكِّداً استحالة وجود شر مطلق غير محدودٍ، وخير مطلق غير محدودٍ معاً في حالة واحدة، وهذا هو برهان القديس اثناسيوس نسوقهُ رداً على التعليم بأُلوهية الشر الذي يختفي تحت عبارة "الخطية غير المحدودة".

يقول القديس اثناسيوس في الفصل السابع مِن كتابه "الرسالة إلى الوثنيين":

[كيف يمكن لمبدأين، كلٍ منهما ضد الآخر أنْ يكونا (أو يوجدا) معاً؟.

وما هو الذي يفصل بينهما؛ لكي يوجد كل منهما على حدةٍ؟".

ويضع القديس اثناسيوس هذه الحقيقة، أي حقيقة تناقض الخير والشر:

[مِن المستحيل أنْ يوجدا معاً، لأنَّ طبيعة كل منهما مضادة لطبيعة الآخر، حتى أنَّ واحداً منهما لابد وأنْ يبيد الآخر].

ثم ينتقل إلى استحالةٍ أُخرى:

[ولا يمكن لأيهما أنْ يحتوي الآخر، لأنَّ طبيعة كل منهما لا تقبل أنْ تمتزج بالآخر بسبب عدم التشابه، أو التماثل]

فالخير لا يمكن أنْ يختلط بالشر، ولا الشر بالخير، لأنَّ تعارض طبيعة الشر مع طبيعة الخير لا تسمح بالاختلاط، ومِن ثم يقدِّم استحالةً ثالثةً، وهي ضرورة الفصل بين الخير والشر:

[وتبعاً لما سبق، لابد مِن وجود مبدأ ثالث يفصل بين الشر والخير، مبدأ ثالث له طبيعة ثالثة، وهو اللّه].

فالله خالق كل الأشياء هو الذي يفصل بين الشر والخير، ولكن الله لا يمكن أنْ تكون له طبيعة ثالثة خيرة أو شريرة، ولا يمكن أنْ يكون الله شريراً، ولا يمكن أنْ يكون الله ذو طبيعة مختلطة .. **ولذلك تصبح طبيعة الله الخيرة هي أساس التعليم.**

ولا يكتفي القديس اثناسيوس بذلك، بل يقول:

[لم يكن للشر وجودٌ منذ البدء، لا مع اللّه، ولا في اللّه،

ولا يوجـد للـشر كيـان، أو طبيعـة Substance ،أو وجـود existence]

فكيف جاء الشر إلى حياة الإنسان؟

[فشل الإنسان في تصوُّر الخير، وبدأ يخترع، ويتخيَّل]

ثم يضيف عبارةً هامةً:

[بدأ البشر في اختراع، وتخيَّل كلٍ منهم ما لا وجود له حسب شهواتهم]

(الرسالة إلى الوثنيين الفصل السابع).

ويقول اثناسيوس في نفس الكتاب، في الفصل الثاني:

[في البدء لم يكن الشر موجوداً، بل لا وجود بالمرة للشر حتى في الذين صاروا قديسين .. ولكن البشر بدأوا يفكرون في الشر، ويخترعونه].

وماذا يعني القديس اثناسيوس بأنَّ الشر غير موجود، بينما هو يملأ عقول الناس، ونراه على صفحات الجرائد في كل يوم؟

أولاً: هو غير كائن مثل الجبال والأنهار والأشجار، أي لم يخلقه الله كما خلق كل الكائنات الأُخرى التي لها وجود وكيان ناله كل كائن من الله نفسه.

ثانياً: الشر هو مِن اختراع فكر الإنسان، وهو نابعٌ مِن مخيلة الإنسان وعقله، وبالتالي، هو موجود بوجود الإنسان، ولكن وجود الشر هو وجود الكائن الطفيلي الذي يعيش "عالةً" على غيره. وإذا كانت طبيعة وكيان الشر، هي نابعة مِن مخيلة الإنسان بات مِن الضروري أنْ نقول إنَّ الشرَ محدودٌ تماماً؛ لأنَّ مصدره وصانعه ومُعطِي الوجود له هو الإنسان المحدود الذي لا يملك صفة عدم المحدود بالمرة؛ لأنَّ الإنسان خُلِق مِن العدم وله وجود وكيان محدود .. وإذا كانت الخطية فعلاً "غير محدود"، فقد جعلت الخطيةُ الإنسان الخاطئ يتألَّه بالشر، ويصبح بالخطية إلهاً قادراً على خلق شئ اسمه الخطية، وقادراً علي أنْ يمنح له صفة غير المحدود؛ لكي يصبح عمله معادلاً ومساوياً لكيانه غير المحدود.

وعندما يقول القديس أثناسيوس إنَّ:

[ما هو شرٌ لا وجود له (عدم)، وما هو خيرٌ، له وجود] (المرجع السابق ص ٣٨).

فإن الفرق يصبح شاسعاً ـ لأنه فرقٌ بين الوجود والعدم ـ بين هذه العبارة، وبين هذه العبارة الشائعة عندنا اليوم "*الخطية غير محدودة، لأنَّها موجهة ضد الله غير المحدود*"، فهذه عبارةٌ لا وجود لها، أو لما يشبهها في تراثنا الشرقي الأُرثوذكسي، ولا في الكتاب المُقدَّس بعهديه .. وبالتالي يصبح لعبارة "الخطية غير المحدودة" تحديدٌ عقيديٌ لا وجود له في وصف الخطية.

ولكن، تاريخياً، استُخدِّم شرحٌ مماثل في الغرب، وبالتحديد في القرن الحادي عشر في كتاب لماذا تجسد الله؟ (للقديس) أنسلم أُسقف كانتربري (١٠٣٣م –١١٠٩م)، وذلك حسب دراسة القس والأُستاذ الإنجليزي ومؤرخ تاريخ العقيدة المسيحية *L. W. Grensted* الأُستاذ السابق بجامعة مانشستر، ونقلاً عن طبعة عام ١٩٦٢م من كتاب :

A Short History of the doctrine of the Atonement

حيث يقول: "مِن مبادئ القانون الروماني السائد في العصر الوسيط كان مبدأ الترضية هو البديل *alternative* للعقوبة في حالة الخطايا الشخصية *Private* لأنَّ هذه الجرائم *offence* تستوجب العقوبة إلاَّ إذا دُفعَت ترضية" (ص ١٢١ ـ ١٢٢).

ثم يذكر المرجع القانوني *Sulpitius Severus* إنَّ "الزِّنى يستوجب العقوبة، إلاَّ إذا طُهِّر بالترضية" (ص ١٢٢ ـ المرجع السابق).

ويذكر نفس المؤلِّف كيف قدَّم أنسلم فكره الجديد عن دفع ترضية مناسبة، تتناسب مع الاعتداء على الحق، أي حق الله حسب مبادئ القانون الروماني.

والترضية حسب القانون هي ثمنٌ يساوي الجريمة يُقدِّره القانون حسب نوع الجريمة. وهنا يثور التساؤل: أين ورد مثل هذا الكلام الخطير في الكتاب المُقدَّس؟. وكيف لم يكتب أحدٌ مِن الأنبياء والرسل هذا التعليم الخطير الذي يُقدَّم على أنَّه جوهر المسيحية؟. كيف غاب هذا الموضوع برُمَّته مِن أسفار

الكتاب المُقدَّس؟ لو كنت تعرف أيها القارئ فصلاً، أو عبارةً تحتوي على هذا التعليم، أو قريبة مِنه بعض الشيء، أرجوك أنْ تُسرع وتكتب وتصحح ما وقعت فيه مِن خطأ. ولكن حيث أنَّ هذا التعليم لا يظهر في العهدين: القديم والجديد بات مِن الضروري مناقشته مِن الكتاب المُقدَّس والتقليد.

ثانياً: ما معنى أن الخطية "موجَّهةٌ ضد الله غير المحدود"؟ والأخطار التي تُهدِّد بشارة الإنجيل

هل تُعد الخطيةُ إهانةٌ لله؟ أم اعتداءٌ عليه، أم الاثنين معاً؟ فإذا كانت خطية الإنسان ـ حسب فكر القانون ـ تُقدَّر حسب كرامة الشخص الذي وجِّهَت ضده الإهانة، فعلى سبيل المثال، يكون الاعتداء على وزير، ليس مثل الاعتداء على ضابط، أو عسكري شرطة! .. هنا يظهر الفرق بين القانون، واللاهوت.

١ـ إنَّ الإنسان، أياً كانت كرامته، له وجودٌ ماديٌّ، وهذا الوجود المادي هو الذي يجعل الاعتداء على كرامته سهلةً وممكنةً، فهل هناك وجودٌ وجوهرٌ ماديٌّ لله يمكن الاعتداء عليه كما يعتدي إنسانٌ على آخرٍ مثله؟! .. الجواب بالنفي.

٢ـ يعرف القانون ـ على سبيل المثال ـ جريمة السب العلني، وهي جريمةٌ تكون فيها الألفاظ هي وسيلة الشَّر .. وبالتالي هي جريمة معنوية .. فهل يمكن أنْ يوجه الإنسان هذه الجريمة، أي الإيذاء المعنوي أو النفسي إلى الله؟ .. حسب القانون الروماني؛ الجواب بالإيجاب.. وحسب اللاهوت المسيحي، الجواب بالنفي؛ لأنَّ شر الإنسان مهما كانت مظاهره لا وجود حقيقيٍ له، بل هو اختراع عقل شرير، وهو مجرد فكرٍ لا يصل إلى ذات الله حسب شرح القديس اثناسيوس السابق .. وكل تصوراتٍ قلب الإنسان الشرير تجعل الله يحزن وأحياناً يغضب لأنَّ الخليقة التي يحبها تُفسد ذاتها.

٣ـ وإذا كان الله كاملاً في حكمته ومعرفته وقوته، فكيف خلق كائناً قادراً على الاعتداء عليه أو إهانته؟ .. كائناً يستطيع أنْ يُلحِق الأذى والتجريح المادي أو الأدبي بخالقه؟ وكيف يجوز لنا أنْ نتصور جهل الله، وهو يخلق الإنسان ويزوده

بهذه القدرة التي يطلق عليها اسم "الحرية" لكي يكون الله هو أول ضحايا الحرية الإنسانية، "ضحية خلقه"؟!

٤ـ وكيف خلق اللهُ الإنسانَ بهذه القدرات التي تجعل كل فعل مِن أفعال البشر قادراً على أنْ يخلق خطايا غير محدودة تزاحم الله في وجوده (وتسد عليه الطريق) إذ كيف يتسع الكون لخالق الكون، وأفعال البشر غير المحدودة؟

٥ـ هل يمكن أنْ نعتبر الله بلا حكمةٍ، أو بلا معرفةٍ؟...وكيف وضع نفسه في هذه الورطة الشنيعة عندما خلق كائناً هو الإنسان تُعتبر خطاياه، وخطايا كل بشر خطايا غير محدودة تستلزم ـ عقوبةٌ غير محدودةٍ ـ كفَّارةٌ غير محدودةٍ ـ موتٌ غير محدودٍ.

ألا ترى معي أيها القارئ إنَّ وصف "غير محدود"، هنا هو تحديدٌ خاطئٌ للخطية ـ والعقوبة ـ والكفَّارة ـ والموت؟

إنَّ هذه العناصر الأربعة لا تختلف طبائعها بالمرة، وبالتالي أصبحت تحتاج إلى طبيعةٍ خامسةٍ هي طبيعة الله نفسه، وماذا نجد في الطبيعة الخامسة: طبيعة غير محدودة تُقدِّم الكفَّارة غير المحدودة .. أي أنْ يفتدي الله نفسه، ويخلِّص نفسه مِن نتائج خطايا الإنسان، وهذا يعني:

ـ إنَّ الله هو الضحية الأولى لخطية الإنسان.

ـ إنَّ الله هو المستفيد الأوَّل مِن الكفَّارة.

٦ـ كيف يجوز في القانون أنْ يُعاقَّب المجرم مرتين عن ذات الفعل؟ لقد عاقب الله آدم بالموت حسب نص سفر التكوين .. ومات آدم، ومات معه، بل لا زال يموت كل إنسان ولد حسب ولادة آدم (تكوين ٢ : ١٧ ـ رومية ٥ : ١٢ـ٢١)، ثم جاء المسيح، وقدَّم الكفَّارة بعد أنْ تم تنفيذ العقوبة، وهذا يعني ـ حسب القانون ـ أنَّ الجريمة قد حُكِمَ عليها مرتين: المرة الأولى عندما مات آدم، والمرة الثانية عندما مات المسيح كخاطئ.

عقابان على جريمةٍ واحدةٍ؟ .. هذا "عدلٌ" لا تقبله محاكم الأرض، بل ولا أي قانون مهما كان ضعيفاً.

٧ـ إنْ كانت خطية آدم، بل وخطية كل إنسان هي غير محدودة .. أفلا ترى معي أيها القارئ أنَّ كل خاطئ يحتاج إلى فادٍ غير محدودٍ ومخلِّص غير محدود، وبالتالي يحتاج كل بشرٍ وكل فردٍ إلى مخلِّص خاص به وحده؟ وذلك لأنَّ خطايا كل فردٍ هي خطايا غير محدودة، وبالتالي تحتاج إلى كفَّارةٍ غير محدودة، وهذا يعني أنَّ كل خطية مهما كان حجمها تحتاج لأنْ يموت عنها المسيح في كل يوم وكل ساعة وكل عصر، أو أنْ يرسل الآب أكثر مِن مخلصٍ، وهو ما يفتح باب الوثنية، أي تعدُّد الآلهة.

إنَّ التحليل السابق يفتح المجال لعدة أسئلة هامة:ـ

ـ كيف جمَّع الله خطايا البشر عبر كل العصور، وأين حفظها، بل كيف يجمِّع الله خطايا البشر عبر كل العصور، وهو يكره الخطية؟

ـ ماذا عن الخطايا التي لم تُرتكَب بعد، والتي سوف تحدث في مستقبل الأيام؟. كيف أتي الله بالشرور التي لم تُرتكَب بعد، وعاقب ابنه الوحيد على أشياءٍ لم تحدث؟.

ـ وإذا كان الابن قد دفع ثمن خطايا البشر عبر كل العصور، ألا يؤدِّي بنا هذا إلى الاعتقاد بأنَّ الله هو خالق الشرور، وحافظ كل الشرور، وهو ما ينكره النبي ميخا بقوله«مَن هو إلهٌ مثلك غافر الإثم، وصافحٌ عن الذنب لبقية ميراثه،.لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسرّ بالرأفة، يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (٧ : ١٨ ـ ١٩).

ثالثاً: أيهما أكثر صواباً: أنْ نقول إنَّ نتائج الخطية غير محدودة، أم يقال أنها كونية شاملة؟

التعليم الرسولي الذي يؤكده القديس اثناسيوس بقوله إنَّ **"موتاً تموت"**، تعني **"البقاء في فساد الموت إلى الأبد"**. (تجسد الكلمة فصل ٣ : ٥).

إلاَّ أنهَّ، وبالرغم مِن ذلك، فإنَّ هبة الحياة الأبدية، لا تشترك مع الموت الأبدي في صفة واحدة، هي "الأبدية"؛ لأن انعدام الشركة لا يتساوى مع الشركة.

لقد منع الله الإنسان مِن البقاء في الفردوس، حسب عبارة القديس غريغوريوس:

[بسبب الخطية مُنِعَ الإنسان مِن الأكل مِن شجرة الحياة، ومِن الفردوس، ومِن الله .. إلاَّ أنَّه، وعلى الرغم مِن هذه (الخسارة)، تحوَّل الموت إلى فائدةٍ (مكسب) لأنَّ الموتَ دمر الخطيةَ حتى لا يصبح الشرُ باقياً إلى الأبد، أو خالداً. وهكذا تحوَّلت العقوبة إلى رحمةٍ؛ لأنَّه برحمةٍ - وهذا اعتقادي - يُوقِّع الله العقوبة]

(مقالة على عيد الميلاد فقرة ١٢ ص ٣٤٨).

وبالتالي يضع القديس غريغوريوس الأساس اللاهوتي للعبارة المشهورة في القدَّاس الغريغوري **"حوَّلت ليَّ العقوبةَ خلاصاً"**. لقد جاء الموت وقتل الإنسان، فوضع الموت حداً لوجود مصدر الشر، وهو الإنسان، ففقد الشر بموت الإنسان مصدره الحقيقي، أي خيال الإنسان، وأصبحت المُشكلة هي مشكلة **الموت**، أو بقاء الإنسان في **فساد الموت** إلى الأبد، حسب عبارة معلمنا اثناسيوس، لكن هذا لا يخلع على الموت صفة الأبدية؛ لأن الإنسان هو الموضوع الأول والأخير، وهو من سيحيا في الموت إلى الأبد في حالة الفساد الأبدي، لأن الموت هو عدمٌ للحياة، وهو فناءٌ لما هو كائنٌ، وذلك حسب ما نراه مِن تحلُّل الأجساد، وفناء القوى الروحية والجسدية. وبقاء الإنسان مثل خيالٍ في أرضٍ مُظلِمةٍ هو الجحيم بعينه حسب وصف المزمور: «أفلعلك للأموات تصنعٌ عجائبٍ، أم الأخيلة تقوم تمجدك» (مز ٨٨ : ١٠).

ومِن هنا، أصبح رد الحياة للإنسان، أي تجديد المائت ورده إلى الطبيعة الجديدة غير المائتة، وهي طبيعة الرب القائم مِن الأموات، هو جوهر ولُب الخلاص، وأصبح القضاء على الموت، أي ثمرة الخطية هو العمل الأساسي الذي لأجله جاء المسيح، حسب صلوات كنيستنا القبطية:

[ونحن الجلوس في الظلمة زماناً، أنعم علينا بنور قيامته] (قسمة عيد القيامة).

وهكذا ترى قارئي العزيز نوع وحجم المشاكل التي سببها استعمال القانون

الروماني، أو غيره في تحديد الخطية، بينما يحذرنا القديس اثناسيوس الرسولي مِن مقارنة الله بما نعرف عن المخلوقات بشكل عام، ويقول:

[لا تقاس رحمة اللّه، ولا اللّه نفسه بطبيعتنا وعجزنا]

(ضد الأريوسيين مقالة ٢ : ٣٦).

ولعلك تلاحظ أيها القارئ، كيف يقول المزمور إنَّ الخطية، بل فكر الإنسان كله يهلك بموت الإنسان؟ «تخرج روحه فيعود إلى ترابه.في ذلك اليوم نفسه تهلك أفكاره»(مز ١٤٦ : ٤). وإذا قال الكتاب المُقدَّس ـ في أكثر مِن موضع ـ إنَّ الله يكره الخطية، ويكره الشر، فهذا لا يسمح للشر بأنْ يدخل إلى الحياة الإلهية، ويتألَّه. ويقول النبي ميخا عن خطايا بني إسرائيل «يعود يرحمنا يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (ميخا ٧ : ١٩). وإذا كان الله يدوس ويطرح الشر، فهذا يعني أنَّ الله أقوى مِن خيال الإنسان مصدر الشر، ويعني أيضاً أنَّ قداسة الله لا تجعل للشر قدرةٌ على أنْ يحُرِّك، أو يُغيِّر شيئاً في طبيعة الله. وذهن الإنسان الباطل أو ظلام فكر الإنسان الذي يقول عنه الرسول بولس «إذ هم مُظلِمو الفكر، ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذي فيهم» (أفسس ٤ : ١٨)، هو الذي يجعل الإنسان في ظلمة الخطية، ويجعل الموت والخطية هو غياب النور، واغتراب الإنسان عن حياة الله وفكر الله ووصايا الله. فكيف يمكن لظلمة الخطية وغياب النور أنْ يصبح له طبع إلهي مثل النور والحياة. لقد غابت الحياة عن الإنسان، ومات وهبط إلى الجحيم، وهنا لا يجب أنْ نضع خطايا البشر في كفة ميزان ودم ابن الله في كفةٍ أُخرى؛ لأنَّ هذا هو تعليم غير مسيحي يجعل الشر مساوياً للخير مع أنَّ الشر هو عدم الخير، وهو غياب النور..

وكيف يصبح ابن الله ودمه وجسده، مساوياً لما فشل فيه الإنسان؟ وكيف يتساوى الابن واهب الحياة، والذي قال **"أنا هو الحياة"** و**"أنا نور العالم"** بالموت وبالظلمة؟ إنَّ تصوير الخطية في شكل كمية غير محدودة، تحتاج إلى كفَّارةٍ غير محدودة، يخلع على الخطية صورة الكم، وبالتالي يحوِّل النعمة أيضاً إلى كم *Quantity*.

وأخيراً، ماذا تقول أيها القارئ عن الخطية التي تحصنت في عدل الله، وأبادت ابنـه

الوحيد على الصليب، وجعلته بمشورة الآب وإرادته يحوِّل ابنه إلى رماد محرقة، أو لحم مشوي؟ ألا تكون الخطية بذلك أقوى مِن الله، إذ جعلت جوهر اللاهوت ينقسم، وأبادت حياة خالق العالم؟

إنَّ البقاء في فساد الموت إلى الأبد، حسب عبارة معلمنا اثناسيوس، لا تعني بالمرة أنَّ إبادة الموت تحتاج إلى كفَّارةٍ غير محدودةٍ؛ لأنَّ الله أبقى على الإنسان في الجحيم لكي يرده وبنيه إلى الفردوس، وذلك هو ما حدث عندما أباد الرب قوة الجحيم **"نزل إلى الجحيم مِن قِبَل الصليب"**، وبالتالي لم يكتسب الموت، ولا العقوبة صفة غير المحدود، بل زالت قوة الموت؛ لأنَّ الرب أبطلها بقوته الإلهية مِن ناسوته هو، وفدى الابنُ الإنسانيةَ بتحرير الطبيعة الإنسانية التي اتحد هو بها، والتي فيها أباد الموت كما يقول معلمنا اثناسيوس:

> [فإنَّ جسده (الكلمة) كان هو أوَّل ما تم تخليصه وتحريره، إذ أنَّ هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه. وهكذا إذ قد صرنا مُتحدين بجسده قد خلصنا على مثال جسده .. وتبعاً لذلك، حيث أنَّ ذلك الجسد قد أقيم، هكذا نحن أيضاً نقوم مِن بين الأموات منه، وبه]
>
> (ضد الأريوسيين مقالة ٢ : ٦١ ص ٩٧ مِن الترجمة العربية).

وإذا عُدنا إلى الأسفار الإلهية، وجدنا أنَّ الرسول بولس يؤكد لنا شمولية وكونية الخطية والموت، وذلك حسب النص المشهور في رو٥ : ١٢ ـ إلخ " بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع". هذه ظاهرة كونية شاملة تجمع كل البشر، بل تمس الكون كله وليست مشكلة قانونية يحلها القانون، ولذلك جاء المسيح رب الكون ورب الحياة والموت لكي يجدد الإنسان والكون.

رابعاً: تأليه الموت

إنَّ وصف الموت بـ"عدم المحدودية"، إنما يعني تألِّيه الموت، وهو أيضاً اعتبار أنَّ الموت قويٌ مثل لاهوت الابن الكلمة ومساوٍ له في عدم المحدودية. ومساواة الموت

بالابن أو مساواة الموت بالحياة تجعل الفداء مستحيلاً؛ لأننا نحتاج عندئذٍ إلى قوةٍ أكبر، ونعمة أشمل تخلع الموت وتبيده، أمَّا إذا تعادل الموت بالحياة استحال الخلاص، ولذلك لا يجب أنْ نساوي بين الحياة والموت، ولا يجب أنْ نجعل للموت طبيعةً إلهيةً هي "الطبيعة غير المحدودة"؛ لأنَّ معني ذلك أنْ يظل الابنُ تحت حكم الموت إلى الأبد، لأنَّ دفع الدين واحتمال العقوبة غير المحدودة لا يستغرق ثلاثة أيام فقط، بل يستغرق الأبدية نفسها .. ولو أنَّ الثمنَ هو ثمنٌ غير محدودٍ لأصبح مِن الحتمي أنْ نقول إنَّ الرب قد مات موتاً أبدياً .. غير أنَّ كل هذه الأفكار إنما هي وليدة التصور القانوني البحت الذي لا علاقة له بالإيمان المسيحي. واستخدام القانون في شرح العقيدة هو الذي أفسد العقيدة، وحول الإيمان بصلاح ومحبة الله إلى قواعد قانونية تختلف تماماً عن كل ما نعرفه عن الإنجيل.. كما أنَّ فكرة الميزان الذي نضع في جانب منه خطايا البشر، وفي الجانب الآخر ابن الله ـ فإذا ما تعادلت كفتي الميزان، يتم الفداء والكفارة ـ ما هي إلاَّ صورة فرعونية نراها في كتاب الموتى، وفي غيره مِن كتب الديانات الأُخرى.

خامساً: خطورة التفسير القانوني

١ـ عندما تم تحديد الخطية والكفَّارة تحديداً قانونياً، فقدت النعمة مكانها؛ لأنَّ النعمة هي هبة الله المجانية.

٢ـ صار الله نفسه مُطالَباً بالشريعة، أي أنَّه تساوى مع المخلوقات؛ لأنَّ الله الذي يصفح عن الخطية حسب مطالب الشريعة، ويُضحِّي بابنه الوحيد حسب شريعة موسى، يصبح مثل موسى ومثل كل البشر، خاضعاً لمطالب الشريعة، وبالتالي يفقد عزته ومجده وسلطانه وقدرته على أنْ يكون صالحاً وجواداً وكريماً بلا حدود.

٣ـ صار موت المسيح، الذي لم يطلبه الناموس، هو أحد ثمرات الناموس، وبالتالي صارت هبة الحياة الأبدية، إلزاماً وضرورةً يخضع لها الله، وليست هبة مجانية بسبب الإيمان.

٤ـ لم يعُد للمحبة رسالةً، أو مجالاً تمارس فيه دورها؛ لأنَّ المحبة لا تطلب ما لنفسها (١ كورنثوس ١٣ : ٥) .. وعندما تخضع المحبة لمطالب الناموس تتحول المحبة مِن عطاء إلى قانون، وتصبح بذلك عاجزةً عن تقديم هبة الحياة الأبدية.

التسليم الآبائي
لعمل الرب يسوع كوسيط وشفيع

أولاً: شرح القديس أثناسيوس لموت المسيح على الصليب

لم يذكر اثناسيوس مطلقاً إنَّ المسيح مات على الصليب لكي "يدفع ثمن خطايا البشر بدمه الكريم"، فهذه عبارةٌ غريبةٌ على الكتاب المُقدَّس نفسه، بل وغريبةٌ على كُتب الآباء. ولم يذكر اثناسيوس مطلقاً إنَّ المسيح مات على الصليب لكي "يُرضي العدل الإلهي"، أو لكي "يحتمل عقوبة الخطية". هذه عباراتٌ لم تظهر في تاريخ اللاهوت المسيحي إلاَّ في العصر الوسيط.

١ـ مطالب الله العادلة حسب كتاب تجسد الكلمة (٧ : ١)

نستطيع أنْ نرى أنَّ هناك فرقاً لغوياً ظاهراً بين العدل في القانون، والعدل في اللاهوت. وبحسب عبارة اثناسيوس نفسه، فإن عدل الله هو:

> [يجب أنْ يكون اللّه أميناً وصادقاً مِن جهة حكم الموت الذي وضعه. لأنَّه كم يكون شنيعاً جداً لو أنَّ اللّه أبو الحق يظهر كاذباً مِن أجلنا ، ومِن أجل خلاصنا] (٧ : ١).

فالعدل هنا هو أن يظل الله أمينا، لا يتحول إلى كائن خاطئ مثل الإنسان من أجل خلاص الإنسان.ولذلك فمطلب، أو مطالب الله عادلةٌ، لأنَّ الله لا يمكن أنْ يصبح آخراً غير الله، أي مثل الإنسان، يتراجع عن طبعه وسموه مِن أجل هدف مهما كان.

والطلب أو المطالب العادلة، وهي بقاء الإنسان تحت حكم الموت، كما يراها اثناسيوس نفسه تتجلى في: صدق الله ـ أمانة الله.

والجانب الذي يخُص الإنسان، هو بقاء الإنسان في الموت. والمُدهش حقاً أنَّ سفر التكوين الذي قدَّم لنا قصة السقوط لا يذكر غضب الله وانتقامه ورغبته في التشفِّي .. هذه أُمور أُضيفت في عصر الظلام، أي العصر الوسيط، وها هي تعود الآن للظهور بسبب عدم تنقية التراث الديني الذي يعتمد على المجلات والأفكار الشعبية، لا على البحث التاريخي واللاهوتي الذي يلتزم بنص الكتاب المقدس.

وهكذا يتجلَّى عدل الله في بقاء الله أميناً وصادقاً، وبقاء الإنسان في قبضة الموت، أي تحت الحكم الإلهي. ولا يقف القديس اثناسيوس عند هذه النقطة، بل يشرح الجانب الآخر مِن مطالب الله العادلة في الفقرة الخامسة مِن الفصل السابع حيث يكتب:

[كان أمام كلمة اللّه مرةً أُخرى أنْ يأتي بالفاسد إلى عدم فساد،
وفي نفس الوقت أنْ يوفي مطلب الآب العادل المُطالِّب به الجميع.
وحيث أنَّه هو كلمة الآب، ويفوق الكل،
فكان هو وحده الذي يليق بطبيعته أنْ يجدد خلقة كل شيء،
وأنْ يتحمل الآلام عوضاً عن الجميع.
وأنْ يكون شفيعاً، أو سفيراً أو وسيطاً عن الجميع لدى الآب] (٧ : ٥).

وهذه الفقرة هي ردٌ على سؤال اثناسيوس نفسه، فبعدما أكد أثناسيوس على تحوُّل طبيعة الإنسان وسقوطه بإرادته في الموت، وتحوُّل طبعه إلى الفساد، حيث:

[حُرِمَ مِن تلك النعمة التي سبق أنْ أُعطيت له، وهي مماثلة صورة اللّه].

عند ذلك يسأل اثناسيوس، بعد أنْ حدثت هذه المأساة:

[فما هي الخطوة التالية التي كان يستلزمها الأمر؟
أو مَن الذي كان يستطيع أنْ يعيد إليه تلك النعمة، ويرده

إلى حالته الأولى، إلاَّ كلمة اللّه الذي خلق كل شيء مِن العدم في البدء] (٧ : ٤).

وهنا لا يمكن فصل تجديد الإنسان ورد النعمة عن حكم الموت الذي رفعه المسيح، وهو ما لا وجود له في لاهوت العصر الوسيط، ولاهوت حركة الإصلاح وبعض الكتابات القبطية المعاصرة.

ولعلك لاحظت قارئي العزيز كيف أنَّ أثناسيوس يختلف مع ما نقرأه في بعض الكتابات القبطية المعاصرة، فهو لا يشرح الخلاص على أساس قانوني، بل على أساس لاهوتي يؤكد فيه أمانة الله، أي عدله وحقه وعدم تحوله، وفي نفس الوقت صلاحه وجوده.

٢ـ الأفعال والعبارات الخاصة بموت المسيح في كتاب "تجسُّد الكلمة"

ولكي نتأكد مِن صحة ما نقول، يجب مراجعة الأفعال والكلمات التي استخدمها القديس اثناسيوس عن موت المسيح على الصليب:

[أبطل الموت بتقديم جسده] (١٠ : ١).

[القضاء على الموت والفساد كلية] (٢٠ : ٥).

[أُبيد الموت بنعمة القيامة] (٢١ : ٢).

[الموت أيضاً قهره المُخلِّص، وشهَّر به على الصليب](٢٧ : ٤).

[الموت قد أُبطل، وأُبيد] (٢٨ : ٤).

راجع أيضاً نفس الأفعال والعبارات في الفصول التالية: (٢٩ : ٦ ـ ٣٠ : ١ ـ ٣٢ : ٦).

وهناك عبارة هامة يقولها أثناسيوس **"المسيحُ قَتَلَ الموتَ"** (٣٠ : ٢)، ونرددها في صلواتنا الأُرثوذكسية (صلاة الساعة السادسة، وصلاة القسمة للقديس كيرلس).

هذه الأفعال: "أبطل ـ أباد ـ قهر ـ قضى على ـ قتل" تكشف لنا عن رؤية إنجيلية تختلف عن رؤية العصر الوسيط، فلم يذكر أثناسيوس أبداً إنَّ المسيح دفع الثمن وأرضى العدل الإلهي.

٣ـ المسيح هو الحياة

خلف هذه الأفعال، نرى المسيح الذي هو "الحياة". وكما كرر اثناسيوس عبارات القضاء على الموت، نجده يكرر أيضاً التعليم بانتصار الحياة:

[لأنَّه بذبيحة جسده وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا،
ووضع لنا بدايةً جديدةً للحياة برجاء القيامة ..
لهذا السبب بطُل الموت، وتمت قيامة الحياة بتأنس كلمة اللّه] (١٠ : ٥).

وعلى الصليب كان الكلمة هو نفسه رب الحياة

[رب الحياة الذي استمدت، ولا تزال تستمد مِنه كل الكائنات الوجود والحياة] (١٧ : ٦).

[لم يكن ممكناً أنْ يُلبِّس المائت عدم الموت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة] (٢٠ : ١).
[الرب هو قوة اللّه، وكلمة اللّه، وهو الحياة عينها] (٢١ : ٤).
[لكنه لم ير فساداً؛ لأنَّ جسده قام سليماً جداً، إذ لم يكن سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها] (٢١ : ٧).
[المُخلِّص، وهو الحياة، .. انتظر الموت ليبيده] (٢٨ : ٢).
[لم يقدِّم جسده بموتٍ أتى به مِن نفسه؛ لأنَّه هو الحياة] (٢٢ : ٣).

[ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، حياة الجميع، لم يختر لجسده موتاً معيناً ... أباد الموت ... آمن الجميع بأنَّه هو الحياة، وأُبيد سلطان الموت نهائياً] (٤ : ٣).
[مات كجسدٍ مائتٍ، عاد إلى الحياة بفضل الحياة التي فيه] (٣١ : ٤).

وهذه العبارة بالذات ليس لها مجال في لاهوت العصر الوسيط الذي عجز بسبب التفسير القانوني أنْ يرى الحياة الإلهية في جسد الذي مات بالجسد وهو على الصليب، وهذا هو السبب الذي يجعل اثناسيوس يقول:

[ليس للموتِ سلطانٌ على الحياة] (٤٤ : ٥).

٤ـ "المسيح هو رب الحياةِ، ورب الموت أيضاً" في المقالات ضد الأريوسيين

ماذا يعني القديس اثناسيوس بذلك؟ والجواب: إنَّ الحياة الإلهية عندما تقبل الموت على أيدي اليهود والرومان تدوس على هذا الموت، وتُبطِل قوته، وتقيم الجسد، وتحوِّل الصليب إلى علامة الانتصار، ولذلك أيضاً المسيحُ هو رب الموت (الرسالة ٩ مِن الرسائل الفصحية فقرة ١٤). أو كما يقول:

[ولأنَّه صار فادياً للجميع، فقد صار رب الأحياء والأموات]

(ضد الأريوسيين ٢ : ١٤ ـ ص ٢٩ من الترجمة العربية) .

[هو الحياة، وهو رب الموت. فالمسيح الذي هو واهب الحياة للآخرين لا ينبغي أنْ يسود عليه الموت. وهذا ما كان ممكناً أنْ يحدث لو كان المسيح إنساناً فقط، كما تعتقدون أنتم، بل هو بالحقيقة إبن اللّٰه؛ لأنَّ جميع الناس خاضعون للموت .. هو نفسه رب الجميع .. فإنه بصيرورته إنساناً، قد برهن أنَّه رب الأحياء والأموات] (ضد الأريوسيين ٢ : ١٦ ـ ص ٣٢).

[ولأنَّه الحياة، فقد رُفِّعَ (تمجَّد) بالقيامة؛ لأنَّ الذي نزل هو ذاته الذي صَعِد (أف ٤ : ١٠)] (ضد الأريوسيين ١ : ٤٤).

وهذا هو ما أشار إليه الرسول بطرس مُعلناً هذه البشارة في يوم الخمسين "الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أنْ يُمسَّك مِنه" (أعمال ٢ : ٢٤)، ولذلك يقاوم القديس اثناسيوس تعليم الأريوسية عن تقدُّم المسيح الأخلاقي أو الأدبي، وإمكانية تحوُّل ميول الرب وعدم طاعته للآب، وتغيُّره حسب الأحوال التي تمر بها الطبيعة الإنسانية أو المخلوقات، فيقول عن الرب:

[هو لا يخضع للنواميس، ولا يميل إلى ناموسٍ معين يحبه، ويفضِّله على ناموسٍ آخر يبغضه] (ضد الأريوسيين ١ : ٥٢).

هكذا تفصل هذه العبارة بين العصر الوسيط والأُرثوذكسية، كما تفصل عبارة القديس بطرس الرسول بين المسيحية والأريوسية. فالمسيح لا يخضع للناموس؛ لأنه رب الحياة والموت، والمسيح قام ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أنْ يُمسك منه، فالموت يعجز عن أنْ يُمسك ويُخضِع الرب له، بل العكس هو الصحيح.

٥ـ المسيح "رب الحياة" أباد الموت في جسده

لم يقضِ المسيحُ على الموتَ، أو قَتَلَ الموتَ في فراغ الكون، فالموتُ لاصقٌ بالطبع الإنساني الذي أخذه الكلمة ابن الله، ولذلك يقول اثناسيوس:

[كان طبيعياً وعدلاً أنْ يستخدم الكلمة أداةً بشريةً] (تجسد الكلمة ٤٤ : ٣).

وعدل الخلاص هنا، هو عدل التجسد واسترداد الإنسان مِن العبودية، وهذا تم عندما لبس الرب واتحد بجسدٍ قابِلٍ للموت، وقابَل الموت في جسده، وفي جسد الرب نفسه أباد الرب الموت:

[كان لائقاً أنْ يأخذ جسداً قابلاً للموت، حتى إذا أباد الموت فيه نهائياً أمكن تجديد البشر الذين خُلِقوا على صورته (الكلمة). إذن لم يكن كفؤاً لهذه الحاجة إلاَّ صورة الآب] (تجسد الكلمة ١٣ : ٩).

وفي نهاية الفصل التاسع عشر يكتب اثناسيوس معلناً خطة بحثه الدقيق:

"الخطوة التالية لنا في هذا البحث، هي أنْ نتأمل ونتحدث عن نهاية حياته بالجسد، وعن طبيعة موت جسده، سيما وأنَّه في هذا يتلخص إيماننا، وهذا هو الشغل الشاغل لأفكار الجميع بلا استثناء، حتى يتضح لنا يقيناً أنَّ المسيح هو الله وابن الله" (١٩ : ٣).

هكذا يعبِّر الباحث نفسه، ليس فقط عن خطة البحث، بل معلناً أنَّ موت المسيح هو ملخَّص إيمان المسيحيين. وأثناسيوس لا يعبِّر عن نفسه فقط، بل عن لاهوت الشرق الأُرثوذكسي الذي يختلف جذرياً عن لاهوت العصر الوسيط.

٦ـ أباد الربُ الموتَ في جسده بسبب قوة إتحاد اللاهوت بالناسوت

يقول اثناسيوس:

[كان جسد الرب قابلاً للموت]،

وهي عبارةٌ تكررت كثيراً، ولكن

[بفضل الاتحاد بالكلمة، لم يعُد (الجسد) خاضعاً للفساد حسب طبيعته، بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه] (تجسد الكلمة ٢٠ : ٤).

وهنا يطرح اثناسيوس القضية الأولى التي سوف يستغرقها الجدل أكثر مِن مائة سنة على الأقل بعد نياحته، وهي قضية الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، يقول اثناسيوس:

[كان مستحيلاً ـ كما قدَّمت سابقاً ـ أنْ يموت الكلمة لأنَّه غير قابلٍ للموت].

هذه حقيقة هامة، ولكن كيف يمكن القضاء على الموت؟

[أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى يمكن أنْ يُقدِّم جسده عن الجميع، وحتى إذا ما تألَّم بالجسد الذي اتحد به عن الجميع، أباد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس (عب ٢ : ١٤ـ١٥)] (تجسد الكلمة ٢٠ : ٥ـ٦).

وحتى في موت الرب نفسه بالجسد، وبسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت، وعند إتمام حكم الموت، يقول اثناسيوس:

[نال الجسد مِنه (من اللاهوت) قوةً؛ لأنَّه هو القوة وهو الحياة] (تجسد الكلمة٢١ : ٥).

وعندما التقى الرب بالموت، فقد التقى به في جسده، وهنا بكل دقة المُعلِّم واللاهوتي يؤكد اثناسيوس أنَّ موت الرب

[لم يكن موته هو، بل موت البشر] (تجسد الكلمة ٢٢ : ٣).

وهكذا يصبح الإدعاء بأنَّ المسيح مات موت الخطاة، هو إدعاءٌ غير مقبول، وتعليمٌ غير أُرثوذكسي لأنَّه يجعل موت المسيح موت الخطاة، وليس موتَ الوسيط، أو الشفيعِ. ويكمل اثناسيوس عبارته قائلاً:

[قَبِلَ الموت الذي أتاه مِن البشر، لكي يبيده نهائياً عندما يلتقي به في جسده] (٢٢ : ٣).

[أتى الموت إلى جسده، ليس باختياره هو (المسيح)، بل بمشورة

أعدائه، حتى إذا ما أتوه بأي شكل مِن الموت، استطاع أنْ يبيده تماماً] (٢٤ : ٢).

[ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح حياة الجميع لم يختر لجسده موتاً معيناً .. ولكنه قَبِلَ موت الصليب، واحتمل الموت الذي أوقعه عليه الآخرون .. حتى إذا ما أباد ذلك الموت أيضاً، آمن الجميع بأنَّه هو الحياة، وأبيد سلطان الموت نهائياً] (٢٤ : ٣).

[أظهر ابن الله جسده ـ الذي كان قد مات ـ بعد فترة ثلاثة أيام غير مائتٍ، وعديم الفساد، فتبين للجميع أنَّ الموت لم يُصِب الجسد بسبب أي ضعف طبيعي للكلمة الذي حل فيه، بل لكي يُباد الموت فيه (الجسد) بقوة المُخلِّص] (٢٦ : ٦).

٧ـ محكمة الحق:

يقول اثناسيوس:

[الآن يُداس الموت بعلامة الصليب (في طقوس وصلوات الكنيسة)، وبالإيمان بالمسيح، فإنه يتبين أمام محكمة الحق أنَّه ليس أحدٌ آخرٌ سوى المسيح نفسه، قد أحرز الانتصار والغلبة على الموت، وجعله يفقد قوته] (تجسد الكلمة ٢٩ : ١).

فما يقصد القديس اثناسيوس بمحكمة الحق؟

[كان الموت مفزعاً وقوياً، أمَّا الآن، وحسب كلمات الإيمان، يحُتقَّر بعد مجيء المُخلِّص، وموت جسده وقيامته، فإنه يتبين أنَّه قد أبيد، وأنَّ المسيح نفسه الذي صعد على الصليب قد قهره] (تجسد الكلمة ٢٩ : ٢).

فمحكمة الحق عند كل المؤمنين هي القيامة وعدم فساد جسد الرب بعد دفنه في القبر ثلاثة أيام. وإبادة الموت بالقيامة هي أحد أدلة القديس اثناسيوس (٣٠ : ٢). وهكذا فإنَّ تغيُّر جسد المسيح حسب تعليم كل الآباء، والذي يعبر عنه اثناسيوس

بدقة بـ **"عدم الفساد وعدم التألم اللذين حصل عليهما جسده"** (٢٦ : ١) صار دليلٌ آخر على تحوُّل ناسوت الرب.

٨ ـ الانتصار على الموت

يقول اثناسيوس: **"إنَّ الموت امتزج بالجسد وساد عليه"** (تجسد الكلمة ٤٤ : ٥)، وقَبِلَ الربُ الجسدَ القابل للموت؛ لكي ـ كما يقول المُعلِّم الكبير ـ تمتزج الحياة بالجسد، وتُبيد الموت. ويعبِّر اثناسيوس عن هذا بفعلٍ معروفٍ مِن رسائل القديس بولس استخدمه في (١كو ١٥ : ٥٣ ، ٥٤)، وغيرهاً، فقد "لبس" الجسد الموت، ولكن في المسيح **"لبس الجسد الحياة بدل الموت، ونزع عنه الفساد"** (تجسد الكلمة ٤٤ : ٥).

وحقيقة التجسد هي في أنَّ الكلمة لم يكن **"خارج الجسد"** حسب تعبير اثناسيوس، ولكن كان الكلمة متحداً بالجسد، وهذا يحدد نوع الغلبة التي وُهِبَت للطبيعة الإنسانية حسب كلمات المُعلِّم العظيم:

[لو افترضنا أنَّ الكلمة جاء خارج الجسد وليس فيه،
لكان الموت قد غُلِبَ مِنه (المسيح) حسب الطبيعة الإلهية
القادرة أنْ تغلب الموت، إذ ليس للموت سلطانٌ على الحياة،
أمَّا الفساد اللاصق بالجسد، فكان قد بقى فيه رغم ذلك]
(٤٤ : ٥).

إنَّ ما يريد مُعلمنا العظيم أنْ يقوله: إنَّ عبرة الانتصار ليست في مجرد قيامة الجسد؛ لأنَّ المسيح أقام موتى كثيرين قبل موته، ولكن العبرة هي تحول الناسوت إلى عدم فساد، فلا يصاب الناسوت بعد القيامة بالتحلُّل، ويموت مرةً ثانيةً.

ويعود اثناسيوس إلى هذه النقطة بالذات ليقول:

[كان معقولاً جداً أنْ يلبس المُخلِّص جسداً، حتى إذا ما
اتحد الجسد بالحياة، لا يبقى في الموت كمائتٍ، بل يقوم
إلى عدم الموت، إذ يلبس عدم الموت. وما دام قد لبس
الفساد، فما كان ممكناً أنْ يظهر الموت إلاَّ في الجسد
وفقاً لطبيعة (الجسد)، فهذا (المسيح) لبس جسداً لكي

يلتقي بالموت في الجسد ويُبيده. لأنَّه كيف يمكن إقامة الدليل على أنَّ الرب هو الحياة، لو لم يكن قد أحيا ما كان مائتاً] (٤٤ : ٦).

ويُقدِّم القديس اثناسيوس تشبيهاً بليغاً لذلك، فالقش قابلٌ للاحتراق حتى وإنْ ظل بعيداً عن النار، ولكن إذا أُحيط القش بمادة الإسبستوس، فهو ينال حصانةً ضد النار، ويطبق هذا على الجسد، فالجسد قابلٌ للموت، ولذلك، لو كان الله قد أصدر أمراً بقيامة الجسد، لظل الجسد يخشى الموت لأنَّه **"قابلٌ للموت والفساد حسب طبيعته"** (٤٤ : ٨)، ولكن عندما لبس كلمة الله الجسد، لبس الجسد حياة الكلمة وعدم فساد الكلمة، وكلاهما (أي الموت والفساد) قد أبيدا في الجسد (٤٤ : ٨).

هذا التحوُّل هو سر وجود الإفخارستيا في الكنيسة الُمقدَّسة؛ لأنَّنا نحن الذين نتناول جسد الرب نتناول المسيح الحي، ونشترك في قيامته وآلامه، ونأخذ عدم الفساد وعربون القيامة؛ لأنَّ الرب قد صار "البِكر، وباكورة الراقدين"، وقد سبقنا إلى المجد لكي يُعِد لنا كل إمكانيات التحول التي نناها مِنه وفيه.

ويضع القديس اثناسيوس عبارة جامعة مانعة فيقول عن التجسد:

[نحن الذين حملَنا (الرب) في جسده].

وعن الصليب:

[قدَّم جسده للموت عن الجميع].

وعن القيامة والصعود:

[هكذا بجسده أيضاً أعد الطريق للصعود إلى السموات مرةً أُخرى](٢٥ : ٦).

ثانياً: التعليم الأُرثوذكسي الخاص بالخلاص عند القديس كيرلس الكبير عمود الدين

سار القديس كيرلس الإسكندري على نفس درب القديس أثناسيوس الرسولي، ولذلك يؤكد نفس التعليم، وأحياناً بنفس الكلمات والعبارات يعبِّر

عن تحول الناسوت، وعن إبادة الموت، وإدانة الخطية في الجسد، لا إدانة الرب كخاطئ:

١ـ الناسوت هو جسد الحياة

يقول القديس كيرلس:

[وكيف يُعطي جسده الحياة لنا ما لم يكن جسد ذاك الذي هو الحياة؟ وكيف يطهرنا دم يسوع المسيح ابنه مِن كل خطيةٍ (١ يوحنا ١ : ٧) إذا كان دم إنسانٍ مثلنا تحت الخطية ... أو كيف استطاع أنْ يدين الخطية بالجسد (رومية ٨ : ٣) إلاَّ لأنَّه صار جسداً. وهو الذي لا يعرف خطيةً، استطاع أنْ يبيد عبوديتنا للخطية. وبغنى صفات الكلمة الإلهي اتحد بالجسد بطريقةٍ لا يُعبَّر عنها، فصار قدوساً ومعطياً الحياة] (المسيح واحد ص ٢٧).

٢ـ المسيح أقوى من الموت

[وهكذا، الذي لا يعرف الموت، لأنَّه الكلمة الحياة والمحيي قد تألم في الجسد ... وإلاَّ كيف أمكننا أنْ نقول إنَّ سر تدبير تجسد الابن الوحيد في الجسد قد أعان الإنسانية ما لم يكن الله قد تجسد؟ وما لم ينزل الذي هو فوق الخليقة، ويخْلِي ذاته، ويصبح مثلنا، وما لم يَصِر جسده هو جسد الحياة الذي خضع للفساد لكي ما نصبح نحن فيه أقوى مِن الموت والفساد] (المسيح واحد ص ٨٨).

ـ [نحن نقول إنَّه القوة المُعطية الحياة مِن الآب] (المسيح واحد ص ٩٢).

ـ [لذلك ظهر في شكلنا، وجعل جسده خاضعاً للفساد حسب ناموس الطبيعة الخاصة بالجسد، ولكن هو الحياة؛ لأنَّه مولودٌ مِن الآب الذي هو الحياة، يزرع مِن جديد صلاحه، أي الحياة] (المسيح واحد ص ٩٩).

ـ [إنَّ كلمة الله حسب الطبيعة غير مائتٍ، وغير فاسدٍ،

لكونه هو الحياة ومُعطِي الحياة] (رسالة ٤ إلى نسطور : ٥ ـ ص ١٤ ـ ١٥).

ـ [فقد تألم بجسده الخاص مِن أجلنا حسب الكتب، وهو غير القابل للتألُّم جعل آلام جسده خاصةً له عندما صُلب جسده، لأنَّه بنعمة اللّه، ولأجل الجميع ذاق الموت (عب ٢ : ٩) بإخضاع جسده الخاص للموت رغم أنَّه حسب الطبيعة هو الحياة، وهو نفسه القيامة] (رسالة ١٧ إلى نسطور : ١١ ـ ص ٢٧ـ٢٨).

٣ـ جسد الحياة الذي نناله في الإفخارستيا

وتُلهم الليتورجية والممارسة الكنسية، القديس كيرلس ليقول مباشرة في نفس الرسالة:

[وإذ نكرز بموت ابن اللّه الوحيد حسب الجسد، أي موت يسوع المسيح، ونعترف بقيامته مِن بين الأموات وصعوده إلى السموات، فإننا نقدِّم الذبيحة غير الدموية في الكنائس، وهكذا نقبل البركات السرية ونتقدَّس، ونصير مشتركين في الجسد المُقدَّس والدم الكريم ... باعتباره الجسد الخاص للكلمة نفسه مُعطِي الحياة حقاً، وبسبب أنَّه صار واحداً مع جسده الخاص، أعلن أنَّ جسده مُعطِي الحياة] (١٧ : ١٢ ـ ص ٢٩).

وتستطيع أيها القارئ أنْ ترى أنَّ الحياة إذا أُخضعت لفساد البشر، فهو خضوع إراديٌ حُرٌ، وليس خضوع مَن هو مستعبدٌ وخاضعٌ للناموس كعبدٍ، لأنَّ ذلك ينفي كل أبعاد المحبة التي أُعلنت في موت الرب على الصليب، فلا محبةَ مع تسلط الناموس وانعدام الحرية.

وقد لاحظ علماء الآباء في العصر الحديث أنَّ القديس كيرلس قد اهتم بإبراز موضوع الحياة في المقالة الرابعة ضد نسطور لأنَّ الموضوع الرئيسي لهذه المقالة هو "الإفخارستيا"، ولذلك يقول القديس كيرلس:

[ولأنَّه منظور في الجسد، فقد بشر به ابن اللّه بالطبيعة

والحق. وعندما يقول أيها الآب "مجِّد ابنك"، فهو يؤكد تأنُّسه ومع ذلك سموه وتعاليه على الموت والفساد، لكي نؤمن نحن به. الإله الذي هو الحياة بالطبيعة ... لأنَّه هو ذاته حياة مِن حياة، القادر على كل شئ، والذي يفعل كل شئ بدون تعب، معطياً عدم الفساد لكل الذين خضعوا للفساد والموت] (المقالة الرابعة ضد تجديف نسطور : ٤).

وعن الإفخارستيا يقول القديس كيرلس، وهو يتكلم عن المسيح نفسه:

[ونحن نؤمن بأنَّ الجسد المولود مِن العذراء القديسة، له نفسٌ إنسانيةٌ عاقلةٌ، وبه اتحد كلمة اللّٰه الآب، باتحاد فائقٍ لا يُعبَّرُ عنه؛ لأنَّه سرٌ كاملٌ، وحوَّله (أي الجسد) إلى مُعطي الحياة، لأنَّه الإله بالطبيعة، وعندما يجعلنا نشترك فيه، فإننا نشترك فيه روحياً وجسدياً معاً، لكي يجعلنا نحن المشتركين فيه أسمى مِن الفساد، ولكي به يُباد ناموس الخطية الذي في أعضائنا الجسدية "ولكي يدين الخطية في الجسد (رو ٨ : ٣)] (المرجع السابق: ٦).

- "لماذا تقاوم وتخلط كل الأشياء وتحولها إلى نفايات دون فهم (نسطور) بل تتهجم وتسخر مِن "خبزنا" الذي مِن السماء، ويُعطي الحياة للعالم، لأنَّ هذا الخبز لم يوصف بأنَّه لاهوت، بل جسد الذي لأجلنا صار إنساناً أي كلمة اللّٰه" (المرجع السابق: ٦).

وفي المقالة الخامسة ضد نسطور يضع موت الرب على الصليب كقوة حياة:

[اختار أنْ يتألم في الجسد، ومن أجل هذه الغاية نزل إلى فراغنا وفقرنا تدبيرياً، لكي إذا تألم لأجلنا في الجسد، يبيد سيادة الموت، لأنَّه هو الحياة بالطبيعة ونابعٌ مِن الحياة، أي اللّٰه الآب] (المقالة الخامسة ضد تجديف نسطور: ١).

- [الكلمة المولود من اللّٰه بطبيعته كإلهٍ أسمى من الموت والألم، إذ كيف تموت الحياة...ولكنه تألَّم تدبيرياً في جسده لكي يدوس على الألم والموت ويقوم؛ لأنه الحياة وواهب الحياة (حرفياً: المحيي) لكي يحول الفاسد الذي

استعبد للفساد والموت إلى عدم فساد، أي الجسد، وينقل إلينا نحن أي الجنس البشري كله هذا التحول الفائق] (المرجع السابق: ١).

ـ [وعندما يتهكم نسطور على موت الابن بالجسد لا يدري أن الحياة لا تخضع للموت؛ لأن الطبيعة التي تُحيي كل الكائنات لا يمكن أن تخضع للفساد، وما يقال عكس ذلك هو ما نعتبره تجديف فظيع] (المرجع السابق: ١).

ـ[هل تريد أنْ تعترف معنا (يا نسطور) أنَّه هو الحياة، ومُعطي الحياة بالطبيعة، وأيضاً أنَّه أسمى مِن كل أنواع الألم، ويَلي هذا أنَّ الجسد الذي تألم والذي اتحد به، بنعمة اللّه ـ كما هو مكتوب قد ذاق الموت مِن أجل كل إنسان (عب ٢ : ٩) وأعلن بذلك أنَّ جسده، أي هيكله أعظم مِن ذاك الذي قهر كل الذين على الأرض (الشيطان) ولكي يُدعي حقاً « باكورة الراقدين، والبِّكر مِن الأموات» (١ كور ١٥ : ٢٠ ـ كولوسي ١ : ١٨) ناقلاً إلينا هذه النعمة أيضاً (القيامة) لأنَّه قبل تجسده وبعد تجسده يجب أنْ يُدعي المُخلِّص وفادي الكل محرراً مِن الخطية ـ كما قلت سابقاً ـ كل الذين يؤمنون به] (المرجع السابق: ١).

هل يمكن بعد كل هذا مصالحة تعليم العصر الوسيط الشائع في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الآن مع تعليم الآباء؟

هل يحتاج هذا السؤال إلى رد مطوَّل، أم إن القارئ قد اكتشف في كلمات وتعليم الآباء أثناسيوس وكيرلس عمود الدين أن تعليم العصر الوسيط هو تعليم غريب التكوين؛ لأنه نشأ في بيئة القانون الروماني. وهو غريب المذاق؛ لأنه لا يعلن محبة الله وصلاحه وعدله، وثني الشكل والجوهر لأنه يضع الله تحت سلطان القانون وينسب إليه ما هو خاص بالبشر.

وإذا تعارضت الحياة مع الموت استطعنا أنْ نفهم الصليب والقيامة، وأن ندرك أن الذي **"ذاق الموت بالجسد"** هو الحياة وواهب الحياة، وهو الذي أباد الموت.

الخلاص في الأرثوذكسية

هو

غفرانٌ مجانيٌ،

تجديدٌ لصورة اللهَ فينا،

شركة في حياة الثالوث

بواسطة

الوسيط الواحد ربنا يسوع المسيح

الإيمان المسيحي بين فقه اللغة والتسليم الآبائي

كلمة هامة:

لا شك أنَّ اللغة هي أداة من أدوات التواصل الإنساني، بل هي أهم هذه الأدوات عندما يتعلق الأمر بالإيمان. حيث يجب أنْ يصاغ الإيمان في أدق عبارة ممكنة. ونضال أثناسيوس بشأن الهوموؤسيوس غير غائب عنا. إلاَّ أن ذلك لا يعني أنْ يصير الإيمان أسيراً للغة، فتتحكم اللغة في الإيمان. الأمر الذي قد يضيق معه التعبير عن الإيمان إذا ما ضاقت اللغة، أو قد تتيح اللغة مجالاً أوسع، فيدخل كثير من الكلمات والمصطلحات مجال الإيمان. وهو ما حدث بالفعل، فقد لاحظ علماء الآباء أن القديس باسيليوس في دفاعه عن الإيمان النيقاوي لم يستخدم كلمة هوموؤسيوس، وإنما استخدم كلمة بديلة، هي تيموؤسيوس وهي تؤدي نفس المعنى، بل وتؤكد أُلوهية الروح القدس بشكل عملي واضح حيث تفيد الشركة في القوة والمجد والعمل والجوهر. إذن لم يحبس الآباء أنفسهم في إسار كلمات معينة طالما يمكن التعبير عن الإيمان ـ بأمان ـ بمفردات أُخرى تكون اقرب إلى عقول الناس وإلى إدراكهم لحقيقة الإيمان؛ لأن الإبن الكلمة لا يمكن أن يُحبَس في كلمات.

وتاريخياً اعتمد الهراطقة وحدهم استخدام سلاح الألفاظ وقواعد النحو والصرف، وبالتالي قدَّمت الأنومية والأريوسية براهينيهما التي كانت تدور كلها حول اللغة باعتبار أن الحقيقة تُدرَك وتُستخلَص من الصفات والأسماء والألقاب. إنَّ الهراطقة لم يكونوا يوما أغبياء، بل أذكياء ينقصهم الإيمان، وهذا هو الفارق الكبير بين من يؤمن ويترك لإيمانه كيفية استخدام اللغة، وبين مَن يؤمن ولكن

يترك قواعد اللغة تحدد له الإيمان وتشرح مفرداته حسب قواعد اللغة، وليس حسب قواعد الإيمان. وهنا علينا بشكل خاص أنْ نلفت النظر إلى إنَّ قواعد الإيمان تسبق كل لغات البشر؛ لأن عمل الله كخالق ـ على سبيل المثال ـ يسبق ظهور اللغات والكلمات وكل ما يعمله الله لم يتمٍ حسب الوسائل البشرية. وهذا هو ما دعى القديس أثناسيوس الرسولي لأن يؤكد ذلك قائلاً:

[إن كل براهين الأريوسيين خداع حقيقي؛ لأن طبيعة اللاهوت لا يمكن تحديدها بالمصطلحات والكلمات، بل طبيعة اللاهوت تغيِّر معاني الكلمات عندما تستخدم هذه الكلمات للحديث عنها. فالطبائع تسبق الكلمات؛ لأن الطبائع توجد أولاً وبعد ذلك تأتي الكلمات في المرتبة الثانية]
(ضد الأريوسيين ٢ : ٣ صـ٣٤٩ ـالترجمة الإنجليزية).

هكذا إذن يسبق الإيمانُ الكلماتِ. وبالتالي أصبح الإيمان هو الذي يغيِّر معاني الكلمات الشائعة بحسب قواعد الإيمان نفسه. فالروح فوق الحرف، وطبيعة الله تعلو على كل قواعد اللغة. إذا كان الأمر كذلك، فالسؤال الذي يطرح نفسه عندئذٍ هو:ما هو الأساس الصحيح الذي يجعلنا نحدد معاني الكلمات المقدسة في ثقة واطمئنان؟ وجواب هذا السؤال يلخصه ما جاء في مقالات القديس أثناسيوس في الرد على الأريوسيين عن المعنى الكنسي للكتاب المقدس، الذي لا يتفق مع التفسير الفردي الخاص :

أولاً: المعنى الكنسي لكلمات الكتاب المقدس وسائر فقراته

هذا المعنى يحدده قانون الإيمان الذي ينص على الإيمان بإله واحد، والإيمان بالثالوث القدوس، والإيمان برب واحد يسوع المسيح، والإيمان بالروح القدس الرب المحيي.

وبين الإيمان بإله واحد إلى الإيمان والاعتراف بالروح القدس يحصر قانون الإيمان تدبير الخلاص: تجسد الابن الوحيد وموته وقيامته ومجيئه الثاني على أساس أنه مساوٍ للآب في الجوهر. ويختم قانون الإيمان بالاعتراف بقيامة الجسد

وحياة الدهر الآتي؛ لأن هذا هو غاية الإيمان، أي دخـول الإنـسان روحـاً وجـسداً ملكوت الآب والابن والروح القدس لحياةٍ أبديةٍ.

ثانياً: التفسير الفردي الخاص

لقد شرح الآباء جميعاً دون استثناء الكتاب المقدس، ربما شرح البعضُ بعضَ أجزاءٍ فيه، وربما شرح بعضهم موضوعات كاملة مثل الصلاة لأوريجينوس، أو شروحات القديس كيرلس الكبير أو ذهبي الفم، وغيرهم. ورغم وجود فوارق بين مناهج التفسير عند الآباء مثل العودة إلى الأصل العبراني وهو منهج الإسكندرية الذي طبع شرح القديس كيرلس ومن قبله العلامة أوريجينوس، أو الاكتفاء بالنص اليوناني حتى للعهد القديم مثل القديس أثناسيوس الرسولي لنصوص العهد القديم التي استخدمها الأريوسيون، إلاَّ أن ذلك لم يمنع من أن يكون هناك مبادئ عامة مشتركة بين الآباء فيما تناولوه بالشرح. تختلف عن التفسير الفردي والذي نحدد خصائصه فيما يلي:

١ـ لا يلتزم التفسير الفردي الخاص بثنائية التدبير، أي بالنصوص الصريحة القاطعة عن لاهوت الابن، والنصوص الصريحة القاطعة عن إنسانيته، بل تخلط بين كليهما.

٢ـ لا يقبل التفسير الفردي وحدة جوهر الثالوث ولذلك يتجاسر ويفصل بين أقانيم اللاهوت كما رأينا في جميع الهرطقات.

٣ـ يرفض التفسير الفردي اتحاد اللاهوت بالناسوت ويقسم الرب الواحد يسوع المسيح إلى اثنين، وبذلك يرفض لاهوت الأسرار وبشكل خاص الإفخارستيا.

٤ ـ يقاوم التفسير الفردي مجال الخلاص *The scope of salvation* وكلمة مجال *Scope* كلمة معروفة عند الآباء وبشكل خاص القديس أثناسيوس.

لقد عاشت الكنيسة زُهاء قرن كامل، وربما اكثر بدون العهد الجديد ككتاب واحد، وكانت تقرأ العهد القديم وتضيف إليه كلمات الرب التي ينقلها

الرسل. وبذلك تكون الجماعة المسيحية قد سبقت وجود كتاب مقدس. ولكن الجماعة المسيحية مارست إيمانها من خلال الأسرار والصلوات، وكان أول قانون للإيمان، أو أول قاعدة إيمان هي التي ولدت داخل العبادة والمكونة من ثلاثة بنود عن: الآب والابن والروح القدس[1]، ومن ثم تحولت هذه البنود إلى دعامة الإيمان التي تشرح كل شئ في الأسفار المقدسة. بعبارة أُخرى، العبادة هي مفتاح الأسفار وليس العكس، وعلى نفس الشكل، الإيمان هو الذي يحدد الألفاظ، وليست الألفاظ هي التي تحدد الإيمان.

إذن يجب علينا أنْ نميِّز ما إذا كانت كلمةٌ ما تعبِّر عن الإيمان تعبيراً صحيحاً، وإلاَّ علينا أنْ نلجأ إلى غيرها. ولا ننسى إنَّ عدم وجود كلمة هوموؤسيوس في الكتاب المقدس كان هو الاعتراض الأساسي عليها، ولكنها قُبِلت لأنها تعبر عن مضمون الإيمان الذي كانت تحياه الكنيسة في الكتاب المقدس والليتورجية.

هذه المقدمة الطويلة نوعاً ذات أهمية خاصة فيما نطرحه هنا على بساط البحث، لأننا نعرض هنا لنفس القضية: علاقة الإيمان بالتعبير اللغوي، وما هو المدى المسموح به للّغة في مجال التعبير عن الإيمان. هل مات المسيح عنا؟ أم لأجلنا؟ أيهما يعبر عن حقيقة الإيمان؟ أيهما نقبل وأيهما نرفض؟ ما هو مضمون الإيمان إذا استخدمنا كلمة "عنا"، وهل يختلف الأمر اختلافاً مؤثراً لو كان المسيح مات لأجلنا؟ ما معنى عبارة: "فديةٌ عن"؟ كيف تشرح الليتورجية الإيمان المسيحي؟ في المبحث الأول نعرض لهذه القضية تفصيلاً من خلال التعليم السائد في الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية، وكيف أثَّر تعليم حركة الإصلاح على الصياغة اللغوية للإيمان، كما نعرض للكثير من التطبيقات اللغوية في كلا العهدين حيث نبين في أجلى بيان أن هناك الكثير من الكلمات التي تؤدي معانٍ مختلفة إذا ما ترجمت إلى لغة أُخرى، وبالتالي لا يمكن ـ مثلاً ـ لكلمة "عنا" أَن تكون "بدلاً"، وغير ذلك كثير. ولما كان موت السيد المسيح

---

[1] راجع د. جورج حبيب بباوي: المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، دراسة للعقيدة والطقس في القرون الخمسة الأولى، الطبعة الأولى ١٩٨١م ص ٤٤ وما بعدها.

لأجلنا / عنا لا يفهم بشكل صحيح إلاَّ إذا وُضِعَ في إطاره الصحيح، وهو موضوع كهنوت المسيح، وهو ما نعرض له في المبحث الثاني حيث نبين فرادة كهنوت المسيح وانقطاع أي علاقة له مع كهنوت العهد القديم، وهو ما يقتضي البعد عن كل رموز وظلال العهد القديم إذا ما أردنا فهم ذبيحة الصليب فهما خاصاً بالعهد الجديد، وهو ما يقتضي أيضاً استخدام كلمات ومصطلحات مغايرة للمستخدمة في العهد القديم، وهو ما ينعكس إيجاباً على فهم الإيمان بشكل صحيح. ومن ثم في المبحث الثالث نعرض للتسليم الآبائي للقديس أثناسيوس لموت المسيح على الصليب كنموذج لتعبير الآباء عن الإيمان، وكيف أن الإيمان هو الذي كان يتحكم في التعابير اللغوية، لا العكس.

"لأجلنا" و"عنا"
وقضية الإعراب، وفقه اللغة

يقول أحد الإكليروس الأقباط المحدثين:

" ينادي البعض في زماننا الحاضر بأن السيد المسيح لم يمت عنا، بل مات لأجلنا، بمعني أنه لم يمت علي الصليب بدلاً عنا بل مات بنا وبهذا نكون قد متنا معه !!!. ويقولون أنه من الخطأ القول بأنه تألم عنا أو صلب عنا أو مات عنا...وهكذا، وقد نسي هؤلاء أن الكنيسة كلها تردد في قانون الإيمان في جميع صلواتها الليتورجية عن السيد المسيح أنه ....تأنس وصلب عنا علي عهد بيلاطس البنطي، فمن الواضح أننا نعترف بأنه صلب عنا....وما معني الفدية إن لم تكن عوضاً عمن افتداهم؟!!! ".

واضح هنا من هذا النص أن كلمة "عنا" تحولت إلى "بدلاً"، وواضح أيضاً أن قانون الإيمان أصبح يفسر طبقاً لفكر حركة الإصلاح، حيث يبين ذلك من العبارة: "*ما معنى الفدية إن لم تكن عوضاً عمن افتداهم؟!!!..*"، وهو ما يعني أن الكاتب قد وقع في شَرَك اللغة التي تحدد الإيمان. الأمر الذي يجب معه أن نبين ـ تفصيلاً ـ كيف تتحكم الأُرثوذكسية في اللغة لا العكس.

أولاً: إنَّ فقه اللغة ليس قاعدة لاهوتية تفسِّر العقيدة، أو تشرح الإيمان، بل تساعد على فهم النصوص المُقدَّسة

إنَّ مَن يدرُس الأريوسية، بالإضافة إلي هرطقة أُخرى تفرعت عنها، تُعرَف في اليونانية باسم "الأنومية"، يُدرِك أنَّ سلاح هاتان الهرطقتان كان هو فقه اللغة

وقواعد الإعراب .. الخ. ولذلك ـ وكما أسلفنا ـ جاء رد الآباء، أولاً أثناسيوس الرسولي، وثانياً باسيليوس الكبير مؤكداً، كما يقول القديس أثناسيوس:

[إنَّ الطبائع، أو جوهر الأشياء يوجد أولاً، ثم بعد ذلك الكلمات التي تُعبِّر عنه]

(ضد أريوس ٢ : ٣ ص ٣٤٩ الترجمة الإنجليزية).

فإذا كانت الحقائق والطبائع تسبق اللفظ، أصبح مِن الضروري ضبط معنى اللفظ على ما هو كائنٌ ومعروفٌ لنا، وليس العكس.

ويقول القديس باسيليوس في رده على بدعة أنوميوس:

[الألفاظ والكلمات تتنوع، وقد نعبِّر عن جوهر شيء واحد بعدة ألفاظ، ولكن تعدُد اللفظ، وتنوُّع الكلمات لا يعني في النهاية تنوُّع وتعدُّد جوهر ما نشير إليه ونريد أنْ نحُدده بعدة ألفاظ. فالماء هو الماء سواء كان ساخناً أم ثلجاً أم فاتراً .. وكلمة الماء تحُدِّد جوهر الماء، والكلمات الأُخرى تضاف إلى كلمة الماء لتشرح حالة الماء دون أنْ تشرح جوهر الماء؛ لأنَّ الجوهر لا يتغير، والذي يتغير هو الأعراض التي لا تدوم مثل الحرارة والبرودة، وهكذا إذا وُصِفَ الرب يسوع بأنَّه الابن الوحيد، فاللفظ جاء بعد الولادة الأزلية (إذا جاز التعبير). وإذا وُصِفَ بأنَّه الراعي الصالح والفادي والمخلِّص عريس الكنيسة، فهذه الألفاظ المتنوعة تشرح تنوُّع العمل دون أنْ تؤدِّي إلى تنوُّع طبيعة الإله المُتجسِّد]

(ضد أنوميوس ك ١ : ف ٣).

وإذا دققنا النظر في فقه أي لغة، وجدنا أنَّ "حروف الجر" التي تُستخدَّم في اليونانية ليست مثل حروف الجر التي تستخدَّم في العربية. ولذلك فعندما نترجم نصاً مِن اليونانية إلى الإنجليزية مثلاً ـ وسوف نورد عدة أمثلة مِن العهد الجديد ـ نرى أنَّ حروف الجر اليونانية لا يمكن ترجمتها حرفياً؛ لأنَّ فقه اللغة الإنجليزية لا يسمح لنا بنقل نفس حروف الجر وترجمتها ترجمةً حرفيةً.

١ـ مثال على إختلاف ترجمة حروف الجر

إنَّ حرف الجر اليوناني δια يعني في العربية **من خلال** أو **بواسطة**، ومع ذلك فقد تُرجِّم فى الإنجليزية عدة مرات إلى **for**:

*"He said to her, **for** this saying you may go your way" (Mk 7:29)*

أمَّا في العربية **"فقال لها لأجل هذه الكلمة .."** (مرقس ٧ : ٢٩).

وفي اليونانية: *και ειπεν αυτη, **Δαι** τουτον...*

راجع أمثلة أُخرى في الترجمة الإنجليزية *Revised Standard Version.*

(لوقا ٨ : ١٩ ـ ٢٣ : ١٩ ـ يوحنا ١ : ٣١ ـ ٧ : ١٣ ـ ١٠ : ١٧ ـ ١٢ ـ ٢٧ ـ أعمال ١٠ : ٢١ ـ ٢٨ : ٢٠ ـ رو ١ : ٢٦ ـ ٤ : ٢٤ ـ ١٣ : ٦ ـ ١ كور ٨ : ١١ ـ أفسس ١ : ١٥ ـ فيلبي ٢ : ٣٠ ـ ١ تسالونيكي ٢ : ١٣ ـ ٣ : ٥ ـ ١ تيموثاوس ١ : ١٦ ـ عب ٢ : ١٥ ـ رؤ ٦ : ٩).

ولعل القارئ قد سمع شهود يهوه يجادلوننا نحن الأُرثوذكس حول غياب أداة التعريف **"أل"** مِن نص يوحنا (١ : ١)، كما أنَّ أداة التعريف **"أل"** غائبةٌ أيضاً مِن الترجمة القبطية[1]، وقد لاحظ ذلك أيضاً، الفيلسوف المُسلِّم أبو حامد الغزالي وأشار إلى ذلك في كتابه **"الرد الجميل"**، ولكن الترجمة القبطية، اعتماداً على النص اليوناني نفسه تترجم يوحنا ١ : ١٨ إلى "الإله الابن الوحيد"

ψ Φϯ ⲙⲡⲉ ϩⲗⲓ ⲛⲁⲩ ⲉⲣⲟϥ ⲉⲛⲉϩ
ⲡⲓⲙⲟⲛⲟⲉⲛⲏⲥ ⲛⲛⲟⲩⲧ ⲫⲏ̄ⲉⲧⲭⲏ̄ ϧⲉⲛ ⲕⲉⲛϥ
ⲙⲡⲉϥⲓⲱⲧ ⲛⲑⲟϥ ⲡⲉⲉⲧⲁϥⲥⲁϫⲓ.

وعنها أخذت الترجمات الأوروبية المعاصرة

إذن، فالحجة اللغوية قاصرةٌ تماماً. وطبعاً قواعد إعراب وفقه اللغة اليونانية لا تسمح لشهود يهوه، أو لغيرهم بتفسير غياب أداة التعريف على أنْ نعتبر أنَّ الابن أقل مِن الآب؛ لأنَّ كل لغة لها الجانب "الأنيق" و"البليغ" الذي يوجِب

---

[1] كان العلامة أوريجينوس هو أول من لاحظ عدم وجود أداة التعريف أل وعلق على ذلك بقوله "لأن الابن ليس إلهاً آخراً غير الآب، بل يستمد ألوهيته كابن من الآب".

الحذف والإضافة مِن أجل صياغةٍ أنيقةٍ سهلةٍ وجميلة، وكل لغة لها الخصائص التي تميزها، بل والتي تختلف مِن عصر إلى عصر.

٢ـ مثالٌ آخر يؤكد صحة ما نقول

الكلـمة "διοτι" تعـني **"السبب"**، وحرفياً يجب ترجمتها إلى **"because"**، أو **"since"**، ولكن حسب الترجمة الإنجليزية وردت هذه الكلمة في رو ١ : ١٩ **"For"**

***For** what can be known about God.*

أمَّا الترجمة العربية: **"إذ معرفة الله ظاهرة فيهم .. "** (رو ١ : ١٩).

ومثال ثالث يؤكد لنا صحة تعليم الآباء، أي أنَّ العقيدة لا تؤخَّذ مِن قواعد الإعراب أو فقه اللغة. فالكلمة اليونانية **archi** / αρχη تعني حسب القاموس اليوناني الإنجليزي **until** لكن في الترجمة الإنجليزية هي **For** حسب نص أعمال ١٣ : ١١.

*Behold the hand of the Lord **For** a time*

وفي الترجمة العربية: **"يد الرب عليك، فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين"** (أع ١٣ : ١١).

٣ـ عوضاً عن، أو لأجل

المرات أو الحالات التي وردت فيها كلمة **"عن" "αντι"**، في العهد الجديد، والتي يمكن ترجمتها إلي **"عوضاً عن"**، أو حسب الترجمة الإنجليزية **"instead"**حرفياً حسب اليونانية، هي:

* **"عينٌ عوضاً عن عين"** (متى ٥ : ٣٨)، ولكن بدلاً مِن كلمة **"عوضاً عن"** جاء حرف الجر **"ب"** في **"عين بعين"**، وهنا العين بدل العين، هي إصابةٌ بإصابةٍ لكي ينال الضحية حقه. وهو قانون عقاب لا شريعة مغفرة.

* **"مَنْ منكم وهو أبٌ، يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، أو سمكةً، أفيعطيه حيةً بدل السمكة"** (لوقا ١١ : ١١). والبدل هنا ليس مِن نفس النوع بالمرة، وهو تصرف الأشرار الذي لا يقبله ضمير الأشرار.

* ويقول المُخلِّص نفسه لبطرس عن دفع الجزية. **"أعطهم عني وعنك"** (متى ١٧ : ٢٧). والجزية هنا ليست بدلاً أو بديلاً، وإنما هي الضريبة التي يجب أنْ تُدفع لأجل تطبيق قواعد القانون.

* يقول الرسول **"لا تجازوا عن شرٍ بشرٍ"** (رو ١٢ : ١٧). وهنا الرد بالمثل لا يختلف عن عين بعين والرد هنا هو تقديم ذات الشيء.

* وتأتي فكرة **"العِوض"** في نص (١ كور ١١ : ١٥) عندما يقول الرسول **"الشَّعرُ قد أُعطي عِوض بُرقعٍ"**، والعِوض، أو البديل ظاهرٌ جداً، وهو هنا ليس مِن نفس النوع، بل بديلٌ مختلفٌ تماماً.

٤ـ مثالٌ صارخٌ على حقيقة اختلاف اللغات

يقول الرسول «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع الذي **مِن أجل السرور** الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب ١٢ : ٢)، فإذا علمت أيها القارئ أنَّ الكلمة اليونانية التي تُرجِّمت في العربية إلي **"مِن أجل"** في هذا النص، هي حرف الجر اليوناني **"αντι"**، والذي يعني **"عن"**، وبالتالي كان يجب على المترجم أنْ يترجم النص إلى **"بدلاً عن"**، أو **"عوضاً عن"** السرور، ولكن ولئلا يختل المعنى ويضيع تماماً مِن القارئ، تحوَّلت كلمة **"عن"** إلى **"مِن أجل"**، واحتفظت الترجمة الإنجليزية ب **For** وصارت **For** the joy.

٥ـ مثالٌ آخر مِن نفس الرسالة، ونفس الإصحاح

تقول الترجمة العربية عن عيسو "الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته"، وكلمة **"لأجل"** هي ذات حرف الجر **"αντι"**، وبالطبع لا يجوز أنْ نترجم "الذي **عن** أكلة واحدة باع بكوريته"، لأنَّ المعنى يضيع تماماً. وعندما تُرجِّمت **"لأجل"** كان مِن الواضح أنَّ المترجم أراد أنْ يشرح لنا، ويؤكد **السبب والغاية** الذي لأجله باع عيسو بركة البكورية.

ثانياً: فديةٌ عن كثيرين، وماذا تعني "عن"؟

إذا عُدنا إلى العهد الجديد اليوناني، وجدنا أنَّ المرة الوحيدة التي وردت فيها كلمة **"αντι"** في موضوع الخلاص هي عبارة ربنا يسوع المسيح كما وردت في إنجيل متى، وإنجيل مرقس «إبن الإنسان لم يأت ليُخدَّم، بل ليَخدِّم، وليبذل نفسه فديةً **عن** كثيرين» (متى ٢٠ : ٢٨) وهي نفس العبارة في (مرقس ١٠ : ٤٥) وراجع أيضاً (١ تيمو ٢ : ٦).

ولكن، وكما ذكرنا مِن قبل، إنَّ الفدية إذا كانت خاصة بالله، فهي لا تُدفَع، بل هي عملٌ إلهيٌ يقوم **به الله** مِن أجل الخلاص والفداء. وهذا ما جعل دراسة الأصل اللغوي في العهد القديم دراسةً أساسيةً جداً.

لكن علينا، قبل شرح معنى كلمة **"عن"** وكلمة **"فدية"** في كلمات المخلِّص، أنْ نتوقف أمام ثلاثة أسئلة هامة.

السؤال الأوَّل:

هل قال الرب بفمه الإلهي الذي لا يكذب ـ لأنَّه فم الحق نفسه ـ إنَّه سيموت كخاطئ، ويُعاقَب كخاطئ على الصليب؟ والجواب هو بكل تأكيد لا، ولأنَّ كلمات الربِّ قصيرةٌ جداً: **"يبذل نفسه فديةً عن كثيرين"**، فهي لا تحتمل ما أهاله التاريخ وفكر البشر عليها مِن معانٍ لا وجود لها في النص، فالكلام واضحٌ.

السؤال الثاني:

هل قال الرب بفمه الإلهي الذي لا يكذب، إنَّه فديةٌ لكي يرفع غضب الآب؟ والجواب هو بكل تأكيدٍ أيضاً: لا.

السؤال الثالث:

هل قال الرب بفمه الإلهي الذي لا يكذب، إنَّه فديةٌ عِوضاً عن الخطاة، وإنَّه سيموت موت الخطاة؟ والكلمات كما هي في الإنجيل لا تحتوي على هذا الشرح .. وتبقى الحقيقة الواضحة، وهي أنَّه أُضيفت إلى الكلمات الإلهية ـ عند شرحها ـ

كلمات أُخر ليست موجودةً ولا حتى مُتضَمَّنَةً في كلمات الرب نفسه، وتَعَقُّب تاريخ وشرح هذه الكلمات ـ حسب تعليم العصر الوسيط ـ هو عمل يمكن أنْ يقوم به أي طالب لاهوت في السنة الأُولى لدراسته الجامعية.

ثالثاً: الأهمية الطقسية لكلمة "عن" حسب كلمات الوحي المُقدَّس

يجب أنْ نبحث عن كلمة **"عن"** في العهد الجديد كله. وبما أنَّ هذه الكلمة هي حرف الجر الخاص بتقديم الذبائح في العهد القديم، لذا نكتفي بمثال واحد من العهد الجديد نفسه، وهو يشرح طقوس العهد القديم «كل رئيس كهنة مأخوذٌ مِن الناس يُقام لأجل الناس .. لكي يُقدِّم قرابين وذبائح **عن** الخطية» (عب ٥ : ١) وهكذا قدَّم الرب نفسه ذبيحةً على الصليب فديةً، وهو ما لا يمكن لأي مسيحي مهما كان مذهبه أنْ ينكره بالمرة.

لكن سوء الحظ لازم تلاميذ العصر الوسيط عندما انحرفوا عن تعليم الوحي المُقدَّس؛ لأنَّ الرسول في نفس الإصحاح بعد أنْ ذكر تقديم **الذبائح عن الخطية**، يقول عن رئيس الكهنة في العهد القديم إنَّه **"يُقدِّم عن** الخطايا **لأجل** الشعب، هكذا أيضاً لأجل نفسه**"** (عب ٥ :٣).

وفي القرن الخامس ـ عندما ثار النزاع المرير مع نسطور ـ وقع نسطور في خطأ عقيدي كبير، إذ قال في إحدى عظاته إنَّ المسيح كرئيس كهنة قدَّم فدية عن نفسه هو باعتباره واحداً مِن الخطاة. وجاء رد القديس كيرلس الإسكندري في الفصل العاشر أو الحرم العاشر:

> [**مَن يقول إنَّه قدَّم نفسه كذبيحةٍ لأجل نفسه أيضاً، وليس لأجلنا فقط** (فهو لا يحتاج إلى ذبيحة، لأنَّه لم يعرف خطية)، **فليكن محروماً**] (راجع الترجمة العربية ـ مركز دراسات الآباء يوليو ١٩٨٨ ـ رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الانطاكي ص ٣٨).

وقد أنزلق البعض في الفكر النسطوري، وقالوا إنَّ الابن له المجد وقف أمام الآب كخاطئٍ يوم الجمعة الكبيرة، أي يوم الصلبوت، وحوكم كخاطئ، وأُدين كخاطئ، واحترق في نار العدل الإلهي. وهو ما يعني أنَّ المسيح نفسه أصبح في حاجةٍ إلى مُخلِّصٍ لأنَّه مات تحت وطأة العدل الإلهي، وهو ما يعني أيضاً أنَّه لا يملك هذه الصفة الإلهية **"العدل"** الخاصة بجوهر اللاهوت، وعندما مات تحت وطأة العدل الإلهي أو احترق وصار رماداً فقد أهم ما جاء لأجله، وهو صفته كفادٍ ومخلص وبذلك ضاع الخلاص برمته.

رابعاً: كيف شرح القديس اثناسيوس فعل "يفدي"؟

لعل أكبر أخطاء العصر الوسيط هو تحوُّل معني الفعل **"يفدي"** مِن **"يخُلِّص"** و**"يحُرِّر"** إلى **"يدفع الثمن"**، وهكذا إذا عُدنا إلى المقالة الثانية ضد الأريوسيين، وجدنا القديس اثناسيوس يقول:

> [**كان جسده** (ربنا يسوع) **هو أوَّل ما تم فداؤه** (خلاصه - تحريره) **إذ أنَّ هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه**]
>
> (الترجمة العربية - المقالة الثانية، فقرة ٦١ ص ٩٧).

والفداءُ هو **رد الحياة**، وليس دفع الثمن، ولذلك يقول القديس اثناسيوس:

> [**لكي يحيِي بدم نفسه، هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأوَّل بسبب تعدِّيه**] (المرجع السابق فقرة ٦٧ ص ١٠٢).

وهكذا لم يكن رب الحياة، ومُخلِّص الكل في حاجةٍ إلى فداء، بل هو مَنْ فدى الإنسانية التي فيه **لأجلنا**، ولم يمت الرب لأجلنا كبديلٍ لأننا نشترك في موته في المعمودية المقدسة (رو ٦ : ١ وما بعده)، ولأننا نُختم بعلامة الصليب بالميرون المقدس الذي يشرح لنا أن عطايا ومواهب الروح القدس تغرس المؤمنين في الصليب وتثبِّتهم في موت الرب وقيامته[1].

---

[1] يمسح الكاهن المعمد بالميرون المقدس **بمثال الصليب** ٣٦ رشماً ويقول - بحسب الأعضاء - "باسم الآب والابن والروح القدس. مسحة نعمة الروح القدس آمين. مسحة عربون ملكوت السموات. آمين. دهن شركة الحياة الأبدية غير المائتة.آمين. مسحة مقدسة للمسيح إلهنا، وخاتم لا ينحل.آمين. كمال نعمة الروح القدس،=

خامساً: أمواتٌ "عن الخطية" لا تعني أننا نموت عِوضاً، أو بدلاً

يقول الرسول بولس «نحن الذين مُتنَّا عن الخطية» (رو ٦ : ٢)، وأيضاً **"احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطايا"** (رو ٦ : ١١) وأيضاً (١ بط ٢ : ٢٤)، فهل نحن نموت **بدلاً عن الخطية** أم **نموت الخطية** لكي نحيا نحن **بموت** الذي مات لأجلنا وقام؟. «نحن نموت للرب» (رو ١٤ : ٨) ويقول الرسول إنَّه «في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم» (١ كور ١٥ : ٣١) .. فالموت ليس بديلاً، ولا عوضاً رغم استخدام حرف الجر الذي يؤدِّي إلى هذا المعنى الذي لا يتفق مع الإيمان، ولا مع سياق الكلام (لأن الرسول بولس لم يمُت عوضاً أو بدلاً، بل مات في المسيح وليس عِوضاً عن المسيح). هكذا أسلَّم المسيح نفسه فديةً، أو ذبيحةً على الصليب لكي يحُرِّر ويخُلِّص ويفدي الذين هم تحت سلطان الموت.

أـ المسيح مات من أجل خطايانا (١ كور ١٥ :٣)

هذه عبارةٌ رسولية وردت في العهد الجديد، ومثلها الكثير:

- **مات لأجل الفُجَّار** (رو ٥ : ٦).
- **مات المسيح لأجلنا** (رو ٥ : ٨).
- **أُسلِمَ مِن أجل خطايانا** (١ كور ١٥ : ٣).
- **لا تُهلِّك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله** (رو ١٤ : ١٥).
- **مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء .. لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم، وقام** (٢ كور ٥ : ١٥).

ب ـ ماذا يقول الرب عن حرف الجر "لأجل"؟

يقول الرب **"مَنْ أضاع حياته لأجلي"** (مت ١٠ : ٧٩)، فهل هذا يعني عوضاً عني، أو بديلاً عني، أم يعني بسببي؟ (راجع أيضاً **مِن أجلي ومِن أجل الإنجيل** مرقس ٨ : ٢٥ ـ ١٠ : ٢٩)، فنحن لا نموت **"بدلاً"** أو **"عوضاً"** عن الرب.

= ودرع الإيمان والحق.آمين. أدهنك (يافلان) بدهن مقدس باسم الآب والابن والروح القدس.آمين.". هذه الكلمات تنزع عن الصليب كل ما قاله العصر الوسيط وحركة الإصلاح والفكر القبطي المعاصر، وتردنا إلى أرثوذكسية الإيمان بالصليب الذي به ننال عطية الروح القدس"وليفهم القارئ".

ويقول الرب أيضاً "لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي" (يوحنا ١٧ : ٩)، فهل قدَّس ذاته بدلاً عنا، أم أنَّه قدَّس ذاته **لأجلنا**، لكي نكون نحن مُقدَّسين فيه. وهل تحتاج هذه الحقيقة إلى تأكيد؟ فالرسول يقول "لأنَّه لاق بذاك الذي مِن أجله الكل وبه الكل .. لأنَّ المُقدَّس والمُقدَّسين جميعهم مِن واحد" (عب ٢ : ١٠ـ١١).

سادساً: حروف الجر في صلواتنا الأُرثوذكسية

نحن نُصلِّي "**عن**"، و "**لأجل**" معاً في آن واحدٍ عن الراقدين ولأجل الراقدين، وهم يُصلُّون عنا. يقول الرسول "صلُّوا لأجلنا" (عب ٢٣ : ١٨)، ونحن لسنا بدلاء ولا نواب ولا نقف "**عِوضاً عن**"، بل "**مع**" الذين نُصلِّي لأجلهم (راجع رو ١٥ : ٣٠)، وهكذا نطلب ونُصلِّي عن الإكليروس، حتى الواقف معنا في الهيكل والكائنين أمامنا .. لأنَّنا لسنا عوضاً عن أحدٍ لسبب واحدٍ، وهو أنَّنا أعضاء جسد واحدٍ لا يمكن أنْ ينقسم ولا يمكن أنْ ينفصل فيه عضوٌ عن العضو الآخر (١ كور ١٢ : ١٢)، ولا يمكن أنْ تحل العين محل اليد أو القدم محل الأذن، بل جسد واحد. وخير ما يمكن أنْ نقوله هو إنَّ الرسول يقول عن ربنا يسوع المسيح: إنَّه بذل نفسه لأجل خطايانا (غلا ١ : ٤)، وإنَّ الموت الذي ماته لم يكن موت الخطاة، بل حسب كلمات الرسول: "ماته للخطية" (رو ٦ : ١٠)، لأنَّه موت **التكفير**، حيث حذف النص نفسه حرف الجر، وقال عن ربنا يسوع "يُكفِّر خطايا الشعب" (عب ٢ : ١٧) أي يُطهِّر، والتطهير ليس "**عن**"، بل هو عمل الله في داخل النفس..

١ـ قانون الإيمان، والليتورجية

يقول قانون الإيمان:

"هذا الذي لأجلنا نحن البشر، ولأجل خلاصنا نزل مِن السماء، وتجسَّد مِن الرُّوح القدُّس .. وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس البنطي".

وفي الاعتراف الأخير:

"وأسلمه عنا على خشبة الصليب".

والليتورجية مثل العهد الجديد لا تُقدِّم لنا شرحاً لغوياً لموت المسيح، ولذلك تقول صلاة قسمة سبت الفرح:

"جُرحتَ لأجل خطايانا، وتوجعت لأجل آثامنا.. وبجراحاتَك شُفينا"،

ولاحِظ أنَّ قداس القديس باسيليوس يقول:

"وأسلم ذاته فداءً عنا إلى الموت الذي تملَّك علينا".

٢ـ دم العهد الجديد في الإفخارستيا

أهمل اللاهوت المدرسي ـ ثمرة العصر الوسيط ـ وحدة ذبيحة المسيح، أي تلك التي قدَّمها بحريته واختياره في العُلِّية ليلة الآلام، ثم أكمل التقديم علانيةً على جبل الجلجثة. وسوف نناقش هذه النقطة بالذات بالتفصيل فيما بعد[١]. لكن يبقى سؤالٌ هام: لماذا تقول الليتورجية: **"لأنَّه فيما هو راسم أنْ يُسلِّم نفسه للموت عن حياة العالم"**؟ هذا يؤكد أن **"عن حياة العالم[٢]"**، أي مِن أجل حياة العالم، أي أنَّه لكي يُعطي الحياة للعالم، **"أخذ خبزاً على يديه"**، فالتعليم بتأسيس الإفخارستيا كعطية حياة للعالم في ليلة آلام الرب يؤكِّد لنا إنَّ حدثاً فريداً تم في العُلِّية.

وبعد ذلك تقول الصلاة عن الجسد المُقدَّس : **"الذي يُقسم عنكم، وعن كثيرين"**، والإشارة هنا هي إلى ما حدث في عُلِّية صهيون حسب ما تذكره

---

(١) راجع الفصل الأخير من هذه الدراسة: الإفخارستيا عطاء الحرية وحرية المحبة.

(٢) "يعطى عن حياة العالم" كما وردت في الابصلمودية السنوية وشرح القديس كيرلس الإسكندري لإنجيل يوحنا.

القُدَّاسات نفسها **"لأنَّك في الليلة التي سلَّمت فيها ذاتك بإرادتك وحدك، وسلطانك أخذت خبزاً على يديك الطاهرتين"**، فالجسد المُقدَّس والدم الكريم قُدِّما لنا وليس عنَّا في عُلِّية صهيون، ولذلك يقول قداس مار مرقس **"لأنَّ ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومُخلِّصنا، وملكنا كلنا يسوع المسيح. في الليلة التي أسلم ذاته فيها ليتألم عن خطايانا"** (أي بسبب خطايانا، لأنَّ الرب ليس بديلاً، ولا الآلام هي عِوض الخطية)، وهذا ما تؤكده العبارات التالية: **"والموت الذي قبله بذاته بإرادته وحده عنا كلنا"**، لأنَّ الموت هنا كان موتاً **إرادياً**، أو طوعياً حسب تعبير الكنائس الأرثوذكسية، ولم يُفرَض على الرب، ولا كان للخطية دورٌ فيه بالمرة؛ لأنَّه موتٌ حُرٌّ، قال عنه الرب نفسه "لي سلطان أنْ أضعها (حياتي)، وسلطان أنْ آخذها أيضاً، هذه الوصية قبلتها مِن أبي" (يو١٠ : ١٨).

٣ـ قُدَّاس مار يوحنا ذهبي الفم

> **"قدُّوسٌ أنت، وكُلِّي القداسة، ومجدك عظيم الجلال. يا مَنْ أحببت عالمك بهذا المقدار حتى أنَّك بذلت ابنك الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمِن به، بل تكون له الحياة الأبدية. الذي أتى، وأتم كل التدبير لأجلنا، وفي الليلة التي أُسلِم، بل بالحري التي أسلَم نفسه فيها، مِن أجل حياة العالم أخذ خُبزاً ..الخ"** (كتاب الأفخولوجي الكبير طبعة المطران انطونيوس بشير عام ١٩٥٥ ص ١٠٠).

٤ـ مِن أجل إنقاذ سِّر الإفخارستيا

ليست المسألةُ إذن هي تحذير من عودة الكنيسة القبطية برمتها إلى لاهوت العصر الوسيط بكل ما في هذا اللاهوت مِن موضوعات وتعريفات ومشاكل نحن في غنىً عنها، بل المسألة هي إنقاذ سِّر الإفخارستيا نفسه حتى لا يُصبِّح دم الرب ثمناً مُقدَّماً عن الخطايا للآب، وليس الدواء المُقَدَّم مِن الآب في ابنه الوحيد للخلاص والشفاء مِن الخطية.

وحروف الجر في الأناجيل الثلاثة ليست هي "αντι" فقط، ولا "υπερ" فقط، بل هي أيضاً "περι " و"αντι" وحرفياً تعني "*about*" أو "*concerning*". وعن العشاء الرباني ورد حرف الجر "υπερ" "**عنكم**" مِن أجل إيضاح المعنى، والترجمة الإنجليزية تستخدم "*For*" وهنا، وكما ذكرنا سابقاً، لا يمكن إخضاع الإيمان لقواعد اللغة، ولا يمكن أن يؤخذ الإيمان من قواعد اللغة ، حيث لا يسمح بذلك تنوُّع طرق التعبير، وتنوُّع الألفاظ[1]

---

[1] لقد صرفنا وقتاً طويلاً حول عدم وجود أداة التعريف الـ في بعض النصوص الخاصة بالروح القدس في الترجمة القبطية للعهد الجديد، بينما الأصل اليوناني يستخدم أداة التعريف الـ في معظم النصوص الخاصة بعطية الروح القدس للمؤمنين، ولكن جاء التعليم غير الأرثوذكسي الذي اعتمد على قواعد اللغة فقرر أننا لا نأخذ الروح القدس نفسه بل مواهب الروح القدس فقط، فاقترب هذا الرأي من بدعة مقدونيوس بشكل ظاهر، وبينما لا يدري أصحاب هذا التعليم غير الأرثوذكسي أن النتيجة المترتبة على عدم سكنى أقنوم الروح القدس فينا إنما يعني ضياع نعمة الحياة الأبدية، نجد أن الذين يتمسكون بهذا التعليم كانوا ولا زالوا يُحاربون، وليفهم القارئ.

كهنوت المسيح
وذبيحة الصليب

كلمة هامة:

لم يكن العهد القديم يسمح بأكل دم الحيوانات. كان الدم عطية حياةٍ تُقَدَّم لله. وفي العهد الجديد صار دم المسيح يُقَدَّم سرائرياً للمؤمنين؛ لأنَّ العهد الجديد لا يستقي حقائق التعليم مِن العهد القديم، بل مِن المسيح نفسه، ومِن هبات النور والحق التي تعلو على كل الظلال والرموز. وسفكُ دم ربنا بالإرادة وبقوة المحبة سَبَقَ سفك الدم على الصليب بواسطة اليهود والرومان. وإذا قال الرب نفسه على لسان النبي في العهد القديم «لذلك عند دخوله إلى العالم، يقول ذبيحة وقرباناً لم تُرِد، ولكن هيأت لي جسداً، ثم قلت هنذا أجيء في درج الكتاب مكتوب عني لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠ : ٥-٧)، فإنَّ الرسول يُعلِّق على حديث الابن هذا مع الآب قائلاً: «بهذه المشيئة نحن مُقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً» (عب ١٠ : ١٠)، وكذلك يعيد نفس الكلام عن رئيس الكهنة قائلاً: بعد ما قدَّم ذبيحةً واحدةً عن الخطايا جلس في يمين عرش الله (راجع عب ١٠ : ١٢). وجلوس الكاهن على يمين الآب يجعل الذبيحة فوق أبعاد الزمن والرموز وهو ما يجعلنا نحن ننتقل إلى الجانب السماوي الروحي الإلهي ويجعل الذبيحة الواحدة هي "اجتماع" الكاهن بجسده أي الكنيسة لكي يعلن ويثبِّت اتحاده كرأسٍ بالجسد، أي الأعضاء عندما يفيض بعطية الحياة في **"خبز الحياة"**.

أولاً: الأسباب العقائدية التي تجعلنا نؤكِّد أنَّ دم الرب قُدِّمَ لنا، وليس للآب

١ـ واحدية الكاهن والذبيحة

فالمسيحُ ليس ذبيحةً فقط؛ لأنَّ الذبيحة تحتاج إلى كاهنٍ، وهنا لا يمكن لأحدٍ أنْ يدَّعي بأنَّ الآب هو الكاهن الذي قَدَّمَ الابن، بل إنَّ الابنَ هو رئيس الكهنة الذي قدَّم الذبيحة، وكانت الذبيحة كما تقول الرسالة إلى العبرانيين **"دم نفسه"**، وحِرْصُ العهد الجديد والليتورجيات على الكلام عن الذبيحة هو حِرصٌ له جذوره العقائدية المعروفة؛ لأنَّ الذبيحة قُدِّمت مرةً واحدةً، وليس مرتين، ولم يكن يوم خميس العهد مناسبةٌ أُخرى غير يوم الجمعة الكبيرة، بل هما معاً مناسبةٌ واحدةٌ، يُقَدِّم فيها الكاهنُ الذبيحةَ بالإرادة والنية **وسلطانه وحده** كما تذكُر كل القُدَّاسات الأُرثوذكسية لكي يبقى هذا التقديم الإرادي أبدياً دائماً، تقديماً واحداً معروفاً قبل خلق العالم، ويُعلَن في الدهور بما يناسب أحداث الخلاص. وعدم قدرة العقل على استيعاب **"سرِّ التدبير"**، والتقديم **مرة واحدةً**، وهو التعبير المتكرر في رسالة العبرانيين، هو تأكيدٌ على اختلاف ذبيحة العهد الجديد عن ذبائح العهد القديم التي كانت تقدم مراراً، ولكن أيضاً مِن أجل إبراز دور رئيس الكهنة العظيم ربنا يسوع المسيح له المجد.

٢ـ المسيح رئيس كهنة حسب تعليم الأسفار المُقدَّسة

أـ أرسل الآب ابنه الوحيد لكي يصبح رئيس كهنة «كذلك المسيح أيضاً لم يُمجِّد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الذي قال له أنت ابني أنا اليوم ولدتك» (عب ٥ : ٥). وهكذا لا يجب أنْ يضيع منا مبدأ المسيح كرئيس كهنة.

ب ـ جاء المسيح ليخدِم مشورة الآب، ليس على طقس لاوي، بل على طقس (ترتيب) ملكي صادق. وهذا ما يقوله الرسول بولس نفسه، مؤكِّداً أنَّ المسيح جاء **ككاهنٍ آخر** على رتبة ملكي صادق، وليس على رتبة هارون (عب ٧ : ١١) وهذا ينزع عن "الأفعال" و "حروف الجر" كل صلة بتوراة موسى.

ج ــ وإذا تغيَّر الكهنوت مِن الكهنوت اللاوي إلى كهنوت ملكي صادق (عب ٧ : ١١) فإنَّ الرسول بولس يؤكد حقيقة ومعنى هذا التغيير بقوله: «لأنَّه إنْ تغيَّر الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيُّر للناموس أيضاً»(عب ٧ : ١٢)، وهذا لا يسمح لنا بشرح موت المسيح على أساس المبادئ الطقسية الخاصة بالعهد القديم.

د ـ وتغيير الناموس يعني أشياء كثيرة سوف يشرحها الرسول نفسه، ولكن يكفي أنْ نسجل هنا ذات كلمات الرسول بولس«واضحٌ أنَّ ربنا قد طلع مِن سبط يهوذا الذي لم يتكلم عنه موسى شيئاً مِن جهة الكهنوت» (عب ٧ : ١٤).

وهذا ينفِّي تماماً ما يقوله البعض عن أنَّ الرب قد أخذ الكهنوت مِن يوحنا المعمدان عندما وضع يده علي رأس الرب في المعمودية[١]، لأنَّ كهنوت الرب هو مِن الآب، وليس مِن البشر. وسوف نشرح خطورة هذا التعليم بعد ذلك. ولكن يكفي هنا أنْ نسجل كلمات الرسول بولس عن كهنوت بني إسرائيل: "أولئك بدون قَسَمٍ قد صاروا كهنةً، أمَّا هذا فبقَسَمٍ مِن القائل له (الآب) أقسَّم الرب، ولن يندم أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكي صادق (عب ٧ : ٢١). فإذا كان القَسَم الإلهي قد أقام الرب كاهناً، إذن صارت ذبيحة الرب مِن ذات قوة القَسَم، وصار لها جذرٌ آخر مختلفٌ تماماً عن جذر كهنوت وذبائح العهد القديم. وهكذا يجب حصر معنى الموت على الصليب في المعاني الجديدة التي وردت في كتابات رُسل المسيح.

ثانياً: الأمرين العديمي التغيير اللذين بهما صار المسيح رئيس كهنة

يناقش الرسول في الرسالة إلى العبرانيين أساسات العهد الجديد كله، وعندما يشرح التعليم المسيحي وانفصاله وتفوقه على تعليم توراة موسى يؤكد أنَّ كهنوت المسيح وعمله قائم **"بأمرين عديمي التغيير"** (عب ٦ : ١٨). أولاً الوعد، وثانياً القَسَم.

---

[١] ينقل هذا البعض، هذا الكلام عن تراث سرياني متأخر ينسب إلى مار إفرام السرياني وهو غير معروف في قصائده، ولا يوجد له مكان بالمرة في الأناجيل الأربعة ولا في كتابات الآباء.

أ ـ الوعد :

وتم الوعد بولادة النسل، أي نسل اسحق، أي المسيح (غلاطية ٣ : ١٥ـ١٨)، فقد جاء الوعد، ودخل الأُمم إلى ميراث إبراهيم. فالوعد هو أساس تجسُّد الكلمة ابن الله. وهو أساس الكهنوت لأنَّ المسيح قدَّم جسده الذاتي.

ب ـ القَسَم :

يقول الرسول إنَّ الوعد لا يكفي، بل يؤكِّده القَسَم، ولذلك أقسم الله بنفسه «فإنَّه لما وعد الله إبراهيم إذ لم يكُن له أعظمُ يُقْسِم به أقسمَ بنفسه» (عب ٦ : ١٣)، والقَسَم الذي أقام كهنوت الابن الوحيد حسب نص المزمور (١١٠ : ٤) هو الذي فيه يُقْسِم الآب أنَّ الابنَ كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكي صادق، «أقسَمَ الرب ولن يندم.أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكي صادق».

ولكن لماذا أسس الآب كهنوت الابنَ بقَسَمٍ؟ والجواب، ليس فقط لتأكيد العهد الجديد وضمان بقائه، بل لأنَّ الآب أرادَ أنْ يؤسِّس عهداً يوصَف في الرسالة إلى العبرانيين بهذه الكلمات القوية:

١ـ **عهداً جديداً** (عب ٨ : ١٣).

٢ـ **عهدُ راحةٍ** (عب ٤ : ٨).

٣ـ **عهدُ كرامةٍ ومجدٍ** (عب ٣ : ١ـ٦).

٤ـ **عهدُ نبوةٍ** (عب ٣ : ٦).

٥ـ **عهدُ خلاص أبدي** (عب ٥ : ٩).

٦ـ **عهدُ رجاءٍ أفضل** (عب ٧ : ١٩).

٧ـ **عهدٌ أفضل له ضمانة يسوع** (عب ٧ : ٢٢).

٨ـ **عهدٌ أعظم قد تثبَّت على مواعيدٍ أفضل** (عب ٨ : ٦).

٩ـ **عهدُ الخيرات الآتية بما فيها الحياة الأبدية** (عب ٩ : ١٥،١١ـ١٠ ـ ١).

١٠ـ **عهدٌ سماويٌ** (٩ : ٢٣).

١١ـ **عهدُ كمال أبدي** (عب ١٠ : ١٣) مع (عب ١٣ : ٢٠).

١٢ـ **عهدُ تقديسٍ** (عب ١٠ : ٢٩).

ثالثاً: رئاسة كهنوت المسيح لم تنشأ بواسطة التوراة، بـل مِـن الآب مباشرةً ولا دخل للشريعة في تأسيسها

إنَّ الكهنوت المسيحي، أي كهنوت المسيح هو دعوةٌ مِن الله الآب، لذلك، فهو ليس له جذورٌ في الكهنوت اللاوي، بل في مشورة الآب ومشورة الابن ومشورة الروح، أي مشورة الثالوث، ويقول الرسول بولس إنَّ رئيس الكهنة العظيم يسوع إبن الله قد اجتاز السموات (عب ٤ : ١٤) وهو «مدعواً مِن الله رئيس كهنة على رتبة ملكي صادق» (عب ٥ : ١٠).

وهناك فرق كبير بين أنْ تكون التوراة هي كتاب الرموز والظلال (عب ١٠ : ١)، التي لا تملك أن تعطي الأساس الأبدي وبين الإنجيل، إنجيل الحياة الأبدية. لا يجب أنْ نخطئ في فهم هذه المسألة. التوراة زالت تماماً حسب كلمات الرسول بولس نفسه، ليس فقط في العبرانيين، بل في رسالة غلاطية، وكلتا الرسالتين قد كُتِبَتا ضد المتهودين في كنيسة المسيح. يقول الرسول بولس عن توراة موسى إنَّ العهد القديم كله قائم على:

أ ـ الكهنوت اللاوي (عب ٧ : ١١) مع (عب ٧ : ١٨ ـ ٢٨).

ب ـ الناموس الموسوي (عب ٧ : ١٢ ـ ١٦) ونظام الذبائح (عب ٥ : ١).

ج ـ الهيكل الذي هو ظِل السماويات (عب ٨ : ٥).

د ـ العهد مع إبراهيم وقد شرحه الرسول في أثناء المقارنة الدقيقة التي قام بها والتي حصرناها في الفقرة السابقة عن العهد الجديد.

ويلاحَظ أنَّ هذه العناصر لم تُسهم، ولم تقدِّم شيئاً بالمرة للمسيح لسبب واحد هو مصدر كل الأسباب الأُخرى؛ وهو أنَّ المسيح هو ابن الله، وهو ليس مجرد إنسان مثل كهنة العهد القديم. ولكن يجب أنْ نتوقف عند هذه العناصر الأربعة.

أـ كهنوت المسيح، والكهنوت اللاوي

لم يكُن كهنوت المسيح كهنوتاً وراثياً بحسب حكم التوراة الذي يجعل كل رئيس كهنة، كاهناً، بالولادة الجسدانية مِن سبط هارون. فالآب أرسل الابن،

وهذه هي حقيقة أساس الكهنوت (عب ٥ : ١١). ويبرهن الرسول علي ذلك بقوله إنَّ كل كهنة العهد القديم يختلفون عن ملكي صادق اختلافاً كبيراً؛ لأنَّ ملكي صادق بلا أب بلا أُم بلا نسب (عب ٧ : ٣).

وهكذا لم يحصل ملكي صادق على الكهنوت بالوراثة، ولكن هذا البرهان لا يقف فقط عند هذه النقطة التي يؤكدها الرسول: «طلع ربنا مِن سبط يهوذا الذي لم يتكلم موسى شيئاً عنه مِن جهة الكهنوت» (عب ٧ : ١٤)، بل يستمر مؤكداً إنَّ التشابه بين ملكي صادق وربنا يسوع المسيح يظهر في أنَّه **بلا بداءة أيام له ولا نهاية حياة**، بل مشبهٌ بابن الله هذا يبقى كاهناً إلى الأبد (عب ٧ : ٣). وأبدية الكهنوت نابعةٌ حسب عبارات الرسول: «على شِبه ملكي صادق يقوم كاهنٌ آخر، قد صار (كاهناً) ليس بحسب ناموس (شريعة) وصية جسدية، **بل بحسب قوة حياة لا تزول**، لأنَّه يشهد أنَّك كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (عب ٧ : ١٧). وهكذا عجزت الوراثة والولادة الجسدانية، عن أنْ تقيم المسيح كاهناً إلى الأبد، بل يُعزى ذلك إلى الصخرة الثابتة، وهي **قوة الحياة التي لا تزول، أي قيامة المسيح مِن الأموات**، كما يؤكد الرسول نفسه ذلك في مقارنة واضحة:

الكهنوت اللاوي	كهنوت ربنا يسوع
بدون قَسَمٍ (عب ٧ : ٢١).	هذا بقَسَمٍ (عب ٧ : ٢١).
كهنة كثيرون مِن أجل منعهم بالموت عن البقاء (عب ٧ : ٢١).	يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول (عب ٧ : ٢٤).
كهنوت يقدِّم ذبائح، أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب (٧ : ٢٧).	قدُّوسٌ بلا شرٍّ، ولا دنسٍ، ليس له اضطرار كل يوم مثل رؤساء الكهنة أنْ يقدَّم ذبائح (٧ : ٢٦).
كهنوت يخدم الظلال (عب ٨ : ٥).	يخدم المسكن الحقيقي (٨ : ١).
كهنوت يخدم ما هو مبني ومصنوع باليد، أي هيكل سليمان، وقبل هذا خيمة الاجتماع.	كهنوت يخدم المسكن الحقيقي الذي أقامه الرب، وليس البشر (٨ : ١) و(٩ : ١١).

ب ـ علاقة الكهنوت بالذبائح حسب توراة موسى

كان الكهنة يقدِّمون الذبائح حسب توراة موسى عن أنفسهم، وعن الشعب (عب ٥ : ١ـ٣) مع (عب ٧ : ٢٧) مع (عب ٨ : ٣). ويقارِن الرسول بولس في دقةٍ شديدةٍ، ليس بين كل الذبائح وذبيحة المسيح، بل فقط بين ذَبيحة يوم الكفَّارة، وذبيحة المسيح، أي موت الرب على الصليب.

* كانت الذبيحة غير الكاهن في العهد القديم (عب ٨ : ٣).
* كانت ذبيحة يوم الكفَّارة تُقَدَّمُ مرةً واحدةً في السنة، وكان رئيس الكهنة يموت، ثم يجيء رئيس كهنة آخر لكي يُقَدِّم ذبيحةً أُخرى (عب ٧ : ٢٣)، وكانت هذه الذبائح تُقَدِّس الذين تنجسَّوا حسب أحكام الشريعة (عب ٩ : ١٣).
* ويؤكد الرسول أنَّ المقارنة ليست بين كل الذبائح، بل بذبيحة يوم الكفَّارة بنصٍ قاطعٍ لا يحتاج إلى تأويل "يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس كل سنة بدمٍ آخرٍ" (ذبيحة أُخرى) (عب ٩ : ٢٥).

ج ــ تغيير الكهنوت، وعلاقته بتغيير الهيكل

«فلو كان بالكهنوت اللاوي كمالٌ.إذ الشعب أخذ الناموس عليه،.ماذا كانت الحاجة بعد إلى أنْ يقوم كاهنٌ آخر على رتبة ملكي صادق، ولا يُقال على رتبة هرون، لأنَّه إنْ تغيّر الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيّر للناموس أيضاً» (عب ٧ : ١١ـ١٢). وطالما أنَّ الكاهن جاء مِن سبط يهوذا، وطالما أنَّه لم يأت لكي يخدِم هيكل سليمان، وطالما أنَّه لم يخدم الظلال، بل جاء لكي يدخل الأقداس الحقيقية التي ليست مِن صنع البشر، بل مِن الله (عب ٩ : ١١)، أصبح مِن الواضح أنَّ تغيير الكهنوت يعني أنْ يقدِّم المسيح الذبيحة على طقسٍ ونظامٍ آخرٍ ليس له علاقة بتوراة موسى، أي يختلف عن توراة موسى تماماً.

د ـ تغيـير العهــد:

يصف الرسول بولس العهد القديم بأنه "شاخ"، وفي طريقه إلى الإضمحلال، ولذلك يقول الرسول كانت هناك حاجة إلى عهد آخر جديد (عب ٨ : ٧)، ويضم

الرسول صوته إلى صوت أرميا النبي عن العهد الجديد (ارميا ٣١ : ٣١) ويقول عنه أرميا وبولس معاً: «لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم» (عهد الخروج) (عب ٨ : ٩)، ثم يؤكد الرسول بولس بعد ذلك أنَّ العهد الأوَّل صار قديماً أو عتيقاً، وهو بذلك قد **"شاخ"** وأصابه كبر السن، أو الشيخوخة، وهو بذلك قريبٌ مِن الزوال والاضمحلال (عب ٨ : ١٣).وهو ما سبق شرحه فيما سبق تحت بند ثانياً: القَسَم.

وعلي ذلك، فالنتيجة القاطعة التي نخرج بها مما سبق، هي عجز شريعة موسى عن أن تقوم بدور الوسيط، أي ذات الدور الذي يخص الرب، وبالتالي نهاية دور الذبائح الموسوية، وذلك لأنَّها لا ترفع الخطايا:

«دم ثيران وتيوس (يوم الكفَّارة) لا يمكن أنْ يرفع الخطايا» (عب١٠ : ٤).

ولأنَّ الله لم يُسرُّ بها: «بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسر» (عب١٠ : ٦).

ولأنَّ الله لم يطلبها: «ذبيحة وقرباناً (لم تطلب) لم تُرِد » (عب١٠ : ٥).

وإجمالاً: "إذ يقول سابقاً (آنفاً) إنك ذبيحةً وقرباناً ومحرقات وذبائح للخطية لم تُرِد ولا سررت بها التي تقدَّم حسب الناموس" (عب١٠ : ٨).فماذا يمكن أنْ يقالَ أكثر مما قاله الرسول؟.وهل يجوز لنا بعد كل ذلك أنْ نفسر موت المسيح على الصليب مِن خلال طقوس وذبائح العهد القديم؟

وكيف يمكن وهو يقول إنَّ الله لم يُسر بذبائح العهد القديم كلها دون استثناء، بل ويذكر بالتحديد: المحرقات وذبائح الخطية (عب ١٠ : ٦) القربان (عب ١٠ : ٨) حيث يقول الرسول إنَّ الله "لم يُرِد" هذه الذبائح، ولذلك أرسل ابنه الوحيد ـ أقول كيف يمكن أنْ نفسِّر أو نشرح موت المسيح علي الصليب مِن خلال ذبائح وطقوس العهد القديم؟ ألا ترى معي أيها القارئ أنَّ هناك عصيان واضح لكلمة الله عند الذين يحاولون استخدام شريعة موسى وتوراة موسى لشرح موت المسيح على الصليب؟.

الخُلاصة:

قُلنا إنَّ كهنوت المسيح ليس له أية علاقة بالكهنوت اللاوي، وإنَّ المسيح صار رئيس كهنة بأمرين عديمي التغيير هما الوعد والقَسَّم، وإنَّ الوعدَ كما نعرف هو وعدٌ بالبركة كما كان القَسَمُ هو قَسَمُ إقامة كاهنٌ **"إلى الأبد"**.

فإذا كان الوعد بالبركة قد جاء في المسيح وبواسطته، بات مِن الحتمي أنْ يصبح موت المسيح هو رفعٌ للَّعنة، أي رفع كل ما هو متصلٌ بالموت. وتحوَّلت طبيعة الموت، فصار خادماً للخلاص، يهدم الطبيعة القديمة، كما يقول الرسول «الموت يعمل فينا»(٢كو : ٤ ـ ١٢) لكي تقوم الطبيعة الجديدة.

والقَسَمُ هو أنْ يقوم كاهنٌ آخر بقوة الحياة التي لا تزول، تلك التي استطاعت أنْ تقتلع الموت وتهدم الجحيم وتَرُد آدم وبنيه إلى رتبة التبني بالروح القُدُّس عربون ميراث الأبد في يسوع المسيح.

وهنا يجب أنْ نسأل: هل رَفع المسيحُ اللعنةَ بأنْ **"صار لعنةً"**، بمعنى فقد الابن المتجسد مجد وعزة أُلوهيته؟ وهل **"صار لعنةً"** تعني تحوُّلٌ ما في طبيعة الابن الكلمة المُتجسِّد؟

لقد أجاب القديس كيرلس الكبير على كل الأسئلة الخاصة بكلمة وفعل **"صار"**، وأكد إنَّ **"صار جسداً"** لا تعني أي تحوُّل في طبيعة الابن، أي أنْ يفقد أُلوهيته ويتحوَّل إلى إنسان. وإنَّ **"صار خطيةً"** لا تعني أنَّه تحوَّل إلى خطيةٍ، فهذا مستحيلٌ. ويجب أنْ نلاحِظ دقة تعبير الرسول، لأنَّ **"صار خطيةً"**، غير صار خاطئاً. فالإنسان لا يصبح هو الخطية، بل يصبح خاطئاً (فاعل). فهل **"صار لعنةً"** تعني أنَّ المسيح تحوَّل مِن قوة الله وحكمة الله وبر الله وقداسة الله وبركة الحياة إلى لعنةٍ؟ (راجع: الفصلين الثالث والرابع في "المسيح واحد" للقديس كيرلس الكبير).

إذا كان التجسُّد لا يعني تحوُّلاً في طبيعة الابن الإلهية، فهل حدث تحوُّلٌ في طبيعة الابن الإنسانية؟. إنَّ القول بذلك يعني أنَّ الابن قد انقسم إلى بركةٍ، أي اللاهوت ولعنةٍ، أي الناسوت. وما هي فائدة هذا الانقسام؟ وكيف نقبل نحن أنْ يكون المُخلِّصُ ضعيفاً خاضعاً لنتائج الخطية، بالشكل الذي يريده بعض الإكليروس

الأقباط المعاصرين في كتاباتهم؟

إنَّ جوهر المشكلة في لاهوت العصر الوسيط هو أنَّ الخطية ـ التي لا وجود حقيقياً لها إلاَّ في عقل الإنسان الخاطئ، وعقول كل الخطاة ـ قد استطاعت أنْ تنتقل مِن آدم إلي الخطاة جميعاً عبر كل العصور، وحتى الذين لم يولَدوا بعد، وهذا هو ما يعني أنَّ المسيح مات كنائبٍ عن كل الخطاة الذين عاشوا والآتيين بعدنا،...فكيف جمَّع الآب كل هذه الأعمال الخاطئة التي لا وجود حقيقي لها إلاَّ في قلب الإنسان، وكيف أتي بتلك التي لم تحدث بعد وجاء بها بنفسه إلى الجلجثة، ثم وضع الكل على ابنه بكل ما يملك مِن غضب، ثم ـ حسب كلمات أحد هؤلاء الإكليروس ــ أشعل فيه نار العدل الإلهي واحترق الابن، وبذلك استراح الآب "وتنسم رائحة الرضى"؟!!.

وفي الحقيقة، إنَّ هذا الشرح ما هو إلاَّ خيالٌ محض، وهو يتعارض مع أبسط حقائق الإيمان الأُرثوذكسي ولذلك:

١ـ لا يجب أنْ نصرف الوقت والجهد في تأكيد أنَّ طبيعة الخطية تتعارض مع طبيعة الله القدوُّس، ولذلك فهو لا يجمِّع الخطايا وينتظر يوم الجمعة الكبيرة لكي يحرق الكل: الابن الوحيد وخطايا كل البشر. في الوقت الذي إنْ فعل فيه ذلك لن يستريح؛ لأنَّ الخطية غير قابلةٍ للاحتراق، كما أنَّ الابن لا يمكن أنْ يتحوَّل إلى رمادٍ؛ لأنَّه رب المجد المساوي للآب في الجوهر.

٢ـ يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أن طبيعة الخطية تتعارض مع طبيعة الابن نفسه، فهو لم يفقد أُلوهيته عندما تجسد، بل ظل كما تقول رسالة العبرانيين «قدوسٌ بلا شرٍ ولا دنسٍ قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى مِن السموات، الذي ليس له اضطرار كل يوم مثل رؤساء الكهنة أنْ يقدِّم ذبائح أولا عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب؛ لأنَّه فعل هذا مرةً واحدةً إذ قدَّم نفسه» (عب٧ـ ٢٦، ٢٧)، وكأنَّ الرسول لمح بروح النبوة سقطات التعليم المعاصر، فذكر الفرق بين رؤساء الكهنة وبين المسيح يسوع ربنا. كيف صار الكاهن القدُّوس الذي بلا شرٍ ولا دنسٍ في ساعة خدمته الكهنوتية على الصليب "خطيةً، ولعنةً" تستوجب العقاب والموت؟

٣ـ وفيما يلي بعض النتائج التي يمكن أنْ توصلنا إليها معاقبة الابن على الصليب حسب شرح بعض القيادات الكنسية القبطية المعاصرة، وهي مسألة هامة لابد مِن التصدي لها:

ـ فصلت الابن عن الآب، وتحوَّل الابن إلى إلهٍ آخر لا يملك صفةُ العدل ولا صفة الغضب (هذا إذا كان الغضب صفةً مِن صفات الله الآب وحده).

ـ تحوَّل الابن مِن قداسةٍ وقدُّوسٍ إلى خاطئٍ وخطيةٍ ولعنةٍ، فصار غريباً تماماً عن الآب وعن الروح القدس.

ـ بل لم يعُد الابن حتى "ذبيحةُ خطيةٍ" حسب سفر اللاويين، لأنَّ هذا السفر وصف هذه الذبيحة بأنَّها "مُقدَّسة" (لاويين ٦ : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩). إذن لقد فقد الابن كل شيء: صفاته الإلهية، علاقته بالآب واستطاعت أعمال البشر وخطاياهم أنْ تؤثر فيه بهذا الشكل، فكيف ومتي غَلَبَ الابن شرَّ الإنسان ومتى انتصر على الخطية؟.

٤ـ كيف تمَّت المغفرةُ إذن، إذا كانت المغفرةُ مقايضةٌ، وكانت ثمرة معاقبة البديل؟. هل أصبح لله هذه الطبيعة التي لا تعرف الجود والكرم والصلاح والرحمة فلا يترك حقه، بل يأخذه مِن آخر؟ وما هو هذا الحق؟. أهو معاقبة الأشرار؟ أليس هذا هو ذلك الفكر السياسي الذي لا يعرف المغفرة؟. فإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة أفلا يعتبر إسطفانوس أول شهيد ـ بل، وغيره مِن ملايين المسيحيين ـ أفضل مِن الله؛ لأنَّهم غفروا بلا مُقابل؟

إنَّ ـ حتى ـ أرواح الشهداء التي صرخت تسأل الله في سفر الرؤيا "إلى متى يا رب لا تنتقم لدمائنا مِن الساكنين على الأرض؟" لم تجد جواب الانتقام، بل نالت "الثياب البيضاء"، أي ثياب البرِّ، ثم أُعطيت زمان الراحة أو النياح إلى أنْ يكمُّل الزمان ويتم عدد الذين سينالون إكليل الشهادة (رؤ ٦ : ١٠ ، ١١).

٥ـ ثم أين وكيف ظهرت محبة الله الآب والابن والروح القدس؟ وإذا كان الصليب هو ساعة أو ساعات الانتقام، فأين هي ساعة أو ساعات إعلان المحبة؟ إنَّ كل ما لدينا مِن نصوصٍ مقدسةٍ يقول: إنَّ الله بيَّن لنا محبته على الصليب وذلك بدايةً مِن أبسط نصوص العهد الجديد مثل «لأنَّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَن يؤمِن به، بل تكون له الحياة الأبدية»(يوحنا ٣ : ١٦)، إلى أعمق هذه النصوص مثل"ولكن الله بيَّن محبته لنا لأنَّه، ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (رو ٥ : ٨ وغيرها).

رابعاً: الرمز لا يشرح الحقيقة، ولا الظل يشرح النور

اجتاز المسيح له المجد إلى قُدس الأقداس (عب ٩ : ٨) عندما مات على الصليب. وهنا يجب أنْ نرى حقيقة هامة لا يمكن التنازُل عنها بالمرة، وهي أنَّ المسيح حيٌ وميتٌ معاً، حيٌ كرئيس كهنةٍ، وميتٌ كذبيحةٍ، حيٌ بلاهوته وقَبِلَ الموت أو حسب تعبير صلاة الساعة التاسعة: **"ذاق الموت بالجسد"**، وعن هذا يقول الرسول بولس «وأمَّا المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنةٍ للخيرات الآتية (العتيدة)، فبالمسكن الأعظم (جسده)، والأكمَّل غير المصنوع بيدٍ، أي الذي ليس مِن هذه الخليقة، وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه دخل مرةً واحدةً إلى الأقداس فوَجَدَ فداءً أبدياً» (عب ٩ : ١١ـ١٢). مات على الصليب حقاً، ولكنه دخل حياً إلى الأقداس حسب تعبير الرسول: «لأنَّ المسيح لم يدخل إلى الأقداس المخلوقة (هيكل سليمان)، بل إلى السماء عينها ليظهر أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ٢٤). هنا يجب فصل الرمز والظل عن الحقيقة والنور لسببٍ واحد وهو أنَّ خدمة الظلال والرموز هي خدمةٌ تظهر فيها ازدواجية الكاهن والذبيحة، أمَّا خدمة الحياة والمجد، فتظهر فيها وحدانية الكاهن والذبيحة. ولذلك يقول الرسول عن العهد القديم كله برُمته وبكل أركانه «ينزع الأوَّل لكي يثبِّت الثاني» (عب ١ : ٩).

وهكذا يصل الرسول إلى ما هو أعظم مِن كل الرموز، إلى حقيقة الفداء

نفسه، الإرادة الأزلية السابقة على خلق العالم ويقول: «بهذه الإرادة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً» (عب ١٠ : ١٠). فالإرادة أو المشيئة، أي إرادة فداء وخلاص الجنس البشري كله، سبقت ـ حتى ـ التجسُّد نفسه.

"لأجلنا"، و "عنَّا" والتسليم الآبائي الخاص بموت المسيح

مقدمة

أوضحنا بما لا يدع مجالاً للشك ـ فيما سبق ـ أن أساس الإيمان الأرثوذكسي حسب تسليم الآباء هو العقيدة أولاً، واللغة ثانياً. وأثبتنا ذلك بضرب الكثير من الأمثلة سواء من شرحهم للكتاب المقدس نفسه، أو من صلوات الليتورجية. وإذا كنا قد أشرنا إلى أن القديس أثناسيوس قرر أن الطبائع توجد أولاً ثم تأتي الكلمات بعد ذلك، فما يهمنا الآن هو معرفة كيف عبَّر القديس أثناسيوس عن موت المسيح، هل مات عنا أو لأجلنا؟

١ـ إنَّ الإيمان لا تحدده كلمات لغة معينة

سواء مات المسيح **"لأجلنا"**، أو **"عنَّا"**، فالمُتكلِّم وإنْ كان يجب عليه أنْ يحدد اللغة التي يتكلم بها، إلاَّ أنَّه لا يجب أنْ يفرض قواعد هذه اللغة على الإيمان الذي لا يعرف فكرة "التنـزيل"؛ لأنَّ العهد الجديد لم "ينـزل" بلُغةٍ معينةٍ لأنَّه عهد الله المُتجسِّد الذي أعلن ذاته في لحم ودم الإنسان وليس بواسطة كلمات وحروف.

وهكذا، فإمَّا أنْ يكون تجسُّد ابن الله إعلاناً عن الحق الذي يعلو على كل الحروف والكلمات، وإمَّا العودة إلى توراة موسى حيث تحُدِّد الكلمات القاطعة علاقة الإنسان بالله بواسطة كلمات الشريعة. أمَّا إذا مُزجَت توراة موسى باللاهوت المسيحي، فإنَّ ذلك يعطينا مزيجاً يُفسِد الإنجيل والتوراة معاً، قال عنه الرب نفسه إنَّه مثل مَن يضع الخمر الجديدة في زقاق قديم، فقوة التخمُّر تشق الزقاق، فتضيع الخمر في تراب الأرض.

٢ـ "البديل" أم "الشفيع"

بدايةً، نؤكد على أن كلمة **"بديل"** لم ترد في الكتاب المقدس ولا عند الآباء، وإنما استخدم كلاهما كلمة **"الشفيع"**. أن كلمة **بديل** هي إحدى مصطلحات العصر الوسيط، وهي كلمة غير معروفة عند الآباء، ولذلك يجب أنْ نلاحِظ أنَّ القديس اثناسيوس لم يستخدم كلمة **"البديل"** لوصف السيد المسيح، بل استخدم كلمة **"شفيع"**، وهذا هو ما نراه في الأصل اليوناني والترجمات العربية وغيرها. وهكذا ترجم الأب مرقس داود فصل ٧ : ٥ من كتاب تجسد الكلمة:

> [كان أمام كلمة اللّه مرةً أُخرى أنْ يأتي بالفاسد إلى عدم فساد، وفي نفس الوقت أنْ يوفي مطلب اللّه العادل[1] المُطالب به الجميع]

ثم تأمَّل دقة كلمات القديس اثناسيوس:

> [وحيث أنَّه هو كلمة الآب، ويفوق الكل فكان هو وحده الذي يليق بطبيعته أنْ يجُدِّد خلقة كل شيء، وأنْ يتحمل الآلام عوضاً عن الجميع، وأنْ يكون **شفيعاً** عن الجميع لدى الآب] (تجسد الكلمة فصل ٧ : ٥).

كما أنَّ العهد الجديد أيضاً لم يستخدم كلمة **"بديل"**، فالاسم غير معروف حتى في الترجمات العربية أو القبطية أو السريانية، ولم يظهر في الأصل اليوناني، ولذلك فمِن الأفضل العودة إلى اسم **"الشفيع، أو الوسيط"** فهو الاسم الإنجيلي الصحيح.

٣ـ الفرق بين الشفيع، والبديل

حسب شرح القديس اثناسيوس نفسه نرى أنَّ الشفيع هو:

---

[1] احتوى الفصل السابع علي ثلاثة مواضع استخدمت فيها الترجمة الإنجليزية - التي صدرت عن جامعة أُكسفورد١٨٩٢م والتي أخذت عنها الترجمة العربية، التي قام بها القمص مرقس داود - تعبير مطلب الله العادل، وهي علي التوالي ٧: ١ ، ٣ ، ٥ إلاَّ أنه، وبعد صدور القاموس اليوناني الخاص بأثناسيوس، والذي نشر عام١٩٥٢م وكذلك القاموس اليوناني الخاص بكل الآباء والذي نشر عام١٩٦٨م، أُعيدت ترجمة كتاب تجسد الكلمة، وصدرت الترجمة الجديدة عام١٩٧١م عن جامعة أُكسفورد، وتم تصحيح المواضع الثلاثة المشار اليها ضمن الكثير من أخطاء الترجمة القديمة، وجاءت الترجمة الجديدة مطابقة تماماً لما يريد أثناسيوس أن يقوله، وذلك بتعديل هذا التعبير إلي **ما يليق بالله، أو كرامة الله، أو ما يناسب الله** (أي ما هو خاص بصفاته وبعلاقته بنا).

أولاً: الكلمة خالق كل الأشياء.

ثانياً: يفوق الكل.

ثالثاً: خلقَ البشر على صورته.

هذه الصفات الثلاثة تقود القديس اثناسيوس في الفصل التاسع مِن كتاب تجسُّد الكلمة إلى أن يؤكد التعليم العقيدي الأُرثوذكسي السليم على هذا النحو:

[رأى الكلمة أنَّ فساد البشرية لا يمكن أنْ يَبطُل إلاَّ بالموت
كشرط لازم
وإنه مستحيل أنْ يتحمل الكلمة الموت، لأنَّه غير مائتٍ
ولأنَّه ابن الآب]

وهكذا يظهر المعنى المقصود بالشفيع:

[أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت

حتى باتحاده "بالكلمة" الذي هو فوق الجميع

يكون جديراً أنْ يموت عن الكل].(٩ : ١).

ونتيجة موت المسيح كشفيع، أو وسيط حسب اثناسيوس:

[وحتى يبقى (الناسوت) في عدم فساد
بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه ..
وحتى يتحرر الجميع مِن الفساد فيما بعد،
بنعمة القيامة مِن الأموات] (تجسد الكلمة فصل ٩ : ١).

وهكذا يحدد اثناسيوس دور الشفيع:

١ـ أنْ يبقى الناسوت في عدم فساد بسبب حلول الكلمة، لأنَّ هذا هو بذرة تحرير البشر مِن الفساد.

٢ـ أنْ يكون بسبب أُلوهية الكلمة **"فوق الجميع"**، وهذا ما يجعله **"جديراً بأنْ يموت لأجل الجميع"**.

٣ـ هو أيضاً ابن الآب **"غير مائتٍ"** وهو مساوٍ للآب في الجوهر.

فماذا حدث عندما قدَّم المسيح جسده؟ هذه هي ذات كلمات اثناسيوس:

[١. قدَّم للموت ذلك الجسد.
٢. كمحرقةٍ، وذبيحةٍ خالية مِن كل شائبة.
٣. رفع حكم الموت فوراً عن الجميع.
٤. إذ قدَّم عنهم، جسداً مماثلاً لأجسادهم".(تجسد الكلمة ٩ : ١).

٤. الـدين، والشفيع

هكذا شرح المعلِّم الإسكندري موت المسيح على الصليب، فهل ذكر القديس اثناسيوس إنَّ الرب عوقب على الصليب كبديلٍ؟. هل كان اثناسيوس يعرف تعليم العصر الوسيط؟. الجواب بكل يقين لا، والسبب في ذلك، ليس عدم المُعاصَرة التاريخية وحدها، بل التعليم الإنجيلي السليم. وهكذا يرى اثناسيوس أُلوهية الكلمة مؤكِّداً حسب كلماته:

"ولأنَّ كلمة الله مُتعالٍ فوق الجميع، فقد لاقَ به بطبيعة الحال أنْ يوفي الدين بموته، وذلك بتقديم هيكله وآنيته البشرية لأجل حياة الجميع" (تجسد الكلمة ٩ : ٢)[١].

وقد يجد الذين يدافعون عن فكر العصر الوسيط ضالتهم المفقودة في فكرة **"الدين"**[٢]، وهي كلمة مُركَّبة في اللغة اليونانية، ونحن لا نريد أنْ ندخل في شرح الجوانب اللغوية هنا لأننا خصصنا فصلاً كاملاً لذلك، وإنما نكتفي بما جاء في الترجمة العربية للأب مرقس داود حتى لا نتعب القارئ. وهنا بشكل خاص نرى ما هي جوانب الكلمة وما هو المقصود بكلمة "دين"؟.

---

(١) والعبارة الأخيرة "لأجل الجميع" تنفي تماماً دفع الثمن، فلو كان أثناسيوس يؤمن بذلك لذكره على الفور.

(٢) عندما قرأ أساتذة تاريخ العقيدة المسيحية كتابات القديس أثناسيوس، انقسموا إلى عدة طوائف: ١- طائفة حوَّلت القديس اثناسيوس إلى مدافع وشارح لكل ما جاء في لاهوت العصر الوسيط، أي دفع الثمن والفدية لله الآب. وكل هؤلاء من البروتستانت.٢- طائفة أُخرى من الأنجليكان، وعلى رأسهم أُستاذ تاريخ العقيدة المسيحية السابق في جامعة مانشتسر L.W. Grensted وأُستاذ تاريخ العقيدة السابق في جامعة كامبردج A.B. Baker قالوا إن اثناسيوس لا يعرف بالمرة فكرة الفدية، وإن دفع الثمن وترضية العدل الإلهي لا تظهر كما في الفكر اللاهوتي الغربي مثل أنسلم.٣- وطائفة ثالثة ميزت الفكر الشرقي الأُرثوذكسي الذي يميز القديس اثناسيوس عن غيره مثل أُستاذ تاريخ العقيدة المعاصر في جامعة أدنبرة T. Torrance, *The Mind Of Christ* والأستاذ السابق في جامعة درهام W.Turner, *The Patristic Doctrine Of Salvation*. وهكذا يجب أن يكون القارئ على حذر من الاتجاهات السابقة التي تخلط بين التعليم الأُرثوذكسي حسب تاريخ العقيدة الأُرثوذكسية، والإتجاهات غير الأُرثوذكسية التي حاول أساتذة اللاهوت من البروتستانت فرضها على فكر القديس اثناسيوس.

١ـ فقدان الصورة الأصلية، لأنَّ الإنسان نال ـ حسب كلمات اثناسيوس نفسه ـ عطية الصورة الإلهية **"أعطاهم (البشر) الله بصلاحه نصيباً مِن صورته ـ ربنا يسوع المسيح ـ وخلقهم على صورته ومثاله"** (تجسد الكلمة ١٦ : ٤). ويؤكد اثناسيوس إنَّ دفع الدين كان حضور صاحب الصورة نفسه لكي يجدد خلقة الإنسان الذي خلق مرة على صورته ـ أي **"إعادة ميلاد النفس"** (تجسد الكلمة ١٤ : ٢).

٢ـ ودفع الدين حسب شرح اثناسيوس نفسه في الفقرة التي وردت فيها كلمة الدين هو بكلمات اثناسيوس نفسه:

> [ألبس الجميع عدم الفساد] (تجسد الكلمة ٩ : ٢).
> [زال عنهم فساد الموت الذي كان سائداً عليهم مِن قبل.
> لأنَّه لو لم يكن الرب مخلِّص الجميع ابن الله قد جاء إلينا ،
> وحل بيننا ليضع حداً للموت، لَكان جنس البشر قد هلك]
> (تجسد الكلمة ٩ : ٤).

٥ـ الشفيع أو الوسيط، وذبيحة الصليب:

يقول اثناسيوس عن موت المسيح على الصليب في كتاب تجسد الكلمة:

> [أبطل الموت بتقديم جسده] (١٠ : ١).
> [بذبيحة جسده وضع حداً لحكم الموت] (١٠ : ٥).
> [بإنسان واحد قد ساد الموت على البشر، لهذا السبب أيضاً بَطُلَ الموت] (١٠ : ٥).

وجاء الرب يسوع إلى الصليب لكي **"يأتي بالفاسد إلى عدم فساد، وفي نفس الوقت أنْ يوفي مطلب الآب العادل المطالب به الجميع"** (٧ : ٥) أي حكم الموت.

ولكن أثناسيوس لا يسقط في بئر مشاكل العصر الوسيط، بل يقول بوضوح كافٍ:

> [لهذا أشفق على جنسنا وترفق بضعفنا، ورثى لفسادنا. وإذ
> لم يحتمل أنْ يرى الموت تصير له السيادة، لئلا تفنى به

الخليقة، ..... وإذ كان الجميع **تحت قصاص فساد الموت**[١]،
فقد بذل جسده للموت عوضاً عن الجميع، وقدَّمه للآب[٢]
كل هذا فعله شفقةً منه علينا] (٨ : ٢ ـ ٤).

ويجب هنا أن نلاحظ عبارات أثناسيوس: **"قدَّمه للآب شفقة منه علينا"**، وليس لدفع الغرامة، أو لإرضاء العدل الإلهي.

٦ـ الشفيع أو الوسيط هو صورة الآب

استخدم القديس اثناسيوس هذا التعبير الرسولي الأصيل في كتاب تجسد الكلمة عدة مرات نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

[صورة الله ربنا يسوع المسيح] (١٣ : ٧).

[كلمة الله .. صورة الآب] (١٣ : ٧).

[صورة الآب] (١٣ : ٩) ـ (٢٠ : ١).

[ابن الآب، صورة الآب] (١٤ : ٢).

وحول هذا الموضوع بالذات، يضع القديس اثناسيوس التعليم الرسولي السليم المختلف تماماً عن تعليم العصور الوسطى، ألا وهو التعليم بخلق الإنسان على صورة الله، وهو الموضوع الغائب عن مؤلفات العصر الوسيط التي تشرح موضوع الكفَّارة. في حين أننا نرى أنَّ خلق الإنسان على صورة الله عند كل الآباء هو أول مفاتيح موضوع الخلاص. وذلك كما شرحه القديس اثناسيوس في كتاب تجسد الكلمة. فمنذ بداية عرض موضوع التجسُّد يضع اثناسيوس هذا الأساس السليم الرسولي:

[اللّه صالحٌ، أو بالحري هو بالضرورة مصدر الصلاح،
والصالح لا يمكن أنْ يبخل أو يضن بأي شيء ..

---

[١] راجع النص اليوناني، والأصح هو حكم وليس قصاص الموت في فصل ٨: ٤.لأن "قصاص" كلمة عربية قرآنية خاصة بفكرة الشريعة والعقاب في الإسلام.

[٢] لا يجب أن يفهم من هذه النص أن المسيح له المجد قدم جسده إرضاءً للآب أو لكي يرضي مطالب العدل الإلهي، بل لكي **"يبطل ناموس الموت"** لأن سلطان الموت انتهى على الصليب. والجدير بالاهتمام أن اثناسيوس يقول صراحة **"قدم للموت ذلك الجسد الذي أخذه لنفسه كمحرقة وذبيحة خالية من كل شائبة"** (٧: ١).

خلق كل الأشياء مِن العدم بكلمته ـ يسوع المسيح ربنا
أشفق بصفةٍ خاصةٍ على الجنس البشري ..
خلقهم على صورته ومثاله، وأعطاهم نصيباً حتى في قوة كلمته، فصاروا
يتبعون الكلمة مثل تبعية الظل للنور، وهو ما يجعلهم عاقلين
وأنْ يبقوا في السعادة أبداً، ويحيوا الحياة الحقيقية
حياة القديسين في الفردوس] (٣ : ٣).

ويؤكد القديس اثناسيوس هذا التعليم:

"لأننا عند التحدث عن ظهور المخلص بيننا، يتحتم علينا التحدث عن أصل البشر" (٤ : ٢).

٧ـ موت الرب وقيامته ردا إلينا صورة الله

يقول اثناسيوس إنَّ صورة الله تعني:

[الشركة في قوة الكلمة وأنْ يتبع الإنسان، الكلمة مثل تبعية الظل للنور] (٣ : ٣) (٥ : ١).

[حياة منسجمة مع اللّه] (٥ : ١).

[يعيش الإنسان كاللّه] (٤ : ٦).

هذه الصورة، هي شركة آدم في طبيعة الكلمة وحصوله على قوة الكلمة، وبالتالي يصبح **الدين** و **الخطية**، هو فقدان هذه الشركة، ولذلك يقول في الفصل العشرين:

[ولما كان مِن الضروري أيضاً وفاء الدين المستحق على الجميع، لأنَّ الجميع مستحقين الموت، وهو السبب الأصلي والحقيقي الذي مِن أجله أتى المسيح ليكون بيننا، فهو غاية تجسده .. قدَّم ذبيحة نفسه أيضاً عن الجميع، إذ سلَّم هيكله للموت عوضاً عن الجميع].(فصل:٢٠ : ٢).

ولذلك كان وفاء الدين، هو رد الإنسان إلى صورة الآب، وإبادة الفساد

والموت. ويؤكد القديس اثناسيوس هذا، في الفصل التاسع[١]، وهو ما سبق وشرحناه مِن قبل. وهذا هو ما أوضح لنا أنَّه عندما فقد العصر الوسيط موضوع خلق الإنسان على صورة الله، سقط في براثن الشرح القانوني.

مع الكنيسة نقول:
المسيح مخلصنا
جاء وتألم عنا لكي بآلامه يخلصنا
من الموت والدينونة
لا من غضب
الآب

[١] **وعلاقة موت الرب بالدين هي علاقة خاصة تحتاج إلى إيضاح:** فلقد جلبت الخطية تشوُّه صورة الله.كما أخضعت الخطيةُ الإنسانَ للموت وسيادته، فجاء الرب ورفع حكم الموت بموته وبذلك وحسب عبارة اثناسيوس "يوفي الدين بموته وذلك بتقديم هيكله" ولكن إيفاء الدين هو رد الحياة، أو حسب عبارة اثناسيوس "لأجل حياة الجميع" (٩: ٢) ولذلك يقول "زال عنهم فساد الموت" (٩: ٤) "لم يكن مستطاعاً لأحد آخر ان يرد البشر عن الفساد الذي بدأ غير كلمة الله الذي خلقهم أيضاً من البدء" (١٠: ٣). "بذبيحة جسده وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا، ووضع بداية جديدة للحياة برجاء القيامة من الأموات" (١٠: ٥). وإذا كانت الخطية هي تهاون بالنعمة (١١: ٤) فهي تحول في حياة الإنسان قبل ان تكون كسراً للوصية لأن الوصية كما رأينا سابقاً أُعطيت لكي تحفظ النعمة أما النعمة فهي حسب عبارات اثناسيوس هي عطية صلاح الله "أعطاهم الله بصلاحه نصيباً من صورته - ربنا يسوع المسيح - وخلقهم على صورته ومثاله "لكن البشر اذ تهاونوا بالنعمة تركوا الله بالكلية" (١٠: ٤).

الباب الثالث

العقيدة المسيحية وحدةٌ واحدة. ذلك أنها تنبني على المسيح الواحد. ولقد سبق أنْ أشرنا إلى أنَّ مَن يمتلك فهماً صحيحاً عن الثيؤلوجيا، لابد وأنْ يأتِ تعبيره صحيحاً عن الإيكونوميا، لذلك فإنَّ الكلام في الثالوث القدُّوس، وفي العلاقة بين الأقانيم لا ينفصل عن الكلام على شخص المسيح، وعمله الخلاصي. فالتدبير أو الإيكونوميا يرتبط، وبالضرورة بالثيؤلوجيا باعتبار أنَّ المسيح مُخلِّصنا هو أحد الثالوث القدوس. ومن هنا، وعلى سبيل المثال فلا يمكن الكلام عن آلام الرب دون أنْ تكون عقيدة الثالوث، والعلاقة بين الأقانيم حاضرةٌ في الذهن، وإلاَّ جاء التعبير خارجاً عن دائرة الإيمان. كذلك، فالكلام الصحيح عن التجسُّد والصليب....إلخ لا يأتي منفصلاً عن أُلوهية الابن الكلمة، والكلام عن الابن لا ينفصل عن الكلام عن الآب محب البشر، ولا عن عمل الروح القدُّس في المعمودية والإفخارستيا، وهكذا.

هذا هو منهج الأُرثوذكسية كما استلمناه من الآباء.

ولذلك فإنَّ رحلتنا السابقة مع الكلمات والمصطلحات المشتركة بين الفكر الأُرثوذكسي، وغير الأُرثوذكسي، كانت رحلةٌ هامةٌ جداً، سيلاحِظ القارئ انعكاسها الإيجابي على موضوعات الفصول التالية، وإنْ كانت القضية ـ في النهاية ـ ليست قضية المصطلحات (رغم ضرورتها)، وإنما التعبير عن المحتوى الرسولي للإيمان كما صاغه اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي.

لقد كان الغرض الأساسي مِن رحلتنا السابقة ـ أنْ تُؤَمِّن لنا هذه الرحلة ـ كيف نفهم العقيدة المسيحية من خلال المنهج الآبائي لشرح العقيدة. وهذا هو ما اجتهدنا أنْ نقدمه في الفصول التالية. وسوف يتضح لنا إنَّ ما قلناه ليس بدعاً عندما نرى مدى الارتباط الوثيق بين موت الرب بالجسد على الصليب، وأُلوهية

الابن الكلمة. وكيف أنَّ الخلاص هو تدبير الثالوث القدوس، وليس فقط أحد الأقانيم؟ وكيف أنَّ الأسرار الكنسية، وعلى الأخص الإفخارستيا، هي عطاء هذا الحب الغير مُعبَّر عنه الذي للثالوث القدوس. لقد اجتهدنا أنْ يكون ما قدمناه عن موت المسيح على الصليب، هو التعبير الأمين للمحتوى الرسولي للإيمان، كما عبَّر عنه اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي أعمق تعبير.

فعلى مدى الفصول التالية سوف نناقش أثر تعليم العصر الوسيط عن موت المسيح على الصليب على عقيدة الثالوث، وكيف أنَّ الاضطراب في فهم أيهما يؤثر سلباً على الأُخرى. والعلاقة بين الصليب والعدل الإلهي، كما نتعرض للعلاقة بين موت الصليب، وذبائح العهد القديم، وكيف أنَّ ذبيحة المسيح لا علاقة لها على الإطلاق بالناموس الموسوي. ومِن ثم تتوفر لنا القاعدة الصحيحة التي عبَّر ـ انطلاقاً منها ـ اللاهوت الشرقي عن فهمه العميق لموت الرب بالجسد على الصليب. وأخيراً نعرض لعلاقة كل ذلك بالأسرار، وعلى الأخص، الإفخارستيا عطية المحبة الحُرة للثالوث القدوس.

الثالوث وآلام الـرب

الفرق بين آلام الرب للخلاص، وبين آلامه كعقوبة

يستند الذين ينادون بغضب الآب على الابن ــ وهـو علـى الـصليب ـ إلى آلام الرب، ويعتبرون أنَّ معاناة الجلد والصلب وكل جراح الصليب هي الدليل الدامغ على أن هذه الآلام هي نتيجة لغضب الآب. فهل حقـاً أنَّنـا خلُـصنا مِـن الموت، ومِن الخطية بعذاب وآلام ربنا يسوع المسيح؟

هناك فرقٌ جوهري بين آلام الـرب الطوعيـة الـتي قبلـها بحريتـه علـى أيـدي البشر، تلك الآلام التي تحولت إلى خلاصٍ وشفاء، واصبح الصليب معها ينبـوع حياةٍ وشفاء وخلاص، وبـين آلام جـاءت عـن طريـق الآب نفـسه عنـدما انـتقم بغضبٍ، وأشعل نار العدل في ابنه.

كلتا الصورتان لا يوجد بينما علاقة بـالمرة، فـالأولى ثابتـة في تعلـيم الرسـل وتسليم الآباء، وفي حياتنا النسكية وصلواتنا الليتورجية. والأخـرى وفـدت إلينـا مع ثقافة وحضارة الغرب، وهي تعبر عن أمراض الإنسان ومخاوفه وكراهيته. وقد وصفها كل الذين درسوها في العصر الحديث بأنها صورة السادية، فـالآب الـذي يتلذذ بتعذيب ابنه فيرضى ويستريح بعد أن يصب غضبه على ابنه الوحيد ليس هو إله الإنجيل.

إن آلام الرب الطوعية الخلاصية ليست مثل آلام التشفي الـتي يـصبها الآب على ابنه معاقباً إياه على خطايا لم يقترفها، فيجد بذلك المهـرب أو المنفـذ الـذي يرضي عدله ويريح غضبه.

لقد صُلِب الرب، وتألَّم وذُبح لأجلنـا حقـاً.. لكـن العـذاب والألم لم يخلـصا

الإنسانية لا مِـن الخطيـة، ولا مِـن الدينونـة، ولا مِـن غـضب الله المزعـوم.. لأنَّ العذاب تم بواسطة البشر. إنَّ الآب لم يصلب ابنه، لم يجلده، ولم يضربه، ومِن ثـم لم يقتله بعد ذلك مِن أجل البشر، فكل هذه تصورات مرضى بالـسادية عـن إلـه سادٍ لا يغفر إلاَّ بعد أنْ يتشفَّى وينال كفايته مِن تأمل عذاب الضحية.

وما أعظم الفرق بين أنْ يكون للآب والابن والـرُّوح القُـدس قـصداً آخـراً، وهدفاً آخراً غير قصد الرومان واليهود. فإذا اختلف القصد، اختلف قرار الإرادة، فقد قيل إنَّ اليهود «أسلموه حسداً» (مت ٢٧ : ١٨)، وهـي ذات الكلمـة "حـسداً" التي استُخدِمت للشيطان "دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس"، ولذلك لا يمكن أنْ تلتقي إرادة الله مع إرادة الشيطان وإرادة الأشرار. لا تصنع هذه الإرادات إرادة واحدة تسعى لهـدف واحـد، وإلى ذات القـصد، وإنما إرادة الله هـي إرادة مختلفـة لهدف مختلف، وقصد مختلف هو خلاص الإنسانية.

تناقض يكشف عن تداعي تعليم غير مسيحي

تأمل معي أيها القارئ العزيز:

لقد جاءت الخطية بالموت وبالألم كعقوبـة، وصـار هـذا الألم هـو أحـد سمـات الخطية نفسها حسب نص سفر التكوين (٣ : ١٧ـ٢٤). والخطيـة ليـست فقـط أحـد مصادر الألم، بل هي المصدر الأول والأخير للموت. فإذا كانت الخطية قد جـاءت بالألم والموت كعقوبة، فهل يمكن أن يصبح ألم العقوبة هو ذاته مصدراً للمغفرة؟! بمعنى إذا كان الرب قد تألم بعقوبـات الخطيـة فكيـف صـار ألم العقـاب مـصدراً للخلاص؟!

يجب أن ننتبه بكل شدة إلى أن الرب لم يتألم على يدي الآب، ولكنه تألم علـى أيدي البشر، وهذا ثابت من كل ما قيل عن صلب الرب في الأناجيـل الأربعـة، فهذه هي شهادة التاريخ لآلام الرب يسوع، ولم تضع هـذه الـشهادة الآب ضـمن معذبي الرب.

والمفارقة العجيبة حقاً أن يقال إن الألم كعقوبة جـاء بـالمغفرة، فهـذه النتيجـة لا

تتفق أبداً مع التعليم بأن الآب صب غضبه على الابن وتألم الابن مما فعله الآب ونال العدل الثمن، ففضلاً عن إن هذا التعليم ليس تعليماً مسيحياً ـ لأن العدل إذا نال حقه في القصاص كاملاً وتاماً ـ فهو ينفي تماماً وجود هذه المغفرة المزعومة.

إذن لا يمكن للألم الذي هو ثمرة للخطية، أن يصير هو ذاته سبباً للفداء، بل والفداء نفسه، هنا تختفي المحبة الإلهية بل تُداس تحت أقدام السادية.

لذا تقول كنيستنا المقدسة في أُسبوع البصخة:

"المسيح مخلصنا جاء وتألم لكي بآلامه يخلصنا"

ومرد هذه العبارة الثمينة:

"فلنمجده ونرفع اسمه؛ لأنه صنع معنا رحمةً كعظيم رحمته".

ونكتفي بشرح هذه الكلمات من عظة القديس أثناسيوس التي تقرأ في الساعة الثالثة من يوم الجمعة:

> [إن المسيح جاء بذاته، ولمحبته مات عنا.....لما أهلكنا أنفسنا بالخطية جاء وتألم عنا وأحيانا بمحبته؛ لأنه قد جاء إلينا كطبيب معلناً لنا ذاته. لأنه لم يأتِ لنا كمرضى، بل كموتى. بهذا لم يشفنا فقط نحن المرضى، بل أقامنا نحن الأموات الذين ابتلعنا الموت، ففكنا من رباطاته. لهذا مات المسيح الرب عنا لكي نحيا معه إلى الأبد، لأنه إن لم يكن الرب قد شارك البشرية آلامها، فكيف يخلص الإنسان، لأن الموت سقط تحت أقدام المسيح وانهزم وهو مسبيٌ مضطرب. والجحيم مع قواته رجع إلى الخلف لما سمع صوت الرب ينادي الأنفس قائلاً: أخرجوا من وثاقكم أيها الجالسون في الظلمة وظلال الموت، أخرجوا من وثاقكم أنا أبشركم بالحياة؛ لأني أنا هو المسيح ابن الله الأبدي]

هكذا يسلم لنا القديس أثناسيوس آلام الرب، لقد تألم بينما كان يبيد الموت، وفك الأسرى من سلطان الجحيم، وانهزم الجحيم أمامه. لقد جاءت آلام الرب من البشر بكل ما في البشر من عداوة وبغضة، ومن الشيطان العدو الذي

وصفه الرب بأنه "قاتل" عندما قال لليهود «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق.متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨ : ٤٤)، ولكنه هنا انهزم إلى الأبد في الصليب. ولذلك يقول الرسول إن الرب جاء لكي يعتق الذين كانوا كل أيام حياتهم تحت عبودية الخوف من الموت، وبالموت يبيد الذي له سلطان الموت أي إبليس (عب ٢ : ١٤)، ولم يكن الآب حليفاً للشيطان فيشعل النار في ابنه، فهذا تحالف مستحيل، ولذلك نقول مع كنيستنا الأرثوذكسية نقول:

"المسيح مخلصنا جاء وتألم لكي يخلصنا بآلامه"

حقيقة آلام الرب الطوعية الخلاصية

لقد قَبِل الرب الألم لأن الضعف ليس من طبعه، وقَبِل أن يموت والموت غريب عليه تماماً؛ لأنه الحياة. تألم الرب لأن المجد هو أحد صفاته، وهو ما تذكره صلواتنا طوال أُسبوع الآلام **"لك القوة والمجد....."**، ولكنه يقف مهاناً محكوماً عليه بالموت بواسطة البشر وهو الديان الذي يحكم ويدين كل الخليقة.

تألم الرب لأن محبته جُرحت جُرحاً أليماً قبل أنْ يجرح جسده بالسياط والمسامير، فقد أنكره بطرس، وخانه يهوذا، وهرب مرقس عرياناً في البستان.

كانت محبته تقابل بالجحود.

قداسته تواجه أفظع ما في الإنسان، وهو الشر.

قوته وضعت تحت مقاييس القوة الشريرة: "أنزل عن صليبك" و "خَلَّص آخرين" واتهام بشع "وهو لا يقدر أن يخلِّص نفسه".

تواضعه وقبوله حالتنا وموتنا، صار مناسبةً للهزؤ والضحك والتمثيل به.

قدرته على معرفة كل ما يحدث، صارت هُزؤً "تنبأ مَن الذي ضربك؟".

ولكن جاءت آلام الرب شفاءً وحياةً لنا.

تحول الصليب إلى قوة احتمال وصبر وهِبَت للشهداء.

أعلنت المحبة الجريحة روحاً وجسداً، الغفران المجاني.

أبادت قوة اللاهوت الموت لكي لا نعاني عذاب الموت، بل لكي يتحول الموت إلى خادمٍ للخلاص. ولذلك تضع الكنيسة قطع الساعة السادسة والتاسعة : **"يا مَن في اليوم السادس"** و **"يا مَن ذاق الموت بالجسد"** كمحورٍ يعلن الخلاص في أُرثوذكسية تامةٍ ظاهرة.

وينسب تقليد الكنيسة اليونانية لحن **"أومونوجنيس"** للقديس كيرلس الكبير، والبعض يعتقد أنه للإمبراطور يوستينوس، إلاَّ أن هذا اللحن بالذات نراه في كل كتب البصخة القبطية والسريانية والأرمينية واليونانية وسائر الكنائس البيزنطية. ويعلن هذا اللحن في وقار جوهر الأُرثوذكسية:

"أيها الوحيد الجنس وكلمة الله الذي لا يموت

والقابل كل شئ لأجل خلاصنا

بالموت داس الموت، وأنت أحد الثالوث القدوس

قدوس القوي الذي أظهر بالضعف ما هو أعظم من القوة

قدوس الذي لا يموت الذي صلب لأجلنا وصبر على موت الصليب

وقبِله في جسده، وهو أزلي غير مائتٍ"

وأخيراً يجب أنْ يبقى في يقظة القلب هذه الكلمات التي يختم بها الكاهن صلوات البصخة:

"يسوع المسيح إلهنا الحقيقي الذي قبل الآلام بإرادته وصلب على الصليب لأجلنا يباركنا بكل بركةٍ روحية.....".

فالقلب اليقظ يعترف بالآلام الطوعية، ويرى في الإله الحقيقي ليس ضحية غضب الآب، بل الذي صُلِبَ لكي يباركنا بموته ويعطي لنا حياته لكي نقوم فيه.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن نتائج الفكر الشائع عندنا اليوم الذي يقول أنَّ الابن الوحيد صار خطيةً، بل وخاطئٌ وقف أمام الآب نائباً عن البشرية .. ودفع ثمَن الخطية .. لا تتوافق على الإطلاق مع هذه الصلوات، ولا مع الحس الليتورجي عموماً .. وتأمَّل معي نتائج هذا التعليم:

أولاً: ينفي هذا التعليم دور المحبة في قبول الألم واحتماله من أجل الخلاص، أي ينفي الصليب نفسه، أي شريعة البذل في مواجهة الجحود؛ لأن هذا التعليم حوَّل الصليب إلى مجال للتشفي والغضب، بينما تعليم العهد الجديد برمته يتمحور حول احتمال المَحبة وصبر المحبة وقوة المحبة، لاسيما في (١كور ١٣ : ١ ـ ٧) لأن ذلك يؤكد لنا أن القديسين والشهداء الذين تألموا وصبروا وغفروا كانوا أعظم من الآب، آب الابن المعلق على الصليب الذي لا يغفر، والذي إذا نال حقه انعدمت المغفرة تماماً.

ثانياً: ولو كان الخلاص من الخطية بعقوبة الألم، وليس بقبول الألم طوعياً كجزءٍ جوهري في المحبة، وكركنٍ من شريعة الصبر والبذل، تعين علينا أن نقول إن الذين تألَّموا كثيراً إنما يخلَّصون كثيراً، والذين لم يتألموا هم بلا رجاء في الخلاص.

ثالثاً: لم يكن المسيح ـ على الصليب ـ هو رب الموت الذي ذَبَحَ الموت، وأباد الفساد بقوته، بل المغلوب الذي ذبحه الموت وقضى على حياته، بينما هو الذي أحضر لعازر مِن الهاوية، ورد له الحياة قبل أنْ يُصلب على الصليب، ومارس سلطان المغفرة قبل أنْ يموت، لأنَّه رب الحياة.

رابعاً: يموت الخطاة عندما تتوقف الحياة في أجسادهم، ويدب فيهم الفساد، لكن جسد الرب لم ير فساداً حسب البشارة التي أُذيعت يوم العنصرة "ولا رأى جسده فساداً" (أع ٢ : ٢٧) فكيف يمكن أنْ نقول إنَّ الرب مات موت الخطاة، أو موت آدم؟ لقد مات موت الخلاص، وهذا يختلف تماماً عن موت آدم وغيره، لأنَّه موت مَن هو بالطبيعة الحياة، وموت مَن غَلَبَ الفساد.

هكذا تألم الرب لكي يحول الألم إلى انتصار، ولو كان الآب هو مصدر الألم، وكان احتمال الغضب وسطوة العدل هي حقيقة آلام الرب يسوع، لقلنا بكل وضوحٍ وبلا تردد إن الصليب لم يعُد ينبوع الشفاء والخلاص، بل صار الصليب ميزانَ العدل وعلامة الانتقام والويل لمن يقبله لأنه سوف يُعامَل كما عامل الآب ابنه الوحيد.

أخيراً: إننا لا نستطيع أنْ نشرح المعمودية المقدسة، فحَسَب كلمات رسول المسيح في (رومية ٦ : ١ وما بعده)، نحن: نُصلب، نموت، نُدفن، نقوم مع المسيح. فكيف يحدث هذا لنا مع أنَّ الثمَن قد دُفع كاملاً؟ ولماذا نجوز بشكل سري مع المسيح في موته وقيامته،.إلاَّ لأنَّ الخلاص هو اتحاد المحبة بمَن هو الحياة، ولأنَّ الصليب هو أساس حياتنا وصخرة الخلاص التي مِنها نشرب ماء الحياة مثل شعب إسرائيل في البرية، صار الصليب مغروساً في قلب وفي لحم ودم كل مسيحي جاز سر المعمودية، وعبر الأردن، ودخل بوتقة الانصهار مع المسيح لكي يحيا جديداً، حياة جديدة يتغذى فيها بالسر المجيد.

ماذا تعني دموع الأنبا أرسانيوس؟

تطالعنا هذه الشخصية الفذة في حياة الكنيسة .. لقد نال عطية الدموع، وظل يبكي حتى ساعة الرحيل .. كان يعرف محبة الله، وكان يعرف شقاء وفساد الطبع البشري، ومِن خلال التلامُس مع المحبة ظل يبكي. ويا ليت كل واحد مِنا يبكي مثله.

إنْ كان الرب قد دفع الثمَن كاملاً .. فلماذا البكاء إذن؟.. ألا تصبح هذه الدموع بلا سبب أو قيمة أو فائدة؟. لو كان للخطية ثمَن لكان الأمر هيناً، ولكن الخطية هي جرح كبير في كيان الإنسان، في قلبه وفي فكره ... ولذلك علينا أنْ نبكي حتى ننال الشفاء بالاتحاد بصليب ربنا يسوع، ينبوع الشفاء، لكي تسري فينا قوة نعمة الروح القدس.

تقسيم:

على مدى هذا الفصل، وفي ثلاثة مباحث، نطرح على بساط البحث ثلاثة موضوعات. نتناول في المبحث الأوَّل العلاقة بين الله الآب، وموت الرب على الصليب طبقاً لشهادة الأسفار المقدسة، وحسب شرح الآباء لنصوص هذه الأسفار. كما نعرض في المبحث الثاني للعلاقة بين موت المسيح على الصليب، ومطالب الناموس، وكيف أنَّ تطبيق الناموس على المسيح هو بذاته تعليم الهرطقة النسطورية. وفي مبحث ثالثٍ وأخير نعرض للنظرة الصحيحة لدم المسيح في صلوات الكنيسة.

الله الآب
وموت ربنا يسوع المسيح على الصليب
حسب شهادة الأسفار المقدسة

لمحة من تعليم معاصر:

في معرض حديثه عن العلاقة بين أقانيم الثالوث، يشرح أحد كبار الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس المحدثين عمل الثالوث في الصلب، فيقول:

> *"....لكن بالنسبة للسيد المسيح، كان هو الكاهن، وهو الذبيحة في آن واحد..فمارس كهنوته بالرُّوح القُدس، وقدم الذبيحة بالرُّوح القُدس، عشان كله بيقول بروح أزلي قدم نفسه لله، قدم نفسه بمعني هو الكاهن وهو الذبيحة.....يبقي على الصليب كله مشهد عجيب جداً.....انه على الصليب، الابن رافع ايديه كله بيصلي كرئيس كهنة وجسمه بينزف دم، مَنظر لطيف، موش لطيف إن اليهود عملوا فيه كله، لأ، أنا قصدي مِن ناحية الرؤية اللاهوتية للموضوع، انه بينزف دم، أهوه ذبيحة، ورافع ايديه وواقف على رجليه، لأنَّ المسمار شابك في رجليه الأتنين، وهو أيه، متكي على المسمار عشان يقدر ياخد نفَسه، والاَّ ما يقدرش يتنفس لما يتعلق مِن ايديه، فواقف، واقف فعلاً على المسمار وشايل نفسه لفوق كله وفاتح ايديه وبيصلى، يبقى ذبيحة هي نفسها رئيس*

الكهنة، او رئيس الكهنة هو نفسه، أحسن، ذبيحة، وبعدين الآب في السما سُر بأن يسحقه بالحزن، جعل نفسه ذبيحة إثم، بيتنسم وقت المساء على الجلجثة رائحة رضى وسرور، وبعدين النار اللى كانت بتتولع تحت كل الذبائح، الحطب، اللى هو الصليب، طب الحطب اللى هو الصليب، الخشب، والذبيحة أهى متعلقة على الخشب، طب فين النار اللى بتُصعد الذبيحة عشان تطلع رائحة الشَّي، ريحة اللحمة المشوية، فين النار هنا؟ هوَّ الرُّوح القُدُّس. المَنظر ده بقى، هو ان الإبن بيقدم نفسه بالروح القدس للآب، آدي الثالوث، موش ممكن واحد يشتغل منفصل عن الأتنين التانيين أبداً، بس كل واحد دور، والسبب في كله أيه؟ السبب في كله إن لو كل واحد مش آخد دور، انا هاتلخبط، لو الإبن قدم نفسه لنفسه موش هافهم حاجة، لازم واحد ياخد دور إن هوَّ غضبان بسبب خطايا البشر، وعايز يتراضى، والتاني ياخد دور إنه بيقوله معلش سامحهم، أنا قدمت نفسي فداءً عنهم...... ".

ونحن لا نستطيع أنْ نترك هذا الكلام يمر دون التعليق عليه؛ لأن هذا الشرح ليس إلاَّ خيالاً جامحاً لا يمت للمسيحية بصلة، وذلك لأنه:

أولاً: لا يعرف المتكلم أنَّ العهد القديم لا يشرح العهد الجديد؛ لأن الظلال لا تفسر النور.

ثانياً: إنَّ هذا الشرح غريب عن لُغة الأسفار، وكلمات الوحي، لأن الآب لم يكن في أي وقت يُسر بـ "ريحة اللحمة المشوية"!!!.

ثالثاً: إنَّ هذا الشرح يهدم عقيدة الثالوث، لأنه ينسب للابن صلاةً أريوسية الجوهر واللفظ: "معلهش سامحهم"، وهو توسلٌ لا يليق بالابن المساوي للآب، ولا وجود له أو لما يشبهه في الأسفار، لا سيما كلمة

"معلهش" التي لا تليق بمقام الرب[١].

رابعاً: يعمل كل أُقنوم بإرادةٍ واحدة هي إرادة الثالوث القدوس، بينما هذا التعليم يفصل وحدة جوهر الثالوث.

خامساً: قدم الابن ذاته على الصليب بالروح القدس لأنه مُسح بالروح القدس في المعمودية في الأردن، ولذلك دُعيَ "المسيح" فيما كان معلقاً على الصليب أيضاً، وهو لا يزال يقدم لنا ذاته بالروح القدس في الإفخارستيا.

سادساً: إنَّ تفسير أحداث الخلاص في العهد الجديد، لا سيما موت الرب على عود الصليب، بإخضاعها لطقوس الشريعة الموسوية ونظام الذبائح ينطوي على خطورةٍ تؤدي إلى إنكارٍ صارخٍ للعطايا والنعم الإلهية التي لم تُوهَب كثمرة من ثمرات حفظ النَاموس، بل أُعطيت كل النعم حسب جود الله وصلاحه.

سابعاً: أمَّا تحول الروح القدس إلى نار لكي تحرق الذبيحة، فهو خطأ عقيدي ظاهر، لأن الروح القدس ظهر في شكل حمامة، دون أنْ يتحول إلى حمامة. وظهر في شكل ألسنة نارية دون أنْ يتحول إلى ألسنة نارية. وفضلاً عن ذلك، فلكي يحترق ناسوت الرب، وهو جسد بشري مثل أجسادنا في نار الروح القدس يجب أنْ يتحول الروح القدس إلى نار مادية تحرق الجسد، وهو ما يعني تحولاً في طبيعة لاهوت الروح القدس.

ثامناً: أمَّا الجدير بالذكر والذي ينطوي تحته كل ما سبق، هو أنَّ الأناجيل الأربعة التي دَوَّنت صلبوت الرب لم تذكر ما ذكره هذا المعلم، فكيف سمح لنفسه بتدوين إنجيل خامس مزيف لا أساس له في التاريخ، ولا في تقليد الكنيسة، وهو الأمر الذي يدمر الأُرثوذكسية.

---

[١] لكن عبارة الرب"يا أبتاه اغفر لهم.." هي عبارة العزة والجلال وسلطان من هو مساوٍ للآب في الجوهر، أمَّا كلمة "معلهش"، فهي عبارة الانكسار والتوسل الذي يتسلل إلى حياتنا الروحية من خلال علاقاتنا الاجتماعية التي يسود فيها العنف والقسوة والتشفي والتسلط باعتبارها أهم دعامات التربية في بعض الأسر.

تقسيم

سيدي القارئ أينما كنت، ومهما كنت، إنَّ مسئوليتك الأولى هي أنْ تقرأ الكتاب المقدس بكل دقة ممكنة .. فليس كل ما يُقال مِن وعظ، وما يُكتب مِن كُتب له علاقة بالمسيحية، أو بكلمة الله، لذلك ندعوك إلى أنْ تقرأ بكل بعناية وكل دقة ما تذكره كلمة الله عن موقف وعلاقة الآب بالابن، وهو على الصليب.

لا تحشر فكرك الشخصي في كلمة الله، ولا تفرض على كلمة الله ما هو غير مكتوب، ولا هو غير ظاهر في كلمات الوحي المُقدَّس .. بل حاول أنْ تجعل كلمة الله تقرأ فكرك، وتفرض على فكرك ما سلَّمه الآباء الرسل من إيمان.

وفي ضوء ما تقدم، تنقسم دراستنا في هذا المبحث إلى فرعين: خصصنا الأول منهما لشهادة نصوص الكتاب المقدس لعلاقة المحبة الأُقنومية والمساواة بين الابن والآب، وكيف أن هذه العلاقة هي أساس إيماننا بالتجسد، وبموت الرب المحيي على الصليب. وسوف نقصر دراستنا أولاً على بعض النصوص عند القديس يوحنا الرسول وشرح القديس كيرلس لهذه النصوص. وثانياً نعرض لشهادة القديس بولس الرسول عن أن الشريعة اليهودية ليس لها أي دور في موت المسيح الصليب وبالتالي ليس هناك مجال لتطبيق طقوس تقديم ذبائح الناموس على ذبيحة الصليب.

أمَّا الفرع الثاني فقد خصصناه لمناقشة موضوع على قدر كبير من الأهمية، وهو علاقة الخطية بالموت، وكيف أنَّ الخطية هي التي أدخلت الموت إلى العالم، وبالتالي أصبح الموت هو أساس خطية كل الذين لم يخطئوا على مثال خطية آدم، ومن ثم نغتنم هذه الفرصة الثمينة لنقطع قول كل مَن يظن ـ إنْ خطأً أو صواباً ـ إنَّ الله هو مَن خلق الموت. وكعادتنا التي لا نمل منها، سوف نناقش كل ذلك من خلال نصوص الآباء في الشرق، وذلك حتى نضع أمام القارئ العزيز التعليم الأُرثوذكسي الشرقي الصحيح.

محبة الآب وموت المسيح في الكتاب المقدس

أولاً: شهادة إنجيل يوحنا عن محبة الآب

يتناول إنجيل مُعلِّمنا يوحنا بشيءٍ مِن التفصيل حديث الرب مع مُعلِّم إسرائيل نيقوديموس الذي لا يعرف شيئاً عن معنى الفداء، حيث يشرح له الربُ الفداءَ والخلاص مِن خلال حادثة خلاص بني إسرائيل مِن الحيات، فيقول: «كما رفع موسى الحية في البرية. هكذا ينبغي أنْ يُرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل مَن يؤمِن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣ : ١٤ـ ١٥). فهل تقول الكلمات المُقدَّسة إنَّ الرب والإله الآب ضابط الكل هو الذي سوف يرفع الابن كما رفع موسى الحية؟ أليست الكلمات ظاهرة، وهي تؤكد أنَّ الذين سوف يرفعون الرب على الصليب هم أولاد وتلاميذ موسى حسب شهادة التاريخ والأناجيل الأربعة .. أليس هو بيلاطس الذي نذكره في قانون الإيمان، وصلاة الاعتراف الأخير في قداسات كنيستنا؟ هل تذكر هذه الكلمات إنَّ الآب صب غضبه على الابن؟ وطبعاً الجواب بالنفي.

يقول مُعلِّمنا يوحنا: **"**لأنَّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَن يؤمِن به، بل تكون له الحيـاة الأبدية، لأنَّه لم يُرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليُخلِّص العالم به**"**(يوحنا٣ : ١٦ـ١٧). هل يُعقل إذن أنْ يحب الآب العالم، ويكره الابن، بل ويغضب عليه عند الصليب؟ هل هذا وارد في هذه الكلمات المقدسة؟

١ـ شرح القديس كيرلس للنص المشهور عن محبة الآب في (يوحنا٣ : ١٦)

يقول القديس يوحنا: **"**هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد**"**، فما هو

المعنى الأُرثوذكسي للبذل. يقول القديس كيرلس:

[يرغب الإنجيلي في أنْ يُعلِن لنا صراحةً، أنَّ الابن هو الله بالطبيعة، لأنَّه حقاً جاء مِن عند الله الآب. وبكل يقين، هو إله أيضاً الذي لا ينال كرامةً مِن الخارج تُضاف إليه مثلنا نحن البشر، بل كرامته الإلهية حسب حق طبيعته التي نؤمِن نحن بها. ويقول الرب بكل حكمة ومهارة فائقة بعد أنْ جمعنا *Joined* في محبة الله الآب، هذه الكلمات لكي يُخجِل نيقوديموس غير المؤمِن .. لأنَّ نيقوديموس لم يكن لديه استعداد للإيمان، .. وبالإضافة إلى (تعلِّيم نيقوديموس)، يقول، إنَّه هو (أي المسيح) قد أُعطي *given* مِن أجل حياة العالم .. وعلى عدو المسيح أنْ يسمع هذه الكلمات مرةً ثانيةً، لكي يُدرِك عظمة محبة الله الآب .. ولكي تظهر عظمة محبة الله الآب، وتبقى *Preserved* لنا، فعلى الهرطوقي أنْ يؤمِن بأنَّه الابن، وإنَّه ليس وأحداً مِن المخلوقات، وأنا أعني بكلمة الابن، الابن الذي مِن ذات جوهر الآب، أي الواحد معه، مع الآب الذي ولده، والذي هو حقاً الإله. ولكن إذا كانت كلمات تعليمك تقول، إن الابن ليس له ذات جوهر الآب، فإن هذه الكلمات تعني شيئاً واحداً، وهو أنَّ الابن ليس هو الابن ولا هو الإله، وهنا تزول الدهشة والإعجاب بمحبة الله الآب، بل وتنتهي إلى لا شيء، لأنَّ الآب قدَّم، أو بذل مخلوقاً مثل سائر المخلوقات، وليس ابنه، ويصبح عبثاً تحذير بولس لنا في كلماته؛ مَن خالف ناموس موسى، فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة. فكم عقاباً أشر تظنون أنَّه يحُسَب مستحقاً مَن داس ابن الله، وحَسِب دم العهد الذي قُدِّس به دنساً، وازدرى بروح النعمة" (عب ١١ : ٢٨ ـ ٢٩) .. أمَّا الحقيقة الساطعة، فهي عظمة محبة الله الآب التي تسمو على محبة كل الطبائع المخلوقة لأنَّه بذل لأجل حياة العالم، ابنه الوحيد **الذي هو مِنه** *who is of Himself*]

(شـرح إنجيـل يوحنـا الترجمـة الإنجليزيـة المجلـد الأول، الكتـاب الثاني، الفصل الأول ص ١٧٤ـ١٧٥).

يقدم لنا القديس كيرلس الجوهرة الثمينة للأرثوذكسية:

* المسيحُ أُعطيَ من أجل حياة العالم.

* محبة الله الآب التي تسمو على محبة كل الطبائع المخلوقة لأنه بذل ابنه الوحيد الذي هو منه لأجل حياة العالم

فهل يذكر القديس كيرلس غضب الآب وعدله وناره التي تحرق الابن، وتحُوِّله إلى رمادٍ؟ أم يتمسك القديس كيرلس بوحدة جوهر الآب والابن، وبالتالي بوحدة المحبة الإلهية التي لا تُصب بالعطب ساعة الفداء. لأنَّ وحدة المحبة الإلهية هي ذات وحدة الجوهر الإلهي، ووحدة الجوهر الإلهي هي ذات الاعتراف بأنَّ الثالوث هو إله واحد، محبةٌ واحدة، وجوهر واحد.

أين الانتقام والتعذيب والغضب الذي يحوِّل محبة الآب، ويجعلها غير محبة الابن ... وهل كان الغضب مِن جانب الآب، هو الذي غيَّر محبة الآب للابن، وجعل محبة العالم أعظم وأفضل مِن الابن القدوس الذي بلا شر الذي لم يخُطئ "ولا وجد في فمه غِشٌ"، وبالتالي يكون الآب قد فَضَّل العالم الخاطئ على ابنه الوحيد؟ أم أنَّ المحبة الإلهية ظلت كما هي بدون انقسام؟

تأمل أيها القارئ، كيف استطاعت الخطية أنْ تفصل محبة الله الثالوث، وتجعل الآبَ غاضباً، وعندما يدفع الابن الثمَن، يهدأ غضب الآب؟. تماماً مثل الزوج الذي يثور، ويضرب الأولاد، فتقف الأُم، أو الابن الكبير لكي يأخذ "العلقة" عوضاً عن الأولاد .. صورة سلوك اجتماعي تُسقَط على الله .. أو صورة أُخرى للرئيس الغاضب، يصب جام غضبه، أو الأُسقف يجرد راهباً، أو كاهناً يأخذ "العلقة" عوضاً عن شخص آخر ، فيرتاح الرئيس، أو الأُسقف لأنَّه أفرغ شحنة غضبه، ورمى ثقل الغضب، وتم فداء ذلك الغاضب. أليست هذه هي الوثنية الجديدة؟ .. أليس هذا تحوُّلٌ لصورة الله إلى صورة انحطاط وسقوط الجنس البشري .. وماذا تكون هذه الوثنية الجديدة التي تُعطي قداسةً للغضب، والانتقام،

وتُعطي شرعية إلهية للعقوبة كطريق للخلاص، مع أنَّ الخلاص هو أصلاً خلاص مِن العقوبة **"حوَّلت لي العقوبة خلاصاً"** (القداس الغريغوري).

"لم يُرسل الله ابنه إلى العالم لكي يدين به العالم، بل ليُخلِّص به العالم" (**يوحنا ٣ : ١٧**) هل كان يجب على الرب، أو على الإنجيلي الذي نقل كلمات الرب أنْ يقول: **"**لم يرسل الله ابنه إلى العالم لكي يدين به العالم، بل ليخلص به العالم لأنَّ الدينونة قد وُضِعَت على الابن، وانتقلت دينونة العالم إلى الابن، لأنَّ الابن أُدين كخاطئ**"**؟ إنَّ هذا الكلام لم يكتب، بل كُتِبَ عكسه تماماً.

٢ـ شرح القديس كيرلس عمود الدين لنص يوحنا (٣ : ١٧)

يقول القديس كيرلس:

> [علانيةً دعى نفسه ابن الله الآب، ولم يُفَضِّل أنْ يتركنا دون كلمة شهادة، بل أنْ يؤكد لنا برهان مساواته للآب... ولذلك يقول لنا إنه لم يُرسَل مثل موسى واضع الناموس (حرفياً الذي توسع في شرح الناموس) لكي يدين العالم بواسطة الناموس ويضع الوصايا التي تحكم على الخطايا، ولم آت لكي أقوم بخدمة العبيد، بل لكي أخدم خدمة المحبة التي تليق بالسيد. أنا أُحرر الأسرى، ولأنَّني الابن الوارث، فأنا أنقل الناموس (الشريعة) التي تحكم على الخطاة إلى نعمةٍ تُبرِّر، أنا أُحرر مِن الخطية كل الذين ربطتهم الخطية بحبال التعدي (راجع أمثال ٥ : ٢٢) جئت لكي أُخلِّص العالم، وليس لكي أُدين العالم. وما قاله هو الحق لأنَّ موسى كخادمٍ، خدم الناموس الذي يحكم ويدين، ولكن أنا كابن وكإله، أُحرر العالم كله مِن لعنة الناموس بمحبة فائقة للبشرية، وأشفي ضعف ومرض العالم] (المرجع السابق ص ١٧٥).

وحقاً يقول الرب بعد ذلك «إنَّ النور قد جاء إلى العالم» (يوحنا ٣ : ١٩) فإذا كان الرب قد جاء إلى العالم كنورٍ، فكيف يتفق ذلك مع كلام مَن يقولون إنه جاء

لكي يحمل ظلمة، وغضب، وانتقام إله لا يعرف الرحمة، ولا يُمِّيز مقام ابنه المصلوب على الصليب؟.ألا يتحوَّل الابن بذلك، إلى ظُلمةٍ،إذ صار خاطئاً؟.

"الآب يحب الابن، وقد دفع كل شيء إلى يده .. الذي لا يؤمِن بالابن لن يرى حياة، بل يمكث عليه غضب الله" (يوحنا ٣ : ٣٥-٣٦) ماذا نقول عن هذه الكلمات. فإمَّا أنَّ الرب احتمل غضب الآب، وبالتالي فبعد أنْ دفع ثمَن خطايا البشرية، لم يعُد لغضب الآب على غير المؤمنين مجال .. وهذا هو مَنطق القانون الوضعي والقانون التجاري، وإمَّا أننا وصلنا إلى الحد الذي نقول فيه إن الرب مات عن المؤمنين فقط، وهو أحد بدع البروتستانتية التي تنكرها البروتستانتية نفسها[1].

لم نر في العهد الجديد كله عبارة واحد تقول إنَّ الآب غَضِب على الابن. بل "الآب يحب الابن"، وهو على الصليب مصلوباً، ولأنَّه يحبه فقد دفع إليه كل شيء قبل خلق العالم.

٣ـ شرح القديس كيرلس لنص "الآب يحب الابن" (يوحنا ٣ : ٣٥ ـ ٣٦)

يقول القديس كيرلس:

> "نحن لا نحُزِن اللّه الآب عندما نخلع على الابن ذات الكرامة التي نقدِّمها للآب الذي وُلِدَ مِنه، ولن نتعدَّى ونخُطئ إذا وضعنا، وكللنا بأكاليل المجد اللائق باللّه الآب، الابن الذي مِن جوهره، والوارث لكل خيرات وصلاح الآب، لأنَّ اللّه الآب يحب ابنه، بل سوف يُسَّر عندما نمجد ابنه، ويحزن إذا حدث العكس. ولا يجب أنْ يفترضَ أحدٌ أنَّ الآب أعطى ابنه، الوارث لكل مجد لاهوته، وراثة المجد فقط، بل قد دفع كل شئ إلى يديه، أي إنَّ كل ما هو صالح في الآب، وُضِعَ تحت سلطان وقوة الابن، التي تُدعى

---

[1] تفرعت هذه البدعة عن مذهب يوحنا كالفن، وهي تُعرف باسم الكفارة المحدودة، وهي بدعة تؤكد أن المسيح مات من أجل المختارين فقط، ولم يمُت من أجل العالم كله.- راجع البحث التاريخي واللاهوتي الذي نشره James Torrance أستاذ التاريخ واللاهوت في جامعة أدنبرة بريطانيا بعنوان: "The Atonement", 1970 ".

حسب لغة الأسفار بـ "اليد"، مثلما يقول الله لواحد مِن الأنبياء "يدي اليمنى بسطت السموات" (أشعياء ٤٦ : ١٣) وهنا استخدام كلمة اليد بدلاً مِن كلمة القوة. ولكن الابن له في ذاته كل صفات الآب ..] (المرجع السابق فصل ٤ ص ١٩٥).

٤ـ "غضب الله" حسب شرح القديس كيرلس

[يقول الإنجيلي إنَّ غضب الله هو الموت، وهو هنا يُقارِن بين دينونة وعقاب غير المؤمِنين والخطاة، بسعادة القديسين، ويصف سعادة القديسين بأنَّها حياة، لأنَّها حياةً حقيقيةً في المجد مع المسيح، وعذاب الخطاة هو غضب الله. والعقوبة أحياناً توصف بأنَّها غضب الله في الأسفار المُقدَّسة. وأُقدِّم هنا شاهدين، وهما بولس ويوحنا، ويقول الأول عن الذين عادوا إلى الإيمان مِن الأُمم «كنا أبناء الغضب حسب الطبيعة مثل الباقين» (أفسس ٢ : ٣) والآخر يقول للكتبة والفريسيين «يا أولاد الأفاعي مِن حذركم مِن أن تهربوا مِن الغضب الآتي »(متى ٣ : ٧)]. (المرجع السابق ص ٢٠٠).

وإذا كان الآب أعطى كل الدينونة للابن، فكيف حكم عليه وأدانه كخاطئ على الصليب؟!!!. وبينما يقول القديس يوحنا الحبيب: **"الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن"** (يوحنا ٥ : ٢٢). نجد أنَّ التعليم الشائع عندنا يقول: إن الآب أشعل نار العدل على الصليب في ابنه الوحيد .. فإذا طبقنا النص السابق، ألا يجب أنْ نحسب الابن ضمِن كلمة **"أحداً"**؟... عجيب حقاً قولك أيها المُخلِّص، كيف أُعطيتَ سلطان الدينونة، وأنت واقعٌ تحت ثقلها؟ .. كيف أُعطيتَ هذا السلطان، وأنت خاطئ أمام الآب؟ .. ومتى أعطاك كل الدينونة، هل قَبْل الصليب حسب كلماتك هذه؟. فكيف كان لك سلطان وقوة الدينونة، في حين أنك ـ عند الصليب ـ كنت تسدد حساب خطايا البشر؟!!!.

٥ـ شرح القديس كيرلس الإسكندري لنص يوحنا ٥ : ٢٢

[يقدِّم لنا الربُ البرهان الإلهي الفائق على أنَّه بالطبيعة وبالحق الإله، لكي يقود السامعين إلى الإيمان به. ومَن ذا الذي يمكنه أنْ يدين العالم إلاَّ إياه وحده اللّه الكائن على الكل، والذي تقول عنه الأسفار الإلهية في موضع معين «قم يا اللّه، دِن الأرض» (مز ٨٢ : ٥) وأيضاً «اللّه هو الديان، يرفع ويُذل» (مز ٧٥ : ٧) ولكن إذا قال إن الدينونة قد أُعطيت له مِن الآب، فهذا لا يعني أنَّه بلا سلطان، وإنما "أُعطيت" هو **تعبير خاص بتدبير التجسُّد**، لأنَّ الابن المُتجسِّد كإنسان أخذ. ولذلك كل ما يخص الطبيعة الإلهية ينسب إليه في التدبير، لأنَّه الكلمة والإله الذي له سلطان ذاتي ينبع مِنه، ولا يُعطي له مِن الخارج، ولكن لأنَّه تجسد وصار إنساناً، وعن الإنسان قيل "وما الذي لك ولم تأخذه" (١ كور ٤ : ٧)، وهو هنا يؤكد بشكلٍ يليق أنَّه أخذ سلطان الدينونة. وعن هذه الكلمات قال واحدٌ مِن المعارضين لنا (**نسطور**):

«*لقد أعلن الابن صراحةً إنَّه أخذ سلطان الدينونة مِن الآب، وحيث أنَّه أخذ، بات مِن الضروري أنْ نقول إنه لم يكن يملك سلطان الدينونة. فكيف لا يكون مَن يُعطي أعظم مِن الذي يأخذ، وله طبيعة وسلطان يفوق سلطان مَن يأخذ*» (هنا انتهى الاقتباس مِن عظة مِن عظات نسطور) ـ

ويجيب القديس كيرلس على هذا قائلاً: [مِن المناسب للتدبير أنْ يقال عن الابن أنَّه حسب تدبير التجسُّد، وُصِفَ بأنَّه "عبدٌ" عندما وضع نفسه، وأطاع وصار مثلنا .. وأولاً يجب أنْ نقول إن مَن يُعطي ليس بالضرورة أعظم مِن الذي يأخذ، لأنَّ المرنم القديس يقول "أعطوا مجد اللّه" (مزمور ٦٨ : ٣٤) فهل يعني هذا أن اللّه يحتاج إلى مجدٍ نقدمه له، وإننا نحن الذين نُعطي له المجد أعظم مِن خالقنا؟..

(الفصل السابع ـ المرجع السابق ص ٢٥٨ـ٢٥٩).

وتكفينا كلمات الرب نفسه الذي يقول بفمه الإلهي "لكي يكرم الجميع الابن، كما يكرمون الآب. مَن لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله" (يو ٥ : ٢٣). فأين كرامة الابن الذي تحول إلى رمادٍ في الوقت الذي يقوم فيه بخدمة الخلاص:

"أنت الذي خدمت ليَّ الخلاص لما خالفت ناموسك".

(القداس الغريغوري).

ثانياً: موت الرب وشريعة العهد القديم عند القديس بولس الرسول

لا تقرأ كنيستنا المقدسة، ولا سائر الكنائس الأُرثوذكسية الأُخرى العهد القديم إلاَّ في الصوم الكبير وأسبوع الآلام. أمَّا على مدار السنة، فهي تقرأ العهد الجديد وحده. هذا الترتيب الطقسي[1] لكل الكنائس الأُرثوذكسية يحتم علينا أن نراجع كل ما نقوله عن العهـد القديم؛ لأن الظلال لا تتساوى مع النور. وكما هو معروف تاريخياً، كان يوحنا كالفن هو أول مَن قال إن العهد القديم يتساوى مع العهد الجديد، وعن اخوتنا البروتستانت نقل البعض هذا المبدأ بلا تمييز. وهذا هو ما سوف يتضح لنا من خلال استعراضنا لشهادة القديس بولس الرسول عن موت الرب.

يقول الرسول بولس في رسالته إلى رومية:."وأمَّا الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس مشهوداً له مِن الناموس والأنبياء" (رو ٣ : ٢١). ومع أننا نواجه مشكلةً لُغويةً خاصةً بكلمة **"بر"** في اللغة العربية، ـ حيث أنها تعني في اليونانية **"عدل"** أو**"صدق"** وذلك حسب أصلها العبراني في العهد القديم، لأنَّ العدل هو إصلاح المائل "إعدل"، وهو الصدق، ومِنه جاءت كلمة "صدقة"، هو تقديم ما هو "حق، وصدق" للمُحتاج والفقير؛ لأنَّه حقٌ نص عليه الناموس. هو حقٌ مشروع ـ وليس مجرد تعطُّفٌ، وتنازلٌ مِن المُعطي ـ إلاَّ أنه، ومهما كان معنى كلمة "بر"، فإن

[1] العهد القديم يُقرأ في الصوم الكبير وأسبوع البصخة فقط لأنه موسم إعداد الموعوظين للمعمودية حسب الترتيب الكنسي القديم. أمَّا ما عدا ذلك فهو لا يتدخل في قداسات وممارسات الكنائس لأنه لا يعطي لنا أي تعليم عن الإفخارستيا، ولذلك لا تقرأ أي فصول من العهد القديم في خدمة الأسرار إلاَّ نادراً لأن الأسرار هي ترتيب العهد الجديد الذي لا وجود له في العهد القديم إلاَّ من خلال الرموز وبعض النبوات.

أعظم ما يذكره الرسول بولس هو هذه الكلمات السابقة في رو ٣ : ٢١.

١ـ هل كان لشريعة العهد القديم دورٌ في موت الرب على الصليب؟

لم يكن للناموس أي دور، أو وصاية، ولم يكن بالناموس "نصٌ" عن موت الابن الوحيد على الصليب. هذه هي الحقيقة التي لا يريد لها قادة كنائس كثيرة أنْ تُذَع؛ لأنَّ نعمة وصلاح الله وهبة محبته يجب ـ من وجهة نظرهم ـ أنْ تخضع للشريعة، حتى تخدم المسيحية النظام السياسي للإمبراطورية، وحتى لا تصبح المحبة الإلهيةُ شاهداً على استبداد وقهر النظم السياسية التي تقمع الإنسان. ولذلك تتقدس القسوة في الكنيسة، وتصبح أداة خلاص لأن الآبَ إله "قاسٍ".

فلك أن تتصور قارئي العزيز، إنّه بينما يتطوع الخالق العظيم بملء محبته وحريته لكي يخُلِّص الإنسانية مِن حفرة الموت دون أي إلزام شرعي، ودون أي نص مِن الشريعة ـ ويكون ذلك هو أقصى تعبير عن تنازل الله، وعظمة المحبة الإلهية ـ يقوم هؤلاء القادة بطمس هذه المحبة، وإخفاء جمال العطاء الإلهي تحت ستار الناموس الموسوي، لكي لا ينال الناس هبة الله، حتى لا تقوى فيهم حرية العطاء، وحتى لا يسود البذل المجاني في المجتمع، فلا يُبرز ذلك قُبح وفساد السلطان المزيف الذي سرقه هؤلاء باسم الله، بينما يضع الله نفسه، ذاته ومحبته بلا قيود وبلا شروط.

لقد ظهر عدل الله بدون الناموس فعلاً.

فهل ورد في العهد القديم، نصٌ يقول، إنه يجب على الله الآب أنْ يُقدِّم ابنه؟

ولأنَّ الناموس جاء بالرموز والظلال عن ذبيحة ربنا يسوع المسيح، فقد وقع كثيرون في فخ تفسير النور حسب الظلال والرموز، مع أنَّ الذي يشرح الظل هو النور، والمثالُ فارغٌ بدون الحقيقة .. ولأنَّ خرافاتٍ قبطيةٍ كثيرةٍ عن ذبائح العهد القديم أُخذت من تفاسير الإرساليات، ونُشِرت في كُتب وعظات البعض من مُعلِّمي هذا الزمان الصعب، بات مِن الضروري أنْ نشرح ذبائح العهد القديم كما شرحها الآباء، وكما وردت في الكتاب المقدس.

٢ـ "بدون الناموس"

ظهر بر الله بدون الناموس، لأنَّ الناموس لا يملك أنْ يطلب دم ابن الله، لأنَّ ابن الله هو واضع الناموس، ولأن الله لا يضع قيداً وإلزاماً على نفسه لا يتفق مع طبيعة محبته، ولأن الناموس ليس أعظم من الله.

لقد التزم الله في كل العهد القديم: **أولاً**: بما حلف به، أي القَسَم. و**ثانياً**: بما وعد به، أي الموعد. وهما حسب كلمات رسالة بولس إلى العبرانيين أمرين عديمي التغير (عب ٦ : ١٨).

لكن الناموس ليس قَسَماً، ولا وعداً، ولذلك يقول الرسول **"لأنَّه إنْ تغيَّر الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيُّر للناموس أيضاً"** (عب ٧ : ١٢)، وهنا يظهر لنا أنَّ الناموس كوسيط بين الله والإنسان قد فقد دوره تماماً بمجيء الابن الكلمة، وتجسده مِن البتول والدة الإله القديسة مريم، ولذلك قام كاهنٌ جديد "ليس بحسب الناموس"، ليس بحسب "وصية جسدية، بل بحسب قوة حياة لا تزول" (عب ٧ : ١٦).

بدون الناموس ظهر عدل الله، وظهر في المسيح، والمسيح ليس شريعةً، بل هو إبن الله، واضع الناموس ومشرع كل شئ. وظهور عدل الله في يسوع المسيح ربنا هو لكل البشرية، ليس لليهود فقط، لأنَّه "بدون الناموس" قد ظهر، بل وللأُمم أيضاً لأن "الجميع أخطئوا، وأعوزهم مجد الله".

٣ـ شرح آباء الكنيسة الجامعة لنص رومية ٣ : ٢١

أـ يقول القديس أمبروسيوس:

> لمـن الواضـح أن بـر اللّه أو (عـدل اللّه) قـد ظهـر الآن بـدون الناموس، وهـذا يعني نـاموس حفـظ السبت والختـان وهـلال الشهر الجديد، وشـريعة دفـع التعويضات في حـالات التعـدي. ولكـن بـر اللّه لم يفـترق عـن أُلوهيتـه وسـره الأزلـي؛ لأن بـر اللّه لا يمكـن فصله عن أعمـال أُلوهيتـه. وحيـث أن النـاموس يحفظ الذين يتعدون تحت حكـم الـذنوب، فـإن بـر اللّه غفـر هـذه الـذنوب بـدون النـاموس إلى أن أُعطـي النـاموس لكـي

يشهد الناموس على غفران اللّه. وحتى لا يظن أحد أن بولس يقول إنَّ الغفران هو ضد الناموس، أضاف بولس إنَّ عدل اللّه أو بر اللّه له شهادة من الناموس والأنبياء، وهذا يعني أن الناموس نفسه يشهد بمجيء شخص في مستقبل الأيام لكي يخلص البشر، رغم أن الناموس لا يسمح بغفران الخطايا. هكذا ما يُدعى هنا بـ "بر اللّه" هو إعلان رحمته؛ لأن أصل هذا الإعلان في وعد اللّه، وعندما يتم وعد اللّه، يسمى كمال الوعد وتحقيقه "بر اللّه"؛ لأنه عدلٌ أو برٌ أنْ يتم ما وعد به اللّه. وعندما يقبل اللّه الذين يلتجئون إليه كملجأ، يسمى هذا "بر اللّه"؛ لأن الشر لا يسمح بحماية الخاطئ، ولا يقبل الذين يلتجئون إليه]

(عظات على رسائل بولس الرسول ـ راجع *Ambrosiastri Qui Dictur Commentarius Epustulos Paulinos, ed by (H. Vogele, vol 81,p 81*.وراجع نفس التفسير عند القديس يوحنا ذهبي الفم: عظات على رومية، النص الإنجليزي:NPNF ص ٣٧٦ – ٣٧٧.

ب ـ ويقول القديس أوغسطينوس:

[بر اللّه ليس هو ما يجعل اللّه باراً، فهو بارٌ حتى إنْ لم يعمل شيئاً، ولكن البر الذي يقصده الرسول هو البر الذي يخلعه على الإنسان الخاطئ، ويعطيه له كثوبٍ عندما يبرر الفاجر، وعن هذا يشهد الناموس والأنبياء......لأن بر اللّه لا يُعلَن بعيداً عن الناموس، بل بشهادة الناموس. وعندما يقول الرسول: "بدون الناموس"، فهو يقصد أن اللّه أعطى هذا البر للمؤمنين بواسطة الروح القدس، أي روح النعمة بدون أي مساعدة أو معونة من الناموس][1].

فكيف إذن استطاع البعض من المعاصرين أن يجيئوا بنار ذبائح العهد القديم لكي تحرق الابن على الصليب، أو أنْ تشتعل نار العدل الإلهي في الابن على الصليب.

---

[1] الروح والحرف فقرة ١٥ ـ كتابات أوغسطينوس مجلد ٨ : صـ ٢٠٥.

ثالثاً: تناقض فكرة دفع الثمن، مع مجانية النعمة

«متبررين مجاناً بنعمته، بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو ٣ : ٢٤).

فماذا نقول عن كلمة **"مجاناً"**؟ لقد صدر حكم العدل الإلهي مجاناً، ولعلنا نلاحظ أن الرسول يضع كلمتين، كل مِنهما تعبيرٌ عن دائرة المحبة الإلهية:

مجاناً .. بنعمته.

فكيف يكون بر المسيح مجانياً إنْ كان المسيح قد دفع فيه ثمناً ما ؟ وكيف وصل إلينا بر المسيح المجاني؟ لاشك أنَّ هناك تناقضاً عظيماً يكتنف فكرة دفع الثمن مع مجانية النعمة، وهذه هي أسباب هذا التناقض كما يراها الرسول بولس نفسه.

أولاً: البر المجاني بالنعمة، وليس بالناموس، ولأنَّ الفرق بين الناموس والنعمة لا يحتاج إلى شرحٍ، فإننا نكتفي بنقطةٍ واحدة، فالناموس يُعطي حكم الموت، ولذلك يصف الرسول نزول الشريعة على جبل سيناء بأنَّها كانت خدمة الموت (٢ كور ٣ : ٧)، أمَّا النعمة، فتُعطي الحياة (رو ٥ : ٢١).

ثانياً: البر المجاني بالنعمة، وهي نعمة الآب والابن والرُّوح القُدُّس، حيث لا يذكر الرسول مطلقاً أنَّ النعمةَ قاصرةٌ على أُقنوم واحدٍ، بل هي نعمة الله الآب، ونعمة ربنا يسوع المسيح، ونعمة الرُّوح القُدُّس .. نعمةٌ واحدةٌ لم يحصل عليها أُقنوم معين باسترضاءٍ ودفع ثمَنٍ لأُقنوم آخر، بل نعمة الله الآب، وهي ذاتها نعمة الابن الوحيد (افتتاحية رسالة رومية ١ : ٧).

وتأمَّل معي عزيزي القارئ خطورة القول بأنَّ الابن حصل على نعمة الفداء مِن الآب، أي لم تكن له هذه النعمة، بل حصل عليها عندما قدَّم الثمَن، أي دمه أو موته أو آلامه للآب .. هذا قول خطير جداً لأنَّه لا ينكر، فقط وحدة جوهر الثالوث، بل يحوِّل النعمة إلى شئ يُشترى مِن الآب، وإذا فقدت النعمة مجانية ينبوعها، فقدت عملها كنعمة، وبالتالي يعجز الرسول عن استخدام هذه الكلمة "نعمة". وإذا باع الآب للابن نعمة الفداء، لم تعُد نعمة الله الآب، بل صارت نعمة الابن فقط، ولم يعد للروح القدس أي صلةٍ بهذه النعمة.....أقول هذا

حسب مَنطق قانون التجارة والشراء والبيع الذي أدخله مَنْ يعتمدون هذا المنطق في تدبير محبة الله.

ثالثاً: "بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح"، مدهش جداً هذا التركيب اللغوي الفذ، الغريب على قواعد اللغة اليونانية القديمة، الفداء الذي بيسوع المسيح، أي الذي تم بيسوع المسيح، وهو لا زال حسب كلمات الرسول **"نعمته"**، أي نعمة الله. وهنا يظهر الوجه القبيح للذين يقسمون أقانيم الثالوث، ولاحظ أيها القارئ تعبير الرسول بولس نفسه:

بنعمته

بالفداء

الذي بيسوع المسيح

الذي قدَّمه الله كفَّارةً بالإيمان

أنه بيسوع، والذي قدَّمه الله الآب، وحتى لا نُخطئ في قراءة النص العربي، فإن الترجمة الإنجليزية أفضل: *God put forward* ؛ لأنَّ كلمة التقديم، والفعل **"قَدَّم"** يختلط بالذبائح، ولكن هنا الذي أعطى، أو قدَّم هو الله، وليس الابن وحده، أو الآب وحده.

وإذا عدنا إلى أقدم تفسير عن الكفارة بالدم، وهو ما نجده في كتابات العلاَّمة أوريجينوس، وجدناه يقول:

> "مع أنَّ الرسول القديس يعلِّم أشياء متنوعة وعجيبة عن ربنا يسوع المسيح في عبارات سرية فائقة، إلاَّ أنه في هذه الفقرة (رو ٣ : ٢٥) يعطي أهميةً خاصةً لموضوعٍ لا نجده في باقي أسفار الكتاب المقدس. ولأنه قال إنَّ المسيح قدَّم ذاته فداءً أو كفارةً لأجل الجنس البشري لكي يحرر أسرى الخطية، فهو الآن يضيف إلى التعليم أمراً فائقاً وسامياً عندما يقول: " الفداء الذي قدمه الله كفارةً ونقبله بالإيمان"، وهذا يعني أنَّ ذبيحة المسيح أي جسده قدمها الله

نفسه كفارةً عن البشر؛ لكي يعلن بره لأنه غفر الخطايا السابقة...." [1].

ويقول أمبروسيوس:

"يقول بولس: لأن اللّه في المسيح قدَّم، أي عيَّن المسيح فادياً في المستقبل لكل مَن يؤمن من الجنس البشري، فإن هذا الفداء بدمه هو الذي حررنا من الموت لكي يعلن بر اللّه بآلام المسيح. لقد تم هذا لكي يعلن صدق مواعيده التي بها حررنا من الخطية، وبذلك أكمل الوعد بإعلان بره وهو ما يجعله باراً.

كان اللّه يعرف غاية محبته التي بها قرر أن يأتِ لكي يخلص الخطاة الذين على الأرض، والذين كانوا أسرى في الجحيم. وانتظر وقتاً طويلاً لكي يخلص الكل. وأبطل حكم الموت، وهو حكم يبدو عادلاً؛ لأن كل الجنس البشري حُكِمَ عليه، ولكنه وعد بأنْ يبطل هذا الحكم ويحرر الجنس البشري. هذا الوعد القديم الذي وعد به على لسان أرميا قائلاً: لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد (أر ٣١ : ٣٤).

(المرجع السابق شرح رسائل القديس بولس مجلد ١ : صـ ٨١).

ويقول القديس كيرلس الكبير:

"لقد نلنا غفران خطايانا السابقة وتبررنا مجاناً برحمة ونعمة المسيح" (شرح رسالة رومية مجلد ٤٧ : ٤٩).

فإذا قدَّم الله الكفَّارة، تعذَّر فصل الأقانيم، وتعذَّر القول بأنَّ واحداً يُقدِّم للآخر، وإنما الكفَّارة مُقَدَّمَةٌ للناس، وليس للآب، والدليل على ذلك **"الذي قدَّمه الله كفَّارة بالإيمان بدمه لإظهار بره مِن أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله"** (٣ : ٢٤ـ٢٥) وهذا هو برهان الرسول:

---

(1) Origen, Commentarri in Epistulam ad Romanos ed by T. Heither,1990 - vol 2 : 112.

١ـ الله يُقدِّم الكفَّارة.

٢ـ الله يُقدِّم الكفَّارة لإظهار بره للناس، وليس للآب، أو لأيٍ مِن أقانيم الثالوث، فالابن لم يمُت لكي يُظهِر بر الآب للآب، أو بر الابن للآبٍ، بل بر الله الثالوث للإنسانية.

٣ـ الله يُقدِّم الكفَّارة مِن أجل الصفح عن الخطايا السالفة، أو السابقة **بإمهال الله** .. والصفح المُقدَّم للناس، هو صفح الله عن الخطايا .. وغريب حقاً هذا التعبير "بإمهال الله" كأنَّ الله هنا وفي كل عصر لا يطلب الانتقام، بل التوبة، ولا عجب، فصفحات الأسفار النبوية تفيض بطلب العودة إلى الله، لأنَّ الله يمهل، ويطلب التوبة.

كل هذا يضع الكفَّارة في مواجهة الناس، وليس في مواجهة الله الآب، ولذلك يقول الرسول بعدها مباشرة **"لإظهار بره في الزمان الحاضر"** (رو٣: ٢٦)، وهو البر الذي أعلنه بيسوع المسيح للإنسانية.

الخلاصة:

"متبررين مجاناً بنعمته"، وهنا يُظهِر موت المسيح على الصليب، النعمة، أي نعمة التبرير. والتبريرُ ـكما سنرى ـ هو عطيةٌ شاملةٌ لا تقتصر على مغفرة الخطايا، وهذا ما يجعلنا نتوقف أمام إعلان نعمة الله، ذلك الإعلان الذي يقدِّمه الرسول في افتتاحية رسالته إلى رومية، وفي رسائل أُخرى **"**نعمةٌ لكم، وسلامٌ مِن الله الآب، والرب يسوع المسيح**"**، وهي تلك النعمة التي تُعطى للخطاة.

وحسب رسائل القديس اثناسيوس إلى سرابيون عن الرُّوح القُدُّس، يظهر التسليم الرسولي الذي يدونه القديس اثناسيوس، حيث يذكر أكثر مِن مرة التعبير **"نعمةٌ واحدةٌ مِن الآب بالابن في الرُّوح القُدُّس"**، وهكذا نحتاج دائما لضبط الخيال البشري على أساس مبادئ العقيدة الأُرثوذكسية نفسها، وذلك بأنْ لا نسمح لأي فكرة ـ حتى وإنْ كانت تبدو صحيحةً ـ بتصور أنَّ هناك انقسام،

أو انفصال بين أقانيم الثالوث، أو أنَّ إرادة الآب غير إرادة الابن، لأنَّ للثالوث إرادةً واحدةً، ونعمةً واحدةً، جاء بها موت المسيح على الصليب. ونقول "نعمةٌ"، وليس حُكم براءة صادر مِن محكمة العدل، ولا داعي بالمرة لأنَّ نُقارِن حُكم المحكمة بالنعمة، لأنَّ النعمة عطية كما يذكر الرسول نفسه في (رو ٥ : ١٢ـ٢١)، والعطية لا تُعطى بحكم الشريعة الموسوية. الناموس يُنشئ غضباً وموتاً حسب كلمات الرسول بولس نفسه، ولا يُعطي نعمةً بالمرة. و"لو كان بالناموس برٌ" ـ وهذه هي عبارة بولس نفسه ـ فالنتيجة المُخيفة، هي أنَّ المسيح مات بلا داعٍ، ولم يحقق موته أي شئ، لأنَّ ما قام به المسيح كان الناموس قادراً على أنْ يعطيه. وهذه هي كلمات الرسول «لست أُبطِّل نعمة الله، لأنه إنْ كان بالناموس برٌ، فالمسيح إذاً مات بلا سبب» (غل ٢ : ٢١). ونعود إلى هذه النقطة الدقيقة: هل أدَّى خضوع المسيح لمطالب الشريعة أي عطية ونعمة؟ أو هل النعمة هي ثمرة لخضوع المسيح لحكم الموت؟ إنَّ هذا التعليم هو ثمرة عصر الإقطاع الأُوروبي، وهو يري أنَّ النعمة جاءت بعد حكم الموت، وبسبب حكم الموت، ولقد تحوَّل هذا التعليم إلى عقيدةٍ بارزةٍ في عصر الإصلاح البروتستانتي، حيث يصف لوثر، المسيح نفسه بأنَّه خاطئٌ يُعاقَب عن الزناة والقتلة .. إنَّ هذا التعليم لم يفهم عبارات الرسول بولس، ويمكننا أنْ نرى تناقض لاهوت حركة الإصلاح الأوروبي مع تعليم الرسول بولس كالآتي:

أولاً: لا يملك الناموس أنْ يُعطي نعمةً، أو هبةً، أو عطيةً، بل يُعطي حُكم الموت، وحُكم الموت وحده، وليس مع هذا الحكم أي شيء آخر. لا يوجد خلاف بين الشرق والغرب حول هذه النقطة.

ثانياً: يقول الرسول إنَّ الناموس "كان عاجزاً" (رو ٨ : ٣)، وعجز الناموس كما يشرحه الرسول هو ضعفه عن أنْ يمنح عطيةً ما، وذلك إضافةً إلى ضعف الإنسان نفسه لأنَّه يحيا في الخطية. وعجز الناموس معناه أنَّه دائم الصدام مع البشرية، وليس مع الله، والسبب هو ضعف الجسد، أو ضعف الإنسان بشكل ظاهر، فهو، أي الإنسان لا يستطيع أنْ يُرضي مطالب الناموس .. وعجز الناموس

ليس هو عجز العطاء، فليس في خدمة الموت عطاء .. ليس مِن طبع الشريعة، ولا تملك الشريعة أنْ تُعطي .. إنَّ أفضل ما يمكن أنْ يحدث، هو أنْ لا يقع الإنسان تحت حكم الشريعة، ولا يوجد شيء آخر يمكن أنْ تقدمه الشريعة الموسوية.

ثالثاً: فماذا حدث؟ يقول الرسول "أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية" (رو ٨ : ٣). لم يكن خاطئاً، ولا وقف أمام الآب كخاطئ .. أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية .. وحسب الفكر الغربي في العصر الوسيط كان يجب على الرسول أنْ يقول:. وحكم الآب على الابن كخاطئ، أو صدر حكم الموت على الابن، ولكن الرسول يقول عكس ذلك .. تأمل... الابن يأخذ شبه جسد الخطية .. أي ذات الطبيعة التي نقول عنها أنه "شابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها". فماذا حدث بعد ذلك؟ يقول الرسول «ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد» (رو ٨ : ٣) لم يصدر حكم الموت على المسيح، ولا حُكِمَ عليه كخاطئ، ولكن الذي أُدين وحُكِمَ عليه هو الخطية، والذي أدان الخطية هو الابن وليس الآب، لأنَّ الابن هو الذي لبس الجسد وتأنس. وحقاً ما أبعد الفرق بين الطبيب الذي ينزل إلى حفرة الموت لكي يُعطي هبة الحياة، وبين الطبيب الذي جاء لكي يشفي المريض، فمات مع المريض في ذات الحفرة، هذا هو الفرق بين الشرق والغرب. يقول الرسول بولس بعد ذلك:«لكي يتم حكم الناموس **فينا نحن** السالكين حسب الرُّوح وليس حسب الجسد » (رو ٨ : ٤). وهذا شئ عجيب .. لقد تم حكم الناموس فينا نحن، وذلك رغم موت المسيح على الصليب.

إنَّ هذه الكلمات تنفي بشكلٍ تام كل فكرة تحاول أنْ تقول إنَّ المسيح قَبِلَ حُكم الموت نيابةً عنا .. بل إننا هنا ـ وبكل وضوحٍ ـ قَبِلنَّا نحن حكم الموت في المسيح، ونحن الذين نسلك حسب الرُّوح، نقبل حكم الموت في الصليب، وهو حكم يتم فينا في المعمودية.

العلاقة بين الخطيـــة والمـــوت

أولاً:.الموت ثمرة الخطية حسب تسليم آباء الكنيسة الشرقية

جاءت الخطية بالموت في آدم، وفي آدم "اجتاز الموت إلى جميع الناس" (رو ٥ : ١٢). وجاء الموت بالخطايا الخاصة بكل إنسان .. صارت الخطية هي سبب الموت. **والموت ـ في تراثنا الشرقي ـ هو أي محاولة للاحتفاظ بالحياة بأي ثمن، وبأي وسيلة، وهو بذلك يُعد مصدراً لكل الخطايا.** ولذلك يصرخ الرسول باسم الإنسانية "ويحي أنا الإنسان الشقي، مَن ينقذني مِن جسد هذا الموت" (رو ٧ : ٢٤) وهكذا قرأ آباء الشرق نص رومية (٥ : ١٢) "وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع فيه، أو به، أي بالموت، وليس بآدم، أو في آدم" .. هذا هو بداية تشعُّب طريق الشرق عن الغرب .. فالوحيد الذي عَدَّلَ النص اليوناني ـ لأنَّه كان يجهل اليونانية ـ هو أوغسطينوس، ولذلك قرأ النص "إذ أخطأ الجميع في آدم"، وهنا أصبح الفرق الدقيق بين الشرق والغرب، هو أنْ يكون ينبوع الخطية في الإنسانية:

إمَّا الموت حسب الشرق.

وإمَّا آدم حسب الغرب.

لقد قال الغرب وحده منذ زمَن أوغسطينوس، وبسبب أوغسطينوس؛ إنَّ مصدر الخطية في الإنسان هو آدم، وإنَّ الكل أخطأ، وأذنب في آدم.

ولكن الشرق كله، ومنذ القديس إيريناوس، وبتفسير دقيق لكلمات الرسول بولس، يقول إنَّ مصدر الخطية في الإنسان، هو الموت الذي جلبه آدم على الجنس البشري.

شهادة القديس أثناسيوس الرسولي معلم اللاهوت الأُرثوذكسي

يقول القديس أثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين:

> [في البدء لم يكن الشر موجوداً، وليس له وجود الآن في الذين صاروا قديسين، ولا ينتمي الشر إلى طبيعتهم .. لكن البشر ـ أخيراً ـ اخترعوه، وتفوقوا في اختراعهم لكي يصيبوا أنفسهم (يدمروا ذواتهم) ..] (فصل: ٢).

ويصف القديس أثناسيوس بعد ذلك كيف ترك الإنسان تأمُّل الله، وابتعد عن الأُمور الأفضل، واتجه بكل فكره إلى ما هو أقرب إلى العقل، أي الأُمور المرئية، وبشكلٍ خاص، الجسد:

> [ولكن الأقرب إلى أنفسهم (عقولهم) الجسد، وحواس الجسد، وعندما ابتعدوا بعقولهم عن الأُمور العقلية، بدأوا يحددون (غاية وجودهم) حياتهم واعتبروا الجسد وكل ما ينتمي إلى الحواس هو (أهم ما في الوجود) وبذلك خُدِعوا بما ظنوه مِن حولهم (مِن أشياء منظورة) فسقطوا في **شهواتهم**، وفضلوا هذه الشهوات على تأمُّل الله] (فصل: ٣).

وتعرى الإنسان، ليس مِن الملابس، بل مِن تأمُّل الله، وجاء عُري الإنسان بتأمُّل ما هو غير الله (فصل ٣) لكن المأساة الحقة هي أنَّ الابتعاد عن الله، كما يقول اثناسيوس جلب:

> **أولاً**: [تحولا منذ تلك اللحظة إلى طلب رغباتٍ متفرقة ومتنوعة خاصة بالجسد] (أي أنَّ هناك تعارضاً بين كل شهوة وأُخرى).
>
> **ثانياً**: [صارت النفس تتمسك بالخوف والرعب والمتعة، ومع هذه، دخلت **الأفكار الخاصة بالموت thoughts of mortality**. وعندما قررا عدم ترك هذه الرغبات، وصلا معاً إلى الخوف من الموت، وإلى إدراك انفصال النفس عن الجسد] (فصل ٣).

ويعود القديس اثناسيوس إلى ذات النقطة مرةً ثانيةً في الفصل الرابع إذ يقول:

"ظلت النفس تتحرك بقوتها الذاتية وتترك الخير الحقيقي، وهو تأمُّل اللّه. وتسعى نحو اللذة، وتتصور ما لا وجود حقيقياً له كأنه موجود، وبذلك فقدت النفس رغبتها في الخير الحقيقي. وعندما تترك ما هو خير، فإنها تتجه نحو ما هو ضد الخير تماماً، وكمثال على ذلك المجنون الذي يستل سيفه لكي يقتل كل مَنْ يقابله، ويظن أنَّ هذا هو التعقل. ولكن عندما سقطت النفس في محبة اللذة، صارت تُدبِّر تحقيق اللذة بطرق مختلفة. ولأنَّ النفس متحركة، فبالرغم مِن أنَّها ارتدَّت عن الخير، إلاَّ أنَّها لم تفقد قدرتها على الحركة. وصارت لا تتحرك بقوة الفضيلة والخير، أي لكي ترى اللّه، بل تتحرك بقوة المُخيلة، وتتخيل ما لا وجود له، وبذلك صارت تخترع وظيفةً جديدةً للخيال، أي قوتها، وتسئ استخدام الخيال مِن أجل تحقيق اللذة التي تخترعها، لأنَّ النفس لديها القدرة الذاتية على أنْ تتحرك كيفما تشاء. لأنَّها قادرةٌ على أنْ تميل نحو الخير، أو أنْ ترفض الخير، ولكن عندما ترفض الخير فإنها تخترع، وتسقط فريسة لما هو ضد الخير، أي الشر .. أي تتحرك ضد ما لا وجود له، أي الشر" (فصل ٤).

وغرقت الإنسانية فيما لا وجود له، أي الشر .. في الوهم والفساد الفكري الذي لا يُدرِك الفرق الدقيق بين الخير والشر:

"الخير ما هو كائن، أو ما له وجود

الشر لا وجود له (إلاَّ في خيال الإنسان)

وما أقصد أنْ أقوله هو إن ما هو خيرٌ، له مثال في الله،

لأنَّ كل ما هو كائن (حقاً) له مثال في الله الكائن (الحق)" (المرجع السابق).

هكذا دخل الموت بالابتعاد عن تأمُّل الله، وجاء الموت **"بلذة الوجود والبقاء"** التي تخترع في العقل كل أنواع الخطايا، وصارت النفس تخُطئ لأنَّها تخاف الموت،

وما أفكار الموت وخيالات الموت سوى طلب المزيد مِن كل شيء لكـي تقـوى لـذة البقاء، أو حسب تعبير فرويد "غريزة حب البقـاء"، ولكنـه حـب البقـاء باختيـار الشر، وعلى حساب الآخرين. وهكذا دخل الموت بآدم، وبالموت دخلت الخطيـة إلى سائر الناس ويصبح معنى كلمات الرسـول "أخطـأ الجميـع بـالموت" ذات دلالـة حقيقية، ويصبح الموت هو رابطة الخطيـة الـتي تجمـع كـل البـشر في آدم، وليـست خطية آدم هي هذه الرابطة.

وإذا جاء الربُ وهدم الموت، فقد اقتلع الخطية، أي أبـاد ينبـوع كافـة الخطايـا، ويصبح قول الرسول بولس ذات دلالة "أُسلم مِن أجل خطايانا" أي دان الخطية، وأباد الموت بالصليب والقيامة، وكشف عن زيف الفكر البشري الـذي يتـصور أنَّ الشر هو وسيلة البقاء، وإذا قال الرسول إنَّ الرب "أُقيم لأجل تبريرنا"، فهو يعني أنَّ الرب أقام الإنسانية فيه.(رو ٤ : ٢٥) وجعل قبول الموت بالإرادة وبحرية تامة هو بداية الطريق إلى حياة جديدة.

لقد مات المسيح لأجل الفُجَّار، أي لأجل كل فـاجر (مخـترع الـشرور). ولقـد ملك الموت على الـذين لم يخطئـوا ذات خطيـة آدم، أوٍ حـسب الترجمـة العربيـة البروتستانتية **"على شبه تعدي آدم"** (رو ٥ : ١٤).

يقول ذهبي الفم:

> "يسأل الرسول: كيف جاء الموت إلى العالم؟ ولماذا ساد على الجنس البشري بسبب الخطية؟ وهكذا عندما سقط آدم، فإن الذين لم يأكلوا من الشجرة صاروا مائتين بسبب آدم"
>
> (عظات على رومية: *NPNF.1.11 401*).

ووراثة الطبيعة الميتة هي سبب خطية كل إنسان. يقول القديس كيرلس الكبير:

> [دخل الموت بواسطة الإنسان الأول، وعندما دخلت الخطية دخل معها الفساد. وهكذا ساد الفساد وانتشر في الجنس البشري كله. وعندما اخترعت الحية الخطية، وغلبت آدم بسبب عدم أمانته، استطاعت الحية أنْ تفتح عقل الإنسان

على الشر. (الكل فسدوا، ليس مَن يعمل صلاحاً) (مز ١٤ : ١). وعندما ترك الإنسان وجه الله القدوس، ولأن العقل الإنساني طلب الشر بحريته، وصار كل إنسان منذ صباه يميل إلى الشر، صرنا نحن البشر نحيا حياةً مجنونةً، وابتلعنا الموت جميعاً، وقلَّد كل واحد منا خطية آدم، وبذلك أخطأ الجميع وساد حكم الموت الذي ساد على آدم. ولكن، لم تكن الخليقة بلا رجاء؛ لأن الخطية أُبيدت والشيطان هُزِمَ والموت أُبطِلَ]

(شرح رومية مجلد ٧٤ : ٧٨٤).

وهكذا نفهم معنى كلمات الرسول: "بخطية واحدٍ (آدم) مات الكثيرون؛ لأنَّ الخطية أدخلت الموت، والموت جاء بكل الخطايا" (رو ٥ : ١٥) .. ويكمل الرسول بولس شرحه "بخطية الواحد قد ملك الموت" وعندما يملك الموت تحاول النفس أنْ تنساه، وأنْ تُعمِل كل طاقات الخيال والفكر والمشاعر والإرادة لكي تبتعد عن الموت .. وتصبح الحياةُ هي محاولة الوجود بعيداً عن الموت. ولكن عندما ملك الموت صار تنازع البقاء عند البشر هو أخطر القوى الإنسانية التي تُحرِّك الحروب حول المياه والحدود، وفي حياة الأفراد، حيث يُقاتل كل إنسان مِن أجل كلمة، أو مِن أجل لقمة العيش .. هذا هو صراع الموت الذي جعل خطية الواحد هي بداية ملك الموت (رو ٥ : ١٧). وبمعصية الإنسان الواحد "جُعل الكثيرون خطاة" لأنَّ الخطية جاءت بالموت، وجاء الموت بالخطية، وصار الوجود دفاعاً عن الحياة، وشركة في قتال الحياة مِن أجل إبقاء الموت بعيداً.

وهنا نرى معنى كلمات المُعلِّم الأعظم، ومؤسس ديانتنا، وهو ربنا يسوع المسيح. فقد وضع قانون التلمذة في كلماتٍ موجزةٍ هي مفتاح كل شيء: "مَن وجد حياته يضيعها ومَن أضاع حياته مِن أجلي يجدها" (متى ١٠ : ٣٩).

فعندما نريد أنْ نحفظ حياتنا أو نجدها، نفقدها .. والاحتفاظ بالحياة، أو حُب البقاء هو أصل الخطية، لأنَّه يجلب الأنانية والخوف والكراهية والغيرة الكاذبة وشهواتٍ أُخرى أعظمها خطورةً الكبرياء، وأقلها ضرراً الكذب، وأبغض ما فيها الطمع ..

وحاول أيها القارئ أنْ تنظر حولك لكي ترى كيف يحرص القادة على كراسي السلطة خوفاً مِن زعيم، أو قائدٍ آخر؟ .. وكيف يتم قتل المعارضة، ومحاربة الرأي الآخر مهما كان نوعه؟ .. ثم تأمل الذين يجمعون الأموال، وكيف تُنفَق هذه الأموال؟ ولماذا يضيع الفقير واليتيم والأرملة، وهم الضعفاء والفقراء الذين تذكرهم الأوشية **"مِن أجل الضيف والغريب واليتيم والأرملة"** لأنَّهم هم المنقطعون في هذه الدنيا.

ثانياً: هل خلق الله الموت؟

يبدو لمن لا يعرف التسليم الآبائي وتعليم الأُرثوذكسية القاطع أنَّ الله هو خالق الموت. وبدايةً نؤكد أنَّ هذه الفكرة لا تمت للمسيحية بصلة ما، وإنما هي من الأخطاء الشائعة، والخطأ المشهور قد يظن البعضُ يوماً أنه حقيقة، في حين أنَّ الحقيقة هي على خلاف ذلك. ولكننا نستطيع أنْ نلمح خلف هذه الفكرة غير المسيحية ما يأتي:

١ـ تصور الموت ككائن، وربما كشخص، وهو تصور مصدره الحقيقي الديانات الوثنية؛ لأن إله الموت معروفٌ في الديانات القديمة، بل لا زال لدينا في تراثنا الشعبي "عزرائيل" ملاك الموت، وهو صورة مصغرة لإله الموت في التراث الشعبي. أمَّا في الأُرثوذكسية فالذي يحمل أرواح الأبرار والشهداء هو الرب يسوع المسيح نفسه، وليس الملائكة، حيث يقول الرب يسوع «وإنْ مضيت وأعددت لكم مكانا آتي أيضا وآخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا» (يو ١٤ : ٣).

٢ـ لو تصورنا أنَّ للموت وجودٌ وكيانٌ، أو أنه قوةٌ أو شيءٌ، فإننا نعود إلى الغنوسية، لأن الموت هو توقف الحياة ونهايتها، هو "سلبٌ" *Negation* لما هو إيجابي وحقيقي. توقف الحياة بسبب الموت يعني نهاية الحياة والنهاية ليست شيئاً له وجود.

وبالطبع لابد أنْ نسأل: أليس الله هو خالق الحياة؟ أليس هو الذي يملك أنْ يضع نهاية لها. بكل تأكيد هذا صحيحٌ وحق؛ لأن خالق الحياة يملك أنْ يضع نهايةً لها.

ولكن يبقى السؤال: كيف يضع الله نهايةً للحياة؟ إمَّا أنها نهاية حسب قصده، وإمَّا أنها نهاية أرادها الإنسان لنفسه .. لا يجب أنْ تختفي بالمرة حقيقة حرية الاختيار عند الإنسان. فقد اختار الإنسان أنْ يضع نهايةً لحياته .. أي اختار الموت وسعى إليه بنفسه حسب قصة سفر التكوين التي أفاض الآباء في شرحها .. فكيف يمكن أنْ نلقي مسئولية الموت على الخالق؟

ولكي نبلد كل شك في النفوس، ندرس معاً كيف دخل الموت إلى العالم في الكتاب المقدس؟

النصوص الأساسية في الكتاب المقدس:

* (رو ٥ : ١٢ ـ ٢١)

«بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت» (رو ٥ : ١٢)، ويجب أنْ نلاحظ أنه عندما يقول الرسول إنَّ الخطية جلبت، أو أدخلت الموت، فهو لا يتحدث عن الله، وإنما عن الخطية.

أنواع الموت:

لكي نفهم التعليم الأرثوذكسي يجب أنْ نتوقف عند كلمة **"موت"**، فحسب شرح القديس امبروسيوس، ومن قبله العلاَّمة أوريجينوس وسائر الآباء: يوجد ثلاثة أنوع من الموت:

* الموت الجسداني ـ وهو انفصال الروح عن الجسد.

* الموت الروحي ـ وهو موت الخطية الذي تذكره الليتورجية **"ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية"**.

* الموت مع المسيح في المعمودية وفي الحياة النسكية بشكل عام، وهو ما نفتخر به، وندعو الذين يدخلون هذه الشركة السرية *Mystical* بـ **"لُبَّاس الصليب"**، وهو الموت الذي سعى إليه الرسول بولس حتى ناله في جسده بعد أنْ ناله في روحه "مع المسيح صلبت" و"لأجلك نمات كل النهار". هكذا يشرح أوريجينوس نص رو ٥ : ١٢ فيقول:

"الموت الذي دخل بالخطية هو بلا شك الموت الذي تكلم عنه النبي (النفس التي تخطئ تموت) (حزقيال ١٨ : ٤) وموت الجسد هو مثالٌ لهذا الموت الروحي، لأن النفس تموت، ولذلك يتبعها الجسد".

(شرح رسالة رومية ٣ : ٤٤ مت ٥٠ ـ ٥٢).

وبسبب الحملة المسعورة ضد أوريجينوس التي لم تهدأ منذ القرن الثالث. نقدم التحديد الدقيق للقديس امبروسيوس:

"توجد أنواع ثلاثة للموت:

النوع الأول: هو موت الخطية، وعن هذا النوع كُتِبَ "النفس التي تخطئ تموت".

النوع الثاني: هو الموت السري ***Mystical*** **عندما نموت للخطية ونحيا لله. وعن هذا النوع قال الرسول "دفنا معه في المعمودية للموت"** (رو ٥ : ٤).

النوع الثالث: وهو عندما نكمل مسيرة حياتنا وننجز غاية وجودنا. وهو إنفصال النفس عن الجسد" (مقالة صلاح الموت. نشر النص اللاتيني الأب *W. T. Wiesner* في رسالة الدكتوراه التي قدمت إلى الجامعة الكاثوليكية ونشرت عام ١٩٧٠ بعنوان: *S. Ambrosii De Bono Mortis* النص ص ٨٩).

موت الخطية والموت الطبيعي

هكذا جلب آدم موت الخطية وليس الموت الطبيعي، الذي هو انفصال النفس عن الجسد وهو الموت الذي كان ولابد أنْ يحدث ـ حسب شرح القديس اثناسيوس الرسولي ـ لأن الإنسان خُلِقَ من العدم، ولذلك فهو ليس خالداً بالطبيعة. وموت الإنسان الطبيعي ـ بعد أنْ يكمل غاية وجوده ـ ليس مثل موت الخطية الذي جاءت به الخطية، فسادَ الموتُ على النفس الإنسانية.

كان الله قد وضع الخلود أمام الإنسان كغايةٍ يسعى إليها من خلال الشركة. هكذا يشرح القديس اثناسيوس التعليم الأرثوذكسي:

[الله خالق الكون، ملك كل الكائنات، الذي جوهره يعلو على كل تحديد وادراك بشري، ولكن لأنه صالح وجواد، خلق الإنسان على صورته بكلمته مخلصنا يسوع المسيح. وجعل الإنسان قادراً على إدراك وفهم وجوده الحقيقي بالشبه (بالصورة) التي أُعطيت له، لأنه بهذه الصورة أعطاه معرفة أبديته حتى إذا ما حَفِظ هذه الصورة، لا يبتعد عن إدراكه لله أو يترك شركة القديسين (القوات السمائية)، بل يبقى في النعمة التي وُهِبَت له، وبالقوة الذاتية التي أُعطيت له بكلمة الله مما يجعله يفرح بالحوار (الحديث) مع الله ويحيا حياة السعادة المباركة حقاً وينال الخلود] (الرسالة إلى الوثنيين فصل ٢ : فقرة ٥ـ١٥ النص اليوناني *R.W. Thomson* صفحات ٦ـ٧).

كيف دخل الموت حسب شرح القديس اثناسيوس؟

[بغواية الحية ترك الإنسان تأمُله الله، وبدأ يحدد غاية وجوده، وسقط كلاهما (أي آدم وحواء) في الشهوات الجسدانية. وهنا أدرك كلاهما أنهما عريانان، وعندما عرفا ذلك خجلا. وقد أدرك كلاهما أنهما ليسا عريانين من الملابس، بل من تأمُّل الأُمور الإلهية، وإنهما حوّلا عقليهما إلى ما هو ضد الأُمور الإلهية، وعندما تركا معاً الرغبة في الله وفي الوجود الحقيقي، أي الله تحولا منذ تلك اللحظة إلى طلب رغبات متفرقة ومتنوعة خاصة بالجسد. وكما نعرف من الواقع، فإن التمسك بكل رغبة وشهوة يؤدي في النهاية إلى الخوف من تحقيقها. لهذا السبب (تنوع وتفرّق الشهوات) صارت النفس تتمسك بالخوف والرعب والمتعة ومع هذه، دخلت الأفكار الخاصة بالموت. وعندما قررا عدم ترك هذه الرغبات، وصلا معاً إلى الخوف من

الموت وإلى إدراك انفصال النفس عن الجسد]

(المرجع السابق فصل ٣ ص ١١٨).

ترجم الأب مرقس داود النص السابق عن الترجمة الإنجليزية، ولكن المفردات اليونانية للقديس اثناسيوس هي أقرب إلى اللغة العربية من الإنجليزية؛ لأن الفكر الشرقي عموماً يختلف عن الفكر الغربي، ومع ضعف اللغة العربية بسبب عدم تطور عربية المسيحيين الناطقين بها إلاَّ أنَّ الترجمة الدقيقة لعدة عبارات يختلف عن ترجمة الأب مرقس داود، والسبب هو عدم وضوح العبارات الإنجليزية بينما الكلمات اليونانية واضحة جداً، وعلى سبيل المثال لا الحصر: ماذا حدث عندما تحول آدم وحواء عن تأمل الله؟ النص الإنجليزي يقول إنَّ آدم [began to consider himself]، بينما يقول النص اليوناني ما هو أوضح بكثير "φοβειται τον θανατον "، فقد تحول ذهن الإنسان وبدأ يحدد غاية وجوده في عقله وبعيداً عن تأمل الله، والاتجاه نحو تنوع وتعارض الشهوات، فسقط الإنسان في الخوف، ودخلت مع الخوف والرغبات تصورات أو أفكار الموت.

التحول الداخلي من الخير إلى الشر

يُكمل القديس اثناسيوس شرحه مؤكِّداً في الفصل الرابع أنَّ الإنسان وجد مسرةً في تأمُّل الرغبات الحسية المتصلة بالجسد، وأنه **"وجد في اللذة غايةً"**، وهنا كما يقول اثناسيوس:

"أخطأت النفس، وصار ما هو صالح هو اللذة". هذا التحول جاء بالفوضى في الحياة الداخلية، وما يسميه الآباء **"الفساد"**، أي الانحلال وتعارض القوى العقلية. ويقدم اثناسيوس التشبيه المعروف بإنسان فقد إدراكه، ويفتش عن سيف لكي يقتل كل مَن يقابله (الفصل الرابع من الرسالة إلى الوثنيين). وهكذا شرح القديس اثناسيوس حالة اغتراب النفس،فقد ظلت النفس تتحرك بقوتها الذاتية وتترك الخير الحقيقي وهو تأمل الله، وتسعى نحو اللذة وتتصور ما لا وجود حقيقي له كأنه موجود، وبذلك فقدت النفس رغبتها في الخير الحقيقي

"وعندما تترك ما هو خير، فإنها تتجه نحو ما هو ضد الخير تماماً" (فصل ٤ : ١٥ ص ١٠ـ١١).

ما قبل السقوط

أشرنا سابقاً إلى الفصل الثالث من كتاب تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس. ولكن هنا يهمنا بشكل خاص عبارة هامة عندما يقول عن الجنس البشري:

[خلقهم على صورته وأعطهم نصيباً في قوة كلمته، فصاروا يتبعون الكلمة مثل تبعية الظل للنور، وهو ما يجعلهم عاقلين (يدركون الخير بسبب الالتصاق بالكلمة ربنا يسوع المسيح)، وبذلك يبقوا في السعادة ويحيوا الحياة الحقيقية حياة القديسين في الفردوس .. لأن (اللّه) جاء بهم إلى فردوسه وأعطاهم الشريعة. وإذا حفظوا النعمة (صورة اللّه) وظلوا صالحين، فإنهم يتنعمون بالحياة في الفردوس بدون حزن أو ألم أو هَم، وبالإضافة إلى ذلك الوعد بالخلود في السماء] (تجسد الكلمة ٣ : ٢٠ـ٢٩ ص ١٤٠ـ١٤١).

فالوعد بالخلود في السماء يؤكد لنا أنَّ الموت الطبيعي هو تحول طبيعي في كيان الإنسان يؤكده اثناسيوس نفسه بعبارة قاطعة لا تحتمل التأويل وهي: **"لأن الإنسان خُلِقَ من العدم"**، ولنفس ذلك السبب عينه:

[لأن تعدي الوصية أعادهم إلى الوجود الطبيعي، حتى أنه، كما جاءوا من العدم، وبعد مرور الزمان يعانون فساد العدم، لأنه لم يكن لهم طبيعة واجبة الوجود أو طبيعة خالدة . ει γαρ φυσιν εχοντες το μη ειναι ποτε

لأنهم دُعُوا إلى الوجود بمحبة البشر للكلمة وبإعلانه "παρουσια" أو حضوره. ولكن؛ لأن البشر فقدوا معرفة اللّه وتحولوا إلى ما لا وجود له؛ لأن الشر عدم. والوجود خير؛ لأن الخير هو ما خلقه اللّه، وهو كائن لأنه يستمد وجوده من اللّه. وهكذا فقد البشر الحياة الأبدية]

(فصل ٤ : ٢٠ ـ ٣٠ ص ١٤٢ـ١٤٥).

وبعد هذه الفقرة الهامة يقول اثناسيوس:

– εστι μεν γαρ κατα φυσιν ανθρωπος θνητος

"الإنسانُ ميتٌ بالطبيعة"

– ατε δη εξ ουκ οντων γεγονως

"لأنه خُلِقَ من العدم" (فصل ٤ : ٢٦ـ٢٧ ص ١٤٤ـ١٥٤).

وهكذا قدم سفر حكمة سليمان التعليم المسيحي **"لم يخلق الله الموت، فهو لا يُسر بفناء الأحياء، بل خلق كل الأشياء لكي تحيا"** (١ :١٣).

الخلط بين الموت الطبيعي والموت الروحي

الموت الطبيعي هو انفصال النفس عن الجسد، أمَّا الموت الروحي، فهو انفصال النفس عن الله ويقول القديس مكاريوس:

"مات آدم أي ماتت علاقته بالله" (العظة ١٢ : ٢).

ويقول القديس كيرلس الكبير:

"جاءت الخطية بالموت وولد الموت بلا شك بالخطية"

(شرح رسالة رومية مجلد ٧٤ : ٧٨٤).

شروح الآباء والكتاب المقدس

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم:

"أنا لست قاضياً يحكم على أعمال الله"

(عظة على شك توما الرسول فقرة ٢ مجلد ٥٩ عامود ٦٨٤).

ونحن ـ كما يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي ـ نؤمن بأن

"الله يحب ويحكم على أعمال الإنسان على قدر استطاعة كل إنسان"

(عظة ٤٣ على نياحة القديس باسيليوس فقرة ٨٢ مجلد ٣٦ عامود ٦٠٤).

بهذه الروح، أي روح الآباء نقدم هذه الدراسة الشاملة لكل ما كتبه الآباء عن الموت، ولأننا ندرك أنَّ حدود الإيمان هي حسب عبارة يوحنا الدمشقي هي

"حدود أبدية"، وهي أيضاً **"قلب التقليد الكنسي"** (شرح الايمان الارثوذكسي ١ : ١ مجلد ٦٤ عامود ٧٨٩)، نؤكد للقارئ أنَّ التقليد الكنسي هو الذي يشرح الأسفار المقدسة، وإنَّ أي شرح لا يأخذ بما جاء في التقليد الكنسي هو شرح مستبعد تماماً، وإنْ كان يبدو لنا ظاهرياً أنه معقول ومقبول.

ومع أننا نسمع في هذه الأيام عبارات تصدر من بعض الإكليروس الأقباط تقول صراحة: إنَّ أي تعارُض يراه هؤلاء بين الكتاب المقدس والآباء يحتم عليهم رفض الآباء، وهو أمر له خطورته الواضحة، لأن حركة الإصلاح البروتستانتية في القرن السادس عشر وجدت هذا التعارض، وأفرزت لاهوتاً لا علاقة له بالآباء، أي وجد قادة حركة الإصلاح إنَّ تفسيرهم الذاتي والخاص للكتاب المقدس هو التفسير الصحيح، وإنَّ ما جاء في كتابات الآباء يجب رفضه تماماً. والحقيقة التاريخية الواضحة هو أن تعليم الآباء عن الخلاص والأسرار والخطية والخلاص يتعارض مع التعليم الذي ورثناه في القرن التاسع عشر وعرفناه من كتب الإنجيليين والكاثوليك ومزجناه دون أن ندري أنه يضر بكل ما يندرج تحت أسم الأرثوذكسية ابتداءً من عقيدة الثالوث حتى الصلاة عن الراقدين.

نحن لا نعرف أي تعارض بين الكتاب والآباء، وإنما نعرف التعارض بين الفكر المستَلهم من كتب الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، والتعليم الأرثوذكسي الذي يُعلن صراحةً في صلوات الكنيسة. فإذا قال القداس الإلهي: **"والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته"** (صلاة الصلح)، فإننا يجب أنْ نسأل هل هدم الله شيئاً خلقه؟ وكيف دخل إلى العالم ذلك المخلوق **"بحسد إبليس"**، وهي عبارة سفر الحكمة، وهي أيضاً النص الذي استخدمه القديس اثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة (راجع الفصل الخامس).

يقول الأب الكسندر شيمان *Schmemann* في كتاب "من أجل حياة العالم" وفي الفصل الخاص بالموت والذي أخذ عنوانه من نشيد عيد القيامة "ووطئ الموت بالموت" (ص ١٣٥ وما بعدها الترجمة العربية منشورات النور ـ تعريب الأب توما بيطار ١٩٩٤):

"إنَّ الثقافة التي نحيا في كنفها اليوم هي ثقافة تنكر الموت" (صـ ١٣٥ وما بعدها).

"وهكذا، فلأن المسيحية، كما اعتبروها، هي دين، كـان عليهـا أنْ تقبل بوظيفة الدين الأساسية وهي:

١ـ أنْ "تبرر" الموت.

٢ـ وإذا فعلت المسيحية (بررت الموت) ذلك تمثلت ـ قليلاً أو كثيراً ـ تفسيرات المـوت القديمـة (الـديانات القديمـة مثـل ديانة الفراعنة) والكلاسـيكية (الفلـسفة اليونانيـة) وهـي تفسيرات مشتركة علمياً بين الديانات كافة.

٣ـ ولكن لا عقيدة خلود النفس القائمة على أساس التعارض (الثنائية) بين ما هو روحي وما هو مادي، ولا عقيدة المـوت كانعتاق (الهروب مـن سـجن الجسد)، ولا عقيـدة المـوت كعقاب هي في الحقيقة، عقائد مسيحية" (صـ س١٣٨).

وهكذا رفض الأب شيمان **الخلود الطبيعي للنفس** كما رفض أيضاً أنْ يكون **الموت عقاباً على الخطية**.

ونشر الأب الروسي الأرثوذكسي رئيس دير جميع القديسين *Lazar Pubab* نفس الفكر في كتابه: *The Soul, the Body and Death, 1985*.

فهل وقع هؤلاء[1] وغيرهم من اللاهوتيين الأُرثوذكس في خطأ عقيدي؟ أم أنَّ خلف هذه الدراسات توجد حقائق لم ندرسها نحن بعد في مصر. هذه الحقائق هي:

١ـ الموت كظاهرة تشمل الروح والجسد.

٢ـ إن خلق الموت هو تعليم الإسلام، وهو تعليم ينسجم مع باقي عقائد الإسلام.

٣ـ الخلود الطبيعي، أي أنَّ الإنسان خالدٌ بالطبيعة هو تعليم الديانات القديمة والفلسفة اليونانية. وهو تعليم لا نقبله نحن لأن هذا يعني أنَّ الإنسان إلهٌ

---

[1] نشير هنا بشكل خاص إلى الدراسة الكاملة لموضوع الموت التي نشرها اللاهوتي اليوناني Nikolas P. Vassilidis باليونانية في اثينا عام ١٩٩٣ ثم بالإنجليزية بعد ذلك بعنوان The Mystery of Death.

بالطبيعة. في حين أنَّ الله وحده ـ حسب نص قاطع صريح ـ له وحده عدم الموت «أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن. أنْ تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح. الذي سيبينه في أوقاته المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه» (١ تيمو ٦ : ١٤ـ١٥). فهل كان الرسول بولس يجهل أنَّ عدم الموت خاص أيضاً بالبشر، وإننا لا نموت روحياً ولا جسدياً .. وهل أخطأ الرسول عندما قال: «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا .. أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا» (كولوسي ٢ : ١٣) .. أم أننا في حقيقة الأمر إزاء موقف معين يفترض ما يلي:

أولاً: خلق الله الإنسان خالداً لا يموت.

ثانياً: خلق الله الموت كعقاب للإنسان.

ثالثاً: نزع الله الخلود من الإنسان عندما أخطأ.

وأخيراً: يفرض علينا هذا التسلسل أنْ نقول:

إنَّ الله خالق الموت، إلهٌ قاس إلى أبعد الحدود التي يمكن أنْ يتصورها عقل الإنسان؛ لأنه كان يعلم أنَّ الإنسان سيخطئ، وإنه سوف يعاقبه، فهو مثل المدرس العنيف الذي يجهِّز العصا، منتظراً لحظة العقاب.

تعليم آباء الكنيسة عن طبيعة آدم قبل السقوط

كتب ثاؤفيلوس الأنطاكي حوالي عام ١٩٥ رسالته إلى *Autolycus* اتوليكوس:

> [خلق اللّه الإنسان، ليس خالداً ولا قابلاً للموت، ولكن خلقه قادراً على أنْ يتحول إلى أي من الجهتين (الخلود والموت). وهكذا إذا اتجه إلى ما هو خالدٌ وحفظ وصية اللّه، فإنه كان سينال مجازاة الخلود من اللّه ويصبح إلهاً

بالنعمة[1]. أمَّا إذا اتجه إلى الأشياء التي تقود إلى الموت، وعصى اللّه، فإن الإنسان يصبح سبب موته *He himself would be the cause of his own death* لأن اللّه خلق الإنسان حراً وسيداً على إرادته] (الرسالة إلى اتوليكوس ٢ : ٢٧ مجلداً ٥ : ٢٥-٣١).

ونظراً لأهمية هذه الفقرة، وحتى لا يظن القارئ أننا وجدنا إشارةً شاردةً إلى أنَّ الإنسان هو سبب موته، رأينا أنه من الضروري أنْ نترجم فقرةً كاملةً من العظة الثانية عشر على نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس النيسي:

[خلق اللّه كل الأشياء جميلة جداً حسب شهادة سفر التكوين" (١ : ٣١).ومن ضمن هذه المخلوقات الجميلة جداً (الفائقة الجمال)، الإنسان الذي زينه اللّه بجمال آخر لم يُعطَ لغيره من المخلوقات، وما هو أجمل من "صورة الجمال الذي لا يفسد" أي الصورة الإلهية؟ وإذا كانت كل المخلوقات فائقة الجمال، وكان الإنسان ضمن هذه المخلوقات، فإنه بكل يقين لم يكن الموت في الإنسان *Death certainly was not present in him* لأن الإنسان لن يكون جميلاً لو كان ختم الموت القذر فيه، لأن الإنسان كان قد خُلِقَ ليكون صورة ومثال الحياة الأبدية، ولذلك فهو جميل وصالح ومزين ببهاء الحياة] (العظة ١٢ على سفر نشيد الأناشيد مجلد ٤٤ : ١٠٢١ وما بعده)[2].

فمن الواضح هنا أنَّ الله لم يخلق الموت، بل خلق الحياة.

ويعلق القديس غريغوريوس النيسي على قصة سفر التكوين ويقول:

[كان فردوس اللّه قد خُلِقَ من أجل الإنسان، وكان مملوءاً

---

(١) يقول يوحنا الدمشقي عن الشركة في الطبيعة الإلهية "والتأله اشتراك في الضياء الإلهي، لا انتقال إلى الجوهر الإلهي" المائة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي - تعريب الأب ادريانوس شكور - منشورات المكتبة البوليسية ١٩٧٣ ص ١١٦.

(٢) راجع الترجمة الإنجليزية: Gregory of Nyssa: Commentary on the Song of Songs, translated by C.- McCamblery- مقدمة بقلم أستاذ الآباء في جامعة اثينا Panagiotes Chresteu الناشر Hellenic College Press, 1987 صفحات ٢١٦ وما بعدها.

بكل أنواع الشجر. وكانت وصية الله هي قانون الحياة الذي وعد الإنسان بعدم الموت إذا حفظ الوصية. وكان في وسط الفردوس شجرة الحياة، ومن الضروري أنْ نسأل لكي نفهم ما هو المقصود بشجرة الحياة؟ ولكن كان أيضاً في الفردوس شجرة أخرى ثمرتها تعطي الموت، وكانت في معرفة الخير والشر. وكانت هذه الشجرة أيضاً في وسط الفردوس. لا يمكن أنْ نتصور إنَّ الشجرتين معاً كلاهما في نفس المكان، أي وسط الفردوس، فإذا كانت واحدة في مركز الدائرة تعذر على الثانية أنْ تكون في مركز الدائرة. شجرة واحدة فقط يجب أنْ تبقى في مركز الدائرة، لأن لأي دائرة مركز واحد. وإذا أخذ مركز دائرة مكان المركز الأول طرد الدائرة الأولى وحلت الدائرة الثانية محلها، وهكذا حلت شجرة معرفة الخير والشر محل شجرة الحياة وطردتها من الدائرة، وجاءت الشجرة الثانية لتعطي ثمرة الموت. والذي أعطاها هذا الاسم هو القديس بولس بقوله إنَّ ثمرة الخطية هي الموت (رو ٦ : ٢٣)] (المرجع السابق راجع الترجمة الإنجليزية ص ٢١٦).

ويستطرد القديس غريغوريوس النيسي شرحه قائلاً:

[والدرس الذي يجب أنْ نتعلمه هو أنَّ الحياة هي المركز الأصلي لكل عمل الله، ولم يغرس الله الموت، ولم يكن له جذر ولا مكان له في الفردوس، لأن الموت عقيم، ولأن الحياة كانت هي مركز كل شئ خلقه الله، وللموت طبيعة، وهي فقدان *Cessation* الحياة] (المرجع السابق).

وماذا حدث عندما أكل الإنسان من شجرة معرفة الخير والشر؟

يجيب القديس غريغوريوس النيسي في نفس العظة السابقة:

[كانت الشجرة التي لها ثمرة الموت هي رمزٌ يُقدم لنا عن تضاد الحياة والموت في مركز الفردوس. وتقول كلمات سفر التكوين إنها شجرة كانت للخير والشر، وتشير هذه

العبـارة بالـذات إلى طبيعـة الخطيـة، لأن اللـذة تـسبق كـل عمـل شـرير، ولا توجـد خطيـة ليـست مكبلـة بـنير اللـذة، وعلـى سـبيل المثـال الخطيـة المرتبطـة بالغـضب والـشهوة (الجنـسية). ولـذلك الـسبب قيـل إنَّ ثمـرة الـشجرة "جميلـة وشـهية للعيـون" وهـذا مرجعـه انعـدام الإفـراز عنـد الـذين يجدون الخير في اللذة. وحقاً كـان نتيجة كل هذا هـو أنْ صارت ثمرة الشجرة مرة جداً حسب سفر الأمثال "تقطران عـسلاً وحنكهـا أنعـم مـن الزيـت لكـن عاقبتهـا مـرة كالأفـسنتين" (أم ٥ : ٣) هكـذا قطـع الإنـسان نفـسه مـن ثمـار الخـير وامـتلأ بـالأُمور الـتي تجلـب الخـراب بواسـطة المعصية، واسم هذه الثمرة الموت المؤدي للخطية

Death .yielding Sin.

. ومـات الإنـسان فـوراً عـن الحيـاة الـصالحة، وقـايض الحيـاة الإلهيـة بالحيـاة الحيوانيـة الخاليـة مـن التعقـل. وعنـدما امتـزج المـوت بالطبيعـة الإنـسانية، انتقـل المـوت مـن جيـل لجيـل بواسـطة التناسـل. وهكـذا صـارت حياتنـا موتـاً، وماتـت حياتنا، وحقاً فقدنا الخلود. والإنسان الـذي يدرك هـذا عليـه أنْ يعبُـر مـن المـوت إلى الحيـاة، أي بالقـضاء بـالموت علـى الطبيعـة الأولى الميتـة لكـي تنـال الطبيعـة الجديـدة الانتـصار علـى الطبيعـة القديمـة، وبـالموت بـادل الإنـسان الحيـاة الحقيقيـة بالحيـاة الميتـة، ولـذلك إذا مـات عـن الحيـاة الحيوانيـة، انتقـل إلى الحيـاة الأبديـة. وبـدون شـك لا يمكـن لإنسان أنْ ينتقل إلى الحياة السعيدة إلاَّ إذا مات عن الخطيـة. وشـرح سـفر التكـوين هـذه النقطـة بالإشـارة إلى الـشجرتين اللـتين كانتـا في وسـط الفـردوس، الأولى كانـت بالطبيعـة هـي الحيـاة والثانيـة جـاءت بعـد ذلـك لمركـز يطـرد الحيـاة. وتحـول الحيـاة إلى مـوت يحـدث إمَّـا بالـشركة في الحيـاة أو بفقـدان الحيـاة. ومَـن يمـوت عـن الـصلاح يحيـا للـشر، ومَـن يمـوت عـن الـشر يحيـا للفـضائل] (المرجع السابق ص ٢١٦ـ٢١٧).

[هكذا صارت حياتنا موتاً]

(عظة ١٢ على النشيد مجلد ٤٤ عامود ١٠٢١).

موتـــاً تمــوت

لم يمت الإنسان يوم سقط، بل عاش بعدها .. عاش حياةً تحت سيطرة الموت أو حسب تعبير القديس غريغوريوس **"حياةً ميتةً"** .. ولكن الموت الذي يقصده سفر التكوين هو الموت الروحي، وليس الموت الجسداني؛ لأن آدم عاش بعد طرده من الفردوس ٩٣٠ سنة (تك ٥ : ٥) والموت الروحي هو اغتراب النفس الإنسانية عن مصدر الحياة. اغترابٌ يؤدي إلى الانفصال.

يقول المزمور «هوذا البعداء عنك يبيدون (يهلكون) تهلك كل مَن يزني عنك» (٧٣ : ٢٧) وعندما يرفض الإنسان الشركة مع الله، ويغترب عن الله فكرياً حسب كلمات الرسول بولس وهو يصف حالة الأُمم بدون الإيمان بالمسيح «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين (غرباء) وأعداء في الفكر في الأعمال الشريرة قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت» (كو ١ : ٢١). فالله هو الحياة، وخالق الحياة وواهب الحياة. وهنا بشكل خاص نرى التعليم الرسولي المسلَّم لنا من القديس بولس قبل أنْ نقدم الشرح الآبائي يؤكد أنَّ الإنسان هو الذي جلب الخطية وجلب الموت.

«بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت» (رو ٥ : ١٢).

فقد كانت الخطية ـ وليس الله ـ هي التي جاءت بالموت، ويقول الرسول مرةً ثانيةً شوكة الموت هي الخطية (١ كو ١٥ : ٥٦).

ويعلِّق القديس باسيليوس في عظةٍ بعنوان **"لم يخلق الله الشر"**، ويقول:

[الموت هو انفصالٌ عن الحياة أي الله، والخطية هي التي جاءت بهذا الانفصال، فصارت شوكة الموت هي الخطية]

(الفقرة السابعة من العظة مجلد ٣١ : ٣٤٥).

ويقول القديس ايسيذوروس البيلوسي أُستاذ ومعلم القديس كيرلس السكندري:

[لم يكن موت آدم هو انفصال النفس عن الجسد، وإنما انفصال الروح القدس عن النفس هو الذي جلب الموت على النفس] (رسالة ٣٦ فقرة ٣).

ويقول القديس غريغوريوس النيسي في العظة الثانية ضد انوميوس:

[في اليوم الذي قيل فيه موتاً تموت صدر الحكم ومات آدم روحياً] (مجلد ٤٥ : ٥٤٥).

فالموت كما يقول القديس مكاريوس في العظات الروحية:

[الموت الحقيقي كامن وخفي في القلب، فقد مات الإنسان روحياً أو داخلياً] (العظة الثانية فقرة ٤٢ من النص اليوناني).

الموت الروحي هو الخطية

يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي:

"توجد حياة واحدة يجب أنْ نطلبها. ويوجد موت واحد، وهو الخطية؛ لأن الخطية هي هلاك النفس" (عظة ١٨ في جناز والده فقرة ٤٢ مجلد ٣٥ : ١٠٤١).

ويؤكد كلام القديس غريغوريوس، عبارة الرسول يعقوب التي لا ينسب فيها الموت لله لأنه يقول «الخطية إذا كملت تنتج موتاً» (١ : ١٥).

هل الله هو المسئول عن الموت، وهل خلق الموت؟

يقول القديس ثاؤفيلوس الانطاكي:

[اللّه لم يخلق الموت] (رسالة إلى اتوليكوس ٢ : ٢٧ مجلد ٥ : ٢٥ ـ ٣١).

ويقول القديس اثناسيوس الرسولي مؤكداً ذلك:

[ولكن البشر ابتعدوا عن الأُمور الأبدية بمشورة الشيطان، وتحولوا إلى الأُمور الفاسدة، صاروا سبب فسادهم بالموت] (تجسد الكلمة ٥ : ٢ ـ النص اليوناني ـ جامعة اوكسفورد ـ *Oxford Early Christian Texts* ـ تحقيق الأستاذ: 1971 *R.W. Thomson* ص ١٤٤ ـ الترجمة الإنجليزية ص ١٤٥).

وياليت القارئ الذي يجيد اليونانية يقرأ النص اليوناني:

"لكن البشر	* οι δε ανθρωποι
"ابتعدوا عن الأُمور الأبدية	* αποστραφεντες τα αιωνια
"وبمشورة الشيطان	* και συμβουλια του διαβολου
"تحولوا إلى الأُمور الفاسدة	* εις τα της φθορας επιστραφευτες
"صاروا سبب فسادهم بالموت"	* εαυτοις αιτιοι της εν τω θαντω.

"But men, turning away from things eternal and by the counsel of the devil turning towards things corruptible, were themselves the cause of the corruption in death".

ولم يكن السؤال عن مصدر الموت سؤالاً حديثاً جاء مع القرن العشرين، بل كان ولا يزال سؤال عدد كبير من الناس. ونلاحظ أنَّ القديس امبروسيوس لم يهمل الرد على هذا السؤال في عظاته عن "الفردوس"، وهي العظات التي ساهمت في إيمان الشاب أوغسطينوس بالمسيحية. فيقول امبروسيوس:

إتوجد مشكلة أُخرى لابد من حلها. من أين جاء الموت لآدم وما هو مصدره؟ هل كان الموت في طبيعة الشجرة نفسها، أم أنه أصلاً من الله؟ إذا نسبنا الموت إلى طبيعة الشجرة، جعلنا ثمرة الشجرة أقوى من الحياة التي وهِبَت بنفخة الله (تك ٢ : ٧) لأن ثمرة الشجرة جاء بمخاض الموت لمَن نال الحياة بنسمة الله. وإذا قلنا وتمسكنا بأنَّ الله هو المسئول عن الموت، فإننا نتهم الله بالتناقض *Inconsistency* لأننا - كما يبدو - نتهمه بالخلو من الصلاح، أو أنه قاسٍ؛ لأنه لا يريد أنْ يغفر رغم أنه يملك القدرة على المغفرة، أو أنه عاجزٌ عن المغفرة. ماذا نقول؟ وما هو الرد المناسب على هذا السؤال. والرد كما يبدو لي - إلاَّ إذا كنت مخطئاً - هو في أنَّ العصيان نفسه هو مصدر الموت، ولذلك السبب لم يكن الله هو مصدر الموت، بل الإنسان نفسه هو مصدر موته *agent of his own death* والمثال التالي يوضح ما أريد أنْ

أقول، إذا وصف طبيبٌ دواءً لمريض أو طلب منه أنْ يمتنع عن أشياء معينةٍ، ثم ظن المريض أنَّ هذا التحريم هو غير ضروري، فإن موت المريض لا يكون مسئولية الطبيب، بل يقع الذنب على المريض نفسه، فهو الذي تسبب في موته *his own death* وهكذا كان الله هو الطبيب الصالح الذي منع آدم من الأكل حتى لا يصبح الأكل من الشجرة هلاكاً له] (القديس امبروسيوس، سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٤٢ عنوان الكتاب: *Hexameron, Paradise and Cain and Abel, 1961, p313* ـ الترجمة الانجليزية: *John J. Savage*).

وحسب عبارة القديس اثناسيوس يجب أنْ نضع المسئولية على الإنسان. وبعبارةٍ صريحةٍ يقول القديس غريغوريوس النيسي:

"لم يخلق الله الموت، وإنما أب ومصدر الموت هو ملك الشر أي الشيطان، لأن الموت دخل إلى العالم بحسد الشيطان" (شرح المزامير، مزمور ١٦ مجلد ٤٤ : ٦٠١).

وبحسب النص الإنجليزي:

" We know that God did not make death, but the father of the death, the king of evil" *(Gregory of Nyssa, Commentaries on the inscuptions of the Psalms ـ Translated by C.Mc Cambely Hellenic College Press, p139).*

ويؤكد هذا عبارة الرسول بولس التي يشرح فيها سبب التجسد وقوة عمل الفادي ربنا يسوع المسيح «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (عب ٢ : ١٤).

ومن الخطأ والخطر أنْ نظن إنَّ الله اشترك مع الشيطان في استعباد الإنسان. يقول العلامة أوريجينوس:

[إنه في اليوم الذي فيه أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر، ماتا معاً موتاً روحياً، ولم يكن الله هو الذي

تسبب في موتهما، وإنما الشيطان قاتل الإنسان] (شرح إنجيل يوحنا ٢٠ : ٢٥ مجلد ١٢ : ٢٣٢).

ويؤكد ذلك أيضاً القديس غريغوريوس العجائبي أُسقف قيصرية الجديدة في إحدى عظاته:

[كانت حواء كمن يرقص في الفردوس بعقل في حالة التشتت الذي يعرفه المراهقين، ولذلك قبلت كلمات سيد الخداع أي الشيطان دون أي احتراس، وهو ما أفسد حكمة العقل، وسكب الشيطان السم الممزوج بالموت في الفكر، وبذلك جلب الموت وقدَّمه لعقل الإنسان ومن آدم إلى كل العالم](عظة ١ مجلد ١٧ : ٣٥١).

وعندما أخطأ الإنسان، كان الموت هو ثمرة الخطية، وهو أمر لا يمكن أنْ يُنسب إلى الله. يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي:

[يجب أنْ نؤمن بأنَّ الشر بلا جوهر، بلا سيادة، ليس أزلياً، ولا هو كائن بذاته، لم يخلقه الله، وإنما هو من صُنع الإنسان ومن صُنع الشيطان، وبسبب إهمالنا دخل الشر إلى العالم، ولكن الله لم يخلقه] (عظة ٤ : فقرة ٤٧ مجلد ٣٥ : ٥٧٢).

ويقول القديس باسيليوس مؤكداً:

[لا يمكن أنْ نعتبر الله مسئولاً عن الشر؛ لأن الله صالحٌ بالطبيعة .. وهو ليس خالق الجحيم، بل نحن الذين خلقنا الجحيم لأنفسنا، ولذلك أيضاً لا يمكن الإدعاء بأنَّ الله خلق الموت، وإنما نحن بمشورة الشيطان احتضنَّا *embraced* الموت] (لم يخلق الله الشر المرجع السابق مجلد ٣١ : ٣٣٢).

وهنا نرى كيف يُعبِّر واحدٌ من أهم لاهوتي الكنيسة البيزنطية وأكثرهم اتصالاً بالغرب، وهو غريغوريوس بالاماس، فيرد على سؤال هل قتل الله الإنسان؟:

[يستطيع الذين يسألون عن معنى كلمات سفر التكوين "يوم تأكل منها موتاً تموت" إنَّ الكلمات نفسها لا تقول لنا

إنَّ اللّه خلق الموت بنوعيه الجسداني والروحي؛ لأن اللّه لم يعطِ وصيةً نافذةً يقول فيها "مُت" في اليوم الذي تأكل من الشجرة المحرمة، بل بالحري قال "ستموت" (تكوين ٢ : ١٧) ولم يقل اللّه فوراً عُد إلى التراب الآن، أي مُت فوراً، وعُد إلى التراب الذي خُلِقتَ منه، ولكن قال "ستعود إلى التراب" (تكوين ٣ : ١٩) بهذه الكلمات أعلن اللّه وسمح بأنه لن يمنع نتائج المعصية][1].

الموت فقدان الحياة

إذا كان الموت كما يقول القديس غريغوريوس النيسي هو **"فقدان الحياة *Cessation*"** تعذر علينا أنْ نتصور إنَّ الله خالقٌ للموت؛ لأن فقدان الحياة جاء مع الخطية، وهو الموت. ولم يقل الله للإنسان مُت، كما قال ليكن نور، بل أصدر حكم الموت وترك حرية الاختيار للإنسان، وهذا يحتم علينا أنْ نراجع التسلسل السابق لنرى أنَّ تعليم الآباء يقوم على حقائق واضحة:

١ـ خلق الله الحياة ولم يخلق الموت.

٢ـ دخل الموت إلى العالم بالخطية.

٣ـ جلب الإنسان على نفسه حكم الموت.

الخلود الطبيعي والخلود بالنعمة

كانت عقيدة آبائنا من قدماء المصريين إنَّ النفس خالدةٌ بالطبيعة لا تموت، وإنَّ النفس ستعود إلى الجسد، ومن هنا جاءت فكرة التحنيط. وعند فلاسفة اليونان كانت فلسفة أفلاطون لا سيما في الحوار الذي دار مع سقراط وبشكل خاص فيدروس *Phaedrus* (فقرة ٢٤٥ *D_C* من الطبعة الدولية) حيث تظهر النفس عديمة الموت خالدة بالطبيعة **"كل نفس خالدة بالطبيعة"**. وكان أفلاطون هو مؤسس فكرة تناسخ الأرواح *Transmigration* في الحضارة اليونانية القديمة. وقد

---

[1] راجع: Κεφαλαια φυσικα, θεολογικα. راجع أيضاً الترجمة الإنجليزية:
Published in the Philokalia of the Niptic Fathers, Athens vol 4,p153

جمع نصوص الفلاسفة نموسيوس الحمصي *Nemesios Emessa* نشرها في كتاب بعنوان "طبيعة الإنسان"، وكانت فكرة خلود النفس بالطبيعة وموت الجسد هي إحدى المشاكل الفكرية التي تصدى لها الآباء، لذلك كان نيموسوس *Nemesios* يسأل كيف يمكن مصالحة خلود النفس مع موت الجسد؟ وكان تناسخ الأرواح هو أحد الإجابات، لأن "تعاقُب الحياة والموت هو دائرة طبيعية في الكون لا يمكن أن تتغير، فالإنسان يُولد ويموت لكي يولد مرةً ثانيةً وثالثةً في تعاقُبٍ لا ينتهي".

من هنا جاء رفض هذا التعليم الذي يسخر منه يوحنا ذهبي الفم سائلاً:

[ما هي جدوى عودة الإنسان لكي يحيا بجسد خنزير أو حمار أو ربما في حيوانات أقل وضاعةً]. (عظة ٢ : ٣ على إنجيل يوحنا).

وحتى أرسطو أشهر علماء اليونان يقول في كتابه عن النفس: "إنَّ النفس مكونةٌ من ثلاثة عناصر، وعنصر واحد فقط هو الخالد وعديم الموت وهو العنصر الذي لا يتصل بالعنصرين الماديين الآخرين" (فقرة *II b_8_10*).

لماذا رفض الآباء فكرة أو تعليم الخلود الطبيعي للإنسان؟[١]

١ـ كانت عقيدة المسيحية "الخلق من العدم" هي القاعدة التي بنى عليها الآباء تمييز الصواب والخطأ في تعليم المدارس الفلسفية. من أين جاءت الخليقة بالوجود والحياة والنمو؟ لو قلنا الطبيعة، فالأمر لا يحتوي فقط على إنكار وجود خالق، بل أيضاً هو تعليم بأزلية الكون. وهذا ينطوي على تحذير لَمن يُعلِّم بأنَّ الإنسان خالدٌ بالطبيعة لا يموت روحياً أو جسدياً، بأنه ينتمي إلى الفلسفة اليونانية، ويُعلِّم بأزلية الكون والخليقة دون أنْ يدري؛ لأن خلود النفس بالطبيعة وموت الجسد هو القاعدة الفلسفية لمدرسة تناسخ الأرواح.

٢ـ وحتى خلق الإنسان على صورة الله ومثاله لا يؤدي إلى التعليم بالخلود الطبيعي، ولا إلى القول بالاعتقاد القديم بأنَّ النفس أو الروح هي من طبيعة

(١) راجع بحث الأسقف يوحنا زيزيولاس - الوجود شركة - مركز دراسات الآباء - مايو ١٩٨٩ حيث عرض الأساس المسيحي اللاهوتي للتعليم بالخلق من العدم ورفض أزلية الكون ورفض اعتبار أن الله والكون وحدة واحدة لا يمكن فصلها - ابتداء من ص ١٤ وبشكل خاص ص ٣٧ وما بعدها.

الله، بل يؤكد أَّن صورة الله ومثاله هي نعمة وُهِبَت للإنسان، وهي تبقى إذا بقى الإنسان في الشركة.

٣ـ وهكذا شرح الآباء:

[إنَّ صورة اللّه ومثاله هي هبة وعطية معرفة الإنسان بخالقه]

(ذهبي الفم عظة ١٤ : ٥ على سفر التكوين مجلد ٥٣ : ١١٧).

[كان الخلود نعمة وهبت للإنسان قبل السقوط]. (ذهبي الفم عظة ٢١ : ٢ على سفر التكوين مجلد ٥٣ : ١٧٧).

يؤكد ذلك أيضاً القديس اثناسيوس في كتاب تجسد الكلمة حيث يذكر أنَّ النعمة الأولى كانت نعمة الخلق، والنعمة الثانية كانت عطية الصورة الإلهية، ولكنها كانت تحتاج إلى الوصية والفردوس لكي لا تميل إرادة الإنسان نحو الشر ويخسر العطية الإلهية. يقول أثناسيوس:

[ولأن اللّه يعلم أنَّ حرية الإرادة عند البشر تجعلهم قادرين على أنْ يميلوا إلى إحدى الجهتين (الخير أو الشر) ثبَّت النعمة التي وهِبت لهم بالوصية، وبالمكان الذي اختاره لهم، لأنه جاء بهم إلى الفردوس وأعطاهم الوصية حتى إذا حفظوا النعمة وظلوا صالحين ينالون سعادة الفردوس بدون حزن أو ألم أو اهتمامات بالإضافة إلى الوعد بعدم الفساد في السماء] (تجسد الكلمة طبعة جامعة اوكسفورد النص اليوناني الفصل الثالث فقرة ٢٥ ـ ٣٠ ص ١٤٠).

وعندما يدعم القديس اثناسيوس التسليم الآبائي بأن **"حفظ الشريعة هو ضمان عدم الفساد"** (تجسد الكلمة فصل ٤ النص اليوناني ص ١٤٤ فقرة ٢٣ـ٢٥) فإن نفس التعليم يذكره القديس غريغوريوس النيسي بالحرف في العظة ١٢ على سفر النشيد مجلد ٤٤ : ١٠٢٠.

هكذا حسب التسليم الآبائي كان أمام الإنسان اختيارين: إمَّا الحياة حسب نعمة الصورة التي يحفظها بحفظ الوصية، وإمَّا الموت إذا اختار الشر.

هذا يؤكد لنا أنَّ الخلود أو عدم الفساد لم يكن طبيعة في الإنسان، بل نعمة يمكن أنْ يفقدها ليقع تحت سلطان الموت.

الموت الروحي الذي يرافق موت الجسد

لقد أشرنا من قبل إلى تحذير الأب شميمان عن تأثر الكنيسة بالديانات الأُخرى، فما هو هذا التأثر بالتحديد.

١ـ اعتبار أنَّ الروح الإنسانية بعيدة تماماً عن كل ما يمكن أنْ يندرج تحت كلمة الموت، وإنها لا تتأثر بالمرة بالخطية.

٢ـ اعتبار أنَّ الموت ظاهرة جسدانية بحتة.

يبدأ سقوط الإنسان أولاً على المستوى السمائي، أي بارتداد الشيطان عن الحياة الحقيقية، الحياة في شركة مع الله .. هذا ما نؤكده في صلواتنا وبشكل خاص **"الموت الذي دخل بحسد إبليس"**، فقد جلب معه الشيطان الغواية، أي تعدي حدود الطبيعة الإنسانية.

أشار العهد القديم إلى الموت الروحي في عبارة موجزة **"**لأنه هوذا البعداء عنك يبيدون تهلك كل مَن يزني عنك**"** (مز ٧٣ : ٢٧) وعندما نترك مصدر الحياة أي الله، يقول القديس باسيليوس إنَّ هذا يسبب الموت الروحي. وهو يحدد الموت الروحي بأنه:

> [هو الانحلال الروحي وتعدي حدود الطبيعة الذي يخلق الفوضى الفكرية والنفسية ويحول ما هو صالح ومصدر للحياة إلى ما هو عكس ذلك أي الموت] (عظة على الحسد فقرة ٦ مجلد ٣١ : ٣٨٥).

دخلت مع الخطية "اللاعقلانية" أي التهور والتمادي وانعدام الحس العقلي (بالمعنى الإنجيلي لا بالمعنى الفلسفي)[١] وعندما أخطأ آدم، دفعت الخطية الأُجرة أي الموت (رو ٦ : ١٣) ومنذ أنْ كتب العلامة أوريجينوس العظات على سفر التكوين ساد في التسليم الآبائي كله إنَّ الموت هو انفصال عن مصدر الحياة لأن شوكة الخطية هي الموت. لم يزرع الله هذه الشوكة، وإنما زرعتها الخطية (راجع مكسيموس

(١) الحس العقلي حسب الإنجيل هو أن نعمل كل شيء حسب المحبة لله وللقريب، حتى لو كانت أعمالاً شاقة أو مؤلمة؛ لأن المحبة الباذلة ليست مثل المحبة الأسيرة لشهوات وغرور الحياة التي تبرر أفظع الأعمال جرياً وراء المصلحة الشخصية.

المعترف ـ المئوية الثانية عن المحبة فقرة ٦٣ ـ الفيلوكاليا ـ المجلد الثاني ص ٨١).

[فالموت الروحي هو فساد صورة الله في الإنسان. الفساد الذي لا يسمح بأنْ يحيا الإنسان حسب الله، بل يحيا حياةً ممزقةً بين الفضيلة والرذيلة، النور والظلمة، حياة روحية تتخبط]

(القديس غريغوريوس النيسي ـ طبيعة الإنسان فقرة ١٨ مجلد ٤٤ : ١٩٣ ـ راجع أيضاً العظات على التطوبيات العظة الأولى ١ مجلد ٤٤ : ١١٩٧).

وهكذا حدد الآباءُ الموتَ في انعدام الصلة بين الإنسان وروح الحكمة وروح الحياة أي الروح القدس. يقول القديس ايسيذوروس الفرمي، وهو أُستاذ القديس كيرلس عمود الدين:

[عندما أخطأ آدم لم يكن موته هو موت الجسد، وانفصال الجسد عن النفس، بل انقطاع الصلة بين النفس والروح القدس] (رسالة ١٣ فقرة ٨).

وعندما قال الله «موتاً تموت» (تكوين ٢ : ١٧) **"لم يكن هذا موت الجسد، بل موت الروح"**، وهذه ملاحظة القديس غريغوريوس النيسي لأن آدم عاش عدة مئات من السنين بعد أنْ طُرِدَ من الفردوس (طبيعة الإنسان فقرة ١٦ مجلد ٤٤ : ١٨٠).

"ووجود الخطية في الروح الإنسانية" كما يقول أكليمنضس الإسكندرية **"هو وجود الموت"** (المتنوعات ٨ : ٣ ـ مجلد ٨ : ٣٣). ولعل أقدم ما وصلنا من كتابات الآباء عن الموت الروحي ليس فقط الفقرة السابقة في كتاب المتنوعات بل يقول القديس ثالسيوس *Thalassios* وهو من آباء القرن الثاني: **"مرض النفس الحقيقي هو محبة الشر، وموت النفس هو أنْ تنفذ ما تشتهيه"** (راجع الفيلوكاليا ـ الترجمة الانجليزية المجلد الثاني ص ٣١٨).

ولذلك يقول القديس مكاريوس المصري الكبير:

[الموت الحقيقي كامن في القلب ومختفٍ فيه، وهناك في القلب ذاق الإنسان الموت] (راجع الأصل اليوناني العظة الثانية على حراسة القلب فقرة ١٦ ـ مجلد ٤٢ : ١٧٩).

وقد لاحظ القديس كيرلس عمود الدين إنَّ عبارة النبي أشعياء "الجالسون في كورة الموت وظلاله"، هي عن الجنس البشري. ويشرح هذه العبارة بشكل ملفت للنظر:

[يقول الله إنهم سيجلسون في كورة الموت وأرض الظلال أي ظلال الموت، لأن ما آلت إليه الإنسانية هو الظلمة والضباب الروحي الكثيف الذي يجعلنا أمواتاً نحيا في الموت. والظل الذي يكوِّنه أي جسم لا يختلف عن الموت، بل هو يشبهه إلى حدٍ بعيد، لأننا في ظلال الموت صرنا نجهل الإله الحقيقي، وهذا يعني أننا نقلِّد الحق كما يقلِّد الظل حجم الجسم دون أنْ يكون جسماً] (على أشعياء ٩ : ١-٣ مجلد ٧٠ : ٢٤٨).

وهكذا يلاحظ القديس يوحنا ذهبي الفم أنَّ الرسول بولس في كولوسي (١ : ٣) لم يذكر فقط الظلمة، بل **"سلطان الظلمة الذي له سيادة علينا، والذي نقلنا منه المسيح لأنه ينير الموت الروحي الذي يتسلط علينا"** (عظة ٢ : ٣ على كولوسي ١ : ١٣ مجلد ٦٢ : ٣١٣).

وتسلط الظلمة علينا يسميه القديس يوحنا ذهبي الفم العبودية للخطية لأن أصل الموت والظلمة كامن في الخطية:

[يصف الرسول مَن يحيا في الخطية كمَن هو نائم وميت، يتنفس مثل النائم، ولكنه يتنفس النجاسة والنتانة التي تصدر عن جثة ميتة، وكما أنَّ النائم لا يرى لأن عينيه مغلقة، بل يحلم ويتخيل، هكذا كل مَن هو ميت روحياً] (عظة ١٨ على أفسس مجلد ٦٢ : ١٢٢).

ولأن الخطية هي مصدر الموت، يقول القديس غريغوريوس النزينزي في العظة التي ألقاها في جنازة أبيه:

[توجد حياة واحدة، علينا أنْ نطلب هذه الحياة. يوجد موت واحد وهو الخطية أي هلاك النفس وتخلق الخطايا فينا ما يشبه الأحلام التي تشبه الواقع، وهي تجعل الخطاة يسخرون من الواقع، بينما هم في الواقع يعيشون خيالات كاذبة تحيا في نفوسهم] (عظة ١٨ فقرة ٤٢ - مجلد ٥٣ : ١٠٤١).

لماذا لم نعد إلى العدم؟

الخلود بالنعمة يعني أننا نبقى في الوجود بفضل القدرة الإلهية، ولا يعني بالمرة أننا نبقى لأن لدينا قدرةً على البقاء. ونلاحظ أن القديس أثناسيوس قد استخدم أكثر من مرة الكلمة اليونانية "μενειν" "**البقاء**".

[صوَّر الخالق الجنس البشري بالشكل الذي أراد به أنْ يبقى] (الرسالة إلى الوثنيين ٣ : ١).

ولكن السقوط جاء بنوع آخر من البقاء؛ لأن النفس الإنسانية خُلِقَت لكي ترى الله ولكن السقوط جعل النفس الإنسانية:

[لم تبقَ كما خُلِقَت، بل تدنست ... لقد خُلِقَت لكي ترى اللّه وتستنير به، ولكنها طلبت الأُمور الفاسدة بدلاً من اللّه، والظلمة بدلاً من النور] (الرسالة إلى الوثنيين ٧ : ٢٥-٣٠).

فالمقارنة هنا هي بين بقاء وبقاء. البقاء الأول يقول عنه أثناسيوس إنَّ الله أراد بعطية الصورة الإلهية، وبالحياة في الفردوس **"أنْ يبقى في السعادة"** (تجسد الكلمة ٣ : ٢٠ ـ ص ١٤٠).

البقاء في الصلاح هو غاية عطية الصورة وحفظ الوصية (تجسد الكلمة فصل ٣ كله).

البقاء الثاني هو **"البقاء في الموت"** في حالة التعدي (تجسد الكلمة ٣ : ٣٣ ص ١٤٠).

فالخلق عند القديس اثناسيوس ـ كما هو في التسليم الآبائي ـ هو خلقٌ من العدم. وهنا يشرح اثناسيوس هذه الحقيقة بقوله:

"ولما كانت كل الطبائع المخلوقة حسب حدود طبعها في حالة تغيُّر، وقابلة للفساد (الانحلال) فلكي يمنع اللّه هذا، ولكي يحفظ الكون من الانحلال والعودة إلى العدم، بعدما خلق كل شيء بواسطة كلمته الأزلي الذي به جاء بالخليقة إلى الوجود لم يتركها لئلا تطوح بها طبيعتها المتغيرة وتتعرض إلى العودة إلى العدم" (الرسالة إلى الوثنيين ٤١ : ١٥-٢٠ ص ١١٤).

فالذي يحفظ الخليقة هو حضور الكلمة فيها قبل تجسده. وعندما تغيب هذه الحقيقة

من أذهاننا نقع في تصور الغنوصية القديم، أي وجود هوة بين الله والكون. وهنا يجب أنْ نبرز حقيقة نعرفها جيداً وننساها في أغلب الأوقات، وهي أنَّ لقب محب البشر "Φιλανθρωπος" هو أحد صفات الله وهو اللقب الذي تذكره دائماً كنيستنا في الأواشي بشكل خاص (راجع الرسالة إلى الوثنيين ٣٥ : ٣٢ ص ٩٤).

فالله صالح وصلاحه لا يجعله يبخل أو يضن بالوجود. فالخلق من علامات محبة الله ولذلك يؤكد اثناسيوس أنَّ الله **"يود أنْ تنال الكائنات وجودها لكي يمارس معها محبته"** (الرسالة إلى الوثنيين ٤١ : ١٤ ـ ١٦ ص ١١٤).

> [ولأن اللّه كائنٌ في الخليقة ويحتوي كل الكائنات ولا يحتويه أي كائن .. هو فوق الكون حسب جوهره، ولكنه في كل الأشياء بقوته، يسوس كل الأشياء ويحفظ كل الأشياء بعنايته، يحي كل الأشياء، على حدة ومجتمعة معاً، يحتوي الكون كله ولا يحتويه الكون] (تجسد الكلمة ١٧ : ١ـ٥ ص ١٧٤).

هكذا يجب أنْ نفهم إيماننا الأُرثوذكسي، أنَّ محبة البشر وحضور الله في الخليقة ووجوده بقوته في كل الأشياء هو الذي حفظنا من العودة إلى العدم. نحن بنعمته نبقى في الوجود وبنعمته نحيا إلى الأبد.

نعمة الحياة الأبدية في المسيح

لو أنَّ الخلود طبيعة فينا وليس نعمة، فما هو الجديد الذي جاء به الابن المتجسد، وما هي نعمة المسيح؟ هل تقتصر هذه النعمة فقط على قيامة الجسد، وهل نحن خالدون بالطبيعة وكل ما نحتاج إليه هو جسد القيامة؟ إنَّ إجابة هذا السؤال الأخير بالإيجاب تؤكد لنا أنَّ صاحب الإجابة هو غير مسيحي، أو هو مسيحي تأثر بالديانات الأُخرى. وحتى لا نُتهم بتأييد هرطقات شهود يهوه وغيرهم .. ماذا تقول نصوص الكتاب المقدس الواضحة التي لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير؟

يقول الرب بفمه الإلهي «أتيت لتكون لهم حياة» (يو ١٠ : ١٠) ولذلك يقول

الإنجيلي في خاتمة الإنجيل «إذا آمنتم تكون لكم حياة باسمه» حياة نناها في السر المجيد في الخبز الحي النازل من السماء الواهب الحياة للعالم" (يوحنا ٦ : ٥١) ولذلك يقول الرب «مَن يأكلني يحيا بي» (يوحنا ٦ : ٥٧). بل وفي خلق العالم، وعندما جئنا من العدم كانت حتى الحياة الطبيعية البيولوجية منه هو «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١ : ٤) ولذلك السبب، ولأنه مصدر الحياة بكل أشكالها قال «أنا هو الطريق والحق والحياة» و«أنا هو القيامة والحياة» (يوحنا ١٤ : ٦ ـ ١١ : ٢٥).

وقد يجول سؤال في عقل القارئ، هذه الكلمات تؤكد أنَّ المسيح هو مصدر الحياة، ولكنها لا تؤكد أنَّ المسيح هو واهب الحياة الأبدية ـ حياة عدم الموت ـ حياة الشركة في الله في الأبدية. نقول: لقد وردت كلمة الحياة الأبدية ٢٥ مرة في العهد الجديد ويمكن وضع هذه النصوص تحت رؤوس الأقلام الآتية:

١ـ الحياة الأبدية هبة من الله الآب في ابنه يسوع المسيح:

* كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أنْ يرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣ : ١٤ـ١٥).

* كما ملكت الخطية في الموت. هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا (رو ٥ : ١).

* أجرة الخطية هي موت. وأمَّا هبة الله، فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا (رو ٦ : ٣).

٢ـ الحياة الأبدية وعد المسيح:

* هذا هو الوعد الذي وعدنا هو به الحياة الأبدية (١ يوحنا ٢ : ٢٥).

* احفظوا أنفسكم في محبة الله منتظرين رحمة ربنا يسوع المسيح للحياة الأبدية (يهوذا ٢١).

* الحق الحق أقول لكم إنَّ مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة (يوحنا ٦ : ٢٤).

٣ـ الحياة الأبدية "في المسيح"، وهي "الملك الأبدي":

* كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع (١ كو ١٥ : ٢٢).

* إنْ كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح (رو ٥ : ١٧).

ولذلك يوصي الرسول بولس تلميذه تيموثاوس «جاهد الجهاد الإيمان الحسن وامسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت» (١ تيمو ٦ : ١٣).

ولعل أهم ما يقال هو عبارة الرسول نفسه عن الله «ملك الملوك ورب الأرباب الذي له وحده عدم الموت» (١ تيمو ٦ : ١٦).

الخلاص في الأُرثوذكسية
هو عمل المسيح الإختياري
الذي يعلن محبة الثالوث

اللَّــه
ومطالب الناموس أو الشريعة

أولاً:.هل يخضع المسيح للناموس؟

عجيب حقاً أنْ يُعطي الله الشريعةَ للبشر مِن أجل القضاء على الخطية، وكعلاج لانحراف ضمير الإنسان، وكوسيلةٍ ظاهرةٍ يكتب بها الشريعة الأخلاقية الداخلية على الحجر، لكي يستيقظ ضمير الإنسان[1] .. ثم تصبح الشريعة أو الناموس المفتاح الوحيد الذي يُفسِّر لنا حتى المحبة الإلهية نفسها .. وحاول قارئي العزيز أنْ تعثر على نص، أو كلمةٍ في الشريعة تشرح لنا الثالوث، أو تجسُّد الكلمة، أو عطايا الرُّوح القُدس، أو الأسرار الكنسية نفسها .. صحيحٌ إنَّ قانون الإيمان هو القانون أو الشريعة التي تحمي كل هذه المقدسات، ولكن أين هي هذه الشريعة التي حددت لنا إنَّ الله ثلاثة أقانيم، وإنَّ التوبة لا تكفي للخلاص، وإنَّ سر المعمودية يُعطي التبني؟ .. الخ. مع ملاحظة أنَّ قانون الإيمان ليس قانوناً بالمعنى الحديث لكلمة قانون، بل بالمعنى القديم، أي دفة السفينة التي تحدد اتجاهها.

إنَّ خضوع المسيح للناموس كان أحد البراهين التي اعتمد عليها نسطور لفصل الناسوت عن اللاهوت، ذلك لأنَّ في هذا الخضوع تأكيدٌ ظاهرٌ على أنَّ المسيح يسوع مخلوقٌ منفصل عن أُقنوم الكلمة. ولأنَّ أُقنوم الكلمة فوق مطالب الناموس، استخدم أقطاب النساطرة هذه الفكرة للانقضاض على التجسُّد. وكانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بناءً عليه مزقوا الاتحاد الأُقنومي، فقد

---

[1] يقول القديس الأنبا أنطونيوس إنَّ الشريعة كتبت على قلب الإنسان أولاً، ثم أعيدت كتابتها على ألواح الشريعة بعد ذلك.ـ راجع رسائل القديس أنطونيوس ـ الناشر دير القديس أنبا مقار ـ مايو ١٩٧٩م.

اختتن الرب في اليوم الثامن، وأكل الفصح مع تلاميذه. وهو بذلك يكون قد عاش الحياة اليهودية الكاملة حسب الشريعة. هذا ينفي أنْ يكون يسوع المسيح هو الإله المتجسد؛ لأن الخضوع للشريعة يؤكد التزام اليهودي بمبادئ الشريعة، ولا يرفعه إلى ذات مقام ومكانة أو كرامة الكلمة ابن الله. ولعلنا سمعنا هذا الكلام بعينه يقال بلغةٍ عربية فصحى منذ القرن السابع الميلادي.

ولكن ما يزال التساؤل قائماً: كيف تخضع الحياة الإلهية للناموس، أياً كان هذا الناموس؟!!!

إنَّ عدم خضوع الحياة الإلهية للناموس يعني ـ بشكل خاص ـ تفوُّق وسمو الطبيعة الحرة الفائقة التي لا يمكن أنْ تُحصر بوصايا، هي أصلاً وصايا مِن أجل الإنسان العاجز عن ضبط حياته بسبب الفساد الداخلي، ولذلك يقول الرسول بولس « وأمَّا الناموس فدخل لكي تكثر الخطية، ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً » (رو ٥ : ٢٠). ولهذا السبب عينه يكتب القديس كيرلس الإسكندري إلى مكسيميانوس أُسقف القسطنطينية في الرسالة رقم ٣١:

> [نحن نعترف بالواحد والوحيد والابن الحقيقي للّه الآب ربنا يسوع المسيح، عالمين أنَّه هو نفسه اللّه الكلمة مِن الآب، والإنسان مِن امرأة، وهو فوق الناموس كإله، وتحت الناموس بسبب إنسانيته، وهو في كرامته السيد حسب الطبيعة، وفي هيئة العبد بسبب التدبير] (رسائل القديس كيرلس ـ الجزء الثاني ـ رسالة ٣١ : ٢ صـ ١٠٣ـ١٠٤ الترجمة العربية).

١ـ الواحد من طبيعتين

وحتى لا نقع في أسر المدرسة النسطورية التي تفصل اللاهوت عن الناسوت، والتي لا يدري المدافعون عنها أن التعليم الأرثوذكسي هو أنَّ موت الرب على الصليب، إنما هو موتٌ بالجسد، وألمٌ بالجسد، وحياةٌ باللاهوت، وعدم ألم باللاهوت. وتأكيد القديس كيرلس لهذه الحقيقة، وغيره مِن الآباء الذين عاصروا البدعة النسطورية، يحتاج لعدة صفحات، ولكن الحقيقة الواضحة كما

يسجلها القديس كيرلس الإسكندري في كل كتاباته والتي يعبِّر عنها في رسائله كلها، وفي المقالات الخمس ضد نسطور هي:

[نحن نعترف أنَّ كلمة الله هو غير مائتٍ، **وهو الحياة**. ولكننا نؤمِن أنَّه صار جسداً، أي إنَّه إذ وحَّد الجسد ذا النفس العاقلة بذاته، فقد تألم بجسده ـ حسب الكتب ـ وإنَّه حيث أنَّ جسده تألم، يُقال أنَّه هو نفسه قد تألم، رغم أنَّه بالطبيعة غير متألمٍ، وحيث أنَّ جسده قام، لأنَّ جسده لم يرَ فساداً، يقال أنَّه قام لأجل الأموات، ولكن هذه لا تجد قبولاً عنده (نسطور) لأنَّه يقول إنَّ الآلام هي آلامُ إنسان، والقيامة قيامة إنسان، والجسد الموضوع (على المذبح) في الأسرار هو جسد إنسان، ولكننا نحن نؤمِن إنَّ جسد الكلمة قادراً على أنْ يُعطي الحياة، وبسبب هذا، فهو جسد ودم الكلمة الذي يُعطي الحياة للكل] (رسالة ١١ : ٥ ـ ص ٥٦ الترجمة العربية).

٢ـ الحياة التي لا تموت

"كيف يمكن للحياة أنْ تموت؟". (رسالة ١٠ : ١ ص ٤٥ المرجع السابق). سؤالٌ ينطلق مِن فكرة عدم انقسام المسيح الواحد، لأنَّه ـ وهو معلق على الصليب ـ لا زال الابن الوحيد وكلمة الله، الذي هو واحدٌ مع الثالوث، وغير مائتٍ كإله، وغير خاضعٍ للناموس كإله، يقبل الموت على أيدي الصالبين لكي يبيده، لا لكي يسود عليه الموت، ويسمح للفساد بأنْ يقترب مِن جسده لكي يحُوِّل الجسد إلى عدم فساد، ويجعل الألم ينفذ إلى أعماق قلبه وجسده، ولكنه يظل فوق الآلام، والرسالة رقم ١ والتي كتبها القديس كيرلس إلى رهبان مصر، تُعتبَّر مِن المصادر اللاهوتية التي غذَّت التراث الشرقي الأُرثوذكسي الغني بالإيمان بوحدانية أُقنوم الكلمة المتجسد وعدم انقسامه إلى طبيعتين، حيث يضع القديس كيرلس الإسكندري التعليم اللاهوتي: **إنَّ الرب واحدٌ من اثنين**، في دقةٍ ووضوح:

[إنَّ الكلمة صار جسداً .. وهو أيضاً وضع حياته مِن

أجلنا، لأنَّه إذ كان موته خلاصاً للعالم، فقد احتمل الصليب مستهيناً بالخزي رغم أنَّه **هو الحياة حسب الطبيعة كإله، فكيف اذن يُقال إنَّ الحياة تموت؟**].

[وبمعاناته الموت في جسده الذاتي، **أظهر أنَّه هو الحياة، لذلك أحيا جسده ثانيةً**].

ثم يُقارِن بين موت البشر، وموت الرب على الصليب، ويقول:.

[هيا بنا نفحص بدقةٍ طريقة موتنا نحن .. ليس أحدٌ، وهو يفكر فكراً صائباً، سيقول إنَّ نفوسنا تهلك مع أجسادنا الترابية].

فإذا كانت النفس الإنسانية لا تموت مع الجسد، رغم أنَّ الموت ليس غريباً على طبيعة الإنسان. فماذا حدث على الصليب؟ يجيب القديس كيرلس:

١. "سَلَّمَ جسده للموت في الوقت المناسب.

٢. دون أنْ يعاني هو ذاته الموت في طبيعته الخاصة به، لأنَّه هو الحياة، ومُعطي الحياة.

٣. وضع حياته الخاصة لأجل الجميع، وسَلَّمَ جسده لكي يخضع للموت لفترة قصيرة - حسب التدبير.

٤. ولكنه باعتباره الحياة، قد أبطل الموت، دون أنْ يخضع لمعاناة الموت لكي يبيد الفساد، وتنحل قوة الموت مِن أجساد جميع (البشر)، لأنَّه كما أنَّنا جميعاً نموت في آدم، هكذا أيضاً سنُحيا جميعاً في المسيح.

٥. لو لم يكن قد تألم كإنسان لأجلنا، لما كان قد صنع - كإلهٍ - ما هو لخلاصنا.

٦ـ مات كإنسان أولاً، ولكنه عاد إلى الحياة بعد ذلك، لأنَّه اللّٰه حسب الطبيعة.

٧ـ لو لم يكن قد عانى الموت بجسده حسب الكتب، لما كان قد عاد إلى الحياة بالروح" (الجزء الثاني مِن رسائل كيرلس ص ٢٤ - ٢٦ المرجع السابق).

٣ـ نزل إلى الموت كإله

ويعود القديس كيرلس الإسكندري إلى ذات النقطة، لأنَّ اتحاد اللاهوت بالناسوت ينفي عن الناسوت الخضوع للموت بالمرة، فالمسيح مثلنا كإنسان، ولكنه كما يقول القديس كيرلس:

> [لأنَّه كواحدٍ مِنا، رغم أنَّه لم يعرف الموت، نزل إلى الموت بواسطة جسده الخاص، لكي نصعد نحن أيضاً معه إلى الحياة، لأنَّه عاد إلى الحياة ثانيةً، سالباً الجحيم ليس كإنسان مِنا، بل كإلهٍ في الجسد بيننا، وفوقنا].

وهكذا يتم هذا التحوُّل العظيم والأبدي بقبول الموت لكي يُعطي الرب الخلود وعدم الموت للإنسانية بواسطة ناسوته ونفسه العاقلة، ويكمل القديس كيرلس شرحه:

> [إنَّ طبيعتنا اغتنت جداً بالخلود فيه هو أولاً، وسُحِقَ الموت حينما هجم العدو على جسد الحياة، لأنَّه كما أنَّ الموت انتصر في آدم، هكذا قد انهزم في المسيح] (المرجع السابق ص ٢٦).

ثانياً: خضوع الرب للشريعة اليهودية حسب الهرطقة النسطورية

أراد نسطور أنْ يبرر انفصال اللاهوت عن الناسوت في أُقنوم الابن المتجسد، وكان دليله على ذلك، هو خضوع المسيح للناموس. وهذا هو نص العظة الرابعة مِن عظات نسطور كما اقتبسه القديس كيرلس ورد عليه في المقالة الثانية، يقول نسطور:

> *«يقول (الرسول بولس): أرسل الله ابنه مخلوقاً[1] مِن امرأة، وتحت الناموس. وهنا يشير (الرسول) إلى الطبيعتين، لأنَّه يتكلم عن الذي حدث للطبيعة الإنسانية .. ومَن الذي هو تحت الناموس؟ هل هو الله الكلمة؟».*

---

[1] لاحظ كيف غيَّر نسطور كلمة الرسول في غلا ٤ : ٤ من "مولوداً من امرأة" إلى "مخلوقاً"، وهو تعبير يقصد به تأكيد انفصال الطبيعتين.

ويرد القديس كيرلس:.

[لقد تضايق نسطور جداً لأنَّ الكلمة مِن اللّه الآب قِيل عنه إنَّه وُلِدَ تحت الناموس (مما يؤكد الاتحاد بين الناسوت واللاهوت)، ولكن هذا الخوف بلا سند لأنَّه ظل كما كان قبل التجسُّد، أي واضع الناموس والشريعة، أي اللّه. ولأنَّه تجسَّد وتأنس، قِيل إنَّه وُلِدَ تحت الناموس لأنَّه وضع ذاته، وهو بطبيعته فوق الكل، ولكنه خضع مثلنا، وهو الذي فوق كل الخليقة لأنَّه، وهو الغني صار فقيراً (٢كور ٨ : ٩)....إلاَّ أنَّه فوق الناموس، وبكل حقٍ حُرٌ، لأنَّه اللّه بالطبيعة].(ضد نسطور ٢ : ٣ مجلد ٧١ من مجموعة الآباء اليونانيين عامود ٧٦).

١ـ الابن المتجسد فوق الشريعة

ويؤكد القديس كيرلس إنَّ الله هو فوق الشريعة، فيقول:

[إنَّ عبارة الرسول بولس، مولوداً مِن امرأةٍ تحت الناموس، لا تعني بالمرة أنَّ الكلمة ابن اللّه لم يتحد بجسد ونفس إنسانية...ولكن إذا كانت كلمات (الرسول بولس) قد أزعجته (نسطور) جداً، والتي تقول إنَّ كلمة اللّه الآب صار "تحت الناموس"، فإننا نقول إنه لا يوجد أي خوفٍ، أو انزعاج بالمرة مِن هذه الكلمات، لأنَّ الكلمة ظل كما كان منذ الأزل، أي واضع الناموس، أي اللّه. لأنَّه لو لم يكن قد صار إنساناً، لما قيل إنه "تحت الناموس". وحيث أنَّه تواضع - أي الذي هو بطبيعته الذاتية فوق كل الأشياء، ويعلو على الكل - صار مثلنا نحن، وهو فوق كل الخليقة، لأنَّه وهو الغني، صار فقيراً، أي عندما صار مثلنا، فكيف لا يُقال عنه أنه صار معنا تحت الناموس؟ ألا يجدر بنا أنْ نقول بكل صواب: إنه مِن خصائص الطبيعة الإنسانية أنَّها تخضع للناموس؟ أمَّا الذي هو فوق الناموس ولا يمكن أنْ يخضع للناموس، فهو الطبيعة الحرة الخاصة باللّه وحده.

وحيث أنَّه تجسد وتأنس فإنه صار تحت الناموس، حتى أنَّه دفع الضريبة المطلوبة مِن كل ذكر" (خر ٣٠ : ١٢-١٦ ـ ٢ مل ١٢ : ٤) ومع ذلك فهو ابن اللّه، الحر كاللّه (مت ١٧ : ٢٤-٢٧)](ضد نسطور ٢ : ٤).

وفي الرسالة الأولى إلى رهبان مصر يقول القديس كيرلس:

[لما جاء ملء الزمان أرسل اللّه ابنه مولوداً من امرأة تحت الناموس...(غل ٤ : ٤) مَن هو إذن الذي أُرسل تحت الناموس مولوداً مِن امرأة كما يقول، سوى ذاك الذي هو أيضاً فوق الناموس كإلهٍ، ولكن حيث أنَّه دُعي إنساناً بعد ولادته، فإنَّه صار أيضاً تحت الناموس لكي يشبه إخوته في كل شئ (عب ٢ : ١٧)، ولذلك فإنَّه دفع الدرهمين مع بطرس بحسب ناموس موسى (مت ١٧ : ٢٦)، ولكن لأنَّه الابن، هو حُرٌّ، وكإلهٍ فوق الناموس، حتى وإنْ كان قد وُلِدَ تحت الناموس] (راجع الترجمة العربية، مركز الآباء ١٩٨٩م ص ١٩).

وفي الرسالة ٣١ يقول أيضاً:

[هو فوق الناموس كإلهٍ، وتحت الناموس بسبب إنسانيته. هو في كرامة السيد حسب الطبيعة، وفي هيئة العبد بسبب التدبير] (المرجع السابق ص ١٠٤).

وبعد أنْ يؤكد اتحاد اللاهوت بالناسوت في الابن الواحد المتجسد يسأل القديس كيرلس: لماذا قيل أنَّه صار تحت الناموس؟ ألا يؤكد هذا، الاتحاد بين اللاهوت والناسوت؟ لأنَّ الخضوع للناموس هو موضوع لا يُثار بالمرة عندما يكون الكلام عن الإنسان، أي إنسان مهما كان مركزه وسموه. أمَّا إذا قيل عن إنسان معين، صار مِن الضروري أنْ نسأل لماذا قيل، وما هو الهدف مِن إبراز هذه الحقيقة الفائقة؟:

[وإذا كنت تظن أنَّه مِن الخير أنْ تفصل إلى اثنين، الواحد، وأنْ تعلِن لنا (نسطور). إن الذي وُلِدَ مِن امرأةٍ، هو آخرٌ، فكيف يقال إنه صار تحت الناموس؟ ومَن هو الذي

له طبيعة خاضعة للناموس؟ ليس مَن يخضع للناموس هو مَن يُقال عنه أنه تحت الناموس، وإنما الذي له طبيعة فوق الناموس ويعلو على الناموس. فطبيعة الله العلي وحدها هي فقط التي تعلو على الناموس، وهي حرةٌ، ولا يوجد سيد مهما كان يسودها، بل هي وحدها التي تملك على الكل، وتخُضِع الكل تحت نير الخضوع] (ضد نسطور ٢ : ٤).

٢ـ ما هو جوهر الخلاف بين القديس كيرلس، والهرطقة النسطورية إذن؟

والجواب هو النعمة نفسها؛ لأنَّ الصليب الذي به، وبنعمة الله (عب ٢ : ٩) ذاق الابن الموت لأجلنا، لم يكن أحد مطالب الناموس، ولا يوجد في الناموس الموسوي شيئاً عن موت ابن الله، بل موت الخطاة فقط. وهكذا لم يطلب الناموس موت ابن الله، ولا دمه، وإنما كان ذلك تعبيراً عن محبة الله للعالم (يوحنا ٣ : ١٦) ولذلك يؤكد القدِّيس كيرلس أنَّ حجة نسطور في عدم الاتحاد بين اللاهوت والناسوت بسبب خضوع يسوع المسيح للناموس، تجعل المسيح ابن آدم فقط، وتنفي عنه الاتحاد بالكلمة الذي هو فوق الناموس. ويجيب القدِّيس كيرلس مؤكداً أنَّ نسطور أغفل ـ ربما عن عمد ـ الفرق بين المسيح وموسى النبي، لأنَّ وساطة المسيح هي وساطة الابن، أمَّا وساطة موسى، فهي وساطة عبد وخادم حسب نص رسالة العبرانيين (٣ : ١ـ٦). ولعل كلمات الفصل الثاني عشر مِن الفصول الإثنى عشر المعروفة باسم الحرومات الإثنى عشر، يشرح موقف الأُرثوذكسية:

[مَنْ لا يعترف أنَّ كلمة الله تألم بالجسد، وصُلِبَ بالجسد، وذاق الموت بالجسد، وصار البِّكر مِن الأموات حيث أنَّه الحياة، ومُعطي الحياة كإله، فليكن محروماً] (الترجمة العربية ص ٣٩ راجع النص اليوناني، والترجمة الإنجليزية التي نشرها *L. R. Wickham* المرجع السابق ص ٣٢ـ٣٣).

ثالثاً: الناموس أو الشريعة، وكهنوت المسيح

ونلمح عمق الجدل مع النسطورية في نص العظة الرابعة لنسطور حيث

يقول نسطور:

«وعندما يسمع هؤلاء (الأُرثوذكس) اسم "رسول اعترافنا" (عب ٣ : ١) يظنون أنَّ الله الكلمة نفسه صار رسولاً. وعندما يقرأون أنَّه دعي رئيس كهنة يتخيلون أنَّه، أي اللاهوت صار رئيس كهنة. وهكذا يجمعون معاً كل الأجزاء المتعارضة Paradoxical في جنون واضح. وكل مَنْ يسمع عن خدمة رسول يجب أنْ يفهم على الفور أنَّ المقصود هنا هو إنسان. ومَنْ يسمع عن رئيس كهنة، كيف يمكنه أنْ يفترض أنَّ المقصود هنا هو اللاهوت؟ وكيف أصبح اللاهوت رئيس كهنة وهو الذي يخدمه كل رؤساء الكهنة؟. وإذا كان الله هو الذي يقدِّم ذبيحة، فهل يوجد (إله آخر) يقدم له الله هذه الذبيحة؟».. (عباراتٌ أُخرى مملوءة بالتجديف لا داعي لترجمتها).

كهنوت الواحد ابن الله المتجسد

يظهر لِمَنْ يدرس المقالات الخمس، والحرم العاشر أنَّ كهنوت المسيح ليس مِن الناسوت ولا بالناسوت وحده، وإنما هو بسبب الاتحاد صار الرب يسوع المسيح ابن الإنسان ورئيس كهنة، الذي يقدِّمنا نحن للآب. وحقاً مِن الجنون أنْ نتصور **أنَّ اللاهوت وحده** يخدم رئاسة كهنوت، لأنَّ الكتاب المقدس يقدِّم لنا عدة أسماء لعدة كهنة مثل هارون وزكريا وغيرهم، ولكن هنا الكاهن الجديد هو ابن الله الذي (حسب كلمات القدِّيس كيرلس):.

[يقدِّمنا نحن في ذاته بخوراً ذكي الرائحة بالإيمان، عندما يقدِّم ذاته للآب لأجلنا" (ضد نسطور ٣ : ١ مجلد ٧٢ عامود ١٧). راجع صلاة قسمة سبت الفرح "رفع قدِّيسيه إلى العلا للآب] (وراجع أيضاً للقدِّيس أثناسيوس رسالة عيد الفصح عام ٣٣٥ رسالة ٧ ص ٥٢٣ مِن الترجمة الإنجليزية).

يؤكد هذا، كلمات القدِّيس كيرلس في الحرم العاشر:

[يقول الكتاب المقدس إنَّ المسيح هو رئيس كهنةٍ، ورسول اعترافنا، وأنَّه قدَّم نفسه مِن أجلنا رائحةً طيبةً للّه الآب. لذلك فمَنْ يقول إنَّ رئيس كهنتنا ورسولنا ليس هو نفسه الكلمة الذي مِن اللّه حينما صار جسداً وإنساناً مثلنا، بل إن هذا الإنسان المولود مِن المرأة هو آخرٌ على حدةٍ (منفصل) غير كلمة اللّه، .. فليكن محروماً]. (الترجمة العربية ص ٣٨ ـ النص اليوناني، والترجمة الإنجليزية ص ٣٢ ـ ٣٣).

ومِن هنا جاء أساس الأُرثوذكسية الثابت: وهو أنَّ كل أعمال الله المتجسُّد هي إلهية المصدر والينبوع، وتُعطى بواسطة الإيمان في جسد ودم ابن الله وبواسطة الروح القدس، فهي عطايا وهبات حياة حُرة غير مقيدة بالناموس، ولا يمكن للناموس أنْ يقررها. وأي ناموسٍ يأمر الله بأنْ يُعطي جسد ودم ابنه الوحيد للبشرية؟. وهكذا يكتب القدِّيسً كيرلس في كتاب الكنز *Thesaurus* وهو يشرح معنى كلمات رسول اعتراف، ورئيس كهنة:

"صار رسولاً لأنَّه أُرسل لأجلنا، ولنا. وصار رئيس كهنة عندما قدَّم اعترافنا للآب، أي إيماننا بأنَّه ابن اللّه، وعندما قدَّم جسده كذبيحةٍ بلا عيبٍ، ورائحة بخور لكي يُطهِّر الجميع فيه. فإذا قيل أنَّه الابن، وأنَّه صار أميناً، وجُعِلَ رسولاً ورئيس كهنة، فلا يجب أنْ نأخذ هذه العبارات على أنَّها خاصة بلاهوته وحده، بل بما قدمه مِن نعمة" (فصل ٢٠ عامود ٥٧).

وفي الكتاب الثالث ضد نسطور:

[دُعي رئيس كهنةٍ عندما تجسَّد، وصار مثلنا، وهو في نفس الوقت له المجد والكرامة الإلهية، ومجد وكرامة الكهنوت أيضاً] (٣ : ١ مجلد ٧٢ عامود ١٧).

رابعاً:.المسيح ذاق الموت على الصليب بنعمة الله

لم يمت الرب على الصليب حسب الناموس، وإنما حسب النعمة، والعنوان الجانبي لهذه السطور هو نص (عب ٢: ٩) والذي يقول فيه الرسول «ولكن الذي وُضِعَ قليلاً عن الملائكة، يسوع نراه مُكللاً بالمجد والكرامة مِن أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحدٍ».

وكلمات الرسول بولس سوف تقوم بدور حاسم في مرحلة الصراع ضد النسطورية التي حاولت بكل ما هو جائز وغير جائز أنْ تؤكد انفصال الناسوت عن اللاهوت. وطبعاً لا تتورع النسطورية عن إثارة مسألة الصلب والموت، لأنَّ موت الرب على الصليب لا يؤكد فقط ألوهيته، بل إنسانيته أيضاً، وبالتالي يصبح مِن السهل إثبات فصل اللاهوت عن الناسوت، لأنَّ اللاهوت لا يموت، والناسوت وحده هو الذي يموت، ويصبح يسوع الإنسان هو غير الكلمة ابن الله الأزلي .. هذا هو برهان النسطورية، فما هو التعليم الأُرثوذكسي، والذي كان سائداً في الشرق قبل نسطور؟.

خامساً:.خلاصة التعليم الشرقي الأُرثوذكسي

إنَّ التعليم الأُرثوذكسي السائد قبل نسطور ـ والذي يشرح موت الرب ويؤكد اتحاد اللاهوت بالناسوت ـ هو ما يذكره القديس اثناسيوس الرسولي، وهو ما أصبح بعد ذلك برهان القديس كيرلس ضد نسطور وضد النسطورية، بل وأصبح أحد معالم اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي الذي لا تربطه بالاتجاهات النسطورية في الغرب أية رابطة مِن أي نوع. ويقوم الشرح الشرقي لموت الرب على الدعائم الواضحة الآتية:

أولاً: إنَّ التجسُّد والصلب هو عملٌ حرٌ نابع مِن الإرادة الحُرة للثالوث.

ثانياً: إنَّ الصلب هو موتٌ إراديٌ تم بإرادة الابن، ولم يُفرض عليه حتى مِن اليهود والرومان، بل قَبِله الابن بإرادته الحُرة. فالابن لا يموت حسب قوانين الطبيعة الجسدانية، ولا تقدر الأمراض، ولا حتى الشيخوخة (إذا

جاز لنا هذا التعبير) أنْ تفرض الضعف والانحلال الجسداني على الذي أقام لعازر وفتح أعين العميان .. لابد وأنْ يسمح الرب نفسه للموت بأنْ يقترب مِنه حسب تصريح الرب «لهذا يحبني الآب لأنِّي أضع نفسي لآخذها أيضاً ليس أحد يأخذها مِني بل أضعها أنا مِن ذاتي. لي سلطان أنْ أضعها ولي سلطان أنْ آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها مِن أبي» (يو ١٠ : ١٧ ـ ١٨).

ولا توجد كلمات أكثر وضوحاً مِن هذه الكلمات في كل الكتاب المقدس، حيث يظهر بوضوح أنَّ موت الرب هو تعبيرٌ عن المحبة الواحدة للثالوث. وهو موت يتم بسلطان، لا يتم عنوةً ولا بقوة الشيطان أو اليهود أو الرومان .. الخ. ولا يحدث بسبب تسلط الطبيعة الإنسانية الضعيفة التي لا تستطيع أنْ تقف أمام الموت، أو تقاومه .. كل هذه الأفكار مرفوضةٌ تماماً في تراثنا الشرقي .. وإنْ قرأتها، أو سمعتها ـ عزيزي القارئ ـ تُقال مِن على منابر الكنائس الأُرثوذكسية، فهذا ليس تعليماً أُرثوذكسياً بالمرة .. هو تعليمٌ وَفَدَ إلينا مِن خلال كُتب حركات التبشير، والتي نقل عنها بعض الأُرثوذكس دون تمييز.

ثالثاً: إنَّ موت الرب هو موت نعمة، ومحبة باذلة لا مجال فيه لصوت أو حكم الناموس حسب الكلمات الخالدة: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يوحنا ٣ : ١٦). «ولكن الله بين لنا محبته لأنَّه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨).

وهنا لا يستطيع أي عاقل مهما كان أنْ يتصور أنَّ المحبة نفسها تخضع لمطالب الناموس، لأنَّ موت الرب لأجل الخطاة ليس مطلوباً حسب قواعد أي ناموس .. إنَّه عمل المحبة والإرادة الحرة. ولم يقل الرب: هكذا أحب الله العالم حسب الناموس، لأنَّ المحبة تعلو على كل قواعد الناموس (١ كور ١٣ : ١ـ٨)، أو حتى بذل ابنه الوحيد حسب ما جاء في الناموس .. وعليك أنْ تبحث عزيزي القارئ عن وصيةٍ، أو شريعة تحدد لنا ضرورة موت الرب

عنا .. حقاً توجد رموز وظلال في ذبائح العهد القديم[1] .. لكن الظل لا يشرح النور، والرمز لا يشرح الحقيقة. لأنَّ النور هو الذي يسبق الظل، والحقيقة تسبق الرموز جميعاً .. وبالتالي، فالذي يشرح الظل هو النور، والذي يؤكد معنى الرمز هو الحقيقة.

سادساً:حرية المسيح في اختيار الموت حسب كلمات (يو ١٠: ١٧)

«لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً». هكذا كان للرب سلطان الحياة النابع من أُقنومه الإلهي. ولم يفقد الرب هذا السلطان وهو على الصليب، ولا وهو في الجحيم مع الأموات، بل أباد الموت، وهدم قوة الجحيم.

وهكذا شرح القديس كيرلس عمود الدين هذه الكلمات الإلهية:

> ليُعلِن المسيح أنَّه محبوب اللّه الآب، ليس فقط لأنَّه يضع حياته، وإنما لأنَّه يضع حياته لكي يأخذها مرةً ثانيةً. لأنَّه - في هذه المناسبة بالذات - يُقدِّم لنا هذا التعليم العظيم، والذي جلب لنا فائدةً عُظمى. لأنَّه لو مات فقط، ولم يقم، فما هي المنفعة؟ وكيف سيُظهِر لنا أنَّه أفاد طبيعتنا، إذا ظل مثلنا خاضعاً لسلطان الموت، وبالتالي خاضعاً للفساد الذي يعقب الموت مثل باقي البشر؟ ولكن حيث أنَّه "وضَعَ" لكي "يأخذ"، فإنه بهذه الوسيلة يكون قد خَلَّصَ بالكمال طبيعتنا، مُبيداً سلطان الموت، مُعلِناً لنا أنَّه الخليقة الجديدة. ولذلك قِيل: أحب اللّه الآبُ الابنَ، وهذا لا يعني بالمرة إنَّ الابن سيكون غير محبوب مِن الآب إذا لم يُكمِّل عمله لأجلنا، لأنَّ الابن دائماً وأبداً هو المحبوب. ويجدر بنا أنْ نُقارِن هنا ما قِيل مِن أجل فهمٍ أوضح. إنَّ صفات أي طبيعة مِن الطبائع لا تظهر - فقط - عندما تقوم هذه الطبيعة بعملٍ معينٍ، وفي وقتٍ معينٍ، طالما أنَّ هذه

---

[1] حسب التدبير الأزلي، كان تدبير الخلاص قد سبق خلق آدم، وسبق الشريعة الموسوية، وسبق العهد القديم برمته، ولذلك سبق النور أي تدبير المحبة الإلهية الظلال التي أُعلنت في التاريخ. ولذلك يقول الرسول بطرس: "دم المسيح معروفاً قبل تأسيس العالم، ولكن أُظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١بط ١ : ١٩ - ٢٠).

الطبيعـة تملـك تلـك الـصفات، لا سـيما إذا أُظهِـرت هـذه الـصفة بـشكل فـائق. وعلـى سـبيل المثـال، تملـك النـار حرارتها، ولكن أثر الحرارة يظهر عندما تقترب مِن قطعة خشب، عند ذلك تظهر هذه الصفة بشكل خاص. وأيضاً بالمقارنة بالإنسان الذي يملك معرفةً معينةً مثل معرفة قواعد النحو، أو أي علم آخر، فإنه لن يمُدَح إذا ظل صامتاً، وإنما سوف يمَدَحُ الناس قدرته إذا أظهر معرفته الفائقة في الوقت المناسب. وهكذا بعد هذه المقارنة، فإن الطبيعة الفائقة والإلهية، عندما تُظهِر بعض صفاتها الخاصة، أو الصفات الطبيعية الخاصة بها في وقت معين، فإن ظهور هذه الصفة في ذلك الوقت بالذات لا يجب أنْ يسبب لنا دهشةً وتعجباً. وعلى سبيل المثال، يقول الحكمة في سفر الأمثال "كنت فرحة ولذته في كل يوم؛ لأنَّني في حضرته دائماً، عندما فرح بخلق العالم، وصارت لذته في بني البشر" (أمثال ٨ : ٣٠ـ٣١). والفرح خاص بالله دائماً، ومسرته بلا نهاية. وبكل يقين لا يوجد ما يستطيع أنْ يحزن الذي له سلطان على كل شيء، إلاَّ أنَّه يفرح بحكمته عندما ينتهي مِن خلق العالم. وعندما يرى قدرة حكمته وهي تعمل في الكائنات، فإننا نقول إنَّه يفرح أكثر. وفي هذا الإطار بالذات نستطيع أنْ نفهم معنى هذه الكلمات. فالله الآب هو المحبة حسب كلمات يوحنا، وهو ليس فقط صالحاً، بل الصلاح ذاته، وعندما رأى ابنه الوحيد يضع حياته لأجلنا بمحبته لنا، وصلاحه الفائق ـ الذي يجعله يحفظ دون تغيير طبيعته ـ أحبه الآب، ليس كمَن يُعطي له المحبة كجائزةٍ بسبب ما فعله لأجلنا، وإنما كما قلنا، عندما يرى ابنه وقد ظل أميناً لطبيعته، وقد استجاب لمحبته، كما لو كانت استجابة لدوافع ونبضات المحبة التي هي طبيعته. وعلى سبيل المثال، نفرح نحن البشر عندما نرى أولادنا الذين لهم طبيعتنا وصورتنا يشاركوننا أعمالنا، وهكذا فان محبة

الأب لابنه ـ على مستوى البشر ـ تتحرك بقوة عندما يرى ابنه يعمل ما يريد. وبالمقارنة بما ذكرت ـ أعتقد أنَّه قيل بهذا الصدد إن اللّه الآب يحب ابنه، الذي لأجلنا يضع حياته لكي يأخذها أيضاً. وهذا عمل المحبة؛ أنْ يختار أنْ يتألم، وأنْ يعاني الهوان والعار مِن أجل خلاصنا. ليس فقط أن يموت، بل أنْ يأخذ حياته التي وضعها، لكي يدمر الموت، ويبيد الحزن الذي جلبه الفساد، ولذلك فهو المحبوب دائماً بسبب طبيعته، ولكن يقال إنَّ الآب أحبه بسبب محبته لنا، مُسبِّباً الفرح لقلب أبيه، لأنَّه بذلك (الموت والقيامة) استطعنا أنْ نرى صورة طبيعة (الابن) وهي تشرق علينا دون عتامة ودون تغيير]

(شرح إنجيل يوحنا كتاب ٦ فصل ١ مجلد ٢ : ص ٩٠ـ٩١).

هكذا نرى حسب شرح القديس كيرلس، محبة واحدة للآب والابن، لا يمكن أن تنفصل بسبب الصليب؛ لأن الابن هو **"المحبوب دائماً بسبب طبيعته"**.

وبعد ذلك يشرح القديس كيرلس كلمات الرب:

«ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعها أنا مِن ذاتي، لي سلطانٌ أنْ أضعها، ولي سلطانٌ أنْ آخذها أيضا.هذه الوصية قبلتها مِن أبي»(يو: ١٠ :١٨).

[بهذه الكلمات، وفي هذه المناسبة يُعلِّمنا أنَّه ليس فقط الراعي الصالح الذي يحتمل كل معاناة مِن أجل قطيعه، وإنما هو أيضاً بطبيعته اللّه. وكان مِن المستحيل أنْ يموت إنْ لم يكن مُريداً، لأنَّ له القوة الإلهية التي تمكنه مِن القيام بهذا العمل الذي أفادنا جميعاً] (المرجع السابق فصل ٨ : ص ٩٢).

وأُلوهية المُخلِّص هي التي جعلته قادراً على أنْ يُصلَب ويموت، لأنَّه لو كان إنسان فقط، لما استطاع أنْ يواجه الصليب، ولذلك يقول القديس كيرلس مباشرةً:

[وغاية تصريح (الرب) هي أنْ يقول لليهود: إنهم لن يقدروا أنْ يغلبوه، إلاَّ إذا أراد هو ذلك. ولم يقُل الرب إنَّ له سلطاناً فقط على أنْ يضع حياته، بل وإنما "لي سلطان" هي عبارةٌ

خاصـةٌ بـالموت والقيامـة [1]، لكـي يُظهِـر بوضـوح أنَّ القـوة والـسلطان لـه هـو، وليـسا خاصـين بـآخرٍ غـيره، كمـا أنَّ الكلمـات "لـي سـلطان" لا تعـني أنَّـه قـد مُنِحَ هـذا الـشرف، وبتنازُلٍ ـ باعتباره خادمٌ، أو عبدٌ ـ لكي يقوم بخدمةٍ معينـةٍ، وإنمـا تؤكـد هـذه الكلمـات أنَّـه يملـك مـا يخـص طبيعتـه، كالـسلطان الـذي يـستطيع أنْ يـستخدمه، وكـذلك القـوة علـى أوجـاع المـوت؛ لأنَّ كـل شـئ يريـده، هـو قـادرٌ علـى أنْ يفعله، وهذا مِن خصوصيات مَن هـو بالطبيعة اللّه. هـذا مـا يعنيه ويريـد أنْ يقولـه "لـي سـلطان أنْ أضـع حيـاتي، وسـلطان أنْ آخـذها، لأنَّـه لم يتلـقَ أمـراً كعبـدٍ، أو خـادمٍ، ولا حتـى لـضرورةٍ وُضِعَت عليـه، ولم يُقهَّـر، وإنمـا حُـراً، جـاء لكـي يفعل ذلك] (المرجع السابق ص ٩٢ـ٩٣).

سابعاً: حرية الآب والابن تعلنها كلمات الرب: (هذه الوصية قبلتها مِن أبي)

[لا انقسام في اللاهوت الواحد الـذي لـلآب والابـن، لأن الابـن يُعلِـن لنـا، وبهـذه الكلمـات "هـذه الوصـية .." أنَّ الآب مُتفـقٌ معه، وإنهما واحدٌ في هـذا العمـل، لأنَّ **الابـن هـو إرادة الآب**، وهـذا مـا يؤكـده التجسُّد نفـسه. لأنَّ كـل مـا هـو صـالح، قَبِلَـهُ كوصـيةٍ مِـن الآب، ويظهـر كـأنَّـه صـالحٌ في عـيني الآب، لأنَّه كإلهٍ بالطبيعة، لا يُعلِن نفسه كأقل مِن الآب، بـل يُقـدِّم لنـا مـا هـو خـاصٌ بـشركته في الطبيعـة الإنـسانية. ويضعنا الـرب في الوضـع الروحـي الـذي قـال عنـه الـنبي علـى لـسان الآب "ويـتكلم كمـا أوصـيه" (تـث ١٨ : ١٨) مؤكـداً بـذلك الإرادة المـشتركة لـلآب والابـن؛ لأنَّ الوصـيةَ صـادرةٌ باتفاق الآب والابن. وهكذا تكلم مع اليهود حتى لا يعتقـد أحدٌ منهم إنَّ ما حدث له هـو ضـد إرادة الآب. وإذا دَعَـى الآبُ ابنه المساوي له في الجوهر "نبيـاً" فـلا تـضطرب، لأنَّـه عنـدما

[1] قارن هذه الكلمات بعبارة الليتورجية الخاصة بالعشاء السري: "لأنك في الليلة التي سلّمت فيها ذاتك بإرادتك وسلطانك وحدك....".

تـأنس صـار الاسـم "الـنبي" ملائمـاً لـه، وهـذا نفـسه يجعلنـا نقول إنَّ الوصية التي أُعطيت له مِن الآب هـي أيضاً تتفق مـع تجسده. وقبـول الوصية وإعطاء الوصية لا يجعل مَـن يُعطـي أكـبر، ومَـن يقبـل أقـل، لأنَّ البـشر يُعطـون وصـايا بعـضهم لبعض، وكـذلك الملائكـة، وبـالرغم مِن ذلـك تبقـى طبيعـة مَـن يُعطـي، ومَـن يقبـل طبيعـةً واحـدةً، لا يوجـد فيهـا أقـل وأعظم. وهـكذا الابن ليس أقل مِـن الآب، لأنَّـه تـأنَّس لكـي يصبح مثالاً للفضيلة لنا].(المرجع السابق ص ٩٣-٩٤).

هكذا شرح القديس كيرلس الإيمان الأُرثوذكسي، إرادة واحدة للثالوث. إرادة الآب وإرادة الابن واحدة، فكيف استطاع عقل إنسان أنْ يتصور أن الآب غاضب والابن يقدم له الترضية لكي يخلص الآب من الغضب. ألا ترى عزيزي القارئ أنَّ هذا التصور يؤكد انقسام الإرادة، وبالتالي انقسام الطبيعة؟

ثامناً: تنازُل الابن وقبوله الموت على الصليب هو سبب مجانية النعمة

يقول القديس كيرلس في الرسالة الثالثة إلى نسطور: إنَّ تقسيم المسيح الواحد إلى طبائع، إلى إبنٍ مساو للآب، وآخرٍ هو الإنسان الذي اتصل به الكلمة، هو تعليمٌ يقضي على الإيمان، لأنَّ السجود للرب هو سجود للواحد الكلمة المُتجسِّد،

[ونحـن نعـترف أنَّـه هـو الابـن المولـود مِـن الله الآب، والإلـه الوحيد، ورغـم أنَّـه غير قابلٍ للتـألم بحسب طبيعتـه الذاتيـة، فقد تألم بجسده الخاص مِن أجلنا حسب الكتب. لأنَّـه وهـو غير القابل للتـألم، جعل آلام جسده خاصةً بـه عنـدما صُلب جسده، لأنَّـه بنعمـة الله ولأجـل الجميـع ذاق المـوت بإخـضاع جسده الخاص بـه للموت رغم أنَّـه حسب الطبيعة هـو نفسه الحياة، وهو نفسه القيامة. حتى أنَّه إذ قد داس الموت أولاً في جسده الخـاص - بواسطة قوته الـتي تفوق الوصـف - صـار البكـر مِـن الأمـوات (كولوسـي ١ : ١٨) وبـاكورة أُولئـك

الذين رقدوا (١ كور ١٥ : ٢٠) ولكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان. وبنعمة اللّه، كما سبق أنْ قُلنا الآن، ذاق الموت لأجل الجميع (عب ٢ : ٩) ولكنه قام في اليوم الثالث بعد أنْ سلب الجحيم.]

(الرسالة ١٧ : ١١ ص ٢٧-٢٨ مِن الترجمة العربية).

ونعمة الله كما يحددها القديس كيرلس، تبدأ بتنازل الابن غير المتألم لكي يقبل الألم. وخلف كلمات القديس كيرلس تكمن الحقيقة الساطعة التي تنير تراثنا كله، وهي حقيقة انتصار الابن على الموت والفساد، فقد ذاق الابن الموت عندما أخضع جسده المأخوذ مِن القديسة مريم للموت، وهنا نرى قوة الحياة وقوة القيامة التي تقبل الموت لكي تدوس عليه، وتنزل إلى الجحيم لكي تسلب الجحيم قوته. وعندما يقتبس القديس كيرلس كلمات عب ٢ : ٩ يعود إلى نفس الموضوع، بل إلى نفس الكلمات عندما يضع (١كور ١٥ : ٢٠)كتفسير لكلمات (عب ٢ : ٩):

"لكن المسيح قام مِن الأموات، لأنَّ الابن الوحيد كلمة اللّه تأنس، وأخذ جسداً ترابياً، واتحد به أُقنومياً لكي بنعمة اللّه - كما هو مكتوب - يذوق الموت لأجل كل أحدٍ (عب ٢ : ٩) ويصبح باكورة الراقدين بالقيامة مِن الأموات" (ضد نسطور ٣ : ٥).

ويعود القديس كيرلس إلى نفس الموضوع:

[تذوَّق الموت بنعمة اللّه (عب ٢ : ٩) لكي يحوِّل الجسد، ويرد الإنسان إلى ما كان عليه] (ضد نسطور ٤ : ٣).

ويقول في المقالة الخامسة ضد نسطور:

[إنك لا تستطيع أنْ تقول (يا نسطور) إنَّ لاهوت الابن الوحيد مُتغيِّرٌ وخاضعٌ للألم، ولكن هل ترغب في أنْ تعترف معنا أنَّه هو الحياة. بالطبيعة واهب الحياة، وبشكل فائق، هو فوق كل الألم، ويلي ذلك أنَّ الجسد الذي اتحد به هو الذي تألم، لأنَّه بنعمة اللّه - كما هو مكتوب - ذاق الموت لأجل كل إنسان (عب ٢ : ٩) مُعلِناً أن هيكله أقوى مِن الذي غُلِبَ، أو قَهَرَ كل الذين على الأرض، ولكي يُصبح باكورة

الراقدين، والبِّكر مِن الأموات (١ كور ٢٥ : ٢٠ ـ كولوسي ١ : ١٨) ناقلاً إلينا ذات النعمة ..] (ضد نسطور ٥ : ١).

ولأنَّ موت الرب على الصليب هو نعمة الله التي بها تحوَّل الجسد إلى عدم فساد، وبها تمت القيامة، ولذلك ينقل إلينا الابن هذه النعمة مِن فيض الصليب الذي مِنه نبعت نعمة عدم الفساد بالقيامة مِن الأموات.

وفي المقالة الخامسة ضد نسطور يقول القديس كيرلس الإسكندري:

[لقد قدَّم جسده الخاص به للموت، لفترة قصيرة، حتى أنَّه بنعمة اللّه ـ كما يقول بولس ـ يذوق الموت لأجل كل إنسان (عب ٢ : ٩). وهو الحياة، بل هو نفسه الحياة، ويد الآب اليُمنى واهبة الحياة، وقوة اللّه الآب، الذي جعل جسده أسمى مِن الفساد والموت، ولذلك يُعطي لنا اليقين قائلاً لليهود: «اُنقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أنا أُقيمه». لماذا لا تفهم (يا نسطور) إنه يَعِدُ بأنْ يُقيم جسده، رغم أنَّه قيل إن الآب هو الذي أقامه مِن الأموات؟ لأنَّ الابن ـ كما قلت ـ هو يد الآب اليُمنى واهبة الحياة، وقوة الآب. ولذلك إذا قيل إنَّ الآب هو الذي أقام هيكله (الابن) فإنه أقام هيكل الابن بواسطة الابن، وإذا قيل إنَّ الابن هو الذي أقام هيكله، فإنَّ هذا لم يحدث بدون الآب أو بدون الروح، لأنَّ الطبيعة الإلهية هي واحدةٌ في الأقانيم الثلاثة، وكل أعمال الثالوث الروحية والخاصة باللّه، كلها تتم بإرادةٍ واحدةٍ. وهكذا حسب قوانين وطبيعة الجسد، التي تسمح بتذوق الموت، سمح الكلمة الذي اتحد بالجسد، ومِن أجل فائدة الجسد نفسه، أنْ يذوق الموت، ولكنه قام حياً بقوة الكلمة الإلهية الذي اتحد بالجسد أُقنومياً] (ضد نسطور ٥ : ٦).

وهكذا يفترق الشرق عن الغرب، لأنَّ موت الرب وقيامته لم تكن لإرضاء العدل الإلهي، أو دفع ديون الإنسانية، أو إطفاء نار الغضب المشتعل في قلب الآب .. الخ مِن آراءٍ صادرةٍ عن عقلٍ لا يستوعب حقيقة وحدانية جوهر الثالوث وإرادته الواحدة ومحبته الواحدة. وما فَصلُ الآب عن الابن إلاَّ ذات هرطقة أريوس، وما فصلُ الابن عن الناسوت إلاَّ هرطقة نسطور التي تسمح بالتجديف على ابن الله

الواحد، وتجعله الفدية والثمن .. الخ لأنَّه الضعيف الذي سقط تحت حكم المـوت، والإنسان الذي تمكَّن الموت مِن أسره. أمَّا تعليم الشرق وجوهر الأُرثوذكسية، فهـو أنَّ الابن هو قوة الآب وشريك عرش الربوبية الذي تفضَّل وتنـازَل وهـو القـوي، لكي يحل قوة الموت، ويبطل الفساد ويبيده تماماً بقوته الإلهية .. وبموتـه جـدد طبيعـة الإنسان، وعتق الإنسانية من سلطان الموت ومن الشيطان، ووهـب الحيـاة الأبديـة بالقيامة.

الخلاصة

هذه المسيرة القصيرة مع القديس كيرلس الكبير، والتي شرح لنا من خلالها ماذا يعني خضوع الابن ـ حسب التدبير ـ للناموس، وبقاء الطبيعة الإلهية فوق الناموس، إنما هي مسيرةٌ مع الحقائق التي تجعل موت الرب على الصليب:

١ـ إعلاناً عن أُلوهية الرب نفسه؛ لأنه مات بالجسد، وذاق الموت بالجسد لكي يبيد الموت بالجسد ويُمجِّد الإنسان.

٢ـ إعلاناً عن نبع نعمة الله النابعة من اللاهوت، والتي تقبل ما هو في الزمان وما هو في الشريعة؛ لكي تحول الزمان إلى مناسباتٍ للخلاص، وتحول الشريعة إلى شهادةٍ لتفوُّق المحبة على الناموس.

وأخيراً: ماذا يبقى من الإنجيل لو قلنا: إنَّ الإنجيل البشارة السارة هو ما أفرزه حكم الشريعة الموسوية؟ بأي فخر يمكن لنا أن نفتخر على الشريعة، وعلى اليهودية نفسها؟

ولذلك تبقى القضية المطروحة: إمَّا تعليم الآباء، فنبقى في الأُرثوذكسية، وإمَّا تعليم الشيع البروتستانتية، فننكر حق الإنجيل ونرضى بالعيش تحت حكم الشريعة، وهو ما رفضه الابن نفسه عندما قال: « لا أعود أُسميكم عبيداً......لكني قد سميتكم أحباء ».

"بدون سفك دم" و"كأس الخلاص"

أولاً:.التقدِمات غير الدموية

صحيحٌ أنَّه: «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة». ولكن شرح الخلاص ـ على طريقة الشيع البروتستانتية، والذي دائماً يركز على دم المسيح ـ ينطوي على خطورة كبيرة، تجعلنا نكاد ننسى أنَّ المسيح المصلوب هو إلهٌ مُتجسِّدٌ له جسدٌ، ونفسٌ عاقلةٌ، وقدَّم الشفاء من خلال لمسة من هذا الجسد، بل أقام بها أُناساً من الموت. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ عبارة **"دم المسيح"** ليست عبارة خاصة بالموت فقط، بل هي خاصةٌ بالحياة أيضاً. وهو الأمر الذي يجعلنا نتساءل: هل يكون صحيحاً ومِن الصواب قَصْر الغفران على سفك دم المسيح وحده؟ أليس واضحاً من العهد القديم نفسه ـ الذي سلَّم لنا عبارة (سفك دم) ـ أنَّ هناك من التقدمات غير الدموية ما يمنح الإنسان الغفران أيضاً؟[1] وهذه بعض النماذج لما كان يُعطي الغفران بدون سفك دم:

١ـ الصلاةُ كفَّارةٌ:

يقول سفر الخروج: «وكان في الغد أنَّ موسى قال للشعب أنتم أخطأتم خطيةً عظيمةً. فأصعد الآن (إلى الجبل) **لكي أُكفِّر عن خطيتكم**»، فهل قدَّم موسى ذبيحةً دمويةً؟. يقول سفر الخروج بعد ذلك «فرجع موسى إلى الرب وقال: آه قد أخطأ هذا الشعب خطيةً عظيمةً .. والآن أغفر خطيتهم، أو امحني مِن كتابك»

(١) لا نجد في التعليم المسيحي الحقيقي أي أثر بالمرة للاعتذار - لا سيما في الجرائد - لأن اعتذار الخاطئ هو حق في الشريعة الإسلامية، أمَّا في المسيحية، فإن قول الرب يسوع المسيح: "إنْ أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه، بينك وبينه وحدكما إنْ سمع منك فقد ربحت أخاك (مت ١٨ : ١٥). ولم يطلب الرب من بطرس الاعتذار عن ارتداده عن الإيمان، بل سأله في رقةٍ: هل تحبني؟ لقد ضاعت منا مفاهيم كثيرة بسبب الخلط بين السياسة والأفكار الشائعة في البيئة المصرية، والإيمان المسيحي، حتى ضاع من بعض الإكليروس الذين تولوا مسئولية التعليم، تعليم الغفران المجاني.

(خروج ٣٢ : ٣-٣٣)، وقدَّم موسى كفَّارة الصلاة، وشفاعة هارون (عدد ٧ : ٩-١٣).

٢ـ البخورُ كفَّارةٌ

ويضيف سفر الحكمة تقديم البخور كفَّارة (١٨ : ٢١-٢٥) لأنَّ الصلاة مثل البخور (مزمور ١٤١ : ٢) كما يتقدم هارون لكي يُكفِّر بالبخور، لكي يقف الوباء «فوضع البخور، وكفَّر عن الشعب» (عدد ١٦ : ٤١-٤٧). ولذلك يقول طقسنا القبطي عن البخور:

يقول الكاهن: **"نسألك يا سيدنا اقبل إليك طلباتنا، ولتستقم أمامك صلاتنا مثل بخورٍ رفعُ أيدينا، ذبيحةً مسائيةً"**، والذبيحة المسائية كانت تقدمة بخور ودقيق حسب المشنا Mishnah وهو كتاب طقوس الديانة اليهودية. ومِن المشنا وشرح علماء اليهودية نعرف أنَّ ذبيحة المساء في زمان تجسُّد ربنا يسوع المسيح كانت مِن أهم الذبائح اليومية، ولذلك تقول الصلاة القبطية **"لأنَّك أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية الذي أصعدت ذاتك مِن أجل خطايانا على الصليب المكرم كإرادة أبيك الصالح"**. وفي صلاة الاستعداد يقول الكاهن عن الخدمة أي الليتورجية: **"لكي أبتدئ وأهيئ وأكمل، كما يرضيك، خدمتك المقدسة كمسرة إرادتك رائحة بخور"**.

ويقول الخولاجي أيضاً تحت عنوان **بخور السيد المصلوب "هذا الذي أصعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصليب عن خلاص جنسنا، فاشتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة. فتح باب الفردوس[1]، وردَّ آدم إلى رئاسته مرةً أُخرى، مِن قِبَل صليبه وقيامته رد الإنسان مرةً أُخرى إلى الفردوس"**.

وهنا نرى أنَّ ذبيحة المساء، واسمها في العبرانية "مِنخة" أي "مِنحة" أو عطية. وما موت المسيح على الصليب إلاَّ عطية ومِنحة لنا. واختيار الطقس لهذه الذبيحة بالذات دون غيرها هو اختيارٌ متعمدٌ، لأنَّ ذبيحة الخطية، وذبيحة الإثم، وتقدمة يوم الكفَّارة لا تظهر في الليتورجيات الشرقية بالمرة، وإنما الذي يظهر في كل صلوات الليتورجية الأُرثوذكسية هو: خروف الفصح ـ ذبيحة أو تقدمة

---

[1] فتح باب الفردوس، ولم يتحول إلى رماد.

ملكي صادق ـ ذبيحة المساء. وسوف ندرس هذه النقطة في فصل خاص بالذبيحة[٢]. ولكن يكفي هنا أنْ نرى أنَّ الصلوات الشرقية، والقبطية بشكلٍ خاص، اعتبرت أنَّ ذبيحة إبراهيم، أي تقدمة اسحق قد حل محلها بخور الكنيسةً الجامعة. **"يا الله الذي قَبِلَ إليه محرقة إبراهيم، وبدل اسحق أعددت له خروفاً. هكذا أيضاً اقبل مِنا نحن أيضاً يا سيدنا محرقة هذا البخور، وأرسل لنا عوضه رحمتك ذات الغنى"**، فالإرادة والنية هي ذبيحةٌ حقيقيةٌ، لأنَّ المسيح قدَّم بالإرادة والنية، جسده (عب ١٠: ١٠).

وهنا نرى أيضاً إنَّ نص أفسس ٥ : ٢ «أُسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً، وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً، وذبيحة لله رائحةً طيبةً»، يؤكد لنا أنَّ موت الرب على الصليب هو رائحةً طيبةً، وهو: قربان ومحرقة، أي مِنحة، أو مِنخة، أو عطية "ⲇⲱⲣⲟⲛ". هذا بالطبع يؤكد لنا حرية تقديم الابن لذاته على الصليب، فقد قدم ذاته وبإرادته الحرة للآب ذبيحة بخور مثل ذبيحة المساء، وهنا تحوَّل موت الرب إلى رائحةٍ ذكيةٍ، وتقدمةٍ فاخرةٍ، وقد وجدنا هذا التفسير عند كل الآباء دون أي استثناء، وهو أحد الأسباب الأساسية لتقديم البخور في الطقوس الشرقية المسيحية القديمة، أي في كافة الليتورجيات الخاصة بكل كنائس المسكونة، ولذلك يقول القديس كيرلس الإسكندري، وهو أكثر الآباء التصاقاً بالليتورجية المصرية، وهو يكرر هذا التفسير في كل مؤلفاته، ونكتفي بهذا النص:.

> "الـذي قـدَّم نفـسه عنـا رائحـةً ذكيـةً مقبولـةً لـدى اللّه الآب. وشاهِدِنا على ذلك، بولس الذي فهم الشريعة أكثر مِن غيره، وهـو الـذي كتـب (كمـا أحبنـا المسيح أيـضاً وأسـلم ذاتـه عنـا قربانـاً وذبيحـةً للّه رائحـةً ذكيـةً) (أفـسس ٥ : ١ـ٢) وقـد صـار المسيح رائحـةً ذكيـةً، لأنَّـه أعلـن في ذاتـه أنَّ الطبيعـة الإنـسانية صارت بـلا خطيـةٍ، وهـو الـذي جعل لنـا ثقـةً بـه، وفيـه، وفي اللّه

(٢) راجع الفصل الخاص بالصليب وذبائح العهد القديم في اللاهوت الشرقي.

الآب؛ لأنَّه مكتوبٌ (لأنَّ لنا ثقة يا أخوة بالدخول إلى قدس الأقداس بدم المسيح) (عب ١٠ : ١٩ـ٢٠)". (المسيح واحد ص ٨٤).

ثانياً: الدم في كأس الخلاص، يُقدَّم لنا، وليس للآب

تسود فكرة سفك دم المسيح، وتقديم هذا الدم للآب بعض الكُتب المُعاصرة، وتحت الإيحاء لما تقدمه رسالة العبرانيين عن دور رئيس الكهنة العظيم ربنا يسوع المسيح في يوم الكفَّارة على النحو الذي ذكره الرسول في أكثر مِن موضع في الرسالة إلى العبرانيين، وهو الأمر الذي يعكس لَبساً في الفهم. ولذلك يجب أنْ ندرِك الفرق بين كفَّارة المسيح، ويوم الكفَّارة في العهد القديم.

ومع التسليم بوجود فروق واضحةٍ بين طقوس يوم الكفَّارة، ويوم الصلبوت، إلاَّ أنَّنا يجب أنْ نلاحظ دقةً كلمات الرسالة للعبرانيين، فإذا قال الرسول، إنَّ الربَ صنع **تطهيراً لخطايانا** (١ : ٣)، فهو لم يدخل .. مثل رئيس الكهنة في العهد القديم بدم ذبيحة حيوانية، بل دخل بذاته لكي **يُقدِّم نفسه** (٩ : ٢٥)، ولكي **يظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا** (٩ : ٢٤)، فهو **وسيط خدمةٍ أفضل** (٨ : ٦)، ولذلك السبب دخل **بدم نفسه** (٩ : ١٢)، وهو ذات الدم الذي قُدِّمَ بالرُّوح القُدُّس لله الآب لكي **"يُطهِّر"** ضمائر المؤمِنين مِن الأعمال الميتة (٩ : ١٤) .. ومع الدم الذي قُدِّمَ بالرُّوح القُدُّس، يبرز الرسول تقديم جسد يسوع المسيح (١٠ : ١٠) وعمل إرادة الآب حتى موت الصليب.

ودم يوم الكفَّارة لم يكن هو دم العهد، بل إنَّ دم يسوع المسيح **"هو دم العهد"** (١٠ : ٢٩) وهو **"دمُ رش"** (١٢ : ٢٤) وهو دم **"العهد الأبدي"** الذي به قام المسيح مِن الأموات حسب كلمات الرسول «وإله السلام الذي أقام مِن الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي» (١٣ : ٢٠) وهو ما يجعل الدم هو حياة يسوع المسيح ربنا، أي **"دم نفسه"**، وهو ما يجعل المسيح **"كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق"** (٧ : ١٧).

ولعل خطأ تفسير عبارات الرسالة إلى العبرانيين عند الشيع البروتستانتية مصدره عدم الانتباه إلى أنَّ الذبيحة والكاهن، أي المسيح نفسه، هما واحدٌ، وإنَّ

رش الدم، ودم العهد الأبدي هو دوام ذبيحة سر الشكر حسب قول الرب نفسه في (يوحنا ٦ : ٥٣ـ٥٧) لأنَّنا نأكل ونشرب هبة الحياة الأبدية. ونشرب كأس البركة (١ كو ١٠ : ١٦ـ١٧) وهي كأس الخلاص مِن الموت حسب الأصل اللغوي والتاريخي الخاص بالفصح الذي انتصرت فيه الحياة على الملاك المُهلِك. وهكذا إذ يؤكد الرسول في مِناسباتٍ معينةٍ، كهنوت المسيح في يوم الكفَّارة الأعظم، جمعة الصلبوت، يؤكد في مناسبةٍ أُخرى إنَّ الدم هو كأس البركة، أي كأس الفصح. وهو نفسه دم الصليب الذي صُنِعَ به الصلح (كولوسي ١ : ١٩ـ٢٠) وهو أمرٌ لا وجود له في العهد القديم بالمرة، بل هو بشارة المسيحية. ويجئ كلام الرسول عن نقض الحائط أو السياج المتوسط ومصالحة الشعب اليهودي مع الأُمم، هذه المصالحة قام بها الإنسان الجديد أي آدم الجديد الذي قام مِن الأموات، وقدَّم المُصالحة للكل بالدم (أفسس ٢ : ١٣) .. وهو أيضاً تقديس الشعب الجديد بدم نفسه (عب ١٣ : ١٢) وهو ذات المعنى في (رؤيا ٧ : ١٤).

ثالثاً: دم المسيح المسفوك على الصليب ـ حسب صلواتنا الأُرثوذكسية ـ هو دم اقتنائه، وليس ثمَناً دُفِعَ للآب:

سلمتنا الليتورجية الإيمان الرسولي والحياة المقدسة مِن خلال الصلوات. والصلوات التي تقدمها لنا الليتورجية هي عصارة الكتاب المقدس، وهكذا يظهر لنا دم المسيح في الليتورجية بعد استدعاء الرُّوح القُدُّس حيث يبدأ الكاهن بأُوشية السلام ويقول:

"أُذكر يارب سلام كنيستك الواحدة الوحيدة .."

ثم عندما يصل إلى هذه الكلمات **"هذه التي اقتنيتها لك بالدم الكريم الذي لمسيحك"** يقول الخولاجي **"يشير بيديه إلى الدم، ثم الجسد على المذبح"** ...وهنا يتوقف كل اجتهاد المفسرين مهما كانت مكانتهم، لأنَّ الدم الكريم، هو ذاته دم الابن الوحيد الذي اقتنى به الكنيسة حسبما ذكرنا.

"أيها الكائن الذي كان، الذي أتى .. أنت الذي تجسَّد،

وصُلِبَ على الصليب. أنت الذي يخضع لك شعبك وميراثك، هؤلاء الذين اقتنيهم لك بدمك الكريم".

"أيها الرب الإله ضابط الكل .. ميراثك المُختار هذا الذي اقتنيته بدم ابنك الوحيد".

والاقتناء يرتفع إلى أعلى درجات الشركة، لأنَّ الليتورجية تقدِّم أسفار العهد الجديد كله في عصارةٍ واحدةٍ.

"يا الله الذي أحبنا هكذا، وأنعم لنا برتبة البنوة لكي نُدعى أبناءً لك، ونحن وارثون لك يا الله الآب، وشركاء في ميراث مسيحك".(صلاة خضوع للآب، القداس الكيرلسي).

وخلف هذه الكلمات، يقرأ مَن يعرف العهد الجديد، الكثير مِن نصوص الآباء الرسل .. ويبقى سؤالٌ: إذا كان هذا الدم، هو ذاته الدم الذي سُفِكَ على الصليب، فكيف يُقدَّم لنا في الإفخارستيا، بينما هو ثمَنٌ، دُفِعَ للآب؟ إنَّ الثمَن الذي يُدفع لا يُرد للإنسانية .. فكيف إذن نتجاسر، ونقدِّم الذبيحة غير الدموية؟ .. الجدير بنا أنْ نقول إنَّ هذا الدم لا يخص الإنسانية، بل يخص الآب، ولا يجب أنْ يكون على المذبح، لأنَّه خاصٌ بموقفٍ معينٍ، وهو موت الصليب، وهو ثمن وليس هبة، وهذا كله هو ما يقضي على سر الشكر .. وهذا هو ما حدث في الغرب بعد حركة الإصلاح البروتستانتية.

رابعاً: حرية المسيح في تقديم ذاته حسب الليتورجية

إنَّ الفرق بين صلوات الليتورجية، وتفاسير المذاهب البروتستانتية كبير جداً. ويجب تسجيله على الفور حيث تقول أوشية البخور:

"أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية الذي أصعدت ذاتك عن خطايانا على الصليب المكرم كإرادة أبيك الصالح".

ولاحظ أيها القارئ دقة التعبير.

أولاً: حرية الابن **"أصعدت ذاتك".**

ثانياً: وحدة الجوهر **"كإرادة أبيك الصالح"**؛ لأنَّ جوهر الثالوث الواحد، له إرادة واحدة.

وتؤكد هذه المعاني أيضاً ثاؤطوكية الأحد:

"أنتِ هي الجمرة الذهب النقي، حاملة جمر النار المباركة،
الذي يؤخَذ مِن على المذبح، ويُطهِّر الخطايا، ويمحو الآثام"

وقوة الليتورجية هنا ليست فقط في دقة التعبير، بل في قدرتها على تجنب سيادة "النص الواحد"، ولذلك يظهر الرب في الليتورجيا [بخوراً] [1]

"إنَّ الله الكلمة الذي تجسد مِنك، ورفع ذاته بخوراً إلى الله أبيه" وهو تعبير دقيق عن حرية رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح.

وتقول نفس الثاؤطوكية:

"شبَّهوا رئيس الكهنة بمُخلِّصنا
الذبيحة الحقيقية لمغفرة الخطايا
هذا الذي أصعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصليب عن خلاص جنسنا
فاشتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة".

وبعد ذلك تذكر مباشرةً:

"فتح باب الفردوس، ورد آدم إلى رئاسته".

لا يوجد إشارة عن دفع الثمَن .. ولأنَّ الدم هو حياة ربنا يسوع المسيح، فقد أكدت صلواتنا معنى العهد:

"مِن قِبل رش دمه المُقدَّس، طَهَّرَ المؤمِنين شعباً مبرراً"

---

[1] تقدمة المسيح لذاته كبخورٍ هي أساس استعمال البخور في الكنيسة؛ لأن البخور هو استعادة سرية لموت الرب وقيامته، وبذلك يتضح لنا الفرق الشاسع بين شرح الليتورجة للعبارة: "الذي أصعد ذاته على الصليب رائحة مقبولة"، وبين الشرح الخيالي لأحد الإكليروس الأقباط الذي رأى في "الرائحة المقبولة"، رائحة اللحم المشوي.

وأيضاً

"وصار يُطهِّر خطايانا، وغافراً لآثامِنا".

وتقول الثاؤطوكية أيضاً:

"أنتِ يا مريم حملتِ في بطنكِ المَنْ العقلي الذي أتى مِن الآب .. وأعطانا جسده ودمه الكريمين فحيينا إلى الأبد".

وهكذا، مِن العهد القديم أخذنا كلمة المَن لكي تشرح **"المَن العقلي"**، وهو الإفخارستيا، و**"المَن العقلي"**، أي الرُّوحي الذي يقدِّمه اللوغوس *Logos* المتجسد كغذاء لعقل أو حياة الإنسان الداخلية.

وهكذا أيضاً تشرح الليتورجية نص يوحنا (٣ : ١٦) «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به»، وهو النص المشهور جداً عند الأخوة البروتستانت:

"افرحوا وتهللوا يا جنس البشر، لأنَّه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب عن المؤمِنين به، لكي يحيوا إلى الأبد، لأنَّه غُلِبَ مِن تحننه، وأرسل لنا ذراعه العالية"

(ثاؤطوكية الاثنين).

هكذا بذل الآب ابنه الوحيد عن حياة العالم، عن المؤمِنين، لا لكي يهدأ غضب الآب، بل لكي يحيا به المؤمِنون. ولاحظ قوة الكلمات **"غُلِبَ مِن تحننه، وأرسل لنا ذراعه العالية"**، وهذا عكس ما يُقال مِن أنَّه غُلب مِن غضبه وأشعل النار في ابنه .. لقد أعطانا الآب حياة ابنه على الصليب لكي نحيا به. وهنا تردد الإبصلمودية ما يذكره القديس كيرلس الإسكندري، أو بالحري يردد القديس كيرلس ما تذكره الإبصلمودية [1].

---

(١) راجع شرح يوحنا ٣ : ١٦ - المجلد الأول ص ١٧٤، أوردنا هذا النص في بداية المبحث الأوَّل من هذا الفصل.

خامساً: المسيح يحل رباطات الموت، ويدوس الموت حسب شهادة الليتورجية

كان الآب في الابن على الصليب، وكان الابن في الآب ساعة موته، لأنَّ وحدة الجوهر لا تسمح بالانفصال .. ولذلك تقول كنيستنا الأُرثوذكسية:

"السلام لبيت لحم .. آدم الثاني .. لكي يرد آدم الأول

الإنسان الترابي إلى الفردوس"

فالتعليم الذي ينسى تجسُّد الابن، ويُركِّز الاهتمام على الصليب وحده يفشل في فهم رسالة ومعنى الصليب، وكانت الكنيسة تدرك ذلك، ولنفس السبب تضم بيت لحم إلى الجلجثة لكي يستقيم التعليم، فتقول:

"ويحل قضية الموت

إنك يا آدم أنت ترابٌ، وإلى التراب تعود

لأنَّ الموضع الذي كثرت فيه الخطية تفاضلت فيه نعمة المسيح".

وهنا، الذي يحل قضية الموت، ليس الآب وحده، بل الابن أيضاً، وعن هذا يقول القديس اثناسيوس الرسولي ذات الكلمات:

[فإن الله قال إنك ترابٌ، وإلى التراب تعود، وصار البشر مائتين. إذن كيف يقدر المخلوقين أنْ يُبطِلوا الخطية؟ الرب وحده هو الذي أبطلها، لأنَّه هو الذي قال بنفسه إن لم يحرركم الابن .. بل هو الكلمة الذاتي وصورة جوهر الآب، **وهو الذي أصدر الحكم في البدء، وهو الذي صفح عن الخطايا. وإذ قيل بواسطة الكلمة** أنت ترابٌ، وإلى التراب تعود هكذا أيضاً تحققت **الحرية بالكلمة نفسه وفيه وبه قد صار** إبطال الدينونة] (ضد الأريوسيين المقالة الثانية: ٦٧ ص ١٠٥ الترجمة العربية).

فكيف بعد شهادة القديس اثناسيوس، وشهادة الليتورجية، يمكن لنا أنْ نقبل التفسير

الذي يفصل بين الآب والابن ويجعل الآب الديان العادل الذي أصدر وحده الحكم على آدم والابن هو الذي يدفع الثمَن، وكأن الدينونة ليست خاصة بالابن، أو كأنَّ حكم الموت "ترابٌ أنت، وإلى التراب تعود" صدر مِن فم الآب وحده؟

وتقول التسبحة السنوية أيضاً:

"لأنَّه حل الحاجز، وقتل العداوة بالكمال، ومزق كتاب يد العبودية التي لآدم وحواء وحررهما" (ثيؤطوكية الاثنين).

ويقول القداس الإلهي:

"أتيت إلى الذبح مثل حملٍ حتى إلى الصليب، أظهرت عِظَم اهتمامك بي، قتلت خطيتي بقبرك" (القداس الغريغوري).

فهل أخطأ آباء الكنيسة عندما كتبوا هذه العبارات؟ وهل كان جديرٌ بهم أنْ يقولوا: "لأنَّه دفع الثمَن ودفع الديون واحتمل غضب الآب".

ولكن القداس الغريغوري يقول العكس:

"يا سيدنا ومخلصنا محب البشر الصالح .. يا الله الذي أسلم ذاته عنا خلاصاً .. الذي بكثرة رحمته حل عداوة البشر .. أيها الإله الوحيد الجنس الذي في حضن الآب"

(القداس الغريغوري).

فهو في حضن الآب في كل حين

"الكائن في حضنه الأبوي في كل حين"

(قسمة صوم الميلاد).

وعندما كان على الصليب كان ولا يزال في حضن الآب، لأنَّه حل عداوة البشر وهو في حضن الآب، وليس كغريبٍ عن جوهر الآب وعن محبته الواحدة.

"لأنَّ الموضع الذي كثرت فيه الخطية تفاضلت فيه نعمة المسيح". (ثيؤطوكية الاثنين).

وهـذا "الموضـع" هـو "الجمجمـة" أو "الجلجثـة" حـسب الاسـم الآرامـي ـ العبراني القديم حيث صُلب رب المجد، وهو المكان الذي دُفنـت فيـه "جمجمـة" آدم حسب تقاليد اليهود والكنيسة الجامعة. فقد كثرت فيه الخطية، ولكن الانتقام والغضب لم يحِل بالذي جاء لكي يموت ويميت الموت، والذي يقول عنه القـديس غريغوريوس النزينزي في صلاته **"الذي بكثرة رحمته حل عداوة البشر"**.

ولو كان الصليب هو لحظة الانتقام، وتسديد الديون، فإن العداوة لم تُحَل، بل وصلت إلى أقصى ما يمكن أنْ تصل إليه وهو موت البريء. وعجيبةٌ هي قدرة الليتورجية على خلق أيقونة الخلاص بكل جمالها. فهي تأخذ مِن التراث أو التقليد وتضيف إليه عبارة خالدة للرسول بولس **"حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً"** (رو ٥ : ٢٠).

سادساً: دفع الفدية للآب، والسلوك الاجتماعي المسيحي

مِن السائد عندنا في مصر، وهو مبدأٌ نابعٌ مِن الرهبنة القبطية أنْ لا يطلب الإنسان "العِوَضْ" .. ولدينا قصصٌ مذهلةٌ عن ممارسة المحبة في حياة آباء البرية مثل الراهب الذي شعر بأنَّ شخصاً يريد أنْ يسرق ثوبه، فتحرك بعيداً عن الثوب حتى يسرقه اللص، وأيضاً الراهب الناسخ الذي عندما سرق أحد الرهبان مخطوطة للعهد الجديد وعُرضت عليه، لم يصرخ ولم يطلب معرفة السارق، بل حدد ثمن المخطوطة لَمن أراد أنْ يأخذ رأيه .. وصفحات هذا الكتاب عاجزةٌ عن سرد قصص كثيرة هي لمعان نور "الكَرَم" وفيض "المحبة" .. فكيف يمكن أنْ نصالح هذه الاتجاهات الرُّوحية التي تشفي المجتمع مِن السلوك الشرير مع تعليم عقيدي يُقال باسم الخلاص، يطلب فيه الله حقه ويأخذ "العِوَض" مِن البريء القدوس الذي بلا شر.

وثمة قضية أُخرى أكثر أهمية وهي أنَّ العقاب لم يقتلع الشر، بل أحياناً يجعله يظهر بأشكال أُخرى .. فالعقاب ودفع الغرامة أو الفدية أو العوض أو الثمَن لا يجعل الإنسان ابناً حُراً قادراً على المحبة التي يجب أنْ يتعلمها مِن الله .. وهل يمكن

أنْ نقول إنَّ آباء الرهبنة تفوقوا على المحبة الإلهية عندما تركوا حقوقهم .. أمْ إنَّهم كانوا لمعان المحبة الإلهية في عالم البغضة .. ألا نصبح ـ بالصليب ـ البشر الكرام الذين يفيض كرمهم؟.

وإذا شاع في المجتمع المسيحي ممارسة القسوة، وعدم التخلي حتى عن الحقوق، لأنَّ المثال الكامل للقداسة ـ وهو الله ـ لم يترك حقه في لحظة حاسمة، وهي لحظة موت ابنه على الصليب، بل طلب حقه مِن أعز وأحب مَن لديه، أي ابنه .. فكيف سوف نتعامل مع الجار والصديق والقريب، ومَن هو المثل الأعلى الذي سوف نتشبه به إذا لم يكن هو الآب السماوي؟ .. وإذا كان الآب قد فعل ذلك لكي يحل مشكلة ومأساة .. وجاء بهذا الحل الغريب الذي يقوم على التشفِّي والانتقام، فكيف سيعطي الحياة الأبدية والملكوت مجاناً وبفيض كرم وسخاء وفيض محبة أبدية؟ ..

وكيف سنُعامِل الأعداء الذين يختلفون معنا في الرأي؟....هل ستصبح القسوة، والانتقام هما الوسيلة الشرعية المقدسة التي تنال هذه الشرعية بصليب الآب لابنه لكي ينال منه وفيه حقوقه؟

المسيح، لا الشريعة
هو الوسيط بيننا وبين الآب
هو فوق الشريعة؛ لأنه مملوءٌ نعمة

الصليبُ
وعــدل اللهّ

مقدمة:

لم يحدث في تاريخ المسيحية عبر ألفي سنة أنْ حظيت كلمةٌ واحدة، وفعلٌ واحد بهذا الكم والنوع من الدراسات اللغوية والتاريخية واللاهوتية مثلما حظيت به كلمة "عدل"، وهي تلك الكلمة التي تظهر دائماً في ترجمتنا العربية البيروتية للعهد الجديد "بر"، بينما كلمة "عدل" هي الأصح. ويكفي أنْ نشير إلى أنه في خلال عشرة أعوام قُدِّمت ثلاث رسائل لدرجة الدكتوراه في جامعتي كامبريدج وأُوكسفورد، ونُشرت عدة دراسات هامة نحيل القارئ عليها في ثبت مراجع رسالة الدكتوراه:

J. A. Ziesler, The Meaning of Righteousness in Paul, A Linguistic and Theological Enquiry. Cambridge 1972.

وفي هذا الصدد نلاحظ أنَّ الخلاف اللاهوتي بين الكنيسة الكاثوليكية، وسائر الكنائس الإنجيلية يدور حول سؤال واحد: هل يصبح المسيحي باراً، أم هل يحسب له بر المسيح، ويضاف إليه مهما كانت حالته الروحية؟

وفي صياغةٍ أُخرى، هل يحكم الله للخاطئ بالبر؟ أم إنَّ الإنسان الخاطئ يدخل في علاقة بر، أو علاقة عدل يُعبِّر عنها أقطاب اللاهوت الإنجيلي بـ *right relationship* أي بالعلاقة الصحيحة؟

وقد أجاب على هذا السؤال كلٌ مِن الأب الكاثوليكي:

H. Kung, Justification, 1966.

وأُستاذ اللاهوت اللوثري:

A. Schweitzer, Paul and his interpreters, 1912.

وكان احتجاج أُستاذ العهد الجديد السابق *C. K. Barrett* في جامعة درام *Durham* هو أنَّ الفعل اليوناني (Δικαιωσις) (يبرر) هو دائماً ترجمةً للفعل العبراني، والفعل العبراني هو دائماً في صيغة المبني للمجهول، ولذلك يجب ترجمة الفعل إلى *In right relationship* وهو لا يعني العلاقة الصحيحة أخلاقياً، بل علاقة جُود وصلاح الله بالإنسان رغم خطاياه[1] وهو ما ينفي دفع الثمن أو تقديم فدية للآب.

تقسيم

وحتى لا يتوه القارئ في بحر هذه الدراسات الشاقة، ولأجل الإحاطة بكافة جوانب الموضوع في سهولة ويسر، قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى مبحثين، نتناول في المبحث الأول معنى الكلمة اليونانية "بر" وما يقابلها في العهد القديم، وبسطنا للكثير من تطبيقاتها في مدلولاتها المختلفة. وفي المبحث الثاني نتناول كلمة البر أو العدل والتبرير في العهد الجديد. في مطلب أول نتناول هذا المعنى في الدراسات اللاهوتية المعاصرة حيث نعرض للمعنى اللغوي والقانوني للكلمة. وفي المطلب الثاني لمدلولها في غير رسائل القديس بولس، ثم في مطلب ثالث للمعنى عند القديس بولس: في فرعٍ أوَّل نعرض لهذا المدلول في غير رسالتي غلاطية ورومية، ومن ثم في فرع ثانٍ لمعنى الكلمة في رسالتي غلاطية ورومية كلٍ على حدة لما لهما من خصوصية في هذا الشأن، ثم في فرع ثالث نعرض لماً يمكن أن نسميه بالناحية التطبيقية، فنعرض للعلاقة بين التبرير والمعمودية، عندئذ تتوفر لنا القاعدة الأساسية لفهم موت المسيح على الصليب، وعلاقة ذلك بعدل الله.

([1]) C. K. Barrett, The Epistle to the Romans, 1957, pp 75 tt.

الكلمة اليونانية (البر) "Δικαιοσυνη "
وتطبيقاتها في العهد القديم

كلمة "البر" في العهد القديم:

"البر" في العبرانية هو "ص د ق هـ" "صدقه"، وهي الكلمة الأكثر شيوعاً في الأصل العبراني. وتُزاملها كلمة أُخرى "م ش ف ط" "مشفط"، وكلتا الكلمتان تعنيان "العدل".

أولاً: أمثلة للعدل دون حكم، أي القضاء دون عقاب:

«أقض لي يارب كحقي، ومثل كمالي الذي فيَّ» (مز ٧ : ٨).

«أقض لي يارب لأني سلكت بكمالي» (مز ٢٦ : ١).

وفي عبارةٍ أكثر وضوحاً حيث العدل هو الحق:

«تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، **اقضوا لليتيم**، حاموا عن الأرملة» (أش ١ : ١٧).

ويقول النبي عن المسيح عندما يتنبأ عن حلول روح الرَّب عليه «يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض» (أش ١٧ : ٤) والقضاء للمساكين هو إعطاء حق وليس عقوبة، ويقول النبي أرميا: ويلٌ لمن يبني بيته بغير عدل .. قضى قضاء الفقير والمسكين (٢٢ : ١٥). ويقول سفر الشريعة: «لا تعوج حكمً الغريب واليتيم ولا تسترهن ثوب الأرملة» (تث ٢٤ : ١٧) فالحكم هو صدق، والصدق هو العدل، والحكم للغريب واليتيم والمسكين هو إعطاء حق تقرره الشريعة.

ثانياً: أمثلة للعدل والحكم بعقوبة حسب الشريعة

«إذا كانت خصومة بين أُناس، وتقدموا إلى القضاء ليقضِ القضاة بينهم، فليُبرِّروا البار، ويحكموا على المذنبٍ» (تث ٢٥ : ١) وبعد ذلك تحدد الشريعة عدد جلدات المذنب (٤٠ جلدة) ـ راجع ٢ صموئيل ١٥ : ٤ ــ أشعياء ٥ : ٢٣ حيث يُبرِّر الأشرار شر الشرير من أجل الرِّشوة.

ثالثاً: البر دون قضاء، أو حتى حكم:

يقول النبي عن السيد المسيح: «وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين، وآثامهم هو يحملها» (أش ٥٣ : ١١)، وهنا معرفة البار أي المسيح تُبرِّر، والمسيح يُبرِّر، وهذا ليس حكمٌ، بل هبةٌ كما سنرى بعد ذلك. وعن هذا، أي عن جُود وصلاح الله يقول أيوب: «لأني وإنْ تبررت لا أُجاوب، بل أسترحم دياني» (أيوب ٩ : ١٥). ويقول أرميا وهو يوبخ إسرائيل على ارتداده: «زَنَتْ إسرائيل العاصية، فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها .. فقال الرَّب لي قد بَـرَرَتْ نفسها .. قل ارجعي أيتها العاصية إسرائيل، يقول الرَّب لا أوقع غضبي بكم لأني رؤوف يقول الرَّب. لا أحقد إلى الأبد» (أر ٣ : ٨-١٢) وهو هنا لا يخُزِّن خطايا البشر، ويشعل النار في ابنه الوحيد، ويجد راحة في رائحة لحمه المشوي على الصليب، بل لا يحقد إلى الأبد.

وجاء الفعل بمعنى التجديد ورد ما ضاع وفُقِدَ. وهكذا يرى دانيال عودة القدس إلى ما كان عليه ويقول "فيتبرأ القدس" (دا ٨ : ٤).

رابعاً: البر بمعنى السلوك الفاضل:

يؤكد النبي حزقيال إنَّ الإنسان البار هو الذي لا يشترك في ذبائح قُدِّمَت للإلهة الغريبة وهو المقصود "لم يأكل علي الجبال"، ويضع قاعدة السلوك البار على هذا النحو:

«لم ينجس امرأة قريبه، ولم يقرب امرأةً طامثاً»

«لم يظلم إنساناً، بل رَد للمديون رهنه، ولم يغتصب» (حزقيال ١٨ : ٥-٩).

هذا السلوك البار هو عمل الفضيلة وحفظ الشريعة، والأمثلة على ذلك كثيرة،

ولذلك يقول المزمور إنَّ أحكـام الله هـي أحكـام عـدل «أحمـدك باسـتقامة قلـبي عنـد تعلمي أحكام عدلك»، أو (أحكام بـرك) (مـز ١١٩ : ٧)، وهكـذا يـصبح الـبر سـلوكاً فاضلاً، وليس حكماً حسب القانون.

خامساً: البر هو خلاص الله:

حسب النص العبراني لأشعياء ٥١ : ٥ يقول السيد الرَّب: **"قريب هو بري"** أو عدلي أو خلاصي.

سادساً: الإنسان الأكثر عدلاً هو الأكثر براً:

يقول يهوذا عن ثامار **"هي أبر مني .."** (تكوين ٣٨ : ٢٦).

سابعاً: الوعد بالعدل الآتي مع المسيح:

يقول أشعياء النبي عن عصر المسيح «فيسكن في البرية الحق والعدل في البستان يقيم، ويكون **صنع العدل سلاماً** »، فالعدل يصنع السلام، وصنع السلام لا علاقة له بالقضاء، بل هو هو كما يقول النبي بعد ذلك «وعمل العدل سكوناً وطمأنينة إلى الأبد، ويسكن شعبي في مسكن السلام[1] وفي مساكن مطمئنة» (اش ٣٢ : ١٦ – ١٨). ويربط النبي بين العدل والسلام، وانسكاب الرُّوح القدُّس، روح يسوع، روح السلام « يسكب علينا روح من العلاء، فتصير البرية بستاناً، ويحسب البستان وعراً» (أش ٣٢ : ١٥).

ثامناً: الوعد بالبر والعدل الآتي مع المسيح وبالمسيح:

من مواعيد الله العظمى «ها أيامٌ تأتي يقول الرَّب، وأقيم لداود غصن بر (عدل) فيملك وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الأرض .. وهذا هو اسمه الذي يدعونا به الرَّب برنا » (أر ٢٣ : ٥–٨) .. ولم يملك المسيح بالقضاء المدني وكراسي حكم القضاة، بل ملك على الصليب، وملك بالرُّوح القدُّس، وأقام العدل، أي أعاد ما كان مفقوداً وهو صورة الله التي فقدها آدم الأوَّل (راجع أرميا ٣٣ : ١٥–١٧).

[1] ولذلك نعطي قبلة السلام بعد صلاة الصلح؛ لأن المصالحة جاءت بالسلام .. ولاحظ أن الشيرات (السلام) في طقسنا القبطي هي أحد مكونات السلام والمصالحة بين السمائيين والأرضيين.

وهكذا أيضاً تنبأ المزمور عن مُلك المسيح «اللهم أعط أحكامك للملك .. يدين شعبك بالعدل، ومساكينك بالحق. تحمل الجبال سلاماً للشعب، والآكام بالبر. يقضي لمساكين الشعب .. يُخلِّص بني البائسين ويسحق الظالم» (مزمور ٧٢ : ١-٤). والقضاء هنا من أجل حق المساكين، ولذلك تستريح الخليقة بعدل الله الذي يخلص بني البائسين .. هذا ليس انتقاماً، بل عملٌ إلهي عظيم من أجل عدل الله وصلاحه.

هذا كل ما يذكره العهد القديم، والمشكلة الحقيقية هي في دراسات العهد الجديد، لا سيما الدراسات الإنجيلية.

البر والعدل والتبرير
في العهـــد الجديـــد

تقسيم

نعرض في هذا المبحث لكلمة "البر أو العدل" والتبرير في العهد الجديد. في مطلب أول نتناول هذا المعنى في الدراسات اللاهوتية المعاصرة حيث نعرض للمعنى اللغوي والقانوني للكلمة. وفي المطلب الثاني لمدلولها في غير رسائل القديس بولس، ثم في مطلب ثالث للمعنى عند القديس بولس: في فرعٍ أوَّل نعرض لهذا المدلول في غير رسالتي غلاطية ورومية، ومن ثم في فرع ثانٍ لمعنى الكلمة في رسالتي غلاطية ورومية كلٍ على حدة لما لهما من خصوصية في هذا الشأن، ثم في فرع ثالث نعرض لما يمكن أن نسميه بالناحية التطبيقية، فنعرض للعلاقة بين التبرير والمعمودية، عندئذ تتوفر لنا القاعدة الأساسية لفهم موت المسيح على الصليب، وعلاقة ذلك بعدل الله.

البر والعدل والتبرير
في الدراسات اللاهوتية المعاصرة

مقدمة:

يواجه علماء العهد الجديد في العصر الحديث مشكلة علاقة اللغة اليونانية القديمة الكلاسيكية السابقة على ظهور المسيحية، باللغة اليونانية المتطورة التي جاءت مع المسيحية، والتي طورها علماء المسيحية. وحتماً يبدأ الحل بالعودة إلى النص العبراني للعهد القديم، ثم الترجمات اليونانية التي قام بها يهود الإسكندرية والتي جُمِعَت معاً تحت اسم واحدٍ معروف هو "السبعينية".

وهكذا، فحسب اللغة اليونانية القديمة السابقة على ظهور المسيحية، كانت كلمتي "صدق" أو"عدل" في العبرانية هما الكلمة اليونانية "δικαιοσυνη" الواحدة التي تترجم الكلمتين العبرانيتين "صدق، وعدل". وكان أوَّل بحث معاصر نُشِرَ حول هذه المشكلة اللغوية هو:

C. H. Dodd, The Bible and the Greeks, 1935.

وفتح *Dodd* الباب للدراسات المعاصرة لمراجعة التفسير القانوني الذي فُرض في العصر الوسيط وفي عصر الإصلاح على عقيدة الفداء أو الكفَّارة من أجل إعادة النظر في دقة الكلمات والمعاني بعد أنْ أظهرت الدراسات اللغوية العبرانية التي تزامنت مع الدراسات اليونانية ابتعاد العصر الوسيط عن روح العهد القديم نفسه، وعن المعاني اللاهوتية العبرانية في المؤلفات اللاهوتية والاكتفاء بالنص اللاتيني وحده للكتاب المقدس، أو دراسة الكلمات العبرية من خلال ما استقر من شرح لاتيني باللغة اللاتينية.

وجاءت دراسات الآباء، وهي دراساتٌ بدأت في عصرٍ مبكرٍ بعد عصر

الإصلاح، أي بعد وفاة لوثر، فقد اجتهدت الكنيسة اللوثرية في الحوار اللاهوتي الناري مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في إثبات ابتعاد كنيسة روما عن تعليم الآباء، وهو ما أدَّى إلى إعادة إصدار كتب الآباء باليونانية واللاتينية لدعم الحوار اللاهوتي والتاريخي في سلسلة آباء الكنيسة التي نشرها الأب يعقوب مين *Migne* ابتداءً من عام ١٨٠١م وما بعدها..

وكما ذكرنا من قبل، فقد بدأت الكنائس الإنجيلية الأمريكية في إصدار تفسير العهد الجديد كله من خلال تفسير آباء الكنيسة.فقط في القرون الخمسة الأولى.

التبرير والعدل في المعنى اللغوي والقانوني

لا يمكن لأي باحث مهما كان مذهبه أنْ ينكر أنَّ الحضارات المختلفة قد عرفت عبر عصورها المختلفة، وفي كل مكان وزمان، العدل بمعناه القانوني، أي رد حق المظلوم وقصاص الظالم ومعاقبته. هذا موضوع لا يمكن أنْ نختلف عليه، ولكن النقطة الجديرة بالبحث والاهتمام هي:

١ـ هل عدل الله هو نفسه عدل المحاكم الأرضية؟

٢ـ هل يعاملنا الله حسب القانون الوضعي؟ والجواب هو إنَّ كافة القوانين الوضعية لا تعرف **المغفرة** بالمرة، ولا تعرف **تجديد** المجرم، بل العقاب وحده، ولا تعيد المجرم إلى الوضع الذي كان عليه قبل الجريمة.

من هنا، وتحت تأثير الحضارات والفكر السياسي جاءت الفكرة القانونية التي تشرح موت السيد المسيح له المجد على الصليب، وهي أنَّ المسيح دفع الثمن واحتمل العقوبة ومات عن الخطاة وأرضى مطالب العدل الإلهي. وطبعاً عندما تتصالح العقيدة والإيمان مع الحضارة، فهذه المصالحة تخلق سهولةً ووضوحاً يقبله البسطاء وعامة الناس .. وهكذا كان شرح موت المسيح بواسطة مصطلحات القانون مقبولاً وسهلاً.

ولكن هذا يخلق مشاكل لاهوتية عديدة خاصة بالغفران والنعمة والقيامة من الأموات. فهذه عطايا إلهية لا دخل للقانون فيها .. من هنا جاءت الدراسات المعاصرة لكي تصحح الموقف.

التبرير والعدل بين اليونانية الكلاسيكية، ويونانية العهد الجديد

لو أن الكلمة "عـدل" أو "بـر" أُخِـذَت بمعناها اللغـوي القـديم، لَفَقَـدَتْ المسيحية أهم ما تُعلِّم به. وهكذا يذكر *J. A. Ziesler* (١) وغيره: إنَّ عبـارة الرسـول بولس "الله يبرر الفاجر" تعني في اللغة اليونانية القديمة "الله يحكـم علـى، يُـدين الفاجر"؛ لأن الفعل (~Δικαιωσι) يعني في اللغة اليونانية الكلاسـيكية "يعامـل حسب العدل"، أي يدين وذلك حسب ما هو وارد في مؤلفات أرسـطو(٢) فالفعـل لا يعني بالمرة يبرر حـسب مـا هـو معـروف في اللغـة اليونانيـة. وحتـى البرديـات اليونانيـة القديمـة الـتي درسـها كـل مـن *Moulton* و *Milligan* (٣) تعـني الحكـم والقضاء، ولذلك يكتب *N. H. Snaith* في مؤلَف مشهور *The Distinctive Ideas of the O.T* : "إنَّ الاستعانة باللغة اليونانيـة الكلاسـيكية هـو الـذي يـؤخِّر فهـم كلمات الرسول بولس".

وحيثما نجد " العدل" في العهد القديم، فإنَّ النصوص التي تقدم لنا المعنى القانوني هي إمَّا نصوص الشريعة، أي شريعة موسى، أو القانون الوضعي الذي يُعاقِب المجرم، أو يحكم لمصلحة البريء، ولكن لا يعفو عن الخاطئ(٤).

ويجب أن نتذكر أنَّ العهد القديم تميَّز وحده بفكرةٍ لا مثيل لها في العالم القديم، وهي حق المظلوم، اليتيم، الغريب، الأرملة، المسكين، البائس، هؤلاء تعطي الشريعة لهم حقاً إلهياً، ولذلك فإنَّ رد أو الحكم لهؤلاء هو حكم عدلٍ وصدقٍ وبرٍ؛ لأن الله أمر به في الشريعة.

---

(1) C. H. Dodd, Bible and Greeks, p 52.-.J. A. Ziesler, op cit p 47.

(2) Ibid p 47 Aristotle, Eth. Nic V: 19.

(3) The Vocabulary of the Greek N.T. 1914, p 162 f.

(٤) هنا بالذات يجب ألا ننسى أن الشريعة في سفر اللاويين والتثنية تحتوي على: ١- قوانين خاصة بالعلاقات الاجتماعية والمعاملات التجارية والجرائم وأحكام خاصة بالتعويضات وإجراءات التقاضي...إلخ. ٢- قوانين خاصة بالعبادة ونظام الذبائح والأعياد وخدمة خيمة الاجتماع. والقسم الأول الخاص بالقضاء والأحكام وما إليه لا علاقة له بالمرة بالمسيحية، أمَّا القسم الثاني فقد تحول إلى رموز في اللاهوت المسيحي.

الفعل يبرّر "Δικαιοω"
في غير رسائل القديس بولس

البر يعني ما هو صحيح

يقول الرَّب: « الحكمة تبررت من بنيها » (متى ١١ : ١٩)، وهنا الحكمة تبررت، أي عادلة جداً في سلوكها تجاه البشر، وهكذا أراد الناموسي أنْ "يبرر نفسه" (لو ١٠ : ٢٩) أي يتظاهر بالعدل والسلوك الفاضل. وعندما تكلم الرَّب يسوع عن محبة المال وكان الفريسيون يسمعون "وهم محبون للمال"، قال لهم الرَّب: « أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الله » (لو ١٦ : ١٥) أي تحاولون التظاهر بأنكم على صواب. ويقول الرَّب في متى ١٢ : ٣٧:«بكلامك تتبرر وبكلامك تدان» (راجع أيضاً أعمال ١٣ : ٣٩ - لوقا ٧ : ٢٩). وهنا يؤكد الفعل "تتبرر" بالذات صواب وصحة الكلام؛ لأن الفعل الآخر "تدان" يؤكد الحكم بالخطأ. فالصواب هو المعنى الظاهر.

وإذا قرأنا النص الخاص بمثل الفريسي والعشار تعذر علينا أن نقرر أن الفعل يعني الحكم العادل كما يسجل القديس لوقا « وجميع الشعب إذ سمعوا، والعشارون **برروا الله** معتمدين بمعمودية يوحنا » (لو ٧ : ٢٩). هذا لا يعني أن هؤلاء حكموا بعدل الله بالمعنى القانوني؛ لأن الله لم يكن أمام محكمة وقضاء، بل كما نفهم من سياق الكلام ـ وهو مقارنة الشعب والعشارين بالفريسيين حيث يقول لوقا «وأمَّا الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم» (لو ٧ : ٣٠) ـ إنَّ هذا **يعني قبول مشورة الله الصالحة**، أو قبول صلاح الله الذي أعطى معمودية يوحنا للتوبة، وقبول الملكوت الآتي مع يسوع المسيح ربنا. وهكذا أيضاً رجع العشار مبرراً دون الفريسي، فقد اعترف بندمٍ وتواضعٍ، فنال رحمة الله وتبرر أي كانت صلاته صحيحةً، ولم يسقط في الكبرياء والغرور مثل الفريسي (لوقا ١٨ : ٩ - ١٤).

العدل ومغفرة الخطايا والخلاص:

لا يمكن لمسيحي على أقل قدر من العقل والإدراك أنْ يشُّك في عدل الله. ولكن في نفس الوقت لا يمكن لمسيحي يدرك الفرق بين عدل الله، وعدل القضاء والمحاكم الأرضية، أنْ يتصور إنَّ عدل الله مثل عدل البشر، وأنَّ شريعة الله مثل شريعة المحاكم لا مجال فيها للغفران، وأنَّ الغفران له ثمنٌ يدفعه الله نفسه عندما يعجز الإنسان عن الدفع. هكذا تتشابك معاً قضيتان:

القضية الأولى ذات تأثير خطير على مسار الفكر اللاهوتي، **وهي اعتبار الله مثل البشر**؛ لأن هذه الفكرة تنزع عن الله كل مستويات السمو والتعالي الإلهي، بل وتقودنا مباشرة إلى وثنيةٍ جديدةٍ أخطر من الوثنية القديمة؛ لأن الوثنية القديمة كانت لها أصنام مادية ظاهرة، أمَّا الوثنية الجديدة، فهي عقلية روحية. عندئذ يصبح تحطيم الصنم أصعب بكثير، لأنه قابعٌ في عقل الإنسان وروحه، وهو صنم يمنعه من الاقتراب الحقيقي من الإله الحقيقي، ولذلك السبب عينه، وبعد إنذار المحبة وتحذير من الضلال، يقول الرسول يوحنا: "ونعلم إنَّ ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية. أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام" (١ يوحنا ٥ : ٢٠-٢١).

والقضية الثانية أسهل فهماً من الأولى، وإنْ كانت أكثر فظاعة، لأن **فحواها أن الله لا يعرف الجُود بالمرة، ولا يعرف الكرم، ولا يُعطِي بلا مقابل، ولا يغفر إلاَّ بثمن، ولا يُطلِق سراح المديونين إلاَّ بعد يستوفي حقه**، وهو أمرٌ لا وجود له بالمرة في العهد الجديد، وضد أمثال المسيح روحاً ونصاً، وبشكل خاص المثل الخاص بالمغفرة: «يارب كم مرة يخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات» (متى ١٨ : ٢١-٢٢) ولو إنَّ الرَّب صَمَتَ بعد ذلك لجاز لمن يشاء أنْ يعبث بكلمة الله أنْ يقول سبعين مرة سبع مرات بعد الاعتذار في الجرائد .. الخ. ولكن الرَّب وهو يدرك أنَّ روح القساوة والانتقام الشريرة سوف تدخل محافل المؤمنين، أردف هذه العبارة بالمثل المشهور «لذلك يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أنْ يحُاسب عبيده .. قُدِّمَ

إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة. وإذ لم يكن له ما يوفي الدين أمر سيده أنْ يُباع هو وامرأته وكل ما له ويوفي الدين» (متى ١٨ : ٢٣-٢٥)، هذا طبعاً عدل الأرض، وعدل كل القوانين الوضعية. لكن الرَّب لم يتوقف عند هذه النقطة حتى لا تتسرب الوثنية إلى الفكر المسيحي تحت ستار وعباءة العدل، فأكمل: «فَخَّر العبد وسجد له قائلاً: يا سيد تمهل عليَّ فأوفيك الجميع. **فتحنن** سيد ذلك العبد وأطلقه، وترك له الدين» (متى ١٨ : ٢٧).

أمينٌ وعادلٌ:

يقول رسول المسيح: « إنْ قلنا إنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا، وليس الحق فينا. إنْ اعترفنا بخطايانا، **فهو أمِيٌن وعادلٌ** حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهرنا من كل أثم » (١ يوحنا ١ : ٨-٩). فهل يجوز لنا إزاء هذه الكلمات الواضحة أنْ نقول إنَّ عدل الله بعيدٌ تماماً عن الغفران، أم أنه عدلٌ يغفر ويطهر من كل أثم؛ لأن التطهير هو عمل الله نفسه حسب كلمات الأسفار المقدسة الواضحة التي لا تحتاج إلى تأويل مثل صلاة داود «طهرني بالزوفا، فأطهُر. أغسلني فأبيض أكثر من الثلج» (مزمور ٥١ : ٧) وقد حرصت كنيستنا على أنْ تضع هذا المزمور في مقدمة كل صلاة من صلوات السواعي.

المسيح العادل أو البار:

يبدو إنَّ الذين استغرقوا في تصور أنَّ عبارة الرسول **"**صار خطيةً**"** (٢ كو ٥ : ٢١) قد نسوا إنَّ المسيح هو أيضاً البار أو العادل، أو الذي يسلك سلوكاً صحيحاً:

* «أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أنْ يوهَبَ لكم رجل قاتلٌ، ورئيس الحياة قتلتموه» (أع ٣ : ١٤-١٥) فالرَّب ليس فقط القدوس والبار، بل أيضاً مؤسس أو رئيس الحياة.
* «يا قساة الرقاب .. قتلوا الذين سبقوا فأنبئوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه» (أع ٧ : ٥٢).

وهذا مفرح جداً لقلب طالبي الحق؛ لأن المسيح البار يُقَدَّم هنا في كرازةٍ تؤكد

المناسبة، أنه البار الذي قُتِل صلباً. وهكذا يسمع بولس بشارة الإنجيل من فم حنانيا «إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته، وتبصر البار، وتسمع صوتاً من فمه» (أع ٢٢ : ١٤)، ويؤكد الرَّب نفسه إنه يشترك مع الآب في البر أو العدل عندما يقول «لا أقدر أنْ أفعل شيئاً من نفسي (لأنه ليس منفصلاً عن الآب) كما أسمع أُدين، ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنا ٥ : ٣٠).

وعند مواجهة اليهود يسأل الرَّب عن سبب العداوة، ويحتج لأنه شفى إنساناً في السبت (يو ٧ : ٢٣) وعند هذه النقطة يقول في حزم «أتسخطون عليَّ لأني شفيت إنساناً كله في السبت»، بينما أنتم تمارسون الختان في السبت حفظاً للناموس. فما هي الأسباب الحقيقية للعداوة: أالختان في السبت، أم شفاء إنسان في السبت؟ ولعل القارئ يلاحظ أنَّ الشفاء في السبت هو ذات الشفاء الذي جاء به الرَّب، أي تجديد الطبيعة الإنسانية التي تحرص عليه الأُرثوذكسية كأحد أعمدة الخلاص. وهنا يقول الرَّب «لا تحكموا حسب الظاهر، بل أُحكموا حكماً عادلاً» (يو ٧ : ٢٤). فأمَّا الظاهر، فهو الحرف، هو الناموس الذي يمنع كل الأعمال في السبت، وأمَّا العادل، فهو شفاء الإنسان حتى في السبت؛ لأن العدل والخلاص لا يمكن أنْ يكونا على طرفي نقيض يعمل أحدهما ضد الآخر. هذا هو انقسام الإنسان المريض بالانقسام، وليس عمل الله الكامل.

البار من أجل الأثمة:

وحتى لا يتوهم أحدٌ أنَّ العدل بعيدٌ عن الخلاص، يقول الرسول بطرس عن موت الرَّب على الصليب «المسيح تألم مرةً واحدةً من أجل الخطايا. البار من أجل الأثمة لكي يقربنا إلى الله» (١ بطرس ٣ : ١٨-١٩) وآلام البار على الصليب أكثر من آلام الخاطئ، والعبرة ليست في كم أو نوع الألم، بل العبرة في أنَّ الذي مات على الصليب ظل البار في موته؛ لأنه ببره أي بعدله استطعنا أنْ نقترب من الله، وأنْ يُقدِّمنا ليس حسب مطالب الناموس، بل حسب مطالب صلاح الله وعدله ومحبته. وهكذا أيضاً يؤكد الرسول يوحنا إنَّ عدل الابن هو أساس شفاعته « يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا. وإنْ أخطأ أحدٌ، فلنا شفيع عند الآب

يسوع المسيح البار وهو كفَّارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً » (١ يو ٢ : ١-٢).

وماذا يمكن أنْ نقول أكثر من هذا: المسيح البار العادل القدوس هو نفسه المسيح الكفَّارة، هو نفسه الشفيع في كل الخطايا، وفي خطايا العالم كله. وهكذا حرص الإنجيلي متى أنْ يؤكد بر المسيح وهو يُحَاكَّم أمام كرسي قضاء روما الذي يمثله بيلاطس، ويسمع تحذير امرأته ويعمل ضده «إياك وذلك البار لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (متى ٢٧ : ١٩) ويغسل بيلاطس يديه معلناً «إني بريء من دم هذا البار» (متى ٢٧ : ٢٤) .. العادل والبار هو البريء الذي على حق. وهكذا شهد لونجينوس قائد المائة موت الرَّب مصلوباً ومجد الله قائلاً:«بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً» (لوقا ٢٣ : ٤٧).

العدل، أو البر هو الحق:

يؤكد الإنجيل حسب متى في مثل الكرامين إنَّ الأجر المتفق عليه هو العدل، أو الحق «أعطيكم ما يحق لكم» (٢٠ : ٤) وهو ما يؤكده الرسول بولس؛ لأن **الأُجرة ليست نعمة**، بل هي مكافأة على العمل «أمَّا الذي يعمل، فلا تحسب له الأُجرة على سبيل نعمة، بل على سبيل دين»(رو ٤ : ٤).

ويقول الرَّب في الإنجيل حسب لوقا «لماذا لا تحكمون بالعدل أو بالحق .. حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم أبذل الجهد وأنت في الطريق لتتخلص منه. لئلا يجرك إلى القاضي» (لوقا ١٢ : ٥٧-٥٨) وعجيب حقاً أنْ يطلب الرَّب منا ألا نذهب للقضاء، بينما يقف هو كمذنب وخاطئ يحاكم أمام محكمة العدل، أي محكمة الآب العادل. تناقضٌ لا يليق أنْ نفكر فيه بالمرة، ولكن منطق الآخرين ألزمنا بأن نفكر فيه ونكتبه ونعتذر عنه.

خاتـمة:

طبعاً لا يغيب المعنى القانوني بالمرة عن الأسفار، ولكن ليس في الكلام عن الله، وإنما في القضاء الذي يفصل في منازعات البشر. هكذا يطلب الرسول العدل والحق أمام الله "فأجابهم بطرس ويوحنا وقالا إنْ كان حقا أمام الله أنْ نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا"(أع ٤ : ١٩). هل يسمع تهديد مجمع السنهدرين، أم ينادي ببشارة الإنجيل «لأننا نحن لا يمكننا أنْ لا نتكلم بما رأينا وسمعنا » أي بغير الكرازة (أع ٤ : ٢٠). وكذلك أيضاً من العدل ـ حسب حكم الشريعة ـ أنْ يأخذ الإنسان البار أُجرته (متى ١٠ : ٤١).

ولكن حتى المعنى القانوني نفسه يتجاوزه الإنجيل إلى بشارة الحياة وتجديد فكر الإنسان؛ لأن يوحنا المعمدان الذي سيأتي بروح النبي الناري إيليا سوف يكرز لكي «يرد قلوب الآباء إلى الإبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار» (لوقا ١ : ١٧)، وهكذا شهد الإنجيل ليوحنا بأنه «رجلٌ بارٌ وقديس» (راجع مرقس ٦ : ٢٠).

العدل في يوم الدينونة:

لا يمكن لمسيحي أنْ ينكر أنَّ حكم يوم الدينونة هو حكم عدل حسب شريعة المسيح، وليس حسب شريعة موسى. ولذلك فالحكم هنا ليس فقط على الزنى الجسدى على سبيل المثال ـ بل على الزنى القلبي لمن لم يتُبْ ويتعلم الطهارة. هذه إذن نقطة لا تقبل البحث، أو حتى النقاش، ليس فقط بسبب وضوحها في الأسفار، بل لأن مَن يعارض في حكم الدينونة العادل ينسب الظلم لله نفسه، وهو أمرٌ لا تقبله المسيحية شرقاً وغرباً.

الباب الثالث/ الفصل الثاني/ المبحث الثاني/ **المطلب الثالث** :

البِّر والتبرير
في رسائل القديس بولس

مقدمة:

درج علماء العهد الجديد في صدد دراستهم لموضوع البر والتبرير عند القديس بولس على دراسة هذا الموضوع في رسالتي رومية وغلاطية بصفة مستقلة عن باقي الرسائل: فيلبي ـ كولوسي ـ تسالونيكي ـ أفسس ـ تيموثاوس ـ تيطس ـ كورنثوس، وذلك لما لهاتين الرسالتين من خصوصية في هذا الموضوع،.لهذا اتبعنا هنا ذات الخط الذي تبعه علماء العهد الجديد منذ أكثر من مائة سنة، وذلك حتى يظهر:

أولاً: ما إذا كان هناك معنىً آخراً خاصاً بالبر والتبرير خارج رسالتي رومية وغلاطية.

ثانياً: المقصود بالبر والتبرير في رسالتي رومية وغلاطية تحديداً.

تقسيم

لذلك، ففي فرع أول ندرس معاً مدلول كلمة **"بر"** في رسائل القديس بولس في غير رسالتي غلاطية ورومية، وفي فرع ثان نعرض لمدلول الكلمة في هاتين الرسالتين تحديداً، ثم في فرع ثالث نعرض للناحية التطبيقية، أي للعلاقة بين التبرير والمعمودية.

البر والتبرير في غير رسالتي غلاطية ورومية

أ- البر والتبرير في رسالة فيلبي:

لم يستخدم الرسول بولس الفعل "يبرر" على الإطلاق في رسالة فيلبي، لكنه وفي أعظم قطعة في الأدب المسيحي عن الإيمان وثمر البر (فيلبي ١ : ١١) يُقارن بين حالته كيهودي، وحالته كمسيحي (فيلبي ٣ : ٦-١١) «من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم. لكن ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل إني أحسب كل شيء أيضا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفايةً لكي أربح المسيح وأُوجد فيه، وليس لي بري الذي من الناموس، بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان، لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات »

أولاً: بولس اليهودي:

«من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم αμεμπτο~ (غير مُطالبٍ بشيء)» (٣ : ٦).

ثانياً: بولس المسيحي:

هذا البر حسب الناموس، وهو ربح حسبه الرسول خسارةً بل حسبه نفاية (زبالة) (٣ : ٦-٨).

والسؤال: كيف وجد بولس نفسه أمام العدل الإلهي الذي يحكم حسب الشريعة الموسوية؟ بلا لوم. فلماذا رفض هذا الحكم؟ ولماذا حسبه خسارة ـ زبالة؟

والجواب: لأن بر المسيح أعظم من بر الناموس. ونال عظمته، ليس لأن المسيح نال هذا البر كحكم صدر على الصليب، بل لأن المسيح بارٌ ويبرر الفاجر «وأمَّا الذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر، فإيمانه يحسب له براً» (رو ٤ : ٥).

بعد هذه المقارنة، يحسم الرسول الأمر، فيقول: «لكي أربح المسيح وأُوجد فيه، وليس لي بري الذي من الناموس، **بل الذي بإيمان (أمانة) المسيح**[1]، البر الذي من الله بالإيمان، لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبها بموته، لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات، ليس إني قد نلت أو صرت كاملاً، ولكني أسعى لعلّي أُدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع (في٣ : ٨-١٢).

ثالثاً: ماذا تعني هذه المقارنة؟

إذا كان بر المسيح هو بر الله، وهو برٌ واحدٌ لا ينقسم، هو برٌ حسب أمانة الله، وبرٌ حسب عدل الله الذي يفوق كل ما يقدِّمه الناموس الموسوي .. فهل يجوز لنا أنْ نتصور أنَّ هذا البر هو ثمرة إرضاء العدل الإلهي الذي قرره الناموس وثبته بعقوبات من أجل استقرار العلاقات الإنسانية؟ .. هل يجوز لنا أنْ نتصور أنَّ عظمة بر المسيح التي تجعل بر الشريعة **"**زبالة**"**، هل يجوز لنا أنْ نتصور أنَّ هذه العظمة هي إرضاءٌ لمطالب الناموس؟ .. أم هي عظمة صلاح الله وجُوده الفائق .. والدليل على ذلك هو من كلام الرسول الذي يريد القيامة من الأموات بقوة قيامة المسيح، ولأجل جعالة (مكافأة) دعوة الله العليا في المسيح، وهي الحياة الأبدية التي لم يَرِد بخصوصها شيئاً في شريعة موسى، ولا في نظام الذبائح.

رابعاً: ثمر البر

استخدم الرسول هذا التعبير **"**ثمر البر**"** في (فيلبي ١ : ١١) « مملوئين من ثمر البر الذي بيسوع المسيح لمجد الله وحمده»، وثمر البر هو تعبير لا يمكن تحديده حسب المعنى القانوني. فالحكم له نتائج، ولكن ليس له ثمار καρπον δικαιοσυνης ونتائج أي حكم هي العفو أو البراءة، والرسول يقول **"**مملوئين من ثمر البر الذي

---

[1] إيمان المسيح تعبير تكرر في رسائل القديس بولس على سبيل المثال: غلا ٢ : ١٦ و٢٠ - ٣ : ٢٢ وفي رو ٣ : ٢٢ بر الله بالإيمان بيسوع المسيح وفي اليونانية هي حالة المضاف إليه. وحسب الترجمة العربية القديمة "بل ذلك الذي من إيمان المسيح، الذي هو البر من الله" راجع النص العربي الصادر من جامعة لوفان بعنوان: MT. Sinai Arabic Codex 151 - نشره H. Staal عام ١٩٨٥ ص ١٥٤. وإيمان المسيح هو أمانة الله، وأمانة المسيح حسب (رو ٣ : ٣-٥) وهو المعنى الشائع في الشرق ولذلك حتى قانون الإيمان حسب الترجمات القبطية والعربية القديمة هو "الأمانة". والأمانة لا يمكن فصلها عن "العهد"، ولا عن "مواعيد الله"، ولا عن القداسة والمحبة.

بيسوع المسيح لمجد الله وحمده"، هكذا تفوَّق بر المسيح الذي منه نمتلئ بالرُّوح القدُّس، وننال الحياة الأبدية ومعرفة الآب وميراث الملكوت، وقيامة الجسد .. هذه ليست نتائجُ حكمٍ صدر في محكمة، بل ثمار المحبة والعدل الإلهي الذي لا يمكن تحديده بما نعرفه عن عدل البشر حتى لا تضيع النعمة ونفقد "ملء المسيح".

ب ـ البر والتبرير في رسالة كولوسي

كان العبد في القانون الروماني سلعةً تُباع وتُشترى .. ولكن الرسول بولس يقول للسادة: «أيها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أنَّ لكم أنتم أيضاً سيداً في السموات» (كولوسي ٤ : ١). وحسب شريعة موسى كان العبد يعمل كأجير حتى سنة اليوبيل، وبعدها يُطلق سراحه (لا ٢٥ : ١٠)، ولكن هنا وكما في رسائل الرسول الأُخرى:

١ـ العبد لا يُعامل كعبدٍ، بل أفضل من عبدٍ أخاً محبوباً (فل ١ : ١٦)، بل يساوي الرسول بولس نفسه (فل ١ : ١٧).

٢ـ مَن دُعِي وهو عبدٌ، صار حراً في المسيح (١ كو ٧ : ٢٢).

هذا هو عدل الإنجيل، مساواة العبد بسيده، وهو طبعاً يختلف عن عدل المحاكم والقانون.

ج ـ البر والتبرير في رسالتي تسالونيكي

يؤكد الرسول للذين نالوا شدائد وضيقات واضطهادات من أجل الإيمان بالمسيح إنَّ هذا الضيق، وحسب كلمات الرسول نفسه «بينة (دليل) على قضاء الله العادل أنكم تؤهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألمون» (٢ تسالونيكي ١ : ٥).

وحتماً إذا كان الملكوت هو ميراثٌ صدر بحكم عدل حسب شريعة الأرض، فلماذا نتألم؟ ولماذا يؤهِّل الألم المسيحي لميراث الملكوت؟ والجواب هو في تطهير القلب والعواطف والفكر من الاستعلاء وسائر الرذائل الأُخرى، وهو ما يؤهِّل

ولكنه لا يُعطي؛ لأن العطية هي نعمة الله في المسيح، ولذلك السبب يقـدم الرسـول التعليم المسيحي في ذات الفقرة سـائلاً في صـلاته لأجـل الكنيـسة المـضطَهَدة الـتي تنتظر مجد الله في المسيح «أنْ يؤهِّلكم إلهنا للدعوة، ويكمل كل مسرة الصلاح وعمـل الإيمان بقوةٍ لكي يتمجد اسم ربنا يسوع المسيح فيكم وأنتم فيه بنعمة إلهنـا والـرَّب يسوع المسيح» (٢ تـسالونيكي ١ : ١١-١٢)، فالبرهـان والحُجـة هـو نعمـة المـسيح، ولـيس صلاح الإنسان. ولأن الألم يؤهِّل، لذلك احتاجت الكنيسة إلى صلاة الرسول.

والقضاء العادل، كما يعني الملكوت للمؤمنين، يعني أيضاً «هو عادل عند الله أنَّ الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً» (٢ تسالونيكي ١ : ٦) الضيق الذي يؤدي إلى التوبة، وإلى الهلاك في يوم الدينونة لَمن لم يتُبْ. وهنا بالذات يجب أن يبقى الإيمان المسيحي ظاهراً؛ لأن الشهداء والمعترفين لم ينالوا الملكوت لأنهم ماتوا شهداء، أو عُذِبوا، بل كانت لهم "نجاة" تؤهلهم للملكوت، ولأن الملكوت هو عطية الله في المسيح لا يمكن لإنسانٍ أن يكسبه حتى ولو بالموت.

د ـ البر والتبرير في رسالة أفسس

هل لعدل الله دور في تجديد الإنسان؟ والجواب نعم؛ لأن الرسول يؤكد أنَّ الإنسان الجديد يخُلَق « حسب الله » (أفسس ٤ : ٢٤)، وحسب الله؛ لأنه صورة الله. ويخُلَق من جديد "حسب الله في البر"، أي في العدل، ذلك العدل الذي يكوِّن الخليقة الجديدة ويصبح أحد صفاتها الأبدية .. وفي السماء، هل تحتاج الخليقة إلى عدل حسب المفهوم الأرضي، أم تحتاج إلى عدل حسب السلوك الجديد الصحيح والبار والعادل، أي الذي هو سلوك الصلاح وقداسة الحق؟

العدل ثمرٌ للرُّوح القدُّس

يقول الرسول إنه بعد الحصول على الاستنارة في المسيح ـ والاستنارة أحد

أسماء المعمودية المقدسة[1] ـ يسلك المؤمن كابن للنور (راجع صلاة المعمودية في كنيستنا)، وبسبب قبول الرُّوح القدُّس يقول الرسول:«لأن ثمرة الروح هو في كل صلاح وبر (أي عدل) وحق. مختبرين ما هو مرضي عند الرَّب» (أف ٥ : ٩ ،١٠). والبر هنا هو درع البر الذي يصد هجمات الشيطان (أف ٦ : ١٤). وهذا ليس حكم الشريعة، بل هو عمل الرُّوح القدُّس في الإنسان الجديد الذي بالسلوك الصحيح العادل لا يقع تحت سيطرة القوات الشريرة.

هـ ـ البر والتبرير في رسالتي تيموثاوس

من العبارات المأثورة عن الإله المتجسِّد ربنا يسوع المسيح أنه «تبرر في الروح» (١ تيمو ٣ : ١٦). ورغم حيوية النقاش الذي دار بين علماء العهد الجديد حول معنى هذا التعبير[2].إلاَّ أنَّ المعنى ظاهرٌ، وهو مسحة الرَّب في الأردن، وتقديم ذاته للآب على الصليب بالرُّوح القدُّس حسب قراءة كنيسة الإسكندرية لنص (عب ٩ : ١٣-١٤).

وهنا من الصعب علينا أنْ نرى أنَّ تبرير المسيح بالرُّوح القدُّس هو حكم براءة صدر حسب أحكام الشرائع مهما كانت، بل هو حكم عدل للبار يسوع المسيح الذي بلا خطية، والذي بموته أباد الخطية عندما أباد عرشها وهو الموت، فأعلن عدل الله بالقضاء على الدخيل والغريب، وهو الموت ثمرة الخطية وأُجرتها التي تدفعها للخطاة.

وـ البر والتبرير في رسالة تيطس

لعل القارئ القبطي يعرف أنَّ البولس الذي يُقرأ في المعمودية حسب طقسنا القبطي هو نص تيطس ٢ : ١١ ـ ٣ : ١ـ٦ نحن ننال نعمة التبني لكي نعيش حسب نعمة الله لأننا حسب عبارة الرسول «**حتى إذا تبررنا بنعمته، نصير ورثة**

---

(1) A. M. Hunter, Paul and his Predecessors 1961, pp 52 ff.
وأيضاً المعمودية في القرون الخمسة الأولى. د. جورج حبيب بباوي - القاهرة ١٩٨١م.

(2) راجع على سبيل المثال:
G. F. Synder, Current Issues in New Testament Interpretation, 1962, pp 160-177.

حسب رجاء الحياة الأبدية» (تيطس ٣ : ٧) والتبرير هنا حسب نعمة الله ليس حكماً قضائياً، بل دعوة لميراث الملكوت، ولعلك تلاحظ أيها القارئ عبارات الرسول:

حين ظهر لطف الله مخلصنا وإحسانه، ..

لا بأعمال في برٍ عملناها نحن،

بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني، وتجديد الرُّوح القدُّس[1].

الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا" (تي٣ : ٤ - ٦).

هذه كلمات ومقاطع كاملة تؤكد: اللطف ـ الرحمة ـ الغنى ـ وراثة الحياة الأبدية، وماذا يمكن أنْ نقول إلاَّ أنْ نسأل أين العدل والقضاء الأرضي هنا؟ أليس العدل الإلهي هو الجانب الآخر لرحمة الله التي تُعيد ما ضاع، وتُجدد ما أصابه الموت؟

زـ البر والتبرير في رسالتي كورنثوس

لعل المرة الوحيدة التي تكلم فيها الرسول عن القضاء هي (١كو ٤ : ٣-٥)، فهو يدافع عن سلوكه في الخدمة ولا يقبل "حكم" الآخرين، بل هو «لا يحكم على نفسه» (١ كو ٤ : ٣) ولا يشعر بأنه مذنب، ومع ذلك فهو ليس بريئاً «لكنني لست بذلك مبرراً» (١ كو ٤ : ٤) والسبب هو أنَّ الحكم الأخير والصحيح هو للرب وهو حكم الدينونة، ولذلك يقول «حتى يأتي الرَّب الذي سينير خفايا الظلام» (١ كو ٤ : ٥).

١ـ التبرير بالرُّوح القدُّس:

وقف علماء العهد الجديد من الإنجيليين في حيرة أمام كلمات الرسول «اغتسلتم، بل تقدستم، بل تبررتم باسم الرَّب يسوع المسيح، وبروح إلهنا» (١ كو ٦ : ١١)[2].

---

[1] تجديد الرُّوح القدُس هو إعادة الرُوح القدُس للإنسانية وهو الروح الذي فقدته بسبب الخطية (تكوين ٦ : ٦). راجع شرح القديس كيرلس الإسكندري لنص يوحنا ٢٠ : ٢١-٢٢.

[2] A. A Scott, Christianity According to Paul 1927, p 120.- H. L. Gaudie, The First Epistle to the Christian, 1903, p 45.

فحسب لاهوت الإنجيليين، الاغتسالُ خاصٌ بالمعمودية، والتقديس بالرُّوح القدُّس، والتبرير بالمسيح يسوع، وهنا ثار التساؤل: هل وضع الرسول المعمودية ـ ثم التقديس ـ ثم التبرير على الترتيب وعن قصد؟. وبالطبع فإن مصدر الحيرة في خصوص هذا النص عند علماء الكنيسة الإنجيلية ـ هو اعتقادهم أنَّ التبرير يسبق التقديس، وهكذا دار الحوار دون جدوى[1].

لكن لا يمكن لأحدٍ أنْ يفلت من تعبير الرسول «تبررتم باسم الرَّب يسوع المسيح وبروح إلهنا» (١ كو ٦ : ١١). طبعاً يلاحظ القارئ على الفور إنَّ الرسول يشير إلى التحلل الأخلاقي السابق على الإيمان، وهي قائمة مخيفة لخطايا ثقيلة، ولكن المسيح غسل كل هذه الخطايا. ولذلك السبب يقول أُستاذ العهد الجديد السابق في جامعة كمبريدج *J. B. Lightfoot* **إنَّ التبرير بالروح ليس إعلانُ براءة الخاطئ، ولكن هو الانضمام إلى المسيح** [2] **أي الكنيسة**. والتبرير بالروح هنا يُشبه تعبير الرسول عن الرَّب نفسه في (١ تيمو ٣ : ١٦) «وبالإجماع عظيم هو سرّ التقوى الله ظهر في الجسد **تبرر في الروح** تراءى لملائكةٍ كُرِزَ به بين الأُمم أُومِن به في العالم، رُفِعَ في المجد». وهذا الانضمام هو العلاقة الراسخة التي أسسها الرَّب يسوع كرأس الخليقة الجديدة مع الرُّوح القدُّس كرأس للإنسانية، وهو أيضاً شركة الروح في التبرير؛ لأن التبرير ليس فقط عمل الآب والابن الذي أُعلن بموت الرَّب على الصليب، بل هو عمل الثَّالوث القدوس. يسند هذا عبارة الرسول في (١ كو ١ : ٣٠) فقد صار المسيح نفسه كأقنوم **"**حكمةً وبراً وقداسةً وفداءً**"** ولعل القارئ يلاحظ أنَّ **"**فداءً**"** وضِعَت مع الاسم **"**بر**"**، وهذا يجعل استخدام هذه الأسماء ـ الحكمة ـ البر ـ القداسة ـ الفداء ـ يؤكد لنا أننا إزاء علاقة شخصية تجعل عدل الله **هو شخص المسيح، وليس مبدأ قانونياً يطبق حسب قواعد الشريعة.**

---

(1) J. A. Zilesler, op cit p 156.
(2) Notes on the Epistles of St. Paul, 1910, p 212-13.

٢ـ مجد خدمة التبرير (٢ كو ٣ : ١ـ١٨)

يعود الرسول إلى موضوع الشريعة وخدمة العهد القديم .. ويُقارِن بين العهد الجديد والعهد القديم. ويصف خدمة العهد القديم بأنها خدمة الموت، أمَّا خدمة العهد الجديد، فهي خدمة الروح، أي خدمة الحياة. ويصل الرسول إلى النقطة الحاسمة التي تفصل بين العهدين، وهي أنَّ العهد القديم الذي يمثله موسى قد أُبطل في المسيح، ولاحظ **الفعل** "العهد العتيق (القديم) .. الذي **يُبطَل** في المسيح" (٢ كو ٣ : ١٤)، فقد كانت خدمة الناموس، وشريعة موسى هي حكم بالموت على الخطاة. ويصف الرسول ذلك بأنَّ حتى المجد الذي نالته هو "**مجدٌ** زائل" (٢ كو ٣ : ٧)؛ لأن نهاية خدمة الناموس هي الموت، ولذلك كانت بداية وكمال الإنجيل هو الحياة، وهو ليس مجرد قرار عفو عن الخطاة، ولذلك يجيء الإنجيل ـ ليس بقرار عفو عن الخطاة ـ بل بالتغيُّر إلى مجد الرَّب، إلى تلك الحقيقة الفائقة "نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرَّب الروح" (٢ كو٣ : ١٨)، هذا المجد لا يعرفه الناموس ولا تربطه بالناموس أية علاقة.

٣ـ كيف صرنا بر الله في المسيح (٢ كو ٥ : ١٧ـ٢١)؟

يقدم الرسول رسالة الإنجيل: «إنْ كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة» (٢ كو ٥ : ١٧) لقد مضى العهد القديم كله كواسطة تحكم العلاقة بين الله والإنسانية. حَلَّ الوسيط الوحيد ربنا يسوع محل التوراة والناموس .. «صار الكل جديداً» (٢ كو ٥ : ١٧) و"الكل" هنا هو كل ما يخص الله والإنسان، أي العلاقة الجديدة مع رأس الخليقة الجديدة ربنا يسوع المسيح. وهنا يرتب الرسول تعليم الخلاص:

* الجديد، أي الكل هو من الله. وكلمة الله هي خاصة بالثَّالوث.

ولكن إذا افترضنا أنَّ كلمة "الله"، هي خاصةٌ بالآب ـ رغم ما في هذا من شناعة ـ فإن الذي صالحنا هو الآب لنفسه (٢ كو ٥ : ١٨) إلاَّ أنَّ الكلمات التي تلي هذه العبارة، هي ضد كل ما نعرف عن لاهوت العصر الوسيط، ونظريات الفداء قاطبة؛ لأن الرسول يقول «كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه» (٢ كو ٥ : ١٩)،

وهذا يعزل تماماً كل الأفكار السلبية التي لا وجود لها في الأسفار المقدسة مثل:

* تخلي الآب عن الابن.
* تحول الابن إلى رمادٍ، واحتراقه في نار العدل الإلهي.
* تحول الابن إلى لحم مشوي على الصليب لكي يرضي الآب.
* وقوع الابن تحت الدينونة والغضب الإلهي؛ لأن الله الآب كان في المسيح، ولم يذكر الرسول الصليب، بل أكَّد التعليم الإلهي الذي نطق به الـرَّب نفـسه «الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال التي أعملها أنا» (يوحنا ١٤ : ١٠) وأيضاً «أنـا في الآب والآب فيَّ» (يوحنـا ١٤ : ١٠)، «أنـا والآب واحــد» (يوحنـا ١٠ : ٣٠)؛ لأن المصالحة أساسها في التجسد، وقوتها في الصليب والقيامة.

٤ـ غير حاسبٍ الخطايا

لو توقفنا قليلاً أمام كلمات الرسول «إنَّ الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعا فينا كلمة المصالحة»(٢ كو ٥ : ١٩) فإنَّ التساؤل يثور، يا ترى ما هو المقصود بـ **"غير حاسبٍ"**، والتي تُرجمت إلى:

** not counting up*
** holding against*
** cancelling them*

فكيف دفع المسيح الثمن، بينما الله لم يحسب الخطايا، ولا حدد ثمنها، ولا قيمتها؟ والفعل اليوناني λογιζομενω هو خاص بالحساب.

وكيف يعلمنا الله أنْ لا نرد على البغضة والاعتداء، بينما هو نفسه لا يمارس ما يوصي به؟ ولكن شكراً لله، لقد حفظ الرسول لنا كلمات الحياة .. لم يحسب الله لنا خطايانا وهو يصالحنا.

وتعود بنا الكلمات إلى النص المفضل عند الذين ينادون بنظرية البديل المُعاقَب، أو البديل الخلاصي حسب كلمات الدكتور القس إبراهيم سعيد "لأنه (الله) جعل الذي لا يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه" (٢ كو ٥ : ٢١) وعبارة "جعله خطية" قد استوفت شرحها من خلال كتابات

الآباء[1]. ويبقى علينا أنْ نتوقف أمام كلمات الرسول:

«نصير نحن بر الله فيه»، أي في يسوع المسيح. هذه عبارات معروفة عند الرسول: نحن في المسيح ننال بر الله، ونحن في الله ننال بر المسيح؛ لأن المسيح هو البار، ولأن المسيح صار لنا «براً وقداسةً وفداءً» (١ كو ١ : ٣٠ راجع فيلبي ٣ : ٩).

هل تمت هنا مبادلة: صار المسيح خطيةً، وصرنا نحن بر الله؟. وهكذا بسرعة ينقل الواعظُ المستمعَ إلى أسهل تفسير يحمل كل أخطاء الفكر الإنساني، حيث يصور للبسطاء والسذج أنَّ **الخطية** ـ ولم يسأل أحدٌ لماذا استخدم الرسول صيغة المفرد[2]، وهو شائعٌ في العهد الجديد في الكلام عن الفداء من **"الخطية"** مثل (رو ٥ : ١٢ وما بعده) ـ **شيءٌ** يمكن أنْ ينتقل من الإنسان إلى المسيح، فيصبح بذلك المسيح نفسه خطيةً .. ولم يسأل الواعظ نفسه: ومَن الذي نقل بر الله للخطاة، وكيف نُقِل؟

إنَّ هذه التفاسير تنقل الإيمان إلى أجواء الحواة والمشعوذين، وما أكثرهم في المجتمعات الدينية المتخلفة.

أمَّا التعليم الرسولي، فهو يؤكد ثلاثة حقائق تصرخ بها كلمات الرسول:

أولاً: لأجلنا. **ثانياً**: بر الله. **ثالثاً**: في المسيح.

أولاً: لأجلنا

إنَّ ما حدث هو لأجلنا، وليس لأجل الله الذي تعذبه خطايا البشر فنَقَلَ هذه الخطايا إلى الابن المُتجسِّد، ثم أشعل فيه النار، ولما تحول إلى رماد تنسم رائحة الرضا.

وهنا يجب أنْ نقول إنَّ هذا التفسير ليس تفسير الكنيسة الإنجيلية في مصر، ولا في غيرها خارج مصر، بل هو التفسير الشائع في بعض الكتاب الأقباط الأُرثوذكس.

---

[1] راجع المبحث الثاني في الفصل المعنون: كيف نتحدث عن الصليب في اللاهوت الشرقي؟.

[2] والجواب: لأن الكلام ليس عن خطية معينة لشخصٍ معين، بل عن الطبيعة الإنسانية كلها وعبر كل العصور.

ثانياً: بر الله:

ومع الاقتناع التام بأنَّ بر الله خاصٌ بالثَّالوث، إلاَّ أننا سوف نغض الطرف قليلاً من أجل مناقشة الذين يحاولون إعطاء لقب "الله" للآب، وحصره في الآب وحده .. لقد صرنا نحن بر الله، وهنا الغريب في الأمر أنَّ الرسول استخدم فعلاً جديداً، وهو الفعل المُعبِّر عن **المصالحة**، الذي نال أكبر اهتمام لغوي ولاهوتي ولخصه الأُستاذ السابق بجامعة مانشستر
T. W Manson في كتابه الموجز: *On Paul and John, 1963* راجع صفحات ٥٠ وما بعدها.

والفعل اليوناني Καταλλασσω يصالح، والمصالحة Καταλλαγη هو فعل معروف في آداب كل الشعوب، ورد في مؤلفات هيرودتس وأرسطو وغيرهم [1]. واستخدم الرسول فعل المصالحة في (١ كو ٧ : ١١) وهو الذي يُعبِّر عن عودة المرأة إلى رجلها إذا اختلفا.

وعند الرسول العداوة هي من جانب الإنسان لا من الله «نحن أعداء» (رو ٥ : ١٠). وهكذا جاءت المصالحة من الله. ولا يقول الرسول إنَّ هذا على حساب المسيح وبثمن دفعه المسيح؛ لأن المبادرة هي من الله ومن ابنه ومن الرُّوح القدُّس. وحسب كلمات الرسول ـ مع الاهتمام بصيغة المبني للمجهول ـ "صولحنا مع الله بموت ابنه"؛ لأن المُصالِح هنا هو الابن، ولذلك يقول الرسول "فبالأولى كثيراً، ونحن مُصالحون نخلص بحياته" (رو ٥ : ١٠) ويؤكد ذلك «نفتخر بالله بربنا يسوع المسيح الذي **نلنا به المصالحة**» (رو ٥ : ١١)، وعجباً لقد جاء المُصالِح لكي يُصالح الأعداء، أي البشر، ويصالحنا مع الله بموته **لكي نخلص بحياته**، أي لكي نكون فيه، أو حسب كلمات أُوشية الإنجيل "لأنك أنت (يسوع المسيح) حياتنا كلنا". نحن حسب كلمات الرسول: فجار ـ خطاة ـ أعداء، وحسب كلمات الرسول أيضاً: "الله بين محبته لنا" نحن الفجار ـ الخطاة ـ الأعداء ـ هكذا أحب الله الإنسان بشكل يفوق إدراك الإنسان.

---

(1) C. Spicq op cit vol. 2, pp 262 tt.

والخلاص من **الغضب** (رو ٥:٨) هو خلاص من **الدينونة، لا** من غضب الآب على الابن كما يتوهم الواعظ؛ لأن المسيح لم يكن ضحية غضب الآب، بل كما يقول الرسول «هو سلامنا» (أفسس ٢: ١٤) لقد صنع المسيح الصلح بين الموت والموتى عندما مات ومن موته وقيامته تكونت الأسرار لكي يهب الحياة. وبين الحياة، أي اللاهوت والأحياء أي البشر. وهكذا جاء التعبير «عاملاً الصلح بدم صليبه» (كولوسي ١: ١٩-٢٠)؛ لأن ملء اللاهوت حل في المسيح، «وصالح الكل لنفسه».

ثالثاً: بر الله في المسيح، أي عدل الله (٢ كو ٥ : ٢١)

تلزمنا الفقرة كلها من عدد ١٧ حتى عدد ٢١ إلى اعتبار أنَّ الفكرة الرئيسية عند الرسول هي الخليقة الجديدة، وهي الخليقة التي خلقها الرَّب يسوع بموته وقيامته، والدليل من عبارات الرسول الأُخرى حيث يؤكد المحتوى أنَّ المصالحة، والخلق الجديد هما موضوعٌ واحدٌ.

* يخلق الاثنين في نفسه إنساناً جديداً صانعاً سلاماً، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به (أفسس ٢ : ١٥-١٦).

* إنْ كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة .. (٢ كو ٥ : ١٧).

وهذا هو البر في المسيح، فهو لا يوجد ولا يبقى إلاَّ في المسيح (١ كو ١ : ٣٠ - ٢كو ٥ : ٢١ - فيلبي ٣ : ٩) وهو الخليقة الجديدة، أي الإنسان الجديد الذي نلبسه في المعمودية (غلا ٣ : ٢٧) والذي يخُلق حسب الله في البر وقداسة الحق (أفسس ٤ : ٢٤).

الباب الثالث/الفصل الثاني/ المبحث الثاني/ المطلب الثالث/ **الفرع الثاني** :

البر والتبرير في رسالتي غلاطية ورومية

تقسيم

في كل من رسالتي رومية وغلاطية يواجه القديس بولس تيار التهود والعودة إلى الناموس. ففي رسالة رومية يناقش بأوفى تفصيل أن البر هو من الإيمان بالمسيح يسوع لا بأعمال الناموس. وفي غلاطية يدافع ضد المناداة بضرورة الختان والعودة إلى الناموس الأمر الذي بلغ حماسه معه أن يخاطبهم قائلاً: "أيها الغلاطيون الأغبياء مَن رقاكم حتى لا تذعنوا للحق؟..". ولذلك ففي جزءٍ أول نناقش موضوع التبرير في رسالة غلاطية، وفي جزء ثان نناقشه في رسالة رومية.

على أنه يجب أنْ نلفت النظر وبشدة إلى أننا لا نناقش موضوع التبرير هنا منفصلاً عن الإطار العام للدراسة. وإنْ كنا قد أشرنا سابقاً[1] لما وقع فيه فكر العصر الوسيط ولاهوت حركة الإصلاح من تناقضات نتيجة اعتبار أن التبرير ولد من خلال علاقة الله بالإنسان من خلال أحكام الشريعة عند شرح موضوع الفداء، لذلك سوف نسبق دراستنا هذه بتمهيد نعرض فيه لما قد كشف عنه هذا الفكر من تناقض مع نفسه وتعارض مع نص وروح العهد الجديد. هذه التناقضات التي تهدم كل ما في هذا الفكر من مقولات.

---

[1] انظر ما سبق عن تطور الفكر الديني الأوربي

تمهيد :

التبرير
بين حكم الناموس ونعمة المسيح

مقدمة

عندما سادت فكرة دفع الثمن وتقديم الترضية للآب في العصر الوسيط مُنذ أنْ كتب أنْسلم رئيس أساقفة كانتربري كتابه المشهور "لماذا تجسد الله؟"، وكان لاهوت العصر الوسيط يدور حول نفسه في حلقاتٍ مُفرغةٍ، جاءت حركة الإصلاح في القرن السادس عشر لكي تمسك بنفس السلاح، أي فكر العصر الوسيط، وتجعله المبدأ السائد الذي يشرح كل شيء. وكان مارتن لوثر ـ بشكلٍ خاص ـ يعتبر الإصحاحات ٣ـ٥ مِن رسالة رومية بمثابة المبدأ المُطلق الذي يُفسر العهد الجديد كله. وكانت المشكلة الأولى هي أنَّ لوثر نفسه لم يدرُس رسالة الرسول بولس إلى رومية إلاَّ مِن خلال الفكر القانوني السائد في مدارس لاهوت أُوروبا، والذي يرى كل شيء مِن خلال المصطلحات والألفاظ والخطاب الديني اللاتيني الأُوروبي، أي أنَّه كان يرى كل شيء في العهد الجديد مِن خلال ما ورثته أُوروبا، وبواسطة لغة القانون. وهكذا أبرز لوثر سلاح التبرير بالإيمان بدون أعمال، لكي يهدم النظام اللاهوتي الذي جاء به العصر الوسيط، وهو ما أوجد التعارض بين قلب لاهوت العصر الوسيط، ولُب فكر حركة الإصلاح، وبين روح ونص العهد الجديد.

تعارُض "التبرير بالإيمان" ـ كحُكمٍ صدر ـ مع فكرة البديل المُعاقَب

لعل أول ما يجب أنْ نلاحظه هو أنَّ المسيح مات لكي يبررنا بدون أعمال الناموس حسب كلمات الرسول بولس في (رو ٣ : ٢٨) «الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس»، لكن، وعلى الرغم مِن ذلك، فإنَّ قادة حركة الإصلاح

جميعاً وبدون استثناء درسوا رسالتي رومية وغلاطية على أساس أنَّ المسيح قد وفيَّ الثمن وحقق مطالب الناموس، فهو بموته أرضى مطالب الناموس، وبطاعته غطَّى عصيان آدم وكفَّر عنه، ولما نال العقاب بدلاً عنا أعطانا التبرير، أي حُكم البراءة والعفو الذي ناله المسيح، أو حصل عليه مِن الآب.

والمشكلة الأولى التي نواجهها هنا: هي أنَّ هذا التعليم برمته غائبٌ عن رسالتي رومية وغلاطية. وما هو واضحٌ حسب كلمات الرسول هو إنَّ حكم البراءة أو التبرير لم يصدر مِن الله لأنَّ الرب يسوع أرضى مطالب الناموس بما فيها موت الصليب ـ كما يُعلِّم لاهوت العصر الوسيط ـ وإنما التبرير هو على سبيل النعمة والهبة، وهذه هي البراهين أو الأدلة مِن رسالة رومية:

١ـ يقول الرسول: «أمَّا الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس» (رو٣ : ٢١). فهو البر المُعلَن في المسيح بدون الناموس، أي الذي لم يقدِّمه الناموس، وليس للناموس أي دور فيه لأنَّ عبارة الرسول **"بدون الناموس"** تؤكد أنَّه إعلان المحبة وليس إعلان الشريعة، ولذلك يقول الرسول «مشهوداً له مِن الناموس والأنبياء» (رو٣ : ٢١) وشهادة الناموس حسب كلمات الرسول التي تسبق هذا النص هي: «لأنَّه بأعمال الناموس كل ذي جسدٍ لا يتبرر أمامه»، وباقي النص هام جداً «لأنَّ بالناموس معرفة الخطية» (رو٣ : ٢٠)، فالناموس أو الشريعة تحدد عصيان الإنسان وتعلنه، إلاَّ أنها لا تملك أنْ تُعطي عفواً عن الخطاة.

٢ـ لما كانت الخطية ظاهرةٌ كونية لا تخص شعباً مِن الشعوب «الجميع أخطئوا» (رو ٣ : ٢٣)، لذلك جاء عفو الله عنا، أو إعلان البراءة **"مجاناً"** (رو ٣ : ٢٤)، فلم يدفع الله فديةً، وإنما قدَّم كفَّارةً بحياة أو بدم المسيح (رو ٣ : ٢٥)، الأمر الذي يجعل مجانية هذه العطية تسقط تماماً إذا ما كان هناك ثمنٌ قد دفعه الله. مع ملاحظة أنَّ كلمة **"الله"** هنا، لا يُقصَد منها الآب وحده، بل الثالوث.

٣ـ جدير بنا أنْ نتوقف لكي نسأل هل يمكن أنْ تكون **"النعمة"** هي ثمرة تطبيق الشريعة وحفظ الناموس؟ ومع أننا لا نُنكر قداسة المسيح الذاتية، ولا نُنكر طاعته، ولا نُنكر الفداء، إلاَّ أننا نُنكر أنْ يكون حفظ الناموس وسلوك المسيح البار

حسب بر الناموس هو **مصدر النعمة الإلهية**، لأنَّ الإنعام لا ينشأ بقانون ولا يصدر مِن محكمةٍ، وإنما قرار البراءة هو نعمةٌ مجانيةٌ، أي إنَّ التبرير لم يكن قرارٌ إلهيٌ جاء نتيجة حفظ المسيح للناموس والشريعة اليهودية، بل أُعلن كنعمةٍ تُوهَب للإنسان بسبب صلاح الله. وهنا ينقسم برهان الرسول نفسه إلى قضيتين:

القضية الأولى وهي إيمان إبراهيم: هي برهانٌ أو دليلٌ مِن التاريخ، وهو تبرير إبراهيم بالإيمان بدون أعمال (رو ٤ : ١-٣) حيث يقدم الرسول برهانه على هذا النحو: "الذي يعمل فلا تحسب له الأُجرة على سبيل نعمةٍ، بل على سبيل ثمنٍ أو دين" (رو ٤ : ٤). مَن يعمل ينال أُجرته. وإبراهيم لم يعمل، بل آمن، فنال البرَ مِن الله، ويطبق الرسول هذا على كل إنسان مسيحي.

فالذي لا يعمل ولكن يؤمِن بالذي يبرر الفاجر، فإيمانه يحُسَب له براً (رو ٤ : ٥) وبرهان الرسول هو نص المزمور "طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية" (رو ٤ : ٨) ويطبق هذا الكلام ذاته على إبراهيم الذي نال البر بالإيمان قبل الختان، فصار الأب الروحي للأُمم الذين لا يمارسون الختان (رو ٤ : ١٠-١٢).

القضية الثانية هي قضية وعد الله لإبراهيم. والوعد لم ينشأ بحُكم الشريعة، لأنَّ وعد الله لإبراهيم سبق الشريعة. وكلمات الرسول قاطعةٌ: «ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أنْ يكون وارثاً للعالم، بل ببر الإيمان» (رو ٤ : ١٣) واعتراض الرسول هام جداً، لأنَّ الرسول هو يهودي وفريسي يفهم حقيقة دور الناموس، ولذلك يقول بعد هذه العبارة السابقة: «**الناموس ينشئ غضباً**» (رو ٤ : ١٥)، فهو لا يُعطي وعداً، ولا يملك أنْ يُعطي أي وعدٍ بوراثة البركة، بل هو قادرٌ على أنْ يُنشئ غضباً. ويقول الرسول إنَّ سبب الغضب هو تعدِّي الإنسان الشريعة. أمَّا إذا زال الناموس، يقول الرسول «إذ حيث ليس ناموسٌ، ليس أيضاً تعدٍ» (٤ : ١٥).

فكيف نال إبراهيم البر؟

بالإيمان.

ولماذا لم ينل هذا مِن الناموس؟

«لكي يكون على سبيل النعمة، ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل، ليس لَمن هو مِن الناموس (اليهود) فقط، بل أيضاً لَمن هو مِن إيمان إبراهيم (الأُمم) الذي هو أبٌ لجميعنا (اليهود والأُمم)» (رو ٤ : ١٦).

٤ـ وما هي علاقة الوعد بالنعمة؟

لم ينشأ الوعد بحفظ الناموس، ولا مِن الناموس، بل هو نعمة الله، ويقدِّم الرسول حجته التاريخية مؤكداً صدق هذه القضية في الإصحاح الثالث مِن رسالة غلاطية:

ـ لقد سبق الوعد بالبركة نزول الشريعة بـ **٤٣٠** سنة (غلا ٣ : ١٧).

ـ إنَّ الناموس الذي صار بعد **٤٣٠** سنة، لا ينسخ عهداً قد سبق وأكده الله (تمكن مِن الله) لأنَّ هذا العهد كان يهدف إلى مجيء المسيح (غلا ٣ : ١٧).

ـ ويصل الرسول إلى النقطة الحاسمة في الجدال مع اليهود "لو كانت الوراثة مِن الناموس، فهي لم تكن إذن موعد. ولكن الله وهبها لإبراهيم بموعدٍ" (غلا ٣ : ١٨).

الفرق بين حكم الناموس، والنعمة التي تُوهَب لنا في المسيح

يظهر هذا الفرق في أن الناموس، أو الشريعة تحكم بموت الخطاة مهما كان برهم في أمور أُخرى، وهو ما يظهر لنا من الآتي:

١ـ يُظهِر الناموس حقيقة الخطية "بالناموس معرفة الخطية" (رو ٣ : ٢٠).

٢ـ زيدت أحكام الناموس بسبب زيادة التعديات (غلا ٣ : ١٩).

٣ـ الناموس ينشئ غضباً (رو ٤ : ١٥).

٤ـ الناموس عاجزٌ عن أنْ يُبرر الإنسان بل يحكم عليه دائماً مهما كانت أعماله طالما أخطأ وكسر، ولو وصيةً واحدةً (رو ٨ : ٣) «كل مَن أخطأ في الناموس، فبالناموس يدان» (رو ٢ : ١٣).

أمَّا هي النعمة التي وُهِبَت لنا في المسيح، فيقول الرسول إنها نعمةُ حياةٍ، وهذه ليست مِن الناموس «لأنَّه لو أُعطي ناموسٌ قادرٌ أنْ يحيي، لكان بالحقيقة البر بالناموس» (غلا ٣ : ٢١).

هي نعمةُ حياةٍ أبديةٍ: فالخطية تدفع الأُجرة للخاطئ، وهي الموت، «أمَّا هبة الله، فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا» (رو ٦ : ٢٣).

هي نعمة قبول الرُّوح القدُّس: ولذلك يسأل الرسول «أُريد أنْ أتعلم مِنكم (وهذا خطاب لنا جميعاً) هذا فقط أباعمال الناموس أخذتم الروح، أو بخبرِ الإيمان» (غلا ٣ : ٢) وبالإيمان بالمسيح ننال موعد الرُّوح القدُّس «لتصير بركة إبراهيم للأُمم في المسيح يسوع، لننال بالإيمان موعد الرُّوح» (غلا ٣ : ١٤).

هي نعمة محبة الله التي سكبت الرُّوح القدُّس في قلوبنا «والرجاء لا يُخزي لأنَّ محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالرُّوح القدُّس المُعطى لنا» (رو ٥ : ٥)

هي نعمة القيامة مِن الأموات «بل مِن أجلنا نحن أيضاً الذين سيُحسَب لنا الذين نؤمن بمَن أقام يسوع ربنا مِن الأموات» (رو ٤ : ٢٤).

هي نعمة التبني «ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخا يا أبَّا الآب» (غلا ٤ : ٦).

فهل النعمة التي هي مِن المسيح نفسه، يكون مصدرها تتميم الناموس؟

الجواب هو بلا شكٍ، لا.

أولاً: لنأخذ نعمة التبني كمثال. نحن ننال هذه النعمة في المسيح، لأنَّها نعمة محبة الله (رو ٨ : ٣٩ – غلا ٣ : ٢٦) ولم يأخذ الرب يسوع بنوته للآب، لأنَّه أطاع الناموس، كما لم يُعطِ لنا هذه الشركة في بنوته لأنَّ الناموس حدد هذه العطية، بل هي جائزة تُوهَب مجاناً، وعطية سماوية عُليا (فيلبي ٣ : ١٤) وهكذا يقول الرسول «إننا نعرف سر الآب في المسيح، المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كولوسي ٢ : ٢-٣) وعبارة **"في المسيح"** تنفي وساطة الناموس، وتؤكد وساطة المسيح، ولذلك السبب يقول الرسول إننا بالمسيح «به أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد»، أي ختان المسيح، المعمودية المقدسة (كولوسي ٢ : ١١) ونلنا القيامة معه (المسيح)، وأحيانا الآب معه (كولوسي ٢ : ١٣).

ثانياً: إذ صرنا خليقةً جديدةً، فهذا لم ينشأ بواسطة الناموس، ولا تم بقدرة الناموس، بل بحياة ابن الله الذي بقيامته جدد الطبيعة الإنسانية «إذا كان أحدٌ في

المسيح يسوع، فهو خليقةٌ جديدةٌ» (١ كور ٥ : ١٧). وهو ما يجعل الرسول يعتبر كل أعمال الناموس، وبر الناموس "زبالة" لكي "**يوجد في المسيح**" (فيلبي ٣ : ٧-٩) ولكي في المسيح نصبح أحياء لله (رو ٦ : ١١).

ثالثاً: وحتى التبرير نفسه هو تبرير بأمانة يسوع المسيح[1] (غلاطية ٢ : ١٧) لأنَّنا في المسيح يسوع صرنا بر الله (٢ كور ٥ : ٢١) ولذلك يجب أنْ نثبت في الرب (فيلبي ٤ : ١) أنْ نسلك فيه (الرب) (كولوسي ٢ : ٦ - ١ تسالونيكي ٣ : ٨).

رابعاً: وكيف نفهم صيغة المضاف إليه، وصيغة الجر في «الذين هم في المسيح يسوع قد صلبوا الأهواء» (غلا ٥ : ٢٤) «الراقدين في المسيح» (١ تسالونيكي ٤ : ١٥، ١٨) «يحل المسيح بالإيمان في قلوبكم»، «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أفسس ٣ : ١٤-١٩) «عتيق الرب» (١ كور ٧ : ٢٢) فمَن هو الذي أسس هذه العلاقة، الناموس أم المسيح؟

وإذا أخذنا حلول وسُكنى المسيح فينا، فإننا نجد أنَّ الرسول يقول إنَّ المسيح يتكلم فيه (٢ كور ١٣ : ٣) ولا عجب، فقد صُلِبَ مع المسيح، والمسيح يتكون *Formed* فينا بكلمة التعليم التي هي مخاض المُعلِّم نفسه (غلا ٤ : ١٩) والحياة المسيحية هي أنْ نلبس المسيح بعد أنْ نخلع الحياة الإنسانية القديمة (كو ٣ : ٩ - غلا ٣ : ٢٧ - كو ٣ : ١٠).

وأخيراً: ماذا يقول الرسول عن دور الناموس بالنسبة له هو شخصياً؟ «لأني مت بالناموس (حسب حكم الناموس) للناموس (صار بولس ميتاً لا يحكم عليه الناموس) لأحيا لله. مع المسيح صلبت، فأحيا لا أنا، **بل المسيح يحيا فيَّ** ... لست أبطل نعمة الله (الصليب) لأنَّه لو كان بالناموس برٌ، فالمسيح مات بلا سبب» (غلا ٢ : ١٩ - ٢١).

---

[1] هكذا قرأ النص معظم آباء الكنيسة الجامعة، بل وأيضاً علماء العهد الجديد راجع:
C. B. Cousar, A Theology of the Cross, 1990, p39.

آدم والمسيح في الإصحاح الخامس مِن رومية

تؤكد هذه المقارنة عجز الناموس وضعفه، وقوة عمل المسيح، والجدول التالي يوضح علاقتنا بآدم الأول والمسيح:

مقارنة بين آدم والمسيح في رسالة رومية، الإصحاح الخامس:

آدم	المسيح
بخطية واحد مات كثيرون.	نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين.
ليس بواحد قد أخطأ، هكذا العطية، لأنَّ الحُكم مِن واحد للدينونة.	أمَّا الهبة فمِن جرى خطايا كثيرة.
بخطية الواحد قد ملك الموت.	الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح.
ملكت الخطية بالموت "ملك الموت"	تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا. (رو ٥ : ١٤-٢١)

١ـ الخطية والنعمة:

الخطيةُ واحدةٌ، ومعها الموت، وبالموت مات الجنس البشري. ولا يُقارن الرسول موت **آدم** بموت **المسيح**، ولا **خطية** آدم بقداسة المسيح، بل **بالنعمة؛** لَأنَّ النعمة جاءت بكل ما هو ضد الخطية، أي بالحياة والتي يقول عنها الرسول إنها:

ازدادت

فيض

فلا مجال للمقارنة بين هبة الحياة، وسقوط الحياة في حفرة الموت. بين فيض وزيادة الحياة، وبين هلاك وانقضاء الحياة.

٢ـ الحكم والهبة:

جاء الحكم أو الدينونة بالموت، والدينونة لا تحتاج إلى تعريف، ولكن ما يحتاج إلى تدقيق في الفكر هو عبارة الرسول عن الهبة باعتبارها "مِن جرى خطايا كثيرة". وخطية الواحد والحكم مِن واحد، وملك الموت والخطية لا يمكن أنْ تُقارَن بفيض النعمة .. هذه ليست مبادلة ولا احتمال العقاب، ولا موتٌ نيابيٌ تُدفع فيه ثمن أو أثمان الخطايا .. والمقارنة تقول لك على فم رسول الأُمم إنَّ زيادة وفيض النعمة لا يجعل موت المسيح ثمناً، بل ينبوع خلاص ونهر محبة، ولا يجعل الصليب دفعُ دينٍ، بل مُلك النعمة وعطية التجديد وحقاً "ملك الرب على خشبة".

البر والتبرير في رسالة غلاطية

مقدمة:

من المعروف أنَّ رسالة غلاطية كُتبت ضد المتهودين. وكان الرسول قد خاض معارك كبيرة مع الدعوة إلى التهود، وذكر ذلك صراحةً في بداية الرسالة. شملت هذه المعارك شخص القديس بطرس نفسه (غلا ٢ : ١١-٢١)، وهنا بشكل خاص يُبرز الرسول المسيحية في مواجهة التيار الداعي للعودة إلى اليهودية. ففي نصٍ واحد يبرز الرسول، الإيمان المسيحي.

«إذ نعلم أنَّ الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح آمنّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس،.لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما» (غل ٢ : ١٦).

"الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس".

أي لا يتبرر عند الله؛ لأن الناموس لا يُبرر الإنسان، بل يحكم عليه، كما يقول الرسول نفسه "لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما".

"آمنا نحن بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس".

وهنا يضع الرسول التعبير اللاهوتي الذي سوف يصبغ التعليم الشرقي الأُرثوذكسي كله حيث يقول:

«فإن كنا ونحن طالبون أنْ **نتبرر في المسيح**» (٢ : ١٧).

والتبرير **"في المسيح"** ينفي تماماً عن التبرير كل ما يقال عن الحكم بالبراءة، لأنه تم **"في المسيح"**، ولأننا نناله **"في المسيح"**.

هذا هو معنى النص حسب التركيب اللغوي نفسه: **نتبرر في المسيح**.

ولأننا نناله "في المسيح"، ونتبرر "في المسيح"، يصبح التبرير علاقة شركة، وليس حكماً يصدر لمصلحة الإنسان.

تقسيم

وفي ضوء ذلك سوف نقوم بدراسة هذا الموضوع من خلال عرضه في ثلاث نقاط أساسية، وهي أولاً:كيف صاغ القديس بولس دفاعه ضد تيار التهود؟ ثانياً: كيف شرح القديس بولس موضوع التبرير بالإيمان كما ورد في الإصحاح الثالث. ومن ثم ثالثاً: نعرض لتفسير الآباء لبعض النصوص المهمة في هذه الرسالة.

أولاً : دفاع القديس بولس ضد تيار التهوّد

إذا كان الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، وإذا كان الناموس يحكم على كل البشر .. فما هي القضية التي يجعلها الرسول محور الصراع من تيار التهود؟

١ـ البرهان الأوَّل ضد حركة التهود

«إنْ كنا ونحن طالبون أنْ نتبرر في المسيح، نوجد نحن أنفسنا أيضاً خطاة، أفالمسيح خادمٌ للخطية، حاشا »(غل ٢ : ١٧).

قدَّم أساتذة العهد الجديد من الإنجيليين تفسير هذا النص على هذا النحو:

"يؤكد الرسول أنَّ الناموس لا يمنح البر للخاطئ كمصدر آخر بجانب المصدر الأصلي للبر وهو المسيح، ولذلك إذا تدخَّل الناموس في تبرير الإنسان، وكان هو الذي يحكم على الإنسان، صار الإنسان خاطئاً رغم تبرير المسيح"[١].

"ينـزع الرسول قدرة الناموس على التبرير لأنه لا يملك أنْ يهب التبرير؛ لأن الإنسان يعجز عن أنْ يخلُص بحكم الناموس" [٢].

وعلى ذلك فالحقيقة الماثلة أمامنا هي:

١ـ عجز الناموس لأن الناموس يحكم على الإنسان الخاطئ.

٢ـ عجز الناموس لأنه حتى تنفيذ كل وصايا الناموس ـ مهما كانت ـ لا تمنح الإنسان الحياة الأبدية؛ لأن الخطية الواحدة تؤدي إلى الموت.

فإذا تم التبرير في المسيح، وعاد الإنسان إلى وساطة الناموس، واعتبَر الناموس مصدراً للتبرير .. صار الإنسان في الواقع ـ رغم إيمانه بالمسيح ـ خاطئاً؛ لأن حكم الناموس وقبول الناموس يجعل الإنسان المؤمن بالمسيح تحت حكم الناموس، وهو حكم ارتضاه المؤمن لنفسه بسبب قبول وساطة الناموس.

---

(1) A. Oepke, Der Brief des Paulus an die Galater, 3rd ed. Berlin 1969, p 58.

(2) P. Bonnard, The Epistle of St. Paul to the Galatians, 1953, 82.

ماذا يقصد الرسول بعبارة **"نوجد نحن أنفسنا أيضاً خطاة"**؟

إذا كان الناموس عاجزاً، وقبلناه ـ رغماً عن ذلك ـ تحوَّلنا من بر المسيح، ومن التبرير في المسيح إلى حكم الناموس، أي حكم الموت وهو حكم الناموس على كل الخطاة، وبعبارة أُخرى إنَّ المسيحي تحت حكم الناموس يصير خاطئاً. هنا يجب أنْ نتوقف أمام هذه القضية الشائكة:

* إنَّ الناموس يحكم على كل البشر بالموت لأنهم خطاة.

* إنَّ الناموس لا يملك أنْ يحكم على المسيح بالموت لأنه لم يخطئ .. وليس من الإنصاف بالمرة أنْ نرى في كلمات الرسول «جعل الذي لم يعرف خطية خطيةً لإجلنا» (٢ كو ٥ : ٢١) أي علاقة بالجدل مع التيار المتهود؛ لأن رسالة غلاطية تختلف في محتواها وغايتها عن الرسالة الثانية إلى كورنثوس، كما أنَّ الناموس لا يملك أنْ يجعل البرئ مذنباً، أو يعاقب البرئ بدلاً عن المذنب، وهنا تظهر الحقيقة:

إذا كان عجز الناموس يقابله في الجانب الآخر، التبرير في المسيح، فهل نتبرر في المسيح؛ لأن المسيح وقف أمام الآب كخاطئ (مما يعني أنَّ المسيح وضع نفسه تحت حكم الناموس) أو دفع ثمن الخطية؟

الجواب بكل يقين لا؛ لأن عودة الإنسان إلى وساطة الناموس تجعله يفقد بر المسيح، وبالتالي يضيع الثمن الذي قدَّمه الابن للآب.

وإذا كان عجز الناموس يقابله في الجانب الآخر، التبرير في المسيح، وهي حالة البقاء في المسيح .. فهل نال المسيح البر من الآب لأنه نفَّذ الناموس، وقام بكل ما هو مطلوب منه حسب الشريعة؟

والجواب بكل يقين لا؛ لأن الناموس أو الشريعة وضِعَت للبشر، وهي لا تخص واضع الشريعة لأنه لا يستمد ـ كإلهٍ ـ بره من الشريعة، بل من كماله الإلهي .. وهكذا يصل منطق القانون إلى حد إنكار أُلوهية الرَّب يسوع المسيح.

فلو كان بر المسيح الذاتي من الناموس، لتَحَوَّل بر المسيح نفسه إلى قدرةٍ إنسانيةٍ تكفي فقط الإنسان يسوع المسيح، ولا تكفي الإنسانية كلها من آدم إلى

آخر الدهور .. هكذا يسقط التعليم بالثمن والأُجرة في بالوعة لا قرار لها.

٢ـ البرهان الثاني

يسأل الرسول مستنكراً: إذا كان لنا برٌ نناله من الناموس مع بر المسيح «**أفالمسيح خادم للخطية؟** حاشا» (٢ : ١٧). هل صار المسيح (حسب الأصل اليوناني دياكون διακονος) خادماً للخطية؟ كيف أصبح المسيح خادماً للخطية؟ وإذا كان هذا مستحيلاً، ويُعبِّر الرسول عن ذلك بقوله "حاشا"، عندئذ نفهم لماذا وضع الرسول هذا الاعتراض في شكل سؤال استنكاري؟ وهو ما نجمله في الأسباب الآتية:

١ـ إنَّ غفران الخطية لم ينشأ بواسطة حكم الشريعة في العهد الجديد، بل بصلاح الله الفائق، ولهذا السبب إذا استعان المسيحي مع المسيح بالشريعة .. جعل المسيح "خادماً للخطية"؛ لأن المسيحي لا يزال يخطئ حتى بعد إيمانه.

٢ـ إننا لم نتبرر في المسيح بحكم الشريعة على المسيح أو علينا، فإذا عدنا إليها صار المسيح نفسه خادماً للخطية؛ لأن المسيح يبرر الخطاة، ويخدم المؤمنين كراعٍ صالحٍ، وكرئيس كهنةٍ وكوسيطٍ .. فإذا أخطأ المؤمن ووقع تحت حكم الشريعة، وقع معه الوسيط نفسه تحت نفس الحكم، وصار خادم المؤمنين هو خادم الخطية؛ لأن الوصايا هي التي حددت الخطايا كلها حسب عبارة الرسول، ولأن بالناموس معرفة الخطية، والمسيح لا يعرفنا بالناموس، بل يعرفنا كأعضاء جسده الواحد.

٣- البرهان الثالث:

يقول الرسول: «فإني إنْ كنت أبني أيضاً هذا (الشريعة) الذي هدمته (أي أظهرت عجزه) فإني أُظهر نفسي متعدياً» (٢ : ١٨).

جميل جداً هذا التعبير:

أبني / هدمت ـ أُظهر / متعدياً

إذا عاد الرسول إلى حكم الشريعة الذي أنكر قدرته، وهو ما يقصده بكلمة "هدمته" .. أعلن الرسول أنه تعدَّى حكم الشريعة، وسقط هو نفسه تحت حكم

الشريعة وصار متعدياً؛ لأن ما ينكره إنسان لا يمكن أنْ يعود إليه ويؤكد فاعليته.

ما الذي يقصده الرسول بولس؟

+ هدمَ الناموس، وأعلن عجزه عن الوساطة بين الله والبشر.

+ أعلن بر المسيح الذي ليس من الناموس.

فإذا عاد إليه صار هو نفسه "متعدياً" أي خاطئاً .. فكيف يجوز لنا نحن الذين نؤمن بالمسيح أنْ نعود إلى الناموس وحكم الشريعة لكي نرى فيه التحرر من حكم الشريعة، أو بعبارة أُخرى كيف نقول إن المسيح كسب البر، أو اشترى البر أو دفع ثمناً للبر، فهذه كلها عبارات الشريعة والقانون الوضعي.

٤ـ البرهان الرابع

يقول الرسول: «لأني مُت بالناموس للناموس لأحيا لله» (غل ٢ : ١٩).

ومن السهل علينا أن نفهم عبارة "مُت بالناموس"؛ لأن الناموس أدخل حكم الموت وجلب مع الموت الخطية حكماً لا يمكن لله أنْ يتجاهله .. ويجب أن نلاحظ أنَّ هناك فرقاً بين الموت الذي دخل إلى الحياة مع الخطية، والموت كحكمٍ جاء مع نزول الشريعة على جبل سيناء. والفرق الزمني ليس هو الموضوع الأصلي، بل الفرق بين الموت كنتيجة للخطية والموت الذي تحكم به الشريعة، والموت كظاهرة طبيعية لا علاقة لها بالخطية. وهذا ما سوف ندرسه بكفاية في الصفحات التالية. لكن يكفي هنا أنْ نرى أنَّ الرسول يؤكد موت الناموس، أو "مُت بالناموس". وباقي العبارة هام "مُت بالناموس للناموس". لقد صار الرسول ميتاً بالناموس، وصار بذلك الناموس عاجزاً عن أنْ يفعل أكثر من ذلك. واعتبر الرسول أنَّ الموت بحكم الشريعة جعله بعيداً بعد موته عن أنْ تناله الشريعة بأي حكمٍ آخر لأن الشريعة لا تحاكم الأموات.. ولكن خاتمة العبارة أعظم بكثير "لأحيا لله". **فكيف حدث هذا التحول الكبير. وكيف فقد الناموس سلطانه على الرسول؟**

الجواب هو: «مع المسيح صُلبت، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢ : ٢٠).

صُلِبَ الرسول مع المسيح، ففقد الناموس سلطانه على بولس؛ لأن الناموس لم يكن له سلطان على المسيح نفسه، فهو لم يمت بحكم من الشريعة، بل مات بسبب محبته وتطوعه للموت. هذا ليس تفسيراً نقدِّمه هنا من أجل معارضة رأي آخر، بل هذه هي عبارات الرسول نفسه:

«**فما أحياه في الجسد الآن**

إنما أحياه في الإيمان،

إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢ : ٢٠).

هذا البرهان أقوى من كل البراهين الأُخرى .. لقد فَقَدَ الناموسُ سلطانه على الرسول بسبب موت المسيح. لو كان موت المسيح قد نشأ بحكم الشريعة وتم حسب الشريعة، فإنَّ سلطان الشريعة يمس ويحكم على كل الذين قبلوا موت المسيح؛ لأن الذي جاء بحرية الحياة من الموت ـ في هذه الحالة ـ كان هو نفسه خاضعاً لحكم الشريعة، وبذلك فإن حرية الحياة لم تكن هبة من الله ولا عطية محبة الله، بل جاءت كثمرة للخضوع للناموس، وأسَّسها الناموس، وهو ما ليس صحيحاً .. وهذا يقودنا إلى البرهان الخامس والأخير.

٥ـ البرهان الخامس

يقول الرسول: «لست أُبطل نعمة الله. لأنه إنْ كان بالناموس بر (عدل أو حق)، فالمسيح مات بلا سبب» (غل ٢ : ٢١). وماذا يمكن أنْ يقول الرسول أكثر من ذلك، ومهما كانت الاختلافات اللغوية حول مدلول كلمة "بر"، فالقوة الكامنة في هذا البرهان وفي هذه العبارة هي أنَّ الناموس عجزَ وفشلَ، وبالتالي لم يكن للناموس قوة وقدرة وبر، ولذلك مات المسيح لهذا السبب، أي لكي يعيد شركتنا في الحياة الإلهية وينقل عدل الله إلى تجديد الإنسان ورده إلى الحياة الأبدية... هذا هو عدل الإنجيل أو بره. لقد فشل القانون أو الناموس أو الشريعة. هذا الفشل عائدٌ إلى طبيعة القانون العقابية، وإلى عجز الإنسان. ولذلك جاء موت المسيح لكي يضع القانون في جانب الموت، ويضع عدل الله كوجه للصلاح والمحبة.

ويلاحَظ أنَّ الرسول لا يذكر أنَّ المسيح دفع الثمن وأرضى مطالب العدل بالمعنى القانوني الأرضي الذي تعرفه المحاكم، ولذلك يقول: **"مع المسيح صُلبت"**، ويقول: إنه لا يحيا الآن، بل المسيح يحيا فيه .. هذا ليس تبادلاً، ولا هو موت نيابي، ولا هو شفاعة، ولا هو موضوع آخر يدخل تحت هذه الأسماء .. بل هو اتحاد حقيقي بين المسيح والرسول بولس، وهو ذات الاتحاد الذي يؤدي إلى الحياة.

مع المسيح صُلبت .. نحن واحدٌ معه في الصليب.

مع المسيح مُت .. نحن واحدٌ معه في موته.

مع المسيح نقوم .. نحن واحدٌ معه في القيامة.

ولعل القارئ المُدرَّب يدرك أنَّ هذا نفسه يذكره الرسول أيضاً في الإصحاح السادس من رسالة رومية، وهو أطول نص في العهد الجديد عن سر المعمودية المقدسة التي فيها نُصلب ونموت ونقوم مع المسيح؛ ولذلك فكل التفاسير والآراء اللاهوتية التي ولِدت في العصر الوسيط، ودخلت عصر الإصلاح الديني الأُوربي ليس لها مجال هنا.

الخلاصة:

لعل القارئ قد أدرك أنَّ المسيح مات لأجلنا على الصليب لكي يجعل من موته مصدر حياة لنا .. وذلك من خلال ما يقوله عن الناموس، وما يقوله عن المسيح:

ماذا يقول الرسول عن الناموس؟

١ـ مُت بالناموس: (حكم الموت).

٢ـ مُت للناموس: عجز الناموس عن أنْ يحكم على بولس بالموت؛ لأن الناموس لا يحكم الأموات.

٣ـ هَدَمَ الصليبُ الناموس **"هذا الذي قد هدمته"**.

وماذا يقول عن المسيح؟

١ـ نتبرر في المسيح.

٢ـ المسيح وحده هو مصدر التبرير.

٣ـ المسيح هو حياة بولس.

٤ـ الإيمان هو إيمان ابن الله.

٥ـ المسيح أحبني وأسلم نفسه لأجلي.

ولذلك، فالخاتمة الأساسية

"لست أُبطِّل نعمة الله"؛ لأن الصليب هو نعمة الله.

من كل ما سبق نستطيع أنْ نخلص إلى النتائج الآتية:

١ـ عجز التفسير القانوني أمام نعمة الله

أولاً: إذا كان المسيح قد دفع ثمن خطايانا على الصليب، فإنَّ الثمن يبطل نعمة الله حسب عبارة الرسول نفسه «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفَّارة بالإيمان بدمه لإظهار عدله (أو) بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة» (رو٣ : ٢٤).

ثانياً: لو كان المسيح قد مات نيابةً عنا بالمعنى القانوني السائد في العصر الوسيط، لعجز الرسول عن أنْ يقول **"مع المسيح صُلِبت"**؛ لأن هذه العبارة تبطل المعنى القانوني وتؤكد ضرورة الشركة في موت المسيح، وهي الشركة التي تتم في المعمودية، **لأن موت المسيح النيابي لا يسمح لنا بأن نصلب معه ونموت معه.**

٢ـ الصليب هو نعمة الله

يؤكد الرسول بولس على الأقل مرتين أنَّ الصليبَ هو ينبوع نعمة الله:

أولاً: في (رو ٣ : ٢٤) حيث يؤكد مجانية النعمة **"متبررين مجاناً بنعمته"**. وهو ذات التعليم الرسولي الذي يؤكد فيه أيضاً شمولية النعمة لليهود والأُمم على حدٍ سواء. وحسب تعبير الرسول يقول «بر الله بالإيمان

بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون؛ لأنه لا فرق. إذ الجميع أخطئوا وأعوزَّهم **مجد الله**» (رو ٣ : ٢١-٢٣).

ثانياً: الصليب يعطي العلاقة الصحيحة مع الله، أي التبرير وهي العلاقة التي لا يمكن للناموس أنْ يتدخل فيها، أو يقدم شيئاً، فالناموس يحكم بالموت. أما هنا فالعلاقة هي علاقة حياة، وليست علاقة موت.

ثانياً: التبرير بالإيمان في غــلاطيــة ٣

أثار الإصحاح الثالث من رسالة غلاطية من عدد ٦ـ٢٤ موجة من التساؤلات، بل نال هذا الإصحاح بالذات أكبر اهتمام من كل الذين درسوا رسائل القديس بولس لأنه يحتوي على ثلاث موضوعات هامة:

أولاً: علاقة المسيحيين من الأمم بأب الأُمم واليهود معاً، وهو إبراهيم.

ثانياً: تبرير إبراهيم بالإيمان، وما هي نظرة الله للتبرير نفسه؟

ثالثاً: علاقة الإيمان بالناموس.

الموضوع الأول لا يحتاج إلى دراسة مفصلة؛ لأن الرسول يؤكد أن المسيحي هو ابن لإبراهيم بالإيمان، وليس حسب الولادة الجسدانية، حيث يقول: «الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم» (٣ : ٧)، «الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن» (٣ : ٩).

ولكن الموضوع الثاني يحتاج إلى نظرة فاحصة، فقد طرح الأستاذ *N. H. Snaith* سؤالاً هاماً ظل معلقاً منذ عام ١٩٤٤م إذ يسأل هل البر *Righteousness* ضروري لكي يقبل الله الأُمم أو اليهود؟ هل يتعامل الله مع الأُمم واليهود من خلال البر وحده؟[1]. وحجة الأستاذ *Snaith* في إثارة هذا السؤال هي أنه لا يوجد في رسائل الرسول بولس ما يؤكد على أن قبول الإنسان متوقف على تبرير الإنسان أولاً، بل هو حسب رحمة الله وصلاحه التي أوجدت التبرير نفسه وكونته في المسيح من أجل الإنسانية.

ويقدم نفس الباحث السؤال الهام وهو:

لماذا يحتاج الإنسان للإيمان، وهل الإيمان هو وسيلة التبرير نفسه؟

والجواب هو: بالنسبة للإنسان، نعم؛ لأن الإيمان يغير علاقة الإنسان بالله «آمن إبراهيم بالله، فحسب له براً» (٣ : ٦).«إنَّ الله بالإيمان يبرر الأُمم، حيث سبق

---

(1) The Distinctive Ideas, pp 162-165.

فبشر إبراهيم إنَّ فيك تتبارك جميع الأُمم» (٣ : ٨). أمَّا بالنسبة لله، فالإجابة هي لا؛ لأن إيمان الإنسان لا ينشئ صلاح الله ومحبته. وعندما يقول القديس بولس: «آمن إبراهيم بالله فحسب له براً" (٣ : ٦)، فقد صار الإيمان وسيلة البر للإنسان وطريق نوال النعمة، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن معنى كلمة "حُسِبَ" في العهد القديم.

معنى كلمة "حُسِبَ" في العهد القديم[1]

لقد مرت بنا الكلمة اليونانية المستخدمة في السبعينية، والتي تترجم عادة *Count* و *reckon*. والعبرانية استخدمت الفعل **"حُسِب لي"** ٢٢ مرة، ويهمنا على الأقل ١٣ نصاً تلقي الضوء على معنى "حُسِبَ".

١ـ يقول أيوب محتجاً لدى الله: «لماذا تحجب وجهك، وتحسبني عدواً لك» (١٣ : ٢٤)، وهو نفس الاستعمال في (١٩ : ١١)، بل يصل إلى الحد الذي يقول فيه أليهو لأيوب إنَّ الله يبحث عن أسباب للعداوة «هوذا يطلب عليَّ علل (أسباب) يحسبني عدواً له» (٣٣ : ١٠)، وبالطبع لم يكن الله عدواً لأيوب، فلا يوجد في السفر كله أي لمحة عن عداوة الله بالمرة .. هكذا حَسَبَ أيوب ما لا وجود له .. فهل حسب الله البر لإبراهيم بسبب الإيمان؟والجواب يتطلب استبعاد المعنى القانوني أي الشرط الذي يضعه القانون كما يتطلب استبعاد المعنى التجاري الذي تتم فيه المقايضة.

٢ـ يقول نفس السفر عن التمساح، الحيوان المخيف إنه بسبب قوته «يحسب الحديد كالتبن» (٤١ : ٢٧) وعندما حلَّت المصائب بأيوب قال: «نزلاء بيتي وأمائي يحسبونني أجنبياً» (١٩ : ١٥).

فكلمة "حسب" هنا هي بالطبع تعبِّر عن نظرة التمساح إلى الحديد، ونظرة الآخرين إلى أيوب .. هذه النظرة ـ بالنسبة للتبرير ـ لا تنشأ بقوة القانون، ولكن بصلاح الله....هكذا حسب الله البر لإبراهيم حسب صلاحه الإلهي..

---

[1] الفعل Λογοθετεω استخدم في السبعينية وعند الآباء بمعنى (يحسب).

ما الذي يحسبه الصلاح الإلهي؟

١ـ يقول شمعي بن جير لداود «لا يحسب لي سيدي إثماً» (٢ صم ١٩ : ١٩) وعدم حسبان الإثم هو صفح، ولذلك حلف داود لشمعي ولم يقتله (٢ صم ١٩ : ٢٣). فالصفح يرفع الإثم ولا يحسب الخطأ. وعلى عكس هذا المعنى نجد أنَّ سفر اللاويين يذكر إن مَن يذبح ذبيحةً بعيداً عن خيمة الاجتماع ولا يأتي بالذبيحة إلى خيمة الاجتماع «يحسب على ذلك الإنسان دم» (١٧ : ٤) أي تحسب له هذه الخطية مثل خطية القتل، أي سفك الدم .. وهنا علينا أنْ نميز بين سلوك الصلاح والغفران كما فعل داود، وقضاء الشريعة التي لا تمنح الغفران لمن يتعدى على قانون الذبائح .. فالفرق هنا هو فرق بين حكم الصلاح وحكم الشريعة.

يؤكِّد هذا قول المزمور، وهو النص المحبوب عند الرسول بولس «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية» (مز٣٢ : ١)، وقد شرح الرسول بولس نفسه هذا النص في (رو ٤ : ٤-٨) مؤكداً عدم حساب البر بسبب قضاء الشريعة أو حكم الناموس. «أمَّا الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر، فإيمانه يحسب له براً كما يقول داود في تطويب الإنسان الذي يحسب له الله براً بدون أعمال الناموس» (رو ٤ : ٤-٦).

٢ـ وثمة حادثة أُخرى مشهورة، وهي عودة إسرائيل إلى عبادة البعل حسب سفر العدد (٢٥ : ١ وما بعده)، وهنا ضرب الرب إسرائيل بالوباء .. ثم امتنع الوباء بقتل الزناة وعبدة الأوثان؛ لأن الوثنية ـ حسب نص سفر العدد «ابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب» (٢٥ : ١) ـ كانت تقوم على عبادة الأوثان، وهنا يقول موسى لقضاة إسرائيل «اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور» (عد٢٥ : ٥).

ومع ذلك لم يتوقف الوباء إلى أنْ قَتَل فينحاس بن العازار مَنْ كان يزني في داخل خيمة الاجتماع، وهنا بشكل خاص لدينا تركيب لغوي هام جداً إذ يقول سفر العدد إنَّ غيرة فينحاس وقتل الزاني والزانية في داخل خيمة الاجتماع «حُسبت كفارة .. كفر عن بني إسرائيل» (٢٥ :١٣). وعندما يصوغ مزمور ١٠٦ هذه الحادثة بالذات ـ دون أنْ يذكر القتل ـ يقول:«فوقف فينحاس ودان، فامتنع الوباء، فحسب

له ذلك براً إلى دور فدور إلى الأبد» (١٠٦ : ٢٩-٣٠).

وحساب البر هنا هو ميثاق أو عهد الله «هانذا أُعطيه ميثاقي ميثاق السلام» (عدد ٢٤ : ١٢). فالبر يحسب هنا من دور فدور لأنه لا يقوم على الكفارة فقط، بل على العهد والميثاق أي ميثاق السلام .. وهذا ضروري لنا عندما نفحص رسالة رومية. وهذه نقطة سنعود إليها بعد قليل.

٣ـ ولكي نتأكد من أنَّ "الحساب" ليس حسب القانون، علينا أن نتأمل كلمات سفر الأمثال التي تقول إنَّ الذي يُبارك قريبه بصوتٍ عال، أي يذكر ما يفعله معه من حسنات وصدقة يكون كمَن يلعنه، أي يفضحه. «مَن يبارك قريبه بصوت عال في الصباح باكراً يحسب له لعناً» (٢٧ : ١٤).

ماذا يقصد الرسول بولس من "حُسِبَ" براً؟

إذا كان معنى "حُسِبَ"، و"يحسب" يختلف حسب المناسبات الخمس التي ذكرناها، وهي كلها من العهد القديم. فماذا يقصد الرسول بولس؟

١ـ البر لا يُحسب بسبب أعمال صالحة، أو بسبب حفظ الناموس. هذا هو ملخص الحوار مع التيار المتهود في رو ٤ وغلا ٣.

٢ـ وإذا كان الله يقبل الكل لا سيما الأُمم ويحسب لهم إيمانهم براً، صار من الواضح أنَّ الرسول ـ وهو يعارض تماماً قبول الله للخطاة بسبب الأعمال الصالحة ـ إنما يؤكد على الأقل في الإصحاح الثالث من غلاطية، ومن خلال كلمات قاطعة مثل:"إيمان يسوع" (٣ : ٢٢)، و"جاء الإيمان" (مرتين ٣ : ٢٣ - ٣ : ٢٥)،.على مجيء ابن الله لكي ننال به قبول الله لنا حسب صلاح الله، وليس لأن المسيح قد دفع ثمناً، أو قايض الآب على حياتنا بدمه الكريم.

٣ـ هكذا حسب الله إيماننا براً حسب صلاحه، وصار الإيمان هو العدل، أي العلاقة الصحيحة مع الله (العلاقة العادلة)؛ لأننا بالعدل، أي بعودتنا عن الانحراف قد "عدلنا" عن طريق الشر وعدنا بالإيمان الذي هو عدل إلى الله.

برهان الإنجيل على صدق وصلاح الله

يضع الرسول حُجة الإنجيل أمام المؤمنين بشكل لا يقبل الجدل، والحُجة الأولى هي: قبول الروح القدس كمنحةٍ من الله.

يسأل الرسول: «الذي يمنحكم الروح ويعمل قوات فيكم أبأعمال الناموس أم (بالإنجيل) بخبر الإيمان» (غلا ٣ : ٥). وعطية الروح القدس الذي هو وحده قادر على أن يحفظنا في وحدة مع المسيح هي هبة الآب لنا، هذه العطية نأخذها من المسيح لكي نحيا بالمسيح فيها. هكذا يعود الرسول بعد أن يؤكد فداء الرب لنا من لعنة الناموس مؤكداً أننا في المسيح يسوع ننال بالإيمان «موعد الروح» (غلا ٣ : ١٤).

النقطة الأساسية هي أن عطية الروح القدس لا علاقة لها بالمرة بالناموس؛ لأن الناموس لا يملك أنْ يأمر الله بأن يعطي روحه القدوس للإنسانية. وهكذا يقول ذهبي الفم مؤكداً صحة الإنجيل:

> [قدَّم اليهود حجة الشريعة ضد بشارة الإنجيل، ولكن الرسول يصد هجوم اليهود ببرهان آخر قوي يقدِّمه من حياة إبراهيم. كانت المعجزات قد حدثت في الكنيسة بين المؤمنين. ويؤكد الرسول هذا بقوله "الذي يمنحكم الروح ويعمل قوات فيكم"، ولكي يُدعِّم حجة الإنجيل يعود إلى التاريخ القديم ويقول: لم يكن للشريعة وجود في زمن إبراهيم، وهذا نفسه هو الموقف الآن لا توجد شريعةٌ الآن تحكم عمل الله. ويبدو أن بعض اليهود من الذين آمنوا كانوا يخافون من ترك ممارسة أحكام الشريعة من أن يؤدي هذا بهم إلى الابتعاد عن الانتساب لإبراهيم. هنا يقلب بولس برهان هؤلاء رأساً على عقب لكي يبدد مخاوفهم مؤكداً لهم إن الإيمان وحده هو الذي يحفظ لهم العلاقة مع إبراهيم] (عظة على غلاطية ٣ : ٦ عظات ذهبي الفم مجلد ٤ : ٥٦).

الإيمان سبق الشريعة، وهو أقدم من الشريعة

هنا يصل القديس بولس إلى طرح الموضوع الثالث، وهو العلاقة بين الإيمان والناموس، وهذه هي حجة الإنجيل الثانية لأن الرسول ينتقل من برهان عمل الروح القدس إلى برهان تاريخ الإيمان نفسه. ويعلق ذهبي الفم على هذه النقطة بذاتها:

> [كانت حجة المتهودين من المؤمنين قوية. كانت قائمة على العودة إلى التاريخ القديم، لأن الإنجيل والبشارة بالإيمان جاءت بعد شريعة موسى، وبالتالي تصبح الشريعة أقدم. ولكن الرسول يحطم هذا البرهان تماماً معلناً أن الإيمان أقدم من الشريعة بدليل أن إبراهيم قد تبرر قبل نزول الشريعة. ويقول الرسول إنَّ اللّٰه الذي أعطى الشريعة هو نفسه الذي قرر – قبل نزول الشريعة – أنْ يبرر المؤمنين من الأُمم بالإيمان] (المرجع السابق ٤ : ٥٧).

ويعلق ذهبي الفم في ملاحظة هامة جداً على نص غلا ٣ : ٨ حيث يقول الرسول أن الله بشر إبراهيم:

> [لم يستخدم الرسول "أعلن"، بل "بشَّر" إبراهيم لكي نفهم أنه حتى أب الآباء إبراهيم فرح بهذا البر وانتظر موعد تحقيقه] (المرجع السابق).

ثالثاً: شرح رسالة غلاطية لآباء الكنيسة الجامعة

وحتى لا يظن البعض إنَّ النتائج التي توصلنا إليها هي من عندياتنا، بينما نؤكد نحن دائماً على أننا نتبع الآباء، نقدم هنا بعضاً من شرح الآباء لبعض النصوص الهامة في الرسالة.

١ـ "إذ نعلم أنَّ الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس" (غلا ٢ : ١٦)

يقول القديس جيروم:

[يسأل البعض هل تبرر البطاركة والأنبياء؟ وهل تبرر هؤلاء بالأعمال، أم بالإيمان في المسيح؟ لأن هؤلاء لم يكونوا كاملين. وجوابنا: إنَّ هؤلاء نالوا البر وتبرروا بالإيمان، والذين عاشوا قبلنا تبرروا بالإيمان في المسيح؛ لأن إبراهيم رأى يوم المسيح وتبرر (يوحنا ٨ : ٥٦)]. (الآباء اللاتين *Migne* مجلد ٢٦ : ٣٤٣).

٢ـ ما هو المقصود بكلمة الناموس أو الشريعة

يقول أكبر علماء السريان الأب ثيودوريت، وهو هنا يعكس كل ما استقر في تراثنا المسيحي، وهي نفس كلمات يوحنا ذهبي الفم:

[الوصايا العشرة في الناموس تُعلِّمنا إياها الطبيعة مثل: لا تزنِ، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأُمك، وباقي الوصايا. أمَّا الوصايا الخاصة بحفظ السبت والختان وطهارة البُرَّص وطهارة النساء (العادة الشهرية) والذبائح، فهي خاصة باليهود وبالشريعة اليهودية؛ لأن الطبيعة لا تُعلِّم بهذه الأُمور. هذه هي الشريعة التي يقصدها الرسول، وهو ما يقصده بأعمال الناموس. وتعدِّي هذه الشرائع هو خطية. أمَّا حفظ هذه الشرائع فهو لا يحفظ البر للإنسان. وكانت هذه الوصايا نافعةٌ لليهود في ذلك الزمان.]

(شرح رسالة غلاطية في مجلد شرح رسائل بولس)[1].

(1) Commentatius in Omnes. Pauli Epistolas, ed by C. Marriott and J. H. Parker, Oxford, 1852, vol. I, 341.

ولاحظ أيها القارئ إنَّ القديس يوحنا ذهبي الفم مثل الدسقولية، يضع: الختان ـ شرائع التطهير ـ الذبائح ضمن الشرائع الخاصة باليهود فقط. وهي شرائع ليست من الطبيعة.

٣ـ هل يمكن بعد الإيمان بالمسيح، أنْ نُمارِس ما جاء في الشريعة اليهودية؟

يُجيب الأب ماريوس فكتورنيوس[١] *Marius Victorius* :

[لنفترض أننا بعد ما آمنّا بالمسيح، وعُدنا - كمسيحيين - إلى ممارسة الطقوس والشرائع اليهودية. ولنفترض أننا نحن الذين بالإيمان في المسيح قلبنا التبرير، وظننا أننا بذلك ننال التبرير بواسطة الطقوس والشرائع اليهودية. ولنفترض أننا أصلاً آمنّا بأن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، فإذا عُدنا إلى ممارسة أعمال الناموس (الطقوس) ألا تجعلنا هذه الممارسات خطاة؟ ألا تجعل ممارستنا لأعمال الناموس، المسيح نفسه "خادم للخطية" لأننا قبلناه لكي لا نخطئ، ولكن الممارسات نفسها تؤكد لنا أننا خطاة لأننا بعد قبول المسيح نعود إلى الخطية التي تحددها الشرائع اليهودية بالممارسات الطقسية اليهودية ولأنها عودةٌ إلى العهد القديم. فهل أصبح المسيح خادماً للخطية؟ حاشا كما يقول الرسول، فلا يجوز لنا أنْ نعود إلى الناموس؛ لأن المسيح تألم لكي يحررنا من الخطية] (المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٧).

يقول الأب ثيودوريت والقديس يوحنا ذهبي الفم:

[لقد تركنا الممارسات اليهودية والشريعة لكي نأتي إلى المسيح، وننال بذلك البر بالإيمان به. ومَن يعتبر أنَّ ترك الممارسات اليهودية والشريعة، تَعدِّي الناموس إنما يتهم الرَّب يسوع المسيح نفسه، لأنه هو نفسه الذي أعطانا العهد الجديد. حاشا لنا أنْ نسقط في هذا التجديف.]

---

[١] هو أُستاذ القديس أوغسطينوس، آمن بالمسيح بعد حياة حافلة عاشها في تدريس الفلسفة. كتب عدة كتب ضد الأريوسية وله كتاب فخم عن الثالوث شرح فيه العقيدة المسيحية على أساس فلسفي.

(المرجع السابق ١ : ٣٤١. - القديس يوحنا ذهبي الفم العظة ٢ : ١٧ على رسالة غلاطية - المرجع السابق ٤ : ٤٥).

٤ـ نص مشهور للقديس يوحنا ذهبي الفم:

اقتُبِسَ هذا النص في الجدل المسيحي اليهودي الذي استمر منذ بداية العهد الجديد، ووصل إلى طريقٍ مسدود: إمَّا الشريعة وإمَّا المسيح:

[تأمل حكمة بولس؛ لأن قادة حركة التهود أرادوا أنْ يبرهنوا على إنَّ مَن لا يحفظ الناموس يتعدى الناموس، ولكن الرسول هنا يقلب هذا البرهان رأساً على عقب ويبرهن إنه في المسيح مَن يحفظ الناموس يتعدى الناموس، والتعدي ليس فقط ضد الإيمان نفسه، بل ضد الناموس أيضاً. فكيف برهن الرسول على هذا؟ فَقَدَ الناموس دوره كوسيطٍ بين الله والناس، ونحن قبلنا هذا الإيمان، ولذلك تركنا الناموس، وصار الإيمان هو الحصن المنيع للخلاص. بعد ذلك، إذا حاولنا أنْ نعود إلى الناموس، نصبح نحن مُتعدِّين الناموس؛ لأن الله هو الذي وضع الناموس، وهو الذي أبطله، فكيف نعود نحن إلى ما أبطله الله؟]

(المرجع السابق ١ : ٣٤١).

٥ـ "مت للناموس لكي أحيا لله"

كيف شرح الأب ماريوس فكتورينوس هذا النص؟

[يمكننا أنْ نرى كيف يتحدث الرسول عن شريعتين، الأولى هي شريعة موسى، والثانية هي شريعة المسيح. وإذا قال إنه مات للناموس الذي أُعطي لليهود، فهو يقصد بالناموس، الناموس الذي أعطاه المسيح، أي أنه يريد أنْ يقول "لقد مت بناموس المسيح للناموس الذي أعطي لليهود".

هنا يمكن أنْ نرى بولس مثل المسيح مخلصنا، لأنه مثل المُخلِّص يرى الشريعة الروحية الأعلى من الشريعة الحرفية. وهكذا تصبح كلمات الرسول "مت للناموس" أي قبلت

الشريعة الروحية لكي أكون ميتاً للشريعة الحرفية، فأحيا للّه.
وما هو المقصود بكلمات الرسول "أحيا للّه"؟ إنَّ غاية الناموس روحية، ولذلك الناموس الحرفي مثل الختان وحفظ السبت حسب الظاهر والحرف لا يحتوي على حقيقة روحية؛ لأن الختان الروحي أكمل، وحفظ السبت حسب الروح أجمل](المرجع السابق ص ٢٧- ٢٨).

٦ـ "مع المسيح صُلبت، فأحيا لا أنا"

يشرح القديس أُمبروسيوس هذه الكلمات:

[أحيا لا أنا ـ الذي أكل من خيرات الأرض مثل آدم، وأكل حشائش الأرض، لأنَّ كل جسد هو عشب (أش ٤٠ : ٦) ـ بل المسيح يحيا فيَّ، أي يحيا فيَّ ذلك الخبز الحي النازل من السماء، يحيا فيَّ الحكمة، يحيا فيَّ البر، يحيا فيَّ القيامة، أي المسيح][1].

٧ـ الفداء من اللعنة، ومعنى "صار لعنةً"

يقول الرسول «المسيح افتدانا من لعنة الناموس» (غلا ٣ : ١٣) هذه الكلمات تسبق الكلمات الأُخرى التي نخطئ فهمها ونقلب معناها تماماً عندما نسمع أو نقرأ كلمات الرسول "إذ صار لعنةً لأجلنا". ولو أنَّ الرسول توقف عند هذه العبارة لجاز لنا أنْ نقول إنَّ واضع الشريعة ابن الله نفسه قد حكمت عليه الشريعة فصار لعنة. ولكن الرسول يقول: «مكتوب ملعون كل مَن عُلِّق على خشبة» (غلا ٣ : ١٣) والعبارة خاصة بالصلب كأداة للموت. وحتى نؤكد للقارئ إننا نتبع الآباء، نقدِّم شرح القديس أبيفانيوس:

[يقول الرسول جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنةٍ؛ لأنه مكتوب ملعون كل مَن لا يثبت .. وتعني هذه الكلمات أن الناموس كان يحتوي على لعنة ضد تعديات

---

[1] عظات على الفردوس نشرت في سلسلة:
Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum, Vienna, 1866. مجلد ٣٢ : ٣٣٥

آدم إلى أنْ يأتي الذي هو من فوق ويلبس جسداً من الطبيعة الآدمية (حرفياً mass أي كيان أو كتلة) ويحول اللعنة إلى بركة] (ضد مرقيان أو *Panarion* 31 : 56).

ويقول ذهبي الفم ما هو جرئ جداً، ونقدِّم للقارئ ترجمةً حرفيةً كاملةً:

[عبارة الرسول تبدد الخوف؛ لأن الرسول بمهارةٍ وحكمةٍ يقلب البرهان رأساً على عقب. يقول المتهودون إنَّ الذي لا يحفظ الناموس هو معلون، ويقول الرسول إنَّ مَن يجاهد لكي يحفظ الناموس هو ملعون، وإنَّ الذي لا يحفظ الناموس ينال البركة. يقول المتهودون إنَّ الذي يحفظ الإيمان ويتمسك به هو ملعون، بينما يثبت الرسول العكس إنَّ الذي يحفظ الإيمان هو الذي ينال البركة]

(المرجع السابق ٤ : ٧- ٨).

٨ـ لم يفقد الرب طبعه ويصبح لعنة

يقول القديس غريغوريوس النزينزي:

[لم يتحول الرب إلى لعنة، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ولكن لأنه قَبِل لعنة الموت وحمل خطايانا وأمراضنا]

(الرسالة ١٠١ : ٦١).

[كل مَن لا يحفظ الشريعة تحكم عليه الشريعة بالعقاب؛ لأنه لم يحفظ كل الشريعة. أمَّا المسيح فقد احتمل لعنةً أُخرى، وهي ليست لعنة مَن لم يحفظ الشريعة، بل اللعنة التي تقول "ملعون كل مَن عُلِّقَ على خشبة" (تث ٢١ : ٢٧) ومع أن اللعنة خاصة بمن يتعدى الشريعة، وأيضاً بمَن يعلَّق على خشبة، جاء المسيح لكي يرفع اللعنة الثانية لأنه لم يتعدَ الشريعة، ولا هو مستوجبٌ لحكم الموت حسب الشريعة، بل عندما عُلِّقَ على خشبة الصليب صار مثل البريء الذي يختار أنْ يموت لأجل إنسان مستحق الموت، هكذا فعل المسيح]

(عظة على غلا ٣ : ١٣ المرجع السابق ٤ : ٥٩).

٩ـ المسيح محا اللعنة، ولم يصبح ملعوناً

يقول القديس كيرلس الأورشليمي، وهو يشرح الإيمان للذين يستعدون لقبول سر المعمودية:

> [سَمِعَ آدم الحكم ملعونةٌ الأرض .. شوكاً وحسكاً تُنبت لك .. لذلك لبس يسوع إكليل الشوك لكي يمحو الحكم، لذلك السبب أيضاً دُفن في الأرض لكي تنال الأرض التي لُعِنَت البركة عوضاً عن اللعنة .. وفي زمان الخطية ارتدى آدم وحواء ثياباً من ورق شجرة التين، لذلك أيضاً كانت لعنة يسوع لشجرة التين هي آخر العلامات التي صنعها وهو في طريقه إلى الآلام، فقد لعن شجرة التين ليس كل شجر التين، بل شجرة معينة (صارت مثالاً) قائلاً لا يكون فيك ثمر بعد (مرقس ١١ : ١)، لعن الشجرة لكي يمحو الدينونة]
>
> (عظة ١٣ : ١٨ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٨٧).

١٠ـ معنى "لأجلي" كما يشرحها القديس غريغوريوس النزينزي

لا يجب أن نأخذ "صار لعنةً" على أنها تحوُّلٌ في طبيعة الرب، أو كما شرح كالفن قائد حركة الإصلاح الإنجيلية العبارة الرسولية مؤكداً أن المحبوب يسوع المسيح صار *"المحبوب الملعون"*، بل لأن المسيح جعل قضية الإنسان قضيته، لا لكي يسقط تحت حكم اللعنة والموت، بل لكي يمحو الحكم، لذلك يقول القديس غريغوريوس النزينزي:

> [من أجلي دُعي لعنةً، وهو الذي أباد اللعنة، ودُعي خطيةً، وهو الذي يرفع خطية العالم كله، ومن أجلي صار آدم الجديد لكي يحل محل آدم القديم، ولذلك جعل عصياني عصيانه لأنه رأس الجسد كله] (المقال الرابع من المقالات اللاهوتية فقرة ٥ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٣١١).

ويشرح الإيمان بشكل مطول في المقالة الثانية التي أفاض فيها في عرض فساد الطبع الإنساني. ولعل القارئ يلاحظ أن القديس غريغوريوس لا يستخدم كلمة

عقوبات بل **تأديبات**، لأن التأديب هو إعلان عن الصلاح الإلهي. ومن أجل أهمية هذا النص سوف نقسمه إلى فقرات وكل فقرة عنوان يعلن أهمية الشرح.

١١ـ التأديب في العهد القديم

[أدبنا الرب بتأديبات مختلفة لأن خطايا الإنسان كانت كثيرة، ونما وكبر جذر الشر وتفرع عدة فروع .. أدبنا بالكلمة، بالناموس، بالأنبياء، بالخيرات، بالحروب، بالوباء، بالمياه، بالنار، بالانتصارات، بالهزائم ..] (لاحظ أن الانتصار في الحروب هو تأديب مثل الهزائم).

الدواء الأقوى

[لكن الشرور احتاجت إلى دواءٍ أقوى؛ لأن الأمراض كانت تزداد سوءً، وكان أول وآخر الشرور، عبادة الأوثان، وعبادة المخلوق دون الخالق، كل هذا احتاج إلى معونةٍ أكبر. وكانت هذه المعونة هي مجيء الكلمة الله نفسه الكائن قبل كل ما هو كائن، غير المنظور، غير المُحوى، غير المحسوس، بدء كل بدء، نور كل نور، ينبوع الحياة وعدم الموت].

١٢ـ كيف غيَّر التجسد الطبيعة الإنسانية؟

[أخذ لأُقنومه جسداً من أجل أجسادنا، مزج بأُقنومه نفساً إنسانيةً عاقلةً، من أجلي أنا لكي يُطهر المثيل بالمثيل].

* هذا هو معنى "صار لعنةً". وحتى لا يظن أحدٌ أننا نبحث عن فكرةٍ شاردةٍ عند الآباء، أرجو من القارئ أن يقرأ بقية النص.

١٣- مجد الإنسان في تجسد ابن الله

[الواهب الغني صار فقيراً؛ لأنه أخذ فقر جسدي حتى ما أغتني أنا بأُلوهيته. مَن هو الملء أخلى ذاته، لأنه أخلى ذاته لوقت محدود حتى أنال أنا نصيباً من ملئه .. لقد أخذت

نصيباً في الصورة (الإلهية) ولكنني لم أحفظ هذه الصورة، أمَّا هو، فهو يشترك في جسدي لكي يخلِّص الاثنين: الصورة (النفس) والجسد عندما يجعله عديم الموت. بهذا قد أسس الشركة الثانية، وهي أعظم من الشركة الأولى بكثير؛ لأنه في الشركة الثانية أعطى لنا الطبيعة الأفضل، رغم أنه أخذ الطبيعة الدنيئة]

(المقالة الثانية عن القيامة فقرة ٩ ـ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٤٢٦).

١٤- التحول الكبير في علاقة الله بالإنسان

[ومع أنه رفع خطايانا وأمراضنا، إلاَّ أنه هو نفسه لم يتأثر، بل شفى الكل، لأنه جُرب مثلنا في كل شيء، ولكنه بلا خطية، لأن الذي قرر أن يخلق النور الذي يشرق في الظلمة لا يمكن أن تغلبه الظلمة]

(المقالة الثانية عن القيامة ١٤ ص ٤٢٨).

* هكذا يجب أن نفهم معنى انتصار المسيح على اللعنة والفساد والموت؛ لأنه لم يسقط تحت سلطان الخطية ولا غُلب من الموت ولا ساد عليه حكم الدينونة، بل أباده .. هذا هو إيمان الآباء .. وهذا هو إيماننا نحن تلاميذ الآباء ونعود إلى ذات الموضوع في المقالة الأولى عن القيامة:

[لنصبح مثل المسيح، لأن المسيح صار مثلنا، لنصبح مثل اللّه من أجل الذي صار إنساناً. لقد أخذ الدنيء لكي يعطي لنا الكريم. صار فقيراً لكي ما نصير نحن بفقره أغنياء (٢ كو ٨ : ٩) أخذ صورة العبد لكي ننال نحن مرةً ثانيةً حريتنا. نزل إلى أسفل لكي نرتفع نحن. جُرب لكي ننتصر. أُهين لكي نُمجد نحن. مات لكي يخلصنا. صعد لكي يجذبنا إلى ذاته نحن الذين كنا أسفل وسقطنا في الخطية، لنترك كل الأشياء لكي نقدِّم كل الأشياء إليه، أي إلى مَن قدَّم ذاته فديةً ومصالحةً لأجلنا] (المقالة الأولى ٤ ص ٢٠٤).

١٥ـ فدانا من اللعنة

وعلى الرغم من أننا قدَّمنا الكثير عن الفدية، إلاَّ أننا يجب ونحن في مجال

عرض الشرح الأُرثوذكسي للقديس غريغوريوس أن نرى كيف يعبِّر الشرق الأُرثوذكسي عن معنى الفدية في إطار لاهوتي جميل يشرح غنى رحمة الله وصلاحه.

يقول القديس غريغوريوس النزينزي في المقالة اللاهوتية الثالثة:

[لقد بيعَ بثمنٍ بخس، أي بثلاثين من الفضة، ولكنه يفدي العالم وبثمن عظيم، وهذا الثمن هو دمه]

وقبل أن يقفز أحد إلى أي استنتاج أدعوه لكي يقرأ بقية النص:

[سيق للذبح مثل شاة، ولكنه راعي إسرائيل، والآن هو راعي العالم كله.

هو صامت مثل حمل، ولكنه الكلمة الذي يُبشِّر به الصوت الصارخ في البرية.

جُرِحَ، ولكنه هو الذي يشفي كل الضعفات.

رُفِعَ على شجرةٍ، وسُمِّرَ عليها، ولكن بشجرة الحياة يجددنا، وحقاً لقد خلَّص اللص الذي صُلب معه.

هو يضع حياته، ولكن له السلطان لكي يأخذها (يوحنا ١٠ : ١٨).

يموت، ولكنه يعطي الحياة وبموته يبيد الموت.

ينزل إلى الجحيم، ولكنه يُصعِد النفوس.]

(المقالة اللاهوتية الثالثة عن الابن: ٢٠ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٣٠٩).

وهكذا صارت الفدية تحريرٌ ومجدٌ للإنسان في المسيح يسوع.

حتى نفهم الإيمان بأُرثوذكسية الآباء

أولاً: علينا أن نضع في المقام الأول **حرية الابن التامة** وهو يموت على الصليب. وحسب كلمات القديس كيرلس الأورشليمي:

[لقد بذل حياته لأجلنا كما أراد، وأخذها ثانيةً عندما شاء حتى لا يظن أحدٌ إنَّ حياته قد أُخذت منه قسراً، أو أنه أسلم الروح بدون إرادته، فقد صرخ للآب وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي (لوقا ٢٣ : ٤٦) أنا أملك حياتي ولذلك أستطيع أن أستردها] (عظة ١٣ : ٣٣ - الترجمة الإنجليزية ص ٩١).

وقبل ذلك يكتب نفس الأب:

[لقد جاء إلى الآلام طواعيةً، وليس ضد إرادته]

(عظة ١٣ : ٥ المرجع السابق ص ٨٣).

وحرية الابن الكاملة ليست من الناموس ولا تخضع للناموس. ويقول القديس غريغوريوس النزينزي:

[مَن يقدر على أنْ يرغم الابن على أنْ يولد على هذه الأرض أولاً، أو على أنْ يعلَّق على الصليب ثانياً]

(المقالة اللاهوتية الرابعة ٥ ص ٣١١) راجع الترجمة اللبنانية: الخطب اللاهوتية ٢٧ - ٣١ - منشورات المكتبة البولسية - ترجمة الأب يوحنا الفاخوري ص ١١٢.

ثانياً: وحسب تعليم الآباء أباد الرب الموت والفساد بقدرته، ولذلك يكتب القديس غريغوريوس عن الخطية والموت واللعنة وكل فساد الطبع الإنساني:

[إذا تأملنا صفات الكلمة وجدنا أنه في حد ذاته ليس مطيعاً ولا عاصياً، لأن هاتان الصفتان تُنسب للعبيد ومَن هم دون العبيد. والطاعة تليق بمَن لهم طبع أفضل، والعصيان لمَن له طبع دنئ. وإنْ أطاع العبيد صاروا صالحين، وإنْ عصوا استحقوا العقاب. أمَّا في شأن الذي أخذ صورة العبد، فهو يتنازل إلى مستوى اخوته العبيد والى نفس العبودية، فيأخذ حقاً هذه الصورة الغريبة على طبعه لكي يأخذ كل ما يخصني أنا، وحتى يحملني في ذاته لكي يذيب فيه كل ما فيَّ من شر كما تذيب النار الشمع أو الشمس ضباب الأرض، كل هذا تم لكي أشترك في طبيعته التي امتزجت بطبيعتنا]

(المقالة اللاهوتية الرابعة ٦ ص ٣١١ - المرجع العربي السابق ص ١١٢).

لقد جاء الرب بحريته، ومات بإرادته الحرة، وقام بإرادته الحرة وأذاب شر الإنسان أي الطبيعة الإنسانية بقداسته وصلبه وقيامته وحوَّلنا إلى طبيعته البارة المقدسة الكاملة فيه.

إنَّ الثمن الذي دُفِعَ إذن ليس ثمناً قانونياً، دُفِعَ لإيفاء العدل الإلهي حقاً أضاعته الخطية، بل الثمن هو آلام المحبة التي تكبدها ابن الله المتجسد عندما أخلى ذاته صائراً في شبه العبد. وعندما قبل أن يذوق الموت لأجلنا لكي يبيده ويهبنا الحياة، بل يهبنا مجده الذي أعطاه إياه الآب «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحد كما أننا نحن واحد» (يو ١٧ : ٢٢).

الثمن دُفِعَ للإنسان حباً في الإنسان. ولهذا قَبِل الآب الذبيحة، ذبيحة الحب الذي أحب الخليقة، وأعاد أبنائه الضالين في أحضانه. هذا هو "العدل الإلهي"، هذا هو "الثمن"، وهكذا "سدد" الرب المتجسد والقائم من الموت "دين الإنسان" للحب الإلهي.

التبرير
في رسالة رومية

مقدمة تاريخية

قبل أن نشرح نصوص رسالة رومية الخاصة بالتبرير يجب أن نحذر القارئ، ليس لأن ما يذكره غير الأُرثوذكس هو تعليم شرير ومنحرف (إلى آخر العبارات السائدة)، وإنما لأن ما يذكره غير الأُرثوذكس هو جزء من نسيج كامل متوافق الأجزاء لا يمكن فصله وزرعه في نسيج الأُرثوذكسية بسبب واحد كما سنرى هو أن دُعامة الخلاص في الأُرثوذكسية هي في الإيمان، والأسرار الثلاثة الكبرى المعمودية ـ الميرون ـ الإفخارستيا، والتي تُعرف باسم أسرار الانضمام إلى المسيح، وأسرار الانضمام إلى الكنيسة جسد المسيح الواحد.

مدرستان للتفسير:

فيما يخص شرحنا لموضوع التبرير في رسالة رومية، نجد أمامنا مدرستين للتفسير:

المدرسة الأولى: هي مدرسة آباء الكنيسة الشرقية جميعاً دون استثناء.

المدرسة الثانية: وهي التي تبدأ بالقديس أوغسطينوس، وتسير في تقدم دائم في العصر الوسيط حتى تصل إلى كمالها على يد مارتن لوثر، ثم يوحنا كالفن.

المدرسة الأولى: ترى التبرير كعطية صلاح وجُود الثالوث، ومحبته المُعلَنة في الآب والابن والروح القدس.

المدرسة الثانية: تبدأ بمشكلة العدل والجزاء القانوني، وترى في التبرير إيفاء

العدل الإلهي حقه، ودفع ديون الخطية، ولذلك كان التبرير بمثابة سدٍ لحاجةٍ أساسيةٍ في جوهر الله نفسه، وهي رفع الغضب وعقوبة الموت.

المدرسة الأولى: تبدأ بالمحبة الإلهية وصلاح الله ورحمته، ولذلك ترى في الصليب إعلان عن هذه المحبة والرحمة، وهو إعلان محبة الثالوث غير المنقسم.

المدرسة الثانية: تبدأ بالقانون الوضعي وتخلط بين العدل الأرضي والعدل الإلهي، وترى أنَّ الغفران المجاني هو "غفرانٌ مدفوع الثمن"، وذلك من أجل إثارة الذنب وحل مشكلة العدل بمعناه القانوني[1].

ويطول بنا الحديث حول المقارنة بين المدرستين .. لكن كما مر بنا، ليست المشكلة الأساسية هي مشكلة تفسير هذه الكلمة "البر" أو أصلها اللغوي في العبرانية .. ولكن المشكلة هي أنَّ المعطيات *data* التي تستخدم في الشرح هي معطيات حضارية تعبر عن رؤية حضارية أُوروبية، رؤية الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تريد أنْ تحكم باسم الإنجيل، وأنْ تحول رسالة الإنجيل إلى شريعة وضعية تحكم شعوب أوروبا .. ولقد فشلت التجربة الأوروبية وانهارت بعد عصر الإصلاح .. ولذلك سقط اللاهوت الأوروبي كله في الأزمة التي يعبرها الآن بدراسات جيدة تنقل الفكر الأوروبي من التفسير الحضاري للإنجيل إلى تفسير مسيحي يعود إلى أصول الفكر المسيحي، وإلى الآباء بشكل خاص.

---

[1] وحرصاً على الحقيقة التاريخية يجب أن نذكر بكل وضوح أنه بينما ترى الكنائس الإنجيلية أن دفع الثمن للآب أعطى مجانية النعمة والغفران للآب، يرى بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس عكس ذلك فينكرون مجانية النعمة ومجانية الغفران إنكارا قاطعاً، وهي نقطة خلافٍ لا تستحق الدراسة لأن خطئها ظاهر وسبق لنا الرد عليها في الفصول السابقة. هذا يجعل تعليم هذه الكنائس أقرب إلى الآباء من تعليم هؤلاء البعض من الأقباط الأرثوذكس المشار إليهم.

الطبعات الدولية التي اعتمدنا عليها:

قلنا أنَّ هناك مدرستين لشرح رسالة رومية، إحداهما الخاصة بالآباء الشرقيين عموماً، والأُخرى هي التي تبدأ بالقديس أوغسطينوس، ويعتبر مارتن لوثر ويوحنا كالفن امتداداً لها، وهنا نضع أمام القارئ الطبعات الدولية التي اعتمدنا عليها في إثبات ما يُنسب إلى أي من هؤلاء الشراح من فكر حتى يستطيع أنْ يتبين بنفسه مدى صدق النتائج الّتي توصلنا إليها، وأيضاً نثبت ونؤكد على أننا لا نقدم إلاَّ تعليم الآباء الذي يتفق والليتورجية الكنسية، والمُستخدمة بالكنيسة القبطية على وجه الخصوص.

أولاً: نصوص الآباء

النص اليوناني لعظات يوحنا ذهبي الفم *Homilia ad Romans Inchoata* المجلد ٦٠ من مجموعة الأب *Migne* عامود ٣٩١ إلى آخره.

النص اللاتيني لشرح رسالة رومية للقديس أُغسطينوس:

Epistulae ad Romans Inchoata شرح مختارات رسالة رومية *Exposition* المجلد ٣٥ من مجموعة الأب *Migne* ابتداء من عامود ٢٠٨٧.

النص اللاتيني لشرح رسالة رومية للقديس أوغسطينوس:

Expositio Quarundam Propositionum ex Epistula ad Romans

شرح رسالة رومية المجلد ٣٥ من مجموعة الأب *Migne* ابتداء من العامود ٢٠٦٣.

الترجمات الإنجليزية في مجموعة آباء ما بعد نيقية، وقد أشرنا اليها أكثر من غيرها لأنها متوفرة الآن في شكل مجلدات وعلى أسطوانة واحدة CD نُشرت باسم:

The Sage Digital Library Volumes 1_4.

ونظراً لعدم وجود شرح كامل لرسالة رومية للقديس كيرلس الإسكندري،

فقد أخذنا كل الفقرات الخاصة بالموضوع من المقتطفات التي نُشرت في سلسلة الآباء اليونانيين للأب *Migne* مجلد ابتداءً من عامود ٤٠٩٠. ولا شك أنَّ عدم وجود تفسير كامل للقديس كيرلس يعتبر نقصاً كبيراً، يعوضه عظات القديس يوحنا ذهبي الفم.

ثانياً: تفسير رسالة رومية في المصادر الغربية البروتستانتية والكاثوليكية

أولاً: محاضرات مارتن لوثر على رسالة رومية كما صدرت في الطبعة الدولية مجلد ٢٥ من سلسلة *Luther's Works* وهي الترجمة الإنجليزية الرسمية التي صدرت من الكنيسة اللوثرية في الولايات المتحدة الأمريكية من دار النشر اللوثرية *Concordia Publishing House* عام ١٩٧٢ تحقيق الناشر *Hilten C. Oswald*.

ثانياً: تفسير رسالة رومية للأب الكاثوليكي *Joseph Fitzmyer* المجلد رقم ٣٣ من سلسلة *The Anchor Bible* الطبعة الدولية التي نُشرت عام ١٩٩٢.

تقسيم

هذا، وسوف نقوم بعرض الشروح المختلفة من خلال نصوص الآباء التى أشرنا إليها قبلاً في نقاط ثلاث، حيث نعرض أولاً لمعنى التبرير وتطوره في مدرسة التفسير الغربية وذلك بدأً بالقديس أوغسطينوس، وانتهاءً بكالفن. ثم ثانياً نعرض لفكر المدرسة الشرقية من خلال شروح القديس يوحنا ذهبي الفم، وملاحظات لبعض الآباء الآخرين، ومن ثم ثالثاً نعرض لخلاصة التعليم الأُرثوذكسي.

أولاً : "التبرير" وفقاً لمدرسة التفسير الغربية

الأهمية اللاهوتية والتاريخية للقديس أوغسطينوس في الغرب قبل وبعد حركة الإصلاح

لا يوجد كاتب أو لاهوتي ترك بصماته الواضحة جداً على اللاهوت الغربي برمته مثل أوغسطينوس. حتى أنسلم نفسه أول من وضع نظرية عن الفداء، يقول إنه شرح الإيمان حسب أُرثوذكسية القديس أوغسطينوس [1].

والملاحظ أنَّ الغرب قد انكب على دراسة لاهوت النعمة، وترك موضوع التبرير تماماً حتى جاء لوثر فأطلق العنان لكل ما يمكن أنْ يقال أو يكتب عن هذا الموضوع.

ولعل القارئ قد لاحظ أننا أشرنا إلى شرحين لرسالة رومية للقديس أوغسطينوس: الأول نشره أوغسطينوس عام ٣٩٤م، وهو شرح مقتطفات، ثم عاد بعد ذلك وقال في مقدمة الشرح الكامل: إنَّ الشرح الجديد الذي صدر عام ٣٩٧م هو الشرح الأوفى والأصح والسبب في ذلك إنه تراجع تماماً عن كل ما قاله حول موضوع حرية الإرادة خوفاً من الوقوع في بدعة "المصلين" أو *Messilian* وهي بدعة ظهرت أولاً في العراق، ثم امتدت في الأوساط الرهبانية، ولم تتورع عن استخدام كل ما يمكن استخدامه من كتابات الآباء مثل العظات الروحية للقديس مكاريوس الكبير، وغيرها لتأكيد عدم فاعلية الأسرار مثل المعمودية، وإنَّ الفاعلية الأكبر هل للصلاة ولعمل الروح القدس المباشر في النفس من خلال الصلاة والنسك. وهكذا غيَّر القديس أوغسطينوس رأيه لكي لا يُتهم بذات البدعة. كما غيَّر تماماً رأيه الخاص بحرية الإرادة، وهو موضوع هام ولكنه لا يخصنا هنا.

---

(1) Monologion, ed by Schmitt, p I.8.9

١ـ ماذا يقول أوغسطينوس عن البر أو العدل؟

أولاً:

[العدل الإلهي أو البر الإلهي ليس هو عدل اللّه الخاص بجوهره الإلهي، إنما هو عدل اللّه الذي يبرر الخطاة]

(المقطع الأساسي هو مقالة الروح والحرف فصل ١١: فقرة ١٨).

ثانياً:

[كان تبرير اللّه خفياً غير ظاهر في العهد القديم، ولكنه أُعلِن في العهد الجديد في يسوع المسيح، وهو البر الذي يعطيه اللّه في يسوع المسيح لكي يجعل الخاطئ باراً].

وقد شرح هذا بكفاية في كتاب الثالوث (الكتاب الثالث عشر).

وكما لاحظ الأب الكاثوليكي *J. Riviere* في دراسته المفصلة عن عقيدة الفداء عند القديس أوغسطينوس **إنَّ بر الله هو المسيح نفسه**، وإنه حتى نهاية حياة أوغسطينوس لم يكن اللاهوت الغربي قد قسَّم، وفصل بين **شخص المسيح ـ وعمل المسيح** [1] *The Person of Christ and the Work of Christ.*

ثالثاً: ولذلك السبب ـ أي عدم الفصل بين شخص المسيح وعمل المسيح ـ تأتي عبارة أوغسطينوس المشهورة:

"إنَّ تبرير الخطاة هو إعلان إلهي عن محبته للبشر"

(عظة ١٥٢ - فقرة ٩ - عظة ١٦٣ فقرة ١).

رابعاً: لم يحصر القديس أوغسطينوس التبرير في موت المسيح على الصليب فقط، إذ قال في وضوح كامل:

"إنَّ الروح القدس يبرر الخطاة؛ لأنه هو الذي يقود الذين آمنوا للتشبه بالمسيح" (رسالة ٩٨ : ٢).

وهو هنا مثل كل آباء الكنيسة الشرقية يؤكد أن الميلاد الجديد هو عمل الروح القدس في النفس التي تؤمن بالمسيح (المرجع السابق)، وهو عمل الآب والابن والروح القدس.

---

(1) Le Dogme de la Redemption Chez St. Augustin, 3rd ed. Paris 1933, pp37tt.

٢ـ المحبة الإلهية والتبرير في لاهوت القديس أوغسطينوس

لم نعثر على دراسة عربية جيدة عن "المحبة الإلهية" رغم أهمية الموضوع باعتبار أنَّ المسيحية تقول على لسان القديس يوحنا "الله محبة"، ولذلك السبب نفسه أي غياب هذا الموضوع ثار جدل لاهوتي في الغرب في القرن السادس عشر، ثم عندنا عن موضوع العدل الإلهي، وكأن العدل الإلهي لا يعرف المحبة ولا توجد بينه وبين المحبة أي علاقة.

كان القديس أوغسطينوس هو أول مَن لمح أن اسم الروح القدس الأزلي قبل خلق العالم هو "العطية"، ولذلك يقول في الكتاب الخامس والفصل الخامس عشر من كتاب الثالوث:

> [يُدعى الروح القدس العطية بسبب الحقيقة أنَّ اللّه كان يدبر أنْ يعطيه قبل أنْ يُعطَى فعلاً. وإذا قيل إنَّ الروح منذ الأزل هو العطية، فهذا لا يجب أنْ يؤخذ كدليل على عدم أزليته، وإنما لأن الزمان يخضع للأزلية. وما يعطى في الزمان ليس جديداً ولا دخيلاً على جوهر اللّه]

وقد استخدم أوغسطينوس التراث الغربي اللاهوتي الذي دوَّنه القديس هيلاريون أُسقف بواتييه، واقتبس شرح أسماء الأقانيم من كتاب الثالوث (الكتاب الثاني والفصل الأول الآباء اللاتين مجلد ١٠ عامود ٥١) حيث يذكر القديس أوغسطينوس ما يلي:

> [الأبدية هي في الآب، وصورتها هي في الصورة، أي الابن، وعملها هو في العطية أي الروح القدس]
>
> (كتاب الثالوث - الكتاب ٦ فصل ١٠ الترجمة الإنجليزية - الجامعة الكاثوليكية ص ٢١٢).

ومن هذا التقليد الآبائي شرح أوغسطينوس حقيقة كيان أُقنوم الروح القدس باعتباره أُقنوم المحبة الإلهية. ويذكر هذا في الكتاب الخامس عشر من كتاب الثالوث والفصل السابع عشر وما بعده:

[حسب الأسفار .. اللّه محبة (١ يوحنا ٤ : ١٦) .. والمحبة هي جوهر اللّه .. ويُدعى الروح القدس المحبة إذا فحصنا بدقة عبارة يوحنا الرسول: يا أحبائي لِنُحب كل مِنَّا الآخر؛ لأن اللّه محبة. وأضاف بعد ذلك: ومَن يحب فقد وُلِدَ من اللّه ويعرف اللّه، ومن لا يحب لم يعرف اللّه؛ لأن اللّه محبة. وبعد ذلك يعيد (يكرر) الرسول نفس العبارة السابقة اللّه محبة، ومَن يثبت في المحبة يثبت في اللّه (حسب الأصل اللاتيني للقديس أوغسطينوس مَن يمكث *Abides*)، وبعد ذلك أضاف الرسول: بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وإنه هو فينا لأنه أعطانا من روحه. وعندما يعطينا اللّه الروح القدس الذي ينبثق من عند الآب نار المحبة الإلهية، فإن قلب الإنسان يشتعل بالمحبة الإلهية من نحو اللّه ونحو قريبه .. ولذلك يقول الرسول: إنَّ محبة اللّه قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطي لنا (رو ٥ : ٥)]

(المرجع السابق صفحات ٤٩١- ٤٩٦).

هكذا يكتب أوغسطينوس مؤكداً أن الإيمان بدون محبة هو بلا قيمة لدى الله (الثالوث كتاب ١٥ فصل ٣١) وقد سبق وأشرنا إلى هذه النقطة بالذات.

٣ـ موت المسيح على الصليب والعدل الإلهي

تعرض القديس أوغسطينوس لنفس الأسئلة التي أثارها لوثر وغيره منذ القرن السادس عشر ولا تزال تثار عندنا .. وأجاب على كل هذه الأسئلة في الكتاب الثالث عشر من كتاب الثالوث ابتداءً من الفصل العاشر:

[والذين يسألون: هل لا توجد طريقة أُخرى لدى اللّه لكي يحرر الإنسانية من شقاء الموت إلاَّ أنْ يرسل ابنه الوحيد الذي هو اللّه والأبدي مع الآب، لكي يتجسد ويلبس نفساً إنسانية وجسداً، ويصبح مائتاً ويتألم بالموت؟ لا يكفي أنْ نفند رأي هؤلاء، بل يجب أنْ نؤكد أنَّ هذه هي طريقة اللّه التي

اختارها ودبَّرها لكي يخلصنا بواسطة الوسيط بين اللّه والبشر الإنسان يسوع المسيح؛ لأن هذا التدبير صالحٌ ولائقٌ بالكرامة الإلهية، ويمكن أنْ نوضِّح أنَّ الطرق الأُخرى كانت ممكنة لدى اللّه ولم يكن اللّه غير قادر على أنْ يختارها؛ لأن كل الأشياء خاضعة تماماً لقوته، ولكن ما فعله معنا هو أكثر لياقة لكي يخلصنا ويشفينا من شقائنا.

حقاً لم يوجد ما هو ضروري ومناسب جداً لكي يرفع رجاء البشر ويحرر عقول المائتين الذين يعرفون سقوطهم من الموت نفسه والذين بلا رجاء في الخلود، إلاَّ بأنْ يعلن اللّه كيف يُقدِّرنا نحن البشر، وكم هو فائق محبته لنا. ولا يوجد ما هو مُعلَنٌ ومجيدٌ يفوق ما أعلنه اللّه كبرهان على محبته سوى ما أعلنه ابن اللّه الذي لا يتغير صلاحه، والذي ظل كما هو منذ الأزل، ولكنه عندما تجسد أخذ ما ليس له (من طبعه) وما هو من طبعنا نحن البشر ولأجلنا دون أن يفقد ماله منذ الأزل، بل جعله (الناسوت) وسيلةً يؤسس بها شركته مع طبيعتنا، وأنْ يحمل شرورنا دون أنْ يصبح هو شريراً. وبصلاحٍ لا يستحقه أحدٌ من الناس يعطي لنا نحن الذين نؤمن به عطاياه لكي يعلن لنا كم يحبنا اللّه .. لأن ما نصفه باستحقاقنا هو عطاياه هو" (الثالوث كتاب ١٣ : فصل ١٠).

هذا النص هامٌ جداً؛ لأنه يعلن صلاح الله وتدبيره، وهو التعليم الجامع للكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً. وبعد ذلك يكتب أوغسطينوس في نفس الفصل:

[ولكي يعمل الإيمان بالمحبة (غلا ٥ : ٦) سُكِبَت محبة اللّه في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطي لنا (رو ٥ : ٥)؛ لأنه أُعطى في الزمان الذي تمجَّد فيه يسوع بقيامته، لأنه في هذا الزمان وَعَدَ بأن يرسل الروح القدس، وأرسله فعلاً .. وأعطانا مواهبه، وهي استحقاقاتنا التي بها ننال الخير الأعظم وهو الخلود المبارك][1].

---

(1) إذا كانت مواهب الروح القدس هي الاستحقاقات التي ننالها من الله، سقط تماماً تعريف الاستحقاق كمكافأة، أو شئ نناله على أعمال صالحة، بل هو إنعام إلهي.

وهكذا أيضاً يظل هذا هو نفس صوت تعليم آباء الكنيسة الجامعة.

ويصل أوغسطينوس إلى إجابات عن أسئلةٍ طُرِحت في زمانه ولا تزال تُطرح، وسوف تبقى دائماً في فكر البشر طالما أنه يوجد قانون وعدل وقضاء في هذه الدنيا. ولكن يجب أنْ نميز على الفور بين شرح أوغسطينوس، وبين ما تطور بعد ذلك في العصر الوسيط. وهنا يجب أنْ يقرأ القارئ هذا النص بدقةٍ وبطءٍ؛ لأن المدخل الأصلي هو محبة وصلاح الله، ولكنه بعد ذلك يضع هذا الصلاح في مواجهة أسئلةٍ هامة.

[ولكن اللّه بين لنا محبته كما يقول الرسول: لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، فبالأولى كثيراً ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب. ويكمل الرسول لأنه وإنْ كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع اللّه بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته] (رو ٥ : ٨- ١٠).

مَن هم هؤلاء الذين وُصِفوا بأنهم خطاة، وهم الذين وُصِفوا بعد ذلك بأنهم أعداء اللّه؟ هم أولئك الذين تبرروا بدم يسوع المسيح، وهم أنفسهم الذين صُولِحوا بموت ابن اللّه، وهم أيضاً الذين قال عنهم الرسول إنهم أولاً خلِصوا من الغضب بواسطته (يسوع المسيح)، وبعد ذلك قال إنهم خلِصوا بحياته. هكذا قبل هذه النعمة لم نكن مجرد خطاة من نوع معينٍ، بل كنا خطاة، وبشكلٍ خاص أعداء اللّه.

وقبل ذلك أشار إلينا نفس الرسول في أكثر من موضع في رسالته بأننا نحن خطاة وأعداء اللّه، واستخدم في ذلك اسمين مختلفين، الأول هينٌ، والثاني ثقيل (حاد) عندما قال: إذ كنا بعد ضعفاء مات المسيح في الوقت المعين لأجل الفجار" (رو ٥ : ٦) وهكذا الضعفاء (الاسم الهين) هم أنفسهم الذين دُعوا الفجار (الاسم الثقيل). فالضعف يبدو شيئاً هيناً، ولكن أحياناً يتحول إلى فجور. ولو كان الضعف وحده هو المشكلة فإننا لم نكن بحاجة إلى طبيب وهو يدعى في العبرانية "يشوع" وفي اليونانية مخلص *Soter*

وفي لغتنا اللاتينية *Salvator* وهي كلمة لم تكن معروفة في اللاتينية من قبل. "(المرجع السابق فصل ١٠).

٤- الأسئلة اللاهوتية التي أجاب عليها القديس أوغسطينوس

يقول أوغسطينوس:

[ما معنى أننا تبررنا بدمه؟ وأنا أسأل: ما هي القوة التي في هذا الدم التي تبرر المؤمنين؟
ما معنى أننا صُولحنا بموت ابنه؟ ربما عندما كان الله الآب غاضباً علينا، ورأى موت ابنه لأجلنا فرضى *appeased* عنا. أو هل رضى عنا ابنه لدرجة أنه قَبِلَ أنْ يموت لأجلنا. ولكن هل كان الآب غاضباً علينا لدرجة أنه لولا موت ابنه لأجلنا ما كان قد رضى عنا؟ وما هو معنى كلمات رسول الأُمم الذي يقول في موضع آخر «ماذا نقول عن هذه [1]إذا كان الله معنا، فمن علينا (ضدنا)؛ لأنه لم يمسك ابنه *He has not spared his own son*، بل بذله لأجلنا جميعاً، كيف لا يعطينا أيضاً معه كل شيء»
(رو ٨ : ٣١- ٣٢)].

هكذا سأل القديس أوغسطينوس الأسئلة ذاتها التي تحيِّر عقول القراء المعاصرين. ولكن قبل أنْ نجيب على هذه الأسئلة من كتاب الثالوث نفسه يلزمنا أنْ نصحح الترجمة العربية البيروتية التي صدرت لتخدم فكر الإرساليات الإنجيلية "الذي لم يشفق على ابنه" (رو ٨ : ٣٢) فهل الآب بلا شفقة؟ وهذا رأي فظيع لأن الآب الذي بلا شفقة هو نفسه الذي أرسل ابنه معلناً محبته للعالم. فكيف يحب الله العالم ولا يشفق على ابنه. والمشكلة هنا في الكلمة العربية التي لا وجود لها في الأصل اليوناني بالمرة، وقبل مراجعة الأصل اليوناني، يجب أنْ

[1] على الرغم من النقد الصحيح لترجمة القديس أوغسطينوس اللاتينية لرسالة رومية إلا انه كان دقيقاً في أكثر النصوص. وهنا بشكل خاص يجب تصحيح الترجمة العربية البيروتية لأن الرسول بعد أن تحدث عن شرح مجد المؤمنين ببر ومجد وصورة الابن سأل السؤال الهام فماذا نقول عن هذه أي العطايا السابقة؟

نراجع الترجمة القبطية القديمة. ماذا يقول النص القبطي؟ [١]

"Ⲫⲏ̅ ⲉ̅ⲧⲉⲙⲡⲉϥϯⲁ̅ⲥⲟ ⲉ̅ⲡⲉϥϣ̅ⲏ̅ⲣⲓ ⲙ̀ⲙⲓⲛ ⲙ̀ⲙⲟϥ"

ص ٥٦.في المرجع المشار إليه في الهامش

."He who spared not his own Son "

الترجمة الإنجليزية ص ٥٧ في نفس المرجع

وكان العلامة أوريجينوس هو أول مَن لمح أنَّ الفعل اليوناني[٢] εφεισατο هو نفسه الفعل الوارد في الترجمة السبعينية في (تك ٢٢ : ١٢، ١٦) «لم تمسك ابنك وحيدك». وقد سجل الأب متى المسكين نفس الملاحظة في شرحه للرسالة إلى رومية (ص ٤١٢)، ولكن ـ حتى لا يتعب فكر القارئ ـ أبقى الأب متى على الكلمتين (يشفق ـ يمسك) معاً .. مع أن حذف الكلمة (يشفق) هو واجب وضروري جداً في ضوء الترجمة القبطية القديمة، وفي ضوء شرح الآباء بما فيهم أوغسطينوس نفسه. ولم يكن العلامة أوريجينوس وحده هو الذي شرح هذا الفعل الهام، بل سبقه في ذلك القديس إيريناوس عندما أشار إلى أنَّ ذبح اسحق كان رمزاً *Type* إلى موت المسيح على الصليب (راجع ضد الهرطقات ٤ : ٥ : ٤). وهكذا يجب أنْ نرى في المقارنة بين ذبح اسحق وتقديم إبراهيم ابنه الوحيد رمزاً حمله إلينا الرسول بولس واستمر في التقليد الآبائي مؤكداً جود وصلاح الله، وليس غضبه ونقمته؛ لأنه من الصعب علينا أنْ نتصور أنَّ إبراهيم قدَّم ابنه بعدم شفقة وبنقمةٍ وغضبٍ، ليس فقط لأن سفر التكوين لم يذكر هذه المشاعر السيئة والشريرة، بل لأن الله نفسه قال لإبراهيم: «بذاتي أقسمت يقول الرب إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك وحيدك أُباركك مباركةً .. الخ» (تك ٢٢ : ١٦-١٧).

---

(١) اعتمدنا على الطبعة التي صدرت عن جامعة اوكسفورد:
The Coptic Version of the New Testament 1905. Ed by G. Herner.
وبالرجوع إلى قاموس اللغة القبطية للمرحوم أقلاديوس لبيب صـ ٥٤ كلمة: "ϣⲁⲥⲟ" تعني: شفق - حنى - أحسن الالتفات - وفر - اقتصد.ومن الجدير بالذكر أن الترجمة العربية الجديدة، والتي أصدرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط - الطبعة الأولى ١٩٩٣م قد ترجمت نص تك٢٢ : ١٢ "الآن عرفت أنك تخاف الله، فما بخلت عليَّ بابنك وحيدك". وترجمت نص رومية ٨ : ٣٢ "الله الذي ما بخل بابنه، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا".

متي تصدر طبعة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من دار نشر أُرثوذكسية؟ الله يرحم الكنيسة التي لا تملك نصها الإلهي بلغتها.

(٢) راجع العظة ٨ على سفر التكوين مجلد ١٢ عامود ٢٠٨ من مجموعة Migne.

هكذا وصف سفر التكوين، أو بالحري قال الروح القدس عن إبراهيم: «الآن علمت أنك خائفٌ الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني» (تك ٢٢ : ١٢)، وبذلك حذف السفر تماماً كل ما قيل عن هذا في العصر الوسيط عن عدم شفقة الآب على ابنه الوحيد. وحتى يظهر لنا بُعد الشُقة بين التسليم الآبائي وبين شراح العصر الوسيط، نضع تحت نظر القارئ شرح نص رو ٨ : ٣٢ لكل من القديس يوحنا فم الذهب كنموذج لشرح الآباء، ويوحنا كالفن كنموذج لشرح العصر الوسيط:

أـ شرح القديس يوحنا ذهبي الفم لنص رو ٨ : ٣٢

[ما أشد وقع الكلمات التي يستخدمها (الرسول) لأنها مفعمة بدفء يعلن محبته (الله). كيف يمكن أنْ يهملنا نحن الذين لأجلنا (لم يُمسك ابنه الوحيد، بل بذله لأجلنا) نحن الذين لا نستحق؛ لأننا مجدفين وأعداء وغير مكترثين. (كيف لا يهبنا معه مجاناً كل الأشياء). ماذا يقصد (الرسول)؟ هو ما يلي: إذا كان قد بذل ابنه الوحيد، ولم يبذله فقط، بل بذله للموت، فكيف نشُك بعد ذلك في (المواعيد) إذا كان قد وهبنا السيد نفسه؟ كيف تشُك في امتلاك القطيع من الماشية إذا كنت تملك السيد والرب نفسه؟ لأن الذي أعطى الأشياء العظمى لأعدائه، كيف لا يهب ما هو أقل لأصدقائه]

(عظة ١٥ على رو ٨ ص ٤٥٤ مجلد ١١ من الترجمة الإنجليزية).

وتظهر "النقلة" بعد ذلك في شرح يوحنا كالفن لنفس النص. وهنا نرى كيف دخلت عبارة (الثمن الغالي الذي دفعه الآب) لأن فكرة الثمن هي جزء هام من لاهوت العصر الوسيط.بينما لا يذكر سفر التكوين ولا رسالة رومية كلمة "الثمن" بالمرة ..

ب ـ شرح كالفن

*«(لم يمسك ابنه الوحيد). من الضروري لنا كضرورة قصوى أنْ نتمسك بالمحبة الأبوية لله، لكي نمجدها دون خوف، ولذلك يذكر الرسول **ثمن مصالحتنا** لكي يؤكد لنا إحسان الله معنا. هذا برهان*

باهر ولامع جداً يؤكد لنا ثبات محبة الآب الذي لم يتردد في أنْ يقدِّم ابنه من أجل خلاصنا. وهكذا يصوغ بولس برهانه على محبة الله من الأعظم لكي يصل إلى الأقل؛ لأن الله لم يكن عنده أعز وأغلى ويفوق ابنه، ولذلك لن يترك أي شيء يراه نافعاً لنا» [1].

والفرق بين ذهبي الفم ويوحنا كالفن واضح لا يحتاج إلى مقارنة .. ومع ذلك يجب أنْ نقول إنَّ كالفن أفضل بكثير مما يقوله بعض الكتاب المعاصرين من الأقباط الذين ينكرون محبة الآب لابنه المصلوب بإرادة الآب، ويصورون الآب في صورة الانتقام السادي الذي يشعل النار في ابنه أو يشويه على الصليب بنار الروح القدس، وعندما ترتفع رائحة الشواء يهدأ غضب الآب.

ولكن بعض هؤلاء الكتاب يتفقون مع يوحنا كالفن الذي يقول في نفس شرح رسالة رومية:

«الله يكره الخطية، ويكرهنا نحن أيضاً؛ لأننا خطاة»

(المرجع السابق ص ١١٠).

والجزء الأول من العبارة سهلٌ، ونجده عند الآباء، فالله يكره الخطية. ولكن الجزء الثاني من العبارة هو جزء هام من "النقلة" التي جاءت مع العصر الوسيط ودخلت لاهوت عصر الإصلاح أي إنَّ الله يكره الخطاة .. هذا هو الجديد في الفكر المسيحي الغربي، وهو أمر لا نجده بنفس الصورة عند القديس أوغسطينوس أب العصر الوسيط ومعلم لوثر وكالفن. وهكذا صارت كراهية الخطاة ـ وهو مبدأ غير مسيحي ـ إحدى سمات الفكر الغربي.

٥ـ عودة إلى شرح القديس أوغسطينوس لموت المسيح

يجيب أوغسطينوس على الأسئلة السابقة، ويشرح موت المسيح على هذا النحو:

[إذا لم يكن قد تم إرضاء الآب، فهل كان سيبذل ابنه الوحيد ولا يمسكه؟ ألا يبدو هذا الشرح متعارضاً مع ما

---

[1] Calvin's Commentaries, The Epistles of Paul the Apostle to the Romans. 1972 p:183 - 184.

> ذكرناه؟ لأن الابن مات لأجلنا وتصالح الآب معنا بموته، ولكن في هذا العمل أحبنا الآب أولاً، ولذلك لم يمسك ابنه ولأجلنا بذله للموت. ولكنني أرى أنَّ الآب أحبنا أيضاً قبل موت ابنه لأجلنا، بل قبل خلق العالم كما يشهد الرسول نفسه بقوله "لأنه اختارنا فيه قبل تأسيس (خلق) العالم (أفسس ١ : ٤) كما إنَّ الابن لم يُبذَل لأجلنا ضد إرادته عندما بذله الآب، لأنه مكتوب عنه « الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي » (غل ٢ : ٢٠) هكذا يعمل الآب والابن والروح القدس معاً في كل الأُمور بالتساوي وبالتوافق *Harmoniously* رغم أننا تبررنا بدم المسيح، وتصالحنا مع اللّه بموت ابنه] (المرجع السابق فصل ١١ ص ٣٩٠ - ٣٩١).

وهكذا نرى أنه حتى هذه المرحلة لم يُقسِّم أوغسطينوس الثالوث الواحد إلى إلهٍ غاضبٍ وإلهٍ يسترضي، إلهٍ ينتقم وإلهٍ يقدم الترضية، بل ظل في دائرة أزلية المحبة (صفة جوهر الثالوث الواحد غير المنقسم)، وبالطبع فإن هذا كله يختلف تماماً عن فكر الشيع البروتستانتية التي لا تهتم بأزلية المحبة الإلهية التي دبرت خلاص الإنسان.

وبعد أنْ يشرح الخطية الأصلية في الفصل الثاني عشر في الكتاب الثالث عشر من كتاب الثالوث يؤكد أوغسطينوس بخصوص سيادة الشيطان على الجنس البشري إنه:

> [لا يجب أنْ نفهم إنَّ اللّه أمر بهذه السيادة، بل سمح بها لأنه عندما تخلى عن الخطاة، دخلهم خالق الخطية]
>
> (المرجع السابق ١٢ ص ٣٩٢).

ومع هذا يتمسك أوغسطينوس بالمبدأ الرسولي الذي نراه في عبارة القداس الإلهي **"لم تتركنا عنك إلى الانقضاء"** أي إلى النهاية، ويقول:

> [ولم يترك اللّه خليقته تماماً، بل أعلن نفسه كخالق يخلق ويحيي كل الكائنات في وسط الشرور التي تصيب الإنسان بسبب عقوبته، ويعطي خيرات حتى للشرير؛ لأنه لا

يغلق رحمته في غضبه (مزمور ٧٦ : ١٠)]

(المرجع السابق ص ٣٩٢).

٦- أوغسطينوس مؤسس الفكر السياسي المسيحي الغربي

لم يكن كتاب **"مدينة الله"** كتاباً دينياً بحتاً، بل بحثاً جديداً ضم الكثير من المبادئ السياسية الهامة التي كوَّنت الفكر السياسي المسيحي الغربي. ويضيق بنا المجال هنا لطرح أهم المبادئ السياسية، ولكن نكتفي هنا بإلقاء نظرة مختصرة على التفسير السياسي لمبدأ العدل الإلهي حسب الفكر السياسي الأوغسطيني والذي لخصه هو في كتاب الثالوث. يناقش أوغسطينوس كيف تم الفداء، ويقول في الفصل الثالث عشر من الكتاب الثالث عشر في كتاب الثالوث:

> [ولكن الشيطان كان يجب أنْ يُهزَم، ليس بقوة الله ولكن بعدل الله. مَن هو أقوى من القادر على كل شيء (ضابط الكل)؟ وما هي قوة أي مخلوق حتى يمكن مقارنتها بقوة الخالق؟] (المرجع السابق ص ٣٩٣).

ويمضي أوغسطينوس انطلاقاً من فكرة سوء استخدام الشيطان لقوته ومحبته للقوة بالشكل الذي ألزم الله أنْ يغلبه، ليس بقوةٍ أكبر أو قوةٍ مماثلة، بل بالعدل .. ولكن ما هو العدل حسب فكر أوغسطينوس؟ يشرح إجابة هذا السؤال في الفصل الرابع عشر من الكتاب الثالث عشر مؤكداً ثلاثة أُمور تكوِّن العدل الإلهي حسب فكره:

١- لم يكن المسيح مستحقاً للموت؛ لأنه لم يخطئ ومع ذلك تآمر الشيطان على ذبحه، وذُبِحَ على الصليب.

٢- صار الشيطان مديناً لله؛ لأنه اعتدى على ابنه الوحيد مثلما كان البشر مدينين لله بسبب خطاياهم.

٣- "هكذا تبررنا بدم المسيح؛ لأنه دم البريء الذي سُفِك من أجل غفران الخطايا، ولذلك قيل في المزمور إنه كان حُراً بين الأموات (راجع مزمور ٨٧ : ٢٦) هكذا

غُلب الشيطان بأكثر الوسائل عدلاً".

واستغرق شرح هذه الفكرة الفصل الرابع عشر والخامس عشر، وتوقف أوغسطينوس عند فكرة دفع الثمن للشيطان في الفصل الخامس عشر:

> **"بهذا الفداء بدم المسيح حدث ما يمكن أن يقال عنه إنَّ ثمناً دُفِعَ لأجلنا، ولكن الشيطان عندما استلم هذا الثمن لم يصبح به غنياً، بل رُبِطَ لكي نُحَل نحن من سلاسله"**
>
> (الكتاب ١٣ فصل ١٥ ص ٣٩٧-٣٩٨).

كانت هذه هي أول إشارة في اللاهوت الغربي إلى ثمنٍ يُدفَع للشيطان. مع الأخذ في الاعتبار أن العلامة أوريجينوس كان قد سبق أوغسطينوس، وفسر موت المسيح بنفس الصورة، وهو ما دفع القديس غريغوريوس النزينزي إلى التنديد بهذه الفكرة في عنفٍ شديد. الأمر الذي أدى إلى فَتح باب تغيير التفسير فيما بعد على يد أنسلم، إلاَّ أن هذا التغيير لم يأت بجديد؛ لأن أنسلم كان أول مَن تجاسر في الغرب على تحدي فكرة دفع الثمن للشيطان، ولكنه كان أول مَن قال بأن الترضية دُفِعَت للآب، وهو ما يعني أن الآب هنا حل محل الشيطان كمستلم للثمن المدفوع.

ولذلك فإنَّ ما يجب أنْ نراه هنا هو الفكرة السياسية التي وإنْ كانت قد أخذت شكلاً إنجيلياً إلاَّ أنها لا يمكن أنْ تختفي تحت ستار الإنجيل؛ لأنها تترك المحبة كأساس لكل تعليم مسيحي، وترتمي في أحضان العدل كما حدده القانون الروماني.

فلماذا يحتاج الله إلى اعتداء الشيطان على ابنه لكي يحرر البشر. إنها ذات الفكرة السياسية في القانون الروماني الذي لا يُقدِّم أحداً إلى القضاء إلاَّ بعد الاعتداء على القانون. هكذا اختفت مبادئ النعمة المجانية، واختفى ما ذكره أوغسطينوس نفسه عن المحبة وعن التبرير بالروح القدس .. وطبعاً لا نعرف ما الذي دفع مفكر كبير مثل أوغسطينوس لكي يقدم هذا الشرح السياسي، إلاَّ إذا كان هناك نقدٌ شاع في

أيامه في أوساط المثقفين لفكرة قوة الله في مواجهة الشيطان .. وضرورة أنْ يتم الأمر حسب العدل، أي عدل القانون الروماني السائد في أيامه.

ولكن ومن باب الإنصاف نقول إنَّ هذا الشرح لم يكن هو الشرح الوحيد الذي قدمه أوغسطينوس، فقد ذكر في الفصل التاسع في الكتاب الثالث عشر من كتاب الثالوث إنَّ تجسد ابن الله هو أساس الخلاص .. وقال ما يمكن أنْ نعتبره صدىً لعبارة كنيستنا الأُرثوذكسية **"أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له"**. هكذا يكتب أوغسطينوس عن تجسد ابن الله:

> [إذا كان ابن الله بالطبيعة قد صار ابن الإنسان بسبب محبته لبني البشر، وهذا هو معنى (الكلمة صار جسداً)، وحل بيننا نحن البشر، فكم هو مدهش حقاً وفائقٌ أنَّ بني البشر الذين هم بالطبيعة مائتون يصبحون أبناء الله بالنعمة، ويثبتون في الله الذي هو وحده ومنه وحده ينال المباركون من المؤمنين شركة في خلوده، لأن ابن الله اشترك في طبعنا المائت لكي نشترك نحن في عدم موته]
> (المرجع السابق ص ٣٨٧).

وهكذا لا يمكن أنْ نتهم أوغسطينوس بالتقصير في تقديم المبادئ الإنجيلية، ولكن ما أسهل أنْ تأتي أجيالٌ لكي تأخذ عبارة من هنا ومن هناك لتصوغ نظرية لا تشرح الإيمان بأسلوب ومرجعية الإنجيل، بل بأسلوب ومرجعية الحضارة السائدة وبالفكر السياسي السائد في الحضارة، وهذا هو ما حدث في العصر الوسيط.

ثانياً : "التبرير" حسب تسليم الآباء، ووفقاً لمبادئ اللاهوت الأرثوذكسي

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم للنصوص الخاصة بالتبرير في رسالة رومية، مع ملاحظات على النص لبعض آباء الكنيسة الجامعة

اعتمدنا على تفسير القديس يوحنا ذهبي الفم أكثر من غيره لأن شرح القديس كيرلس السكندري ـ مثل كل مؤلفات القديس كيرلس ـ ليس متوفراً لدى القراء، وهكذا نعرض هنا بشكل رئيسي لشرح ذهبي الفم، مع الإشارة ـ كلما كانت لها ضرورة ـ لبعض الملاحظات لآباء الكنيسة الجامعة، وذلك على التوالي في الإصحاحات الأوَّل والثالث والرابع والخامس والسادس، وهي الإصحاحات التي تعرض فيها القديس بولس لموضوع التبرير، والتي اشتملت على النصوص الكبرى عن التبرير في الرسالة. كما إنه لن يفوتنا أنْ نشير إلى الأُصول اليونانية والقبطية لبعض النصوص، الأمر الذي لا حد لأهميته في هذا المجال.

وبدايةً نرى أنه من الجدير بالذكر أنْ نشير إلى أنَّ الفعل "يبرر" ورد حسب النص اليوناني للعهد الجديد ١٤ مرة، كما وردت الصفة ٧ مرات، وورد "البر" كمصدر ٣٤ مرة.

١- الإصحاح الأول:

{ أولاً } "بر الله" رو ١ : ١٧

"إنجيل المسيح .. قوة الله للخلاص لكل مَن يؤمن .. لأنه فيه مُعلن بر الله بإيمان".

[إنَّ بر اللّه هو جوهر البشارة....والبشارة هي قوة اللّه للخلاص]

التعليق السابق أخذناه من شرح العلامة أوريجينوس، حيث يقول:

[أُعلِن بر اللّه في الإنجيل؛ لأن الإنجيل لا يستثني أحداً من الخلاص سواء كان يهودياً أم أُممياً .. لأن المخلص يقول «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وأنا أُريحكم» (متى ١١ : ٨)، وهو مُعلنٌ بإيمان لإيمان؛ لأن الذين قبلوا شريعة موسى آمنوا باللّه وبعبده موسى، ومن هذا الإيمان أصبح عليهم أنْ ينتقلوا إلى الإيمان بالإنجيل]

(مجموعة مؤلفات العلاَّمة أوريجينوس طبعة جامعة برلين - مجلد ١ : ١٣٢، ١٣٤).

ماذا يقول القديس يوحنا ذهبي الفم عن بر الله؟

[مَن صار باراً سيحيا ليس فقط في الحياة الحاضرة، بل في الحياة الآتية أيضاً، هذا ما يشير إليه الرسول، أي مجد ولمعان الحياة الآتية .. وكما إنَّ كثيرين ينالون العفو الملكي من ملوك الأرض وتُرفع عنهم العقوبة، ولكي لا يظن أحد أننا ننال مجرد سلام وطمأنينة فقط، بل يضيف الرسول "بر اللّه"، ليس برنا نحن، بل البر الفياض والمحيي .. الذي يبرر فجأة المخنث والزاني والساحر وسارق القبور، فلا ينال هؤلاء العفو من العقوبة فقط، بل يصبح هؤلاء أبراراً، بل في أعلى درجات البر]

(عظة ٢ على رو ١ : ١٧ ص ٣٤٩).

[لاحظوا، لقد جاء المسيح ومعه جاءت المغفرة، البر، الحياة. ليس بأي وسيلة أُخرى سوى الصليب العظيم والعجيب؛ لأنه لم يعطِ هذه العطايا فقط، بل تألم لكي يعطينا إياها]
(عظة ٢ على رو ١ : ١٨ ص ٣٥١).

{ ثانياً } "لأن غضب الله مُعلنٌ من السماء" رو ١ : ١٨

[يُعلَن هذا الغضب حقاً في المجاعات والأوبئة والحروب؛ لأن كل إنسان ينال عقوبته كفرد أو الجماعة كلها. فما هو الجديد هنا؟ ستكون التأديبات أكبر وستقع على الجميع وليس لمجرد التأديب، بل للإصلاح في هذا الزمان. أمَّا في يوم الدينونة فهي انتقام. هذا ما يعلنه الرسول حينما يقول نؤدَّب الآن لكي لا ندان مع العالم (١ كو ١١ : ٣٢)]
(عظة ٣ على رو ١ : ١٨ ص ٣٥١).

{ ثالثاً } رو ١ : ٣٢

"الذين إذ عرفوا حكم الله" (δικαιωμα) من الفعل يحكم، أو يقضي، وهو نفس الفعل الذي ترجم إلى يبرر δικαιοω "حكم"، وردت ٥ مرات في العهد الجديد: ثلاث مرات لأحكام الشريعة لوقا ١ : ٦ ـ عب ٩ : ١، ١٠. وفي رؤيا ١٥ : ٤ "الأعمال العادلة". استخدمها القديس يوحنا ذهبي الفم بمعنى "دينونة الله" (عظة ٥ على رو ١ : ٢٨ ص ٣٦٠).

وهكذا يمكن أنْ يقال إنَّ كلمات "حكم"، و"دينونة"، و"قضاء"، هي معاني مترادفة مما يؤكد أنَّ العدل هو المعنى الأصلي لكلمة "بر".

وقد احتفظت الترجمة القبطية بالمعنى العبراني القديم، وهو "حق"

[Ⲛ̄ⲏ ⲉⲧⲥⲱⲟⲩⲛ ⲛ̀ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ]

"الذين عرفوا حق الله".

وكلمتي "حق" و"عدل"، يؤكدان معاً أنَّ عدل الله لا يحتوي فقط الدينونة والقضاء، بل أيضاً التجديد والغفران، وهو ما سبق ورأيناه في شرح يوحنا ذهبي الفم والعلامة أوريجينوس.

٢- الإصحاح الثالث

{ أولاً } هل يتبرر الله ـ رو ٣ : ٤

حسب الترجمة العربية البيروتية: "ليكن الله صادقاً وكل إنسان كاذباً كما هو مكتوب لكي تتبرر في أقوالك" (٣ : ٤). من المستحيل أنْ نتصور إنَّ الله دخل محكمة عدل وخرج منها باراً، لأن الله لم يُحاكم، بل هو القاضي والديان. فكيف يتبرر الله؟ يقول العلامة أوريجينوس:

[إن حق الله سوف يظهر لكي يكون الإنسان باراً لابد وأنْ يحفظ الشريعة، ولما كان هذا مستحيلاً على أي بشر، صار كل إنسانٍ كاذباً، وفي يوم الدينونة عندما يأتي الرب للدينونة لكي يدين بالعدل سيظهر أنَّ كل أقوال الله حق، لأن كلمات الله هي حق"

(مجموعة مؤلفات العلامة أوريجينوس - طبعة جامعة برلين ١ : ٣١٦)، يؤكد ذهبي الفم نفس الشرح] (عظة ٦ على رو ٢ : ١١ ص ٣٧٣).

{ ثانياً } "أمَّا الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس" رو ٣ : ٢١

يضع المترجم القبطي صيغة النفي أولاً، وذلك لكي يؤكد نهاية عمل الناموس:

Ⲫⲛⲟⲩ ⲇⲉ ⲁϭⲛⲉ ⲡⲓⲛⲟⲙⲟⲥ ⲁϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ ⲛⲧⲉ Ⲫϯ
ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ[1]

"بدون الناموس ظهر حق أو عدل الله"

يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم النص بدقة بالغة:

[وضع الرسول نقطتين غاليتين: التبرير ـ الحصول على البركات التي أشار إليها من قبل - بدون الناموس. وهو هنا لا يذكر البر بدون تحديد، بل "بر الله"؛ لأنه بإنعامات الشخص ومكانته أعلن بشكل فائق عظمة النعمة

[1] الكلمة القبطية ⲙⲉⲑⲙⲏⲓ وردت عدة مرات في القداسات، وأسهل مثال " نؤمن أن هذا هو بالحقيقة آمين"

والمواعيد؛ لأن هذا الشخص قادرٌ على كل شيء. وعندما يقول "ظهر"، فهو يقطع كل سبيل على الإدعاء بأن ظهور بر اللّه هو إعلان جديد؛ لأن ما ظهر هو قديم ولكنه كان مخفياً .. ولذلك قال مشهوداً له من الناموس والأنبياء]

(عظة ٧ على رو ٣ : ٩- ١٨ ص ٣٧٧).

ويقول أوغسطينوس:

[بر اللّه بدون الناموس؛ لأن اللّه يعطي هذا البر للمؤمنين بواسطة روح النعمة دون أي معونة من الناموس]

(الروح والحرف ٨ : ٢٠٥).

{ ثالثاً } (رو ٣ : ٢٤) "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح".

حسب النص القبطي "بالفداء الذي في المسيح يسوع"

Φн етϧен Πχ̅c̅ Iн̅c̅

والترجمة القبطية أمينة للنص الأصلي اليوناني، فالفداء "في" المسيح يسوع، وليس "بـ"؛ لأن يسوع هو شخص، وليس وسيلة أو أداة.

مجانية النعمة

إنَّ كلمة **مجاناً** لا تعجب بعض أحبائنا من الإكليروس القبطي المعاصر الذي يريد ثمناً لكل شيء. وإذا لم تكن النعمة مجانية، فماذا تكون؟

إنَّ كلمة "النعمة" كلمة شاملة في العهد الجديد.

فالعذراء القديسة وجدت نعمة عند الله (لو ١ : ٣٠).

والابن ربنا يسوع المسيح "مملوء نعمة وحقاً" (يو ١ : ١٤).

بل أعطانا نعمة فوق نعمة (يو ١ : ١٦).

وهناك نعمة الرسولية (رو ١ : ٥).

وفي الصراع الروحي ضد الحسد والشرور الأُخرى "ننال نعمةً أعظم" لكي تزداد الأشواق للأُمور السمائية (يعقوب ٤ : ٦).

بل توجد نعمة التبرير نفسها (تيطس ٣ : ٧).

وكلما زادت الخطية ازدادت النعمة جداً (رو ٥ : ٢٠).

بل إنَّ عرش الله نفسه هو "عرش النعمة" (عب ٤ : ١٦).

وفي يوم الدينونة نفسه لنا رجاء في نعمةٍ أعظم يعلنها الرب يسوع المسيح لنا، وهي نعمة قبولنا الأبدي (١ بط ١ : ١٣).

فإذا كان هناك ثمن دُفِعَ للآب حسب زعم هؤلاء، وهو زعمٌ لا وجود له في الأسفار المقدسة ولا في كتب الآباء، فإننا نتساءل .. كيف أنشأ ثمنٌ دُفِعَ للآب **نعمةً**؟ طبعاً الجواب عند هؤلاء إنَّ الآب رضي بموت الابن، أو تنسم رائحة شواء الابن على الصليب واستراح، ولذلك حصلنا نحن على النعمة.

* عجيب حقاً وغريب أنْ يقال إنَّ كل هذا دُفِعَ فيه ثمنٌ. هل دفع الابن ثمناً ليكون عرش الثالوث هو عرش النعمة .. ألم يكن عرش النعمة، عرشاً للثالوث حتى دفع الابن ثمناً للآب؟ ... حاشا لله.
* وهل كان الابن بلا نعمة حتى مات على الصليب، فنال هو نفسه نعمة مع أن الإنجيلي يقول **"مملوء نعمةً"** (يوحنا ١ : ١٤).

سوف نناقش الفرق بين النعمة والأجر في (رو ٤ : ١٦)، ولكن الأخطر من كل هذا، وهو غائب تماماً عن وعي هؤلاء وإلاَّ كانوا قد امتنعوا عنه، هو السؤال: ماذا عن نعمة الحياة الأبدية؟ وماذا عن عبارة الرسول القاطعة «تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو ٥ : ٢١) مُلك أبدي للنعمة، فكيف يسوغ لنا أنْ نقول إنَّ المسيح حصل على نعمة من الله الآب وهو المملوء نعمة .. وكيف نملك نحن فيه بالنعمة للحياة الأبدية؟ ومن أين جاءت النعمة؟ من عرش النعمة أم من الآب وحده؟ طبعاً من الثالوث؛ لأن الرسول يقول نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح (رو ١ : ٧ – ١ كو ١ : ٣ وغيرها من الرسائل).

من استقراءنا للنصوص السابقة يتضح لنا حتمية مجانية النعمة، وذلك لأنها:

١ـ تعلن صلاح وجود الله الفائق نحو الإنسانية.

٢ـ تعلن شركة الثالوث الواحد غير المنقسم في خلاص الإنسان.

٣ـ تُعطى دون الالتفات إلى استحقاق البشر؛ لأنها ليست مكافأة.

ولذلك من الخطورة بما كان التعليم بعدم مجانية النعمة.

خطورة التعليم بعدم مجانية النعمة

١ـ إذا كان الثمن الذي دفع للآب هو الذي أسس النعمة، فهي في الأصل ليست مجاناً، وبالتالي لا يمكن أنْ تعطى مجاناً، وهذا هو ذات البدعة البيلاجية التي تنادي بالخلاص بالأعمال الصالحة، والتي كتب ضدها مرقس المتوحد كتابه المشهور **"**ضد الذين يظنون أنهم ينالون الملكوت بالأعمال الصالحة**"** (منشورات النور - بيروت).

٢ـ وأيضاً يقسِّم هذا التعليم مصدر النعمة، ويجعلها نعمة أُقنوم واحد لا يُشرك الأُقنومين الآخرين معه، وهذا هو الطريق المؤدي للأريوسية.

{ رابعاً } رو٣ : ٢١ ـ ٢٦

يشرح ذهبي الفم الفداء في العظة ٨ على (رومية ٣ : ٢١ـ٢٦) كالآتي:

[لنرى البراهين الكثيرة التي يؤيد بها الرسول ما ذكره.

أولاً: من مكانة الشخص؛ لأنه ليس مجرد إنسان استطاع أنْ يقوم بهذا العمل، لأن أي إنسان مهما كان هو ضعيفٌ عاجزٌ عن القيام به، بل قام به اللّٰه الكلي القوة. ولذلك يقول الرسول إنَّ "البر" هو "بر اللّٰه".

ثانياً: من شهادة الشريعة والأنبياء. وعلينا أنْ لا نخاف عندما نسمع بدون الشريعة؛ لأن الشريعة لا تلغي الفداء.

ثالثاً: من ذبائح التدبير القديم - (العهد القديم) لأنه بسبب ما جاء في العهد الجديد، وبسبب الذبائح قال الرسول "في دمه" [1] لكي يذكِّرهم بدم الغنم والعجول؛ لأنه لو كانت هذه الذبائح

---

[1] في دمه مثل الترجمة القبطية ϧⲉⲛ ⲡⲉϥⲥⲛⲟϥ.

> غـير العاقلـة قـد طهَّـرت الخطيـة، فكـم بـالحري دمـه. ولم يـــستخدم الرســـول λυτρωσεως الفديــــة بـــل απολυτρωσεως العتـق لكـي يؤكـد لنـا إنـه لـيس مجـرد فداء عبيد، بل عدم عودة العبودية. ولذلك يقول إنه فداء لأنه إذا كان الرمز له قوة، فكم بالحري تكون قوة الحقيقة. ولكي يعلن أنه لم يكن أمراً طارئاً ولا جديداً يقول الذي عيَّنه اللّٰه *Fore-ordained*. وبقوله عيَّنه، بيَّن أنه العمل الصالح للآب والابن معاً، لأن الآب قرر، ولكن المسيح بدمه حقق لنا هذا الصلاح" (عن الأصل اليوناني وراجع الترجمة الإنجليزية ص ٣٧٧- ٣٧٨).
>
> **رابعاً:** لإظهار بره: "ما هو المقصود "بإظهار بره"؟ مثل إظهار غناه، فهو ليس غنى فقط، بل يُغني الآخرين. أو مثل "الحياة"، فهو ليس فقط "حي"، بل يجعل الموتى أحياء. أو مثل قوته، فهو ليس فقط قوي، بل يجعل الضعفاء أقوياء. هكذا أيضاً عندما يظهر بره، فهو ليس باراً فقط، بل يجعل المصابين بقروح الخطية النتنة فجأة أبراراً" (المرجع السابق).

"المحكمة والقضاء"، المثال الذي يشرحه ذهبي الفم

قد يستخدم الآباء بعض الكلمات أو المصطلحات المستخدمة في العصر الوسيط، وذلك مثل "المحكمة" أو "القضاء"، إلاَّ أنَّ المعنى المقصود منها مختلفٌ تماماً، ونستطيع أن نرى ذلك عند ذهبي الفم عندما يقول في نفس العظة السابقة مقدماً مثالاً أو تشبيهاً إنَّ إعلان بر الله هو:

> [مثل إنسان بعد أنْ ارتكب أعظم الخطايا، وكان عاجزاً عن أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة، بل حُكِمَ عليه وكان يتهيأ لتنفيذ العقوبة، ولكنه نال الصفح والغفران بعفوٍ ملكي، فإن مثل هذا الإنسان يستطيع يتفاخر ويقول إنه لم يفعل أي خطية] (راجع الترجمة الإنجليزية ص ٣٧٨- ٣٧٩).

هذا هو ما نجده في كتب آبائنا .. وهو عكس ما نجده في كتب قادة حركة الإصلاح .. وعندما ندافع عنه ونشرحه نُتهم بعدم الأُرثوذكسية .. ويصبح الذين

يتهموننا ـ وهم غارقون في مستنقع الشِّيع البروتستانتية ـ هـم دعـاة الأُرثوذكـسية والمدافعون عنها .. زمان عجيب!!!

هل كان ذهــبي الفم عـاجزاً عن أنْ يُقدِّم ذات المثال الذي قدَّمه القس إبراهيم سعيد[1] وهو مثال شائع في كتب حركة الإصلاح بعد عـصر لـوثر وكـالفن، أي في كتب حركة التجديد في القرن الثامن عشر، تلك التي أعادت تفسير لاهوت حركة الإصلاح على الأساس القانوني وحده، وتركت العناصـر اللاهوتيـة الـتي جـاءت عند ذهبي الفم وأُغسطينوس.

الفداء والكفارة وقضية ترجمة النص اليوناني

«الذي قدمه الله **كفارة** بالإيمان بدمه لإظهار بره من اجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله»(رو ٣: ٢٥ الطبعة البيروتية).

لمح القديس يوحنا ذهبي الفم قوة التعبير اليوناني الذي أشرنا إليه، وهو تحرير العبد حتى لا يعود إلى العبودية مرة ثانية. هذا تفسير صحيح يعود فيه أعظم واعظ في زمانه إلى الممارسة الحضارية الشائعة. وقد سبق لنا ودرسنا الكلمات اليونانية الخاصة بالفداء[2].

ملاحظات على النص القبطي:

يتبقى ملاحظات على النص القبطي نفسه، وهو جدير بالاهتمام؛ لأنه:

أولاً: من عصارة الحضارة المصرية.

ثانياً: لأنه يمثل فكر ومعرفة آباء الإسكندرية، وهو نص الكنيسة القبطية نفسها.

فحَسب النص القبطي قدَّم الآب، ليس (الكفارة) حسب الترجمة العربية البيروتية، بل قدَّم الآب ابنه "كغافر".

Ⲫⲏ ⲉⲧⲁϥⲉⲣϣⲟⲣⲡ ⲛ̀ⲭⲁϥ ⲛ̀ϫⲉ Ⲫϯ ⲛ̀ⲟⲩⲣⲉϥⲭⲱ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲓⲧⲉⲛ ⲫ̀ⲛⲁϩϯ.

---

(١) راجع الفصل التمهيدي في هذه الدراسة.

(٢) راجع المبحث الثاني من الفصل الثالث: الكلمات اليونانية الخاصة بالفداء والفدية والكفارة.

والمسيح هو "الغافر"، وليس مجرد تقدمة أو ذبيحة ليست لها فاعلية وقوة مثل الذبائح الغير العقلية التي كانت تُقدَّم في العهد القديم.

وحسب الترجمة العربية القديمة التي أشرنا إليها من قبل نجد أنَّ "الكفَّارة" هي غطاء أو كرسي الرحمة، واسمه في اللغة العربية القديمة "التمحيص":

"ويتبررون بالنعمة مجاناً، وبالخلاص الذي هو بيسوع المسيح هذا الذي سبق الله فوضعه **تمحيصاً** بالإيمان بدمه من أجل الخطايا التي خطئنا من قبل في الأمد الذي أعطانا الله بطول أناته" (راجع النص ص ٧).

ويعلق المترجم نفسه على النص فيقول في الحاشية: "كانت فوق التابوت في قبة الزمان صفحة من ذهب تحت أجنحة الكروبين. وكانت تُسمى تمحيصاً، لأن الله كان يكلم الكهنة من فوقها ويغفر للشعب .. الخ".

لقد استخدم الرسول الكلمة اليونانية ιλαστεριον وهو اسم غطاء التابوت في الترجمة السبعينية (خروج ٢٥ : ١٧) وهو ترجمة للاسم العبراني hakkapporet.

وعندما تُرجم الكتاب المقدس بواسطة القديس جيروم في ترجمة الفولجاتا إلى اللغة اللاتينية، ترجم الفعل العبراني الثلاثي Kipper أي يمسح ويطهر ويزيل، وجاءت ترجمة الصفة العبرانية kapporet في اللغة اللاتينية إلى *propitiatorium* ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية *propitiatory* أي "كفارة"، وبذلك اختفت كلمة "غطاء الرحمة".

ولكن مارتن لوثر صحح الترجمة في الترجمة الألمانية إلى *Gnadenstuel* (أي غطاء الرحمة) (محاضرات على رسالة رومية الطبعة الدولية مجلد ٧ ص ٣٩).

وعادت الترجمة الإنجليزية المعاصرة KJV إلى كلمة: *"mercy seat"*

وهكذا صار الرب على الصليب هو "كرسي الرحمة" الذي مسح خطايانا كلها[1].

---

(1) راجع بحث الأب الكاثوليكي J. Fitzmayer في شرحه لكلمات رسالة رومية - مجلد ٣٣ من : The Anchor Bible ص ١١٩-١٢١.

ولم يكن رائدنا في العودة إلى الأُصول اليونانية والقبطية للنصوص، الدراسات الحديثة فقط، بل كانت البداية هي نص القطعة الثالثة من ثاؤطوكية الأحد، وهو نصٌ يربط بين التفسير والصلاة والممارسة الكنسية، ويضع العابد أمام حقيقة الخلاص في المسيح حيث نرى "كرسي الرحمة" والتي تُرجِمت في العربية إلى "الغفَّار"، ولكن من يعرف القبطية يلاحظ وجود كلمة "ιλαcτ̅ριον" في النص

Πι ιλαcτηριοn εⲧοⲩϩωⲃc ⲙⲙοq ϩιⲧεn
Νιχεροⲩⲃιⲙ εⲩοι nⲛⲓκωn.

"وكرسي الرحمة المظلل عليه بالكروبين المصورين (مثل أيقونة)"

εⲧε Φ† πιλογοc ερⲁqϭιcⲁρξ nϧⲏ†..

"أي الله الكلمة الذي تجسَّد مِنك"

Ⲁqϣωπι nⲧοⲩⲃο nⲧε nεnnοⲃι nεⲙ οⲩ ρεqχω εⲃολ
nⲧε nεn ⲁnοⲙⲓⲁ.

"وصار تطهيراً لخطايانا، وغافراً لآثامنا".

إنَّ استعادة النص القبطي للعهد الجديد، والتمسك به سوف يفك رموز صلواتنا الطقسية في التسبحة والقدَّاسات، وسوف يفتح لنا باب فهم لاهوت وطقوس كنيستنا العريقة. وكما أشرنا من قبل إلى أنَّ النص يربط بين تفسير الكتاب المقدس والصلاة والممارسة الكنسية، فإننا إذا عُدنا إلى نفس القطعة نجد أن الصلاة تنتقل من تابوت العهد إلى قسط المَن إلى التناول من:

"خبز الحياة الذي نزل إلينا من السماء، وأعطى الحياة للعالم"

(القطعة الرابعة).

الإيمان بدمه

لا يمكن إنكار أنَّ دم المسيح قد سُفِك على الصليب. هذا حدثٌ تاريخيٌ ثابتٌ في الأناجيل وكتب العهد الجديد وبشهادة المؤرخين الوثنيين[1]. لكن الحدث

[1] راجع د. جورج حبيب بباوي "الصلب والصليب حقيقة أم خرافة".

التاريخي شيء، والإيمان بما حدث أمرٌ آخر مختلف تماماً.

حسب التاريخ الروماني: صُلِبَ المسيح على الصليب بواسطة بيلاطس البنطي، وحسب الإيمان قدَّم الآب ـ بمحبته للبشرية ـ ابنه الوحيد لكي يحيا العالم به. لا يذكر التاريخ الروماني الآب، ولا يعترف التاريخ الروماني بالابن. وهكذا إذا نظرنا إلى الصليب كحدثٍ تاريخي فقط، ننسى معناه اللاهوتي وغايته الروحية وأهميته في الأسرار والطقوس، بل لا يصبح هناك معنىً لذلك الاسم العزيز علينا جداً "لُبَّاس الصليب"، أي رجال البرية الأشداء في الإيمان الذين عاشوا الصليب كل يوم حسب معنى الكلمة نفسه، وحسب عبارة الرجل القوي "يوحنا القصير".

وإذا أغلقنا على الصليب باب التاريخ نكون ـ دون أنْ ندري ـ قد حولنا موت المسيح إلى حدثٍ قديم تم في الماضي، وما يتبقى منه يقتصر على ما هو في الذاكرة الإنسانية .. بينما الصليبُ حدثٌ أبديٌ باق إلى الأبد؛ لأنه حياة الابن المتجسد، الذي بالصليب قدَّم ذاته لنا حياةً وطعاماً وشراباً (في الإفخارستيا)، وميراث (الملكوت)، وفيه مُسحنا بالروح القدس، وحوَّل الروح القدس مِسحته إلينا.

فما هو "الإيمان بدمه" حسب عبارة الرسول؟

لو نظرنا إلى الوراء فقط، لوقعنا في فخ الشيع البروتستانتية. ولو نظرنا إلى التاريخ من خلال الإيمان والخبرة الروحية الليتورجية لأدركنا أن دم المسيح سُفِكَ من أجلنا:

١ـ لكي ننجو من الموت.

٢ـ لكي ننال غفران الخطايا.

٣ـ لكي نحيا به عندما نأخذه سرياً في السر المجيد.

هكذا يصبح الدم ليس فقط إعلاناً عن موت الرب فقط، بل هبة حياةٍ أيضاً. ليس فقط لأننا نراه سرياً في كأس سر الشكر، بل لأن الوقوف عند سفك الدم وحده، أي الموت هو بمثابة إقرار بعدم القيامة، وبعدم وجود أية علاقة بين الصليب والقيامة. وهكذا نتحدث بشكل مجرد *abstract* عن الصليب كفكرة،

وننسى أنَّ الصليب صار صفةً شخصيةً للمسيح نفسه، فهو (يسوع المصلوب) «فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا أنتما.فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب» (مت ٢٨ : ٥)، وننسى أيضاً أنَّ القيامة هي أنَّ يسوع المسيح حيٌ وغلب الموت. لقد جمع المسيح في كيانه الإلهي المتجسد الصليب كغفران، فصار "الغافر" وصار "كرسي الرحمة"، إلى جانب الانتصار على الموت، وهو الانتصار الذي نناله منه في المعمودية المقدسة. وبالتالي لا يمكن فصل الغفران عن الانتصار على الموت؛ لأن الغفران ليس فقط عفوٌ ينتهي بموت المؤمنين، بل هو عفوٌ يمتد إلى حياة الدهر الآتي ويشمل عطية الحياة الأبدية.

٣- الإصحاح الرابع

{ أولاً }: نص رو ٤ : ٤

"أمَّا الذي يعمل، فلا تحسب له الأُجرة على سبيل نعمة، بل على سبيل دين"
حسب الترجمة العربية البيروتية

أمَّا حسب الترجمة القبطية، فنرى أنَّ عبارة الرسول أوضح بكثير:

"الذي يعمل تحسب له أُجرته ليس كنعمةٍ، بل ما يجب أنْ يناله".

."ⲁⲗⲗⲁ ϫⲉ ϥⲉⲣⲟϥ"

والترجمة العربية القديمة[1] تسير في نفس الاتجاه:

"أمَّا لَمن يكد ويعمل، فليس يحسب له أجره كأنه مِنَّةً، بل كأنه واجب له".

هكذا شرح أوغسطينوس هذا النص في ترجمته اللاتينية، وفي عبارة موجزة قال:

[الذي يعمل تحسب له أُجرته ليس كعطيةٍ، بل كأُجرته][2].

[1] هي المخطوطة رقم: ١٥١ والمحفوظة بدير سانت كاترين، والتي نشرها Harvey STAAL ١٩٨٥م بعنوان: MT. SINAI ARABIC CODEX 151

[2] Augustine on Romane, ed by Paula F. Londes, p 9.

وقد أدرك العلاَّمة أوريجينوس أهمية النص، فقال في شرحه لرسالة رومية:

[يتكل الإيمان على نعمة الذي يبرر. أمَّا الأعمال فهي تتكل على الأُجرة وعدالة المكافأة. وعندما أستوعب التعليم العظيم الذي ينادي به بولس عندما يقول: إنَّ الذي يعمل ينال أُجرته، لا أستطيع أنْ أُقنع نفسي بأنني قمت بعمل أستطيع به أنْ أطلب عليه مكافأة من اللّه. أمَّا إذا كان الرسول يشير إلى الأعمال الشريرة، فإن الأسفار المقدسة تقول إنَّ لها دينونة (متى ١٦ : ٢٧)].

(شرح رسالة رومية ٢ : ١٧٠).

هذا النصُ هامٌ جداً؛ لأنه ينفي فكرة مقايضة الله؛ لأن الأعمال الصالحة لا ترفع دينونة الأعمال الشريرة. وهكذا يقدِّم الرسول برهانه ضد التعليم اليهودي السائد وهو أنَّ إيمان إبراهيم حُسب له براً ليس كمكافأةٍ، أو أُجرةٍ؛ لأن البر لا يحسب كأُجرةٍ، بل هو نعمةٌ تُعطى بدون الناموس. هذا يُسقط كل حجج القائلين بأنَّ المسيحَ دفع الثمن للآب؛ لأن دفعَ الثمن يحوِّل نعمة الله إلى مكافأةٍ، أو أُجرةٍ أخذها الابن من الآب .. وهو ضد بشارة الإنجيل.

يقول ذهبي الفم:

[ما أعظم أنْ نقتنع بأنَّ اللّه قادرٌ على أنْ يحرر الفاجر من الدينونة، بل أيضاً أنْ يجعله باراً ويحسبه أهلاً لأنْ ينال المجد الأبدي. هذا يجب أنْ يملأ النفس بالثقة في اللّه].

ولا يتوقف ذهبي الفم عند هذه النقطة الهامة، بل يؤكد أنَّ البر الذي يعطى للفاجر هو هبةٌ وعطيةٌ، وليس مكافأةً على إيمان الفاجر:

[البرُ أعظم من أيةِ مكافأةٍ؛ لأنَّ البر هبةٌ تحتوي على عطايا متنوعةٍ .. ولأنَّ البر أعظم من أيةِ مكافأةٍ] (عظة ٨ على رومية ٤ : ١- ٢ ص ٣٨٦- ٣٨٧).

وعندما يشرح نص المزمور الذي اقتبسه الرسول في رو ٤ : ٧ يقول ذهبي الفم:

[نحن لا ننال الغفران كدينٍ، بل كنعمةٍ] (المرجع السابق).

ويضع يوحنا ذهبي الفم هذا المبدأ الذي لا يجب أنْ نحيد عنه:

"حيثما تكون النعمةُ، يكون الغفران، مما ينفي وجود العقوبةٌ؛ لأن العقوبة رُفِعَتْ، والبر جاء من الإيمان"

(المرجع السابق ص ٣٨٩).

٤- الإصحاح الخامس

يبدأ القديس يوحنا بشرح الإصحاح الخامس من رومية في العظة التاسعة:

[بعد أنْ تكلم الرسول عن الإيمان يقدِّم محبة اللّه للبشر التي تفوق الإدراك، وحينما يقدِّم لنا محبة اللّه، فهو يقدمها لنا من كل جهةٍ ويضع الصليب أمامنا .. وبعد أنْ ذكر موت الرب، يذكر قيامته؛ لأن غاية موته أن لا نبقى تحت الدينونة والعقوبة، ولأنه صالحٌ معنا، وصلاحه هو أنه مات وقام لكي يجعلنا أبراراً] (ص ٣٩٥).

وهكذا التبرير ليس فقط بموت الرب، بل بالقيامة؛ لأن القيامة أعطت لنا حياة عدم الموت أو الخلود، وبذلك أعلنت صدق مواعيد الله أو بره.

{ أولاً } فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح رو ٥ : ١

يؤكد ذهبي الفم إننا نحن ـ وليس الله ـ الذين كنا في حرب معه ونعاديه:

[إذا كان اللّه قد صالحنا ونحن في حرب معه، فبالأولى الآن أنْ نبقى في المصالحة .. لقد قبلنا وقرّبنا إليه نحن الذين كنا بعيدين عنه، فكم بالحري يبقينا قريبين منه]

(المرجع السابق ص ٣٩٦).

وبعد ذلك يقول ذهبي الفم إنه يوجد جانبين في المصالحة:

[أمَّا الجانب الذي يخص اللّه، فهو متعددٌ ومتنوعٌ. لقد مات لأجلنا وصالحنا وقرّبنا منه وأعطانا نعمةً تفوق الإدراك. أمَّا جانبنا نحن، فهو الإيمان وهو كل ما يمكن أنْ نساهم أو

نشترك به، الإيمان الذي به قد صار لنا الدخول إلى هذه النعمة (رو ٥ : ٢) ما هي هذه النعمة؟ لقد حُسبنا مستحقين لمعرفة اللّه، وتحررنا من الضلال عندما جئنا إلى معرفة الحق، ونلنا كل بركات المعمودية. كان اقترابنا من اللّه له غاية واحدة، وهي أنْ ننال هذه العطايا. لم يكن الأمر هو مجرد الحصول على مغفرة الخطايا فقط، وهو الذي لأجله صولحنا، وإنما أنْ ننال خيرات لا تُحصى .. وعندما يذكر النعمة فهو يذكر ما نلناه في الزمان الحاضر عندما يقول: "النعمة التي نحن مقيمون فيها ونفتخر على رجاء مجد اللّه"، وعندما يقول: "مقيمون فيها"، فهو يشرح طبيعة النعمة؛ لأنه ليس لنعمة اللّه نهاية وهي لا تعرف الحدود، بل تتقدم دائماً إلى الأُمور العظيمة .. وعلى سبيل المثال إذا نال شخص ما المجد والسلطة، فهو لا يقيم في المجد والسلطة بشكل دائم، بل قد يفقدهما. أو يأخذهما آخرٌ منه، ولكن نعمة اللّه ليست مثل ذلك، فلا يستطيع إنسان، أو الزمان أو أية معوقات، أو حتى الشيطان أو الموت .. كل هؤلاء لا يمكن أنْ ينتزعوا نعمة اللّه مِنَّا. بل حتى عندما نموت، فإننا بكل تأكيدٍ نبقى في النعمة ونتنعم بالمزيد] (العظة التاسعة ص ٣٩٦).

{ ثانياً } "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس". رو ٥ : ٥

يقول يوحنا ذهبي الفم:

[لم يقل الرسول محبة اللّه قد أُعطيت، بل انسكبت؛ لكي يوضح مدى فيضانها. لقد أعطانا هذه العطية العظيمة. لم يعطِ السماء ولا الأرض ولا البحر، بل أعطانا ما هو أعظم من كل هذا. جعلنا ملائكةً بين البشر، نعم أبناء للّه واخوة للمسيح. ما هي هذه النعمة؟ الروح القدس الذي منحنا إياه ليس بعد أتعابٍ ومشقةٍ، ولم يعطِ لنا أكاليل عظيمةً، بل أعطانا نار محبته] (العظة ٩ ص ٣٩٨).

ويحذرنا القديس يوحنا ذهبي الفم:

"إذا كنت تشعر بأنك غير مستحق، فلا ترفض لأنك قد فزت بمحبة قاضيك الذي هو شفيع قوي يشفع فيك"

(المرجع السابق ص ٣٩٨).

* وهكذا ننال ما هو أعظم من غفران الخطايا، وهو عطية الروح القدس.

* وإذا كان القاضي قد صار شفيعاً قوياً يشفع فينا نحن الخطاة .. فهل فقد محبته لابنه الوحيد وجعله تحت الغضب والدينونة وصب عليه كل انتقام.

{ ثالثاً } "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس إذ أخطأ الجميع".رو ٥ : ١٢

في العظة العاشرة على رو ٥ : ١٢ يضع القديس يوحنا ذهبي الفم المبادئ الأساسية للتعليم عن التبرير في الأُرثوذكسية[١].

أولاً: إنَّ أصل الموت هو الخطية، وليس الموت عقوبة من الله:

[أصل الموت في الخطية] (عظة ١٠ ص ٤٠٢).

ثانياً: ورثنا من آدم الموت:

[عندما أخطأ آدم صار ميتاً، وكل الذين من آدم لن يكونوا غير ذلك] (المرجع السابق ص ٤٠٣).

ثالثاً: إنَّ الخطية لا تقارن بالنعمة، ولا يوجد مجال للمقارنة:

إذا كان الموت قد صار له سيادةً وقوةً عظيمةً بسبب زلةٍ واحدة، فإذا نلنا نعمةً وأخذنا التبرير، فإنَّ هذا لا يمكن

(١) ومع أن القديس كيرلس عمود الدين قد حدد هذه المبادئ في أكثر من كتاب، وأهم ما كتبه في كتاب "العبادة بالروح والحق"، إلا أن الكلاب المسعورة التي تهاجم معلم الأرثوذكسية العظيم من النساطرة القدامى، والنساطرة في عصرنا .. فرضوا علينا الاكتفاء بالقديس يوحنا ذهبي الفم أولاً لأن العظات على رسالة رومية متوفر باللغة الإنجليزية، وثانياً لأن معظم عظات ذهبي الفم ترجمت إلى اللغة العربية ابتداء من القرن الحادي عشر، وثالثاً أصبح من السهل جمع كل ما يندرج تحت موضوع التبرير من CD طبعت في الولايات المتحدة وعليها كل عظات ذهبي الفم على رسائل القديس بولس The Sage Digital Library Vol 1-4 ولذلك لم يعد أمام الذين يهاجمون الآباء حجة أو عذر فقد أغلقوا على أنفسهم باب الشك لأغراض شخصية وليس بسبب الخدمة.

مقارنته بهذه الخطية (لا يمكن قياسه بهذه الخطية) - وقد وضع المترجم الإنجليزي النص بشكل ظاهر

out of proportion to that sin

فكيف يظل هؤلاء - الذين نالوا النعمة - قابلين للموت"

(المرجع السابق ص ٤٠٣).

رابعاً: فيض النعمة:

[لذلك السبب لم يقل الرسول نعمةً، بل "فيضُ النعمةِ"؛ لأن النعمةَ لم تُعطَ لكي تعالج الخطية فقط، بل أخذنا النعمة لما هو أوفر لأننا عُتِقنا من العقوبة فوراً وتحررنا من الذنوب وولدنا من جديد من فوق (يوحنا ٣ : ٣)، وقُمنا بعد أنْ دُفِنَ الإنسان العتيق، وفُدِينا وتبررنا، ونلنا التبني، وتقدسنا، فصرنا اخوةً للابن الوحيد وورثةً مع أعضاء جسده الواحد، ونُحسب جسده. وكما يُحسب الرأس في علاقته بالجسد، هكذا صرنا متحدين معه. هكذا يُسمي الرسول كل هذه "فيض النعمة" موضحاً أننا لم نأخذ دواءً فقط لعلاج الجُرح، وإنما الصحة الوافرة والعافية والشرف والمجد والكرامة التي تفوق كل ما نعرفه عن طبيعتنا الإنسانية]

(المرجع السابق ص ٤٠٣).

خامساً: تعبير **"دفع الثمن"** هو استعارة لا تشرح وفرة وفيضان النعمة.

وبعد أنْ قدَّم ذهبي الفم هذه القائمة من فيض النعم يقول:

[وكل نعمةٍ في حد ذاتها كانت كافيةً لأنْ تبيد الموت، ولكن عندما نجمع كل ما نلناه في نعمةٍ واحدةٍ، لا يبقى مكان أو مجال لشيء يعوزنا أو نحتاجه، ولا يوجد أمرٌ لم يعالجَ. وإذا كان لدى إنسانٌ رغبةً لأنْ يلقي إنسان مديناً بعشرة ملاليم في السجن، وليس الرجل المدين فقط، بل زوجته وأولاده وعبيده بسبب الدين، وجاء آخرٌ ولم يدفع فقط عشرة ملاليم، بل دفع عشرة آلاف وزنة من الذهب وقاد السجين إلى قصر الملك وإلى عرشه العالي العظيم

القوي وجعله شريكاً في الشرف الملوكي وكل عظمة المُلك، فإنَّ صاحب الدين لن يتذكر العشرة الملاليم.

هذا ما حدث معنا؛ لأن المسيح دفع أكثر مما كان علينا، بل ما هو أكثر من البحر أو المحيط غير المحدود إذا قارناه بنقطة ماء.

لا تتردد أيها الإنسان لأنك ترى هذه البركات وقد جُمِعَتْ معاً في مجمع واحد، ولا نتعجب كيف أباد بحر النعمة شرارة الموت والخطية التي أصابتنا؛ لأنه لهذا السبب عينه يقول الرسول إننا نلنا فيض النعمة، وسيملك البر في الحياة]

(رو ٥ : ١٧) (المرجع السابق ص ٤٠٣).

وحتى لا يخطئ أحدٌ ويظن إنَّ القديس يوحنا ذهبي الفم ـ عندما استخدم مثال الملاليم العشرة والوزنات الذهب ـ يتحدث عن إنَّ فدائنا تم بثمن دُفِعَ، فإننا كما نرى أنَّ المثال لا يقول إنَّ المسيح دفع الدين للآب ولا دفع ثمن الخَطية. وهذا ليس استنتاج كاتب هذه السطور، بل هو تعليم ذهبي الفم نفسه الذي يقول في نفس العظة:

[الخطية والنعمة ليستا متعادلتين؛ لأن الشيطان لا يعادل اللّه، بل يوجد بينهما فروق شاسعة غير محدودة]

(المرجع السابق ص ٤٠٢).

سادساً: نعمةٌ واحدةٌ للثالوث القدوس:

عن ذلك يؤكد ذهبي الفم:

[نعمة اللّه ليس نعمة الآب فقط، بل نعمة الابن أيضاً]

(المرجع السابق ص ٤٠٢).

سابعاً: نعمة التبرير ليست فقط لعلاج الخطية الأولى، أي خطية آدم كما يُشاع الآن:

في شرحه لنص رو ٥ : ١٦ « وليس كما بواحد قد اخطأ هكذا العطية؛لان الحكم من واحد للدينونة،وأمَّا الهبة فمِن جرى خطايا كثيرة للتبرير» يقول ذهبي الفم:

[إذا كان للخطية قوة تجلب الموت والدينونة، فإنَّ النعمة لم

تكن لمجرد إزالة هذه الخطية الواحدة، ولذلك كتب الرسول: "وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية" (رو ٥ : ١٦) حتى لا يظن أحدٌ أنَّ مكيال الشر والخطية هو نفسه مكيال البركات، وعندما نسمع عن آدم نظن إنَّ ما حدث كان لعلاج خطية آدم؛ لأن الرسول يقول: "وأمَّا الهبة فمن جرى خطايا كثيرة" (رو ٥ : ١٦)، فكيف يجب أنْ نفهم هذا بشكل واضح؟ بعد الخطايا الكثيرة التي ارتُكِبَت بعد الخطية الأولى في الفردوس جاء التبرير، وعندما يوجد التبرير تجيء الحياة بالضرورة وبركات لا تُحصى، وكما جاء الموت مع الخطية جاءت الحياة مع التبرير؛ لأن التبرير هو أكثر من الحياة؛ لأنه هو جذر الحياة الذي منه نمَت صالحاتٌ كثيرة، وليس فقط غفران الخطية. وهذا ما يشير إليه الرسول بقوله: "الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير". ويوجد برهان في هذه العبارة يؤكد لنا أنَّ حتى الموت قد اقتُلِعَ من جذره. ولكن لأن الرسول قال إنَّ الهبة أعظم من الخطية، فإنه مضطر لأنْ يعطي برهاناً آخر يؤكد به ما يقول، وهذا بالذات ما يريد أنْ يقوله: إنَّ خطيةً واحدةً قد قتلت الكل فكم بالحري عطية الواحد التي لديها قوة لكي تخلِّص. وبعد ذلك يبين لنا إنه ليس غفران الخطية بالنعمة، بل كل ما هو خاصٌ بالتبرير؛ لأن المسيح لم يقدِّم الصلاح المساوي للشر والهلاك الذي جلبه آدم، بل قدَّم صلاحاً أعظم] (المرجع السابق ص ٤٠٢- ٤٠٣).

ثامناً: عمل النعمة المزدوج

يعود القديس يوحنا إلى موضوع النعمة في العظة الحادية عشر على رسالة رو ٦ : ٥ وهو يشرح سر المعمودية، ويقول إننا أخذنا نعمتين، أو عطيتين، وهو يشرح عبارة الرسول «إذا أعتقتم من الخطية صرتم عبيداً للبر».

[يشير الرسول إلى عطيتين من الله. الأولى الانعتاق من الخطية والثانية عبوديتنا للبر، وهي أعظم من أية حرية. هذا

ما فعله اللّه معنا ، كما لو كان إنسانٌ يتيمٌ قد أسره البرابرة ونقلوه أسيراً إلى بلدهم، فجاء مَن يفك أسره ولا يكتفي بذلك، بل يعيِّن له الأب الحنون الذي يرعاه لكي يعيده إلى مكانةٍ أعظم. هكذا لم يحررنا اللّه من الخطايا والشرور القديمة فقط، بل يقودنا إلى حياةٍ ملائكيةٍ، ويرتب لنا طريقاً صالحاً نسلكه نحو الصالحات، ويسلمنا إلى مكان أمين يحفظنا فيه للتبرير مُبيداً كل شرورنا الأولى، ومُبيداً الإنسان العتيق، وقائداً إيانا نحو الخلود]

(عظة ١١ ص ٤١٢).

ويبدو أنَّ ذهبي الفم رأى زماننا بروح النبوة أي الروح القدس، وكأنه يعيش معنا أيامنا، فقال إنَّ عبارة الرسول **"أُجرة الخطية هي موت"** لا يجب أنْ تصبح مجالاً لمقارنة الخطية بالنعمة، ولذلك يقول ذهبي الفم:

[إنَّ الرسول بولس بعد أنْ ذكر أنَّ "أُجرة الخطية هي موت لم يتكلم عن البركات بنفس الترتيب وبنفس الأسلوب؛ لأنه لم يقل إنَّ أُجرة الأعمال الصالحة هي النعمة، بل "هبة اللّه" هي حياة أبدية]

(عظة ١٢ على رو ٦ : ١٩ ص ٤١٧).

ثالثاً: خلاصة التعليم الأُرثوذكسي

لم يعرف الشرق فكرة دفع الثمن للآب قبل مجيء الإرساليات إلى الشرق، ولا يوجد في تراثنا الشرقي الأُرثوذكسي أي إشارةٍ إلى أنَّ المسيحَ عُذِّبَ ووقع تحت الدينونة، ووقف أمام الآب كخاطئ إلاَّ في القرن العشرين، وبسبب استعمال الكتب التي ينشرها "الأخوة" والكنائس البروتستانتية. ولكننا رأينا تفوُّق لاهوت كالفن وتعليمه على لاهوت بعض الإكليروس من الأقباط المعاصرين. فقد قدَّموا ما هو أقل بكثير من لاهوت الآباء، بل ولاهوت حركة الإصلاح كما عبَّر عنه مؤسس المذهب الإنجيلي يوحنا كالفن. والسبب في ذلك كما هو ظاهر لنا يعود إلى الاتجاه التربوي السائد في هذا العصر الذي يقوم على السلطة والطاعة التامة .. وهكذا حلَّت الطاعة محل المحبة، وصارت هي البديل لكل ما يقال عن المحبة. ومن هنا جاء الدفاع المستميت عن احتمال المسيح له المجد للعقوبة وقبوله نار الغضب الإلهي التي حولته إلى رماد ـ حسب تعبير البعض ـ أو إلى لحم مشوي ـ حسب تعبير البعض الآخر.

نحن لا نرفض التعليم بالتبرير، ولكن التبرير هو حياة، وليس قراراً يصدر من الآب لمصلحة الخاطئ؛ لأن القرار يظل معلقاً بإرادة الآب لا يمس الحياة. إنَّ التبرير نعمة حياة جديدة تنسكب في المؤمن بواسطة المسيح وتبقى كجزءٍ لا يمكن أنْ ينفصل عن الشركة في المسيح. ومن هنا بالذات لم يميِّز الآباء بين التبرير والتقديس، وهو التمييز الشائع في لاهوت حركة الإصلاح.

كما أنَّ النعمة الإلهية التي وُهِبَت لنا في المسيح لم تكن قرار تبرئةٍ فقط؛ لأن غفران الخطايا حسب المثالين الذين ذكرها يوحنا ذهبي الفم يكشف عن حقيقة هامة وهي **"فيض النعمة"** الذي يعبِّر عن صلاح الله، ولا يقف عند حدود مغفرة الخطايا.

شهادة بعض صلوات الكنيسة الجامعة التي تتعارض مع التعليم الغربي

إنَّ قِطع صلوات الأجبية هي صلوات معروفة عند الأقباط والروم والأرمن والسريان، وغيرهم مِن فروع الكنيسة الجامعة الأُرثوذكسية الكاثوليكية .. فماذا تقول صلوات الساعة السادسة؟

١ـ **"مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا"** والذي يمزق الصك لا يدفع، بل يعتبر إنَّ الدين قد انتهى حسب شرح الرب نفسه في مثل العبد الشرير: «فَخَرَّ العبد، وسجد له قائلاً يا سيد تمهل عليَّ فأوفيك الجميع، فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه، وترك له الدين» (متى ١٨ : ٢٧).

٢ـ **"قتلت الخطية بالخشبة"** لم تقتل الخطية ابن الله، بل صلبها هو عندما اقتلع جذر الخطية أي الموت، ولذلك تقول نفس الصلاة **"أحييت الميت بموتك الذي هو الإنسان الذي خلقته بيديك الذي مات بالخطية"**، وجاء موت الخطية بأوجاع الموت ورباطات حب البقاء على حساب كل شيء..ولكن **"مِن قبل صليب ابنك إنهبط الجحيم وبطل الموت. أمواتاً كنا فنهضنا واستحققنا الحياة الأبدية"**. هل تحتاج أيها القارئ إلى شرحٍ آخر أعظم مِن هذا؟. ثم تخاطب الصلاة الله الآب ضابط الكل **"نشكرك يا ملكنا ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح .. أمح عنا صك خطايانا المكتوبة علينا، كما مزقته في هذه الساعة المقدسة بصليب ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا ومُخلِّص نفوسنا"** ولأنَّ الثالوث إرادة واحدة، وجوهر واحد، فقد مزق الآب مع الابن صك خطايانا.. هذا هو التعليم السليم الرسولي والأُرثوذكسي، ولك أيها القارئ حرية الاختيار.

الصليب كمنهج للتربية المسيحية الأُرثوذكسية

يجب أنْ نطلب العفو مِن القارئ عن هذا السياق الجدلي، وإن كان هذا الجدل ضرورياً مِن أجل الاحتفاظ بالمحبة الإلهية كمبدأ أساسي، يُفسِّر أهم مُقدسات الإيمان الأُرثوذكسي. وهنا يجب أنْ نتوقف عند ثلاثة قضايا خاصة بالتربية المسيحية الأُرثوذكسية.

أولاً: كرامة الإنسان عند الله باعتبار الإنسان "صورة الله ومثاله".

والسؤال الذي يجب أنْ نسأله: إذا كان تعليم العصر الوسيط قد حصر الثمن أو الفدية في الخطية، وصارت خطية الإنسان = دم المسيح، فما هو إذن ثمن الإنسان نفسه صانع الخطية؟ ولكن لأنَّ الإنجيل هو بشارة بالحياة، وليس "قائمة أسعار" للخطية مهما كانت، صار مِن الضروري لنا أنْ نرى إنَّ رد الحياة الإنسانية إلى الشركة الأبدية والقضاء على سطوة الموت هو في الحقيقة ليس "ثمناً"، ولكنه "هبةُ" محبةٍ، وعطيةُ جودٍ؛ لأنَّ الإنسان هو ابن الله في المسيح يسوع وبالرُّوح القدُّس.

ثانياً: وما هو جوهر التربية؟ هل هو النمو في البذل والعطاء بحرية، الذي هو عطاء حرية المصلوب نفسه، أم النمو في البذل تحت ضغط الشريعة، والعطاء تحت ضغط الظروف؟ .. هل يعلمنا الصليب العطاء الحُر، أم يعلمنا العطاء الذي نُقدِم عليه تحت ضغط الظروف والذي تحدده طبيعة المشاكل؟ وهو بالتالي عطاء يقع تحت أحكام الضرورة، حيث يفقد صلته بالحرية، وبالتالي بالمحبة. ومرة ثانية، الله هو مثال العطاء الحُر، ولا نملك أنْ نُقيِّد حرية الله نفسه؛ لأنَّ هذا يعني تقييد حرية الإنسان وحصره في البذل حسب الضرورة، وهو ما ينفي عن المسيحية أنها دعوة للتربية ونمو الشخصية.

ثالثاً: كيف نفهم طاعة الابن؟ وهي قضية هامة؛ لأنَّ الطاعة حتى الموت، موت الصليب هي طاعة للآب نفسه، وليست طاعة لمبدأ، أي أنَّها طاعة صادرة عن علاقة شخصية بين أُقنوم الآب وأُقنوم الابن، وعن محبةٍ وتضحيةٍ، وهذا يجعل الآب "شريكاً" في طاعة الابن، أي أنَّهما معاً مع الرُّوح القدُّس يعملان ذات العمل .. وخضوع الابن للآب حسب تعليم الآباء ليس هو خضوع رئاسة، أي رئاسة الأعظم وخضوع الأقل، بل هو خضوع المتساويين، وهي قضية لم تُستوعَب في الممارسة الكنسية الأُرثوذكسية، وخلقت الكثير مِن الأمراض الروحية والمشاكل الكنسية الإقليمية والمحلية، بل هي أحد أسباب انقسام الكنيسة منذ عام ٤٥١م .. وإرضاء "الكبير" ولو بالدم والموت قسراً هو إرضاءٌ لا

تقوم فيه المحبة بأي دور ويفقد فيه الإنجيل أهم ما يميزه، وهو طاعة المحبة ورضاء المحبة .. وإذا كان الابن يُرضي الآب، فهو إرضاء شخصي نابع مِن علاقة شخصية .. **أمَّا إذا كان الابن يُرضي مطالب الشريعة، صارت طاعته للشريعة طاعة لا تمس علاقته بالآب، وهذه نقطة خطيرة لأنَّها تجعل الصليب وطاعة الابن للآب طاعةً لمبدأٍ خارجٍ عن جوهر اللاهوت وجوهر المحبة،** أي الناموس أو الشريعة التي لا وجود لها في جوهر الله؛ لأنها مجموعة مبادئ تحدد علاقة المخلوق بالخالق. وبذلك يكون خلاص الإنسان قد تم حسب وساطة الناموس، وليس حسب وساطة الابن ولا بانسكاب المحبة الإلهية للثالوث... لقد كان مِن الضروري علينا أنْ نخوض هذا الجانب الجدلي لكي نتوقف أمام حقيقة المحبة الإلهية وإشراقها في صليب المسيح، ولكي نسير نحو تربية مسيحية تؤكد حرية البذل وحرية النمو وتبرز الطاعة كعلاقة شخصية نابعة مِن المحبة.

وأخيراً: تحدد الشريعة سلوك الإنسان، كما تحدد مكافأةً لهذا السلوك، أمَّا موت الرب الاختياري فهو هبة المحبة الإلهية التي لم تحددها الشريعة، إذ لا توجد شريعة تُفرض على الثالوث.

التبرير والمعمودية

مقدمة:

إذا كان المسيح قد أكمل الخلاص يوم الجمعة الكبيرة، يوم الصلبوت، فما هو الداعي للأسرار الكنسية مثل المعمودية والميرون والإفخارستيا، بل والكهنوت طالما أنَّ كل شيء قد تم وانتهى حسب عبارات بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس.

لقد حوكِم أحد الكهنة عن تهمةٍ عقائديةٍ صارت تُعرف باسم "الخلاص في لحظة". وفي الحقيقة، فنحن هنا لا نجد فرقاً جوهرياً بين ما نُسِبَ لهذا الكاهن، وما يقوله هؤلاء الكُتاب. فالعبرة ليست بطول أو قصر اللحظة، وإنما العبرة هي بأنَّ موت المسيح على الصليب قد أكمل كل شئ... وإذا كان الفرق بينهما هو عدد الساعات والدقائق، فهو فرق لا أهمية له، وإنما الأهمية الأكبر هي لكمال الخلاص يوم الجمعة .. وإسقاط القيامة من الشرح .. وقطع كل علاقة بين موت الرب وقيامته والأسرار الكنسية، وهنا بالذات المعمودية لأننا سوف نؤجل الكلام عن الإفخارستيا لبحث أكبر يحتوي كل ما قاله الآباء عن هذا السر الفائق.

العدل الإلهي "في المسيح"، أو حروف الجر عند القديس بولس

إنَّ الاهتمام بحروف الجر عند القديس بولس هو اهتمامٌ قديمٌ جداً يعود إلى الحوار اللاهوتي الممتد عبر ثلاثة قرون بين علماء الكنيسة الكاثوليكية، وعلماء الكنيسة الإنجيلية واللوثرية وغيرها [١].

وهكذا، فنحن لم نكتب هذه السطور من فراغ، بل من اهتمام علمي وتاريخي نحاول به أنْ نرى أصالة الأُرثوذكسية التي تعاني أوَّل هجوم عليها من داخل الكنيسة الأُرثوذكسية نفسها..!!

١ـ **"في المسيح"** تعني أنْ يكون لنا شركة مع المسيح. هذه الشركة حسب عبارات الرسول هي: الافتخار في المسيح ١ كو ١ : ٢١ ـ ٢كو ١٠ : ١٧ ـ فيلبي ٣ : ٣. الرجاء في المسيح ١ كو ١٥ : ١٩. معرفة إرادة الله في المسيح ١ تسالونيكي ٥ : ١٨. المصالحة في المسيح، كما مر بنا ٢ كو ٥ : ١٩. الفداء بالمسيح رو ٣ : ٢٤.

٢ـ **والخليقة الأولى**، ليست فقط الجديدة، بل حتى القديمة "فيه قد خُلق الكل" (كولوسي ١ : ١٦) وهذا يجعلنا نسأل : إذا كانت حتى الخليقة الأولى قد خُلقت في الابن، وبواسطة الابن الذي يملك هذه الخليقة حتى قبل التجديد .. أليس من الضروري أنْ نقول إنَّ كل ما يحدث للخليقة الجديدة هو أيضاً في المسيح؟ وهذا ينفي فكرة دفع الثمن تماماً؛ لأن كل الأشياء خُلقت وتبقى بقوة كلمة الابن الخالق حسب (عب ١ : ٣).

٣ـ ونحن **نموت ونُصلب مع المسيح** (رو ٦ : ٣-١١)، وهو موتٌ يؤكد الرسول معناه بقوله: «وإذا كنتم أمواتاً في الخطايا...» (كولوسي ٢ : ١٢)، فلم يمت المسيح عبثاً، بل فتح موته باب الحياة، ولذلك أردف الرسول «أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع

---

(١) وهذه بعض المراجع الحديثة عن أهمية وحيوية اتحادنا وانضمامنا في المسيح، أو ما يُعرف الآن في دراسات العهد الجديد بـ:.The Corporate Christ . وقد عرض الأستاذ أرنست Best الأستاذ الحالي للعهد الجديد في جامعة مانشستر تاريخ الموضوع في كتابه بعنوان:.E. Best, One Body in Christ, 1955
ولعل أدق مَن تناول موضوع الشركة في المسيح هو: A. R. George, Communion with God in the New Testament, 1953.
ومن علماء الكنيسة الكاثوليكية: .A. Wikenhauser, Pauline Mysticism, 1960
وعاد علماء الكنيسة الكاثوليكية للآباء، وقدم الأستاذ السابق في جامعة السربون E. Mersch خُلاصة فكر الآباء في مجلدين نشرا بالفرنسية، وترجما إلى الإنجليزية بعنوان:.The Whole Christ

الخطايا» (كولوسي ٢ : ١٢). وعجباً، كيف أخذنا الحياة بموت المسيح الذي يُعاقَب معنا، ولأجلنا، وغير ذلك من أقوال لم ترد في الأسفار الإلهية بالمرة، مثل قول واعظ قبطي مشهور جداً: "الله عاقبنا في المسيح، ونلنا عقوبة خطايانا فيه ومعه"، بينما الرسول يقول «أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا» أيهما يجب أنْ نقبل؟

ويقول الرسول عن المعمودية إنَّ الشريعة كانت المؤَدِّب، وقادنا المؤَدِّب للمسيح، «ولكن بعد أنْ جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤَدِّب. لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع؛ لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح، قد لبستم المسيح» (غلا ٣ : ٢٤-٢٩). ونحن عندما نلبس المسيح في المعمودية، لا نلبس اللعنة والموت، بل نلبس الحياة الأبدية.

ونلاحظ عدم دقة الترجمة العربية (البيروتية) لنص غلا ٣ : ٢٤ لأن النص اليوناني ترجمته الصحيحة: «بالإيمان في **المسيح** يسوع»، «الذين اعتمدتم في **المسيح** قد لبستم المسيح».

ونفس الملاحظة بالنسبة لنص رومية ٦ : ٣، ٤ من النص اليوناني نفسه εἰς τόν θάνατον يجب أنْ تكون ترجمة النص العربي "اعتمدنا <u>في</u> موته". ويؤكد ذلك النص القبطي نفسه

"ⲁⲛⲟⲛ ϧⲁ ⲛⲏ ⲉⲧⲁⲛϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ Ⲡ̀ⲭⲥ Ⲓⲏⲥ. "

ومع أنَّ علماء العهد الجديد صرفوا جهداً كبيراً في شرح معنى "مع"، وأهمية الصيغة اليونانية [١] "συν χριστω" إلاَّ أنَّ "في المسيح" لم تأخذ نفس الأهمية رغم أن الرسول استخدم "في المسيح" في عدة مناسبات أُخرى هامة بالإضافة إلى ما سبق أنْ ذكرنا مثل:

* الافتخار في المسيح ١ كو ١ : ٣١ ـ ٢ كو ١٠ : ١٧، فالتركيب اللغوي نفسه "لي الافتخار في المسيح يسوع من جهة الله" (رو ١٥ : ١٧) وأيضاً "إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم" (١ كو ١٥ : ٣١). يؤكد ليس فقط

(1) R. Schackenburg, Baptism in the Thought of St. Paul, English trans, pp 30 tt.

مصدر الافتخار، بل مجال الممارسة نفسه أي المسيح يسوع.

* ويؤكد *H. E. Weber* و *J. Weiss* وغيره إنَّ حرف الجر **"في"** إنما يعني **المسيح كوسيط** مثل: «الله كان **في المسيح** مصالحاً العالم لنفسه» (٢ كو ٥ : ١٩). واستخدام حرف الجر **"δια"** بواسطة، أو *through* يؤكد الوساطة «نفتخر أيضاً بالله بربنا يسوع المسيح الذي نلنا **به** (بواسطته) المصالحة» (رو ٥ : ١١)، وهكذا لم يكن المسيح أداة يعمل بها الآب، «بل الوسيط **الذي يعطي المصالحة**» (٢ كو ٥ : ١٨).

والوساطة ظاهرة أيضاً في عبارة الرسول «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رو ٣ : ٢٤). هذا أيضاً يؤكد أنَّ الفداء هو تحريرٌ وفك رُبُط وعبودية الخطية؛ لأنه تم "بواسطة"، و "في المسيح" ليس كأداة، بل كشخص يُعطى لنا **فيه** الفداء. هذا يؤكد مرةً ثانيةً تأكيداً لا يمكن إنكاره إنَّ الموت على الصليب هو موت وسيط يعطي المصالحة والفداء والتبرير، وإنه (أي التبرير) نعمةٌ، وليس قرارُ محكمةٍ، أو كما يقول الرسول نفسه **"**ولكن الله بيَّن لنا محبته لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا**"** (رو ٥ : ٨).

و**"**به**"** أو **"**بواسطته**"** أو **"**بدمه**"** كلها عبارات هامة جداً لا تسمح لنا بأن نفصل الصليب عن الابن، أو الشخص عن الأحداث .. هذا ظاهر من هذه العبارات:

* المسيح خالق، مع ملاحظة سيادة المسيح على الخليقة:

"فيه خُلق كل شيء**"** (كولوسي ١ : ١٦).

* المسيح هو ملك، ولذلك فالملكوت أي ملكوت الآب خاص به:

«الذي نقلنا إلى ملكوت إبن محبته الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا» (كو ١ : ١٣).

* وبسبب وحدة جوهر الثالوث ـ مع أن الرسول لم يستخدم كلمة **"**جوهر**"** إلاَّ أنَّ المعنى ظاهر؛ لأن الآب هو الذي **"**محا الصك الذي علينا**"**، وهو

الذي رفعه أي علقه بالمسامير كما شرحنا من قبل:

«جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً **بهم فيه** » (كولوسي ٢ : ١٥).

وظفر الآب بالقوات الروحية وغيرها، والقضاء عليها في الابن على الصليب هو تأكيد على وحدة عمل الثالوث، وهو ما يهدم كل ما يقال عن العلاقة الثنائية بين الآب والابن فقط، تلك الشائعة منذ العصر الوسيط، والتي دخلت الكتب العربية المسيحية التي نقلت دون تمييز من الكتب الأوروبية.

تقسيم

أشرنا فيما سبق إلى أنَّ القول بأنَّ المسيح قد أكمل كل شئ على الصليب في يوم الجمعة، هو قول ينطوي على خطورة قطع العلاقة بين موت الرب وقيامته والأسرار الكنسية. وقلنا أننا سوف نقتصر في بيان ذلك على سر المعمودية، فنعرض في جزء أول لـمعنى المعمودية "في المسيح" عند القديس بولس. وفي الجزء الثاني نعرض لتعليم الآباء عن شركتنا في المسيح التي توهب لنا في المعمودية كمثال لما يحدث معنا في باقي الأسرار الكنسية، ومن ثم أخيراً نعرض للعلاقة بين التشبيهات والاستعارات، وحقيقة السر.

المعمودية "في المسيح"

١ـ ماذا تعني "في المسيح" حسب عبارات الرسول بولس نفسه؟

إذا كان استخدام حروف الجر في اللغة اليونانية لا يعني أن المسيح لم يكن مجرد أداة للخلاص، وإنما الخلاص يتم فيه هو باعتباره الوسيط، وإذا كان الرسول بولس يقرر ويؤكد أنَّ خلاصنا تم في المسيح، كما سبق وأشرنا إلى ذلك " أنتم الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح"، فماذا يعني الرسول بولس بـ "في المسيح".

أولاً: الخلق الجديد:

يقول الرسول بولس: "إنْ كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة" (٢ كو ٥ : ١٧). ومتى تم الخلق الجديد؟ يجيب الرسول بأنَّ هذا الخلق الجديد حدث في المسيح، وعبارات الرسول واضحةٌ: "مُبطلاً في جسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً" (أف ٢ : ١٥). لقد ماتت الإنسانية التي تحت الناموس اليهودي، وماتت الإنسانية الأُممية التي عاشت تحت سلطان الفلسفة والحكمة الإنسانية .. ماتت في المسيح لكي تُخلق من جديد، أي الإنسان الجديد حسب المسيح. ولذلك يعلق الرسول نفسه على ماضيه الديني كيهودي، ويقول إنَّ هذا الماضي حسبه كنفاية لكي «يوجد في المسيح» (فيلبي ٣ : ٧-٩).

ثانياً: المعمودية هي خلقٌ جديدٌ يجعلنا أبناء الله

في المعمودية تموت الطبيعة القديمة حسب شرح الرسول بولس نفسه للمعمودية: «احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا»

هنه كلمات الرسول في رو ٦ : ١١. وكذلك أيضاً الموت عن عبودية الحياة الماضية هو ما يؤكده بقوله: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلا ٣ : ٢٦-٢٧).

وإذا عدنا إلى الترجمة القبطية نجد أنَّ النص القبطي يختلف عن الترجمة العربية إذ نقرأ:

"Ϧⲁ ⲛ̄ⲏ ⲉⲧⲁⲩⲟⲙⲥⲟⲩ Ϧⲉⲛ Ⲡⲭ̅ⲥ"

أي "اعتمدتم في المسيح"؛ لأن "Ϧⲉⲛ" لا يمكن ترجمتها بصورة أُخرى.

فالمعمودية "في المسيح" رو ٦ : ٣ ـ غلا ٣ : ٢٧ ولذلك هي في اسم يسوع المسيح ١ كو ١ : ١٣. ومَن يلبس المسيح في المعمودية حسب غلا ٣ : ٢٧ إنما يصبح في المسيح. ولبس المسيح هو تعبير دقيق يؤكد أننا نأخذ ما ليس لنا، وهو ما يجعلنا «واحد في المسيح» (غلا ٣ : ٢٨)، ومرجعية كل هذه الاستعمالات هي اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد.

ثالثاً: المعمودية حياة جديدة

يؤكد الرسول أُلوهية الرب يسوع «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً. وانتم مملوؤن فيه الذي هو رأس كل رياسة وسلطان. وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوعٍ بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح» (كول ١ : ٩ – ١١). والنص القبطي موازٍ تماماً للنص اليوناني؛ لأننا حسب النص القبطي "فيه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد"

Ⲫⲁⲓ ⲉⲧⲁⲩⲥⲟⲩⲃⲉ ⲑⲏ̅ⲛⲟⲩ ⲛϦⲏ̅ⲧⲓ Ϧⲉⲛ ⲟⲩⲥⲉⲃⲓ....

وختان المسيح حسب كلام الرسول بولس "غير مصنوع بيد" أي ليس ختان السكين الذي يقطع جزء من الجسد، بل عمل المسيح والروح القدس الذي يضع نهاية ويقطع الطبيعة القديمة. وهو ما يؤكده الرسول «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا» (كو ٢ : ١٣). وكلمات الرسول هنا إلى كولوسي «أمواتاً بالخطايا» لا تختلف عن كلماته في أطول

نص عن المعمودية (رو ٦)؛ لأننا بموت المسيح قد متنا عن الخطية (رو ٦ : ٢).

٢- العلاقة بين موت المسيح وقيامته، وبين المعمودية

وإذا عدنا إلى كل الرسائل وجدنا حقيقة هامة يدافع عنها علماء اللاهوت من الإنجيليين، وهي أن الرسول بولس يذكر الموت والقيامة مع المسيح دون أن يذكر المعمودية مثل:

«لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله» (غلا ٢ : ١٩).

«الذين هم للمسيح يسوع قد صلبوا الجسد» (غلا ٢ : ٢٤).

«لأعرفه وقوة قيامته متشبهاً بموته» (فيلبي ٣ : ١٠).

«إذاً إن كنتم قد متم مع المسيح عن أركان العالم» (كو ٣ : ٣).

«فإن كنتم قد متم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق» (كو ٣ : ٣).

لكن لغة الرسول في هذه العبارات لا تختلف عن رو ٦ : ١ـ١١ وإنَّ هذه العلاقة غير غائبة برغم عدم ذكرها، ونستطيع أنْ نتبين ذلك من المفاتيح الآتية:

المفتاح الأول: هو أنَّ المعمودية انضمامٌ لجسد المسيح الكنيسة؛ «لأننا جميعاً بروح واحدٍ اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ» (١ كو ١٢ : ١٣). ولكننا بالمعمودية نصير جسد المسيح رغم تعدد الأعضاء (١ كو ١٢ : ١٢) وهو ما يؤكده الرسول بعد ذلك "وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كو ١٢ : ٢٧) ونفس العبارة في (رو ١٢ : ٤) وهنا يؤكد الرسول على حقيقة هامة، وهي أنَّ تعدد الأعضاء (أف ٥ : ٣٠) لا يمنع وحدة الجسد «أنتم واحد في المسيح» (غلا ٣ : ٢٨).

لقد أثار أحد الكُتاب المحدثين من الأقباط الأرثوذكس موضوع الكنيسة جسد المسيح، وتسآل في عبارات لاذعة ساخرة: هل تأكل الكنيسة نفسها ـ إذا كانت جسد المسيح ــ في الإفخارستيا؟ ونحن بدورنا نتساءل: وماذا بعد أنْ تأكل الكنيسة الإفخارستيا، هل تصبح هي جسد المسيح حسب عبارات القداس الصريحة التي لا تحتاج إلى تأويل: « **اجعلنا مستحقين يا سيدنا أنْ نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً**»، أم شيئاً آخر؟ فإذا كنا

سنبقى كما كنا قبل التناول، فلماذا التناول؟ لكن الأمر الجدير بالذكر هو أننا عندما نتناول فعلاً، فإنَّ الكنيسة لا تأكل نفسها لعلة أسباب واضحة وهي:

١ـ نحن واحدٌ مع المسيح مثل أغصان الكرمة. يظل الغصن أو الأغصان ثابتة في جذر الكرمة، له ذات الحياة، ولا وجود له إلاَّ بالجذر، هكذا نحن جسد المسيح بسبب أنَّ المسيح هو الرأس ونحن الأعضاء.

٢ـ نحن نتحول ونصبح مثله في الطبيعة الإنسانية الخاصة به .. هذا التحول يجعل كل منَّا عضواً في الجسد الواحد المسيح .. وعندما نتناول فنحن نعود إلى المصدر، إلى الينبوع، إلى الأصل الذي خرجنا منه لكي نكون كما كنا وكما سنكون؛ لأن صلوات القداس والسر المجيد ينزعان الانشغال بالعالم والجسد .. الخ. ويعيدانا إلى المسيح لنكون جسده ليس لأننا لم نكن، بل لأننا دائماً جسده .. والتناول هو انسكاب حياة الابن فينا بالشركة في جسده ودمه الحقيقي.

والمفتاح الثاني: هو ما عبَّر عنه القديس كيرلس الإسكندري في عبارةٍ هامةٍ في شرح أشعياء ٩ : ٦ "إلهاً قديراً، أباً أبدياً" حيث يقول معلمنا الإسكندري العظيم:

> [يُدعى الرب يسوع أباً أبدياً، أي المصدر والأصل الذي منه تتكون الطبيعة الجديدة عديمة الموت؛ لأن كلمة أب تعني الأصل، وهو الأصل الأبدي الذي لا يغلبه الموت، ونحن نأخذ طبيعة الرب غالبة الموت التي تُزرع فينا بالمعمودية، وتنال مجدها بالروح القدس وبالشركة في جسد الرب ودمه. ورغم أننا لا نزال في الدهر الحاضر نرى الشيخوخة والأمراض تعمل في الجسد إلاَّ أننا يجب أنْ لا يكون لدينا الإدراك الذي يخلقه الموت فينا؛ لأن العقل يجب أن يتطهر ويدرك من الالتصاق بالرب وبالإيمان وبقوة روح القيامة، الروح القدس الذي يطبع فينا صورة الإبن الحي الدائم، أنه هو الذي يلهم أذهاننا بأن نعمة الله بلا ندامة ولا تموت. هكذا نحن نشترك في السر المجيد كل يوم إنْ أمكن، ليس لأنه طعام يفنى، وليس لأن

النعمة التي أخذناها تبيد بمرور الزمن، وإنما لأننا عقلياً نترك تأمل الأُمور السمائية، وهو ما يجعل الخدمة الإلهية هي ينبوع حياة يعيدنا إلى الأصل أي المسيح. إننا نحيا في زمان المائدة السماوية ونأكل طعام الحياة لكي نحيا، لا يقوى الموت علينا بل نتغذى كلما أردنا لكي نبقى قريبين من مصدر الحياة، لأن الموت لا يقوى علينا، وإنما الأفكار والعواطف هي التي تغلبنا]. (تفسير أشعياء ٩ : ٦ - المجلد الثالث نشره: *Pusey* ص٣٢٨).

٣- موجز تعليم الآباء عن المعمودية

في اختصار شديد، لأن هذا الموضوع قد سبق وأنْ دُرس بعناية [١]، نكتفي هنا بمقتطفات من شرح القديس يوحنا ذهبي الفم الذي ورد في العظات على رسالة القديس بولس إلى رومية:

[ما معنى أننا اعتمدنا في موته؟ إننا نموت كما مات هو؛ لأن **المعمودية هي الصليب**. وما حدث في الصليب وفي الدفن للمسيح يحدث لنا بشكل معين، فقد مات المسيح ودفن بالجسد، أمَّا نحن الخطاة، فإننا نموت معه وندفن، ليس ذات الموت الذي ماته على الصليب، بل حسب كلمات الرسول "شِبه موته". والموت على الصليب وشبه الموت هما موتٌ، ولكن كل منهما له شكل مختلف، لأن المسيح مات بالجسد أي جسده وكان موته موتاً حقيقياً، وهو ما جعل موتنا في المعمودية موتاً حقيقياً "ει και αληθης" وما الذي يمكن أنْ نفعله؟ يجيب الرسول: "وكما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، نسلك نحن في الحياة الجديدة جداً"، وهو بهذا الشكل يقدِّم القيامةَ كسلوكٍ حي، كيف؟ يقول: هل تؤمن بأن المسيح مات وقام؟ آمن بأنَّ هذا يحدث لك كما حدث على الصليب، لأن الصليب هو موت ودفن لك أنت. وإذا اشتركت في الموت والدفن،

---

(١) راجع الدراسة الشاملة "المعمودية في القرون الخمسة الأولى" د. جورج حبيب بباوي - القاهرة.

فكم بالحري سوف تشترك في القيامة والحياة الأبدية. وما أُبيد هنا هو الخطية] (عظة ١٠ على رومية ٥ : ١٢ - راجع الترجمة الإنجليزية ص ٤٠٥ والترجمة التي قدمناها هنا مأخوذة عن الأصل اليوناني مجلد ٦٠ عامود ٤٨٠).

وإذا كنا نشترك في "شبه موته" حسب عبارة الرسول بولس نفسه، فإن القديس يوحنا ذهبي الفم مثل غيره من الآباء لاحظ أنَّ الرسول لم يقل إننا نشترك في شبه قيامته، بل "في قيامته"، وحسب النص اليوناني ـ وقد لاحظ المترجم الإنجليزي صعوبته، فوضع حاشيةً على ص ٤٠٩ في مجلد ١١ الذي يحتوي على الترجمة الإنجليزية لعظات ذهبي الفم على رسالة رومية ـ نجد أنَّ الأصل اليوناني: "συμφευτο" لا يعني "نتحد"، بل هو من الفعل "φυω" أي "ينمو"، وأُضيف إليه المقطع "συν"، وأصبح يعني "ننمو معاً"، وهكذا يجب أنْ نقرأ نص رومية ٦ : ٥، ونص القديس يوحنا ذهبي الفم:

[لا يذكر الرسول نتائج المعمودية، بل يؤكد فعاليتها بقوله "لأننا دفنا معه في شبه موته"، ولم يقل إننا ننال شبه قيامته، بل ننمو معاً بقيامته] (عظة ١١ على رو ٦ : ٥ ص ٤٠٩).

والمعمودية ليست الصليب فقط، بل هي القيامة أيضاً. ولذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في العظات للموعوظين[1]:

[في المعمودية الدفن والقيامة معاً في نفس الوقت. مَن يعتمد يخلع الإنسان العتيق ويلبس الجديد ويقوم كما قام المسيح بمجد الآب، هكذا أنتم الآن، لأن الرسول يدعو المعمودية قيامة "πως παλιν την αναστασιν λεγει"]

(راجع الترجمة الإنجليزية - الجامعة الكاثوليكية ص ١٥٢).

والنفس الإنسانية تذوق القيامة في المعمودية، وهو ما تُعبِّر عنه كل صلوات الكنائس الشرقية الأُرثوذكسية في خدمة سر المعمودية، وما دونه الآباء لنا. ويأخذ

---

[1] نشر النص اليوناني في باريس ١٩٥٧ في SC مجلد ٥٠.:
Jean Chrysostome: Huit Catechesis Baptismales Inedites,
ونشرت الجامعة الكاثوليكية في واشنطن الترجمة الإنجليزية:
P. Harkins, St. John Chrysostom, Baptismal Instructions, 1963.

الجسد عربون القيامة هنا في انتظار القيامة العامة في اليوم الأخير.

إنَّ ما يذكره القديس يوحنا ذهبي الفم هو تعليم كل الآباء، فهو ما يؤكده القديس كيرلس الأورشليمي في العظة ٢٠ للموعوظين (مجلد ٣٣ : ١٠٨ – ١٠٨٤، والقديس غريغوريوس النزينزي مجلد ٣٦ : ٣٦٩).والقديس أُمبروسيوس (الأسرار ٢ : ٢٠) وكتاب الأحكام الرسولية (كتاب ٧ : ٤٣). وشرح هذه النقطة الأب الكاثوليكي الكاردينال دانيللو[1] بما فيه الكفاية. والسؤال الذي يجب أنْ نضعه أمام الذين يضعون غضب الآب على الابن كمحور أساسي ووحيد لما صار معروفاً في العصر الوسيط وعصر الإصلاح بعقيدة الكفَّارة، وهو الأصل وجذر التعليم بأن الخلاص قد تم وحدث كاملاً يوم الجمعة العظيمة .. هو لماذا نموت في المسيح في المعمودية؟ .. **وأين وكيف يتم صلب الإنسان العتيق**؟. وأين وكيف تتم لنا شركة في قيامة الرب نفسه؟

ولأننا لم نترجم بعد عظات القديس يوحنا ذهبي الفم للموعوظين، وهو ما نقوم به الآن، نكتفي بعبارات قاطعة، فقد بات من الحتمي أنْ نؤكد تعليم الأُرثوذكسية في مواجهة الموجة العاتية التي تتدفق في شرائط الكاسيت والفيديو وكلها تهاجم دون وعي، وبخطورة أقدس ما تملكه الأُرثوذكسية، وهو الأسرار الكنسية. وهنا بالذات نحن أمام خيارين لا ثالث لهما:

الأول: إمَّا أنَّ المعمودية والصليب والقيامة حقيقة واحدة يعطي فيها المسيح حياته لنا بموته وقيامته، وإنَّ إبادة الموت والفساد وسلطان الخطية تم على الصليب أولاً في آدم الثاني ربنا يسوع المسيح، وإنه يوهب لنا من المسيح بالروح القدس، أو حسب عبارة الأُرثوذكسية الوجيزة التي تجمع كل شيء **"من الآب بالابن والروح القدس"**.

وطبقاً لهذه القاعدة الرسولية الآبائية نحن ننال كل ما حدث على الجلجثة وفي القبر وفي الجحيم وفي القيامة والصعود .. كل ما للمسيح وكل ما حققه المسيح في

---

[1] J. Danielou, Bible and the Liturgy pp 44 tt.
راجع أيضاً رسائل القديس اثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس.

المعمودية والميرون والشكر، أي الأسرار الثلاثة التي تُسمى باسم واحد قديم أهملناه هو "سر الانضمام إلى الكنسية" *The Mystery of Initiation* وهنا أيضاً لا يوجد تعليم بالكفارة والفداء حسب اصطلاحات ومفاهيم العصر الوسيط، بل "سر الخلاص" حسب التسليم الآبائي، وإننا نتحد بالرب المولود من العذراء، المصلوب لأجلنا الحي من الأموات، وإننا بهذا الاتحاد ننال شركة فيه هو أي:

+ الخلاص من الخطايا أي الغفران.
+ الخلاص من الموت.
+ القيامة من الأموات.
+ التبني.
+ الملكوت الأبدي.
+ سُكنى الروح القدس.
+ الشركة في الطبيعة الإلهية.

وقد وضعنا هذه الهبات ليس حسب الأهمية، بل من أجل مقاومة الجهل السائد في هذا الزمان حيث احتلت الخطية المكانة الأولى في كل شئ، وتوارت عطايا التبني وسُكنى الروح القدس والحياة الأبدية وميراث الملكوت.

الخيار الثاني: وإمَّا أنَّ كل شيء تم بالكمال وانتهى يوم الجمعة، وإننا في الطقوس وسائر الخدمات الكنسية والأسرار بشكل خاص **نتذكر** ونحيا عقلياً بالقدرات العقلية وبقراءة كلمة الله والتسبيح موت المسيح وقيامته.

والفرق الجوهري بين الخيار الأول والخيار الثاني هو أنَّ الأول هو الأُرثوذكسية الكاملة كما سُلِّمت إلينا، وكما تشهد لها صلوات كل الكنائس الأُرثوذكسية: القبطية والسريانية والأرمنية واليونانية. بينما الخيار الثاني هو آخر مراحل تطور المذهب الإنجيلي كما وصل إلينا مع الإرسالية الأمريكية، وكما هو سائد الآن في كتابات وترانيم وتعاليم اخوتنا الإنجيليين، وليس هذا مشكلة، وإنما المشكلة الحقيقية هي دخول المذهب الإنجيلي تحت عباءة الكهنوت، وفرضه بالقوة واعتباره التعليم الأُرثوذكسي، واعتبار كل مَن يعارضه "هرطوقي".

وعندما نتأمل الخيارين نقول إنَّ الخيار الثاني كما هو واضح من عظات الآباء مثل كيرلس الأورشليمي وذهبي الفم هو إيمان الموعوظين الذين يعيشون الذكرى العقلية وينالون الاستنارة بكلمة الله، وينتظرون تذوق المواعيد عندما يشتركون في الأسرار الثلاثة أي سر الانضمام إلى المسيح في الكنيسة.

فإذا ما كان هذا هو ما تنادي به كنيسة أُرثوذكسية، فإنها تتحول إلى كنيسة موعوظين فقط وتذوب الأُرثوذكسية تحت وطأة سلطان كهنوت لا وجود له في الأُرثوذكسية؛ لأن سلطان الكهنوت الحقيقي يحمي الأُرثوذكسية وينادي بها علناً ويقدِّمها للناس بكل سرور، بل ويقبل الموت طبقاً لنداء الليتورجية "أعترف إلى النفس الأخير"، وهي عبارةٌ كفيلةٌ بأنْ تُرسِل الرعدة في أوصال كل إنسان يؤمن بأنَّ ما يحمله الكاهن على يديه هو "جسد الرب ودمه"، وليس مجرد خبز بسيط.

شركتنا في المسيح
التي توهَب لنا في الأسرار الكنسية

مقدمة

إنَّ قاعدة الإيمان الأُرثوذكسية التي سبق أن أشرنا إليها، والتي تقول: **"إنَّ كل شئ من الآب بالابن في الروح القدس"**، يؤكد بها الآباء أنَّ شركتنا في المسيح، أي الشركة في ميلاد الرب من العذراء ومعموديته في الأردن، وموته على الصليب وقيامته وصعوده إلى السموات، إنما توهب لنا في الأسرار الكنسية: المعمودية والميرون والإفخارستيا.

أولاً: ميلاد الرب من العذراء القديسة مريم

متى وأين ولِدت الطبيعة الآدمية الجديدة؟

والجواب في بيت لحم، وعلى الجلجثة، وفي القبر وبالقيامة.

إذا بدأنا بميلاد الرب نفسه من القديسة مريم والدة الإله، فإنَّ هذا الميلاد يقودنا حتماً إلى المعمودية، والمعمودية إلى الصليب، والصليب إلى الموت، والموت إلى القيامة.

إنَّ بيت لحم هو البداية، والقيامة والصعود هما الكمال. هكذا زرع الرب بذرة الحياة الجديدة بتجسده، ثم أكمل هذه البذرة، فسقاها بالروح القدس أي مسحها في الأردن، ثم نمت وخدمت خدمة الحياة، ثم هجمت على الموت عرش الخطية المكين وأبادته، ثم نزلت إلى الجحيم وأطلقت سراح الأسرى وأعطت حصانة للطبع الإنساني ضد قوات الجحيم، ودخلت السماء **"**قدس الأقداس الحقيقي**"**. هكذا نمت الطبيعة الإنسانية وهي تسير **"**من قوة إلى قوة**"** (مز ٨٤ : ٧) من قوة الميلاد من فوق، إلى قوة المسحة، إلى قوة الانتصار على الخطية والموت، إلى

قوة القيامة وعدم الفساد، إلى قوة الدخول إلى السماء لميراث الحياة الأبدية.

وعندما يسير الرب يسوع في هذه المراحل، فهو لا يفصل بين كل مرحلة ومرحلة؛ لأن التغيير الذي يحدث ويتم إنما يحدث فيه هو، في أُقنومه المتجسد. وبكل ما نملك من دقة لغوية "في ناسوته المتحد بلاهوته" .. ومشكلة العصر الوسيط، وهي ذات مشكلة عصر الإصلاح إنه لا يفهم إنَّ تحول ناسوت الرب يجب أنْ يتم بالتدريج حسب خطة الخلاص وحسب الإعلان الإلهي الذي يُعطى.....

* فقد أعلن الربُ بداية الخليقة الجديدة بميلاده.
* وأعلن الرب هبة الخليقة الجديدة بالمسحة في الأردُن، أي في معموديته.
* وأعلن الرب انتصار الخليقة الجديدة بالصليب.
* وأعلن الرب أبدية الخليقة الجديدة بالقيامة وبالصعود.
* وأعلن الرب ميراث الخليقة الجديدة بالجلوس عن يمين الآب.

هكذا نفهم عبارات الرسول: إنَّ المسيح يقودنا في موكب نصرته (٢كور ٢ : ١٤). ويبقى أمامنا هنا عبارات الآباء أي الشهادة الصادقة على أن ما نكتبه هو تعليم الكنيسة الأُرثوذكسية التي تقبل كتابات الآباء.

ثانياً: ميلاد الرب الذي يوهب في المعمودية

لا يجب أنْ نفصل بين الميلادين: الميلاد الأزلي والميلاد في الزمان؛ لأن المسيح جمع الاثنين وجعل ناسوته واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير .. وبذلك أعطى لميلاده الإنساني قوة البقاء الأبدي بسبب اتحاده بالميلاد الأزلي .. والميلاد الأزلي هو ميلاد خالق من خالق، ولذلك هو وحده الذي يعطي قوة الخلق، ويصبح أساس الميلاد في المعمودية. يولد الابن أزلياً من الآب أي خالق من خالق.. وتدخل القوة الخالقة الخاصة بأُقنوم الابن حياتنا الإنسانية، وتتحد بالجسد والنفس العاقلة ثم تولَد من البتول القديسة مريم ولادةً حسب الروح القدس، وبالروح القدس.

وهنا بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت تصبح القوة الخالقة خاصة بالناسوت .. هذه القوة تجعل حتى ملابس الرب نفسه مصدر شفاء كما حدث مع المرأة نازفة الدم .. ولذلك تقول الكنيسة الأُرثوذكسية ـ بأمانة أُرثوذكسية ـ عن ناسوت الرب: "الجسد المُحيي" حسب اعتراف القديس كيرلس الإسكندري:

> [نحن نعترف أنَّ كلمة الله هو غير مائت وهو الحياة، ولكننا نؤمن أنه صار جسداً، أي وَحَّدَ الجسد ذا النفس العاقلة بأُقنومه، ولذلك تألم بجسده حسب الكتب، ولأن جسده قد تألم نُبشِّر [1] بأنه قد تألم رغم أنه بالطبيعة هو غير متألم، وحيث أنَّ جسده قام؛ لأن جسده لم يرَ فساداً نبشر بأنه قام لأجل الأموات (اي لكي يعطي الأموات قيامة، ولاحِظ أهمية لأجل الأموات).
>
> نؤمن أنَّ جسد الكلمة قادرٌ على أنْ يعطي الحياةَ؛ لأنه هو جسد ودم الكلمة الذي يعطي الحياة للكل][2].

وكذلك يقول القديس كيرلس في الفصل الحادي عشر من الفصول الإثنى عشر التي أطلق عليها الغرب الحرومات الإثنى عشر:

> [مَن لا يعترف بأنَّ جسد الرب هو معطي الحياة .. كما قلنا لأنه الجسد الخاص بالكلمة، القادر على أنْ يعطي الحياة لكل الأشياء، فليكن محروماً] [3]

ثالثاً: بداية الوجود الجديد

يكتب القديس كيرلس الإسكندري شرحاً وافياً للإيمان الأُرثوذكسي، فيقول عن الابن الوحيد:

---

[1] من الصواب أن نترجم كلمة "يقال" إلى "نبشر" لأن ما يقال هو إيمان يعلن وليس عبارة تقال، الأمر الواضح في مرد القداس "آمين آمين بموتك يارب نبشر .. الخ" - راجع ترجمة مركز الآباء ص ٥٦.

[2] راجع: الرسالة رقم ١١ من رسائل القديس كيرلس. راجع النص اليوناني الذي نشره E. Schwartz وهي مجموعة رسائل القديس كيرلس الإسكندري تحت عنوان Acta Conciliorum Oecumenicrum طبعة جامعة برلين ١٩١٤ المجلد الأول ص ١٠-١٢ الترجمة الإنجليزية التي نشرتها الجامعة الكاثوليكية سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٧٦ ص ٦٥ تحت عنوان الرسالة رقم ١١ ب.

[3] راجع الأصل اليوناني المرجع السابق المجلد الأول ص ٤٢ والترجمة الإنجليزية المرجع السابق المجلد الأول ص ٩٢.

[هـو نفـسه خـالق الـدهور، وهـو الأزلـي مـع الآب وخـالق كل الأشياء].

هذه الحقيقة الفائقة وصلت إلينا عندما تجسد الابن:

[وحَّد ما هو إنساني مع أُقنومه]

وعندما ولِد الابن ميلاداً زمانياً من العذراء فقد

[ولد لكي يبارك بداية وجودنا نفسها .. ولكـي يرفـع اللعنـة عن الجنس البشري. هذه اللعنة التي كانت ترسل أجسادنا الأرضية إلى المـوت ولكـن بواسـطة (الابـن المتجـسد) أبطـل القول (الخاص باللعنة) بالوجع تلدين أولاداً" [1]

رابعاً: جرن المعمودية هو رَحِم الكنيسة

أين يحدث الميلاد الجديد؟ الجواب في المعمودية المقدسة. وما هي علاقة المعمودية بميلاد الرب من العذراء؟ وهذا هو جواب الآباء:

يقول القديس كيرلس الأورشليمي:

[في نفس الوقت الـذي تموتـون فيـه، أنـتم تولَـدون؛ لأن ميـاه الخلاص هي في آنٍ واحدٍ القبر والأُم. وما ذكره سليمان عن الأوقات المناسبة يناسبكم الآن: يوجد وقت للولادة ووقت للمـوت (جامعـة ٣ : ٢) ولكـن بالنـسبة لكـم العكـس صحيح، لأن وقت الموت هـو وقت الـولادة؛ لأن مـيلادكم يـتم بموتكم Και συνδρομος εγινετο

" τω θανατω η γεννησις η υμετερα" (٢ : ٤)[2].

وعند القديس كيرلس الدفن في مياه المعمودية هو موت الحياة القديمة، هو موت ودفن وقيامة مع المسيح .. لكن هذا هو ميلاد الحياة الجديدة.

---

[1] المرجع السابق - راجع ترجمة مركز الآباء ص ٣٥ - رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي - نصوص الآباء ٢١).

[2] راجع ترجمة الأب جورج نصور صـ ٣٩٠ - ٣٩١. وترجمة القمص تادرس يعقوب صـ ٣٨٥ - ٣٨٦.

تلك هي شهادة الآباء جميعاً جمعها كلها مرتبةً حسب التسلسل التاريخي الأب دانيللو[1] إبتداءً من العلامة ترتليان حتى القديس يوحنا ذهبي الفم.

القديس امبروسيوس

[ما هو الميلاد الجديد؟ يقول سفر الأعمال نقلاً عن المزمور الثاني "أنت هو ابني أنا اليوم ولدتك" (١٣ : ٣٣) ويستخدم الرسول بطرس هذه الكلمات لبشارة القيامة .. ولذلك قيل عن الرب "البكر من الأموات" (المولود البكر من الأموات) (كو ١ : ١٨)؛ ولأن القيامة هي قيامة الحياة من الموت، هكذا في المعمودية التي هي "شبه الموت"، والتي فيها عندما نغطس نقوم، صارت مثال القيامة، وحسب بشارة الرسول صارت القيامة ميلاداً جديداً، وصار الخروج من مياه المعمودية والانبعاث من جرن المعمودية هو ميلاد جديد][2].

ونرجو أنْ يلاحظ القارئ أنَّ كلمة "البكر" تعني المولود الأول، ولذلك البكر πρωτοτοκος خاصة بالقيامة حسب نص (كولوسي ١ : ١٨) وهنا بشكل خاص علينا أن نتذكر رمز السمكة Iχθυς فهو رمزٌ وُجِدَ في الملاجئ المسيحية القديمة ويعود إلى بداية المسيحية حيث صور المسيحيون في *catacombs* السمكة تعوم في المياه، ولذلك كان القديس امبروسيوس يعلم هذه الحقيقة، وكتب عنها:

"تشبهوا بالسمك الذي نال نعمة الوجود في المياه، وهي نعمة أقل من نعمة المعمودية؛ لأن التجارب والمجرِّب يحاول إغراق المركب بالعواصف والأمواج العالية، ولكن السمك لا يغرق لأنه يعرف العوم و.. وهكذا أنتم كونوا السمك الذي لا تستطيع مياه العالم أنْ تغرقكم بالمرة[1]

والميلاد الجديد حسب شرح القديس امبروسيوس:

---

[1] راجع ترجمة الأب جورج نصور صـ ٣٩٠ ـ ٣٩١. وترجمة القمص تادرس يعقوب صـ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

[2] الأسرار ٣ : ٢ عن الأصل اللاتيني للأب Botte SC ص ٩٠ الترجمة الفرنسية Detterrari ص ٢٦٨-٢٩٠.

[1] الأسرار ٣ : ٩ ـ المرجع السابق ص ٩٢.

[كيف تم الميلاد الجديد؟ لم تدخلوا أرحام أُمهاتكم لكي
تولَدوا من جديدٍ؛ لأن هذا الميلاد الجديد لا يتم حسب قوانين
الطبيعة، ولا يوجد هنا طقسٌ يتم حسب الطبيعة، بل حسب
النعمة الفائقة، بل إننا نعلم أنَّ قوانين الطبيعة لا تؤدي دائماً
إلى الميلاد بالجسد. نحن نعترف بأنَّ ربنا يسوع المسيح قد ولِد
من العذراء. ونحن ننكر الميلاد حسب قوانين الطبيعة؛ لأن
مريم لم تحبل من رجل، وإنما قَبِلَت الروح القدس في رحمها
كما يقول متى (١ : ١٨)، وعندما حل الروح القدس حبلت
وولدت. وحقاً لا يجب أن يكون لدينا شك في أنَّ الروح يحل
على جرن المعمودية وعلى الذين ينالون المعمودية لكي يخلق
الميلاد الجديد veritatem regenerationis operatum]

(الأسرار المرجع السابق ١٩٠ - ١٩٢).

خامساً: حميم الميلاد الجديد λουτρου παλιγγενεσιας

لعل القارئ الذي حضر خدمة سر المعمودية في الكنائس الأُرثوذكسية وفي الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية قد لاحظ أنَّ هذا الاسم بالذات (حميم الميلاد الجديد) يظهر في كل صلوات المعمودية. فالاسم هو الاسم الرسولي القديم الذي ورد في تيطس ٣ : ٥. هكذا يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم حميم الميلاد الجديد ويعود إلى أحد مصادر الأسرار الكنسية، وهو زواج المسيح بالكنيسة حسب التسليم الرسولي في أفسس ٥ : ٢٥ـ٢٧، فالمسيح هو زوج الكنيسة. اقترن بها واتحد بها بشكل خاص بموته وقيامته، ويكشف القديس يوحنا أبعاد هذا السر:

[لا يملك إنسانٌ، بل لا يسمح رجل لنفسه أنْ يعمل ما عمله
الرب أي أنْ يسفك دمه لأجل امرأة يريد أنْ يقترن بها
كعروسه. ولكن السيد الذي يُعلن عن صلاحه قد قَبِلَ
هذا البذل والتضحية الفائقة بسبب شدة محبته للعروس؛
لأنه بدمه قدَّسها وغسلها في حميم المعمودية لكي يقدِّمها
لنفسه كنيسةً في مجدها الفائق. ومن أجل هذه الغاية سفك
دمه على الصليب لكي يعطي لنا بموته هذا التقديس

مجاناً، ولكي يغسلنا في حميم الميلاد الثاني، ويقدِّم لنفسه أولئك الذين عاشوا سابقاً في العار](عظة ١ : ١٧ للموعوظين).

لا يوجد ميلاد جديد بدون دم المسيح، لأن سفك الدم عند الآباء جميعاً هو الإعلان عن المحبة الفائقة وعطية الحياة. ولقد كتب الآباء الكثير عن سر المعمودية وسر الشكر وكلاهما نبعَ من جنب الرب عندما طُعِنَ في جنبه بالحربة، هكذا يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم هذه الحقيقة:

[وخرج من جنبه ماء ودم (يوحنا ١٩ : ٣٤). يا أحبائي لا يجب أنْ يعبر هذا السر دون أنْ تفحصوه. ولديَّ الآن شرحٌ سرائريٌّ؛ لأن سر المعمودية هو في الدم والماء؛ **لأنه من هذين السرين ولِدت الكنيسة**، من حميم الميلاد الجديد وتجديد الروح القدس (تيطس ٣ : ٥) في المعمودية والأسرار]

(المرجع السابق ٣ : ١٧).

فالكنيسة تولد من الأسرار مثلما ولِدت حواء من ضلع آدم أي من جنبه، وهذا ما يؤكده ذهبي الفم نفسه، وكل الآباء:

[من جنبه كوَّن المسيحُ كنيسته كما كوَّن حواء من جنب آدم] (المرجع السابق ١ : ١٧).

"وكما حدث في ذلك الزمان عندما أخذ اللّه ضلع آدم ومنه كوَّن المرأة، هكذا أعطى المسيح من جنبه الدم والماء لكي يكوِّن الكنيسة" [1] (المرجع السابق ١ : ١٨).

كيف يفهم ذهبي الفم تعبير حميم الميلاد الجديد أو الثاني؟ هو نفسه يجيب:

[ربما سأل أحدهم: لماذا لم يُدعى بحميم غفران الخطايا؟ أو حميم التطهير، بل حميم الميلاد الجديد؟ والسبب هو أنَّ هذا الحميم لا يطهِّرنا فقط من خطايانا، بل يطهرنا كما لو كنَّا ولِدنا تواً لأننا فيه نُخلَق من جديد ونتجدد مرةً

---

[1] إذا كانت المعمودية سر، وهي سر تكون الكنيسة في المسيح، أصبح من الضروري أنْ نرى إنَّ أحكام المنع من التناول هي أفظع تطاول على المسيح نفسه، لأن من يمنع مؤمناً من ممارسة الأسرار إنما يضع نفسه في مكان المسيح. وأيضاً أصبحت السخرية من الكنيسة كجسد المسيح هي سخرية من سري المعمودية والإفخارستيا.

ثانيةً، ليس لأننا نُخلق مرةً ثانيةً من التراب، بل من عنصرٍ آخر وهو الماء] (المرجع السابق ١ : ٢٠).

ومثل القديس امبروسيوس يضع القديس يوحنا ذهبي الفم الميلاد من العذراء كمثال لميلادنا الجديد الذي نأخذه من المسيح، من ميلاده وصليبه وقيامته. بهذه الكلمات السهلة الواضحة يشرح ذهبي الفم هذه الحقيقة الروحية:

[أُريد أنْ أعبر معكم هذا السر أي سر الميلاد الذي لم يشهده أحدٌ بالمرة. ولكن عليَّ أنْ أقدِّم لكم هنا السر الذي يحدث هنا على الأرض والذي يشهده كثيرون، لأنني عندما أشرح السرين معاً أثبِّت إيمانكم؛ لأنه بدون الإيمان لا يمكنكم أنْ تقبلوه. الذي لا يحويه شيء والذي يحوي الكل وكل مبدأ، جاء إلى رَحِم العذراء. كيف وبأي صورة؟ لا يمكن لأحدٍ أنْ يشرح هذا السر. ولكن إذا آمنتم، فإنَّ إيمانكم سوف يشرح لكم كل شيء؛ لأننا عندما نشهد سراً يفوق قدرات العقل والمنطق الإنساني، فإننا نعود فوراً إلى التعليم الخاص بالإيمان. هكذا كتب متى عن هذا السر دون أنْ يفهم كيفية الميلاد واكتفى بأن يقول "وُجِدَت حُبلى بالروح القدس"، ولم يعلمنا كيف حدث هذا، بل حتى جبرائيل لم يفهم لأنه هو أيضاً قال "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك]

(العظة ٣ : ٣ المرجع السابق).

وحجة الآباء نجدها في شرح ألقاب المسيح وفي علاقته بالكنيسة أي بالمؤمنين. يقول ذهبي الفم:

[هل تريد أنْ تعرف كيف يصبح المسيح طعامك؟ يجيب الرب "كما أنا حي بالآب، مَن يأكلني يحيا بي"، وهو أيضاً يصبح بيتك؛ لأنه يقول: "مَن يأكل جسدي يثبت فيَّ وأنا أثبت فيه"، وهو يعلن أنه هو "جذرنا" و"أساسنا" عندما يقول: "أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان"، وهو يعلن أنه أخوك وصديقك والعريس عندما يقول: "لا أعود أُسميكم بعد

عبيد، بل سميتكم أحبائي" (يوحنا ١٥ : ١٥). وأيضاً يقول بولس: "خطبتكم لرجل واحد لأُقدم عذراء عفيفة للمسيح" (٢ كو ١١ : ٢). وأيضاً لكي يكون هو « بكراً بين أُخوة كثيرين » (رو ٨ : ٢٩)؛ لأنه يقول « ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله » (عب ٢ : ١٣). نحن لا نصبح فقط أبناؤه، بل أعضاء جسده (١ كو ١٢ : ٢٧)]

(العظة ١٢ : ١٤ راجع ص ١٧٧ الترجمة الإنجليزية).

التشبيهات والاستعارات
وحقيقة السر

مقدمة

دار حوارٌ وجدلٌ وصل أحياناً إلى سفك دماء المعارضين في الغرب حول معاني كلمات الرب نفسه، وحول حقيقة علاقتنا بالمسيح وبالآب وبالروح القدس. ولا زال هذا الحوار ساخناً عندنا في مصر لأسبابٍ شخصيةٍ بحتة لا علاقة لها بالإيمان، وإنما تصدر عن غيظ مكبوت ضد كل مَن يحاول أيقاظ الوعي الروحي القبطي محاولاً إعادة المسيح إلى الكنيسة بكل ما يحمل المسيح في شخصه من هبات وعطايا وبركات وغنى لا يمكن التعبير عنها إلاَّ بما نملك نحن من ألفاظ. ولا شك أنَّ هذا الحوار وذلك الغيظ لابد وأنْ يكون نتاج عدة أخطاء:

الخطأ الأول هو أنْ نتصور أنَّ مواعيد المسيح خيالات، وأنَّ محبة الله لا تسمح لنا بالاقتراب منه إلاَّ بالاعتماد على قدراتنا .. هذا إنكارٌ للنعمة، وحذفٌ كاملٌ لكل ما في الإنجيل أي البشارة السارة.

والخطأ الثاني هو أنْ نعتبر علاقتنا بالمسيح هي علاقة أدبية فقط *Moral* (أخلاقية) .. علاقة بين دائرتين كل منهما مغلقة على ذاتها. المسيح في جانب ونحن في جانب .. هذه الفكرة الكاذبة خادعة وهي شيطانية؛ لأنها براقة وجذابة وهي أساس التدين الكاذب. هذا التعليم الفاسد يهدم كل شيء لكي يقيم بدلاً عنه ومن الأنقاض بنايةً هشةً، وهو يصطدم بكل ما في الإيمان الأُرثوذكسي من حقائق:

١ـ الإنسان مخلوق من العدم .. يستمد وجوده وحياته من الله، وهو بدون الرعاية والعناية والبقاء قريباً من الله وفي شركة معه، يفقد حياته ووجوده ويعود إلى العدم.

٢ـ المسيح هو وحده الوسيط بين الله والإنسان، وبدون المسيح وفيض النعم الإلهية التي في أُقنومه الإلهي المتجسد تصبح المسيحية كذبةً كبرى وخدعةً فارغة؛ لأنها عندئذٍ تتحدث عن أشياء لا وجود لها مثل التبني وحياة الدهر الآتي وميراث الملكوت. هذه عطايا تعطى لنا في المسيح ومن خلال علاقتنا معه وشركتنا فيه، فالرابطة ليس أدبيةً فقط .. هو الأخ البكر، وإنكار هذه الأُخوَّة هو إنكارٌ صريح للتجسد .. هو البكر من الأموات، وإنكار هذه البكورية هو إنكارٌ للقيامة .. والنقطة الرئيسية هنا هي أنَّ المسيح لم يحصل على هذه البكورية من أجل احتياجٍ خاصٍ به، بل لأجلنا، فالرابطة أو الشركة هي شركة في طبيعة جديدة هي المسيح نفسه وأُقنومه الإلهي المتجسد.

٣ـ وأخيراً .. إنَّ كل ما يوهَب لنا في المسيح، إنما يوهب بالروح القدس، فالروح القدس هو الذي يحمل إلينا المسيح، كما حمل المسيح إلينا الروح الذي مُسِحَ به .. هكذا قال القديس كيرلس الأورشليمي الذي نضع كلماته هنا باللغة التي كتب بها لعل موجة الغضب والسخط تنحسر أو على الأقل تقرأ بدقة:

"اعتمدتم في المسيح .. صرتم مسحاء Christs ..

(تعليم الموعوظين ٣ : ١ النص اليوناني الذي حققه *Piedagnel SC vol*

120:p120)[1].

هل لنا شركة في ميلاد الرب؟

نعم؛ لأن ميلاده فتح لنا باب الميلاد الجديد. وحقاً صارت "بيت لحم مسقط رأس الإنسانية الجديدة"؛ لأن يمين الآب في الأعالي صارت ميراث الإنسانية الجديدة في المسيح.

---

(١) "ها إنكم اعتمدتم في المسيح ولبستم المسيح، فأصبحتم على مثال صورة المسيح ابن الله. لأن الله الذي اختارنا لأن نكون أبناء بالتبني، جعلنا على صورة جسد المسيح المجيد. وبما أنكم أصبحتم شركاء المسيح، **فأنتم مدعوون بحقٍ مسحاء.** وعنكم قال الله: لاتمسوا مسحائي . **أنكم أصبحتم مسحاء بتلقيكم ختم الروح القدس"** راجع تعريب الأب جورج نصور لعظات ق.كيرلس الأورشليمي طبعة الكسليك لبنان ١٩٨٢م صـ ٣٩٣. وراجع أيضا ترجمة القمص تادرس يعقوب لنفس العظات ١٩٧٠م صـ ٣٨٨ **:"جُعلتم مسحاء بقبولكم نموذج الروح القدس".** ويعلق المترجم هنا على النص ويقول: إن الكلمة اليونانية "نموذج" لا تعني نموذجاً رمزياً بل كما ورد في عب ٩ : ٢٤.

تعليق للقديس يوحنا ذهبي الفم على نص (رو ٨ : ٢٩) كما ورد في العظة على رسالة رومية، وهو النص الذي يقول فيه الرسول بولس: «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين أخوة كثيرين»:

> [هل ترون عظمة هذا الشرف؟ لأن كل ما يخص الابن الوحيد بالطبيعة، صاروا هم مثله بالنعمة. ولم يكتفِ الرسول بأنْ يقول إنهم مشابهين صورة ابنه، بل أضاف ليكون بكراً لكثيرين، ولم يقف عند هذا الحد، بل قال بين أخوة كثيرين؛ لأنه أراد بكل الوسائل أنْ يوضح علاقتنا بالرب .. لقد دعانا وبررنا بميلاد الحميم الجديد والذين بررهم هؤلاء مجّدهم. وهو مجّدهم بالنعمة وبالتبني الذي صاروا به أبنائه] (مجلد ٦٠ عامود ٥٤١).

لقد أعطانا الرب التبرير في المعمودية، ومجّدنا بالنعمة .. وما فصل ينابيع الخلاص التي في الرب نفسه، وتمزيق الوحدة التي تجمع التجسد والميلاد من العذراء ومسحة الأردن والموت على الصليب .. كل هذا إنْ هو إلاَّ عملاً عقلانياً يبحث عن شهواتٍ وغرور وقضايا عقلية تافهة تدخل تحت أسماء الإيمان والعقيدة والأُرثوذكسية، لكي تحول علاقتنا بالرب إلى قضايا عقلية وأبحاث لُغوية فارغة وتتركنا في دائرة وجودنا الإنساني حسب الطبيعة في مواجهة الفساد والموت.

لقد جاء الميلاد من العذراء ببشارة. انحلال وعجز الطبيعة الأولى القديمة، طبيعة آدم عن أنْ تعطي حياة عدم موت وخلود للإنسانية .. وجاء آدم الثاني ببشارة حياة جديدة .. صار هو "الجذر"، وهو تعبير عند ذهبي الفم والقديس كيرلس عمود الدين، وصار هو البكر بين أُخوة كثيرين .. كل هذا لا يمكن تصوره بدون الأسرار الثلاثة أي أسرار الانضمام إلى الكنيسة.

وعندما فصل الغرب في عصر اللاهوت المدرسي عمل المسيح عن شخص المسيح، ثم فصل بعد ذلك عمل المسيح وقسّمه إلى حدثٍ عظيمٍ وحيدٍ هو الصليب وأهمل القيامة، ثم أهمل مِسحة الرب في الأردن وأهمل الميلاد

البتولي .. تحول المسيح نفسه من شخص إلى فكرة، ومن رب الحياة إلى مبدأٍ عقلي .. ووِلِدَ اللاهوت العقلي من هذا الفصل الغريب الذي يناقش كل عقائد الإيمان بدون العودة إلى الليتورجية أي الصلاة والأسرار التي تُعلن وحدتنا واتحادنا بالرب. نكتفي هنا بنصٍ نرده إلى أصله اليوناني حتى لا تخلق الألفاظ العربية فجوةً بيننا وبين تعلّيم الآباء. يشرح القديس كيرلس الأورشليمي المعمودية في عبارات ذات دلالة لاهوتية هامة:

> "يا لعظمة السر الفائق والمدهش الذي لا يمكن الإحاطة به. نحن لا نموت ولا نُدفن كما نموت ونُدفن حسبما نعرف من الحياة الإنسانية .. نحن لا نصلب ولا نقوم، بل نصلب ونُدفن ونقوم بالتشبُّه μιμησις به كما في الأيقونة εν εκονι، بينما الخلاص هو الحقيقة εν αληθεια. لقد صُلِبَ المسيحُ فعلاً، وحقاً دُفِنَ وقام، وهذه قد سُلِّمت إلينا لكي نتشبه بها μιμησει ولكي نشترك κοινωνησαντες في آلامه، فنقوم حقاً .. يا لمحبة البشر الفائقة. لقد قَبِل الرب المسامير في يديه وقدميه الطاهرتين، واحتمل العذاب، لكي أنال الخلاص بدون معاناة أو تعب وبالشركة κοινωνιας في آلامه أنال الخلاص" (العظة ٢ : ٥).

وهنا نرى قلب لاهوت الأسرار:

* لقد مات المسيح على الصليب ودفن وقام .. هذه حقيقة.
* أمَّا نحن، فإننا ننال هذا كما في أيقونةٍ، ونتشبه لأن الآلام والمسامير والعذاب ومفارقة الروح للجسد لا تحدث لنا، ولذلك توصف المعمودية بأنها αντιτυπον وبسبب أهمية الكلمة اليونانية حرصت الترجمات الإنجليزية على أنْ تترك الكلمة اليونانية كما هي *antitype* وهنا الأصل هو المسيح والصورة، أو الأيقونة هي المعمودية وكل ملامح الأصل كائنةٌ في الأيقونة، وتبقى الأيقونة مختلفة عن الأصل في تفاصيل قليلة، ولكنها لا تنقص من الأيقونة؛ لأن الأيقونة تشترك في الأصل في نوال ذات الملامح، وتصبح الأيقونةُ مثالاً *antitype*.

وهكذا يشرح القديس كيرلس الأورشليمي ما يقصده من تعليم:

"ولكي ندرك حقيقة ما احتمله المسيح لأجلنا ومن أجل خلاصنا، فقد تألم حقاً ولم تكن آلامه خيالاً لكي نشترك نحن في آلامه، ولذلك يصرخ الرسول بكل ما في الحق من مكونات "لقد غُرسنا συμφυτοι (اتحدنا) معه في شبه موته لكي نصير في قيامته". وعندما قال غُرسنا معه، لأن الكرمة الحقيقية قد غُرِسَت هنا في هذا المكان (الجلجثة حيث كان القديس كيرلس يعظ في كنيسة القيامة). ونحن لذلك نشترك في معمودية الموت التي فيها غُرسنا معه .. لقد مات المسيح فعلاً وانفصلت نفسه عن جسده، ولذلك دُفِنَ حقاً، وكُفِّنَ جسده بكتان نقي. وكل هذا حدث له فعلاً، أمَّا نحن، فإننا نتشبه بموته وبآلامه لكي يكون الخلاص حقيقياً وليس خيالاً"

(تعليم الموعوظين: ٢٠ : ٧).

يمكننا أنْ نقدِّم ضعف النصوص التي تؤكد ما يذكره القديس كيرلس الأورشليمي، لكن ما يجب أنْ ندركه هو حقيقة شركتنا في آلام المسيح وموته وقيامته. إنَّ ما لا يذكره الآباء ولا يجب علينا أنْ نضيفه بالمرة إلى تعليم الآباء هو:

١ـ إننا نُعاقب مع المسيح، أو إنَّ المسيح يُعاقب بدلاً عنا.

٢ـ إننا ننال عقوبة الموت في المعمودية مع المسيح أو في المسيح حسب الفكر الشائع عندنا في مصر والذي يروّجه البعض عن جهل[١].

ليست المشكلة هي وجود هذا النص أو هذه الكلمة .. ولكن الموضوع الرئيسي الذي نراه في كل نصوص الآباء أنَّ شركتنا في موت المسيح وقيامته .. هي شركة صلب الطبيعة القديمة هنا، وهي شركة قيامة حياة أبدية. ولذلك لو

[١] وذلك كما يعلّم البعض في أيامنا؛ لأننا في المعمودية، وحسب صلوات الكنيسة الأرثوذكسية، لا ننال عقوبة مع المسيح، بل ننال التجديد والشفاء والتطهير من كافة الخطايا. وعندما تغيب فكرة العقوبة عن صلوات المعمودية في كل الكنائس الأرثوذكسية، فإننا نلمح على الفور المصدر غير الكنسي والغريب الذي يحاول بعض إكليروس هذا الزمان إدخاله على الأرثوذكسية.

تصورنا أننا نُعاقب مع المسيح، أو في المسيح، فإننا يجب أولاً أنْ نسأل: هل هذا هو تعليم الآباء؟ والجواب بكل يقين هو بالنفي. وأيضاً هل هذا جزء من شركتنا في المسيح؟ إنَّ هذه الشركة هي شركةٌ أبدية، تبدأ هنا وتبقى في حياة الدهر الآتي .. تبدأ بعطية التبني هنا وتبقى في حياة الدهر الآتي .. فهل العقوبة والتشفي التي تنسب للآب هي جزء من هذه الشركة؟. لاشك في أنَّ هذا تجنٍ لا مثيل له على صلاح الله الآب، وعلى وحدة جوهر الثالوث.

وإذا قلنا إنَّ ما حدث على الصليب لا علاقة له بالمعمودية، ولا بالإفخارستيا، لفتحنا باب الجدل على مصراعيه، ووقعنا في ذات بئر لاهوت العصر الوسيط؛ لأن هذا القول هو المقدمة التاريخية والحقيقية التي فتحت باب الجدل في العصر الوسيط وأدت إلى ثنائية الصليب والأسرار التي ورثتها حركة الإصلاح.

أُنشودة عيد العُنصرة

فلنسبح اسم الرب لأنه بالمجد قد تمجد
صعد إلى علو السماوات وأرسل لنا البارقليط
روح الحق المعزِي آمين الليلويا
ثالوث في واحد وواحد في ثالوث
الآب والابن والروح القدس
بالابن نلنا شركة القدوس الواحد غير المنقسم
بالروح صار لنا نار التقديس وخلاصاً أبدياً نفيس
جاء إلينا ابن الآب بولادة أزلية من فوق
جعل لاهوته واحداً مع الناسوت
لكي به ننال ميراث الملكوت
أباد الموت على الصليب
جعل كل عاصٍ ابن حبيب

الصليب
وذبائح العهد القديم
في اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي

مُقدِّمة:

حسب سفر اللاويين ص ١ ـ ص ١٦ كانت الذبائح هي كالآتي:

١ـ ذبيحةُ المحرقة (١ : ٣ ـ ١٧) مع (٦ : ٨ ـ ١١).

٢ـ التقدِمة، أو المِنحة، وهي مِن الدقيق، وتُسمَّى القُربَّان (٢ : ١ ـ ٢٦) مع (٦ : ١٤ ـ ٢٣).

٣ـ ذبيحةُ السلامة (٣ : ١ ـ ١٧) مع (٧ : ١١ ـ ٣٤).

٤ـ ذبيحةُ الخطية (٤ : ١ ـ ٥) مع (٦ : ٢٤ ـ ٣٠).

٥ـ ذبيحةُ الإثم (٥ : ١٤ ـ ٦ : ٧) مع (٧ : ٧١).

٦ـ ذبيحةُ يوم الكفَّارة، أو تيس عزازيل (ص ١٦).

وضع اليد على الذبائح حسب الأسفار المقدسة

يقول سفر اللاويين عن ذبيحة المحرقة: «ويضع يده على رأس المحرَّقة، فيرضي عليه للتكفِّير عنه» (١ : ٤). ويُلاحَظ هنا أنَّ سفر اللاويين لم يذكر أن هناك علاقة بين ذبيحة المحرقة والخطية بالمرة، ذلك لأنها تقدمة اختيارية، فكما لاحَظَت الدسقولية، إنَّ النص يبدأ بـ "**إذا** قرَّب إنسانٌ مِنكم" (١ : ١). وغياب الحديث عن الخطية يستدعي أن نلاحظ أن وضع اليد ليس له علاقة بانتقال الخطية للأسباب الآتية:

١ـ لا يوجد نصٌ واحدٌ في العهد القديم، ولا في المصادر اليهودية السابقة على المسيحية، أو في المسيحية الشرقية، يقول إنَّ الخطيةَ تنتقل بوضع يد مُقَرِّب الذبيحة إلى الذبيحة. لقد وُلِدَت هذه الفكرة في مدارس لاهوت العصر الوسيط في أُوروبا، وهي ثمرة الفكر القانوني السائد في أُوروبا عن عدم وجود مغفرة مجانية. وأُلصقت هذه الفكرة بدايةً بالعهد القديم، ثم وصلت إلى المسيح نفسه الذي دفع ثمن خطايا البشرية.

٢ـ مِن الصعب علينا أنْ نرى كيف يمكن أنْ تنتقل الخطية، وهي عملٌ إنساني في القلب والفكر والإرادة، إلى حيوانٍ بريئ لا يعرف فكر الإنسان، ولا يملك أنْ يشارك الإنسان في شيئٍ مِن خطاياه.. هذه خرافةٌ شائعةٌ في أوساط شِيَّع "الاخوة"، وغيرهم، يحاولون بها شرح نص الرسول بطرس **"حَمَلَ خطايانا في جسده على الخشبة"**، وهو نصٌ، كان مِن المفروض على المُفسِّر أنْ يعود بشأنه إلى الأصل اليوناني لكي يعلم أن فعل **"حَمَلَ"** لا يعني أنْ يضع على نفسهِ، أو **"يحمِل"**، بل يعني **"يرفع"**، ويزيل الخطية كعائق، وهنا، حَمَلَ تعني أزال، ولا تعني أضاف إلى نفسه، ومَلَكَ ما لا يمكن امتلاكه، وهوَ الخطية.

٣ـ وكما نرى هنا أنَّ ذبيحة المحرقةَ هي **"رائحةَ سرور للرب"**، فهي تقدِمةٌ اختياريةٌ، ليس لها علاقة بالخطية، ولكن المُقَرِّب يضع يده علىٍ رأس الذبيحة، لكي يؤكِّد فعل التقدِّيم، حسب شرح كل عُلماء المسيحية واليهودية، وبشكلٍ خاص، العالِم اليهودي المعاصر *Milgrom* [1] الذي نشر أكبر دراسة مُعاصرة عن سفر اللاويين شملت كل ما قيل عن هذا الطقس.

٤ـ أخيراً، وهذا هو الأهم، إننا لا نجد عند الآباء الذين شرحوا سفر اللاويين نصاً واحداً ـ ابتداءً مِن العلاَّمة أوريجينوس ـ يقول إنَّ الخطية تنتقل بوضع اليد مِن المُقَرِّب إلى الذبيحة. ويا ليت الذين يختلفون معنا فيما قدمنا مِن شرحٍ لذبائح العهد القديم، يُقدِّمون لنا نصاً واحداً مِن آباء الكنيسة، لكي نُسلِّم لهم

---

(1) J. Milgrom, Studies in Cultic Theology and Terminology, 1983.
وأيضاً شرح سفر اللاويين لنفس المؤلف.

بما جاء في شرح الشِّيع المتطرفة، التي تنتمي إلى حركة الإصلاح البروتستانتية، وليس إلى الكنائس الإنجيلية الرئيسية[٢]، ولم يذكر أيٌّ مِن الآباء إنَّ ربنا يسوع المسيح **"قُدِّمَ محُرقةً"** للآب، فالمصطلح نفسه غائب عن العهد الجديد، وبالتالي فهو غير معروفٍ في الأسفار الإلهية، ولا في كتابات الآباء. أمَّا نص أفسس **"قربان وذبيحة لله رائحة طيبة"** (٥ : ٢)، فهو لا يجب أن يُشرح على أساس ما جاء في العهد القديم، وذلك استناداً إلى شرح الآباء وحسب القاعدة اللاهوتية التي لا تخطئ، وهي أن تفسير العهد القديم يجب أن يتم على أساس إعلانات العهد الجديد، وليس العكس، وعن ذلك يقول القديس كيرلس الكبير:

> [صار المسيح رائحةً ذكيةً؛ لأنه أعلن في ذاته الطبيعة الإنسانية التي صارت بلا خطية، وهو ما جعل لنا ثقةً به وفيه، وفي اللّه الآب الذي في السموات، لأنه مكتوب لأن

---

(٢) انتقل هذا الشرح إلى بعض الكتب التي صدرت عن بعض الأقباط لشرح سفر اللاويين، فيقول أحد هذه الكتب ص ٢١:"يضع الإنسان يده على رأس المحرقة ليصير واحداً معها، سواء في اعترافه بإحسانات الله عليه عندما يقدم الذبيحة للشكر، أو في اعترافه بخطاياه وآثامه كما في ذبيحة الخطية أو ذبيحة الإثم، لتنتقل الخطية إلى الذبيحة فتكفر عنه وتوفي دينه". ولعلنا نلاحظ أن المؤلف لم يذكر المرجع الذي استند إليه في إثبات هذه الفكرة، والتي يبدو أنه يسلم بها كما لو كانت إحدى المسلمات، وبالرغم من أنه يورد الكثير من أقوال الآباء الذين شرحوا سفر اللاويين إلاَّ أنه لم يقدم نصاً واحداً لأي منهم يؤكد به أن الخطية تنتقل من الخاطي إلى الذبيحة. كما نلاحظ أن المؤلف عندما يقول:"يضع الإنسان يده على رأس المحرقة ليصير واحداً معها"، فهو هنا ينقل ما قاله ماكنتوش نقلاً يكاد يكون حرفياً، حيث يقول ماكنتوش: "إن وضع اليد كان إشارة إلى أن الذبيحة نيابة عن الشخص وتمثيله فيها، وكأن الشخص بوضع يده على رأس الذبيحة صار هو والذبيحة واحداً". أنظر مذكرات على سفر اللاويين بقلم تشارلز ماكنتوش – تعريب المرحوم ناشد ساويرس – الطبعة الثالثة ١٩٥٥م – الناشر مكتبة الإخوة – جزيرة بدران بشبرا مصر ص ٢٥ – ٢٦. ويعود ماكنتوش لتأكيد ذات الأفكار في موضع آخر فيقول: والآن نتأمل في معنى وضع الأيادي، ومع أن الأيادي كانت توضع على ذبيحة المحرقة وذبيحة الخطية على السواء، إلاَّ أنه في الحالة الأولى كان مقدم الذبيحة يضع نفسه موضع ذبيحة بلا عيب. أما في الحالة الثانية فكان وضع اليد ينقل الخطية من على مقدم الذبيحة إلى رأس الذبيحة، هذا ما جرى في الرمز ... وماذا نتعلم نحن من حقيقة وضع الأيادي؟ نتعلم أن المسيح"جعل خطية لنصير نحن بر الله فيه" (٢كو ٥)، فهو قد أخذ مركزنا بكل نتائجه لكي نأخذ نحن مركزه بكل نتائجه. فعند الصليب جعل خطية لكي نصير نحن أبراراً أمام عدل الله وقداسته، وإذ وضعت عليه خطايانا عند الصليب فقد حجب الله وجهه عنه .... هذا هو الحق الإلهي الذي يتضمنه "وضع الأيادي"، فمتى وضع الساجد يده على رأس المحرقة لم تعد القضية معه بل مع ذبيحة المحرقة....ومجرد وضع الساجد يده على الذبيحة يجعله واحداً معها في نظر الله. لأن تعالى ينظر إلى الساجد في الذبيحة. أما ذبيحة الخطية فمتى وضع الشخص يده على رأسها تحول نظر الله إلى ما كان عليه مقدم الذبيحة وما يستحقه... لأنه متى وضع الشخص يده عليها أصبحت واحداً معه والقضاء الذي كان على الشخص يصبح على الذبيحة فيدين الله خطية الشخص في الذبيحة" !!! المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤. هذا ويلاحظ أننا أوردنا الكثير من أقوال بعض الكتاب الأقباط في الفصل التمهيدي من هذه الدراسة تتطابق مع ما أثبتناه عند ماكنتوش.

لنـا الثقـة يـا أخـوة بالـدخول إلى قـدس الأقـداس بـدم المسيح، لأنـه أقـام لنـا طريقـاً جديـداً حيـاً بالحجـاب، أي جـسده (عب١٠ :١٩) وعلينـا أن نفهـم كيـف يقـول إنَّ دمـه وجسده، وهمـا مـا يـدعوهما الحجـاب، ولـسبب واضـح، لأن الحجـاب في هيكـل سـليمان كـان يخفـي تمامـاً قـدس الأقـداس، وهكـذا فـإنَّ جـسد الـرب أيـضاً لا يـسمح برؤيـة جمـال اللاهوت الفائق لكلمة اللّه، بل كان مخفياً فيه]

(المسيح واحد الترجمة العربية صـ ٨٤ يناير ١٩٨٧م).

وغياب تفسير ذبيحة الرب يسوع استناداً إلى العهد القديم، وغياب هذه الأفكار والمصطلحات عِن العهد الجديد، وعِن كتابات الآباء، هو أمرٌ جديرٌ بالاهتمام لا يجب أن يمر دون تحذيرٍ، حتى لا يتوه الدافع الحقيقي مِن كتابة هذه الدراسة، وهو تأكيد حرية الشخصً في الشرح، مع مراعاة الالتزام بما استقر في تراثنا الأُرثوذكسي.

ويؤكد ذلك ما يقوله الرسول بولس في رسالته إلى العبرانيين عن المسيح يسوع ربنا، الذبيحة الأبدية المعروفة لمشورة الثالوث قبل خلق العالم:

"لذلك عند دخوله إلى العالم (أي تجسده)

يقول (المسيح نفسه للآب)

ذبيحةً وقرباناً لم تُرِّد (ذبائح العهد القديم)

ولكن هيأت لي جسداً (التجسد)

بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسَّر (رفض ذبائح العهد القديم)

ثم قلت هنذا أجئ في سفر الكتاب مكتوبٌ عني (نبوات العهد القديم)

لأفعل مشيئتك يا الله" (الطاعة، وعمل المشيئة) (عب ١٠ : ٥ـ٧).

فكيف إذن يجوز لنا أنْ نفسر الخلاص وموت المسيح على أساسٍ مرفوض لم يطلبه الله بالمرة ..

وهذا هو تعليم الرسول بولس نفسه لأنَّه يقول بعد ذلك مباشرةً:

"إذ يقول آنفاً (سابقاً)

إنك ذبيحةً وقرباناً ومحرقاتٍ، وذبائح للخطية لم تُرِّد، ولا سررت بها.
التي تُقدَّم حسب الناموس، ثم قال هنذا أجئ لأفعل مشيئتك يا الله،
ينزع الأوَّل لكي يُثبِّت الثاني" (عب ١٠ : ٨-٩).

ومع هذا، فالبعض لا يريد أنْ ينزع الأوَّل، بل يريد أنْ تكون له السيادة والهيمنة على الثاني، وأنْ تصبح طقوس وعوائد الأوَّل هي المبدأ الأزلي الذي يشرح كل شئ. يريدون أنْ يصبح الظل هو أساس تفسير النور، وأنْ تسود الرموز على الحقيقة، وأنْ يصبح المسيح نفسه سجين الشريعة الموسوية ..

وتأمل معي قارئي العزيز: لم يُسَّر الله ولا أراد ذبائح خطية؛ لأنَّه يريد ذبيحة حياة معينة، هي ذبيحة الابن، لم يطلب محرقات وذبائح قرابين لا تطهر ضمائر الكهنة أنْفسهم .. ومع هذا يريدون سيادةً للعهد القديم على العهد الجديد، حتى لا تسود النعمة، وحتى تبقى المحبة الإلهية نفسها سجينة الشريعة اليهودية.

وتقول الشريعة اليهودية بشكل واضح: "النفس التي تخطئ هي تموت. الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل مِن إثم البر. بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون" (حزقيال ١٨ : ٢٠). فالله لا يقبل موت إنسان عن إنسان، كما أنَّ موت البديل يتعارض مع كلمات النبي، ولا أدل على ذلكَ مِن أنَّه في أثناء صراع، وشفاعة موسى عن بني إسرائيل، يطلب موسى أنْ يموت بديلاً عن شعبه "أُمحُني مِن كتابك"، ولكن الله يقول له رداً على طلبه، "مَن أخطأ إلى أمحوه مِن كتابي" (خر ٣٢ : ٣٣)، ويقول المزمور:"الأخ لن يفدي الإنسان فداءً، ولا يُعطي الله كفَّارةً عنه" (مزمور ٢٩ : ٧).

"Truly no man can ransom himself or give to God the price of his life for the ransom of his live is curtly and can never suffice."

ولو أنَّ سفر اللاويين قال إنَّ الذبائح تُقدَّم عوضاً عن الخاطئ، أو قال سفر التثنية إنَّها تُذبح بدلاً عن الذي يُقدِّمها، لوجدنا العذر الواضح لهذا التفسير الذي لا وجود له، لا في الكتاب المُقدَّس، ولا عند الآباء، بل وفَدَ إلينا مع شيعة الأخوة، ومِن خلال تفاسير مُعلِّم الأخوة "ماكنتوش". ونظراً لدقة هذه النقطة بالذات

تحتم علينا أنْ نقدِّم تفسير الآباء لعلاقة الرب يسوع بذبائح العهد القديم.

تقسيم

على مدى هذا الفصل وفي ثلاثة مباحث نعرض في الأول منها لتقدمات العهد القديم المستخدمة في الليتورجية للتعبير عن ذبيحة المسيح، ذلك أن الليتورجية لم تستخدم أياً من الذبائح الدموية للتعبير عن ذبيحة المسيح. وفي المبحث الثاني نعرض لذبيحة الإفخارستيا التي تقدمها الكنيسة، وفي المبحث الثالث نبسط التسليم الرسولي الخاص بذبائح العهد القديم كما دوَّنه القديس اثناسيوس الرسولي.

تقدمات العهد القديم المُستخدَمة في الليتورجية للتعبير عن ذبيحة المسيح

أولاً: تقدمة ملكي صادق

هي تقدمة إبراهيم لملكي صادق، وهي تقدمة رمزية لوليمة الإفخارستيا، وطبعاً لم يقُل إبراهيم "هذا هو جسدي"، وإنما وبشكلٍ واضح، كانت هذه التقدِمة للبركة، ولم يكن لها علاقة بالعدل الإلهي، أو سفكٍ الدم، أو ما إليه مِن مقولاتٍ شاعت في كتب الشيع البروتستانتية. كما إنَّ هذه الذبيحة لم تكن ذبيحةً حيوانية، بل كانت تقدمة خبز وخمر.

ولذلك جاءت النبوة عن الرب يسوع "أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق" حسب نص الليتورجيا القبطية، وهو النص الذي يقال في مناسبة قراءة الإنجيل أثناء حضور الأسقف، مؤكدةً الكنيسةُ بذلك استمرار كهنوت ملكي صادق في الكنيسة الجامعة؛ لأنه طقس المسيح نفسه الذي هو رئيس الكهنة بذبيحة وقربان الخبز والخمر. فلماذا إذن العودة إلى الكهنوت اللاوي، إلى موسى وهارون، بينما نحن نعود إلى إبراهيم أب الأُمم الذي نال بركة ملكي صادق، وهي إشارة ضمنية إلى بركة ملكي صادق الحقيقي للأُمم باعتبار أن كهنوت ملكي صادق هو رمز لكهنوت المسيح الذي يجعل الكنيسة قادرة على تقديم ذبيحة الإفخارستيا على المذبح، أمَّا العودة إلى الكهنوت اللاوي فهو ينفي عن الإفخارستيا كل ما يقال عن تقدمة ملكي صادق، ويفصل فصلاً تاماً ما بين كهنوت العهد الجديد وكهنوت الرب لأن الكاهن في الكنيسة هو استمرار لكهنوت المسيح، أي كهنوت ملكي صادق.

ثانياً: ذبيحة اسحق

احتلت ذبيحة إبراهيم واسحق مكاناً بارزاً في الفكر اليهودي السابق على المسيحية. وعندما يستخدم الرسول بولس ذبيحة اسحق في العبرانيين ١١ : ١٧ـ١٩ فإن اسحق يُعتبر مثالاً للقيامة حسب كلمات الرسول (عب ١١ : ١٩) *Parabole*.

وبعد شرح الشهيد يوستينوس والقديس إيريناوس وغيره مِن آباء القرن الثاني والثالث، يجب أنْ نتوقف عند شرح العلاَّمة أوريجينوس، فهو على قدر كبير مِن الأهمية، ذلك إننا درجنا في مصر على اعتبار أنَّ نص رومية ٨ : ٣٢ وحسب الترجمة البروتستانتية "الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء؟" يؤكد عدم شفقة الآب الذي تقسَّى قلبه ساعة الصلب، وصب جام غضبه على الابن لكي يشفق على الخطاة. فقد كان العلاَّمة أوريجينوس هو أوَّل مَن لاحظ أنَّ الفعل اليوناني "εφεισατο" المُستعمل في الترجمة البيروتية بمعنى "لم يُشفِق"، هو ذات الفعل المُستخدم في الترجمة السبعينية للحديث عن تقدمة أو ذبيحة اسحق بمعنى "لم يُمسك"، ويا للعجب فبينما تستخدم الترجمة العربية البروتستانتية "لم يشفق" لنص (رو ٨: ٣٢)، نجدها تستخدم "لم تمسك ابنك وحيدك" لنص (تكوين ٢٢ : ١٦) وهو حسب الترجمة الإنجليزية *Did not spare* "لم تمنع"[(١)]. وهو ما يعني أنه قد تم ترجمة النص انطلاقاً مِن فكر العصر الوسيط، حتى يتوافق نص الكتاب المقدس مع الفكر اللاهوتي البروتستانتي، وبذلك نحفظ القسوة وعدم الشفقة للآب حتى تبقى صورة القسوة في قلب الله نفسه، عندئذٍ نستطيع أنْ نحفظ للقسوة مكاناً في المُعاملات والعلاقات الكنسية.

ويجب أنْ نلاحظ، كيف يشرح "المثال اسحق" حقيقة موت المسيح على الصليب دون أنْ يشرح كل الجوانب الخاصة بموت الرب؟ فحسب شهادة الليتورجية نفسها في قسمة خميس العهد:

---

(١) ليس أدل على صحة كلامنا من أن الترجمة العربية الجديدة التي أصدرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط قد عدلت هذه الترجمات، واستخدمت عبارة: "لم تبخل"، "لم يضن" على التوالي، وذلك كما سبق وأسلفنا.

"فذبح اسحق كان إشارةً إلى سفك دم المسيح ابن الله على الصليب عن خلاص العالم. وكما حمل اسحق حطب المحرقة، كذلك حمل المسيح خشبة الصليب، وكما رجع اسحق حياً، هكذا قام المسيح حياً مِن الأموات ... اللهم يا مَن قَبِلَ ذبيحة أبينا إبراهيم أقبل هذه الذبيحة مِنا في هذه الساعة ..".

وهكذا يتواصل تقديم إبراهيم لإسحق مع تقديم إبراهيم للخبز والخمر لكي يجمع العهد الجديد الرمزين معاً في وحدةٍ واحدة مصدرها الحقيقي هو تقديم الرب يسوع المسيح نفسه لنا، وليس للآب قرباناً وذبيحة أعظم من كل ذبائح العهد القديم لكي نحيا به وفيه.

وهناك إجماع عند الآباء جميعاً منذ زمن الرسول بولس على أنَّ الابن الوحيد "اسحق" هو رمزٌ للمسيح، ليس فقط في تقديمه على المذبح، بل في ميلاده المُعجزي بشكل يفوق القانون الطبيعي كما ذكر الرسول « نحن أيها الأخوة نظير اسحق أولاد الموعد» (غل ٤ : ٢٨)، ونحن أبناء العاقر التي لم تلد أوَّلاداً أي أورشليم السمائية أي السماء إذ لم يولد أحد مِن فوق قبل ميلاد ربنا يسوع المسيح بالجسد (غل ٤ : ٢٦). وهكذا تصبح هذه الذبيحة تقدمة طاعة ومحبة (العلاَّمة أوريجينوس عظات على سفر التكوين ١١ : ٧).

ومُلخَّص تعليم الآباء هو كما يلي:

١ـ **"لم يُذبح اسحق بالمرة، وهذا يعني أنَّه مثال"**

(ترتليان ضد مارقيان الغنوسي ٣ : ١٨).

٢ـ **"قدَّم إبراهيم ابنه الوحيد طاعة ومحبة لله، لكي يقدِّم الله ابنه الوحيد عن كل نسل إبراهيم ذبيحة مِن أجل خلاصنا محبةً"** (القديس ايريناوس ضد الهرطقات ٤ : ٥ و ٤).

٣ـ **"عندما قدَّم إبراهيم ابنه حمل الخشب مشيراً بذلك إلى طريقة موت المسيح الذي مات كذبيحةٍ عندما حمل خشبة الصليب"** (ترتليان ضد مارقيان الغنوسي ٣ : ١٨).

٤ــ "وكمـا أمـر الله إبـراهيم أنْ يقـدم اسـحق، وحمـل اسـحق الخشبة للذبيحة مثالاً يتحقق في زمـان المسيح، وظهـر حمـلٌ مربوطٌ بقرنيه في شجرة، وقُدِّمَ عِوضاً عنه، هكـذا في الزمـان المحدد حمل المسيح الصليب على كتفيـه، ورُبِـطَ علـى خـشبة الصليب مثل الحمل، وكما اشتبكت فروع الـشجرة في رأس الحمل، هكذا كُلِّل الرب على الصليب بإكليل الشوك"

(ترتليان ضد المتهودين فقرة : ١٣).

ويـستمر التـسليم الرسـولي مِـن القـديس بـولس حتـى عـصر القـديس أوغسطينوس، وما بعده..

ثالثاً: تقدمة ملكي صادق، وذبيحة إسحق ليس لهما علاقة بالعدل الإلهي

حسب الرمز نفسه لا يوجد مكان، أو مجال للحديث عن ترضيةٍ أو سفكُ دمٍ لإرضاء العدل، أو تهدئة غضب الآب .. الخ. كل هذه عبارات لا مجال لها في تقدمة إبراهيم لملكي صادق، وتقدمة محبة وطاعة إبراهيم أب الآباء الذي لم يمسك ابنه الوحيد عن الله، وقدَّمه في طاعةٍ كاملة. ومع أنَّ الرمز اسحق لا ينطبق تماماً على الحقيقة، لأنَّ الحَمَل حل محل اسحق، أو ذُبِح عوضاً عنه، إلاَّ أنَّ المسيح لم يترك مكانه على الصليب لآخر، وإنْ كانت هناك آراء يهودية انتشرت في آخر القرن السادس لمحاربة الكنيسة تحاول أنْ تقول إنَّ المسيح رُفِع، وحل يهوذا الإسخريوطي مكانه اعتماداً على استخدام ذبح اسحق، وحلول الحَمَل مكان اسحق على المذبح .. ولكن هذه البدعة اليهودية لم تجد لها مكاناً في تاريخ الفكر الديني الشرقي وحاربها الآباء.

وهكذا نستطيع أنْ نتصور أنَّ تقدمة ملكي صادق، وتقدمة اسحق لا تتجاوب مع الفكر القانوني والتصور السياسي للخطية والخلاص، فهي خاليةٌ تماماً مِن موضوع الترضية، بل وحتى البديل، وهو هنا الحمل في ذبح اسحق لم يكن بديلاً يحمل عقوبةً أو دينونةً، بل بديلاً يُعطي الحياة.

ذبيحة الإفخارستيا
التي تقدمها الكنيسة

تحفظ لنا الليتورجية المبدأ اللاهوتي الهام الذي نراه في كل صلوات الكنائس الشرقية، وهو أنَّ الإفخارستيا هي ذبيحةٌ تقدمها الكنيسة، حسبما رأينا في قسمة ذبح اسحق وفي كل الصلوات الأُخرى التي يعرفها القارئ .. وهنا يجب أنْ نتوقف لكي نسأل الذين يزرعون الفكر الغربي الوافد إلينا مِن خلال كتب المُبشِّرين، ويحاولون القضاء على سر الإفخارستيا مِن أجل إذاعة تعليم لا أساس له في تراثنا الشرقي برمته:

+ ما هو السند اللاهوتي، وعلى أي أساس تقول الكنيسة: **"أقبل هذه الذبيحة مِنا في هذه الساعة"**؟ وكيف يتجاسر القديس كيرلس الإسكندري، ويقول هو أيضاً: **"أقبل مِني هذه الذبيحة فديةً عن خطاياي وجهالات شعبك"**؟ (قسمة للابن سنوي رقم ١٨) كيف وعلى أي أساس نقدِّم هذه الذبيحة التي قُدِّمَت (حسب شرح فكر العصر الوسيط وعصر الإصلاح) للآب لكي تحمل دينونة وغضب الآب .. لعلك ترى عزيزي القارئ إننا أمام احتمالين لا ثالث لهما:

الاحتمال الأوَّل: إنَّ ذبيحة المسيح على الصليب تسير في ذات خط تقدمة ملكي صادق، وذبيحة أسحق، أي ليست من أجل رد الغضب الإلهي، بل هي تُقدَّم في المسيح، وبالمسيح للآب والابن والروح القدس حسب نص صلاة القديس مار مرقس نفسه:

> **"ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح هذا الذي مِن قِبَلِه نشكر، ونقرب لك معه، ومع الروح القدس الثالوث المساوي غير المفترق، هذه الذبيحة الناطقة، وهذه الخدمة غير الدموية".**

الاحتمال الثاني: إذا كانت الكنيسة ما تزال تقدم ذبيحةً، إذن فموت الرب على الصليب مِن أجل البشر ودفع الفدية للآب لم يكن كافياً .. الخ، وبالتالي لابد مِن ذبائح متتالية ومتتابعة لكي يهدأ غضب العدل الإلهي عنا.

جوهر المشكلة: وتبقى القضية الأساسية، والكُبرى وهي أن فشل لاهوت العصر الوسيط يعود أصلاً إلى التصوُّر القانوني للكفَّارة، وإنَّ الاستغناء عن هذه الفكرة يحل كل المشاكل الفكرية والفلسفية التي أثارها العصر الوسيط والتي خلقت ازدواجية الذبيحة، وصوَّرت الآب بصورة الإله الذي يحب العقوبة، ويجد راحته في القتل وسفك دم البريء، ويهدأ غضبه بموت ابنه، ولا يتحرك هذا الغضب، ولا يثور عدله بالمرة لصلب البريء، وهو هنا إله يكيل بمكيالين، فيجد الخلاص والراحة في معاقبة أحب شخص إليه وهو شخص الابن الوحيد المحبوب.

ومَن يعجز عن أنْ يرى في هذا الطرح، الفكر السياسي المتأصل في القانون الوضعي، لا سيما قانون عصر الإقطاع الذي ألهم أنسلم هذه الأفكار، أقول إنَّ مَن يعجز عن رؤية هذا، عليه أنْ يذهب إلى أقرب عيادة نفسية لأنَّه يفشل حتى في تصور العدل الأرضي، عندما يتصور إنَّ العدل يتحقق عندما يتولى القاضي تعذيب ابنه بدلاً عن المجرم، وكأن جريمة تعذيب وقتل البريء لا وجود لها في القانون الوضعي نفسه. فعندما مزج أنسلم مبادئ الإيمان بالقانون الأُوروبي، خرج علينا بهذا الكائن المشوه الذي ليس هو مسيحيٌ، ولا هو أوروبي إقطاعي، ليس لاهوتيٌ يحمل ملامح الإنجيل، ولا قانونيٌ يحمل شكل وجوهر القانون الوضعي، لأنَّ القانون الوضعي لا يقبل بالمرة ترضيةً على حساب الأبرياء، أو تعويضاً يقوم على التشفي والانتقام مِن البريء؛ لأنَّ هذا في حد ذاته جريمةً شنيعة .. أمَّا ضياع ملامح الإنجيل، وإبادة المحبة الإلهية إبادةً كاملة، فنراه في فصل الآب عن الابن واختصاص الآب بالعدل.

التعليم اللاهوتي الشرقي

١ـ ليست المشكلة هي مشكلة بحث ألفاظ وكلمات (مع أهمية الألفاظ والكلمات) ولكن المشكلة هو فساد تصور العقل الإنساني، واغتراب هذا العقل عن ينابيع الفكر الكنسي الشرقي المتجذر في أسفار الكتاب والآباء والليتورجية.

وكما رأينا سابقاً إنَّ الله لا يخضع للقانون أو الشريعة .. فهذا باطل تماماً .. وكما رأينا سابقاً إنَّ الصليب هو نعمة الله، وليس وليد الشريعة أو الناموس الموسوي ويبقى الإيمان الأُرثوذكسي الذي سوف ندرسه فيما يلي واضحاً لكل مَن يريد رؤية الآب والابن والروح، جوهراً واحداً، وحياةً واحدةً، وإرادةً واحدةً مثلثة .. وكما ذكرنا من قبل أنه في كتابات الآباء مات الرب على الصليب لكي يبيد الموت بالموت، وبالقيامة يعلن الخلود وعدم الفساد والحياة الأبدية وقيامة الجسد، وبذلك يصبح الفداء هو فداء للإنسان مِن الموت والفساد، وليس خلاص الله نفسه مِن عذاب نار العدل التي صبها على ابنه الوحيد، وأشعل فيه النار.

٢ـ وبحضور المسيح الحي **الكائن معنا على هذه المائدة عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله. الجالس على كرسي مجده** .. (قسمة تقال في أعياد الملائكة) تنتقل حياته الغالبة للموت والفساد إلى حياتنا الميتة، ويصل إلينا ذات التحول الذي حدث له.

٣ـ وتصبح النعمة، ليست علاقة أخلاقية أدبية، بل شركة في لاهوت الابن الكلمة على النحو الذي تردده الكنيسة منذ فجر العصر الرسولي **"هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"**، وهي عبارةٌ يرددها القديس اثناسيوس الرسولي نفسه (راجع المقالة الأولى ضد الأريوسيين : ٤٤، ٤٧، ٥٠ المقالة الرابعة ضد الأريوسيين : ٧).

وهذه هي بعض الجواهر الثمينة للقديس اثناسيوس الرسولي:

[تألم لكي يؤسِّس التحرر مِن الألم،
نزل لكي يرفعنا،
احتمل أنْ يولد لكي نحبه، وهو غير المخلوق (غير المولود)،
نزل إلى الفساد (الطبيعة الإنسانية) لكي يُلبِس الفسادَ الخلود،

صار مِن أجلنا ضعيفاً لكي نرتفع نحن إلى قوته،
نزل إلى الموت، لكي يعطي لنا الخلود، ويعطي حياة للموتى،
وأخيراً تأنس، لكي يجعلنا نحن البشر الذين نموت مثل
البشر، أنْ نحيا مرةً ثانيةً، ولكي لا يسود الموت علينا،
حسب ما تبشرنا به الكلمات الرسولية "الموت لن يسود علينا]
(الرسالة ١٠ مِن رسائل الفصح فقرة ٨ ص ٥٣١ مِن الترجمة الإنجليزية).

رب الموت في تراثنا الشرقي الأُرثوذكسي

مِن السهل علينا أنْ نرى كيف يوصف المسيح بأنَّه رب الحياة. فهو خالق كل الأشياء بكلمة قدرته (عب ١ : ١ـ٢ ـ كولوسي ١ : ١٥ـ١٦) ولكن مِن الصعب على مَن لم يدرس تراثنا الشرقي الأُرثوذكسي أنْ يتصور أنَّ المسيح هو رب الموت. فقد ساد الله المتجسد على الموت الذي جلبه الإنسان على نفسه، وحوَّله بقدرته الفائقة إلى وسيلة خلاص عندما أباده كقوة دمار ونهاية لحياة البشر، وضمه إلى أسرار المعمودية والإفخارستيا، وجعله الخادم الأمين الذي يعمل فينا حسب قول الرسول بولس (٢كور ٤: ١٠ـ١٢) لكي يسهم كقوة خلاص في تكوين الحياة الجديدة .. ونحن نقبل الموت في المسيح عندما نموت ليس موت الخطية، بل موت الصليب حسب كلمات الرسول بولس «مع المسيح صلبت، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غلا ٢ : ٢٠) وهو ما يجعلنا ندرك أنَّ أعظم ألقاب الحياة النُسكية القبطية هو **"لُبَّاس الصليب"**.

تحوُّل الموت في المسيح لتحرير الإنسان

وتحوُّل الموت يقول عنه القُداس الإلهي:

"والموت الذي دخل إلى العالم بغواية الحية هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد"، فقد هدم الرب الموت كفناءٍ، ونهايةٍ طبيعية للإنسان (تجسد الكلمة ٤ : ٢٥ ـ ٣٠). لقد حوَّل لعنة الموت إلى بركة حياة في المعمودية، وحوَّل نهاية الحياة بالموت إلى بدايةٍ جديدةٍ، وتم كل هذا بتجسده وموته وقيامته:

[هو الحياة، وهو رب الموت، فالمسيح هو واهب الحياة
للآخرين لا ينبغي أنْ يسود عليه الموت. ومِن المستحيل أنْ

يسود عليه الموت لأنَّه ليس إنساناً عادياً كما تعتقدون أنتم (الأريوسيون)، بل هو بالحقيقة ابن اللّٰه لأنَّ جميع البشر خاضعين للموت ..]

(المقالة الثانية ضد الأريوسيين ١٦ ص ٣٢ مِن الترجمة العربية).

ويلخِّص القديس اثناسيوس كل ما جاء في رسائل القديس بولس في الفقرة ٥٥ مِن المقالة الثانية ضد الأريوسيين:

[جاء المُخلِّص إلى العالم مِن أجل الشهادة، ولكي يقاسي الموت مِن أجلنا، ويقيم البشر، وينقض أعمال إبليس، وكان هذا هو سبب حضوره بالجسد، لأنَّه بغير (تجسده) كان مِن المستحيل للقيامة أنْ تتحقق لو لم يكن هناك موت، وكيف يكون موت إنْ لم يكن له جسد .. فإذا جاء الموت بواسطة إنسان، فبإنسان أيضاً قيامة الأموات .. إذن المُخلِّص لم يأت لأجل ذاته، بل لأجل خلاصنا ولكي يُبطل الموت ولكي يدين الخطية ..] (راجع صفحات ٨٨-٨٦ الترجمة العربية)[1].

ولذلك لا يتردد معلمنا اثناسيوس في أنْ يقول عن جسد وناسوت الرب يسوع هذه الكلمات التي تُعبِّر عن تحوُّل الفساد والموت، إلى مجدٍ وقيامةٍ وتألُّهٍ.

[فإن جسده كان هو أوَّل (جسد) تم فداؤه وتحريره لأنَّه جسد الكلمة] (المقالة الثانية ضد الأريوسيين ٦١).

[فإنْ كان كل شئ قد صار خليقةً جديدةً، فإنه مِن الضروري أنْ يكون هناك شخص هو أوَّل هذه الخليقة، وصار أوَّل الذين خُلِقوا مِن جديد].(المرجع السابق ٦٥ و ٦٦).

[ونحن نستطيع أنْ نرى رايات النصر على الموت، بل عدم فسادنا بواسطة جسد الرب. ولأنَّه قام بمجدٍ، صار مِن الواضح أن قيامة الجميع سوف تتم، وحيث أنَّ جسده ظل بلا فساد، لا يبقى لدينا شك في أنَّنا نحن سيكون لنا عدم الفساد] (رسالة ١١ مِن رسائل الفصح فقرة ١٤ ص ٥٨٨).

---

[1] وبالرغم من ذلك يقع معلم أرثوذكسي في خطأ ظاهر عندما يعلّم بأنه "على الرغم من موت المسيح، لا زال الموت باقياً لأننا نموت وندفن"، فهو بذلك لم يميز بين الموت الطبيعي، وموت الخطية، والموت مع المسيح!

ماذا حدث عندما قُدِّم المسيح ذبيحة لأجلنا للآب؟

يقول معلمنا القديس أثناسيوس في رسالته إلى ابكتيتوس:

[الكلمة غير المتجسد، جعل بتجسده كل صفات الجسد، صفات جسده .. وكل ما تألم به الجسد نسبه الكلمة إلى ذاته لكي ما يعطينا قدرةً أنْ نكون شركاء أُلوهية الكلمة ... وأباد كل ضعفات الجسد الطبيعية، ولكنه فعل ذلك حتى عندما يأخذ الذي لنا ويقدمه كذبيحة، يبيد هذه الضعفات، ويُعطي لنا ما له] (فقرة ٦ ص ٥٧٢).

وهكذا، في عبارةٍ ذات دلالةٍ، يجب أنْ تحظى بكل اهتمام، يقول اثناسيوس في المقالة الثانية في الرد على الأريوسيين ٦٥ راجع الترجمة العربية ص ١٠٢

[كلمة اللّه المحب للبشر لبس الجسد المخلوق حسب مشيئة الآب، لكي يحيى بدم نفسه، هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأوَّل بسبب تعديه].

"The Word of God, who loves man, puts on Him created flesh by the Father's will, that whereas the man had made it dead through transgression, He Himself might quicken it in the blood of His own body".

وهكذا تم فداء ناسوت الرب نفسه بواسطة الرب نفسه، وكان سفك دم المسيح هو خلاص للجنس البشري الذي هو أوَّله ورأسه الجديد. وهنا لا يجب أنْ يندهش القارئ لأنَّ الإنسانية ماتت في المسيح

[لكي بذلك يبذل نفسه للآب بالموت .. لكي بموته نموت جميعاً في المسيح] (المقالة الأوَّلى ضد الأريوسيين ١ : ٤١).

[قدم جسده الخاص به للموت من أجل الجميع، ولأنَّ الجميع ماتوا بواسطته (فيه) وهكذَا تم الحكم، وفيه يتحرر الكل مِن الخطية واللعنة] (المقالة الثانية ضد الأريوسيين ٢ : ٦٦).

وإذا كنا نموت ونُصلب مع المسيح الذي بموته امتلك موتنا وحررنا مِن الموت عندما نزل إلينا لكي يرفعنا إليه،

فكيف يجوز لنا أنْ نقول إنَّه احتمل العذاب، ونـار العـدل عنا؟ لأنَّنا عندما نموت معـه وفيـه، لكـي نقـوم معـه وفيـه، يصبح تقديم ذاته للآب عنا أو لأجلنا هو شـركة الثـالوث في رفع اللعنة والخطية. هذا يختلف تماماً عن التعلـيم بأنـه مات تحت لعنـة المـوت أو بواسـطتها؛ لأن التعلـيم بحـصر الخلاص في تقديم فدية للآب يعني أن خلاص الإنسانية لم يتم؛ لأن تحرير الطبيعة من الفساد وسلطان الموت هو تحولٌ في الإنسانية التي أخذها يسوع.

حمـل الفصـح:

الفصحُ هو خلاصٌ مِن الموت، لا علاقة له بالخطية والسقوط وما إليه مِن موضوعات يحاول تلاميذ العصر الوسيط حشرها في موضوع صَلب المسيح. والمسيح هو فصحنا الذي ذُبِحَ لأجلنا حسب كلمات الرسول (١كور ٥ : ٧). والفصح هو عبورٌ مِن الموت إلى الحياة، هو قوة الدم التي أبطلت قوة ملاك الموت .. لا يوجد هنا مجالٌ بالمرة للكلام عن الخطية، بل المجال هنا هو للكلام عن الموت، وهو المناسبة التي نقول عنها **"أبطل عز الموت"**. وهنا سوف نكتفي بنص طويل مِن أقدم مقالة عن الفصح، وهي عظة الأُسقف مليتون أُسقف ساردس في أسيا الصغرى، وهو نصٌ مشهور جداً يعود إلى عام ١٩٥م، وربما قبل ذلك بقليل، فهو مِن مؤلفات القرن الثاني. ونرجو القارئ أنْ يلاحظ.

أوَّلاً: الفرق بين المسيح وخروف أو حمل الفصح.

ثانياً: بشارة التحول مِن الموت إلى الحياة، ومِن الناموس إلى الإنجيل، ومِن الحيوان الفاسد إلى الإنسان ورب المجد .. أو بعبارة أُخرى كيف يتفوق النور على الظل والحقيقة على الرمز.

الأُسقف مليتون أُسقف ساردس (حوالي ١٩٥م):

١ـ سمعتم كلمات سفر الخروج الذي يقرأه العبرانيون،
وشرحت لكم كلمات السر،
كيف ذُبِحَ الحمَل، وكيف خَلُصَ الشعب؟.
٢ـ أيها الأحباء اسمعوا وافهموا
كيف أنَّ هذا السر جديدٌ، رغم أنَّه قديم؟
كيف هو زمانيٌ رغم أنَّه أبديٌ،
بائدٌ مع أنَّه غير فاسدٍ،
مائتٌ مع أنَّه غير مائتٍ؟.
٣ـ قديماً حسب الناموس،
لكنه جديدٌ حسب اللوغوس،
زماني لأنَّه رمزٌ
أبديٌ لأنَّه بواسطة النعمة،
فاسدٌ لأنَّ الحمَل مات فيه،
غير فاسدٍ لأنَّه قائم بحياة الرب،
مائتٌ لأنَّه دُفِنَ في الأرض،
خالدٌ بالقيامة مِن الموت.
٤ـ الناموسُ عتيقٌ،
لكن اللوغوس جديدٌ.
الرمزُ زمانيٌ.
النعمةُ أبديةٌ.
الحمَلُ فاسدٌ.
الربُ غير فاسدٍ.
لم يُكسَر مِنه عظمٌ كحملٍ.
قام حياً كإلهٍ.
لأنَّه سيق مثل حملٍ للذبح،
لكنه لم يكن حملاً (حيوان).

لم يفتح فاه كحمَلٍ،
لكنه لم يكن مجرد حملٍ.
حقاً، عَبَرَ الرمز، وجاء الحق.
٥ـ عِوضاً عن الحملِ، جاء الابن،
وعِوضاً عن الحملِ، جاء إنسانٌ،
وبالإنسان يجمع المسيح كل الأشياء.
٦ـ ذُبِحَ الحمل، وقادوه ليُذبَح حسب الناموس.
يجب أنْ نفهم كيف تم هذا في يسوع المسيح،
الذي فيه عبرت كل الأشياء،
مِن الناموس القديم
إلى الكلمة الجديد.
....
٨ـ وُلِدَ كابنٍ،
وسيق مثل حملٍ،
ذُبِحَ كحملٍ،
دُفِنَ كإنسانٍ،
قام حياً مِن الأموات كإلهٍ،
لأنَّه بالطبيعة إلهٌ، وإنسان.
٩ـ هو رب كل الأشياء،
كديان، هو نفسه الناموس،
كمُخلِّصٍ، هو نفسه النعمة،
يلد (الخليقة الجديدة)، ويصبح الآب (المصدر)[1]،
يُولَد كابنٍ (مِن الآب)،
يتألم، لأنَّه حملٌ،
يُدفَن كإنسان،

([1]) يصبحُ أبٌ للخليقة الجديدة، باعتبار أنه يلدها في نفسه.

يقوم كإلهٍ.

....

٣٥ـ حفظ دم الحمل إسرائيل،
اعتمد *Baptized* بالدم الذي سُفِكَ،
صار موت الحمل هو حصنٌ للشعب.

....

٤٢ـ بعد أنْ شُيِّدت الكنيسة، وكُرِزَ بالإنجيل،
صار الرمز بلا فائدةٍ،
أعطَّى كل قوته للحقيقة،
وصل الناموس إلى غايته،
أعطَّى قوته للإنجيل،
صار الرمزُ فارغاً،
سلَّم الصورةَ للحقيقةِ،
صار المثل بلا فائدةٍ بعد أنْ أعلَّنت معاينته.

....

٤٣ـ حقاً انتهى الناموس بعد إعلان الإنجيل،
ترك الله الشعب (اليهود) بعد أنْ تأسست الكنيسة،
أُبيد الرمز عندما ظهر الرب.
٤٤ـ بالأمس كانت ذبيحة الحمل ذات فائدةٍ،
الآن بلا فائدةٍ، بسبب حياة الرب،
قديماً كان لموت الحمل فائدةً،
الآن بسبب خلاص الرب، صار بلا فائدةٍ،
كان دم الحمل ذات نفعٍ،
الآن بلا نفعٍ بسبب روح الرب [١].

---

(١) تُرجِّم عن اليونانية، ويمكن مراجعة ترجمة إنجليزية جيدة نشرها: *Richard C White* بعنوان:
Melito of Sardis, Sermon on the Passover, 1976.

لا يحتاج هذا النص القديم ـ بل هو أقدمُ نصٍ عن الفصح وصلنا مِن القرن الثاني ـ إلى تعليق. وهو نصٌ كاملٌ، ولا يختلف عـن الـنص الـذي وصـلنا مِـن برديات طُره للعلامةً أوريجينوس حيث نرى فيه نفس الـروح .. النـاموس لم يعُـد هو الوسيط، والرمز أعلن الحقيقةَ، والحقيقةُ أكبر مِن الرمز. المثال سلَّم قوة الحياة للحقيقة بسبب قيامة الرب. وسوف يجيء مار إفرام السرياني، وغـيره مِـن الآبـاء لكي يكتبوا الكثير عن قيامة الرب التي غـيرت الـصور والأمثـال، بـل ومعـاني الكلمات.

حَمَلُ الفصح، والإفخارستيا حسب التسليم الأُرثوذكسي

احتفظت كنيستنا القبطية، والكنيسة السريانية، وكل الكنائس الأُرثوذكسية بالاسم القديم **"الحمل"**، لتقديم القربان في كل الليتورجيات القبطية واليونانية والسريانية مما يؤكد أننا أمام حقيقة عقائدية لكل الكنائس الأُرثوذكسية، وتسليم رسولي أصيل. ومِن مقالة العلاَّمة أوريجينوس، وعظاته على سفر اللاويين، يستطيع القارئ أنْ يرى في النص الدخول بالحمَل في موكبٍ، مثلما يحدث عندنا الآن على الأقل في ليالي الأعياد .. وكان هذا هو الطقس الإسكندري القديم المعروف لدى العلاَّمة أوريجينوس، حيث كان القربان يُقرَّب عند باب الهيكل بعد أنْ يُدخَّل بموكبٍ احتفالي. واحتفاظ الكنيسة القبطية بهذا الاسم، بل وبما سُلِّم شفوياً عن الرمز لعدد القربان الذي يُقدَّم، هو أيضاً دليلٌ على أنَّنا نرى تحقيق الرمز وكمال المثال في تقديم الخبز والخمر، وتحقيق الفصح الحقيقي لكنيسة المسيح .. وتقول الليتورجية نفسها، وهي تحمل في كلماتها لاهوت الكنيسة الأُم أي لاهوت الإسكندرية:

> **"والسر الخفي الذي لهذه الذبيحة، هذه التي ليس دم الناموس حولها، ولا بر الجسد"**

لأنَّ خروف، أو حَمَل الفصح، سبق نزول الشريعة على جبل سيناء، ولأنَّ الخلاص مِن عبودية الموت، أي ملاك الموت وفرعون لم يكن حسب قوة الناموس،

بل حسب قوة الرب، والأهم مِن كلِ هذا، هو إنَّ حمل الفصح ليس له علاقةٌ بالمرة بذبائح الخطية والإثم ويوم الكفَّارة، بل هو عطيةُ حياةٍ بقوة الرب .. ولذلك تقول الليتورجية أيضاً:

"أمَّا الخروف فروحيٌ، وأمَّا السكين فنطقيةٌ، وغير جسميةٍ"

(صلاة الصلح).

وهكذا يُذبَح الرب بقوة الإرادة، كما سبق وأشار الآباء، ويُعلَن الذبحُ بالكلمة وبالرُّوح القدُّس، ونأخذ الحياة التي قهرت الموت .. كل هذا يتم مثل الفصح القديم بقوة الرب، وليس بما يقدِّمه الناموس مِن طقوسٍ ورموزٍ خاصةٍ بالخطية.

قداسات الكنيسة اليونانية [1]

حسب طقس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية يسمى الختم في وسط القربانة بـ **"الحمل"**، ولذلك يردد الكاهن اليوناني عبارات من سفر أشعياء **"مثل حمل سيق إلى الذبح، ومثل حمل عادم العيب أمام الذي يجزه هكذا لا يفتح فاه بتواضعه رفع حكمه"** (الإفخولوجي الكبير صـ ٧٠ : ٧١).

وعندما يفصل أجزاء القربانة بالحربة يرفع الجزء الذي عليه الختم ويقول:**"لأن حياته تُرفع من الأرض"**، ويقلب الحمل أي يجعل الختم إلى أسفل (كما يفعل الكاهن القبطي بالجزء الذي يحمل ختم الصليب في وسط القربانة حسب طقسنا القبطي)، وهنا يقول الشماس حسب طقس الكنيسة اليونانية: **"اذبح يا سيد"**، فيذبح الكاهن هذا الجزء على شكل صليب دون أنْ يفصل، ويقول: **"يُذبح حمل الله الرافع خطية العالم من أجل حياة العالم وخلاصه"**.

وعند تقسيم الجسد لتوزيعه يقول الكاهن: **"يجزأ ويفصل حمل الله الذي لا يجزأ ولا ينقسم ويؤكل دائماً ولا ينفذ أبداً بل يقدس المشتركين فيه"** (صـ ١٠٧).

---

[1] اعتمدنا على كتاب الإفخولوجي الكبير طبعة ١٩٥٥م.

ويرتل الشعب: **"أيها المسيح الفصح العظيم الأقدس امنحنا الاشتراك بأجلى بيان في نهار ملكك الذي لا يعروه غروب"** (صـ ١١٠).

وفي صلاة القداس الباسيلي للقديس باسيليوس: **"يا حمل الله وابنه الرافع خطية العالم أيها البرئ من العيب غير القابل لنير الخطية والمذبوح لأجلنا طوعاً"** (صـ ١٥٠).

هكذا حل الطقس الأرثوذكسي مشكلة لاهوت العصر الوسيط، فقد تحول الرمز إلى حقيقة أعظم وارتفعنا من الظلال إلى النور، نور القيامة وقوة الصليب. وهنا عندما تصبح الخطية هي الاسم الحقيقي للموت "موت الخطية"، أو "الخطية" ندرك أن حمل الفصح الحقيقي رفع خطية العالم بموته لأجلنا وأباد عرش الخطية أي الموت وحررنا من اللعنة وسبى الجحيم "وأبطل عزة الموت".

الرمز، والتربية المسيحية الأُرثوذكسية

ليست المشكلة هي مشكلة تفسير رموز العهد القديم، وعلاقة هذه الرموز بالمرموز إليه، ولا هي علاقة الظل بالنور، وإنما المشكلة هي أنَّنا ـ في هذا الخصوص تحديداً ـ لا نملك أنْ نفسر ونشرح الحاضر والمستقبل على أساس الماضي. والماضي هنا هو العهد القديم، والحاضر هو الكنيسة والحياة المسيحية، والمستقبل هو الحياة الأبدية التي مجِّدت في المسيح بالحياة في السماء .. ولا نملك أنْ نفسر كل ما يخص الحاضر بما كان في الماضي حتى لا يصبح الماضي هو سجن الحاضر والمستقبل، لأنَّ الماضي قد انتهى، أمَّا الحاضر فهو معنا وللأجيال **"الآتية بعدنا إلى الأبد"**، لكن عندما يصبح الماضي سجناً للحاضر والمستقبل فلا شك في أن هذا يدمر الحاضر ويقضي عليه تماماً.

وتبرز نقطةٌ هامة جداً، وهي أنَّ الرموز مهما كانت قوتها ومعانيها، فما هي إلاَّ علاماتٌ، وليست حقائق. وتجاوز الرمز هو نقطةٌ هامةٌ في التربية، لأنَّ الرمز يشير إلى ما سيحدث، وإلى الحقائق التي تعلو على الرمز.

الرمز بابٌ للحاضر والمستقبل. والبقاء عند الباب هو بقاءٌ في حالة عدم

النمو، ولذلك يقول الرسول بولس: « لما كنت طفلاً، كطفلٍ كنت أتكلم، وكطفلٍ كنت أفطن، وكطفلٍ كنت أفكر. ولما صرت رجلاً أبطلتُ ما للطفل» (١ كور ١٣ : ١١). ونحن نقف عند رموز العهد القديم كعلاماتٍ تدعونا إلى دخول سر المسيح، فهو أي المسيح هو **"الحياة، والقيامة"**، وبلوغ الحاضر والمستقبل معاً هو علامة نضوج هامة في حياتنا كمسيحيين.

موت المسيح الاختياري كما تقدمه الليتورجية

تقول القُدَّاسات عن ليلة العشاء السري:

"لأنَّه فيما هو راسمٌ أنْ يُسلِّم نفسه للموت عن حياة العالم" (القداس الباسيلي).

"لأنَّك في الليلة التي أسلَّمت فيها ذاتك بإرادتك وسلطانك وحدك" (القداس الغريغوري).

"في الليلة التي أسلم ذاته فيها ليتألم عن خطايانا، والموت الذي قَبِلَه بذاته بإرادته وحده عنا كلنا" (قداس مار مرقس، للقديس كيرلس الكبير).

والقُدَّاسات هنا تعكس رموز الحدث العظيم، الفصح بمعناه الحقيقي الروحي واللاهوتي، حيث نرى في موت المسيح:

١ ـ موتاً إرادياً حُراً قهر به الموت وأباده.

٢ ـ بسلطان وقوة لاهوته، وليس كضرورةٍ حتميةٍ، ولا كإنسان خاضعٍ للموت، لأنَّه حتى وهو في الجسد، ليس خاضعاً للموت، فهو الذي أقام الموتى قبل موته وأحيا وشفى كل مَن لمسه.

ماذا تقول رسائل عيد الفصح للقديس أثناسيوس عن الرمز والحقيقة

[لم يكُن عيد الفصح الجديد ، مجرد عيد ، بل "العيد العظيم" الذي يجب أنْ يبوَّق له بالأبواق ، أي أبواق البشارة ، الذي ذُبح فيه "الحمَل الحقيقي" الذي به نتطهر بواسطة دمه

الكريم، والخمر هو الروح القدس، أي الخمر الجديد]
(الرسالة الأولى).

وفي هذا العيد العظيم يقول اثناسيوس عن المسيح، إنَّه أعطانا

[بركةً عوضاً عن اللعنة، فرحاً عوضاً عن الحزن، وليمةً عوضاً عن النوح، أي في فرح الفصح المُقدَّس الذي يبقى دائماً في قلوبنا، وبه نفرح دائماً حيث يوصينا بولس صلوا بلا انقطاع] (الرسالة الثانية).

ويقول إنَّ المسيح هو الفصح الذي ذُبِح حقاً، ولكن ما أعظم الفرق بين يوم واحد في السنة، وقيامة الرب الأبدية الباقية معنا على الدوام، يقول اثناسيوس:

[وعندما بشَّر بولس المبارك بمجيء البشارة المفرحة، لم يكن يُبشِّر بأيامٍ، ولكن كان يُبشِّر بالرب الذي نحفظ العيد له عندما قال المسيح فصحنا، وقد ذُبِح وذلك لكي نتأمل أبدية الكلمة..] (الرسالة الثالثة : ١ ـ ص ٩٣).

وهكذا انقضى عصر المواسم والأزمنة، حسب التعليم الرسولي نفسه، وأصبح الزمان كله مُقدَّساً، لأنَّ الزمان نال ملء حلول الكلمة المتجسِّد، وهذا ما يجعل بولس يقول «لا يحكم عليكم أحدٌ في أكلٍ، أو شُربٍ، أو مِن جهة عيدٍ، أو هلال، أو سبتٍ التي هي ظل الأُمور العتيدة» (كولوسي ٢ : ١٦ـ١٧).

ولذلك السبب لم تعُد البشارة المفرحة قاصرةً على أيامٍ ومواسمٍ، بل هي بشارة الحياة الدائمة بالقيامة في المسيح، وهو ما يجعل القديس اثناسيوس يقول:

[لم يكن يبشر بأيام، أو مواسم].

وعن الرمز، والحقيقة يقول مُعلِّمنا العظيم:

[وطقوس إسرائيل القديم كانت أولاً ظلالٌ، وبعد الانتصار على (الملاك المُهلِك) احتفلوا بالعيد، وكانت كل هذه الأحداث رمزاً يشير إلى ما سيحدث مستقبلاً، أمَّا نحن يا أحبائي، فقد تمت الظلال (وصَلَت إلى نهايتها، وهذا هو أحد معاني كلمة تمت) وتحققت الرموز، ولذلك نحن لا نحتفل بالعيد حسب الرموز، لأنَّنا لا نذهب إلى أورشليم الأرضية لكي نذبح حمل

الفصح، حسب عادات وطقوس اليهود الفارغة، بل حسب إنذار الرسل علينا أنْ نعلو على ما في الرموز، ونُسبِّح الربَ تسبحةً جديدةً، وعندما نتأمل هذا، فإننا **نجتمع مع الحق** (المسيح)، وقد اجتمع الرُّسل مع المُخلِّص، وقالوا له أين تريد أنْ نُعِّد لك الفصح (متى ٢٦ : ١٧).] (الرسالة ٤ : ٤ ص ٥١٦).

ونهاية الرموز كما يقول العهد الجديد نفسه تعني أنْ لا يصبح الرمز هو المُفسِّر والشارح للخلاص نفسه، لأنَّنا نجتمع مع الذي قال "أنا الحق" والذي لا توجد فيه ظلالٌ بالمرة عن الخلاص والحياة، وإذا كانت **لدينا رموزٌ**، فهي تُعبِّر عن الواقع، وعن النعمة، وتشير إلى السر وليس إلى أُمور سوف تتم مستقبلاً. وتمام الرموز في المستقبل أي تحقيق ما فيها مِن بشارةٍ كان مرتبطاً بمجيء الرب وتجسده .. ولذلك فقدت قوتها بمجيء الحق .. أمَّا ما لدينا مِن رموز، فهو لا يرمز إلى ما سوف نناله في المستقبل، لأنَّ كل ما سوف نناله في الدهر الآتي، **قد أُعلِّن كاملاً** في المسيح في هذه الحياة، أي في هذا الدهر.

ويكمل القديس اثناسيوس شرحه قائلاً:

[إننا لا نذهب إلى أورشليم الأرضية، والعيد لا يحتُفَل به في هذه المدينة وحدها، بل حيث أراد الله أنْ يكون العيد في كل مكان، لأنَّه مكتوب في كل مكان يقدم له بخوراً وذبيحةً (ملاخي ١ : ١١) ومع أنَّه حسب الشهادة التاريخية لم يكن ممكناً الاحتفال بالعيد إلاَّ في مدينة أورشليم، إلاَّ أنَّه عندما **تمت الأُمور الخاصة بهذا الزمان** والطقوس والعادات الخاصة بالظلال انتهت، وبدأت بشارة الإنجيل في الانتشار في كل مكان لكي يحتُفَل بالعيد في كل أرجاء الأرض، سأل الرسل المُخلِّص أين تريد أنْ نعد لك؟ ولأنَّ المُخلِّص كان سوف يغيِّر الرمز إلى الروحي، وَعَدَهم بأنَّهم لن يأكلوا لحم الحمَل، بل جسده هو قائلاً «خذوا كلوا واشربوا هذا هو جسدي، هذا هو دمي»]

(الرسالة ٤ : ٤ ص ٥١٧).

فلم يكن فصح اليهود هو فصح **"طعام الحياة"** حسب تعبير القديس اثناسيوس في الرسالة الخامسة (٥ : ١ ص ٥١٧)، ولذلك فإن طعام الحياة هو **"المسيح في الإفخارستيا"** كما هو واضح مِن سياق الكلام

[لأنَّنا نعطش دائماً لما يُفرِّح نفوسنا، ونشرب مِن ينبوع دمه الكريم] (المرجع السابق).

إنَّ نفس سياق الكلام يصل بنا إلى نقطة ذبح الحمل ابن الله، وهنا لا نرى كلاماً عن العدل الإلهي وترضية العدل ..

[لأنَّ الله يا أحبائي، هو الله نفسه الذي قديماً أسس العيد لنا، وأمر بأنْ يحتفل به سنوياً، فهو نفسه مع ابنه، الذي ذُبح لأجل الخلاص، وأعطانا هذا السبب للاحتفال بالعيد المُقدَّس .. ويقودنا هذا دائماً مِن الصليب في رحلة حياة هذا الدهر حيث يخلق الله لنا فرح الخلاص المجيد]

(الرسالة ٥ : ٢ ص ٥١٧-٥١٨).

لقد ذُبِحَ الرب، كما يقول بعد ذلك في الرسالة السادسة:

[ذُبِحَ الرب لكي يبيد الموت بدمه] (٦ : ٤ صفحة ٥٢٠). لا لكي يدفعه ثمنا للآب.

وفي الرسالة السابعة يشرح ذبيحة اسحق بنفس الطريقة التي أشرنا إليها ويؤكد:

[لأنَّ موت اسحق لن يحقق حرية العالم، بل موت المُخلِّص وحده الذي بجلداته شفينا، لأنَّه أقام الساقط، وشفى المريض وأشبع الجائع .. وبشكلٍ فائقٍ، أقامنا نحن جميعاً مِن الموت، وأباد الموت، وحررنا مِن النوح والبكاء، وأتى بنا إلى عزاء وفرح هذا العيد، وهو فرح يصل إلى السماء نفسها] (٧ : ٩ ص ٥٢٢).

إذن، الفصح المسيحي هو بشارة حياةٍ، ولم يكن في الفصح القديم دَفعُ فديةٍ لله الآب[1]، وتدعونا كلمات الليتورجية، وعبارات القديس أثناسيوس إلى قبول هذه الحقيقة الرسولية؛ لأنها بشارة الحياة

[**هذه هي نعمة الرب**، وهذه هي وسائل تجديد بني البشر، لقد تألم لكي يدبر الحرية للذين يتألمون فيه، نزل لكي يرفعنا، احتمل تجربة الميلاد لكي نحبه نحن كغير مولود، نزل إلى الفساد لكي يُلبس الفاسد عدم فساد، لأجلنا صار ضعيفاً لكي يقيمنا بقوة، نزل إلى الموت لكي يعطينا عدم الموت، ويُعطي حياةً للموتى. وأخيراً تأنس حتى إننا نحن البشر الذين نموت، نحيا مرةً ثانيةً، ولكي لا يسود علينا الموت (رو ٦ : ٩ و ١٤)] (الرسالة ١٠ : ٨ ص ٥٣١).

فلماذا لم يذكر اثناسيوس دفع الفدية، وثمن الخطية؟

والجواب هو: لأنَّ هذه الأفكار وليدة العصر الوسيط وحركة الإصلاح، لم تكن معروفةً لدى آباء الكنيسة الجامعة.

وعن موت الرب على الصليب يقول اثناسيوس في نفس الرسالة العاشرة:

[مَن هو حقاً ابن الآب - في الأيام الأخيرة - تجسد لأجلنا لكي يقدم ذاته للآب عنا ويفدينا بقربانه وذبيحته، هو ذاته الذي أخرج قديماً الشعب مِن أرض مصر، لكنه بعد ذلك يفدينا جميعاً، بل يفدي الجنس البشري مِن الموت ويقيمهم مِن القبر. هو الذي ذُبِحَ كحملٍ، والذي رمَزَ إليه الحمل قديماً، ولكنه يُذبَح عنا، لأنَّ المسيح فصحنا قد ذُبِحَ لأجلنا (١ كور ٥ : ٧)](١٠ : ١٠ ص ٥٣١).

---

[1] لاحظ الفرق الكبير بين "بجلداته شفينا"، وهي عبارة أشعياء النبي، شفينا من الفساد والموت، وبين عبارة أحد المعاصرين يقول"بجلداته الحارقة دفع ثمن خطاياي" لأن الشفاء "تجديد"، أمَّا دفع الثمن فهو "تأبيد" الشعور بالذنب وتقديس للقسوة ويعكس نوعاً من السادية والماسوكية، مزيج من لذة الانتقام وإيقاع الأذى بالآخرين، وهو سلوك نراه في حياة بعض قادتنا الذين يحتاجون لعلاج نفسي.

ولذلك يقول القديس اثناسيوس إنَّ موت الرب على الصليب لا يجب أنْ يكون مناسبةً للحزن والبكاء:

[وعندما قادوا المُخلِّص للموت، منع النسوةَ مِن البُكاء لأنَّهن كانوا يتبعن الرب باكين، وقال لهن لا تبكوا عليَّ (لوقا ٢٣ : ٢٨) وكان يعني أنَّ موت الرب ليس مناسبةً للأسف، وإنما للفرح، لأنَّ الذي يموت عنا هو حيٌ. لأنَّ الرب لم يأخذ كيانه مِن مخلوقٍ، خُلِقَ مِن العدم، بل مِن الآب. وحقاً تصبح هذه مناسبةُ فرحٍ، لأنَّنا نرى علامات النصر على الموت، وحتى فسادنا نحن، أُبيد بعدم فساد جسد الرب، ولأنَّه قام بمجدٍ، صار واضحاً أنَّ قيامتنا جميعاً سوف تحدث، ولأنَّ جسده لم ير فساداً، لن يبقَ عندنا شكٌ في عدم فسادنا نحن، وكما يقول الرسول بولس وقوله هذا هو حق: بإنسان واحد دخلت الخطية، وعبرت الخطية على كل البشر، هكذا بقيامة ربنا يسوع المسيح، سوف نقوم جميعنا. وهو يقول لابد للفاسد أنْ يلبس عدم فساد، ويلبس المائت عدم موت (١ كو ١٥ : ٥٣) وقد تحقق هذا في مناسبة الآلام الذي فيها مات الرب لأجلنا جميعاً، أي فصحنا المسيح الذي ذُبِحَ. ولأنَّه ذُبِحَ، علينا أنْ نغتذي به، وبكل ورعٍ، ويقظةٍ نشترك فيما يقيمنا (يحفظنا في الوجود) لأنَّه أُعطى للكل دون ترددٍ، وبهذه العطية نشرب مِن ينبوع الماء الذي يفيض إلى الحياة الأبدية]
(الرسالة ١١ : ١٤ ص ٥٣٧-٥٣٨).

وهكذا نرى إنَّ عدم فساد جسد الرب، هو عدم الفساد الذي يؤخَذ في الإفخارستيا، لأنَّنا نأكل لكي نبقى في الحياة، ولكي يحفظنا الرب بهذه الذبيحة مِن الفساد والموت .. هذا طبعاً لا يمُتُ بصلةٍ إلى الخرافات الشائعة في الوسط القبطي عن مصير جسد الرب في الإفخارستيا، والدورة الدموية .. الخ. لأنَّنا نتحوَّل في المسيح إلى عدم فساد، وعندما قهر الرب فساد الموت نفسه، فهو لا يفسد بما فينا مِن فسادٍ، بل يحول فساد طبعنا إلى عدم فساده هو.

التسليم الرسولي
الخاص بذبائح العهد القديم
كما دونه القديس أثناسيوس الرسولي

ما هو موقف الكنيسة الجامعة مِن رموز العهد القديم؟

أجابت الدسقولية، ومعها كل الآباء بأنَّ الله لم يطلب ولم يأمر بالذبائح. وللقديس يوحنا ذهبي الفم عظةٌ مشهورةٌ، نُشِرَت ضمن عظاته ضد حركة التهود في إنطاكية في مجموعة آباء الكنيسة التي تنشرها الجامعة الكاثوليكية تباعاً، سوف ننشرها في حينها. ولكن هنا نكتفي بنص الرسالة التاسعة عشر مِن رسائل عيد القيامة للقديس اثناسيوس والتي أرسلها في عيد القيامة عام ٣٤٧م، يقول أوَّلاً عن عيد الفصح:

[المسيح فصحنا قد ذُبِحَ، والعيد هو عيد فصحنا .. لأنَّ زمان الظلال قد انتهى، والرموز لم يعُد لها وجودٌ، والشهر هو شهر التجديد الذي يحتفل فيه كل إنسان بالعيد]

(ص ٥٤٥).

وعن الذبائح يقول:

[وحيث أنَّ هؤلاء (اليهود) يتظاهرون بتقديم الذبائح إلاَّ أنَّهم يسمعون مِن الآب محرقاتكم غير مقبولة وذبائحكم أُبغضها، ومع أنَّكم تقدمون الدقيق النقي، إلاَّ أنَّ هذا باطلٌ، والبخور هو مكروه عندي (أش ١ : ١٣ السبعينية). لا يحتاج اللّه لهذه الأشياء، وحيث أنَّه لا يوجد شئٌ غير طاهرٍ عنده، فهو شبعان كما يقول بواسطة أشعياء (١ : ١١)]

(المرجع السابق ١١ : ٢ ص ٥٤٥).

وماذا عن أحكام الشريعة؟ يجيب اثناسيوس:

[أعطى الناموس وصايا عن هذه الأُمور لأجل تعليم الشعب، ولأجل إظهار ما سوف يحدث مستقبلاً، لأنَّ بولس يقول للغلاطيين قبل مجيء الإيمان كنا محروسين تحت الشريعة مُغلقاً علينا إلى أنْ يُعلَن الإيمان بعد ذلك (أي الإيمان الذي يُعلن مستقبلاً) ولذلك كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان (٣ : ٢٣-٢٤) ولكن اليهود لم يفهموا ولم يدركوا هذا، وصاروا مثل الذي يسير في ظلامٍ أثناء النهار يتحسس طريقه، دون أنْ يدركوا الحق الذي احتواه الناموس أو الشريعة، والذي لا يؤيده الحرف، بل الروح الذي لا يخضع إليه (اليهود).] (المرجع السابق).

وهكذا، خلق عدم فهم الشريعة ما يقول عنه الأنبياء، ومعلمنا اثناسيوس:

[وكان هؤلاء بلا أمانةٍ، واستمروا يمارسون الشريعة بالكذب، مخترعين أُموراً تتفق مع شهواتهم دون أنْ يفهموا الأسفار .. ولكن اللّه يقول لهم في غضبٍ بواسطة أشعياء هل طلبت هذا مِن أيديكم؟ (١ : ١٤). وبسبب جسارتهم يهددهم بواسطة ارميا اجمعوا معاً محرقاتكم مع ذبائحكم وكلوا اللحم لأنَّني لم أكلم آباءكم، ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم مِن أرض مصر مِن جهة محرقة وذبيحة (ارميا ٧ : ٢١) لأنَّهم لم يفعلوا الصواب .. (خطايا بني إسرائيل) وعوضاً عن الحمَل الذي أُعطي، تعلَّموا كيف يذبحون "للبعل" ... (عبادة الأوثان) (وبعد أنْ يذكر اثناسيوس الذبائح، يُكمِّل) يقول اللّه مَن يذبح ثوراً .. مَن يُصعِد تقدمةً، يُصعِد دم خنزير .. بل هم اختاروا طرقهم، وبمكرهاتهم سُرَّت أنفسهم (أش ٦٦ : ٣). وماذا يعني هذا أيها الاخوة؟ مِن الصواب أنْ ندرس كلمات النبي، **وخصوصاً بسبب الهراطقة الذين يهاجمون الناموس**. أعطى اللّه بواسطة موسى وصايا خاصة بالذبائح، وقد خُصِّص سفر اللاويين كله لأجل هذا الموضوع، لكي يعرف مَن

يقـدِّم الذبيحـة، كيـف يقبلـها اللّه؟. ومـع إنَّ اللّه يبكـت بواسـطة الأنبيـاء، الـذين يحتقـرون هـذه الأُمـور ويعـصون وصاياه بقوله لم أطلب هـذه مِن أيديكم، ولم أتكلم مع آبائكم عن الذبائح، ولم أوصيهم بالمحرقات (أشعياء ١ : ١٢ أرميا ٧ : ٢٢) وحيث أنَّ البعض يظن إنَّ الأسفار لا تتفق مع بعضها، أو يظن إنَّ اللّه الذي أعطى الوصية يكذب، أمَّا مِن جانبنا، فإننا لا نرى عدم اتفاق في الأسفار بالمرة، ولا يكذب الآب الذي هو حقٌ، لأنَّه مِن المستحيل على اللّه أنْ يكذب .. ولكن كل هذه الأقوال لها معنىً معروفٌ للذين يريدون فهمها، والذين بالإيمان يقبلون الشريعة. وما يظهر لي مِن معاني هذه الأقوال - يا ليت اللّه يعطيني بصلواتكم أنْ أقول ما هو قريب مِن الحق - إنَّ الشريعة لم تأمر أوَّلاً في البداية بتقديم الذبائح، ولم يكن هذا هو تدبير اللّه الذي أعطى الشريعةَ، أنْ تُقدَّم له المحرقات، وإنما كان اللّه يقصد الحقيقة التي أشارت إليها الرموز، لأنَّ الناموس له ظل الخيرات الآتية، وهو قد رُتِّبَ حتى يجيء زمان الإصلاح أو التجديد (عب ٦ : ١٨ و ١٠ : ١ و ٩ : ١٠)، ولذلك كما نرى، لا تشغل الذبائحُ التوراةَ كلها، بل لها موضع معين في الشريعة حيث تحاول الشريعة بواسطة الذبائح أنْ تُعلِّم الذين يقدمونها كيف يبتعدوا عن الأصنام، وكيف يقتربون إلى اللّه؟. وهكذا لم يحدث في البدء، ولا عندما أخرج اللّه الشعب مِن مصر أنَّه أمر بتقديم ذبائح أو محرقات، حتى عندما وصلوا إلى جبل سيناء، لأنَّ اللّه ليس إنساناً يهتم بمثل هذه الأُمور، ولكنه أوصى الشعب بأنْ يعرفوه أنَّه هو الإله الحقيقي وكلمته، وأنْ يحتقروا هؤلاء الآلهة الكاذبة التي تُدعى كذباً آلهة، وهي ليست كذلك. وأظهر اللّه ذاته بشكلٍ ظاهرٍ، وجعلهم يعرفون أنَّه هو الذي أخرجهم مِن أرض مصر وجعلهم يعبرون البحر الأحمر. ولكن عندما اختاروا أنْ يعبدوا البعل، وتجاسروا على أنْ

يقدموا الذبائح لمَن لا وجود لهم (الآلهة الكاذبة)، ونسوا المعجزات التي تمت في أرض مصر (الضربات العشر)، بل فكروا في العودة إلى مصر، هنا فقط جاء الناموس بالوصية الخاصة بالذبائح، حتى يتعلموا مِن تقديم الذبائح للآلهة الكاذبة التي لا وجود حقيقي لها، كيف يعبدوا اللّه، إذا قدموا له الذبائح؟ وبذلك يتركوا الأوثان ويعبدوا اللّه حسب وصايا الناموس. وقال اللّه عن ذلك لم أطلب مِنكم الذبائح، ولا أوصيتكم بالمحرقات، وأضاف فوراً بل بهذا أوصيتكم قائلاً اسمعوا صوتي، فأكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي شعباً، وتسيروا في كل الطريق الذي أوصيتكم به (ارميا ٧ : ٢٣). وهكذا تعلم هؤلاء أنْ لا يعبدوا إلاَّ واحداً، وهو الرب] (المرجع السابق).

وهكذا يجب أنْ نعيد للحقيقة قوتها وللنور عمله وإعلانه، وأنْ نترك ما يفرضه الرمز والظل لكي نرى بقوةٍ حياة الرب وقيامته، الخلاص الذي بشر به الرسل، وشهد له الشهداء، وسُلِّم إلينا في الليتورجية التي تحمل كل كنوز الحياة والتقوى الأُرثوذكسية.

عودة إلى جوهر الأُرثوذكسية

يجب أنْ نعود إلى تاريخ طقوسنا، وإلى تعليم آبائنا قبل أنْ نمزج هذا التعليم بما ورد في تقاليد الكنائس الأُخرى لا سيما الكنائس غير الأُرثوذكسية.

بادئ ذي بدء لم تقدم لنا الليتورجيات الأُرثوذكسية أي إشارةٍ إلى الذبائح التالية:

١ـ ذبيحة الإثم ـ المحرقات بكل أنواعها.

٢ـ ذبيحة الخطية ـ ذبيحة السلامة.

٣ـ تقدمة خبز الوجوه.

وغياب هذه الذبائح من تراثنا الليتورجي ليس مجرد مصادفةً بحتةً جاء بها الجهل باللاهوت والتاريخ، وإنما هو حذفٌ متعمدٌ ظاهرٌ بوضوح، وخلف هذا الحذف نجد الأسباب التالية:

أولاً: كانت أحداث الخلاص كلها قد انحصرت في الفترة ما بين أحد الشعانين وفصح اليهود الذي وقع يوم ١٤ نيسان من الشهر العبراني.

ومن مساء يوم الأحد أي أحد الشعانين حتى يوم خميس العهد تؤكد طقوسنا الأُرثوذكسية والقبطية بنوع خاص إنه من العاشر من الشهر حتى الرابع عشر من شهر نيسان كان يتم اختيار الحمل، أي حمل الفصح. ولذلك السبب حرصت كل كتب البصخة أنْ تقول لنا إنَّ القداسات لا تقام من العاشر إلى الرابع عشر، أي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس. وفي عشية ذلك اليوم، أي خميس العهد، أي بعد غروب الشمس ـ حسب الترتيب القبطي الأصيل ـ يقام قداس خميس العهد؛ لأننا بذلك نكون قد دخلنا بداية اليوم الخامس عشر حسب التوقيت العبراني الذي يحسب اليوم من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم الذي يليه. وهنا الذبيحة الواحدة التي تجُب كل الذبائح هي ذبيحة عيد الفصح، وهي المناسبة التي أسس فيها ربنا يسوع المسيح سر الشكر؛ لأنه في هذه الليلة وبعد إتمام الفصح اليهودي نقل الرب كل رموز وطقوس العهد القديم ومعانيها إلى طقوس العهد الجديد، وأسس السر الفائق.

وكانت آلام الرب في هذا الأسبوع، وموته المحيي لأجلنا يوم الفصح اليهودي، ثم قيامته هي التي عبرت بنا من نظامٍ معقدٍ من طقوس وذبائح العهد القديم إلى نظام وترتيب أكثر سهولة يعود إلى حياة وموت وقيامة الرب، ويفصل بين الرمز والحقيقة حسبما رأينا عبر الصفحات السابقة، وبشكل خاص في رسائل عيد الفصح للقديس اثناسيوس الرسولي التي تؤكد أنَّ الاحتفال كان بذبيحة عيد الفصح الحقيقي ربنا يسوع المسيح نفسه.

ثانياً: ترك طقس عيد الفصح المفردات التالية في الليتورجية

خبز الحمل ـ دورة الحمل

بل إنَّ مَن يقرأ الفصل الخاص بالفصح اليهودي في كتاب المِشنا لا يمكن أنْ تفوته ملاحظة أنَّ **الشعب**، وليس **الكهنة** كانوا يأتون بالحمل كل عشيرة أو

مجموعة أشخاص لا تقل عن عشرة إلى الهيكل، وكان يحمل التقدمة شخصين معاً على عصا على كتفي الرجلين. وهذا هو ما كان يحدث في طقس تقديم الحمل عندما يحمل أفراد **الشعب**، وليس **الشمامسة** خبز التقدمة على طبق، وتقدَّم للكاهن على باب الهيكل تقدمة أو قربان الشعب حسب شهادة يوستينوس الشهيد، وحسب عادة جمع القمح في بلاد صعيد مصر للقربان. وهذا يؤكد لنا إنَّ ما تذكره رسالة العبرانيين عن ربنا يسوع إنه طلع من سبط يهوذا الذي لم يلازم أحداً منه المذبح مؤكداً لنا انتماء الرب لغير رتبة اللاويين. وتحديد طقس ذبح الحمل الذي يقوم بذبحه رب الأسرة، والغالبية الساحقة هم طبعاً من الشعب، وهو ما يبعد ذبيحة عيد الفصح عن نظام الذبائح الموسوي؛ لأنها سبقت نزول الشريعة في سيناء، ولأن الذي يذبح هو "علماني"، وليس من الكهنة. وحتى كتابة هذه السطور لا زال الطقس القبطي يؤكد أنَّ منتصف ومركز القربانة "الإسباديقون" يجب أنْ يوضع مقلوباً في الكأس إشارةً إلى ذبح الحمل ربنا يسوع المسيح.

ثالثاً: إنَّ الذبائح والطقوس الموسوية لا تشرح لنا ذبيحة العهد الجديد

لقد جاء الفصح بعيد القيامة المجيد محور ومركز طقوسنا، وهو عيد إبادة الموت وعيد العبور العظيم للرب يسوع المسيح، وهو ما يؤكد لنا أنَّ قلب وجوهر طقوسنا وعقيدتنا لا يمكن أنْ تشرحها ذبائح العهد القديم، وإنَّ مركز وقلب التعليم هو حمل الفصح.

وهكذا رأينا عبر التاريخ المسيحي القديم أنَّ الموعوظين كانوا يُعمَّدون ليلة عيد القيامة، وكان الأُسبوع الأخير من الصوم يتم فيه تسليم الصلاة الربانية وقانون الإيمان وسر المعمودية في عشية العيد، وبعده مباشرةً مسحة الميرون، ويتناول هؤلاء الإفخارستيا مع المؤمنين.

هذه شهادة الآباء جميعاً: اكليمنضس الإسكندري ـ ترتليان ـ أوريجينوس ـ هيبوليتوس ـ كيرلس الأورشليمي ـ القديس ذهبي الفم.

فالإيمان يسلم ويعطى في الأُسبوع العظيم الذي نحفظ فيه موت الرب المحيي

وقيامته من الأموات، وهو ما يجب أنْ نلاحظه في إعطاء الأسرار الثلاثة معاً في ليلة عيد القيامة؛ لكي تثبت هذه الممارسة إنَّ قلب الإنجيل هو فصح الرب، والحمل الذي به وفيه عبرنا من الموت إلى الحياة.

المفردات الخاصة بذبيحة الحمل في القداسات

أولاً: البركة التي تقال من عيد القيامة إلى عيد الصعود حسب ترتيب كنيستنا :

يقول الكاهن بعد رفع بخور باكر:

"**أيها الحمل الحقيقي الذي لله الآب الذي قام من الأموات في اليوم الثالث، قوِّم أقدامنا في سبيل السلام**".

والنص يعكس بقوة كلمات يوحنا ١ : ٢٩ مؤكداً غلبة الحمل الذي يقود الكنيسة على النحو الذي نراه في سفر الرؤيا.

ثانياً: تذكارات الحمل:

وهي مجموعة الصلوات التي تقال عن الأحياء والراقدين بعد اختيار الحمل، وتنتهي بصلاة عامة: "**اذكر يارب عبيدك المسيحيين.....**".

وحسب شهادة التاريخ القديم كان ذبحُ حمل الفصح قد انتقل إلى الهيكل، ولم يعد يُمارَس خارج أورشليم، وكان حضور الشعب كله في منطقة الهيكل مستحيلاً، ولذلك السبب كانت كل جماعة تختار رجلين لاختيار الحمل، وحمله إلى الهيكل لكي يذبحه واحدٌ منهما، ويحمل الكهنة الدم ويُسكب أسفل المذبح. ولذلك السبب عينه يذكر لوقا الإنجيلي إنَّ الرب اختار اثنين من تلاميذه ليذهبا لإعداد الفصح.

وعندما عمَّد الرب يسوع طقوس وترتيب العهد القديم، صار وجود جماعة من المؤمنين عند اختيار الحمل في سر الشكر هو حضور نيابي، وهو سر وجود هذه الصلوات وغيرها من التذكارات؛ لأن ذبيحة الحمل هي عن الشعب كله، وبسبب قيامة الرب من الأموات يجمع الرب نفسه "الأحياء والأموات والمسافرين والمرضى....".

وإننا عندما نسمع اعتراضات البروتستانت على التذكارات، يفوتنا أنْ نذكِّرهم بأنَّ ذبيحة حمل الفصح كانت حسب الرمز عن الشعب كله، وهي بعد إشراق حقيقة الإنجيل عن كل المؤمنين؛ لأن حمل الفصح أبطل الهلاك، وعبر الملاك المهلِك عن البيوت التي حملت الدم، ولذلك نحن نقدم ذبيحة الحمل من أجل عبورنا معاً إلى الحياة الغالبة الموت كشعب واحد.

صلاة التقدمة:

هي من أهم صلواتنا الطقسية، وتقال بعد صلاة الشكر. وتضع هذه الصلاة القارئ أمام حقيقتين:

أولاً: الخبز الحي النازل من السماء، وهو تعليم الرب في إنجيل يوحنا الإصحاح السادس.

ثانياً: الحمل الذي بلا عيب **"أيها السيد الرب يسوع المسيح الشريك الذاتي وكلمة الآب أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، وسبقت أنْ تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم"**. وكلمة "سبقتَ" ضروريةٌ لأنها تدخلنا في أعماق التدبير الإلهي السابق على خلق العالم حسب عبارة الرسول بطرس دم يسوع المسيح المعروف سابقاً قبل تأسيس العالم (راجع ١بط ١: ٢٠).

وهو ذاته دم الحمل الكريم الذي بلا عيب. وعندما نقول كلمات الليتورجية: **"أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين اللتين بلا عيب ولا دنس"**، فهي إشارةٌ إلى الرب الحمل الحولي الذي بلا عيب، والذي يقدم ذاته بذاته؛ لأنه لا يوجد آخر يمكن أنْ يقدمه.

القداس الغريغوري، والقداس الكيرلسي:

من العبارات الهامة عن الحمل: **"أتيت إلى الذبح مثل حمل حتى إلى الصليب"**، وهي تؤكد لنا طبيعة ودور ذبيحة الرب. ولعل القارئ يذكر أنَّ حمل الفصح هو الذبيحة الوحيدة التي تؤكل كلها ولا يأخذ أحد من الكهنة منها شيئاً لكي

يصعده على المذبح بالنار، وكان التقليد المتبع في زمان الرب حسب شهادة رسالة برنابا أنْ يؤخَذ الجزء الأوسط من حمل الفصح ويعطى للكهنة، وهو ما يحدث في قداسنا إذ أنَّ الإسباديقون مخصص للكهنة. وهكذا تؤكد القسمة أنَّ حمل الفصح الذي يؤكل كله هو **"يا حمل الله الذي بأوجاعك حملت خطايا العالم"**. وتؤكد ذلك قسمة سبت الفرح **"أنت هو الذي تنبأ عنك أشعياء قائلاً مثل حمل سيق إلى الذبح"**. وسوف نعود إلى هذه النقطة بالذات، وهي استخدام نص أشعياء ٥٣ [1] في خدمة الفصح اليهودي في زمان الرب يسوع المسيح.

وعندما تقول صلاة القسمة **"مقدسةٌ ومملوءةٌ مجداً هذه الذبيحة التي ذُبحت عن حياة العالم كله"**، فإن حمل الفصح هو المعنى الخفي؛ لأن الحمل أبعد وحوَّل ملاك الموت والمهلك عن شعبٍ بأكمله، وهكذا حوَّلت ذبيحة الرب الموت والفساد عن الجنس البشري كله حسبما رأينا في نصوص الآباء السابقة عن موت المسيح المحيي على خشبة الصليب.

تداخل المفردات والمعاني بسبب كثافة عمل المسيح

نستطيع أنْ نرى من خلال الصلوات الأُرثوذكسية إنَّ موت الرب على الصليب كثيفٌ جداً، يحتوي العديد من المعاني، ولذلك لا يمكن أنْ نفسر أو نفهم الإفخارستيا من خلال حمل الفصح وحده، بل من خلال صفات الرب أيضاً مثل: الحياة، والقيامة، والخبز الحي، والراعي الصالح، وغيرها من صفات وألقاب توضع في نسيجٍ واحدٍ هو الإفخارستيا، وهي سر المسيح، وسر شركتنا في جسده ودمه، ومع ذلك فإنَّ العلاقة بين حمل الفصح وموت الرب تظهر في عدة نقاط هامة.

أولاً: ذبيحة أبادت الموت.

ثانياً: عن الشعب كله ويقدمها الشعب.

ثالثاً: سبقت نزول الشريعة على جبل سيناء.

---

(١) تقرأ هذه النبوة في الساعة الحادية عشر من يوم خميس العهد.

رابعاً: لم تكن لمغفرة الخطايا، بل للخلاص من العبودية والموت.

خامساً: ليس لها أية علاقة بما يمكن أنْ يقال عن حمْل العقوبة والموت النيابي واستيعاب غضب الآب.

هكذا أيضاً يُقدم لنا طرح الساعة الحادية عشر من يوم الخميس الكبير التعليم الأُرثوذكسي:

> **"ولما كان عشية ذلك اليوم الذي أكلوا فيه فطير الفصح اتكأ الرب يسوع المخلص مع تلاميذه، وكانوا يأكلون الفصح الجديد الذي هو جسده هو بذاته الذي أعطاه لهم بأمرٍ سري والدم الكريم".**

هذا هو فصح خلاصنا الحمل الحقيقي.

ذبيحة يوم الكفارة

لا يمكن أن نهمل ما يذكره الرسول عن يوم الكفارة العظيم، وهو طقسٌ يؤكدٍ دور المسيح الكهنوتي كرئيس كهنة لكل الخيرات المستقبلة. وقد سبق وشرحنا ذلك، لأن يوم الكفارة يؤكد دور الكاهن، ولكنه لا يؤكد وحدانية الكاهن والذبيحة، ولا يشرح إلاَّ وساطة المسيح. وحسب طقسنا الكنسي وترتيب الليتورجية الذي لا يخطئ ـ لأنه مثل النغمة الموسيقية الكاملة الإيقاع ـ فإن يوم الكفارة هو يوم السبت الكبير، أو سبت النور حسب الاسم القبطي القديم، وهو اليوم الذي سبى فيه الرب الجحيم وأبطل سلطانها على المؤمنين، ولذلك رغم احتفالنا المهيب بموت الرب ودفنه إلاَّ أننا نقيم القداس ونقدم الذبيحة كما سبق وقدمت يوم الخميس الكبير أو خميس العهد؛ لأن المسيح واحدٌ لا ينقسم إذا قدَّم أو عمل أعمال الخلاص، بل يوحدها كلها في أُقنومه الإلهي المتجسد. وهكذا تؤكد الليتورجية وبشكل خاص صلاة قسمة سبت الفرح التعليم الرسولي الوارد في الرسالة إلى العبرانيين، فهي تؤكد: ١ـ أن الرب حيٌ مع الآب كابن للآب. ٢ـ إن الرب في الجحيم بالنفس، وفي القبر بالجسد. ولكن الرب فتح لنا قدس الأقداس الذي انشق حجابه يوم الصلبوت على الأرض ودخله الرب على المستوى

السمائي لكي يقدم ذبيحة الخلاص مطهراً السماويات عينها (عب ٩ : ٢٤) بذبيحة جسده حاملاً معه اللص اليمين الذي آمن مودعاً إياه في الفردوس. هكذا غيَّر المسيح يوم الكفارة العظيم وضمه إلى الفصح، وهو الترتيب اليهودي القديم حيث كانت فصول أشعياء ٥٣ تقرأ في يوم الفصح، وفي يوم الكفارة.

هذا الترتيب يحتم علينا أن نجمع الرموز معاً وألاَّ نفصل بينها باحثين فيها عن الشرح العقيدي الذي نريده، بل نرى فيها الأجزاء الرمزية التي تُعلَن كاملة في المسيح وحده، والتي لا يمكن لكل جزء فيها منفرداً أن يكون البشارة الكاملة للإنجيل.

ويحتم علينا هذا ألاَّ نقرأ الرسالة إلى العبرانيين كما قرأها كالفن وغيره باحثين فيها عن نصوص تخلع الإفخارستيا من جذورها من أجل تعظيم يوم الجمعة الكبيرة، أي يوم الصلبوت باعتباره يوم الخلاص الوحيد، بل لكي نرى المسيحٍ كله في أحداث الخلاص حتى تلك التي تبدو حسب الترتيب الزمني بعيدةً عن يوم الجمعة الكبيرة بثلاث سنوات ونصف، وبالتحديد معمودية الرب؛ لأن ترتيب الليتورجية الذي يمسح فيه الكاهن التقدمة بالماء مشيراً إلى معمودية الرب تؤكد أن يسوع مُسِحَ بالروح القدس وصار "المسيح" لكي ندرك أننا بذات الروح القدس سوف ننال جسد الرب ودمه؛ لأن الروح القدس الذي رتب الحبل والولادة والمعمودية هو ذات الروح القدس الذي يعطي لنا جسد الرب ودمه في القداسات. وليس أبلغ على قصور المنهج التاريخي البروتستانتي، والذي يظهر في بعض الدراسات الأرثوذكسية التي اعتمدت عليه في فهم تاريخ الخلاص، وتصور أصحاب هذه الدراسات أن عدم استدعاء الروح القدس في علية صهيون ينزع عن عشاء علية صهيون ما يقال عن الإفخارستيا بعد قيامة الرب، ولكن ينسى هؤلاء الأرثوذكس أن الروح القدس شريكٌ للابن في كل شيء، في المعجزات وسائر أعمال الرب، وإن شركة الروح في أعمال الابن هي سبب عطية عيد العنصرة، فالكاهن الذي قدم جسده ودمه يوم الخميس الكبير، قدم ذلك بالروح القدس في العلية وعلى الصليب، وهو ذات الروح القدس الذي أقام الرب من القبر.

ذبيحة الصليب

تعلنها محبة اللّه

وكل الرموز السابقة

هي ظلالٌ لا تشرح النور

لأن الصليب أعظم من

كل الذبائح و التقدمات

كيف نتحدَّث عن الصليب في اللاهوت الشرقي؟

الصليب في اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي هو أداة الغلبة والانتصار. هو قوة الله المُخلِّصة لجميع الناس، وليس هو أداة العقوبة والانتقام وإيفاء الديون كما يُعلِّم لاهوت العصر الوسيط بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي.

لم يمت المسيح على الصليب كخاطئ، لأنه قدوس بلا شر، ولا وجد في فمه غش، بل قدَّمه الله أبوه كفَّارةً، وجعل الذي لم يعرف خطية، خطيةً لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه، كيف؟

كيف عبَّر اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي عن حقيقة غلبة الصليب؟

ماذا يعني القديس بولس بـ "جعله خطيةً" في تفسير الآباء؟

كيف عبَّرت الصلوات والطقوس الأُرثوذكسية عن علاقة الخطية بالموت؟

في ثلاثة مباحث متتابعة نعالج هذه النقاط الثلاث في هذا الفصل.

التعبير عن الصليب
في اللاهـوت الشرقي

الصليب نعمة الله (عب ٢ : ٩)

عندما نتحدث عن الصليب في صلواتنا القبطية الأُرثوذكسية فإننا نَصف الصليب دائماً بأنَّه **"الصليب المُكرَّم"**، وهو **"العلامة التي تسد أفواه الأُسود، وتطفئ قوة النار، وتشفي كل مرضٍ"** (إبصالية الجمعة). وتقول نفس الإبصالية بعد ذلك **"هذا هو اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح، وصليبه المحيي الذي صُلب عليه"** (إبصالية الجمعة). فقد إلتصق الصليب بالمسيح حتى صار الاسم الذي يبدأ في القبطية واليونانية بحرف X هو ذاته إشارة إلى المسيح نفسه، لأنَّ ذات الحرف - حسب شهادة العلاَّمة أوريجينوس الإسكندري - هو حرف "الخاء" في الحروف العبرانية القديمة السابقة على ظهور المسيحية، وكان يكتب على شكل ✝ أي الصليب. (تفسير حزقيال عظة ٩ : ٢)، ومِن شكل الحرف نفسه حسب دراسة عالم الآثار والمؤرخ الكنسي الأب الكاثوليكي *Danielou* [1] يظهر لنا أنَّ رسم حرف ✝ والرشم بالزيت إنما يأخذ شكل الصليب، ويصبح في نفس الوقت وضع أول حرف مِن اسم المسيح على جسد المؤمِنين.

الصليب في الطقوس الكنسية القبطية

لا يوجد لدينا طقس كنسي يُمارَس بدون علامة الصليب، ابتداءً مِن رشم الصليب في الصلوات المختلفة، إلى صلاة الجناز، وهي آخر طقس كنسي يُعطى للمؤمِن. حتى ملابس الخدمة قبل صلاة القُدَّاس تأخذ ختم الملك المسيح،

---

(1) Theologie du judeo - christianisme, 1964 p 29.

وكذلك "قربانة" الحَمَل قبل أنْ توضع على المذبح، وقبل أنْ تُختَار وهي لا تزال في بيت القربان أو حسب التسمية القديمة "بيت لحم"، تختم بصليبٍ كبير في الوسط، هو ختم المسيح "الإسباديقون" وحوله إثنى عشر صليباً أقل حجماً وأصغر، هم رُسل ربنا يسوع المسيح الذين حملوا الصليب.

ولعل القارئ الذي وُلِدَ، وعاش في بيئة قبطية يذكر كلمات التقوى التي كنا، ولا نزال نسمعها "باسم الصليب" لا سيما مِن كبار السن، أي باسم القوة والقدرة الإلهية للمسيح إلهنا. هذا الاهتمام بالصليب الذي تزرعه الطقوس والتقوى الأُرثوذكسية القبطية، له جذورٌ رسولية وآبائية في حياة الرسل والقدِّيسين. وأقدم ما وصلنا مِن تراث قبطي قديم هو حياة الأنبا أنطونيوس للقدِّيس أثناسيوس الرسولي حيث تظهر فاعلية علامة الصليب في صلوات وممارسة الأنبا أنطونيوس.[1]

ويقول القدِّيس أثناسيوس في مقدمة رسالته إلى الوثنيين إنَّ سخرية الوثنيين مِن الصليب تتحول إلى إيمان عندما يكتشفون فيه، أي في الصليب **"شفاء الخليقة"** (راجع النص الإنجليزي ص ٤ فقرة ١ : ٤ مجلد ٤ مِن مجموعة آباء نيقية). و**تعبير "الصليب المُكرَّم"** تراه عند القدِّيس أثناسيوس نفسه، إذ يقول في المقالة الأُولى في الرد على الأريوسيين:

> [انظروا كيف صار الذي يعتبره الناس جهالة اللّٰه، ويحتقرون الصليب، قد صار أكثر الأشياء المكرمة، لأنَّ قيامتنا تعتمد عليه] (المرجع السابق ص ٣٣١ فقرة ٤٣).

الصليب قوة حياة ربنا يسوع المسيح

يظل الصليب عثرةً وصخرة شك لكل مَنْ يرفض تجسُّد ابن الله، مثل أريوس ونسطور وغيرهم. على الصليب تم لقاء الحياة التي لا تموت مع الموت،

---

[1] راجع "حياة الأنبا أنطونيوس" ـ عدة طبعات، وكذلك فصل رشم الصليب في كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية" ـ القمص متى المسكين عدة طبعات. وراجع أيضا د. جورج حبيب بباوي: معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية- سلسلة ينابيع الأرثوذكسية ٢ طبعة ١٩٨٤م.

وهكذا تعلمنا هذه الحقيقة في نشيد الكنيسة **"قدوس الله .. قدوس الحي الذي لا يموت"** وهو نشيد نابع مِن تقوى وتعليم الآباء، ولذلك يكتب القدِّيس كيرلس إلى نسطور:

[ونقول أنَّه تألم وقام، ليس أنَّ كلمة اللّٰه تألم في طبيعته الخاصة، أو ضُرِبَ، أو طُعِنَ، أو قبل الجروح الأُخرى، لأنَّ الإلهي غير قابل للتألم حيث أنَّه غير جسمي، لكن حيث أنَّ جسده الخاص الذي وُلِدَ، عانى هذه الأُمور، فإنه يقال أنَّه هو نفسه أيضاً قد عانى هذه الأُمور لأجلنا. لأنَّ ذلك الذي هو غير قابل للآلام كان في الجسد القابل للآلام، وعلى نفس النسق نفكر في موته. إنَّ كلمة اللّٰه حسب الطبيعة غير مائتٍ، وغير فاسدٍ، **هو الحياة ومعطي الحياة**، ولكن بسبب أنَّ جسده **الخاص ذاق الموت بنعمة الله** لأجل الجميع، كما يقول بولس (عب ٢ : ٩) لذلك يقال أنَّه هو نفسه قد عانى الموت لأجلنا. لأنَّه فيما يخص طبيعة الكلمة، فهو لم يختبر الموت، لأنَّه مِن الجنون أنْ يقول أحدٌ، أو يفكر هكذا، ولكن، كما قلت بكل دقة، فإن جسده ذاق الموت، وهكذا أيضاً عندما أعاد الحياة إلى جسده، يقال أنَّه قام، ليس كما لو أنَّه تعرض للفساد، حاشا، بل إنَّ جسده قام ثانية] [1]

ويكتب القدِّيس كيرلس في الرسالة الثالثة إلى نسطور:

[نحن نعترف أنَّه هو الابن المولود مِن اللّٰه الآب، والإله الوحيد، ورغم أنَّه هو غير قابل للتألم بحسب طبيعته الخاصة، فقد تألم بالجسد الخاص به حسب الكتب. وهو غير قابل للتألم، جعل آلام جسده خاصة له عندما صُلب جسده، لأنَّه بنعمة اللّٰه، ولأجل الجميع ذاق الموت بإخضاع

---

[1] الرسالة الثانية إلى نسطور النص اليوناني مع الترجمة الإنجليزية صدر في سلسلة كتابات الآباء التي تصدرها جامعة أُوكسفورد *L.R. Wickham, Cyril of Alexandrian Select letters, 1983, p 8-9*. وراجع أيضاً الرسالة الرابعة إلى نسطور- فقرة ٥ الترجمة العربية التي صدرت مِن مركز الآباء القاهرة ١٩٨٨ صـ ١٤-١٥.

جسده الخاص للموت، رغم أنَّه حسب الطبيعة هو الحياة، وهو نفسه القيامة (أع ٤ : ٢) لكي بواسطة قوته التي تفوق الوصف - إذ قد داس الموت أولاً في جسده الخاص - صار البِّكر مِن الأموات (كو ١ : ١٨) .. **ولكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان، وبنعمة الله، كما سبق أنْ قلنا الآن، ذاق الموت لأجل الجميع، ولكنه قام في اليوم الثالث بعد أنْ سلب الجحيم**، حتى إنْ كان يمكن أنْ يُقال عن قيامة الأموات أنَّها صارت بواسطة إنسان، فلا نزال نعني أنَّ هذا الإنسان هو الكلمة المولود مِن الله، وإنَّ سلطان الموت قد انحل بواسطته، وهو سيأتي في الوقت المناسب كالابن الواحد والرب في مجد الآب ليدين المسكونة بالعدل ..] (المرجع السابق ص ٢٠- ٢١ - والترجمة العربية ص ٢٧ - ٢٨).

وعندما يشرح قانون الإيمان يقول أيضاً القديس كيرلس:

[يؤكد بولس الحكيم تماماً، أنَّ ذات الكلمة الذي في صورة الله، والمساوي لله الآب، صار طائعاً حتى الموت موت الصليب (فيلبي ٢ : ٨) وفي رسالة أُخرى يقول بولس الذي هو صورة الله غير المَنْظور، بكر كل خليقة، . لأنَّ فيه خلق الكل .. (كو ١ : ١٥- ١٦) كما يقول بولس أنَّه صار رأس الكنيسة، وباكورة الراقدين، والبِّكر مِن الأموات. كلمة الله الآب هو الحياة ومُعطي الحياة، يولد مِن حياة الآب، فكيف صار باكورة الراقدين والبِّكر مِن الأموات؟ **الجواب أنَّه بعد أنْ جعل جسده قابلاً للموت بنعمة الله، كما يؤكد بولس الحكيم تماماً: ذاق الموت لأجل كل واحدٍ في الجسد، واختبر الموت دون أنْ يفقد هو شخصياً الحياة.** وتبعاً لذلك - رغم أنَّه يؤكد (بولس) أنَّه تألم بالجسد - فلا مجال للسؤال عن تألمه باللاهوت، أي طبيعة الله، ولكن كما قلت الآن، تألم بالجسد، لأنَّ الجسد قابل للألم"

(فقرة ٢٥ ـ المرجع السابق ص ١٢٢ـ١٢٥ ـ والترجمة العربية، مركز دراسات الآباء ـ القاهرة ـ يوليو ١٩٨٤ ص٢٧/٢٨).

وحتى عندما يقرأ القدِّيس كيرلس كلمات أشعياء النبي « لأنَّ حياته قد نزعت أو رفعت مِن الأرض» (٥٣ : ٨)، يقول مؤكداً:

[إنَّ هذه الكلمات تعني الوجود لأنَّ الوجود يعني الحياة، وحياته قد رفعت عالياً وتسامت *transcends* فوق حياة البشر بشكل فائق، بل إنَّ العقول الإنسانية ليس لديها وسيلة يمكن بها إدراك، أو الاقتراب مِن هذه الطبيعة الفائقة]

(فقرة ٢٦ - المرجع السابق ص ١٢٤- ١٢٥ - والترجمة العربية ص٢٨).

هزم الربُ الموتَ على الصليب، وداسه بالقيامة

عندما نسمع كلمات أُنشودة القيامة **"المسيح قام مِن بين الأموات، بالموت داس الموت"**، فإننا نهتف لقوة حياة الابن غالب الموت والذي نؤكد قوته حتى في أُسبوع الآلام **"لك القوة والمجد .."** في تسبحة البصخة. وكلمات نشيد الخماسين نراها في كل كتابات الآباء دون استثناء (راجع القدِّيس أثناسيوس على سبيل المثال، ضد الأريوسيين مقالة ١ : ٦٠ ص ٣٤١ ، ومقالة ٣ : ٥٧ ص ٤٢٤ ، والقدِّيس كيرلس النص السابق).

إنَّ هزيمة الموت تعني ـ حسب شرح كنيسة الإسكندرية ـ عدة مسائل هامة:

أولاً: قوة المصلوب نفسه، فهو ابن الله

ثانياً: حياة المصلوب، فهو الخالق القادر الذي في البدء خلق كل الأشياء.

ثالثاً: اختيار الصليب نفسه، أي حرية المصلوب، وعند الآباء جميعاً دون أي استثناء، نجد كلمات الرب في يوحنا ١٠ : ١٨ هي أحد الأركان الأساسية لفهم موت الرب على الصليب. يقول الرب يسوع المسيح له المجد «ليس أحد يأخذها مِني بل أضعها أنا مِن ذاتي. لي سلطان أنْ أضعها، ولي سلطان أنْ آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها مِن أبي» (يوحنا ١٠ : ١٧-١٨)[١].

---

[١] راجع تفسير القديس كيرلس الكبير لهذا النص في الفصل المعنون بالثالوث وآلام الرب تحت عنوان الله ومطالب الناموس.

لا يسمح المجال باقتباس كلمات الآباء التي يقررون فيها أنَّ الابن مات بحريته، وبسلطانه وحده وضع حياته لأجلنا. ونكتفي بمثال أو تشبيه يقدمه القدِّيس أثناسيوس عن موت المسيح على الصليب، وهو مثل المصارع القوي الذي يترك لخصمه فرصة اختيار مناسبة الصراع، ووسائله لكي يقهره (تجسُّد الكلمة ف ٢٨)، أو مثل الملك الذي يسكن في مدينةٍ، وحالما يسكن فيها، يطرد الأعداء (تجسُّد الكلمة ف ١٠).

وبنصٍ صريح يقول القدِّيس أثناسيوس على سبيل المثال:

[احتمل الرب طوعياً (حراً) لأجلنا]

(ضد الأريوسيين ١ : ٧ ص ٣٠٩).

ولأنَّ الرب صُلِبَ حُراً، فقد صار ملك الحياة والموت، لأنَّه ساد بحريته وقدرته على الموت

[لأنَّ الصلب هو المقصود بالكلمات «سترون حياتكم معلقة» (تث ٢٨ : ٦٦) ... وقيامته هي ما يعنيه القول « لن تترك نفسي في الهاوية » (مز ١٦ : ١٠) وابتُلِع الموت بقوته .. لأنَّ هذه العلامات التي حدثت فعلاً تثبت أنَّ هذا الذي هو في الجسد هو اللّه، وأنَّه هو **الحياة** ـ وهو رب الموت. فالمسيح الذي هو واهب الحياة للآخرين لا يسود عليه الموت ... جميع الناس خاضعون للموت .. أمَّا يسوع فإنه بصيرورته إنساناً قد برهن أنَّه رب الأحياء والأموات.]

(ضد الأريوسيين ٢ : ١٦ راجع الترجمة العربية ص ٣١- ٣٢).

ولذلك، كحياةٍ، لم يخضع الابن المتجسُّد لناموس الموت، بل خضع ناموس الموت له.

الصليب نعمة الله

١ـ وهكذا نرى في الصليب جوهر النعمة نفسه، لأنَّ النعمة هي عطيةٌ حُرةٌ لا تخضع لشريعة أو ناموس، وإلاَّ فقدت جوهرها، أي العطاء. وحرية العطاء مصدرها قدرة العاطي أو الواهب، فهو الكلمة خالق كل الأشياء، وهو ذاته الذي قال للإنسان لأنك ترابٌ، والى تراب تعود (تكوين ٣ : ١٩) وهو ذاته الذي

يمنح الحرية للإنسان (ضد الأريوسيين، ٢ : ٦٧- الترجمة العربية، ص ١٠٤ - ١٠٥/ الترجمة الإنجليزية ص: ٣٨٥)، وراجع أيضاً ثاؤطوكية الاثنين حيث تقول:

"لأنَّه حل الحاجز، وقتل العداوة بالكمال،
ومزق كتاب العبودية التي لآدم وحواء، وحررهما"،

"لكي يرد آدم الإنسان الأول الترابي إلى الفردوس، ويحل قضية الموت. إنك يا آدم أنت ترابٌ، والى التراب تعود، لأنَّ الموضع الذي كثرت فيه الخطية تفاضلت فيه نعمة المسيح".

٢ـ ونعمة الصليب تكشف لنا الأساس اللاهوتي لسر الشكر، فهو نعمة الحياة، أي حياة الذي ساد على الموت، وهو موضوع يحتاج إلى دراسة شاملة ومطولة لأنَّ هبة الحياة في المسيح حسب كلمات القدِّيس كيرلس الإسكندري في شرح الفصل السادس مِن إنجيل يوحنا، وفي مواضع أُخرى كثيرة **هي هبة الإفخارستيا**. ونكتفي هنا بكلمات الرسالة ٥٥ لأنَّها موجزة ووافية:

[وهكذا أُبيد الموت .. وغُلِبَ الفساد ، وقوته الكامِنة في الموت ضَعُفَت حسب كلمات المسيح "الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد إبن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم" (يوحنا ٦ : ٥٣). ولذلك جسد المسيح المقدس، ودمه يهبان الحياة ، لأنَّ جسده - كما قلت - ليس جسد إنسان مثلنا ، اشترك في الحياة ، بل جسد ذاك الذي هو الحياة بالطبيعة ، وحقاً جسد الابن الوحيد.. وخورس الآباء القدِّيسين يؤمِنون بذات التعليم الذي نقدمه الآن ..]

(رسالة ٥٥ النص الإنجليزي ـ سلسلة آباء الكنيسة ـ الجامعة الكاثوليكية مجلد ٧٧ - ١٩٨٥ - ترجمة *J. I. McEnerney* ص ٣٣ ـ راجع أيضاً الترجمة العربية ـ فقرة ٢٨ ص٣٠).

تحدِّي المصلوب والصليب لفساد الفكر البشري

مع المسيح في آلامه وموته في أُسبوع البصخة، نسير مع الغالب، مع رب المجد الذي تؤكد طقوسنا الأُرثوذكسية إنَّه الإله المتجسِّد، حيث تأخذ الطقوس نص

(مز ٤٥ : ٦) **"كرسيك يا الله إلى دهر الدهور"** لكي تختم بها مراحل آلام الرب، وبشكل خاص في صلاة الساعة الثانية عشر في الجمعة الكبيرة. مات يسوع رب المجد، ولذلك اختفت الشمس، والخليقة أخذتها الرعدة، لأنَّ الجالس على عرش الشاروبيم وإله المجد صُلِبَ بيد البشر، وليس بيد الآب..

جاء المصلوب، وقَلَبَ موازيين العلاقات الإنسانية عندما جعل **السامري الصالح** أقرب لليهودي مِن الكاهن واللاوي؛ لأنه صنع معه المعروف والمحبة....لم يُعلِّم المصلوب بضرورة التشفي، وجلد التائبين مثل الابن الضال والسامرية، وذلك الشخص الغريب اللص اليمين الذي يتسلل في صلاة الساعة التاسعة، ويحتل مكانة فريدة في صلوات يوم الجمعة الكبيرة .. وما أكثر الذين عادوا إلى الله، ليس فقط في الكتاب المقدس بل في تاريخ الكنيسة، ولم يسحق الله أي واحد مِنهم، بل انسحقوا هم أمام محبة الله. ولم يحل غضب الله على موسى الأسود، ومريم المصرية .. وكثير من الخطاة الذين لا يمكن أنْ نحسب عددهم .. ولهذا يتألق روح الكنيسة القبطية في أنشودة الرحمة والمحبة التي حفظتها لنا الكنيسة في الإبصلمودية في ختام الثاؤطوكيات الآدام:

"مراحمك يا إلهي غير محصاة....

العشار اخترته.

الزانية خلصتها.

اللص اليمين يا سيدي ذكرته

.. لأنَّك لا تشاء موت الخاطئ، مثل أنْ يرجع وتحيا نفسه".

ويتحدى المصلوب البشر في عدة نقاط هامة:

أولاً: محبةٌ بلا مقابل .. هو أحبنا أولاً (ايو ٤ : ١٩) .. هو شاء وخلقنا ودبر الخلاص دون أنْ يكون لنا دور فيه.

ثانياً: مغفرةٌ بلا مقابل، ويجب أنْ نتذكر أنَّها مغفرة الثالوث القدوس، وليست مغفرة واحد فقط مِن الأقانيم..

ثالثاً: ملكوت أبدي لم ندفع فيه شيئاً .. ملكوت يجعلنا وارثين مثل المسيح

تماماً (راجع رو ٨ : ١٧).... نجلس على عرشٍ معه، ونملك كما ملك هو أزلياً، وكما يملك في التدبير.

ولذلك يثور التساؤل: عندما يعود خاطئٌ إلى الله، ما هي صورة الله التي تقدَّم له مِن خلال التعليم؟ .. أهو ذلك الذي فتح باب الملكوت للِّص؟ .. أم ذاك الذي غضب على ابنه الوحيد في أقدس ساعة مِن ساعات خدمته، هي ساعة **"موته المحيي"** (تعبير صلواتنا القبطية) على عود الصليب المكرم، الموت الذي رد الحياة للإنسانية؟

كرامة وعزة ابن الله المصلوب على الصليب

تنقلنا الكنيسة عبر كلمات تسبحة البصخة إلى أقدس مجال لمحبة الله. هي محبة ملك المجد. محبة القوي. محبة ينبوع البركة والعزة. **"لك القوة والمجد والبركة والعزة إلى الأبد"**. المسيح ملكٌ وهو على الصليب، يملك الخليقة كخالق، ويملك الخليقة كفادٍ .. والملوك لا يدفعون الغرامة. ويسوع ملكٌ مع الآب والروح، وهو معلق على الصليب .. هذا هو جوهر الأُرثوذكسية **"جوهر واحد للثالوث"**.

فمع كنيستنا القبطية نقول: **"الصليب سلاحنا، الصليب رجاؤنا"**، ويا مَنْ رُفِعتَ على خشبة الصليب ارفع عيون قلوبنا لكي نري نعمة ومجد صليبك. ومع القديس كيرلس نقول:

> [إنَّ موت المسيح هو دواءٌ يُذيب الموت، والذين يشتركون في سر الإفخارستيا أقوي مِن الموت حسب كلمات الذي قال مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي له حياةٌ أبدية] (العبادة بالروح والحق، الكتاب الثالث: عامود٩٧).

عودة إلى الليتورجية القبطية

لا تعرف صلواتنا القبطية، بل ولا حتى العربية، فكرة دفع الثمَنْ .. الأمر الذي نجد عكسه عندما ندرس صلوات وتراتيل القرنين التاسع عشر والعشرين

في مصر، التي نجد فيها الفكر الغربي[1].. نحن نحتاج إلى صلوات وتراتيل تُعلِن المحبة الإلهية على النحو الذي نراه في قُدَّاساتنا الأُرثوذكسية.. هذه القُدَّاسات التي لا نجد فيها أي إشارةٍ إلى أنَّ المسيح وقف أمام الآب كخاطئ .. ذلك أن القُدَّاس لا يمكن أنْ يحتوي على هذه الأفكار، فهو قائم على فصح الرب الذي تم في العلية، وهو هنا الرب نفسه الذي يوزِّع جسده ودمه .. فليست المناسبة هي دفع الديون، بل هبة الحياة والعطاء الحر الذي أشرنا إليه..

الله نورٌ، وليس فيه ظلمة

يقول الرسول يوحنا «الله نورٌ، وليس فيه ظلمة البتة» (١ يوحنا ١ : ٥) هذا النور هو نور الثالوث الذي يقول عنه الرسول يوحنا: هذا هو الخبر السار، أو البشارة، أو الإنجيل الذي سمعناه مِنه، أي المسيح .. وما هي الظلمة؟ يقول الرسول يوحنا نفسه «مَنْ قال أنه في النور، وهو يبغض أخاه، فهو إلى الآن في الظلمة، مَن يحب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة. وأمَّا مَن يبغض أخاه فهو في الظلمة، وفي الظلمة يسلك، ولا يعلم أين يمضي، لأنَّ الظلمة أعمت عينيه» (١ يو ٢ : ٩ - ١١). وهكذا حسب كلمات الرسول **"الظلمة بُغضة"**، لأنَّ الرسول يقول «الظلمة قد مضت والنور الحقيقي الآن يضيء» (١ يو ٢ : ٨). فهل كانت مناسبة موت الرب نور المحبة، أم ظلمة بُغضة الآب؟

لقد أشرق نور الصليب لأنَّ الرسول يوحنا يقول عن نور المسيح «والظلمة لم تدركه» (يوحنا ١ : ٥) .. وهكذا أنار الرب حياتنا **بموته المحيي**.

---

[1] مثل ترتيلة "قد قضى ديني كله الحمل"، أو "خلني قرب الصليب"، وهي التراتيل التي فصلت بين الصليب والمعمودية والإفخارستيا، ولعلنا نلاحظ تلك العبارة "من دم الفادي الحبيب داء نفسي يبرأ"، وهي نصف الحقيقة، لأننا نشرب هذا الدم ولا نتذكره عقلياً فقط وغيرها مِن تراتيل وفدت إلينا مع الإرساليات الغربية.

ننال الصليب في المعمودية

وفي رشومات الميرون

وعندما يوضع على القربانة

يدخل إلى أعماقنا الروحية والجسدية

لأنه قوة وكرامة ابن الله

أمام محكمة آباء الكنيسة الجامعة "لأنَّه جعل الذي لم يعرف خطية، خطيةً لأجلنا" (٢ كور ٥ : ٢١)

مقياس للاختلاف بين الشرق والغرب

تعتبر دراسة نص (٢كور٥ :٢١) مِن أهم ملامح الفرق بين الشرح الأرثوذكسي والشرح الغربي البروتستانتي عند قادة الإصلاح وقيادات قبطية أرثوذكسية معاصرة تعتنق شرح حركة الإصلاح دون تمييز. ونحن لا ننكر صعوبة النص، ولكن إذا عدنا إلى كتابات الآباء، وجدنا أنَّ الآباء قد أضافوا كلمة مِن العهد القديم استُخدِمت في الترجمة السبعينية، وهي كلمة **"ذبيحة خطية"**، وصار النص يُقرأ على هذا النحو: **"الذي لم يعرف خطية، صار أو جُعل ذبيحة خطية"**، وسبب الإضافة، كما يذكره القديس كيرلس الإسكندري هو أنَّ اسم "ذبيحة خطية" كان يُختصر إلى"خطية"، بل إنَّ النص العبراني لسفر هوشع يصف "ذبيحة الخطية" بكلمة واحدة هي "خطية". فيقول النبي عن رعاة السوء **"يأكلون خطية شعبي"** (هوشع ٤ : ٧-٨)، أي يأكلون لحم ذبائح الخطية كما حدده سفر اللاويين، ويؤكد ذلك حقيقة أنَّ الخطية لا تؤكل، وإنما الذي يؤكل هو ذبيحة الخطية، كذلك فقد سُمِّيَت "الخطية" بـ "ذبيحة الخطية" بشكل خاص في نص سفر اللاويين ٤ : ٢٩ حيث يقول النص اليوناني "ويضع يده على الخطية" "του ηαμαρτεματος" وذلك بدلاً مِن "ذبيحة الخطية" حسب النص العبراني. وسوف نستعرض معاً بعض نماذج مِن شرح آباء الكنيسة الجامعة لنص ٢ كورنثوس ٥ : ٢١:

١- القدِّيس غريغوريوس النيسي

[إنَّ ما يقصده الرسول واضح جداً بالمقارنة مع كلمات الرسول الأُخرى، لأنَّ سبب الخطية، أي الشيطان دُعي

"الحية"، وكل ما ينتج عن الحية يدعى حية، لأنَّ الخطية تحمل اسم صانعها. لكن الرب "صار خطية لأجلنا"، لأنَّه أخذ الطبيعة الخاطئة حسب كلمات الرسول في ٢ كورنثوس ٥ : ٢١. وهكذا يجب أنْ نفهم هذه اللغة الرمزية، لأنَّ "الخطية" دُعيت "حية"، وإذا قيل أنَّ الرب "صار خطية" فإننا ندرك أنَّه لبس جسد الخطية، وحسب الرمز القديم ابتعلت "حية موسى" ثعابين وحيات سحرة مصر (خروج ٧ : ١٢)]

(حياة موسى النص اليوناني مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٤٤ : عامود ٣٣٦).

٢- القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

يقول في العظة ١٢ على كورنثوس الثانية ٥ : ٢١ (مجلد ٦١ : عامود ٤٧٨):

[إن الآب لم يجعل الابن خاطئاً، بل يؤكد أنَّ الابن على الصليب صار "ذبيحة خطية" حسب نص سفر هوشع ٤ : ٨].

٣- القدِّيس كيرلس الكبير

كانت سعادتنا فائقة عندما نشرت الجامعة الكاثوليكية في أمريكا رسائل القدِّيس كيرلس الإسكندري في مجلدين في سلسلة *The Fathers of the Church*. مجلد ٧٦-٧٧ عام ١٩٨٧. فقد شرح القدِّيس كيرلس هذه العبارة في أكثر مِن مؤلف مِن مؤلفاته، وخط بيده التفسير الشرقي الأُرثوذكسي، وهو رجلٌ خاض معركة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في أُقنوم الكلمة المتجسِّد، وبالتالي فهو يدرك حساسية كل ما يُقال ويكتب عن شخص ربنا يسوع المسيح. أمَّا في الغرب حيث يسود الفكر القانوني في شكل لاهوت مسيحي، وحيث يطغى التفسير السياسي للكتاب المقدس على المعنى الأصلي الروحي، تحولت هذه الكلمات الرسولية إلى مشكلة رغم ما قدمه آباء الكنيسة الغربية مِن تفسير سليم مثل توما الإكويني، ومِن قبله شرح رسائل بولس الرسول التي تنسب للقدِّيس إمبروسيوس أُسقف ميلان في القرن الرابع .. ومع ذلك، أي رغم اتفاق شرح الشرق مع شرح الغرب، جاء العصر الوسيط، ثم عصر الإصلاح ليجعل

مِن المسيح ضحية خطايا البشر، ويجعل الخطية كائن يحمله الرب في جسده، وهو تفسير أوروبي اعتمد على حقيقة حضارية أوروبية، وهي اعتبار الذنب *Guilt* هو أهم ملامح الخطية، بينما الموت القابع في داخل الخطية هو الدمار الحقيقي. هذه المدرسة لها جذورها في العصر الوسيط عصر صكوك الغفران وسيادة التفسير القانوني على التفسير اللاهوتي الأمر الذي أدى إلى غياب الموت عن الخطية، ويبقى الذنب هو ما تبشر به الكنيسة لحل مشكلة الذنب.

يقول القدِّيس كيرلس في الرسالة ٤١ إلى أكاكيوس، وموضوع الرسالة هو ذبيحة يوم الكفارة في العهد القديم (لاويين ١٦ : ٥ وما بعده) فبعد أنْ يلخِّص القدِّيس كيرلس ما يذكره سفر اللاويين عن شعائر وطقوس يوم الكفَّارة، يعلق قائلاً:.

> [كل الكتاب هو موحى به مِن اللّه ونافع (٢ تيمو ٣ : ١٦) وما يقوله اللّه يؤدي للخلاص. والذين يفهمون قوة الحق يواجهون جمال الحق، وعند ذلك يشرق عليهم نور معرفة سر المسيح" ويكمل كلامه قائلاً: "أمَّا الذين لم يصِلوا بعد إلى عمق معاني وفهم ترتيب الطقس (يوم الكفَّارة)، فهم لا زالوا يسيرون مثل الأعرج، أو يلعبون مثل الأطفال، واختاروا هذه الموضوعات لإثارة الجدل والتخمين في أُمور لا يفهمونها، ولذلك علينا مراقبتهم وتحذيرهم، بل ومنعهم (مِن الكلام)]
> (ص ١٧٠ مِن مجلد ٧٦).

فما هو الموضوع الدقيق الذي لا يجب أنْ يلعب به أطفال المعرفة والحكمة؟ يقول القدِّيس كيرلس أنَّه بعد الاطلاع على رسالة أكاكيوس وجد أنَّ البعض يظن **"أنَّ الماعز أو التيس كان يقدَّم لله، الضابط الكل، كتقدمةٍ وذبيحةٍ، بينما كان التيس الآخر يُرسَل إلى الصحراء لكي يقدَّم إلى شيطانٍ نجسٍ"** (المرجع السابق).

ومع مرور قرابة ١٦٠٠ سنة على هذه الرسالة لا زال البعض في العصر الحديث يبني تفسيره على أساس أنَّ كلمة **"عزازيل"** تعني الشيطان، وبذلك تقدَّم ذبيحة لله، وأُخرى للشيطان. بينما حسب قواعد اللغة العبرانية لا تعني كلمة **"عزازيل"** الشيطان، أو روح نجس، بل تحمل عدة معانٍ حسب ترجمة

الكلمة العبرانية "عزا"، أي "قدَّم"، أو في اللغات السامية الأُخرى "عزا" تعني "قوة"، أو "عزِّة"، ويصبح معنى الكلمة إمَّا "قوة الله" - لأن إيل هو أحد أسماء الله - أو "ما يقدم لله".

ويعترض القدِّيس كيرلس الإسكندري مؤكداً:

[كيف يسمح اللّه، والرب خالق كل الأشياء الذي يعلو على كل فهم وكلمة، والذي هو اللّه والرب بالطبيعة، أنْ يقبل أنْ تقدَّم ذبيحة، أو تقدمة للخائن (المرتد) الشيطان كما لو كان للشيطان قوة ومجد تحتاج إلى الإرضاء (الوساطة) بينما سمعنا اللّه يقول لنا بواسطة واحد مِن الأنبياء القدِّيسين ومجدي لا أعطيه لآخر (أشعياء ٤٢ : ٨)] (المرجع السابق).

ويقدم القدِّيس كيرلس عدة نصوص مِن العهد القديم تؤكد كيف يبغض الرب عبادة الأوثان، ولا يقبل أنْ يشاركه في مجده آخر، ثم يشرح تقدمة التيس الأول، والتيس الثاني كرمز واحدٍ للمسيح الواحد ابن الله، وهكذا يُفسِّر هذه الذبيحة الثنائية في يوم الكفَّارة، ويقول:

[يرمز كلاهما إلى الابن الوحيد الرب يسوع المسيح. وبقدر الإمكان يجب أنْ نفهم بدقة معاني الكلمات التي سوف أشرحها حسب الناموس؛ كان التيس الأول هو ذبيحة خطية لأنَّ الأسفار الموحى بها في مواضع كثيرة تشبه الصديق بالحمل، بينما محب الخطية بالماعز. وما هو السبب في ذلك؟ لأنَّ الصديق مملوء بمجد الفضيلة، ولذلك هو مثمر مثل الحمل الذي يجود بالصوف. أمَّا الماعز فإنه يشبه نفس *Soul* الخاطئ، عارية وغير مثمرة وبلا صلاح، وهو كحيوان أرخص مِن الغنم وغير مثمر .. ولذلك السبب نفسه قال ربنا يسوع المسيح "عندما يجلس ابن الإنسان على عرش مجده سوف يجعل الخراف على يده اليمنى .. والجداء على يده اليسرى" (متى ٢٥ : ٣١- ٣٣)].

[وحسب الناموس، كان التيس الأول يُذبَح لكي يُقدَّم ذبيحة خطية (لاويين ٢٣ : ١٩)، وفي موضعٍ آخر يقول اللّه

نفسه عن ذبيحة الخطية التي كانت تُعطي للكاهن «يأكلون خطية شعبي» (هوشع ٤ : ٨)، أي يأكلون ذبيحة الخطية، لأنَّ الجزء المخصص للكهنة، هو الجزء الذي كان يخصص أصلاً للرب (تثنية ١٨ : ١- ٣)، وهكذا صار المسيح قرباناً لخطايانا حسب الكتاب (١ كور ١٥ : ٣) ولنفس السبب نقول عن المسيح أنَّه دعي خطية، حسبما كتب بولس الحكيم لأجلنا جعله خطية وهو لا يعرف خطية (٢ كور ٥ : ٢١)، أي أنَّ اللّه الآب هو الذي جعله. ونحن لا نقول **أنَّ المسيح صار خاطئاً**، حاشا، هو بار، بل البر ذاته (حرفياً هو عادل أو العدل ذاته) *Being Just or rather in actuality justice* لأنَّه لم يخطئ، ولكن اللّه الآب جعله ذبيحة خطية لخطايا العالم لأنَّه حُسِبَ مع أثمةٍ (أشعياء ٥٣ : ١٢) واحتمل الحكم الذي يليق بالأشرار. ويشهد النبي الإلهي الموحى له أشعياء، ويقول كلنا مثل غنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه، ولكن الرب وضع عليه إثم جميعنا، وهو تألم لأجلنا، وبجلداته شفينا (أشعياء ٥٣ : ٤- ٦)، ويكتب بطرس الحكيم جداً حمل خطايانا في جسده على الخشبة (١ بطرس ٢ : ٢٤)]

(المرجع السابق ص ١٧٣- ١٧٤).

وفي كتاب القدِّيس كيرلس المعروف باسم "العظات الأنيقة، أو الفاخرة على سفر اللاويين" يؤكد القدِّيس كيرلس ذات التفسير:.

[ألا ترى أنَّ موسى أمر بأنْ تُقطع الخطية، أي ذبيحة الخطية؛ لأنَّ تيس عزازيل هو رمزٌ للمسيح، والتيس الأول هو ذبيحة خطية ورمز للمسيح الذي صار خطية لأجلنا (٢ كور ٥ : ٢١)، أي ذبيحة خطية، لأنَّه حُسِبَ مع أثمةٍ (لوقا ٢٢ : ٣٧)، وصُلِبَ بين لصين، ولما صُلِبَ "حُسِبَ لعنةً" لأنَّه مكتوب ملعون كل مَنْ عُلق على خشبة (غلاطية ٣ : ١٣)]

(مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٩٦ : عامود ٥٤٨).

وكما نلاحظ مِن هذه العبارات القاطعة:

أولاً: ينفي القدِّيس كيرلس أنَّ المسيح له المجد صار خطية، أو خاطئاً بموته على الصليب.

ثانياً: يؤكد أن عبارة **"صار خطية"**، تعني **"ذبيحة خطية"**، وهو التعبير الشائع في الترجمة السبعينية التي اقتبس مِنها الرسول بولس نفسه.

كيف يجب إذن أنْ نفهم ذبيحة وموت الرب على الصليب؟

أجاب القدِّيس كيرلس على هذا السؤال في رسالته السابقة إلى أكاكيوس، وهذه هي كلمات القدِّيس كيرلس الإسكندري:

[كان مِن الضروري أنْ يحتمل الموت الذي ساد (ملك) على كل الذين على الأرض بتعدي آدم، وبالخطية ملك الموت علينا (رو ٥ : ١٢- ١٧) ولكن كلمة الله الآب الغني في الرحمة ومحبته للبشر تجسَّد وتأنس وأخذ شكلنا البشري نحن الذين تحت نير الخطية، وقَبِلَ ما يخصنا مِن نصيب. وكما يقول المُعلِّم الماهر بولس بنعمة الله ذاق موت الجميع (عب ٢ : ٩) وجعل حياته فديةً عن حياة الجميع. مات الواحد عن الجميع لكي نحيا لله مُقدَّسين، وبدمه نعود إلى الحياة (رو ٢ : ١٢- ٢١) متبررين بعطية نعمته (رو ٣ : ٢٧) كما قال الإنجيلي المبارك يوحنا ودم يسوع المسيح يطهرنا مِن كل خطية (١ يوحنا ١ : ٧)] (المرجع السابق).

ويكمل القدِّيس كيرلس شرحه لطقس يوم الكفَّارة قائلاً:

[أمَّا المسيح فقد دخل إلى قُدس الأقداس، ليس بدم تيوسٍ وعجولٍ، ولكنه بدم ذاته فوجد فداءً أبدياً (عب ٩ : ١٢). وقَدَّس المسيح، كما قلت، الخيمة الحقيقية، أي الكنيسة وكل الذين فيها. وعن هذا كتب الرسول بولس الموحى له مِن الله وهكذا يسوع لكي يُقدِّس الشعب بدمه، تألم خارج الأبواب (عب ١٣ : ١٢) وأيضاً كونوا متشبهين بالله كأولاد أحباء، اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح

أيضاً، وأسلم ذاته لأجلنا قرباناً وذبيحة للّه رائحة طيبة (أفسس ٥ : ١- ٢). ومِن أجل إبادة الموت والخطية نعتقد بأن عمانوئيل، رَمَزَ له التيس الذي ذُبح، وبموته في الجسد كان حراً بين الموتى (مز ٨٥ : ٥) . *Free among the dead*
أي أنَّه لم يتلوث بالخطية، ولم يُستعبَد لعقوبة الموت معنا
[*not subject to the penalty of death together with us*]
(المرجع السابق ص ١٧٥).

ونلاحظ هنا:

أولاً: كان موت المسيح لإبادة الموت.

ثانياً: رغم أنَّه حمل خطايانا، فإنه لم يتلوث بها.

ثالثاً: لم يُستعبَّد المسيح لعقوبة الموت، لأنَّه ابن الله الحي الذي يموت حسب الجسد، ولا يموت حسب اللاهوت.

وما هو دور القيامة أيضاً؟

يجيب القدِّيس كيرلس على هذا السؤال في شرحه لطقس يوم الكفَّارة، فيقول عن التيس الحي الذي كان يُطلَق حياً في البرية:

[وهكذا نراه (المسيح) في التيس الحي الذي كان يُرسَل إلى البرية، وفي آلامه كإنسان، ولكن ليس في أُلوهيته (لم يتألم كإله) وفي موته بالجسد، وهو أعظم مِن الموت، وفي قبره ـ حسب جنون اليهود ـ كما نعترف نحن (بموته وقبره) ولكن عجزت بوابات الجحيم عن أنْ تأسره (تبقيه داخلها) في العالم السفلي مع الموتى، لأنَّ تلميذه يقول لأنَّك لم تترك نفسي في الهاوية، ولن تدع قدوسك يرى فساداً (مز ٥١ : ١٠ - أع ٢ : ٢٧) لأنَّه قام وأباد الموت، وقال لكل الأسرى أُخرجوا، وللذين في الظلام اظهروا (أشعياء ٤٩ : ٩) لأنَّه صعد إلى السماء لأبيه وصار في مقام لا يصل إليه إنسان، وحمل خطايانا، وصار كفَّارةً لخطايانا، وهكذا يكتب يوحنا الموحى له للذين يؤمِنون .. (١ يوحنا ١ : ٣)] (المرجع السابق ص ١٧٥- ١٧٦).

ما هو المقصود بـ "صار" أو "جُعِل"؟

إذا ذكر الرسول بولس أنَّه صار **"خطية"**، فهذا يختلف عن كلمة **"خاطئاً"** التي لم ترد في العهدين معاً، وبالتالي فإن إدخالها في كتاباتنا هو أمر خطير لا يجب أنْ يقابل بالصمت، لأنَّه يشوه الإيمان الرسولي.

ومِن عبارات القدِّيس كيرلس الإسكندري السابقة، وعبارات القدِّيس أثناسيوس الرسولي في المقالة الثانية ضد الأريوسيين فقرة ٤٧ ندرك ما يلي:

أولاً: إن فعل **"صار"**، و **"جُعِلَ"** إنما هي مثل باقي الأفعال، تشرح عمل المسيح.

ثانياً: لا تؤكد هذه الأفعال أنَّ عمل المسيح قد أدَّى إلى تحوُّل من القداسة إلى الخطية، لأنَّه ليس مخلوقاً مثلنا، بل إلهٌ متجسِّدٌ وقدوسٌ يعلو على كل هفوات وشرور الإنسانية قبل موته على الصليب، وأثناء موته، وبعد موته، أي حتى وهو في الجحيم مع الأموات.

ثالثاً: كم هو شنيع أنْ نتصور أنَّ كلمة الله الآب « القدوس الذي بلا شر»(عب ٧ : ٢٦) قد صار ـ في أقدس مراحل الخلاص، أي موته على الصليب ـ خاطئاً، أو أنَّه تلوث بالخطية، وصار مثل آدم الأول ساقطاً تحت سلطان الموت؛ لأن أصحاب هذا الرأي لم يدركوا العلاقة بين الخطية والموت. وإذا افترضنا أنَّ المسيح صار خاطئاً عندما قدَّم الذبيحة، فقد تصورنا ما هو ضد الفداء؛ لأن الطبيب أُصيب بنفس المرض الذي جاء لكي يعالجه. هنا يفقد عمل المسيح فاعليته تماماً إذ صار مثل آدم الأول الذي لم يكن ابن الله بالجوهر والأُقنوم، ولم يكن حكمة الله وقوة الله، بل بشرٌ مثلنا.

رابعاً: لقد حفظ لنا اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي المبدأ الرسولي الذي شرحه القدِّيس بولس عن العلاقة العضوية بين الخطية والموت.

فقد دخلت الخطية إلى العالم حسب عبارة الرسول بولس، ومع الخطية دخل الموت. ولم يتوقف الأمر عند الموت، **بل جلب الموت الخطايا كلها**، وصار ذلك اللحن الحزين المؤلم هو خلاصة التاريخ البشري:

خطية آدم ـ موت آدم ـ موت البشر ـ خطايا البشر

فقد تحوَّلت الحياة في ظل الموت، أو حسب تعبير الإنجيل نفسه، وأشعياء النبي « الجالسون في كورة الموت وظلاله » (متى ٤ : ١٦) إلى دفاع دائم عن النفس والوجود على النحو الذي نراه في الجزء الأول مِن الرسالة إلى الوثنيين للقدِّيس أثناسيوس، وغيره مِن الآباء. صار الموت هو مصدر الخطية بعد سقوط آدم، وقبل سقوط آدم كانت الخطية هي مصدر الموت، وجاء المسيح لكي يفصل هذه العلاقة العضوية بين الخطية والموت، وذلك بقبول الموت على الصليب. وبقبول الموت تحوَّل الموت في المسيح إلى قيامةٍ، ولم يعد الهروب مِن الموت هو باب الخلود، بل صار قبول الموت هو باب القيامة، ولذلك ففي كلماتٍ قاطعة يقول رب المجد نفسه عن شرط التلمذة « إنْ أراد أحد أنْ يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه ويتبعني. فان مَنْ أراد أنْ يخلص نفسه يهلكها. ومَنْ يهلك نفسه مِن أجلي يجدها » (متى ١٦ : ٢٤-٢٥).

ولا يوجد برهان أفضل مِن هذا عن دور الموت الأساسي في غرس خطايا كثيرة في حياة البشرية. نحن جميعاً نريد أنْ نخلص أنْفسنا مِن الموت، ونُعبِّر عن ذلك بعدة طرق:

أولاً: كثرة المقتنيات.

ثانياً: الطمع في السلطان والقوة.

ثالثاً: الاعتداء على الآخرين بشتى الطرق لكي نحيا نحن على حساب ضحايانا الذين نقتلهم معنوياً، أو جسدياً لكي نحيا نحن ونتمتع بكل ما يملكون.

رابعاً: تصبح "الأنا" هي مركز الكون كله، وكل الخليقة تدور حول "الأنا"، وتصبح الخليقة مجرد وسيلة لإرضاء الأنا. وقد ضرب المسيح بقوة وبحزم على هذه النقطة الخطيرة "الأنا"، وقال كلماته المحيية "إنَّ ابن الإنسان لم يأت لكي يُخدَّم، بل ليخدِّم، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مرقس ١٠ : ٤٥)، وإنْ أغفلنا الجزء الأول مِن العبارة عن ضرورة البذل في خدمة الآخرين، عجزنا عن فهم باقي العبارة "ويبذل نفسه فدية"، لأنَّ عدم البذل هو تحوُّل النفس إلى صنم كبير وإله آخر.

ماذا تعلمنا الطقوس الأُرثوذكسية عن علاقة الموت بالخطية؟

مقدمة

لا شك أن الرهبنة هي قمة مِن قمم الحياة الروحية الأُرثوذكسية، وبداية الرهبنة، هي طقس رسامة أو تكريس الراهب والراهبة، وهو طقس "الجناز"، وهو دعوةٌ واضحة إلى أنَّ "الموت عن العالم" قد جعل الراهب والراهبة صورة للمسيح المصلوب، ولذلك السبب وحده وُصِفَ الرهبان والراهبات بأنَّهم "**لُبَّاس الصليب**"، فقد لبسوا الصليب حياةً وممارسةً بأنْ قبلوا الموت لكي يخلع الموت نفسه ـ في المسيح ـ قوة الخطية، أي الرغبة في حياة منفصلة عن الله لها القانون الخاص بها، وليس وصايا الله نفسه، وهي نفس تجربة آدم الأول الذي أراد أنْ يُصبِحَ شريعةً لنفسه بمعرفة الخير والشر حسب تصوره.

وكم هو مثير للدهشة والفرح تأمُّل طقس الجناز العام الذي يقام كل سنة بعد قُدَّاس "أحد الشعانين"[1] ومع أنَّ كتب الطقس تقول لنا أنَّه لا يجوز إقامة جناز في أُسبوع الآلام والخماسين المقدسة، فإن هذا الشرح الموجز يحتاج إلى إيضاح في ضوء الحياة الروحية الأُرثوذكسية نفسها. نحن نموت ونقوم مع المسيح في المعمودية، ونتحد بقوة موته وقيامته في الإفخارستيا عندما نأخذ جسده ودمه "دواء وترياق عدم الموت" فلماذا الجناز العام؟ حقاً إنَّ المناسبة الروحية، أي آلام المسيح وقيامته هي أعظم مِن كل شئ، وهي الأساس، ولكن قبل أُسبوع الآلام يوجد "أحد التناصير"، ثم أحد الشعانين. أحد المعمودية، ثم أحد الجناز العام

---

[1] إن حضور هذا الجناز يكفي لردع كل من تسوِّل له نفسه منع الصلاة على الراقدين؛ لأننا روحياً ننال عربون الرهبنة بحضور هذا الجناز، وبذلك نشترك مع "لبَّاس الصليب" في هذا التكريس الكنسي.

الذي يصل بنا إلى الجمعة الكبيرة حينما نرتل "أمانة اللص اليمين"، لأنَّنا نُصلَب روحياً مع الرب في كل يوم وفي كل ساعة «مِن أجلك نمات كل النهار» (رو ٨ : ٣٦)، بل حتى عندما نُصلي ناحية الشرق، أي ناحية النور، أي المسيح، وهي الناحية التي تحوَّلنا إليها بالاعتراف بالإيمان بالمسيح في المعمودية .. هل يمكن أنْ يعترف أحد بالمسيح المصلوب، دون أن يُصلب معه؟ ولذلك تأتي صلوات الأجبية: صلاة الساعة السادسة، والتاسعة لكي ندخل شركة الآم الرب وموته المحيي، ومن ثم نرتل لحن القيامة "قوموا يا بني النور.." في نصف الليل.

لقد جاء المسيح، وفصل بين الموت والخطية بالصليب وبالقيامة. قَبِلَ الموت وجرده مِن قوة الدمار التي كانت تسيطر على قلب الإنسان وفكره، وحوَّلها إلى قوة بذل وعطاء، لأنَّ هبة الحياة التي يسميها الرسول "ناموس روح الحياة في المسيح"، هي تلك القوة التي تحوِّل الموت نفسه إلى قوة عطاء «قد أعتقني مِن ناموس الخطية والموت» (رو ٨ : ٢) لأنَّنا عندما نموت مع المسيح، يتم فينا حكم الناموس، أي أننا نموت. وقوة كلمات الرسول هي في أنّه «يتم فينا حكم الناموس نحن السالكين، ليس حسب الجسد، بل حسب الروح» (رو ٨ : ٤)، أي نحن الذين لا نخضع لسلطان الموت، الذي يجعلنا نتصور أنَّ الحياة هي في الاحتفاظ بالحياة، وسيطرة الجسد، في حين أننا بالروح، ينبغي لنا أنْ ندرِك أنَّ الحياةَ هي في بذل الحياة حسب روح الحياة الذي أعتقنا مِن قوة الموت بالموتِ مع المسيح.

ومفتاح هذا التفسير، هو نشيد القيامة في الكنائس الأُرثوذكسية كلها **"بالموت داس الموت"**، ولهذا السبب عينه يقول الرسول بولس إننا قد مُتنا للناموس **ومات الناموس بموت المسيح على الصليب** (راجع في دقة رو ٧ : ٤، ٦) وجاء ابن الله، وحررنا مِن حكم الناموس، أي حكم الموت.

١ـ اعتراضات أُرثوذكسية على الشرح البروتستانتي لـ "جعله خطية"

كم هو شنيع أنْ نتصور أنَّ الآب السماوي أبو الحق، يحوِّل ابنه الوحيد إلى خطيةٍ، ويحكم عليه بالموت، وهو القدوس البريء الذي بلا شر ... وكيف يحوِّل الله، ابنه ويجعله خطية، بينما هو يكره الخطية؟. إنَّ هذا القول، إنْ صح، إنما يعني أنَّ الآب صار يكره ابنه على الصليب، وتحوَّل عن محبته، فلم يعُد المصلوب هو الابن الحبيب وابن محبته (كو ١ : ١٣). ولو أنَّنا وجدنا هذا الكلام في الكتاب المقدس، لصدقنا كل من لوثر وكالفن وغيرهما ممن لم يقرأوا الكتاب المقدس بأُرثوذكسية الإيمان، بل قرأوه بعقل رجل القانون الذي لا يعرف محبة الله، وهكذا لم يدرك هؤلاء قول الرسول بولس: « وأرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد » (رو ٨ : ٣)، ولو أنَّ الرسول قال أنَّه "دان ـ حكم ـ قضى" على الابن لاستطعنا أنْ نقول آمين، ولكن الرسول قال أنَّه **"دان الخطية"، وذلك بأنْ جعل ابنه الوحيد ذبيحة خطية**، وهو ما يذكره الرسول نفسه « يسوع المسيح الذي قدَّمه الله **كفَّارةً** بالإيمان بدمه لإظهار بره مِن أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله » (رو ٣ : ٤). ولم يقل الرسول إنَّ الله بيَّن غضبه وانتقامه، بل يقول «لكن الله بيَّن محبته لنا، لأنَّه ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا » (رو ٢ : ٨)، وحتى نص ٢ كور ٥ : ٢١ « لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطيةً لإجلنا، لنصير نحن بر الله فيه » ـ والذي عكس الأخوة البروتستانت، ومن يتبعهم من الأقباط الأرثوذكس معناه ـ يظهر لنا في إطار التعليم الرسولي الكامل، وفي إطار سياق النص نفسه مُخاطِباً الإنسانية على نحو آخر: «إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقةٌ جديدة » (٢ كور ٥ : ١٧) وما هي الخلِّيقة الجديدة؟ يجيب الرسول بولس نفسه « مُبطِلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض، لكي يخلق الاثنين (اليهود والأُمم) في نفسه إنساناً واحداً جديداً (ليس يهودياً، ولا أُممياً) صانعاً سلاماً، ويُصالح الاثنين في جسدٍ واحدٍ مع الله بالصليب **قاتلاً العداوة** به» (أف ٢ : ١٥-١٦). وكذلك «الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح.....أي أن الله كان في المسيح مُصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم» (٢ كور ٥ : ١٨ - ١٩).

هل يوجد بعد هذا كلامٌ آخر يمكن أنْ يقال .. حسب منطق لوثر[1] ، كان الله يصالح نفسه، بينما ـ حسب التعليم الرسولي ـ كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه. وحسب منطق لوثر وغيره من بعض الأقباط الأرثوذكس، كان الابن يصالح الآب، ويحمل غضبه، ويجعله الآب خطية لكي يتشفَّى فيه.

إنَّ ذلك النص الجميل، الذي يشرح به القديس بولس، وفي عبارةٍ قويةٍ، حالة الإنسان بعد المصالحة «غير حاسبٍ لهم (للعالم) خطاياهم»، إنما يعني أنَّ الله لم يطلب الحساب، بل «جعل الذي لم يعرف خطية، (ذبيحة) خطية لأجلنا، لنصير نحن بِّر الله فيه» (٢ كور ٥ : ٢١)، فقد طهَّر الابن الوحيد العالم كله بموته، وفصل بين الموت والخطية، وصار الخطاةُ بالنعمة أهلاً للقيامة مِن الأموات، ولذلك «أعطانا خدمة المصالحة» (٢ كور ٥ :١٨)، وهي التي تجعلنا نُقَبِّل بعضنا البعض بقبلة رسولية بعد "صلاة الصُّلح"، وأعطانا بشارة المصالحة، أو حسب كلمات الرسول بولس «وضع فينا كلمة المصالحة»، و «**نطلب عن المسيح، تصالحوا مع الله**» (٢ كور ٥ : ٢٠).

ولو كان حكم الموت قد صدر على الابن، وهو على الصليب، لما استطاع الرسول أنْ يقول؛ "نطلب عن المسيح تصالحوا معه الله"، بل لكان قال لنا كلمات أكثر قساوة؛ نطلب عن المسيح احتملوا حكم الموت معه، وفيه مِن الله. ولكن، لأنَّ الصليب أباد الموت، « قاتلاً العداوة» (أف ٢ : ١٦) «صانعاً سلاماً» (أف ٢ : ١٥)، صار الصليب علامة المحبة، وترك الذنوب، وغفران مجاني، ونعمة الله الفائقة التي تفوق كل عطايا الناموس. وهكذا شرح الآباء هذه العبارة الرسولية.

يقول العهد القديم « لا تنقل التخم الذي حدده آباؤك » (أمثال ٢٢ : ٢٨). هكذا يفعل بعض الإكليروس من الأقباط الأرثوذكس، فهم يحاولون أنْ ينقلوا حدود الأُرثوذكسية مِن مكانها الرسولي لكي نأكل ثمار الفكر الغربي ما بعد البروتستانتية.

---

[1] راجع الفصل المعنون: لوثر وكالفن، والثمن الذي دُفِعَ على الصليب.

٢ـ مَنْ الذي أضاف صلاة القسمة الكاثوليكية الخولاجي؟

صديقي القارئ أينما كنت، إذا كان لديك خولاجي **"قبطي / عربي"** مطبوع قبل عام ١٩٧٠م، فسوف تجد أنَّ آخر صلاة قسمة هي الصلاة رقم ١٩ للقدِّيس كيرلس الكبير التي تبدأ بـ**"يا حمل الله الذي بأوجاعك حملت خطايا العالم .."**، أمَّا طبعات الخولاجي بعد عام ١٩٧٠م، فقد احتوت على صلاة قسمة غير أُرثوذكسية، تتعارض مع كل ما استلمته الكنيسة القبطية مِن إيمان وصلوات وطقوس .. هي صلاة كاثوليكية تبدأ بالعبارة التالية **"أيها الابن الوحيد الكلمة الذي أحبنا، وحبه أراد أنْ يخلصنا مِن الهلاك .."** ورغم الإشارة الواضحة إلى المحبة الإلهية، إلاَّ أنَّ هذه المحبة قد انحصرت في نقطة واحدة، وهي دفع ثمن خطايانا، وإرضاء العدل الإلهي .. الخ.

صلاة كاثوليكية:

تقدِّم هذه الصلاة التي تختلف تماماً عن باقي صلوات الخولاجي القبطي الأُرثوذكسي، تعليم الكنيسة الكاثوليكية المعروف لنا، فهي:

أولاً: تجعل الخلاص ثمرة مِن ثمرات معاناة وآلام المسيح، ولذلك تخاطب جراح المسيح بالشكل المعروف عند أخوتنا الكاثوليك.

وثانياً: تقول هذه الصلاة "هكذا ارتفع على الصليب ليحمل عقاب خطايانا"، ثم تؤكد "نحن الذين صرنا مديونين للعدل الإلهي بذنوبنا .. هو الذي دفع الديون عنا"، وعبارات أُخرى يمكن للقارئ أنْ يراجعها في طبعات الخولاجي بعد عام ١٩٧٠م.

فإذا قرأ أي إنسان، الخولاجي القبطي قبل عام ١٩٧٠م، وجد أنَّ هذه الصلاة لها شكل وقوام غريب .. فهي تختلف عن كل الصلوات القبطية لأنَّنا:

أولاً: لا نخاطب جراح المسيح.

ثانياً: لا نجد فكرة الدين، ودفع الديون في كل صلوات الخولاجي، ولا في الإبصلمودية، وبالتالي تعذر علينا مصالحتها مع الصلوات الأُخرى.

ماذا تقول صلوات القُدَّاسات القبطية عن موت المسيح؟

تصف القداسات القبطية آلام المسيح وموته بهذه الكلمات **"الذي قطع رباطات خطايا مِن قِبَل آلامه المحيية المُخَلِّصة"** (صلاة التحليل). فالرب مات، لا لكي يدفع ثمن خطايا، بل لكي يقطع رباطات الخطايا، ولكي يُحرر الإنسان. فآلام المسيح، محيية، مُخلِّصة.

وتقول صلاة التحليل أيضاً **"نسجد لتعطفك الذي لا يُنطق به"**، لأنَّ اللقب الرسمي للمسيح في التراث الشرقي الأرثوذكسي كله هو **"محب البشر"**. لقد صعد الرب على الصليب لكي بموته المحيي يخلص الإنسان، ولذلك تقول صلاةٌ أُخرى **"إعترفنا بآلامه المُخَلِّصة، بشرنا بموته"**، لأنَّ آلام الرب لم تكن "الثَمَنْ"، ولا كان الموت احتمالاً لعقوبة الإنسان، لذلك يقول القُدَّاس **"موتك المحيي"** (القُدَّاس الغريغوري). وبعد التناول تقول صلاة الشكر **"أيها المسيح إلهنا الكلمة الحقيقي الذي مِن جوهر الآب ..لأنَّك أحببتنا هكذا وبذلت ذاتك للذبح عن خطايانا، شفيتنا بضرباتك وأبرأتنا بجراحاتك"**، والفرق كبير بين مَنْ جاء لكي يشفي ويُبرئ، ويخلص ويحيي، وبين مَنْ جاء يدفع الثمَنْ .. هذا غير معروف في الشرق. فالخلاص هو رد الحياة، وشفاء الطبيعة الإنسانية، وهو موضوع لا تعرفه صلوات الغرب.

ويمكن للقارئ أنْ يقارن بين صلاة القسمة المشار إليها، وصلاة الشكر بعد تناول الأسرار في القُدَّاس الكيرلسي **"أية بركة وأي تسبيح وأي شكر نستطيع أنْ نكافئك به يا الله محب البشر، لأنَّك فيما نحن مطروحون لحكم الموت ومغموسون في حفرة خطايانا. أنعمت علينا بالحرية، وأعطيتنا مِن هذا الطعام غير المائت"** حقاً كنا في حفرة الموت، ولكن الرب لم يدفع ديون البشر، بل أصعدنا مِن الحفرة وأعطانا طعام الحياة، ولذلك يقول نفس القُدَّاس **"تألم بالجسد عنا وأقام غلبة الصليب"** (صلاة خضوع للآب قبل التناول)، وهكذا فلم يكن الصليب هزيمةً، ولا صك بيعٍ وشراء، بل غلبة المحبة الإلهية لجحود الإنسان، وهزيمة حقد الإنسان بالمغفرة. وهكذاً تقول صلاة القسمة للقدِّيس كيرلس **"يا حمل الله الذي بأوجاعك حملت خطايا العالم بتحننك امحُ آثامنا. يا وحيد الله الذي بآلامك طهرت أدناس المسكونة بمراحمك**

طهِّر أدناس نفوسنا. يا مسيح الله الذي بموتك قتلت الموت الذي قتل الجميع بقوتك أقم موت نفوسنا"، والفرق كبير وهائل، لأنَّ الموت لم يقتل المسيح، بل على الصليب قتله المسيح. ولم يدفع المسيح ثمَنْ الخطايا، بل طهَّر أدناس المسكونة.

وهكذا تخدم صلاة القسمة المشار إليها، الفكر الغربي الذي يفهم النعمة بشكل تجاري، ويفضل البيع والشراء ودفع الديون وما إليها مِن تعبيرات غريبة على القُدَّاسات التي تضع الإنسان وجهاً لوجه مع الثالوث القدوس، ومع جمال وقوة إبن الله غالب الخطية والموت وشافي الطبيعة الإنسانية **"أيها السيد الرب .. شافي نفوسنا وأجسادنا"** (صلاة تحليل للآب).

التعبير عن الموت في القُدَّاسات القبطية، وصلاة القسمة الكاثوليكية:

"دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس" حسب نص صلاة الصلح للقدِّيس باسيليوس، وحسب التعليم الذي شرحه القدِّيس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسُّد الكلمة. والفرق ضخمٌ بين الموت الذي **"دخل بحسد إبليس"** و"الموت الذي جلبه الله على الإنسانية"، لأنَّ الله لا يمكن أنْ يتحالف مع الشيطان ضد الإنسانية .. ولو كان الله هو مصدر الموت، لعجز القدِّيس باسيليوس وغيره مِن الآباء على أنْ يقولوا **"الموت الذي دخل بحسد إبليس ...هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد"**، فقد جاء ابن الله لكي يهدم وينقض أعمال إبليس، ومِن ضمن هذه الأعمال، الموت نفسه حسب كلمات الرسول بولس «لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس» (عب ٢ : ١٤)، والرسول يوحنا «إبليس مِن البدء يخطئ، لأجل هذا أُظهِّر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس» (١ يوحنا٣ : ٨).

كما يقول القُدَّاس الباسيلي عن الموت، أنَّه **"ظُلمة"**، وهو تعبير معروف في العهدين القديم والجديد **"وفي آخر الأيام ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت"** ولم يكن الله هو مصدر الظلمة، ولا خالق الموت، بل هو النور وهادم الموت، ولذلك يقول القُدَّاس الغريغوري **"أنت هو الله الرحوم الذي لا يشاء موت الخاطئ، بل أنْ يرجع ويحيا"** ثم يضيف بذات الدقة الرسولية **"يا الله الذي أسلم ذاته عنا خلاصاً مِن أجل خطايانا، الذي برحمته الكثيرة، أو بكثرة رحمته**

حل عداوة البشر أيها الإله الوحيد الجنس الذي في حضن أبيه"، فقد حل قضية الموت التي اختطفها الإنسان لنفسه. ولذلك صُلِبَ على الصليب **"وسحق الشيطان"** (صلاة قسمة). **"الذي أعطانا الحياة مِن الموت، الذي أنعم علينا بالعتق مِن العبودية، الذي جعل ظلمة الضلالة التي فينا تضيء بواسطة مجيء ابنك الوحيد بالجسد"** (صلاة قسمة). فلماذا غابت فكرة الديون عن هذه الصلوات؟ والجواب لأنَّها غريبة عن جوهر وطبيعة عمل ابن الله، ولا وجود لها في القُدَّاسات، ولا في صلوات الكنيسة القبطية الأُرثوذكسية ولا في كل صلوات الكنائس الشرقية الأُرثوذكسية الأُخرى.

آلام المسيح:

وتكشف الصلاة الكاثوليكية عن أصلها الغربي الفاقع اللون، عندما تخاطب جراح المسيح وعذاب الشوك **"يا جراح المسيح اجرحيني بحربة الحب الإلهي"**، والقارئ الذي يعرف صلوات الكاثوليك لقلب يسوع وجراح يسوع، وغيرها لا يخطئ في إدراك الفرق الجوهري بين هذه الصلاة، وبين الشرق الذي إذا ما ناجى المحبة الإلهية، فيقول:

"أنت تحل فينا بالمحبة....إلهب قلوبنا بشوقك....إلقِ فينا نعمتك" (صلاة القسمة للقدِّيس كيرلس).

قارن بين الملح والعسل، بين مطالب القانون وقدرة المحبة الإلهية، بين الشعور بالذنب الذي يخاطب جراح المسيح، تلك التي لا تشعل الحب في قلب الإنسان، بل يشعله الروح القدس، ونعمة الله التي تجعل الذي يذوق الإفخارستيا يشرب حلاوة محبة الله حسب كلمات أبينا القدِّيس كيرلس الكبير **"مِن كأس دمك نشرب، أعطنا مذاقة روحية لنستطعم مذاقة أسرارك المحيية"** (صلاة القسمة للقدِّيس كيرلس).

وما أعظم الفرق بين إنسان يتوب لأنَّه ذاق حلاوة المحبة، وآخر قد يتوب لأنَّ أوجاع الذنب وثقل الخطية تجعله يرى في المسيح وسيلة خلاص مِن الشعور بالذنب. إنَّ توبة الأول، توبة حياة وصلاح ومجد، بينما توبة الثاني هي توبة مرض

وعجز عن إدراك مجد وقوة الابن الوحيد الذي نسبحه مع الآباء ـ في أُسبوع البصخة كله ـ مرددين: **"لك المجد والقوة والبركة والعزة"** بينما حسب الفكر الغربي القانوني لك الهوان والمذلة واللعنة يا مَنْ صرت رماداً يحترق في نار العدل الإلهي لكي تدفع ديون الإنسانية !!

ما أبعد الفرق بين ذكصولوجية الشكر، ونواح وبكاء آلام الموت والشعور بالذنب.. فإلى أين نسير، ونحن ننوح ونبكي دون أنْ نكتشف محبة يسوع المصلوب؟

لك المجد يا مَن تعطي لنا حياتك

لك القوة يا مَن غلبت الموت

لك البركة يا مَن تعطينا كأس البركة

لك العزة؛ يا من ـ وأنت معلقٌ على الصليب ـ مساوٍ للآب والروح القدس

ولذلك نقلتنا إلى مجدك الإلهي

الذي هو مجدك ومجد الآب والروح القدس

مجدٌ واحدٌ للثالوث القدوس

موت الرب بالجسد في اللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي

مقدمة:

تخاطب كنيستنا، المسيح في أوشيه الإنجيل، فتقول:

"لأنَّك أنت هو حياتنا ..

خلاصنا .. رجاؤنا ..

شفاؤنا .. قيامتنا كلنا".

كما تقول للربَ، الذي يُلقَّب دائماً بـ**"محب البشر"**، في صلاة التحليل:

"نسجد لتعطفك الذي لا يُنطق به".

وقد أكدت الليتورجية تعليم الآباء:

"يسوع المسيح إلهنا الحقيقي الذي قَبلَ الآلام بإرادته، وصُلب على الصليب"

فالمسيح هو بذاته حسب كلمات الليتورجية:

"غفران خطايانا، وضياء نفوسنا، وحياتنا، وقوتنا، ودالتنا".

كل ذلك يندرج تحت عبارة الأُرثوذكسية المعروفة، والتي دافع عنها كل الآباء:

"تألم بإرادته بالجسد، وهو غير متألم كإله" (القداس الغريغوري).

وهي عبارةٌ شائعةٌ في كل كتب الآباء الذين حاربوا الأريوسية والنسطورية. ويحفظ اللاهوت الشرقي حقيقةً تغيب أحياناً عن فكر الهراطقة عبر كل العصور، وهي أنَّ المسيحَ شخصٌ حيٌ، وإلهٌ مُتجسِّدٌ، وليس فكرةً أو مبدأً، أو قاعدةً قانونيةً.

مِـن هـذا الغيـاب جـاء التعلـيم اللاهـوتي ـ الـذي يحـول الله الحـي إلى **فكـرةٍ** والمُخلِّص إلى **مبادئ عقلية مجردةٍ**، وذلك من خلال تفسير الهراطقة ومنهج الهرطقـات، والذي يتلخص في الآتي:

أولاً: اعتبار النصوص والكلمات قاعدة لتحديد وفهم الإيمان[1].

ثانياً: اعتبار نصوص الكتاب المقدس حسب الفهم الخاص والشخصي بمثابة المرجع الأوَّل والأخير في الأُمور العقائدية، أو بعبارةٍ أُخرى تؤخَذ العقيدة مِن كلمات ونصوص الكتاب المقدس فقط.

وعلى السطح، يبدو أنَّ هذا صحيحٌ وجزءٌ مِن تراثنا المسيحي نفسه، ولكن تاريخياً ولاهوتياً، فهذا هو منهج الأريوسية والنسطورية وما تفرع عنهما مِن أفكار ومبادئ لا تزال تظهر في كتب اللاهوت حتى يومنا هذا. فما هو وجه الخطأ؟ وما هو القصور الواضح في منهج الهراطقة والهرطقات؟ والجواب تراه واضحاً بالمقارنة الدقيقة بين "الفكرة" و"الشخص الحي" .. فإذا قالت الليتورجية عن المسيح **"أنت هو حياتنا"**، وقال الهراطقة إنَّ المسيح جاء بشريعة حياة، تفرع التفسير فوراً إلى فرعين لا يمكن أنْ يلتقيا إلاَّ بصعوبةٍ ومشقةٍ. فطبقاً لمقولة الليتورجية، صارت حياة المسيح – كشخص – هي حياتنا، وصارت هبة الحياة، هي هبةٌ شخصية .. أمَّا إذا قلنا إنَّ المسيح جاء بمبادئ عن الحياة أو تعليم عن الحياة، صارت السيادة، ليس للمسيح، بل لكل مَن له فكرة، وبرز انفصال المسيحي عن المسيح فوراً، وهو انفصالٌ يعود إلى النظرة العقلانية التي تجعل الحياة موضوعاً مجرداً ليس له علاقة بالأشخاص، أو شخص المسيح، وبالتالي خاضعاً لكل أحكام ونظريات العقل المجردة. وهنا بشكل خاص يعترض القديس اثناسيوس نفسه على **"سوء فهم الكلمات الإلهية حسب التفسير الخاص"** لأريوس وأتباعه (ضد الأريوسية المقال الأول فقرة ٣٧ ص ٣٢٧).

فمِن أين يجئ هذا التفسير الخاص؟ مِن الأفكار والنظريات الفلسفية، وخطورتها هي في ارتباطها الواضح بالفكر النظري، وليس بشخص المسيح. ما

---

[1] ناقشنا ذلك تفصيلاً في الفصل المعنون الإيمان المسيحي بين فقه اللغة وتسليم الآباء.

أبعد الفرق بين مَن يدرس كتاب الطبيعة لأرسطو أشهر فلاسفة اليونان، والإنجيل أي بشارة حياة المسيح .. بل إنَّ دراسة حياة أرسطو لا تقود إلى شئ، بينما كتاب الطبيعة لأرسطو يفتح مجال العلوم والمنطق .. الخ. وعلى العكس من ذلك، فدراسة حياة المسيح، حتى مِن العهد الجديد نفسه، تقود دائماً إلى شخص المسيح، إلاَّ إذا كان الدارس يبحث عن نظرية معينة .. ولذلك يسأل اثناسيوس بعد ذلك عن **"المعنى الكنسي"** لنصوص الكتاب المقدس، وعن التزام الأريوسيين بهذا المعنى .. ويجد القديس اثناسيوس إنَّ غياب **"المعنى الكنسي"** يجعل الهرطقة الأريوسية تتميز بثلاثة عناصر أساسية:

أولاً: غياب بشارة الخلاص.

ثانياً: تحول المسيح مِن شخص إلى فكرة.

ثالثاً: إنكار المُمارسة الكنسية نفسها، أي المعمودية والصلاة وباقي الأسرار الكنسية.

(راجع المقالات ضد الأريوسيين وعلى سبيل المثل ١ : ٤٤، ٤٧، ٥٣ وغيرها).

وعند المُمارسة أي الصلاة والأسرار يظهر لنا الفرق الجوهري، وهو أنَّ الهرطقات تجعل الإنسان في مواجهة مع نفسه أي مع نظرياته وفكره الذي يحكم به على الله نفسه، أمَّا الأُرثوذكسية، فهي تجعل الإنسان في مواجهة مع الله، مع مصدر الحياة في يسوع المسيح الحي .. وما أسهل أنْ يتعامل الإنسان مع فكره الخاص الذي يسيطر عليه، أو يسيطر هو عليه، أي إنَّ العلاقة واحدية بين الإنسان وعقله ونظرياته، وما أصعب أنْ يواجه الإنسان شخصاً آخر مثله، أي إنسان آخر له إرادة وفكر وحرية، فنحن نعرف مِن الواقع إنَّ التعامل مع الأشخاص أصعب بكثيرٍ مِن التعامل مع الأفكار.

وثمة قضية أُخرى أكبر مِن الفروق الواضحة بين الفكرة والشخص، وهي قضية التربية والثقافة والسياسة .. خصوصاً عندما يتحول الإنسان كشخص ـ في الأنظمة الشمولية مثل النازية ـ إلى فكرةٍ أو رقم، ويصبح مجرد آلة تدار لحساب فكر ونظام الحكم. وتاريخ البشرية مملوء بأرقام ضحايا معسكرات الاعتقال في

ألمانيا وضحايا معسكرات العمل في الاتحاد السوفيتي، وهي أرقام تفوق قتلى كل الحروب التي عرفتها البشرية .. وعندما يتحول الشخص إلى رقم كما يحدث في السجون، أو يتحول إلى فكرة، يصبح الدم واللحم رخيصاً .. وهكذا حوّلت مدارس اللاهوت، المسيح الشخص إلى فكرة لكي يتم "تدجين" *Domestication* المسيح وإخضاعه لأحكام ونظريات جوفاء تريد أنْ تستخدم الله مِن أجل المصلحة الخاصة لنظام حكم أو فئة معينة .. وحاول أنْ تتأمل كيف يظهر الفرق بين الفدية كثمن يدفع، وبين الفدية كشخصٍ له وجود وإرادة وحياة .. وعندما تصبح الفدية أو الكفَّارة فكرة، أو قيمة تدفعٍ، يمكن استخدام هذه الفكرة أو هذه القيمة لخدمة أي فئة مِن الناس .. أمَّا إذا ظلت الفدية هي شخص المسيح نفسه عجزنا جميعاً عن استخدام الشخص الحي لأغراض أُخرى خارج الشركة وعلاقة المحبة.

وهكذا نرى كيف يشرح القديس اثناسيوس موت المسيح بالجسد على الصليب كشخص حي في كتاب **تجسد الكلمة مستخدماً التشبيهات التي تؤكد أن المسيحَ شخصٌ، وإنَّ الخلاصَ علاقةٌ شخصيةٌ مع المخلِّص:**

١- الملك الذي يسكن في بيت أو مدينة (فصل ١٠).

٢- صاحب الصورة الذي جاء لكي يجدد صورته (فصل ١٤).

٣- المُعلِّم الذي يتنازل إلى مستوى تلاميذه (فصل ١٥).

٤- المُصارع البطل الذي لا يختار خصماً معيناً، بل يترك الفرصة لأقوى الخصوم (فصل ٢٤).

٥- الملك الشرعي الذي يحارب الطاغية لكي يسترد ما أخذه الطاغية **ظلماً** (فصل ٢٧).

وهكذا يتحدث اثناسيوس عن موت المسيح كشخص:

[قهر الموت، وأسره، وقيد يديه وقدميه على الصليب] (فصل٢٧).

ومع إنَّ الرب هو الذي يظهر لنا مُقيداً على الصليب، إلاَّ أنْ الذي قُيد هو الموت لأنَّه كما يقول قبل ذلك عن موت الرب:

[إنَّ الجسد لم يمت بسبب ضعف طبيعة الكلمة الذي حل فيه، وإنما لأنَّ المُخلِّص بقوته أباد الموت فيه (الموت في الجسد)] (فصل ٢٦).

وهكذا لا نتحدث عن فكرةٍ، بل عن شخصٍ يقوم بعمل عظيم، ويجعل هذا العمل خاصاً به وجزء لا يمكن أنْ ينفصل عنه وعن أُقنومه المتجسد، فالمسيح لم يُعطِ لنا فكرةً عن الخلاص، بل هو **"خلاصنا"**، ولم يُقدِّم لنا مبادئ عن الحياة، بل هو **"حياتنا"**.

تقسيم

بعد هذه المقدمة الطويلة نوعاً، نعرض للقاعدة الصلبة، والتي تشكل المبادئ الأساسية التي يبني الشرق عليها فهمه للتدبير الخلاصي، فاللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية تُحدد فهم الشرق للخلق ـ الخطية ـ الخلاص في المسيح.

أولاً: الاتحاد الأُقنومي للابن الكلمة المتجسد.

ثانياً: طبيعة موت الإنسان، وعلاقة موت الإنسان بموت المُخلِّص.

ثالثاً: الصليب والقيامة عملٌ واحد.

وفي ضوء ذلك نضع بين يدي القارئ العزيز **في مبحثٍ أول**: الاتحاد الأُقنومي للابن الكلمة المتجسد، وهو التعبير الذي صاغه آباء الإسكندرية للتأكيد على الطبيعة الواحدة للكلمة المتجسد، ثم في المبحث الثاني لعلاقة الاتحاد الأُقنومي بموت المُخلِّص الذي به رد الحياة للإنسان. أمَّا في المبحث الثالث، فنعرض للعلاقة بين الصليب والقيامة وكيف أنَّه إذا كانت عطية الصليب هي الانتصار على الموت والفساد، فإنَّ عطية القيامة هي الخلود والشركة في حياة الله، وهو ما سوف نعرض له من خلال رؤية القديس كيرلس الكبير للعلاقة بين موت الرب وقيامته، وسر الإفخارستيا من خلال شرحه للإصحاح السادس في إنجيل يوحنا. إنَّ الصليب والقيامة كليهما عملٌ واحد، والعمل الواحد لا يقسم الشخص الواحد. وإذا كانت أعمالنا تقسمنا نحن، فهي لا تقسم المسيح.

الاتحاد الأُقنومي
"طبيعة واحدة للكلمة المُتجسِّد"

صاغ هذا التعبير آباء الإسكندرية أثناسيوس وكيرلس الكبير، وحظي هذا التعبير باهتمام القديس كيرلس الكبير. وقيمة هذا التعبير في أنَّه يؤكد أنَّ الرب الواحد، والابن الواحد، والمسيح الواحد، والفادي الواحد، هو واحدٌ مِن طبيعتين، أو حسب عبارات القديس اثناسيوس والقديس كيرلس التي تنقلها الإبصلمودية السنوية في دقةٍ تامةٍ:

[واحدٌ مِن اثنين، لاهوتٌ قدوسٌ بغير فساد، مساوٍ للآب، وناسوتٌ طاهرٌ .. مساوٍ لنا كالتدبير].(ثيؤطوكية الأحد - القطعة الثانية).

والناسوت ليس له أُقنوم خاص به، لأنَّ المسيح له المجد ليس اتحاد أُقنومين، أُقنوم إنساني وأُقنوم إلهي، بل هو الأُقنوم الواحد الذي أخذ طبيعةً إنسانيةً كاملة الجسد والنفس، وتأقنمت بالاتحاد الكامل بأُقنوم الابن، أي صارت لها الشخصية والإرادة والكيان والأفعال بواسطة الاتحاد الذي تم في أحشاء القديسة مريم والدة الإله.

الفرق بين ناسوت المسيح، وناسوت غيره من البشر

الفرق بين ناسوت المسيح، وناسوت أي إنسان آخر، إنما هو فرق جوهري وهام يمكن أنْ نلخصه في النقاط التالية:

١- إنَّ الناسوت الخاص بنا يتكون في أحشاء الأُمهات، ويولد وينمو بإرادة مستقلة خاصة به تكونها الأُسرة والمجتمع مِن خلال التعليم والممارسة والشرور والفضائل، ومِن خلال ما يكتسبه كل فردٍ على حده مِن خبرات. أمَّا ناسوت ربنا يسوع المسيح، وهو ناسوتٌ كاملٌ، وحقيقيٌ، فقد تكوَّن بعمل الرُّوح القدُّس، ووُلِدَ

ونما مِن خلال الاتحاد بأُقنوم الكلمة، أي لم تنشأ له إرادة ومعلومات وخبرات غريبة عن الله، وإنما كل شيء عرفه واختبره إنسانياً كان مِن خلال النور الإلهي الكامل الذي قَبِلَ تواضع وحقارة العبد الإنساني، ولذلك فكل خبرات المسيح الإنسانية هي خبرات إنسانية، ولكنها ليست مثل تلك الخبرات التي تتكون في الفكر والعقل والمُخيِّلة والقلب مِن خلال الجهل وعدم معرفة الإنسان بالله، بل هي عكس ما هو لدينا أي لم تكن خبرة شر، وخبرة استقلال عن الله.

٢ـ إنَّ كل فردٍ إنساني ينشأ ويتطور في استقلال عن الله، وعن الآخرين، وتنمو شخصيته مِن خلال هذا الاستقلال، أمَّا ربنا، فقد قال وهو في سن الثانية عشر لوالدة الإله «أما تعلمان أنَّه ينبغي أنْ أكون فيما لأبي» (لوقا ٤ : ٤٨) وبذلك أعلن شعوره بأبوة الآب السماوي، ونما كإنسان في القامة، وفي المعرفة، وفي الحكمة النابعة مِن الداخل، وليست الآتية إليه مِن الخارج، لأنَّ كلمة "الكلمة" هي حكمته التي يأخذها داخلياً مِن الاتحاد، وليس خارجياً بواسطة تحصيل الحكمة من آخرين.

٣ـ وعلى هذا الأساس، قاوم كل الآباء تعليم نسطور، ثم أوطاخي. واستخدم الآباء في مرحلة مواجهة النساطرة وغيرهم تعبير الناسوت المتأقنم بسبب الاتحاد بلاهوت وأُقنوم الكلمة، وصارت عبارة الاتحاد الأُقنومي *Hypostatic Union* مِن العبارات الأساسية التي تشرح التعليم الخريستولوجي في الشرق والغرب، واحتفظ الشرق بهذا التعليم الذي ضاع في الغرب بعد القرن الخامس، ولهذا السبب بالذات، لم يكتب الآباء عن الفداء أو الكفَّارة أو الفدية أو إرضاء العدل الإلهي أو دفع الثمن أو ما إليه مِن تعبيرات العصر الوسيط بسبب اختلاف الفهم اللاهوتي الشرقي عن اللاهوت الغربي؛ ولأنَّ عين الإيمان يجب أنْ تبقى دائماً مفتوحةً على حقيقة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وخُلاصة تعليم الشرق هي إنَّ أفعال المسيح وكلماته هي إلهيةٌ / إنسانيةٌ. ولا يوجد فعلٌ واحدٌ إنساني، وفعلٌ آخر إلهي، لأنَّ هذا هو ذات تعليم نسطور المبني على الانقسام والقول بإبنين: ابن الله، وآخر هو ابن الإنسان. مِن هنا يظهر لنا أنَّه،

ورغم أنَّ الأب فلورفسكي ينتمي إلى الكنيسة الروسية الأُرثوذكسية (كان عميداً لمعهد القديس فلاديمير الروسي الأُرثوذكسي في نيويورك، وقبل ذلك كان أُستاذ اللاهوت العقيدي في معهد القديس سرجيوس في باريس)[1] إلاَّ أنَّه لا يمكن أنْ يفقد رؤية الاتحاد الأُقنومي، ولذلك يضع تحذير الكنيسة الأول ممَن يحاول الإقلال مِن إنسانية المسيح، ثم تحذير الكنيسة الثاني ممن يحاول تضخيم التواضع والإخلاء على حساب مجد وقوة ابن الله. ففي موضوع التحذير الأول، وقع أُوطاخي رغم إدانة هرطقات الغنوسية وبدعة الخيالية "المُشبِّهة" التي ترفض حقيقة الناسوت. وفي موضوع التحذير الثاني، وقع الغرب ـ الذي جعل موت الرب على الصليب هو موت إنسان يموت ككل باقي الناس ـ تحت وطأة الدينونة وغضب العدل، وهو بذلك ينسب موت الرب إلى الناسوت فقط، وينكر دون أنْ يدري أُلوهية المصلوب. كل هذا تم بحُسن نية وعن رغبة في شرح الإيمان بطريقة معقولة يقبلها العقل البشري، ولكن هذا في حد ذاته أبطل **"عثرة الصليب"** التي أفاض الرسول بولس في شرحها. لقد طلب اليهود المعجزة والآية، وطلب اليونانيون حكمة الفلسفة، ولكن الرسول بولس لم يستسلم لإغراء القوة الذي يتمسك به اليهود وهو طلب الآية، ولا لإغراء العقل ونظرياته الذي يتمسك به اليونانيون، بل أصَّر على أنْ يكرز بالمسيح مصلوباً «لليهود عثرةً، ولليونانيين جهالةً» (١ كو ١: ٢٣). وبالنسبة لنا، كأن التاريخ يعيد نفسه، لأنَّ ما رفضه الرسول بولس هو ما يجب أنْ نرفضه نحن أيضاً، لأنَّ قوة الله هي في قبول الضعف البشري عندما يتجسَّد الابن، وأنْ يحيا في ضعفٍ دون أنْ يكون ضعيفاً، ودون أنْ يفقد قوته. والمسيح الذي أقام لعازر مِن الموت بعد أنْ تحللت جثته، هو الذي بإرادته يجوز الألم والموت، لأنَّه قوي جداً، إذ يعيش ضعف البشر دون أنْ يتحول ويتغير إلى ضعيف. وحكمة الله لا تُقاس بنظريات الإنسان، وإذا صار الصليب مِن الموضوعات السهلة المقبولة عقلياً، فكيف يمكن للصليب أنْ يتحدَّى قساوة الإنسان وجهله؟ ماذا بقى للمحبة التي اقتحمت الخطية والموت

---

(1) The Death of Christ and Atonement, Scottish Journal of Theology, 1950,pp52 ff.

والجحيم إنْ صارت نظرية يمكن للعقل أنْ يشرحها؟. ولماذا يُخلِّص الله الهالكين؟ ما هي الأسباب المعقولة والفلسفية التي يمكن أنْ تقال عن تجسد الابن وموته وقيامته؟ بكل يقين لا يوجد سبب مِن هذه الأسباب. وهكذا، فعندما وضع الغربُ العدلَ في كفة الميزان، والإنسان في الكفة الأُخرى، خَلَقَ مشكلةً كبرى لا حل لها بالمرة سوى أنْ يوضع في كفة الإنسان ما يجعله متوازناً مع كفة العدل. أمَّا إذا لم يكن هناك ميزان بالمرة، بل وإنْ كان ميزان المحبة حسب كلمات الرسول بولس في ١ كو ١٣ : ٤-٧ هو ميزانٌ مُختلٌ تماماً، يضاد كل نظريات العقل وفلسفته، صار مِن الضروري أنْ ننظر إلى الخلاص على أنَّه اتحاد الحياة الأبدية بما هو قابل للموت لكي يدخل الموت إلى ناسوت الرب، فتبيده الحياة مثل المُصارع القوي الذي يصرع خصمه، أو مثل الملك الذي يطرد الأعداء ويحيط المدينة وقصره بما يليق به مِن تكريم. هذه هي صورة القوي والقادر وخالق كل الأشياء مِن العدم، وحافظ الخليقة مِن العودة إلى العدم بقدرته، أي ربنا يسوع المسيح.

وكما إنَّ الكلمةَ حيٌّ رغم موت جسده، ورغم انفصال النفس عن الجسد، إلاَّ أنَّ حياة اللاهوت في الجسد وفي النفس ـ رغم الانفصال بين النفس والجسد ـ تجعل الاتحاد الأُقنومي هو ضمان كل شئ، وهو ذاته الذي يجعل الصليب وحده بدون القيامة قوة وغلبة، لأنَّ القوي قَبِلَ على الصليب أنْ يُقيِّد الضعيف والعاجز، أي الموت والفساد، ولأنَّ الإله الذي جاء بكل الكائنات مِن العدم إلى الوجود يعالج مرض الإنسان بقدرته ويرد إليه النعمة الضائعة أي الصورة الإلهية. **هنا يصبح الدين المُطالب به الجميع، وهو نعمة الحياة حسب صورة الله، قد تحقق، ليس لأنَّ الابن دفع شيئاً أو تعويضاً، وإنما لأنَّ الابن رد ما سُلِبَ، وأعاد ما ضاع، وهكذا أوفى الدين، ليس بدفعٍ للآب، وإنما برد الصورة الإلهية للإنسان، لكي يحيا حسب نعمة المسيح.**

طبيعة ودور الموت
وعلاقة موت الإنسان بموت المخلِّص

الموت، هل هو انفصال عن الله؟

إنَّ الموتَ، حسب كلمات القديس اثناسيوس، هو انحلال الجسد وانفصال النفس عن الجسد، وهذا ما يؤكده القديس اثناسيوس باستخدامه الدائم لكلمة **"الفساد"**. لا يذكر القديس اثناسيوس شيئاً عن الموت كعقوبة، ولا يذكر أثناسيوس شيئاً عن انفصال الإنسان عن الله، وهو تعريف الموت الذي شاع في العصر الوسيط وخلق مشكلة فلسفية أمام لاهوتي العصر الوسيط. والشرق لا يقبل بالمرة فكرة انفصال الإنسان عن الله:

أولاً: لأنَّها ليست معروفة في الكتاب المقدس.

ثانياً: لأنَّها، في حقيقة الأمر، هي تعريف الفلسفة الأفلاطونية، والأفلاطونية المُحدثة لسقوط الإنسان مِن العالم الروحي الذي انفصل عنه الإنسان، والذي أدَّى إلى معاقبة الإنسان بالسجن في الجسد، وهو قصة السقوط كما تذكرها الفلسفة الأفلاطونية.

ولقد كان مُعلِّمنا اثناسيوس ـ الذي درس الفلسفة ودحض فكرها عن الإنسان والكون والله في كتابه "الرسالة إلى الوثنيين" ـ على وعيٍ كاملٍ بأنَّ تعريف الموت على أنَّه انفصال عن الله لا يتفق مع تعليم المسيحية بالخلق مِن العدم، لأنَّ كل الكائنات باقيةٌ في الوجود بسبب نعمة الله وقدرته، وإنها إذا انفصلت عن الله داخلياً، وحسب تصرف حرية الإرادة، فهي لا تستطيع أنْ تنفصل عن الله وجودياً، لأنَّ هذا يعني أنَّ الخليقة أو الإنسان يعودان إلى العدم في اللحظة التي يتخلَّى فيها الله عنه. لهذا السبب يقول القديس بولس عن ربنا

يسوع المسيح "فإنه فيه خُلِقَ الكل"، ويذكر بالتحديد "ما في السموات، وما على الأرض، ما يُرى، وما لا يُرى"، ولا يتوقف عند هذا الحد، بل يؤكد أنَّ الابن، ليس فقط الخالق الذي "الكل به"، بل الملك الذي يملك الخليقة "وله قد خُلِق" ويؤكد أزلية الابن "الذي هو قبل كل شئ"، ثم يؤكد استمرار الخليقة في البقاء بقوله «وفيه يقوم الكل (أي يبقى في الوجود)» (كولوسي ١ : ١٥-١٧). وحتى الخليقة الساقطة، وكل الكائنات، بما فيها الشيطان، قد حفظته نعمة الله مِن الفناء، لأنَّه بعد سقوطه ذهب إلى الإنسان وخدعه بمكرٍ وحيلةٍ فاسدة. هذا طبعاً يطرح علينا عدة قضايا هامة لا نملك أنْ نناقشها كلها معاً، ولكن هذه القضايا نجد إجابةً عليها في كتاب تجسُّد الكلمة، نعرضها في إيجازٍ شديد كالآتي:

١ـ إنَّ انحلال الإنسان الطبيعي، بدون الخطية والسقوط، يشير إليه القديس اثناسيوس، فيقول:

> [حتى إذا احتفظوا بالنعمة، وظلوا صالحين، سوف يتمتعون بالحياة في الفردوس، دون حزن أو ألم، بالإضافة إلى ذلك ينالون وعد عدم الفساد في السماء] (فصل ٣).

ومِن هذه العبارات يظهر لنا حتمية موت الإنسان وانحلال الجسد، لكن دون فساد، وهو ما يبدو كما لو كان نوعاً مِن التغيير في طبيعة الإنسان تقوده إلى حياة سمائية دون حزن أو ألم أو قلق يعبُر فيها الإنسان مِن الفردوس على الأرض إلى حياة السماء. وطبعاً نحن لا نملك الكلام عن هذا الوضع لأنَّنا فقدناه، ولكن ربما نراه في حالات مجد بعض قديسي الكنيسة الجامعة الذين كانت أجسادهم تلمع بنور القيامة ونور الرُّوح القدُّس وهم على الأرض، ولما جاءت ساعة نياحة بعضهم مثل الأنبا نوفر السائح اشتعل جسده بنور الرُّوح القدُّس. ربما كانت هذه هي حالة التغيير التي كان سيمر بها الإنسان لو أنَّه اختبر التحول مِن حياة الفردوس إلى حياة السماء إذا استمر في الشركة مع الله. والقديس اثناسيوس يؤكد إنَّ الفساد أو الانحلال كان يعجز عن الاقتراب مِن الإنسان إذا ظل الإنسان في الشركة مع الله، واحتفظ بنعمة الصورة الإلهية:

[**لأنَّ الإنسان بالطبيعة ميت، أو فانٍ، لأنَّه خُلق مِن العدم،** ولكن بسبب صورة اللّه الكائن، يبقى كائناً إذا ظل يتأمل اللّه ويكسر فساده الطبيعي] (ف ٤).

[لأنَّهم (البشر) ـ كما قلت سابقاً ـ فاسدون بالطبيعة، ولكن بنعمة اشتراكهم في الكلمة كانوا يستطيعون الهرب مِن نتائج طبيعتهم (الابتعاد عن ما يمكن أنْ تجلبه الطبيعة الآتية مِن العدم) إذا ظلوا صالحين، لأنَّه بسبب الكلمة الذي فيهم، حتى فسادهم الطبيعي كان غير قادر على أنْ يمسهم (سفر الحكمة ٢ : ٢٣- ٢٤)](فصل ٥).

٢ـ إلاَّ أنَّ تعدي الإنسان جعل الانحلال يأتي:

أولاً: بسبب ضعف الطبيعة الإنسانية الفانية.

ثانيا: بسبب فقدان النعمة مما يعطي الانحلال سيادةً علينا.

ثالثاً: بسبب تهديد الله الذي قال للإنسان إنَّه سيموت إنْ تعدَّى، وهذا هو ما يجعل للفساد أو للانحلال قوةً قاهرةً لا يملك الإنسان أنْ يغلبها، أو أنْ يتعدى نتائجها. ويؤكد القديس اثناسيوس هذا في الفصول (٣-٦) وبشكل خاص في العبارة التي يقول فيها:

[لهذه الأسباب ساد عليهم الموت بقوةٍ أعظم، ووقف الفساد ضدهم في ثبات .. غلبنا الموت بالناموس؛ لأنَّه كان مِن الصعب الإفلات مِن الناموس..] (فصل ٦).

٣ـ وهكذا جعلت الخطيةُ الموتَ، ليس مجرد تحوُّل في كيان الإنسان، بل هو انفصال النفس عن الجسد وسيادة الفساد والموت، لأنَّ الإنسان سيبقى في هذا الوضع إلى الأبد حسب كلمات سفر التكوين **"موتاً تموت"**.

٤ـ وهذا يعني أنَّ الموت والفساد الطبيعي تحوَّل، وتغيَّرت طبيعة الموت – مِن تحوُّلٍ وترقٍ مِن حياة الفردوس إلى حياة السماء – إلى انحلال بسبب الضعف، وإلى انفصال النفس عن الجسد بسبب فقدان الصورة، وإلى سيادةٍ بسبب إنذار الله.

٥ـ وكان مِن الواضح أنَّ الإنسان عاجزٌ تماماً عن إصلاح ما فسد، وعن العودة إلى

ما كان عليه. يمكننا أنْ نتصور أنَّ الانحلال الطبيعي، والانتقال مِن الحياة الفردوسية إلى الحياة السمائية كان سيتم مِن خلال الشركة وبإرادة الله، ودون انفصال النفس عن الجسد مع تغيير في الجسد، وهو ذات التغيير الذي رأيناه في ناسوت ربنا يسوع المسيح بعد القيامة مِن الأموات. لكن كل هذا قد ضاع وتبدد مِن آدم وحواء وتعذر تماماً إعادته إلى الإنسان، لذلك جاء الكلمة، وتجسد لكي يعيد الفاسد إلى عدم فساد ويقيم الميت إلى حياة.

كيف تغيرت طبيعة الموت؟

يقدِّم لنا القديس اثناسيوس موضوع الموت والتغيير الذي حدث فيه ابتداءً مِن فصل ١٣ مِن تجسُّد الكلمة، وتكثر الإشارة إلى الموت في الفصول التالية حتى أنَّه يكاد يظهر كموضوعٍ في كل فصل بعد ذلك. إنَّ الموت هو عدو الإنسان الأوَّل والأخير. والموت تحصن في فساد الطبيعة وقوة حُكم الناموس وتعدي الإنسان، لذلك جاء الرب وتجسد ومات لكي يغيِّر طبيعة الموت، ويُحوِّل الموت مِن فناءٍ وانحلال إلى قوةٍ تغيِّر الإنسان... هذا ما حققه المسيح على الصليب بموته.

أولاً: لقد قَبِل المسيحُ موت الإنسان بحريته وإرادته، أي أنَّه لم يستسلم للموت مثل باقي البشر، وإنما قَبِلَهُ بحريته.

ثانياً: لقد أباد المسيحُ الموتَ، وهنا يجب أنْ يظهر بشكلٍ خاص، لماذا يتمسك الآباء، والقديس اثناسيوس بعدم انحلال وفسادٍ ناسوت المسيح بعد موته؟ لأنَّ ناموس وقوة الفساد قد أُبيدت إذ لم يتعفن جسد المسيح.

ثالثاً: لقد أقام المسيح جسده مِن بين الأموات، وبذلك أسس لنا الوعد بالقيامة، أي بعودة الجسد إلى المجد الذي تمجد به جسد الرب نفسه بقيامته مِن بين الأموات.

ولقد شرح القديس اثناسيوس هذه النقاط الثلاثة بما فيه الكفاية، ولكن ما يهمنا هنا هو أنْ نعود إلى ما كنا بصدده، وهو إنَّ موت الرب على الصليب لم يكن موتاً مثل موت باقي البشر إذ أنَّ الرب غلب الفساد نفسه، وقهر التحلل بعدم

تحلل جسده. وهنا يظهر لنا أنَّ كلمات الكتاب المقدس في غاية الأهمية إذ يقول الرسول بطرس في يوم العنصرة «وبأيدي أثمةٍ صلبتموه وقتلتموه. الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أنْ يمُسك مِنه» (أع ٢ : ٢٣-٢٤). حقاً لقد تعذر على الموت أنْ يسود على الرب لأنَّ موت الصليب حفظ جسد الرب حسب نبوة المزمور الذي يقتبس الرسول بطرس كلماتها بعد ذلك. هذا يؤدِّي بنا إلى أنْ نرى موت المسيح على الصليب بصورةٍ أُخرى، فهو ليس موتٌ لوفاء دين، أو سداد حسابٍ، أو إرضاء للعدل .. الخ. كل هذا لا يجب أنْ يُقال أمام حقيقة موت الرب، وبقاء الرب غالباً للفساد. والسبب الواضح الآن لدى كل قارئ هو أنَّ موت المسيح على الصليب ليس مثل موت المحكوم عليهم بالموت، ولا هو موت عقوبةٍ، ولا هو موت ضعفٍ، ولا هو موت عجزٍ عن البقاء أمام المرض والشيخوخة. ونحن كثيراً ما نهمل معجزات الرب الذي شفى المرضى، ورد ما هو ناقص في الطبيعة الإنسانية مثل عيني المولود الأعمى، ثم أقام الموتى، حتى الذين تحللت أجسادهم. وبعد كل هذا لا يجوز لنا ـ بسبب تواضع المسيح ومحبته ـ أنْ نراه مثل آدم، أو في ذات موقع آدم يُحاكَم على خطايا الناس، ويطلب مِنه الآب أنْ يدفع فدية لكي يطلق سراح الإنسان أو لكي ينقذ الإنسان مِن غضب الله.

الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس:

عنوان هذه الفقرة مأخوذٌ مِن نص سفر الحكمة (٤ : ١٨) والذي يقتبسه القديس اثناسيوس في الفصل الخامس مِن كتاب تجسد الكلمة مؤكداً أنَّ فساد، أو انحلال الطبيعة الإنسانية وعودتها إلى العدم كان أمراً مستحيلاً بسبب الكلمة الذي كان في البشر. أما وقد تأمل الإنسانُ الشرَ الذي اخترعه بفكره وبغواية الشيطان، فقد قَبِل أنْ يحيا ويفكر فيما لا وجود له، أي الشر. وهكذا دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس وساد على جنس البشر. ويعرف القارئ القبطي إنَّ هذه الكلمات تظهر في القداس الباسيلي، وهو ما يؤكد، ليس فقط أهميتها، بل يحدد أيضاً اتجاه اللاهوت المسيحي كله. لأنَّنا في حقيقة الأمر أمام اتجاهين لا ثالث لهما.

الاتجاه الأول: والذي يُعبِّر عنه القديس اثناسيوس مؤكداً أنَّ الله ليس هو مصدر الموت، ولم يُعاقِب الإنسان بالموت، بل هدد الإنسان وحذره مِن نتائج التعدي والخطية، ولذلك عندما سقط، جاء الابن وخلَّصه. يحدد هذا الاتجاه مشكلة الموت كمشكلةٍ إنسانيةٍ ليس لله يدٌ فيها، ولم يتدخل فيها بشكل مباشر، وبالتالي صار خلاص الإنسان مِن الموت هو تطوع محبة الله وكرم عنايته بنا.

الاتجاه الثاني: وقد تبناه القديس أوغسطينوس، واعتبر أنَّ الله عاقب الإنسان وحرمه مِن نعمة الخلود، وحل عليه غضب الله، وبالتالي صار الخلاص والموت مشكلة إلهية (تورط) فيها الله نفسه، وتدخل فيها، وله فيها الدور الأساسي.

الموت مشكلة إنسانية لم يكن الله هو خالقها

إذا كان الموت قد دخل إلى العالم بحسد إبليس، صار مِن الضروري أنْ نترك الاتجاه الثاني، على الأقل في الوقت الحاضر، لأنَّ نص سفر الحكمة وكتاب تجسد الكلمة لا ينسب الموت لله وإنما "لحسد الشيطان". والفرق الضخم بين الموت الذي دخل بحسد إبليس، والموت الذي جاء بغضب الله ومعاقبته للإنسان، هو فرق كبير جداً يؤثِّر تماماً على فهمنا لحقيقة موت المسيح على الصليب على النحو التالي:

١ـ إنَّ أحد أسباب الموت هو حسد الشيطان، والسبب الثاني هو عصيان الإنسان، وهكذا لا نستطيع أنْ نضع الله كطرف ثالث لأنَّه حذر مِن الخطية، وهو لم يقل أنا سوف أُميتك، وإنما **"موتاً تموت"**، فالله لم يخلق الموت، وإنما خلق الحياة، وما الموت إلاَّ رفضٌ للحياةِ كنعمةٍ إلهيةٍ. وهو رفضٌ لا يسمح لنا بأنْ نقول إنَّ الله هو طرف ثالث في المشكلة؛ لأنَّ رفض الإنسان لنعمة الصورة هو رفضٌ للحياة حسب الله. فإذا كان الله هو خالق الموت، فَقَدَ الموتُ علاقته بالخطية والتعدي، **وصار موت الإنسان هو قبولٌ لأحد جوانب الحياة التي خلقها الله نفسه**. هذه نقطة على قدر كبير مِن الأهمية لأنَّها تشرح لنا سر تجسُّد الابن وموته، فهو قد جاء لكي يجدد ما أفسده الإنسان ويرد الحياة إلى الإنسان، وبالتالي علينا أنْ نسأل **لماذا يُبطِل الموت وقد خلقه**، ولماذا يبيده وهو جزء مِن نظام الكون الذي أسسه الله الكلمة نفسه. وأية محبة هذه التي تحفر حفرة الموت أمام الإنسان، ثم تُصارع لكي

تنقذ الإنسان مِن حفرة خلقها الله نفسه. الله يخلق الموت، ثـم يعاقـب الإنـسان بـه، وبعد ذلك يخُلِّصه!!.

٢ـ وإذا كان الأمر على هذا الحال، فكيف يجوز لنا أنْ نتكلم عن آلام الرب؟ كيف يتألم مِن الموت وهو خالقه؟ وكيف احتمل ما وضعه هو بنفسه في الخليقة؟. ولكن، ولأن الأمر هو على خلاف ذلك، فالصواب هو إنَّ الرب تألم مِن الموت؛ لأنَّ الموت هو ما جلبه الإنسانُ على نفسه بمشورة الشيطان وحسده.

٣ـ وما هو أهم مِن كل هذا وذاك، هو أنه لا يمكننا أنْ نقول إنَّ الآب طلب موت ابنه على الصليب، بل إنَّه إذا كان الموت قد دخل بحسد الشيطان، فهو قد أُبيد بمحبة الله، وبالتالي لم يقدم الآب ابنه للموت لكي يرضي الشيطان الذي تسبب في موت الإنسان، وهو الآن يشترك مع الآب في موت الابن الوحيد.

إنَّ كل حروف وكلمات الكتاب المقدس تصرخ ضد هذا التجديف الشنيع الذي سقط فيه حكماء وعلماء دون فهمٍ، وإنْ كان بحُسن نية. تأمل معي أيها القارئ في هدوءٍ وبلا انفعال: هل أرسل الآب ابنه إلى العالم لكي يصب عليه هو (الآب) الموت والفساد..؟ أليس هذا اشتراك للآب مع الشيطان؟ أليس ذلك تجديفاً فظيعاً لا يجوز؟ ولكي نوضح هذا الأمر علينا أنْ نتوقف لكي نُساءل أنفسنا: إذا كان الموت قد دخل بحسد الشيطان، فهو لا يمكن أنْ يكون عقوبة إلهية، لأنَّ هذا يؤلِّه الشيطان، ويجعله مُنفِّذاً لإرادة الله، ويحرم الله مِن إبطال حسده، لأنَّ الله لا يخُلِّص الله مِن أعماله وأفعاله.

٤ـ ويبقى سؤالٌ هام، لماذا مات الرب على الصليب؟ والجواب ليس لكي يلاشي غضب الآب أو يرضي العدل الإلهي، وإنما لكي ينقض أعمال الشيطان، وهو ما يؤكده القديس يوحنا الرسول بقوله «مِن يفعل الخطية فهو مِن إبليس، لأنَّ إبليس مِن البدء يخطئ، لأجل هذا أُظهِر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس» (١ يوحنا٣ :٨) أو حسب كلمات الرسول بولس "لكي يبيد بالموت ذاك **الذي له سلطان الموت، أي إبليس**، ويعتق أولئك الذين خوفاً مِن الموت كانوا جميعاً تحت العبودية" (عب ٢ : ١٤). وهنا يظهر لنا أنَّ موت الرب لم يكن خضوعاً لحسد الشيطان ومشورته ولا قبولاً

لأعمال الشيطان، بل إبادةً تامةً لكل ذلك. ولاحظ أيها القارئ إنَّ الشيطان الذي له سلطان الموت، فَقَدَ هذا السلطان تماماً، وانتُزِعَ هذا السلطان مِنه بواسطة الرب الذي وضع نهاية لسيادته على الإنسان. ونحن نرى انهيار هذه السيادة في طقس "جحد الشيطان" في المعمودية المقدسة وهو "سر موتنا وقيامتنا مع المسيح". وهكذا قبل الرب الموت مِن إبليس لكي يبيد الموت. وهنا يجب أنْ نتذكر الكلمات الهامة للرب نفسه «لهذا يحبني الآب لأنِّي أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحدٌ يأخذها مِني، بل أنا أضعها مِن ذاتي، لي سلطان أنْ أضعها، ولي سلطان أنْ آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها مِن أبي» (يوحنا ١٠ : ١٧-١٨). ولذلك عندما جاءت ساعة الصليب يقول نفس الإنجيل «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه» (يوحنا ١٨ : ٤) وبهذه الكلمات الإلهية يظهر لنا أنَّ الرب يموت بسلطانه، ويقوم بسلطانه لكي يُفقِد الشيطان سلطانه. وهكذا فإنْ كان الشيطان قد تحالف مع آدم، ثم تحالف مع اليهود لقتل الرب، فإننا بكل يقين لا نجد الآب في هذا التحالف مطلقاً، بل نجد **"محبة الآب"** التي يقول ربنا نفسه عنها **"لهذا يحبني الآب"**، فهو لم يقدِّم ابنه بغضبٍ وبانتقام مِن الخطاة ومِن الخطية، بل يقدِّم ابنه بمحبةٍ لكي يُبطِل عمل الشيطان. ويقول الرسول بولس إنَّ مشورة الثالوث الأزلية كانت تُرتِّب لهذا، وإنَّ الله الثالوث "خلَّصنا ودعانا دعوةً مقدسةً لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمِنة الأزلية (قبل خلق العالم) وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل (٢ تيموثاوس ١ : ٩-١٠) وهنا النعمة والنور والخلود هي أعمال الله في مواجهة الحسد والبغضة والانتقام. لقد وصف الرب الشيطان بأنَّه **"قاتل"** (يو ٨ : ٤٤) ويصف الكتاب المقدس الشيطان بأنَّه **"المُهلِك"** و **"المُشتكي"** (٢ صموئيل ٢٤ : ١٦ - رؤ ١٢ : ١٠). وهذه الأوصاف لا تنطبق على مقاصد الله، ولا على طبيعته، وحتى إنْ عاقب البشر، فإنَّ الآباء استخدموا كلمة **"تأديب"** لأنَّ الله ليس **"المهلك"** ولا هو **"قاتل"** ولا يجرب بالشرور (يعقوب ١ : ١٣) وهكذا أباد الرب عمل الشيطان بموته، وبقوته أهلك الذي كان يملك سيادة علينا، لأنَّ محبته جعلته يُبطِل عمل الشيطان، لا أنْ يتحالف معه ويتصرف مثله ويتبنى مقاصده.

علاقة القيامة بالصليب

العمل الواحد للرب الواحد

القيامةُ مثل الصليب، مثل تجسُّد الابن وتأنسه، ليست نتيجةً لحدثٍ سبقها، أو بعبارة أُخرى لم يكن تجسُّد الرب نتيجةً لسقوط الإنسان، بل كان مصدره محبة الله، ولم يكن الصليب نتيجةً لتجسُّد الابن، وإنما كان صراع الحياة مع موت وفساد الإنسان، وعلى هذا النحو يلزمنا أنْ نرى إنَّ انتصار الرب على الموت والفساد تم في الصليب وعلى الصليب، وإنَّ القيامة هي عطية الخلود للإنسان. فالابن المتجسد لم يفقد الحياة وهو مصلوب، وهنا يقول القديس اثناسيوس:

> [وكما أنَّه في كل الخليقة إلاَّ أنَّه بجوهره هو خارج الكون (يعلو على الطبائع المخلوقة) ولكنه في كل شيء **بقوته يرتب** كل الأشياء، **ويشمل** بعنايته كل الأشياء، **ويُعطي** الحياة لكل الأشياء، كل شئ على حدة، وكل الأشياء مجتمعةً، هو يحتوي الكون، والكون لا يحتويه، ولكنه في الآب أبيه يُكمِّل كل الأشياء. هكذا لأنَّه كان في جسد إنساني، كان يُعطي هذا الجسد الحياة، لأنَّه يعطي الحياة لكل شئ، وكان في كل الأشياء، وخارج كل الأشياء ...
>
> وما هو أعجب مِن كل شئ أنه هو نفسه عاش كإنسان، وكان الكلمة الذي يُعطي الحياة لكل شئ مثل ابن مع أبيه. ولذلك لم يتغير عندما ولدته العذراء، ولم يتدنس عندما كان في الجسد، وإنما بالحري **قدَّس** الجسد. وعندما كان في الأشياء، فهو لم يشترك في الأشياء (لم يأخذ مِنها أي شئ) وإنما بالحري كل الأشياء تحيا وتبقى

بواسطته ... وكلمة اللّه الكلي القداسة خالق ورب الشمس عندما عُرِفَ (ظهر أو تجسد) في الجسد لم يتدنس، وإنما لأنَّه عديم الفساد، أحيا وطهَّر الجسد الميت]

(تجسد الكلمة: فصل ١٧).

فهل يحتاج هذا الكلام إلى تعليق؟

يقول اثناسيوس أيضاً:

[مَن يشُّك فيه وهو يرى قوته وسلطانه على الشياطين وهم يعترفون أنَّه ربهم، مَن يشُّك في أنَّه الابن والحكمة وقوة اللّه؟ ... والعجيب أنَّه حتى **في موته أو بالحري انتصاره على الموت، وأنا أعني الصليب،**

even at his death of rather at the victory over death,
I mean the ***Cross.***

اعترفت كل الخليقة بأنَّ مَن ظهر وتألم في الجسد لم يكن مجرد إنسان، بل إبن اللّه، ومخُلِّص الكل]

(تجسد الكلمة: فصل ١٩).

وليست هذه زَلةُ قلمٍ، أو شطحةُ فكر، وإنما اثناسيوس نفسه يقول بعد ذلك مُعبِّراً عن وعيه التام بما سوف يشرحه.

أسباب موت ابن الله، مخلص الكل بحسب شرح أثناسيوس:

يقول القديس أثناسيوس:

[ويلي ذلك مسئوليتنا أنْ نصف نهاية حياته وأعماله في الجسد وكيف مات جسده لسببٍ خاص، إنَّ هذه نقطة رئيسية في إيماننا والكل يتحدث عنها] (فصل ١٩).

وقد حقق وعده وسجل لنا هذه الحقائق التي نأخذها عنه هو:

١. [لم يكن أحدٌ يستطيع أنْ يأتي بالفاسد إلى عدم الفساد إلاَّ المُخلِّص نفسه الذي في البدء خلق الكون مِن العدم. ولم يكن أحدٌ قادراً على أنْ يعيد خلق البشر في صورة اللّه سوى صورة الآب، ولم يكن أحدٌ يستطيع أنْ يُقيم الميت إلى

الخلود، سوى ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة] (فصل ٢٠).

٢ـ [وهكذا الجسد ... ميت ... ولكن بمجيء (حلول) الكلمة فيه لم يعُد فاسداً حسب طبيعته، وإنما بسبب حلول الكلمة فيه، صارت له **مناعة** ضد الفساد] (فصل ٢٠).

٣ـ [لم يكن الرب ضعيفاً، ولكنه هو قوة اللّه وكلمة الحياة والحياة نفسها ... ولأنَّه الحياة وكلمة اللّه، ولأنَّ الموت كان لابد وأنْ يتم لأجل الجميع، لذلك، فلأنَّه الحياةُ والقوةُ، أعطى جسده قوةً، ولأنَّ الموت كان يجب أنْ يحدث اتخذ المناسبة التي قدمها له الآخرون لكي يُكمِّل الذبيحة. لأنَّه كان لا يليق أنْ يموت الرب بالمرض، وهو الذي شفى أمراض الآخرين، وكان أيضاً لا يليق إنَّ جسده يضعف، بينما هو قوة الآخرين، فلماذا لم يوقف (يمنع) الموت كما فعل مع المرض؟ لأنَّه لهذا أخذ جسداً وكان لا يجوز أنْ يتجنب الموت حتى لا تُمنع القيامة ... لقد مات فديةً عن كثيرين، إلاَّ أنَّه لم ير فساداً (أعمال ٢ : ٣١ ـ ١٣ : ٣٥) ولذلك قام سليماً لأنَّ جسده لم يكن ملكاً لآخر سوى لمن هو الحياة ذاتها] (فصل ٢١).

كان الصليب انتصاراً على فساد وانحلال الجسد. كان انتصار الشخص، وليس الفكرة.

٤ـ [ولم يكن لائقاً بكلمة اللّه ـ الذي هو الحياة ـ أنْ يقدِّم هو الموت إلى جسده] (فصل ٢٢).

والسبب أيها القارئ إنَّ الموت غريبٌ تماماً على طبيعة وقدرة الله الكلمة الذي لا يموت. فماذا فعل الكلمة المتجسِّد؟ يُكمِّل القديس اثناسيوس كلامه:

[... ولكنه برهن على أنَّه المُخلِّص والحياة، لأنَّه انتظر الموت لكي يبيده، وأسرع لكي يُكمِّل خلاص الكل بالموت الذي فُرض عليه. ولكن مِن ناحية أُخرى **لم يكن هذا الموت موته هو** وإنما موت البشر الذي جاء المُخلِّص لكي يكمِّله] (فصل ٢٢).

٥ـ كان الصليب هو علامة الانتصار على الفساد وبالتالي هو الذي أظهر أن

القيامة ممكنة لأنَّ الرب **"محا الفساد مِن الأجساد"** (فصل ٢٢).

وإن شئنا أنْ نقول وأنْ نترجم فكر القديس اثناسيوس كان الصليب علامة انتصار لأنَّه كشف عن طبيعة اتحاد الكلمة بالجسد، ذلك الاتحاد الذي أباد فيه الكلمة الفساد.

٦ـ ومع إنَّ معلمنا اثناسيوس يقول في الفصل ٢٣: [وكان مِن الضروري للموت أنْ يسبق القيامة لأنَّ القيامة لا يمكن أنْ تحدث إلاَّ إذا حدث الموت أولاً] (ف: ٢٣). إلاَّ أنَّ القديس اثناسيوس ليس بروتستانتياً يعتبر القيامة نتيجة الموت، الموت هو الحدث الأول، والقيامة هي الحدث الثاني. ولكن ما يجب أنْ نراه هنا مِن سياق كلمات وشرح اثناسيوس نفسه هو أنَّ الصليب والموت كشفا عن قوة الرب. وها هي كلماته نفسها تقول:

> [لماذا طرد الأرواح النجسة أمام كل الناس، وفتَّح عيني المولود أعمى، وغيَّر الماء خمراً، لكي مِن خلال هذه (المعجزات) يؤمِن به الناس أنَّه هو كلمة اللّه، ولكي يُظهِر أنَّ جسده الميت أمام الكل (البشر) هو عديم الفساد، لكي يؤمِن الكل بأنَّه هو الحياة .. وكيف يمكن البرهنة (الإعلان) عن إنَّ نهاية الموت هو انتصار عليه، إلاَّ إذا مات أمام عيون الكل وبرهن على أنَّه مات فعلاً، ولكنه ... أفرغ الموت مِن قوته بعدم فساد جسده] (ف:٢٣).

٧ـ ومِن هنا يتقدم القديس اثناسيوس خطوةً أُخرى مؤكداً أنَّ عدم فساد الجسد الذي صُلِبَ على الصليب يؤدِّي إلى **"عدم تألم الجسد"** (فصل ٢٦)، وهذه العبارة بالذات تحمل المضمون الدقيق لكلمة أُخرى تظهر في كل كتابات الآباء، وهي **"تألُّه"** الجسد أي اشتراك جسد المسيح في خلود وعدم موت وعدم ألم الكلمة الأُقنوم الثاني في الثالوث. وتألُّه الإنسان يعني أنَّ المسيح أباد الموت والفساد في جسده، فصار جسده:

١- خالداً عديم الموت.

٢- لا يقع تحت سيطرة الموت.

لقد ظل هو (الشخص) مصدر الحياة والخلاص والقيامة، أمَّا في الغرب حيث سادت فكرة دفع الثمن والترضية وما يدور حول كل هذه الأفكار، فقد غاب موضوع اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية، وغاب تماماً موضوع تحوُّل ناسوت المسيح بالموت والقيامة إلى طبيعة المجد وعدم الفساد وعدم الألم ... وكل هذا يندرج تحت موضوع معروف في الحضارة الأوروبية التي تؤكد أنَّ الإنسان ينال قيمة معنوية بسبب الأعمال والإنجازات التي حققها. أمَّا في اللاهوت المسيحي فإن قيمة الإنسان تُعطى وتوهب مِن الله في المسيح، وتظل كما هي مهما كانت إنجازات الإنسان. ولذلك السبب نفسه انحصر الخلاص في شخص المسيح كمصدر وواهبٍ له، وليس في إنجازات ومكاسب أو استحقاقات يكسبها المسيح، وتُعطىً أو تُقدَّم كثمنٍ، يقدمها المسيح للآب. واحتفظت لنا الليتورجية كممارسةٍ، ليس بإنجازات المسيحٍ رغم وجودها، بل بالمسيح نفسه شخصاً وأُقنوماً مِن ذات جوهر الآب .. وما حدث مِن تغيير في ناسوت المسيح هو الهبة والعطية الشخصية مثل **"عدم التألم"** أو **"عدم الموت"** وهو هبة المسيح للمؤمِنين به وبالشركة فيه ... هذا يختلف عن دفع الفدية للآب واستحقاقات الخلاص وما إليه مِن أفكار تجارية .. الخ.

جسد المسيح غير الفاسد هو أساس تناولنا جسده المحيي في الإفخارستيا

وحتى لا يتوه القارئ في خضم الأفكار والمراجع والتاريخ رأينا أنْ نقدم مختصراً وافياً من عبارات غير مبتورة للقديس كيرلس عمود الدين يشرح فيها موت الرب وقيامته وشركتنا في موت الرب وقيامته في سر الإفخارستيا بالروح القدس حتى يطمئن خاطر القارئ. وسوف نكتفي هنا بالقديس كيرلس الإسكندري[1] ، وبما جاء في الليتورجية القبطية الأُرثوذكسية إلى أنْ يحين الوقت لوضع موسوعة كاملة عن الإفخارستيا في القرون الخمسة الأولى. وسوف نُحيل

---

(1) راجع شرح إنجيل يوحنا – الجزء الثالث (الإصحاحان ٦ ، ٧) الترجمة العربية – مركز دراسات الآباء – القاهرة ١٩٩٨م - ترجمة د. جرجس كامل يوسف.

القارئ على شرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس، فهو يكفي في هذا المجال لتأكيد أنَّنا نأخذ جسد الابن القائم مِن بين الأموات، الخالد، عديم الموت، عديم الفساد أو المتألِّه .. الجسد الإلهي لأنَّه جسد الكلمة ابن الله.

أولاً: موت الرب وقيامته وسر الإفخارستيا عند القديس كيرلس الكبير

يقول القديس كيرلس:

[الطعام الروحي الذي يقوي أو يسند القلب (مزمور ١٠٤ : ١٥) والذي يحفظ الإنسان إلى حياةٍ أبديةٍ، والذي وعد المسيح بأنْ يعطينا إياه بقوله "الذي يعطيكم إياه ابن الإنسان" والذي يوحد ما هو إنساني بما هو إلهي، ويوحد سر التدبير، بالجسد حسب ترتيب (طقس) هذا التدبير، ولكنه هنا يشير إلى العشاء السري الروحي الذي به نحيا مُقدسين جسداً ونفساً..]

(الكتاب الثالث - فصل ٤ - ص ٣٤٧).

[يغذينا المسيح بالحياة الأبدية بعطية الرُّوح القدُّس، وبالشركة في جسده الذي يغذينا بالشركة في اللاهوت، ويمحو الموت الذي جاء مِن اللعنة القديمة] (المرجع السابق ص ٣٧٤).

[بماذا يوعدنا المسيح؟ ليس بما هو فاسدٌ، بل بأُولوجية الشركة في جسده المقدس ودمه المقدس اللذان يجددان الإنسان إلى عدم فساد .. ويمنح جسد المسيح المقدس الحياة لكل مَن يأخذه، ويحفظ المتناولين في عدم فساد عندما يتحد بأجسادنا، لأنَّنا نؤمِن بأنَّه جسد الحياة وليس جسد آخرٍ، لأنَّه اتحد بالكلمة، فصارت له صفات الكلمة وقوته الفعالة التي تُحيي وتُبقي على الوجود. وهنا أُحذِّر الذي نالوا النعمة الإلهية، وذاقوها في المعمودية، لأنَّهم يجب أنْ يعرفوا أنَّهم إذا تهاونوا في الذهاب إلى الكنائس لفترة طويلة، وابتعدوا عن أُولوجية الشكر التي للمسيح .... ولم يشتركوا فيه سرائرياً، فإنهم يعرضون أنفسهم لفقدان الحياة الأبدية] (المرجع السابق ص ٣٧٦).

[اخدموا (أو اعبدوا) الرب برعدةٍ (مزمور ٢ : ١١) وبضبط النفس علينا أنْ نسمو فوق لذات الجسد، وأنْ نقترب مِن النعمة الإلهية السمائية، ونرتفع إلى الاتحاد بالشركة المقدسة في المسيح، لأنَّنا بذلك نغلب حِيَّل الشيطان، ونصير شركاء الطبيعة الإلهية، ونرتفع إلى الحياة وعدم الفساد]

(المرجع السابق ص ٣٧٧).

ويكرر القديس كيرلس الإسكندري أنَّ الشركة في الإفخارستيا هي شركة في الطبيعة الإلهية:

[لأنَّ الابن بالطبيعة، المُخلِّص وواهب الحياة، والذين يأتون إليه يشتركون في الأُولوجية التي يعطيها هو، وبذلك يصبحون شركاء الطبيعة الإلهية ويعودون بهذه الشركة إلى عدم الفساد والحياة ..]

(المرجع السابق ص ٣٧٩).

ثانياً: الإفخارستيا حسب تسليم الآباء المُعلن في الليتورجية:

الإفخارستيا هي **"ذبيحةٌ طاهرةٌ مثل طهارة موهبة الرُّوح القدُّس"** (صلاة بعد الاستعداد). وهي **"السر العظيم الذي للخلاص"** (نفس الصلاة).

وهي التقدِمة التي تبني الكنيسة **"سلاماً وبنياناً لكنيسة الله"**، لأنَّها مجد وكرامة الثالوث القدوس الذي يُعطي في هذه الذبيحة **"الارتقاء والشفاء والخلاص لأنفسنا وأجسادنا"** (أوشية التقدمة).

وهي **"الأسرار الإلهية غير المائتة الجسد المقدس والدم الكريم اللذين للمسيح ضابط الكل"**، لذلك فالجسد، هو الجسد **"المحيي"** الذي أخذه ربنا يسوع **"مِن والدة الإله، وجعله واحداً مع لاهوته"**، ولأنَّ لاهوته لم يفارق ناسوته، فهو يُعطي **"الحياة الأبدية لمن يتناول مِنه"** (صلاة الاعتراف)، وهذا هو أحد مكونات الشركة في الطبيعة الالهية، لأنَّنا بالشركة في المسيح في الإفخارستيا يصيرنا التناول **"واحداً مع المسيح إلى الإنقضاء"** (صلاة قبل التناول).

والإفخارستيا هي ذبيحة اللوغوس أو **"الذبيحة الناطقة غير الدموية"** و**"الكلمة الذاتي الذي جاء إلينا بجسده غير القابل للفساد"**، أو **"غير المتغيِّر، ملأ الكل بلاهوته"** (صلاة الحجاب الغريغوري) وأعطانا **"الموهبة غير المائتة السمائية"** (صلاة الصلح الغريغوري).

ويُعبِّر القداس الغريغوري عن الجانب الإلهي بشكل خشوعي إذ يقول للرب **"الإله الحق مِن الإله الحق الذي أنعم علينا بمعرفة الرُّوح القدُّس الحقيقية، الذي أظهر لنا هذا السر العظيم الذي للحياة"** وجعل جسده ودمه **"جسد ودم خلاصنا"** الذي يُعطى لنا بواسطة الإله الذي في حضن أبيه لكي ينال العالم كله طُهر المسيح بالتناول مِن الطعام المقدس غير المائت والسري.

والإفخارستيا هي تقدمة الثالوث لأنَّنا نقرب القربان للآب مع الابن ومع الرُّوح القدُّس حسب عبارة القداس الكيرلسي **"نُقرِّب لك معه، ومع الرُّوح القدُّس الثالوث المقدس المساوي غير المفترق."**. وفي طلبةٍ طويلةٍ تبدأ بعد استدعاء الرُّوح القدُّس نرى ما نريد أنْ نكون عليه بالتناول **"إيمانٌ بلا فحصٍ – محبةٌ بغير رياءٍ – تجديداً للنفس والجسد والروح، ومشاركة سعادة الحياة الأبدية، وعدم الفساد"** (القداس الكيرلسي).

وما ذكرناه هنا لا محل له بالمرة في لاهوت الكنائس الغربية البروتستانتية، لأنَّ الإفخارستيا لديهم هي رمزٌ، ولا تحتوي على أي شئ إلهي، وهي مجرد ذكرى عقلية وليست موهبة وعطية الابن لنا بالروح القدس.

الخلاص شركة في المسيح وبالمسيح:

إذا كان المسيح قد جاء لكي يحوِّل الطبع الإنساني، وتاريخ الإنسان مِن القبر إلى السماء، ومِن الفساد إلى عدم الفساد، فقد أصبح مِن الضروري أنْ ندرك أنَّ الأسرار الكنسية، وبشكل خاص المعمودية والإفخارستيا، هي عطايا وشركة في المسيح وبالمسيح. ويصبح الخلاص ليس ذكرى عقلية لما حدث، بل ممارسةً فعليةً يُمارِس فيها المسيح قوته وسلطانه الإلهي، ويُعطي حياته كنعمةٍ لنا، وبدون هذا

الإيمان تتبدد كل عطية ونعمة، بل نقول بدون الشركة في لاهوت وفي ناسوت المسيح وصلبه وقيامته ولاهوته يتعذر علينا أنْ "نعمد" أو "نتناول" أو حتى "نُصلِّي" .. وهنا يصبح المسيح قوة الحياة التي تعبر عنها الليتورجية بشكل واضح وبكلمات قاطعة في أُوشية الإنجيل **"أنت هو حياتنا كلنا، وخلاصنا كلنا ورجاؤنا كلنا وشفائنا كلنا وقيامتنا كلنا"** ونكتفي بهذه الكلمات الجامعة التي تحتوي كل شئ.

عندما مات الرب وقام

حوَّل الطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الإله

إلى طبيعةٍ غير فاسدة؛ لكي ينقل إلينا

عدم الفساد، وعدم الموت

في سر الشكر

الإفخارستيا
عطاء الحرية، وحرية المحبة

مُقدِّمة:

لا يمكن أنْ نتكلم عن المحبة بدون حرية، .. فلا محبة بدون حرية، ولا حرية حقيقية بدون محبة .. ولذلك لا يمكن أنْ نتصور أنَّ عطاء وهبة الحياة، دم ربنا يسوع المسيح وجسده المُقدَّس، قد سُلِّما إلينا بدون إرادة المسيح الحُرة.

متى سَلَّم المسيحُ جسده بحريةٍ، وبمحبةٍ؟

لقد سلَّم لنا الرب جسده ودمه بملء حريته وكامل محبته، ولكن ليس على الصليب، لأنَّه على الصليب كان مثل "شاةٍ تُساق للذبح". صحيحٌ أنَّ الرب قد استسلم بحريته وترك نفسه في يد الصالبين .. ولكن مِن بستان جثيماني حتى الجلجثة، كان المسيح يُساق نحو الموت، ونحو ملاقاة عدو الإنسانية الحقيقي "الموت". وبعد موته وقيامته لم يكن لدى الرب فرصةً لكي يُسلِّم جسده إلينا .. ولذلك، فقد سلَّمنا جسده ليلة العشاء السري .. وهناك في العُلِّية وضع الأساس الإلهي للقُدَّاس في صورته الإلهية؛ لكي ينسخ الفصح اليهودي، لأنَّ القُدَّاس هو خدمة العشاء الرباني .. ولقد نَسَخَ الفصح، لأنَّ القُدَّاس هو فصح المسيح، عشاء المسيحية الأعظم، والوليمة السمائية.

إنَّ الجسد والدم هما عهدُ المحبة الحُرة، وليس ثمرة الخطايا التي اقترفها يهوذا وبيلاطس واليهود. كيف نتصور إنَّ محبه الله مقيدةٌ بالظلم، وبكسر القانون، وخيانة يهوذا؟ .. لقد قدَّم الرب جسده ودمه طعاماً للحياة بحرية. يقول الرب "هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك مِن أجل كثيرين لمغفرة الخطايا"

(متى ٢٦ : ٢٨) والعهد هو مِنحةٌ حُرةٌ يقدمها الطرف القوي والأمين، أي الله. والعهد هنا يؤسَّس في العلية بالإرادة الحُرة، وبمحبةٍ فائقةٍ، لا موضع لها في حياتنا إذا كانت القوة التي تحُرِّك الخلاص هي خيانة يهوذا، وخوف بيلاطس ومؤامرة اليهود، فكيف خلصنا الرب، وهو بلا حريةٍ، وبلا اختيار؟

وهنا يثور التساؤل: هل كان العشاء الرباني رمزاً لما سوف يحدث يوم الصلبوت، وذلك حسبما يذكر واحدٌ من الأقباط الأرثوذكس، حيث يقول:

> ***«نلاحظ هنا أنه قال دمي الذي يُسفك وليس الذي سُفك.***
>
> *وكذلك قال جسدي الذي يُبذل وليس الذي بُذل ... ذلك لأن دمه قد سُفك يوم الجمعة، وجسده قد بُذل يوم الجمعة، اليوم الذي تم فيه الخلاص ...*
>
> *إن حديثه يوم الخميس، كان عن الخلاص الذي سيتم يوم الجمعة. والفصح الذي احتفل به يوم الخميس، كان رمزاً للفصح الحقيقي الذي للعهد الجديد الذي يُذبح عنا يوم الجمعة. وكأن الرب أراد أن يقول:*
>
> ***إن هذا الفصح الذي تأكلونه اليوم يرمز إلى جسدي الذي يُبذل عنكم غداً، وإلى دمي الذي يسفك عنكم غداً.***
>
> *هذين اللذين أقدمهما لكم على صورة الخبز والخمر. وعلى هذه الصورة ستصنعون هذا السر لذكري.»*

إنَّ التعليم السائد بين كل كنائس الإصلاح هو أنَّ العشاء الرباني كان رمزاً ليوم الجمعة، فكيف حدث اتفاقٌ بين واحد من قادة الإكليروس الأقباط، وكل مِن كالفن ولوثر؟

تقسيم

نناقش معاً في المبحث الأول ما يثار عن رمزية الإفخارستيا، ونعـرض لمـا ينطـوي عليه التعليم بالرمزية من خطورة سواء على السر نفـسه، أو علـى التربيـة الروحيـة المسيحية. ولأننا دائماً نسير على درب الآباء فقد قدمنا شهادتهم عـن حقيقـة تقدمـة الكنيسة وكيف أن هذه التقدمة هي ذاتها فـصح العهـد الجديـد في مـساء الخمـيس، وذلك في المبحـث الثـاني. وفي المبحـث الثالـث عرضـنا بالتفـصيل لوجهـة النظـر الغربية للإفخارستيا، ولماذا يرفض الشرق الفهم البروتستانتي لها وذلـك مـن خـلال عرض نصوص الآباء ونصوص الليتورجية القبطية في هذا الخصوص.

الإفخارستيا
والتــأويل الرمــزي

قبل أنْ نقدم شهادة الشهود عن حرية الرب في عطائه لذاته، يلزمنا أنْ نقف برهةً عند خطورة التأويل الرمزي للإفخارستيا. إنَّ المسيحَ ليس رمزاً للمسيح؛ لأنَّ المسيح قال **"أنا الحق"**، و**"أنا هو نور العالم"**، والنور لا يمكن أنْ تشرحه الظلال مهما كانت، والمحبة لا تُعبِّر عن جوهرها بالرموز. ماذا يحدث للقُدَّاس لو قلنا إنَّ الفصح الحقيقي تم يوم الجمعة، يوم الصلبوت؟ .. ماذا يحدث لو صار يوم الخميس رمزاً لما سوف يحدث يوم الجمعة؟ إنَّ يوم الخميس، أي يوم عشاء الرب، هو الحدث الذي يتكرر في كل قُدَّاس، بينما يوم الجمعة هو حدثٌ لا يتكرر، بمعنى أنَّ المسيح يجلس معنا حسب كلماتً القُدَّاس **"هوذا كائنٌ معنا اليوم عمانوئيل"**؛ لأنَّه جلس معنا في علية صهيون، وسلمنا عهد محبته. والرب مات مرةً واحدةً، وقام مرةً واحدةً، بينما عطاء جسده ودمه هو عطاءٌ أبديٌّ، وهو يعطينا جسده ودمه في كل قداس. لقد سقط الغرب في هذه المشكلة؛ لأنه اعتبر أن موت الرب على الصليب هو المحور الأساسي للخلاص، بينما احتفظ الشرق بالتعليم الرسولي الذي يجعل شركتنا في المسيح وبالمسيح هي جوهر الخلاص، وهي شركة لا تتغير، فعندما يأتي إعلان عن المحبة، يأتي إعلانٌ آخر لكي يكمله، أي العليَّة ومن بعدها الجلجثة.

خطورة التأويل الرمزي للعشاء الرباني

أولاً: ينكر هذا التعليم إنَّ الرب يسوع سلَّم جسده لتلاميـذه، وإلى الكنيـسة في شخص الرسل .. وبذلك ينزع عن القُدَّاسات صفة الشرعية الإلهيـة، لأنَّ القُدَّاس مؤسَّسٌ على مـا سـلَّمه الـرب يـوم خميس العهـد، وهـو اليـوم والمناسبة الوحيدة التي سلَّمنا فيها الرب جسده ودمه.

ثانياً : عندما يصبح ما حدث يوم الخميس، في علية صهيون، رمزاً لما سيحدث يوم الجمعة، يفقد يوم الصلبوت علاقته بخميس العهد، كما يفقد خميس العهد علاقته بيوم الصلبوت. وإذا كان الفصح الحقيقي ـ حسب شرح واحد من قادة الإكليروس الأقباط الأرثوذكس الذين يتفقون مع مارتن لوثر وكالفن فيما يقولون ـ قد حدث يوم الجمعة، إذن لفقدت الإفخارستيا ـ حتى ـ معناها كرمز، لأنَّ الرمز دائماً يرمز لما سيأتي، وما سيأتي ليس له علاقة ظاهرة بالخبز والخمر. فما هي علاقة الموت والقيامة بعشاءٍ سبق موت الرب؟ وكما نعرف مِن التاريخ الكنسي، إنَّ كل اجتماعات الكنيسة، كانت اجتماعات إفخارستية، وهذا يؤكد لنا إنَّ الخميس والجمعة وسبت النور وأحد القيامة، هي أحداثٌ مُتصلة، يربط بينها جسد ودم عمانوئيل، أي يظل شخص ربنا يسوع هو الذي يُفسِّر لنا أحداث هذه الأيام.

ثالثاً : ينكر هذا الرأي إنَّ الرب قد نسخ فصح اليهود، وهو ما كان بالفعل رمزاً. وكأن هذا الرأي يقول، إنَّ الرب قد نزع رمزاً يهودياً، لكي يضع بدلاً مِنه رمزاً مسيحياً .. بينما مِن الثابت حسب شهادة الشهود إنَّ الرب نزع الرمز، أي فصح اليهود، وأسس الحقيقة، أي فصح الكنيسة الجامعة.

خطورة التعليم برمزية الإفخارستيا على التربية المسيحية

وكما ذكرنا في مُقدمة هذا الفصل، يصور لنا هذا الرأي، ربنا يسوع المسيح كشخصٍ بلا إرادةٍ، بلا محبةٍ، بلا حرية .. ويجعل موت المسيح بواسطة اليهود هو مناسبة الخلاص الوحيدة .. بينما يقول الرسول بطرس إنَّ دم ربنا يسوع المسيح «**معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهر لنا في الزمان**» (١ بطرس ١ : ١٩-٢٠) .. وعندما نُفسِّر ما يحدث في التاريخ على أساس التاريخ وحده دون العودة إلى أزلية تدبير الخلاص، يصبح الله بلا إرادة وبلا خِطة، ضحية الظروف. إنَّ هذا التعليم يخفي تحته نوعٌ غريب مِن "**القَدَريَّة**" *Fatalism* ويصور المحبة الإلهية

كشيء حدث حسب ظروف ومناسبة خاصة، وينزع عن المحبة صفة المُبادرة، ويجعل المسيح ضحيةً ساذجةً تعمل فقط عندما تسوء الأحوال، ويُعطي عندما تقهره الظروف على العطاء .. هل هذا هو ما نريد أنْ نبشر به أنفسنا، وغيرنا ..؟!!

التقليد الكنسي الخاص بالعشاء الرباني

إنَّ موت الرب تم بالإرادة أو المشيئة حسب شهادة الرسول بولس في رسالته إلى العبرانيين « ثم قال هاأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله .. فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد المسيح مرةً واحدةً » (عب ١٠ : ٩-١٠). لقد قُدِّمَ جسد المسيح مرةً واحدةً، وصار له قوة التقدمة الدائمة حتى نهاية الدهور، لأنَّ إرادة المسيح لا تتغير.

ويظهر التعليم الكنسي الأُرثوذكسي في القداسات كالآتي:

"لأنَّه فيما هو راسمٌ أنْ يسلِّم نفسه للموت عن حياة العالم".

"أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين" (القداس الباسيلي).

"لأنَّك في الليلة التي أسلمت فيها ذاتك بإرادتك، وسلطانك وحدك".

"أخذت خبزاً على يديك الطاهرتين" (القداس الغريغوري).

ويشهد قداس مارمرقس للقديس كيرلس الكبير على ذات التعليم الرسولي:

"في الليلة التي أسلَّم ذاته فيها ليتألم عن خطايانا، والموت الذي قبله بذاته بإرادته وحده عنا كلنا أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين".

ويقول الرب بفمه الإلهي عن موته المحيي على عود الصليب **"لهذا يحبني الآب، لأنِّي أضع نفسي لآخذها أيضاً، ليس أحدٌ يأخذها مِني، بل أنا أضعها مِن ذاتي. لي سلطانٌ أنْ أضعها، ولي سلطانٌ أنْ آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها مِن أبي"** (يو ١٠ : ١٧-١٨). وهكذا بسلطان الرب وحده، قدَّم جسده، ودمه بكل حريته واختياره وبإرادته الإلهية. ولذلك يؤكد القديس غريغوريوس النزينزي إنَّ الرب

في ليلة آلامه قدَّم جسده ودمه للرسل الأطهار، إذ يكتب لنا التعليم الرسولي السليم المُسلَّم في صلوات القُدَّاس:

> **"يا مَن بارك في ذلك الزمان الآن أيضاً بارك. يا مَن قدَّس في ذلك الزمان الآن أيضاً قدِّس. يا مَن قسَّم في ذلك الزمان الآن أيضاً قسِّم. يا مَن أعطى تلاميذه القديسين ورسله الأطهار في ذلك الزمان، الآن أيضاً يا سيدنا أعطنا، وكل شعبك يا ضابط الكل الرب إلهنا".**

هكذا سلَّم الرب جسده لنا في علية صهيون، نعم لنا وللرسل وآباء الكنيسة من قبل. فكيف إذن يقول معلمي هذا الزمان أننا أخذنا رمز ما سوف يحدث؟ هل أخذنا الرمز، أم استلمنا الحقيقة؟ أي ذات الجسد الذي تقول عنه صلاة الاعتراف. **"هذا هو الجسد المحيي الذي أخذه ابنك الوحيد .. مِن سيدتنا وملكتنا كلنا والدة الإله"**. وهو ذات الجسد المولود مِن العذراء، والذي سُلِّم يوم الخميس، وأكمَّل السر علانيةً، يوم الجمعة، وأظهر قوته على الموت بالصليب، وأعلن عدم الموت بالقيامة وخلود الجسد والحياة الأبدية بلا فساد في يوم الأحد.

فصح الـرب
هو
فصـح الكنيـسـة

في المبحث السابق رأينا أن ما حدث يوم الخميس لم يكن رمزاً لما سوف يحدث بعد ذلك، فلقد كسر الرب جسده وأعطاه لتلاميذه وللكنيسة، وهذه هي الحقيقة العميقة التي لا تحتاج إلى رموز، وهو بعينه إفخارستية الكنيسة التي تشمل إلى جانب الجسد المكسور والدم المسفوك، القيامة والصعود والجلوس عن يمين الآب، بل والمجيء الثاني والإقامة في الملكوت. وها هي بشهادة آباء الكنيسة الجامعة على أنَّ الفصح، هو فصح الكنيسة الذي تم يوم الخميس

١ـ شهادة القديس اثناسيوس الرسولي بابا الإسكندرية

يكتب معلمنا القديس اثناسيوس التعليم الرسولي الأُرثوذكسي في الرسالة الرابعة مِن رسائل عيد القيامة التي كان أساقفة الإسكندرية يكتبونها إلى كل أقاليم الكرازة المرقسية يقول:

> [هذه الأيام كانت أعياداً لإسرائيل، وكانت تسمى أعياداً في الأيام الماضية، لأنَّ العدو قد ذُبِحَ، أو لأنَّ مؤامرةً ضد الشعب قد أُبطلت .. لذلك رسم موسى المُبارَك عيد الفصح العظيم، ورسم أيضاً احتفالنا به، لأنَّ فرعون قد قُتِلَ، وتحرر الشعب مِن العبودية، وعندما أُبيد الذين أذلوا الشعب، احتفل الشعب في ذلك الزمان بالفصح في كل اليهودية. أمَّا الآن فإنَّ الشيطان قد ذُبِح، والظالم المُستبد الذي استعبد العالم كله قد أُبيد، أمَّا نحن فإننا لا نحتفل يا أحبائي بعيدٍ مؤقتٍ، بل بعيدٍ أبديٍ، وسمائي. ونحن لا نعلنه كما لو كان ظلالاً، بل الحق الذي

جئنا إليه. وهؤلاء أكلوا لحم الحمَل الحيواني غير العاقل وبه احتفلوا بالعيد .. أمَّا الآن فإننا نأكل كلمة الآب الذي به نختم أعتاب قلوبنا بدم العهد الجديد، معترفين بنعمة المُخلِّص التي أُعطيت لنا، والتي قال هو عنها ها أنا أعطيكم أنْ تدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو] (متى ٢٦ : ٢٨).

ولا يكتفي القديس اثناسيوس بذلك، بل يقول بعدها مؤكداً أنَّ الفصح هو خميس العهد نفسه إذ يقول:

[ولذلك لا يجب أنْ نفكر في العيد بشكل رمزي، لأنَّنا لا نذهب إلى أورشليم الأرضية لكي نذبح الفصح حسب الطقوس والعادات الرمزية الباطلة التي نعرفها عن اليهود حتى لا نقع في ذات الخطأ، ونمُارس ذات الطقوس الفارغة، وينذرنا الرُّسل بأنَّ علينا أنْ نذهب إلى ما هو أعظم مِن الظلال، وأنْ نُسبِّح الرب بالتسبحة الجديدة التي سبح بها الرُّسل عندما اجتمعوا مع الحق (المسيح) (يوحنا ١٤ : ٦) وقالوا لمخلصنا أين تريد أنْ نُعِّد لك الفصح (متى ٢٦ : ١٧) ولم يكن قصد الرُّسل أنْ يتم الفصح في أورشليم الأرضية، أو أنْ يتم العيد فيها فقط، بل أنْ نحتفل بالعيد حيثما شاء اللّه، والآن أراد اللّه أنْ يكون العيد في كل مكان، لأنَّه قِيل وفي كل مكانٍ يقدَّم بخوراً، وذبيحةً (ملاخي ١ : ١١) ومع أنَّه حسب شهادة التاريخ كانت الوصية أنْ يُقام عيد الفصح في أورشليم فقط، وليس في أي مكان، ولكن عندما تم زمان الرموز وعبرت الظلال، وأذيع الإنجيل في كل مكان، وبشر الرسل بالعيد في كل أرجاء الأرض، سألوا مخُلِّصنا أين تريد أنْ نُعِّد لك؟ ولأنَّ مخلصنا وحده هو الذي جاء لكي يغيِّر الرمز إلى الحقيقة الروحية، وعدهم بأنْ لا يأكلوا بعد ذلك لحم الحمَل، بل لحمه هو قائلاً خذوا كلوا وأشربوا هذا هو جسدي، وهذا هو دمي (متى ٢٦ : ٢٦ـ٢١). وعندما نتغذى بهذا الطعام نحتفل بعيد الفصح - يا أحبائي - كما يليق بنا]

(الرسالة الرابعة مِن رسائل عيد القيامة كتبت سنة ٣٣٢م. نشر النص السرياني واليوناني والترجمة الإنجليزية في سلسلة آباء الكنيسة الجامعة - جامعة أوكسفورد راجع ص ٣٢- ٣٥ مِن الترجمة الإنجليزية).

وهكذا نرى أنَّ الفصح اليهودي قد انتهى بالفصح الحقيقي الذي قدَّم فيه الرب جسده ودمه للتلاميذ معلناً نهاية الرموز والظلال في علية صهيون.

٢- شهادة القديس يوحنا ذهبي الفم

[وبينما هم يأكلون، أخذ الخبز، وكَسَرَ، لماذا رسم الرب زمان هذا السر في الفصح؟ لكي نتعلَّم مِن كل هذه الأُمور إنَّه هو واضع الناموس، ومؤسِّس الرموز وحيث يوجد رمز يضع هو الحقيقة. وكان مساء هذا اليوم هو علامة ملء الزمان لأنَّ كل الأشياء (الرموز) جاءت إلى نهايتها. وهو يشكر لكي يعلمنا كيف نمارس هذا السر، **ولكي يعلِّمنا أنَّه لم يأت إلى آلامه رغماً عنه**، ولكي نتعلم نحن كيف نشكر في كل ما يحدث لنا، لأنَّ لنا رجاءٌ صالح. وإذا كان **الرمز** هو خلاصٌ مِن العبودية (الفصح اليهودي) فكيف **يكون الحق** الذي يحرر العالم كله؟، لأنَّه بُذل مِن أجل خلاص الجنس البشري. لذلك أقول أنَّه لم يرسم تسليم هذا السر قبل ذلك (قبل الآلام) و(قبل الفصح) لكي يضع نهايةً لطقوس الناموس، وهكذا يضع نهايةً لأكبر الأعياد (الفصح اليهودي) ويقود (التلاميذ) إلى المائدة الرهيبة، ويقول "خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يُكسَر الآن لأجل كثيرين] (عظة ٨٢ على انجيل متى ٢٦ : ٢٦- ٢٨، ص ٤٩١).

ويتابع القديس يوحنا ذهبي الفم شرحه لكلمة **"العهد"** مؤكداً أنَّ عبارة الرب، **"دمي الذي للعهد الجديد"** تؤكد أنَّ العهد بالدم، هو عهدٌ بدم الرب نفسه، وهنا يجب أنْ نحرص على أنْ نقدم كلمات ذهبي الفم:

[وكما كان العهد القديم قائماً بدم التيوس والحيوانات، هكذا أيضاً هذا العهد بدم الرب. وهنا يوضح (الرب) أنَّه **سوف يموت**، ولذلك ذكر العهد مُذكِّراً إياهم (التلاميذ) بالعهد السابق الذي قُدِّسَ بالدم. وهنا يشرح سبب موته "الذي يسفك عن كثيرين لمغفرة الخطايا"، ويقول "اصنعوا هذا لذكري" وهنا ترون أنَّه يزيل ويرفع كل العادات اليهودية (مِن عقول التلاميذ). وكما كنتم تتذكرون العجائب التي صُنِعَت في أرض مصر هكذا تتذكرونني. والدم الذي سُفِكَ مِن أجل خلاص البِّكر (في مصر)، فهذا الدم هو لغفران خطايا كل العالم. ويقول "لأنَّ هذا هو دمي الذي يُسفَك لمغفرة الخطايا" ولكن بهذه (الكلمات) التي ذكرها (الرب) كان يعلِّن آلامه وصليبه، كسرٍ ... وكما قال موسى ليكون هذا تذكاراً أبدياً، وهو أيضاً (الرب) يقول شهوةٌ اشتهيت أنْ آكل معكم هذا الفصح (لوقا ٢٢ : ١٥) لكي أُسلِّم لكم هذه الخدمة الجديدة، ولكي أُعطي لكم هذا الفصح الذي سوف أجعله فصحاً روحياً، وهو نفسه شرب مِن الكأس حتى إذا سمع التلاميذ هذا (هذا هو دمي) لا ينكرون عليه قوله هذا هو دمي، أو يقولون كيف نشرب دمه ونأكل جسده؟ ولكي لا يضطربوا شرب هو أولاً لكي يؤهلهم لشركة هادئة في الأسرار فشرب هو دمه]. (المرجع السابق ص ٤٩١- ٤٩٢).

ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم آلام الرب أثناء الفصح ويقول:

[لماذا لم يقتلوه فوراً، بل قادوه إلى بيلاطس؟ لأنَّهم (اليهود) لا يملكون السلطان، ولا كانت لهم قوة، وكانت كل أُمورهم تحت سيطرة وحكم الرومان. وما معنى لكي يأكلوا الفصح؟ وحقاً احتفل المسيح نفسه بالفصح في أول أيام الفطير. وكلمات الإنجيلي تعني هنا فترة العيد كله، أي الأسبوع الذي يُسمَّى أيضاً "الفصح". وربما كان يعني (الإنجيلي) إنَّ اليهود كانوا ولا زالوا يحتفلون بالفصح، أمَّا

المسيح فقد سبق اليهود بيوم (الخميس)، واحتفل بالفصح، وجعل ذبحه في أول أيام الاستعداد الذي هو أول أسبوع الفصح حسب العادة القديمة].

(راجع العظة ٨٢ على إنجيل يوحنا المجلد الثاني مِن سلسلة آباء الكنيسة الذي نشرته الجامعة الكاثوليكية ص ٤٠٩).

كيف استطاع ذهبي الفم، ومِن قبله اثناسيوس أنْ يكتب هذه العبارات؟ أليس لأنَّ كلمات الرب في علية صهيون قاطعة؟ وإذا قال الرب «**خذوا كلوا هذا هو جسدي**» فهو الحق الذي لا يُعطي الظلال والرموز الخاصة بحياته، بل يُعطي الحق، أي الحياة.

٣ـ شهادة القديس غريغوريوس النيسي

[الرب وحده هو الذي يُعطي بإرادته كل الأشياء، وهو لا ينتظر تآمر اليهود والخيانة والعنف وانتهاك الشريعة، وحُكم بيلاطس الظالم، حتى لا يكون مكر اليهود هو سبب خلاص الجنس البشري، ولكن حسب التدبير، ولأنَّه كان يعرف مسبقاً الاعتداء عليه، لم ينتظر ـ حسب التدبير ـ بل قدم نفسه ككاهنٍ، وما كان خفياً عن أعين البشر أعلنه عندما قدَّم ذاته لنا قرباناً وذبيحةً، فهو كاهنٌ وقربانٌ وذبيحةٌ، وهو "كاهنٌ"، وهو أيضاً حمل اللّه الذي يرفع خطية العالم، **ومتى حدث كل هذا؟** عندما أعطى جسده ليؤكَّل كطعام، ودمه لكي يشربه الذين كانوا معه. ولأنَّ الحمَل لا يمكن أنْ يؤكَّل إلاَّ بعد أنْ يُذبح أولاً ـ هذا معروف ـ أعطى جسده كطعام لتلاميذه كحمَلٍ، وهكذا تُكمَّل الذبيحة، لأنَّ جسد الذبيحة لا يصلح طعاماً إذا كانت الذبيحة لا تزال حيةً. ومتى أعطى جسده كطعام ودمه كشراب لتلاميذه إلاَّ بعد أنْ قرر **بإرادته**، وبأسلوب يعلو على الإدراك أنْ يقدِّم ويذبَح جسده بقوته كمدبرٍ للأسرار، والنفس التي تأخذ الإرادة كمصدر للأشياء وتعتبر أنَّ ما يحدث في القلب، قد حدث بالفعل،

تُـدرِك أنَّ قـوة مُـدبِّر ومُعطـي الأسـرار (الكنـسية) بقوتـه الإلهية، أعطى جسده ودمه، ومزجهما بقوته الإلهية. ولذلك فكـل مَـن يعتـبر أنَّ هـذه التقدمـة، تمَّـت في هـذه الـساعة عندما قدَّم الذبيحة للّه ككاهنٍ عظيم، وبأسلوب فائقٍ، وغـير مرئـي، قـدَّم ذاتـه كحمَـلٍ يُـذبَح مِـن أجـل خطايـا البشرية، فهو لم ينحرف قط عن الحق]

(المقالـة الثالثـة بعنـوان قيامـة المسيح مجلـد ٣ : ص ٣٨٩ - ٣٩٠ مِـن مجموعة مؤلفات القديس غريغوريوس النيسي).

إذن المسيح بحريته، ومحبته يقدم ذاته:

ألا ترى أيها القارئ إنَّ التسليم الرسولي الذي حفظته لنا قداسات الكنيسة وعظات الآباء يؤكد لنا بكل وضوح أنَّ المسيح قَبِلَ الموت بحريته وإرادته وسلطانه وحده.

ألا ينسجم هذا التعليم الرسولي مع طبيعة المحبة الإلهية نفسها لأنَّ الرب جاء إلينا بحريته، ومات بإرادته كما قال هو بفمه الإلهي **"لي سلطان أنْ أضعها"** (يوحنا ١٠ : ١٨) ولاحظ إنَّ ذات السلطان الإلهي يذكره قداسنا الرسولي لمارمرقس **"أسلم ذاته بإرادته وسلطانه وحده"** وصار مِن الضروري لنا أنْ نؤمِن بما أخذناه بالكلمة وبالعمل والممارسة وما دُوِّن في صلواتنا.

٤- شهادة مار إفرام السرياني[1]

يقول مار إفرام:

"هو ذاته المسيح الذي كان في عُلِّية صهيون
هو ذاته الذي يُقسَّم، ويوزَّع على الكل
ومع إنَّ الشعب ذبحه
إلاَّ أنَّه هو الذي ذَبَحَ ذاته بيديه قبل ذبحه

---

[1] اعتمدنا هنا على دراسة المُستشرق المسيحي الدكتور *Sabastian Brock: The Luminous Eye* "العين المستنيرة، أو الصافية" التي نشرت في الهند وروما ١٩٨٦. والأستاذ بروك هو أستاذ اللغات السامية في جامعة *Oxford* إنجلترا. وتحت عنوان "دواء الحياة" وهو الفصل السادس مِن الكتاب السابق ص ٧٧ وما بعدها يورد الترجمة الإنجليزية لأناشيد مارإفرام.

ذُبِحَ أولاً بيديه
وبعد ذلك، صَلَبَه المجانين على الجلجثة
وإذا لم يكن قد ذَبَحَ نفسه بمثال
لعَجَزَ المجانين عن ذبحه علناً على الجلجثة" (ص ٧٩).
مُباركةٌ أنتِ يا عُلِّية صهيون .. أنتِ صغيرةٌ
بالمقارنة مع الخليقة ..
ما حدث في العلية ..
يملأ الخليقة كلها، رغم صغر حجم العلية
مُباركٌ هذا المكان الذي فيه كُسِرَ
هذا الخبز الذي جاء مِن القمح (الحنطة) المباركة ..
صار ربنا في وقت واحدٍ ..
المذبح الحقيقي ..
الكاهن ..
الخبز ..
كأس الخلاص ..
في أُقنوم وحَّد، وجمَّع، وحقَّق كل هذه معاً
لا يوجد آخر كان يستطيع أنْ يفعل هذا ..
حمَلٌ قُدِّمَ كقربانٍ كاملٍ ..
ذبيحةٌ، ومُقدِّمٌ ..
كاهناً، وقرباناً يؤكل (المرجع السابق ص ٨٠).

عطية الجسد والدم هي المسيح كله

يقول الرسول بولس إننا نخبر بموت الرب عنا إلى أنْ يجئ (١ كو ١١ : ٢٦) ويلاحظ القارئ أنَّ الرسول لا يذكر القيامة في هذه الكلمات، ولكن المجيء الثاني يجمع كل ما حدث للرب .... وهكذا نرى شهادة الليتورجية القبطية، حيث الرب، اللاهوت والناسوت، الميلاد، والصليب، القيامة، والمجيء الثاني، فتقول كنيستنا:

"ونحن أيضاً الجلوس في الظلمة زماناً، أنعم علينا بنور قيامته مِن قِبَل تجسُّده الطاهر"، فالقيامة والتجسد معاً، لأنَّ المسيحَ ربٌ واحدٌ، ومُخلِّصٌ واحدٌ، له إرادةٌ واحدةٌ.

ويجب أنْ نلاحظ قوة تعبير القُدَّاس الغريغوري:

"الذي مِن قِبَل تجسُّدك غير المُدرَك، أعددت لنا خبزاً سمائياً"

فهل الإفخارستيا، أو الجسد المحيي يوهَب لنا بالتجسُّد فقط؟ بكل يقينٍ لا، ولكنه لا يمكن أنْ يُعطى بدون التجسد، ولذلك تقول نفس الصلاة:

"مزجت لنا كأساً مِن كرمةٍ حقيقيةٍ، هي جنبك الإلهي غير الدنس. هذا الذي مِن بعد أنْ أسلمت الروحَ، فاض لنا مِنه دمٌ وماء، هذان الصائران طُهراً لكل العالم"

وهكذا تظهر قوة الحياة في إرادة الرب ـ وفي جمال تسليم الآباء ـ لأنَّ الكأس الذي نمزج فيه الخمر بالماء، إنما هو ذات الكأس في العلية، وذات الكأس على الجلجثة عند جنبه الإلهي.

وهكذا تحفظ لنا الليتورجية الأُرثوذكسية، التعليم الرسولي المُقدَّس مؤكدة لنا أنَّنا نأخذ ميلاد الرب ومعموديته وموته وقيامته وصعوده في الليتورجية. تأمل العبارات السابقة تجدها هي بذاتها عند القديس اثناسيوس الرسولي وغيره مِن الآباء .. ذلك أنَّ الجسد والدم على المذبح هو الذي يجمع كل شئ، وهو الذي يحفظ لنا قوة ميلاده مِن البتول وموته وقيامته. وهكذا يقول القديس اثناسيوس:

[لو لم يكن الرب قد صار إنساناً، لَمَا كان في وسعنا أنْ نخلُص (نُفتَدي) مِن الخطية، وأنْ نقوم مِن بين الأموات]

(ضد الأريوسيين ١ : ٤٣ ص ٨٤ مِن الترجمة العربية).

فهل نسى القديس اثناسيوس أنْ يتكلم عن الصليب والقيامة؟ الجواب هو بكل تأكيد لا، ولكن هذا هو أُسلوب الشرق وتعليم الأُرثوذكسية الذي لا يحصر الخلاص في حدثٍ معينٍ، كما فعل الغرب في عصر الإصلاح البروتستانتي.

وعندما يقول اثناسيوس عن معمودية المسيح في الأردن:

"أنَّنا كنا نحن الذين اعتمدنا فيه" (المرجع السابق فقرة ٤٧ - ٤٨).

فهل هذا يلغي المعمودية، أم يكشف عن إنَّ أساسها في الرب نفسه؟ وإذا

قال القُدَّاس إنَّ الكأس أُخِذَ مِن جنب المسيح الذي طُعِنَ بالحربة على الجلجثة، فهل هذا يعني أن كأس العلية في صهيون لم يكن موجوداً، وإنَّ الكأس أخذناه بموت الرب فقط؟ .. هذه هي ألحان الخلاص كما يقدمها الآباء، وكما حفظتها القُدَّاسات. فهل نترك ينابيع الحياة، ونسير وراء الآبار المشققة؟.

عشاء الرب
بين فكر حركة الإصلاح
واللاهوت الشرقي الأُرثوذكسي

عشاءٌ واحدٌ:

لدينا عشاءٌ ربانيٌ واحدٌ ووحيد، وهو عشاء عُلِّية صهيون. ولو كان هذا العـشاء رمزاً ليوم الصلبوت لصارت كل إفخارستية رمزاً. أمَّا التعلـيم الرسـولي الثابـت، فهو أنَّ الإفخارستيا هي المسيح، وذلك حسب صوت الآباء، وشهادة القُدَّاسات كما يصلنا مِن خلال صلواتنا المقدسة:

"هوذا كائنٌ معنا اليوم على هذه المائدة..... حَمَل الله".

"الكائن في حضنه الأبوي كل حين".

فهو في حضن الآب عند تجسده وموته وقيامته، كان ولازال في حضن الآب وهو في العُلِّية عندما سلَّم لنا جسده ودمه، كان ولا يزال في حضن الآب وهو معنا على هذه المائدة، ومعنا وهو في القبر، ومعنا وهو حيٌ قاهرٌ للموت. ولذلك لا يعرف تراثنا الشرقي عبارة **"العشاء الأخير"**، بل إنَّ كل عشاءٍ هو عشاء الرب، وهو ذاته عشاء عُلية صهيون. وهذا هو ما تقرره الليتورجية الأُرثوذكسية: **"وهكذا الكأس أيضاً بعد العشاء..."** (الرشومات قداس باسيليوس وقداس كيرلس). وقد أوضحت لنا شهادة آباء الكنيسة التي أوردناها سابقاً أن فصح الرب هو ذاته فصح الكنيسة. ولكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة لتعليم حركة الإصلاح. ولأن الإفخارستيا ـ طبقاً لهذا التعليم ـ هي مجرد رمز، لذلك يصفون عشاء الرب بأنه العشاء الأخير. إنَّ الشُقةَ واسعةٌ بين الشرق الأُرثوذكسي والغرب البروتستانتي، وهو ما يتضح لنا من خلال تعليم قادة حركة الإصلاح

الديني في أُوروبا، زوينجلي، ويوحنا كالفن، لماذا اعتبروا فصح الرب رمزاً، ولماذا سُميَ بالعشاء الأخير؟:

"العشاء الأخير" كان رمزاً لموت الرب:

اعتبر يوحنا كالفن، ومِن قبله زوينجلي *Zwingli* إنَّ العشاء الأخير، هو رمزٌ لموت الرب على الصليب يوم الجمعة العظيمة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إنَّ موت المسيح يوم الجمعة، هو قلب الخلاص، لأنَّ التبرير تم بموت المسيح.

ثانياً: عندما مات الرب، دفع الثمن على الصليب، وأرضى العدل الإلهي.

ثالثاً: حصل الخطاة على التبرير بموت المسيح، وأصبح العشاء الرباني هو ذكرى عقلية تُنهِض قلب وفكر المؤمِن، لأنَّ ما حدث في العلية هو رمزٌ.. ويقول يوحنا كالفن

> *« الخبز يُعطي رمزاً لجسد المسيح. وهذا هو معنى هذا المثال، كما أنَّ الخبز يُغذِّي، ويُنمِّي، ويحفظ حياتنا الجسدية .. هكذا أيضاً جسد المسيح» (Institutes of the Christian Religion المجلد الثاني - كتاب ٤ - فصل ١٧ : ص ٥٥٨ طبعة ١٩٨١م).*

ويعرف كل الذين درسوا تاريخ حركة الإصلاح، الحوار الساخن الذي دار بين لوثر *Luther* وزوينجلي في قاعة جامعة ماربورج *Marburg* عندما دخل لوثر ومعه قطعةً مِن القماش كتب عليها باللغة اللاتينية *Hoc est Corpus meum* "هذا هو جسدي". فلقد دار الحوار عام ١٥٢٩م، وحاول زوينجلي أنْ يحصره في فعل **"يكون"** "*est*"،وهو غير مذكور في اللغات السامية، لأنَّ الآرامية والعبرانية مثل العربية لا تضع فعل "يكون" في كلمات الرب .. وحاول زوينجلي - مثلما فعل بعض الإكليروس الأقباط وواحد منهم من أكبر قادتنا - أنْ يأخذ بقواعد الإعراب والنحو، وينقل معنى فعل "يكون" "est" إلى "يرمز"، أو "يُعلِن" *Significant* ويصبح شرح زوينجلي هو "*هذا الخبز يرمز، ويعُلِن ما سوف يحدث*"، ويعتمد

زوينجلي على عبارات الكتاب المقدس التي يقول فيها الرب **"أنا هو الكرمة"**، إلاَّ أنَّ المسيح لم يتحول إلى كرمة عنب. أو قول الرسول بولس **"والصخرة كانت المسيح"**، ولم يكن المسيح قد تحوَّل إلى حجرٍ [1] .

إنَّ منطق لاهوت حركة الإصلاح الأوروبي سهل وواضح، فالخلاص كله قد تم يوم الجمعة بصلب المسيح، وما يحدث بعد ذلك، إنْ هو إلاَّ رمزٌ وذكرى واحتفالٌ بما حدث.

فإذا تحول العشاء الرباني إلى رمز .. وهو ما يمثل قلب لاهوت وفكر حركة الإصلاح، وهو ما يُعبَّر عنه بكمال الخَّلاص الذي تم يوم الجمعة، اليوم الذي ذُبِحَ فيه الرب على الصليب بواسطة الرومان واليهود، ذلك الذبح الذي تم بالاستسلام والقبول، وهو ما يختلف عن ذبح عُلِّية صهيون، الذي تم بالعطاء الحُر والمحبة الحُرة والهبة التي لا دخل للظروف فيها، فإن حجة القرن السادس عشر بأنْ الرب كان يجلس مع التلاميذ، ولذلك يتعذر عليه أنْ يُعطي جسده ودمه لهم، وهو جالسٌ معهم، تكون متفقةً مع هذا التعليم،وهو ما يرفضه الشرق تماماً.

لماذا يرفض الشرق التعليم برمزية الإفخارستيا؟

أولاً: لأنَّ العطاء هو بقوة وإرادة أُقنوم الابن الكلمة، ولأنَّ اللاهوت بحسب القديس كيرلس: **"بلا كمية وبلا حجم، ولا يقبل التحديد"** (رسائل القديس كيرلس الإسكندري إلى نسطور، مركز دراسات الآباء، القاهرة، رسالة ١٧صـ ٢٣،٢٤ عام ١٩٨٨م). فهو معنا قبل تجسده، وبعد صعوده، هو في كل مكان .. وعطاءٌ تم بالإرادة، لا عِبرة فيه للمادة والحجم .. فإذا كان الرب قد قال إنَّ نظرة الشهوة هي زنىً في القلب (متى ٥ : ٢٨) مما يعني أنَّ العبرة بالإرادة والنية؟. وكان قد قال أيضاً: إنَّه اشتهى أنْ يأكل الفصح مع تلاميذه؟ (لوقا ٢٢ : ١٥)، وإذا كانت "نية" القلب والإرادة هي القوة الفاعلة، فكيف يكون الوجود الإنساني، أي وجود المسيح بالجسد في وسط التلاميذ يُشكِّل عائقاً؟ هل عدم الموت هو ما منع تقديم الدم

---

(1) Timothy George: Theology of the Reformers, 1989, p 150-151

والجسد؟. في الحقيقة إنَّ هذه النتيجة تنبني على خطأ فكر العصر الوسيط وعصر الإصلاح الذي اعتبر إنَّ الدم هو موتٌ، ويستدعي الموت، مع إنَّ الدم هو هبة حياة، والقَول بغير ذلك يعني – حسب التوراة – إنَّ الموتَ نجاسةٌ ودم وجسد الميت نجاسة .. ولم يعطِ الرب جسده ودمه كنجاسةٍ .. بل الدم هو هبة حياة، هو حياةٌ تُقدَّم بالذبح .. والذبح تم بالإرادة أولاً.

ثانياً: إنَّه لا صعوبة على الإطلاق بخصوص كيفية تقديم الرب لجسده ودمه بعد صعوده إلى السماء، فالإرادة الإلهية وقوة حياة الابن الكلمة هي التي تنقل حياته إلى قرابين الكنيسة، وتجعل الخبز جسداً والخمر دماً. والصعود إلى السماء لا يحجب أو يمنع الحياة الإلهية عن أنْ تُقدِّم هبة الجسد والدم، لأنَّ الحياة الإلهية مُتدفقةٌ مِن ينبوع المحبة الأزلية، ولأنَّ الجسد والدم يحملان لنا هذه الحياة التي توهب لنا بالروح القدس.

ثالثاً: وهكذا يجب أنْ نفهم معنى الأكل والشرب .. فهو هنا بشكل خاص، طعامٌ روحيٌ. والأكل بمعناه الروحي لا يحوِّل الإفخارستيا إلى رمز، بل يجعل الحقيقة أكثر وضوحاً إذا رأينا إنَّ الأكل شركةٌ، وإنَّ الشركة وليمةٌ، والوليمة دعوة، والدعوة هي إعلان محبة، والمحبة لا تقبل إلاَّ الاتحاد الكامل، ولذلك يقول الرب عن الإفخارستيا **"**مَن يأكل جسدي، ويشرب دمي، يكون فيَّ وأنا أكون فيه**"**، وعن هذا يقول القديس كيرلس الإسكندري مؤكداً روحانية وسرية التناول، أي الأكل:

> لوإذ نكرز بموت ابن الله الوحيد حسب الجسد، أي موت يسوع المسيح، ونعترف بقيامته مِن بين الأموات وصعوده إلى السموات، فإننا نقدِّم الذبيحة غير الدموية في الكنائس، وهكذا نتقبل **البركات السرية** ونتقدس، ونصير مشتركين في الجسد المقدس، والدم الكريم للمسيح مخلصنا جميعاً. ونحن لا نفعل هذا كأُناسٍ يتناولون جسداً عادياً، حاشا، ولا هو جسدُ رجلٍ مُتَقَدِّسٍ، فهذا غير حقيقي، فهو ليس إنسانٌ اتصل بالكلمة باتحاد تم حسب

الكرامـة (رأي نـسطور) .. بـل هـو الجـسد الـذاتي للكلمـة نفـسه المُعطـي الحيـاة الحقـة، لأنَّـه صـار واحـداً مـع جـسده الـــذاتي، ولـــذلك أعلـــن أنَّ جـــسده مُعطـــي الحيـــاة] (المرجع السابق ص ٢٨- ٢٩).

وهكذا إذ صار الرب واحداً مع جسده، وقدم بإرادته الجسد والـدم للتلاميـذ وأعطـاهم شـركةً في حياتـه بـشركة الجـسد والـدم، يقـول القـديس كيرلـس الإسكندري في الحرم الثاني عشر ضد نسطور:

[مَـن لا يعـترف أنَّ كلمـة اللّه تـألم بالجـسد، وصُـلِب بالجسد، وذاق الموت بالجسد وصار باكورةً أي البِّكر مِن الأموات، حيث أنَّه الحياة، ومُعطي الحياة كإلهٍ، فليكن محروماً] (المرجع السابق ص ٣٩).

وهكذا شرح الآباء جميعاً نهاية الرموز والإشارات لأنَّ مجيء الرب وتجسده لم يكن رمزاً، بل حقيقةً. وهبة الجسد والدم في عُلِّية صهيون لم تكُن رمزاً، بل حقيقةً. والقيامة والصعود لم يكونا رمزاً، بل حقيقةً .. لأنَّ ربنا يسوع المسيح هو حياة ونور العالم الذي لا توجد فيه ظلال ورموز بالمرة .. وإذا جاز لنا أنْ نقول إنَّ المسيح كرمةٌ، وصخرةٌ، فإن الكرمةَ استعارةٌ، وليست رمزاً، والصخرةُ كنايةً، وليست رمزاً، لأنَّ الحقيقةَ ـ أي وحدة جسد الرب، أي المسيح والكنيسة، جسدٌ واحدٌ ـ هي أعظم مِن الكرمة. وقوة وثبات الرب أعظم مِن كل الصخور والجبال.

وإذا سلمنا جدلاً برمزية سر الإفخارستيا، كان طبيعياً أنْ تثور الأسئلة الآتية:

أولاً: كيف يرمز الخبز والخمر إلى موت الرب على الصليب؟ ما هي علاقة الخبز والخمر بالمسامير والموت؟

ثانياً: كيف يرمز الخبز والخمر إلى القيامة، لأنَّنا لا نأخذ موت الرب فقط، بل قيامته مِن الأموات .. كيف يرمز الخبز والخمر إلى قيامة الرب؟

ثالثاً: كيف يرمز المسيح إلى المسيح؟ وكيف يصبح المسيح رمزاً للمسيح، أي كيف يصبح جسده ودمه في العلية، رمزاً لجسده ودمه على الصليب؟

رابعاً: إذا رمز العشاء الرباني لموت الرب يوم الجمعة، فما هو رمز القيامة، وما هو رمز حلول الرُّوح القدُّس على الرب نفسه في المعمودية في الأردن، ثم على الخبز والخمر في القداسات؟

ما هي دلالة طقس خميس العهد؟

١- ما يحذف مِن صلوات:

يحرص طقس خميس العهد على حذف: صلاة الصلح ـ عبارات مِن قانون الإيمان ـ القبلة الرسولية ـ المجمع ـ والترحيم. وهذا يؤكد لنا أنَّ جذر الخلاص قد غُرس في العلية، وأنَّ إعلان السر هو في يوم الجمعة والسبت والأحد، ولكن ما سُلِّمَ هو سر الإفخارستيا نفسه، وليس الرمز. ففي العُلِّية سَلَّمَ الرب جسده ودمه الأقدسين للتلاميذ، وهذا التسليم هو جوهر القُدَّاس نفسه، ولم يتم هذا التسليم إلاَّ يوم الخميس، ولذلك تُحذف صلاة الصلح، والعبارات الخاصة بموت الرب من قانون الإيمان؛ لأننا بذلك نعترف بكمال الخلاص الذي أسسه الرب في العلية، وننتظر إعلانه العلني يوم الجمعة والسبت والأحد. وحتى طقس يوم السبت الكبير يؤكد نفس الحقيقة.

٢- شهادة القديس يوحنا ذهبي الفم [١] :

[وليفحص كل واحدٍ مِنا ذاته قبل أنْ يتقدَّم إلى جسد ودم المسيح، لكي لا يكون له دينونة، لأنَّه ليس إنسانٌ الذي يناول الخبز والدم. ولكن هو المسيح الذي صُلِبَ عنا، وهو القائم على هذه المائدة بسر. هذا الذي له القوة والنعمة يقول: "هذا هو جسدي". وكما أنَّ الكلمة التي نطق بها مرةً واحدةً منذ البدء قائلاً اكثروا وانموا واملئوا الأرض هي دائمةٌ في كل حين، تفعل في طبيعتنا زيادة النسل، كذلك الكلمة التي قالها المسيح على تلك المائدة، باقيةٌ في الكنائس إلى هذا اليوم، وإلى مجيئه مُكمِّلةً كل عمل الذبيحة]

---

[١] عظة القديس يوحنا ذهبي الفم - باكر يوم الخميس الكبير مِن البصخة المقدسة.

ويقول طرح باكر الخميس الكبير:

"تعالوا أيها الأُمم افرحوا وتهللوا، لأنَّ الكلمة الإله صار لكم فصحاً. الفصح الأول الذي بالخروف خَلَّصَ الشعب مِن عبودية فرعون. والفصح الجديد هو ابن الله الذي خَلَّصَ العالم مِن الفساد".

ويكرر طرح الساعة الحادية عشر مِن يوم الخميس:

"اتكأ الرب يسوع المُخلِّص في الموضع العالي الذي هو عُلِّيه صهيون، واتكأ معه تلاميذه، وكانوا يأكلون الفصح الجديد الذي هو جسده هو بذاته الذي أعطاه لهم بأمر سري، والدم الكريم الحقيقي .. أخذ مخلصنا خبزاً وباركه..".

٣- شهادة الليتورجية القبطية:

وتؤكد الكنيسة القبطية هذا المعنى عندما لا يقام القدَّاس الإلهي يوم الجمعة الكبيرة، إذ يؤكد الطقس إنَّ كمال إعلان السر للعالم هو بالقيامة، لكن الذي سُلِّم للتلاميذ هو جسد ودم ربنا يسوع المسيح ذاته حسب شهادة كتب الكنيسة الطقسية. ويحرص قداس القديس باسيليوس على هذه الحقيقة مؤكداً في صلاة الخضوع بعد استدعاء الروح القدس:

"اعترفنا بآلامه المُخلِّصة، بشرنا بموته. آمنا بقيامته وكمُل السر".

وكمال السر لا يعني أنَّ السر ناقصٌ، وإنما يعني إنَّ ما أُعطي يوم الخميس هو ذات العطاء في يوم الجمعة والسبت والأحد، وإنما الذي كمُل هو الإعلان عن السر، لأنَّ السر واحدٌ لا يتغير، ولذلك بعد أنْ يذكر الكاهن كلمات الرب في العلية، أي ليلة الخميس، يوم عشاء الرب وقبل موته، يؤكد في كل الصلوات التي تعرفها القُدَّاسات الأُرثوذكسية:

"ففيما نحن أيضاً نصنع ذكرى آلامه المقدسة، وقيامته مِن الأموات، وصعوده إلى السموات، وجلوسه عن يمينك أيها الآب، وظهوره الثاني الآتي مِن السموات المخوف المملوء

مجداً: نقرب لك قرابينك مِن الذي لك (أي ذات القربان الذي قُدِّمَ يوم الخميس) **على كل حال** (حسب طقس وأسباب إقامة القُدَّاس، مثل قداس سبت الفَرح)، **ومِن أجل كل حال** (حسب الاحتياج الكنسي) **وفي كل حالٍ** (على مدى الدهورٍ). وهذا هو المعنى ذاته الذي يقوله الربٍ نفسه **"لأنَّ كل مرةٍ تأكلون مِن هذا الخبز، وتشربون مِن هذه الكأس، تبشرون بموتي، وتعترفون بقيامتي، وتذكروني إلى أنْ أجئ".**

٤- شهادة القديس كيرلس الأورشليمي:

يقول القديس كيرلس في شرحه للإيمان للموعوظين:

[يكفي تعليم الرسول المُبارَك، لأنْ يُعطي لكم اليقين الكامل الخاص بالأسرار الإلهية. وكما قال بولس في الليلة التي أُسلِم فيها، أخذ خبزاً .. وإذ قال السيد مؤكداً "هذا هو جسدي"، فمَن الذي يتجاسر ويشُك]

ويكمل القديس كيرلس كلامه مؤكداً:

[وإذا كان هو نفسه الشاهد الذي يقول "هذا هو دمي"، فمَن يتجاسر ويشُّك، ويقول إنَّ هذا ليس دمه .. بكل يقين نتناول جسد ودم المسيح، لأنَّه في علامةٍ سرائرية، أي الخبز، يُعطي جسده،وفي علامةٍ سرائرية، أي الخمر، يُعطي دمه] (العظة الرابعة على الأسرار - راجع الترجمة الإنجليزية الحديثة سلسلة آباء الكنيسة الجامعة الكاثوليكية واشنطن، ص ١٨١- ١٨٢).

وبعد ذلك يقول القديس كيرلس:

[لا تظن أنَّ الخبز هو خبزٌ عاديٌ، أو أن الخمر هو خمرٌ عاديٌ، بل هما حسب إعلان الرب، جسد ودم الرب. ومع أنَّ الحواس تقول لنا عكس ذلك، إلاَّ أنَّ الإيمان هو الذي يفهم] (المرجع السابق ص ١٩٣).

لا نأخذ الرمز، بل الحياة

لا يرمز العشاء الرباني لأحداث يوم الجمعة، وبالتالي لا يرمز للموت، ولا يرمز العشاء إلى القيامة، لأنَّ الصلب والقيامة تمَّا بعد يوم الخميس، ولكن العشاء هو هبة المحبة، وهبة حياة المسيح نفسه الذي لا ينقسم إلى أحداثٍ متباعدة.

وإذا جاز حسب فكر يوحنا كالفن، أنْ نعتبر أنَّ الخبز هو قوتٌ وطعام، والخمر هو ما يسند قلب الإنسان (مرجع سابق الكتاب ٤ فصل ١٧ كله) واجهنا سؤال عقيدي خطير ... فماذا عن القيامة؟ كيف يرمز الخبز والخمر إلى القيامة، أي قيامة المسيح؟ وكيف تجاسرت كل الكنائس الشرقية الأُرثوذكسية أنْ تقول في كل قداساتها (**بموتك يارب نبشر، وبقيامتك المقدسة**) قبل استدعاء الروح القدس، إلاَّ لكي تؤكد وحدة العطاء في علية صهيون، وعلى الصليب، وبالقيامة، وبحلول الروح القدس؟ لأن الذي يجمع كل هذا في كيانه الإلهي هو أُقنوم الكلمة المتجسد.

وإذا كان الفصح الحقيقي قد تم يوم الجمعة العظيمة، فكيف تجاسر مار افرام السرياني وذهبي الفم وغريغوريوس النيصي والقُدَّاسات على اعتبار أنَّ الذبح حدث بالنية وبالإرادة وبالمحبة الحرة؟ ... وماذا بعد قيامة الرب وصعوده إلى السماء، كيف يُعطي الرب جسده لنا؟ وكيف نقيم القُدَّاس، ونقدِّم الذبيحة غير الدموية طالما أنَّ الفصح هو يوم الجمعة فقط؟ ولماذا يصبح يوم الأحد هو أهم أيام الأسبوع، أي يوم قيامة الرب؟

الصفات الليتورجية لذبيحة الإفخارستيا

ولماذا تصر القُدَّاسات، والآباء جميعاً، لا سيما آباء القرنين الثالث والرابع على وصف ذبيحة ربنا يسوع المسيح في الإفخارستيا على أنَّها:

أ- عقلية أو ناطقة. ب- روحانية. جـ- غير دموية.

أولاً: عقلية، أو ناطقة:

"عقليةٌ، أو ناطقةٌ"، لأنها ذبيحة اللوغوس الكلمة الناطق العاقل، وحسب

صلوات قداس مارمرقس لأبينا القديس كيرلس الكبير خلق الله الآب بحكمته الكلمة الابن الحقيقي ربنا يسوع المسيح:

"هذا الذي مِن قِبَلِه نشكر، ونقرب لك (الآب) معه (الابن)
ومع الروح القدس الثالوث القدوس المساوي غير المفترق،
هذه الذبيحة الناطقة، وهذه الخدمة غير الدموية"

ثانياً: روحـانيـة:

إنَّ كلمة **"روحانية"** هي الوصف الذي نراه في صلاة القديس يوحنا ذهبي الفم في القُدَّاسات القبطية:

"أمَّا الخروف فروحيٌ، وأمَّا السكين فنطقيةٌ (عقليةٌ)، وغير جسمية"

والسكين **"النطق"** لأن الحمل هو روحاني، أي إلهي لأن الله روح (يوحنا ٤ : ٢٤) أي ذبيحة إلهية.

ثالثاً: غير دمـويـة:

"غير دموية"، وهذه الصفة تحتاج إلى بعض الإيضاح. والشائع عندنا أنَّ الخدمة غير الدموية ليست مثل خدمة الدم واللحم، أي ذبائح العهد القديم. هذا صحيحٌ وحق، ولكنه جانبٌ واحدٌ مِن الحقيقة لا يجب أنْ يُغطي الحقيقة كلها، والجانب الآخر الذي يجب أنْ نراه بكل وضوحٍ هو أنَّ تعبير "غير دموية" يعني بالدرجة الأولى سفك دم ربنا بقوة الإرادة، وسلطان أُلوهيته الذي يجعل هذا السفك عملاً إلهياً لا يقع تحت حصر الأيام والساعات، وحيث أنَّ جذوره في الأزلية نفسها، فإنَّ إعلانه في الزمان الحاضر يجعله فوق إدراك الحس الجسداني، والفهم المُقيَّد لأبعاد الزمان. ولذلك أيضاً كتب آباء القرون الأوَّل والثاني والثالث والرابع، وفي مُقدِّمة هؤلاء، القديس أغناطيوس الأنطاكي إنَّ دم ربنا يسوع المسيح وكأسه هو المحبة والبذل، فهو العنصر الإلهي الكامل في أُقنوم الابن أزلياً، والذي ظهر في عُلِّية صهيون، وعلى الجلجثة، وفي كل قُدَّاسٍ إلهي، ولعل

عبارة القديس يوحنا ذهبي الفم تكفي، فهو يقول محذراً الشعب مِن التهاون والاستهتار:

"تَقَدَّم مِن الكأس، وتنَاول كما لو كنت تشرب مِن جنب الرب الجريح على الجلجثة" (شرح إنجيل متى المرجع السابق).

وعندما يضع الكأس عند جنب الرب على الجلجثة، فهو يؤكِّد هنا الفعل الواحد، والتقديم الواحد، والذبح الواحد الأزلي الذي يتم في الزمان في يوم الخميس؛ لأنه بالإرادة. وفي يوم الجمعة؛ لأنه الإعلان العام لكل البشرية. وفي القُدَّاس؛ لأنَّه عطاءٌ خاصٌ للمؤمنين. وتتناغم صلواتنا القبطية مع هذه الحقيقة مؤكِّدةً لنا في صلاة قسمة القُدَّاس الغريغوري:

"مُبارَكٌ أنت أيها المسيح إلهنا ضابط الكل....أيها الكلمة غير المُتجسِّد. الذي مِن قِبَلِ تجسُّدك غير المُدرَك، أعددت لنا خبزاً سمائياً، جسدك المُقدَّس، هذا السري... مزجت لنا كأساً مِن كرمةٍ حقيقيةٍ، التي هي جنبك الإلهي غير الدنس....هذا الذي مِن بعد أنْ أسلَمت الروح، فاض لنا منه دمٌ وماء، هذان الصائران طُهراً لكل العالم".

وهكذا، فبتجسُّد الرب، أعدَّ الربُ الخبز السمائي، وبموته أعدَّ الكأس. وكل هذا هو الإعلان في الزمان عن تدبير الله الأزلي الذي يفوق كل أبعاد الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، لأن الإنسان خاضعٌ للزمان كمخلوقٍ، أمَّا الله فهو خالق الزمان يحركه حسب إرادته (غلاطية ٤ : ٤).

وروحانية الذبيحة تعني أنَّ مصدر الإفخارستيا ليس هو التاريخ، ولا ترتيب أحداث التاريخ، ولا الطقس نفسه، وإنما المسيح رب المجد الذي هو خالق كل الدهور وواهب الحياة لكل كائنٍ، وخالق الأحداث، ومُحرِّك التاريخ نحو غايته. وهذا هو المقصود مِن استعمال كلمةً "روحانية"، لأن الروح هو مجال عمل الرُّوح القدُّس، وهو المجال الذي يُكوِّنه ويعمل فيه الروح، أي الله نفسه (يوحنا ٤ : ٢٤). وهكذا مِن

الروح، مِن اللاهوت، ومِن عمل الله، ومِن الأزلية نفسها، وبواسطة تجسُّد الابن وصلبه وموته وقيامته، تصل إلينا هبة الجسد والدم، أي الجسد المحيي والدم الكريم.

لماذا يتمسك اللاهوت البروتستانتي بالرمز؟

إنَّ الشائع عند كل قادة الحركة البروتستانتية، إنَّ دم ربنا يسوع المسيح هو الثمن الذي دُفِعَ للآب، أي ثمن خطايانا، ولذلك السبب وحده اعتبر هؤلاء القادة أنَّ العشاء الرباني رمزٌ لما حدث على الصليب، أي لما حدث بعد يوم الخميس.

ولأن الثمن دُفِعَ على الصليب يوم الجمعة، فإنَّه يتعذر على أي بروتستانتي أنْ يقول إنَّ الدم في الكأس على المذبح هو دم ربنا يسوع المسيح، بل هو رمزٌ فقط. وهذا هو منطق حركة الإصلاح، فالدم لا يُعطى للمؤمنين، بل للآب. الدمُ ثمنٌ، وبالتالي لا يجوز أنْ يُعطى في كأس الشكر. إنَّ الكنيسة شرقاً وغرباً لم تعرف هذا الرأي إلاَّ في القرن السادس عشر، وهو عصر الإصلاح البروتستانتي. وهو رأيٌ بلا سند تاريخي، وإنما هو ثمرة الحضارة الأُوربية والفكر السياسي والقانوني الذي لا يقبل مجانية العطية. أمَّا التسليم الرسولي الذي أُودع في القداسات وفي صلوات الكنيسة الشرقية الأُرثوذكسية، فهو غير ذلك. هذا هو دم المسيح الحقيقي، وجسده الحقيقي. لماذا نأخذ دم ربنا يسوع في الإفخارستيا؟ لأنَّه قُدِّمَ لنا، ولذلك تقول ثيؤطوكية الاثنين:

"افرحوا وتهللوا يا جنس البشر
لأنَّه هكذا أحب الله العالم
حتى بذل ابنه الحبيب عن المؤمنين
لكي يحيوا به
لأنه غُلِبَ مِن تحننه
وأرسل لنا ذراعه العالية
أشرق جسدياً مِن العذراء حتى خلَّصنا"

ولم يذكر إنجيل يوحنا (٣ : ١٦) هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد

لكي يدفع ثمن خطايا البشرية حسب فكر وتعليم حركة الإصلاح. بل حسب تراثنا الشرقي الأُرثوذكسي، فقد بذل الآب ابنه لكي نحيا به، وهو ما نأخذه في الإفخارستيا حسب شهادة القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ تقول الصلاة المعروفة في قُدَّاس الروم الأُرثوذكس:

"لأنك أحببت خليقتك (عالمك)، وبذلت ابنك الوحيد، لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به، بل ينال الحياة الأبدية"

ويقول أيضاً مُعلِّمنا القديس كيرلس الكبير في شرح إنجيل يوحنا الإصحاح الثالث:

[إنَّ حديث الرب مع نيقوديموس، كان يؤكد أنَّه **بُذِلَ عن حياة العالم**، وإنَّه يجب على الهراطقة أنْ يتعجبوا مِن محبة الآب، لأنه بذل ابنه الوحيد لنا]

وعظمة المحبة الإلهية يشرحها القديس كيرلس الكبير، فيقول:

[إنَّ الابن مِن ذات جوهر الآب، ولذلك لم يبذل الآب مخلوقاً، بل ابنه الوحيد] (المجلد الأول - الترجمة الإنجليزية ص ١٧٤).

إنَّ وحدة جوهر الثالوث هي دعامة الأُرثوذكسية، وهي لا تسمح لأُقنومٍ بأن يقدم ثمناً لأُقنومٍ آخر، لأن الثالوث الواحد يملك كل الخليقة.

هل يمكن مصالحة الأُرثوذكسية مع البروتستانتية؟

في عصر الحوار المسكوني، ومجالس الكنائس الإقليمية والعالمية يبدو على سطح البيانات والمنشورات إنَّ المُصالحةَ ممكنةٌ .. نعم في حدود قبول الآخر كمسيحي، لكن ليس من أجل التنازُل عن المُمارسة التي تعود إلى العصر الرسولي قبل ميلاد حركة الإصلاح، والتي تتمثل في القُدَّاسات التي سُلِّمت في كتابات الآباء، وصلوات وقداسات الكنائس الأُرثوذكسية قاطبةً.

إننا أمام أحد اختيارين:

أولاً: إمَّا أنْ يكون العشاء الرباني رمزاً، وبذلك يجب أنْ نفهم موت الرب

بطريقةٍ أُخرى غير تلك التي شرحها الآباء، فتصبح القداسات بلا قيمة ولا فائدة غير ما نسمعه من صلوات وكلمة الله وألحان لكي نعود إلى الوراء إلى حدثٍ تاريخيٍ تم وانتهى، لا نملك إلاَّ أنْ نتذكره عقلياً من خلال الكلمات.

ثانياً: إمَّا أنْ يكون العشاء الرباني حقيقةً، وعشاءً حُراً بالإرادة والنية. هذا يعني أنْ نفهم موت الرب حسب التسليم الرسولي والآبائي؛ لأننا لا نعود إلى الوراء، إلى التاريخ، بل نعود بالروح القدس إلى رأس الكنيسة ومصدر حياتها وكيانها الرب يسوع المسيح. عند ذلك تعلن الكلمة في القراءات والصلوات والألحان ما هو كائن وحادث، وتشرح العلاقة الكيانية بين الرأس الرب يسوع المسيح والأعضاء الكنيسة. وتصبح الذكرى هنا عودة إلى المسيح حياتنا بقوة ونعمة الروح القدس وشركة حقيقية في العشاء السري.

والاختيار الأوَّل يفتح باب نظريات عقلية كثيرة جُمِعَت في كتب تاريخ العقيدة *History of Doctrines* عن موت المسيح، وتحصر الفداء في علاقة الآب والابن، ويكتفي الإنسان فقط بالذكرى العقلية التي تُستَمد مِن كلمة الله والرموز، والعشاء الرباني هو أحد هذه الرموز.

والاختيار الثاني يجعل ضرورة نوال حياة المسيح نفسها، والشركة في موته وقيامته والاتحاد به سرياً أو سرائرياً هو مسألةُ حياةٍ أو موتٍ؛ لأن العقلَ لا ينال ما يُفكِّر فيه ما لم يكن لدى الله الرغبة والإرادة في العطاء. وحسب الرأي الأوَّل أو الاختيار الأوَّل، دفع الابن دمه للآب، وبالتالي فهو لا يظهَرُ إلاَّ رمزاً في الكأس. وحسب الاختيار الثاني أعطانا الابنُ دمه المُقدَّس لكي نحيا به، ولكي نناله في السر المُقدس.

شهادة القديس يوحنا ذهبي الفم عن دم المسيح

الدم هبةُ حياةٍ:

[والآن، الذي يهب الحياة للآخرين بموته، هل سيبقى هو نفسه تحت سلطان الموت إلى الأبد؟ وإذا كان الذين يؤمنون بالمسيح المصلوب لا يهلكون، فإنَّه مِن المستحيل على مَن صُلِبَ أنْ يهلك. وحقاً إنَّ الذي حرر الآخرين مِن الهلاك هو قادرٌ على أنْ يظل حُراً. الذي يقدِّم الحياة للآخرين هو قادرٌ على أنْ يفعل أكثر مِن ذلك لذاته. لقد أعلن إنَّ الصليب هو مصدر الحياة، وهي حقيقةٌ لا يقبلها المنطق بسهولة، لأنَّه ـ حتى الآن ـ يسخر الوثنيون مِن الصليب. ولكن عندما يتخطَّى الإيمان ضَعف المنطق، يُصبح قادراً على أنْ يقبل الصليب].

(عظة ٢٧ على إنجيل يوحنا ٣ : ١٢ـ١٦ الترجمة الإنجليزية الحديثة ـ الجامعة الكاثوليكية ـ واشنطن مجلد ٣٣ ـ آباء الكنيسة ـ طبعة ١٩٥٧ المجلد الأول ص ٢٥٦).

ويقول ذهبي الفم بعد ذلك:

[لقد أعطى حياته لنا، وسفك دمه الثمين لأجلنا]

(المرجع السابق ص ٢٦٥).

كما يقول ذهبي الفم أيضاً في نفس العظات على إنجيل يوحنا عن دم ربنا يسوع المسيح:

[أحياناً يثق الآباء في آخرين لكي يقدموا لهم الطعام، ولكن المسيح فعل أكثر مِن ذلك، لأنه يقول: أنا أُغذِّي الذي ليَّ بجسدي، أنا أُعطي نفسي لكم، لأني أشتهي أنْ يكون للكل ميلادٍ ملوكيٍ، وأنا أحفظ لكم مواعيداً أعظم في المستقبل، لأن الذي يُعطي ذاته لكم هنا في هذه الحياة، سوف يُعطي أكثر، ويفعل أكثر في الحياة الآتية. أريد أنْ أكون أخاً لكم لأنني لأجلكم قد أخذتُ جسداً ودماً، ولكنني أُعطي لكم ذات الجسد وذات الدم الذي

صار لي به معكم صلة القرابة (رابطة اللحم والدم). هذا الدم يجعل ختم الملك المسيح يلمع فينا، ويخلق جمالاً لا يوصَّف، ولا يجعل جمال النفس الإنسانية يفسد، لأنَّه يُنعش ويُغذِّي النفس بلا انقطاع] (المرجع السابق ص ٤٦٩).

هذا ما يفعله دم ربنا يسوع المسيح فينا، إذ يقول ذهبي الفم بعد ذلك مباشرةً:

[إنَّ الدم الذي يتكون في أجسادنا بواسطة الطعام، يمر بعدة مراحل قبل أنْ يُصبح مصدر غذاءٍ. أمَّا هذا الدم، فهو ليس كذلك، لأنَّه يُنعش النفس على الفور، ويغرس قوةً في النفس، وعندما نتناول هذا الدم باستحقاق، يطرد هذا الدم الشياطين، ويجعلهم بعيدين عنا، بل إنَّه يُحضِر الملائكة ورب الملائكة. هذا الدم الذي سُفِكَ بوفرةٍ غسل العالم كله، وجعله طاهراً. وحقاً نطق بولس حقائق كثيرة عن هذا الدم في الرسالة إلى العبرانيين (عب ص ٩). هذا الدم هو خلاص نفوسنا، لأن النفس به تتطهر، وتُصبح جميلةً، بل تشتعلُ (بنارٍ)، وتجعل الذهن (الإدراك) أسطع مِن نور النار، ويجعل النفس تُشرِق بلمعانٍ يفوق لمعان الذهب. هذا الدم قد سُفِك لكي يفتح الطريق إلى السماء]
(المرجع السابق ص ٤٦٩- ٤٧٠).

وقارن بين الجمال والقوة والنعمة في هذا التعليم، وبين التعليم عن الاستعداد الجسداني، وغسل الأسنان، وقص الشعر، وما إليها مِن أُمور ساذجةٍ لا تُعطي للحياة الداخلية أية مقومات، ولا تجعل النعمة الإلهية تُشرِق في داخلنا. صحيحٌ أنَّ الاستعداد الجسدي، يجعل الجسد نظيفاً، لكن ماذا عن الاستعداد الداخلي؟ أليس هو نقاء وطهارة القلب بنعمة الرُّوح القدُّس، أم هو الاكتفاء بالنوم على وسادة طهارة الجسد الخاوية؟!

وفي العظة ٢٤ على الرسالة الأولى إلى كورنثوس يقول ذهبي الفم:

[أقول لكم الآن إذا كان رداء أي إنسانٍ منَّا نلمسه بكل احترام، فماذا نقول عن جسد اللّه الكائن فوق الكل الذي بلا عيب، الطاهر والمُتحِّد بالطبيعة الإلهية، الجسد الذي به

نحيا، والذي حطم أبواب الجحيم، وفتح لنا مقادس السماء مِن فوق. كيف نتناوله بدون هيبةٍ. أرجوكم أنْ تتقدموا بكل احتراسٍ، بل بكل تقوى وخوف ونقاء نقترب منه، وعندما ترى الجسد أمامك، قل لنفسك: بسبب هذا الجسد، لم أعُد تراباً ورماداً، ولم أعُد سجيناً، بل حُراً، بسبب هذا الجسد أجد الرجاء في السماء، هذا الجسد الذي سُمِّرَ بالمسامير، وجُلِدَ، كان أقوى مِن الموت، وعجز الموت عن أنْ يسود عليه، لأن هذا الجسد عندما صُلِبَ احتجبت الشمس، وأخفت أشعتها، وانشق حجاب الهيكل في لحظةٍ، وتفتت الصخور، وارتعدت الأرض وتزلزلت. هذا الجسد الذي تخضب بالدم مِن طعنة الحربة، نبع منه ينابيع الخلاص، ينبوع الدم، وينبوع الماء مِن أجل العالم كله. وفي مناسبةٍ أُخرى جاءت المرأة نازفة الدم، ولم تلمس الجسد، بل طرف، أو هُدب ثوب الرب الذي كان يلبسه، وشفيت. اسأل البحر الذي حمله على ظهر أمواجه عندما سار على المياه، بل اسأل الشيطان نفسه ماذا حدث لقوتك المدمرة، كيف صرت أسيراً؟ وكيف، ومَن الذي أسرك في الصراع؟ وسوف يجيب الشيطان إجابةً واحدةً: جسد يسوع الذي مات على الصليب. بل اسأل الموت، ماذا حدث لشوكتك؟ ومَن الذي نزع هذه الشوكة؟ مَن غلبك وحوَّل انتصارك إلى هزيمةٍ، بل قطعك إرباً؟ لقد صرت أيها الموت هُزءاً، وضحكاً للأطفال والبنات، لأن هؤلاء لم يعُد في قلوبهم خوفٌ أو رعبٌ منك، وأجاب الموت بكلمةٍ واحدة (الجسد)....ولكن عندما صُلِبَ الرب، وقام الموتى، ودكَّ الصليب سَجَنَ الجحيم، وحطم أبوابه النُحاس، وقام الموتى، صار هذا الجسد هو الذي يُعطى لنا لكي نمسك به في أيدينا ونأكله، هو مصدر حرارة المحبة] (راجع المجلد ١٢ من مجموعة آباء ما بعد نيقية ص ١٤٢- ١٤٣).

ما بين خميس العهد، وجمعة الصلبوت

إذا كان الرب قد قدَّم جسده ودمه للتلاميذ في عُلِّية صهيون، فما هي العلاقة بين التقديم الحُر، وبمحبةٍ حُرةٌ، وبين ما حدث على الصليب؟

أولاً: كانت إرادة الابن سابقةً على كل أبعاد الزمان. وما حدث في الزمان كانت جذوره في إرادة الثالوث يعلنها كل أُقنومٍ حسب مناسبة الإعلان الأزلي، ولذلك فالتقديم واحدٌ، لأن الإرادة واحدة، والنية واحدة، والتقدمة واحدة، والكاهن واحد. ومع أنَّ أحداث الزمان متتابعة ومختلفة، إلاَّ أنَّ الشخص واحدٌ، لأن يسوع المسيح هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد. ولذلك مِن الخطأ أنْ نظن أنَّ الرب قدَّم ذاته مرتين، أو ثلاث، أو غيره، بل تقدمةً واحدةً تفوق كل أحداث الزمان، لأن المُقدِّم، والتقدمة هما واحدٌ، وهما شخص وأُقنوم الكلمة ابن الله خالق الزمان كله. وهذا هو العنصر الأبدي أو الخط الأبدي الذي نراه في كل صلواتنا الأُرثوذكسية، مؤكِّدةً لنا أننا أمام وفي حضرة الإله المساوي والجليس على عرش اللاهوت مع الآب والروح القدس.

ثانياً: وإذا تتابع الزمان، وجاء يوم الجمعة بعد يوم الخميس، وجاء بعد ذلك يوم الأحد، أي يوم القيامة، فإننا لا نستطيع أنْ نتصور ربنا يسوع المسيح في يوم الخميس، بصورةٍ تختلف عن صورته يوم الجمعة، وعن يوم الأحد. إنَّ هذا يجعل المسيح خاضعاً لأحداث الزمان، تُغيِّره هو، بينما هو الذي جاء لكي يُغيِّر أحداث الزمان، ويجدد الأيام؛ لأنه خالق كل الأشياء.

أمَّا تعاقُب الأحداث، فنراه حسب التسليم الرسولي هكذا:

١ـ تقدمةٌ حُرةٌ في عُلِّية صهيون، وبمحبةٍ حُرةٍ في يوم الخميس.

٢ـ إعلانٌ عن هذه الحرية في مواجهة العداوة والبغضة، وقبول الموت لكي يُباد الموت. وهكذا يأخذ الرب معه، وهو ذاته تقدمة المحبة والحرية لكي يواجه القسوة والعنف. وكما غيَّر فصح إسرائيل القديم، هكذا غيَّر الموت نفسه، وحوَّله إلى عطية حياةٍ بالقيامة. حقاً لقد نسخ الربُ الفصحَ اليهودي بالإفخارستيا يوم

الخميس، ونسخ موت آدم بالصليب يوم الجمعة، وأبطل عز الموت، وذبح ذلك الذي كان يذبح كثيرين. وقد أخذنا عن القديس كيرلس الإسكندري تعبير **"ذَبَحَ الموت"** إذ يقول في تفسير إنجيل يوحنا

"وبموت جسده، ذبح الموت

"By the death of his own flesh He slew death

(راجع الترجمة الإنجليزية مجلد ٢ ص ٦٧٥ شرح إنجيل يوحنا ٢٠ : ٢٢).

وهنا تظهر العلاقة الوثيقة بين العُلِّية والجلجثة، فعطاء المحبة لجماعة التلاميذ هو عطاءُ تأسيس السِّر للفئة المُختارة وشهود المحبة. وعطاء المحبة على الصليب هو عطاءٌ علنيٌ لكل الخليقة يشرح ويحمل عطاء العُلِّية إلى قلب مشكلة كل الناس، وهي مشكلة الموت. ولعل مكونات الليتورجية هي التي تشرح هذا بشكل مباشر، حين يسبق الكلام عن الإفخارستيا، الاعتراف والتسبيح بخلق العالم ـ السقوط ـ مجيء الرب وتجسُّده ـ موته وقيامته، ثم يبدأ الكاهن في الإعلان عن عشاء الرب بعد الاعتراف بموت الرب وقيامته؛ لأن العشاء يجمع كل هذه معاً، لأنه الرب نفسه الذي وُلِدَ، ومات، وقام، وقدَّم جسده ودمه. وهكذا يؤسِّس الرب في كل مرحلةٍ مِن مراحل حياته عطيةً، وهبةً معينةً، هبةٌ حُرةٌ يوم الخميس، وهبةٌ حُرةٌ يوم الجمعة، هبةٌ لفئةٍ مُختارةٍ، وهبةٌ للجنس البشري، ويبقى هو الواهب الواحد الذي لا ينقسم.

الخلاصة

لقد قدمنا تراثنا الأُرثوذكسي الذي يتحدى في وضوحٍ ظاهرِ التعليم الغير الأُرثوذكسي الذي يريد أن ينزع صفة الشرعية الرسولية عن القًداسات. لو أن الإفخارستيا هي رمزٌ، لَوَجَبَ أنْ نبطل كل ما جاء في قداساتنا، وأنْ لا نستعد بالصلاة والصوم للتناول. ولكن بما أننا نسعى إلى الشركة في الجسد والدم، فإننا ندرك أنَّ السر تم كاملاً حسب حرية الله ومحبته في يوم الخميس، ثم أُعلِن كاملاً وعلناً يوم الجمعة. والموضوع الرئيسي والأهم، هو كيف نتحدث عن الخلاص بأُرثوذكسيةٍ تحفظ لنا شخص المسيح الواحد الذي لا ينقسم إلى ناسوت ولاهوت، موت وقيامة، بل حسب كلمات التقوى الأُرثوذكسية: **"نؤمن برب واحد يسوع المسيح"** الذي في حضن الآب، ومعنا، وبه وفيه ننال قوة الصليب المحيي، ومجد القيامة عندما نتحد به في السر المجيد.

المراجع[1]

أولاً: المراجع العربية

– الكتاب المقدس.

– الكتاب المقدس ـ الترجمة العربية الجديدة ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

ـ الكتاب المقدس ـ المخطوطة العربية رقم ١٥١ بدير سانت كاترين ـ نشرها Harvey STAAL 1985.

– الكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ الجزء الأول ـ البشائر الأربع ـ ترجمة عن القبطية بإشراف المرحوم الأستاذ حبيب جرجس مدير الكلية الإكليريكية ـ ديسمبر ١٩٣٥م.

– الخولاجي المقدس ـ جمع وترتيب القمص عبد المسيح المسعودي البراموسي ـ الطبعة الأولى ١٩٠٢م ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٢ ـ دير السيدة العذراء (براموس).

ـ الأبصلمودية السنوية المقدسة.

– الأجبية ـ كتاب السبع صلوات الليلية والنهارية.

ـ الإفخولوجيون الكبير ـ طبعة ١٩٥٥م.

ـ قاموس اللغة القبطية ـ المرحوم أقلاديوس لبيب.

ـ قاموس اللغة القبطية ـ الأربعة أحرف الناقصة في قاموس أقلاديوس لبيب ـ إدمون هنري عبد الملك ـ ١٩٩٧م.

ـ الدسقولية ـ تعاليم الرسل ـ إعداد وتعليق وتقديم د. وليم سليمان قلادة الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

ـ تجسد الكلمة ـ للقديس أثناسيوس الرسولي ـ ترجمة القمص مرقس داوود.

ـ الرسالة ضد الوثنيين ـ للقديس أثناسيوس الرسولي ـ ترجمة القمص مرقس داوود.

ـ تجسد الكلمة ـ للقديس أثناسيوس الرسولي ـ ترجمة د. جوزيف موريس فلتس ـ المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة ـ ٢٠٠٢م.

ـ الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون ـ للقديس أثناسيوس الرسولي ـ مركز دراسات الآباء ـ مايو ١٩٩٤م.

ـ حياة أنطونيوس ـ للقديس أثناسيوس الرسولي ـ عدة طبعات.

ـ رسائل القديس أنطونيوس ـ دير القديس أنبا مقار ـ مايو ١٩٧٩م.

ـ كيرلس الأورشليمي ـ العظات ـ سلسلة أقدم النصوص المسيحية ـ تعريب الأب جورج نصور ـ رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط ـ الكسليك ١٩٨٢م.

---

[1] هذا بخلاف العديد من المراجع العربية والأجنبية التي أشير إليها في مكانها في متن هذه الدراسة.

ــ كيرلس الأورشليمي ـ ترجمة القمص تادرس يعقوب ملطي ـ كنيسة مار جرجس باسبورتنج ـ الإسكندرية ـ ١٩٧٠م.
ـ فصول في الصلاة والحياة الروحية ـ إيفاجريوس البنطي/ مرقس الناسك ـ سلسلة آباء الكنيسة رقم ٥ ــ منشورات النور / لبنان ١٩٩٠م.
ـ يوحنا الدمشقي ـ مائة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي ـ تعريب الأب أدريانوس شكور ـ منشورات المكتبة البولسية ـ ١٩٧٣م.
ـ الأسقف يوحنا زيزيولاس ـ الوجود شركة ـ مركز دراسات الآباء ـ مايو ١٩٨٩م.
ـ الأب ألكسندر شيمان ـ من أجل حياة العالم ـ تعريب الأرشمندريت توما (بيطار) ــ منشورات النور ـ لبنان ١٩٩٤م.
ـ د. جورج حبيب بباوي ـ معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ـ ١٩٨٤م.
ـ د. جورج حبيب بباوي ـ المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية ـ الكتاب الأول ١٩٨١م.
ـ د. جورج حبيب بباوي ـ المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي ـ الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
ـ د. جورج حبيب بباوي ـ الصلب والصليب، حقيقة أم خرافة ـ ابريل ١٩٩٧م.
ـ د. وهيب قزمان بولس ـ النعمة عند القديس أثناسيوس ـ مركز دراسات الآباء بالقاهرة ـ ١٩٩٣ / ١٩٩٤م.
ـ قداسة البابا شنودة الثالث ـ مجموعة تأملات في أسبوع الآلام ـ خمسة كتب ـ الطبعة التاسعة مارس ١٩٩٤م.
ـ قداسة البابا شنودة الثالث ـ الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي ـ عدة طبعات.
ـ قداسة البابا شنودة الثالث ـ لماذا نرفض المطهر؟ ـ عدة طبعات.
ـ الأنبا بيشوي مطران دمياط وسكرتير المجمع المقدس ـ عقيدة الكفارة والفداء وإعلان محبة الله وعدله على الصليب ـ ٢٠٠٠م.
ـ الأنبا بيشوي مطران دمياط وسكرتير المجمع المقدس ـ العلاقة بين الأقانيم الثلاثة ـ محاضرة مسجلة على شريطي كاسيت ـ مؤتمر الحياة الكنسية ١٩٩٨ ـ أسقفية الشباب.
ـ تفسير سفر اللاويين ـ للقمص تادرس يعقوب ملطي ـ كنيسة مار جرجس باسبورتنج بالإسكندرية ـ الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
ـ مذكرات على سفر اللاويين ـ تشارلز ماكنتوش ـ تعريب المرحوم ناشد ساويرس ـ الطبعة الثالثة ١٩٥٥م ـ مكتبة الإخوة ـ جزيرة بدران ـ شبرا ـ مصر.
ـ علم اللاهوت النظامي ـ دار الثقافة ـ ١٩٧١م.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- A. Byatt, New Testament Metaphors, 1995, p 188.
- A. Mc Mrath, A History of the Christian Doctrine of Justification, Cambridge iversity Press, 1986.
- A. Deissmann, Light from the Ancient East, 1927, p535 and N. Turner "Christian Words, 1980, p513 and a Grammatical Insight inte the NT, 1965 p198.
- Ambrosiastri Qui Dictur Commentarius Epustulos Paulinos, ed by H. Vogele, vol 81,p 81.
- A. M. Hunter, Paul and his Predecessors 1961, pp 52 ff.
- A. A Scott, Christianity according to Paul 1927, p 120.- H. L. Gaudie,
- A. Oepke, Der Brief des Paulus an die Galater, 3rd ed. Berlin 1969, p 58.
- A. R. George, Communion with God in the New Testament, 1953.
- A. Wikenhauser, Dauline Mysticism, 1960.
- Augustine on Romane, ed by Paula F. Londes, p 9.

- C. Baxter, The Cursed Beloved: A Reconsidration of the Penal Substitution pp. 54tt in Atonement today, ed by O. Goldingay, SPCK 1995.
- C. K. Barrett, The Epistle to the Romans, 1957, pp 75 tt.
- C. H. Dodd, Bible and Greeks, p 52.-.J. A. Ziesler, op cit p 47.
- C. Spicq op cit vol. 2, pp 262 tt.
- C. B. Cousar, A Theology of the Cross, 1990, p39.
- Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum, Vienna, 1866
- Calvin's Commentaries, The Epistles of Paul the Apostle to the Romans. 1972 p:183 - 184.
- Commentatius in Omnes. Pauli Epistolas, ed by C. Marriott and J. H. Parker, Oxford, 1852, vol. I, 341.

- Dictionary of OT Theology and Exegesis Vol. 2: p689.

- E. Gilson, History of Christian Philosophy in Middle ages, 1978, p p 78-9. Also M. Clark, Augustine Philospher of Freedom, 1958, p 45
- E. Gilson, introduction `a l` etude de st. Augustine, 1949, p 185-216.
- E.W. Lane, Arabic - English Lexicon vol z, p2620.
- E. Best, One Body in Christ, 1955.

- F. Lyall, Slaves, Citizens, Sons, Legal Metaphors in the Epistles, 1984, p145-146.

- G. Lampe, Greek Patristic Lexicon p162.
- Gregory of Nysia: Commentary on the Song of Songs, translated by C.- Mc Camblery - Hellenic College Press, 1987.
- G. F. Snyder, Current Issues in New Testament Interpretation, 1962, pp 160-177.

- Hastings Rashdall, The Idea of the Atonement in christian theology, 1919, pp 29-37, 49-56.

- Interpretatio Omnium Epistularum, ed, F. Field. Oxford, 1849, vol. 4, 45.

- John Neville Figgis, The Political Aspects of St. Augustine's "City of God" 1921.
- John tr v. 7 Serm 90:6 - 93:5 - 165:4 Epist 183:1-3 - De spir et lit 32:56. Exp. quar prop Ex Ep. ad rom 22. -- ad simpl 1: 2,3 -- Serm 131:9 -- sem 292:6 -- epise 160:21 -- De grat. et libarb 6:13 -- De spir. et litt 32:56 -- In John tr 3:9
- J. A Stoopio, Die Deiticatio Hominis in Die Sermones en Epistula van Augustins, 1955 and A. capanaga le Deiticacion en la soteriologia augustiniana".
- J. A. Zilesler, op cit p 156.
- J. Danielou, Bible and the Liturgy pp 44 tt.
- J. Milgrom, Studies in Cultic Theology and Terminology, 1983.

- K. Rahner, Theological Investigation vol 15, Penance in the easter church, Tertullian's Theologis of penance.,p125ff

- Luther's Works, vol. 22.Sermons on the Gospel of St. John.Chapter 1-4, ed by Jaroslav Pelikan, Cancordia Publishing House, 1957, p 168.
- Le Dogme de la Redemption Chez St. Augustin, 3rd ed. Paris 1933, pp37tt.

- Monologion, ed by Schmitt, p I.8.9

- Notes on the Epistles of St. Paul, 1910, p 212-13.

- Origen, Commentarri in Epistulam ad Romanos ed by T. Heither,1990 - vol 2 : 112.

- P. Bonnard, The Epistle of St. Paul to the Galatians, 1953, 82.
- P. Harkins, St. John Chrysostom, Baptismal Instructions, 1963.

- Robert S. Franks, the work of Christ. A Historical study of the Christian Doctrine, Thomas Nelson, London, 1962 p 77-78.
- R. Schackenburg, Baptism in the Thought of St. Paul, English trans, pp 30 tt.
- R. Schackenburg, Baptism in the Thought of St. Paul, English trans, pp 30 tt.
- The Vocabulary of the Greek N.T. 1914, p 162 f.
- The First Epistle to the Christiane, 1903, p 45.
- The Distinctive Ideas, pp 162-165.
- The Coptic Version of the New Testament 1905. Ed by G. Horner.
- The Bible and The Liturgy pp 47-48.
- Theologie du judeo - christianisme, 1964 p 29.

- W. Skeat, Etymological Dictionary 1953 p187.
- W. Eichrodt, theology the OT, vol 2: 81-89.
- Willem A. Van Gemeren, New International Dictionary of Old Testament Theology and Exegesis, vol 2



دكتور جورج حبيب بباوي

* ولد في القاهرة عام ١٩٣٨
* تتلمذ على القمص مينا المتوحد (قداسة البابا كيرلس السادس) لمدة ثلاث سنوات.
* التحق بالكلية الإكليريكية ـ القسم العالي ١٩٥٧
* عُين معيد بالكلية الإكليريكية.
* درس في جامعة كامبريدج وحصل على درجة الماجستير والدكتوراه ١٩٧٠
* سكرتير رابطة معاهد اللاهوت بالشرق الأوسط.
* سكرتير لجنة الحوار اللاهوتي مع الكنيسة الكاثوليكية.
* مدرس في معاهد اللاهوت الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية بمصر ولبنان.
* وكيل القسم المسائي الجامعي ـ الكلية الإكليريكية ـ القاهرة.
* مدرس بجامعة برمنجهام ١٩٨٤
* مدرس بجامعة نوتنجهام ١٩٨٤ ـ ١٩٩٩
* عميد معهد اللاهوت الأرثوذكسي ـ جامعة كامبريدج إنجلترا.
* مدرس بقسم الدراسات العليا ـ جامعة كامبريدج ـ إنجلترا.
* عميد معهد اللاهوت الأرثوذكسي ـ إنديانا ـ أمريكا.
* نشر العديد من المقالات في الدوريات والمجلات الدراسية.
* ترجم بعض كتب الآباء إلى اللغة العربية.
* خدم مع رئيس الأساقفة أنطوني بلوم ـ مطران غرب أوروبا الأرثوذكسي.
* خدم مع الأسقف كاليستوس وير أستاذ الآباء بجامعة أوكسفورد.
* حاضر في جامعات: كامبريدج ـ أوكسفورد ـ لند (السويد).
* أستاذ زائر في جامعات أمريكا.

